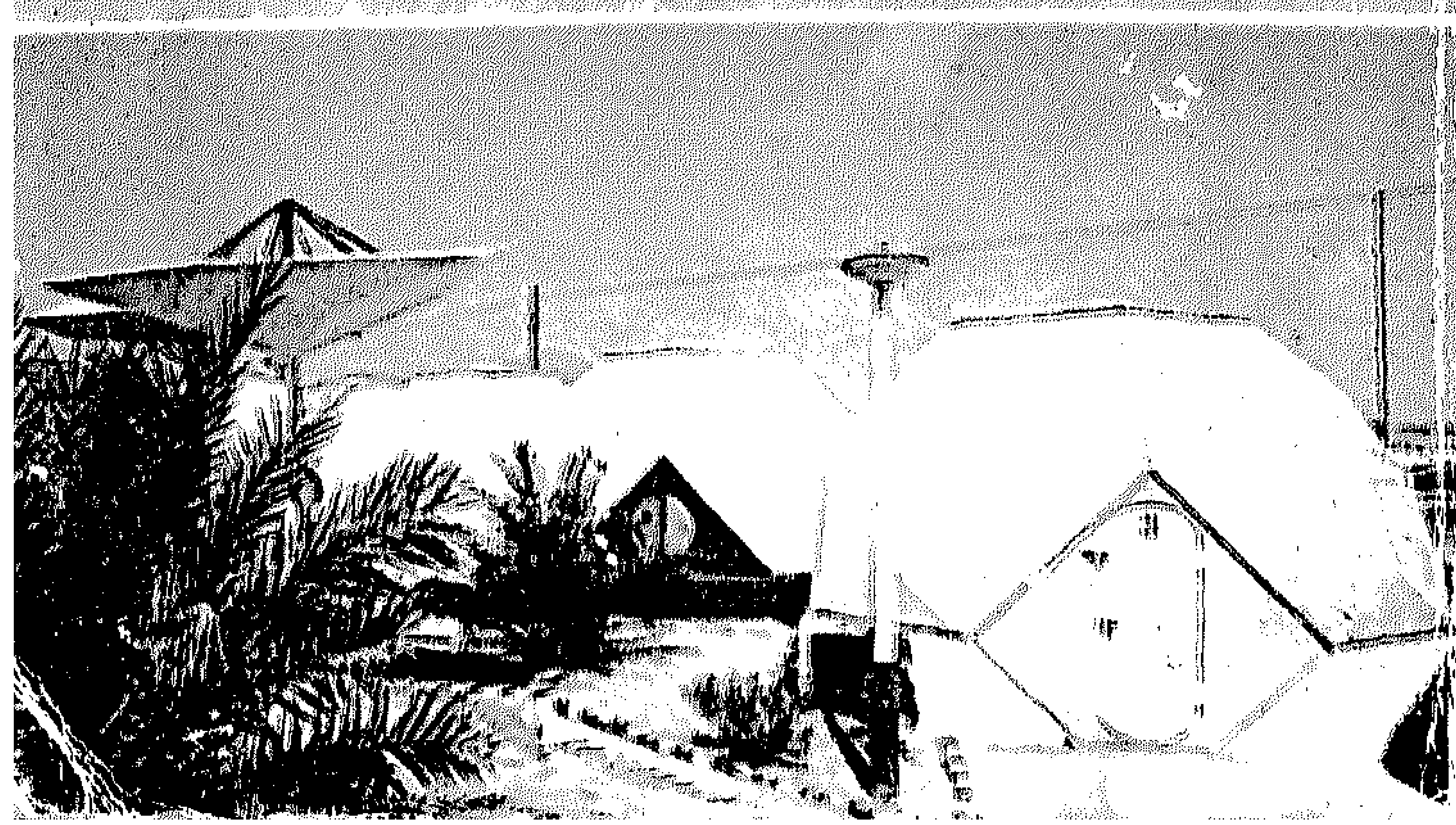

Bibliotheca Alexandrina
0136410

سيناء

د. جمال حمدان

كتاب الهلال





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

NO . 511 - JNL - 1993 العدد ٥١١ - محرم - يوليو ١٩٩٣

FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرش

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٦٦٠٠ ليرة - الأردن ٢٤٠٠ فلسا - الكويت ١٢٥٠ فلسا السعودية ١٢ ريال - تونس ٢ دينار - المغرب ٢٥ درهم - البحرين ١٫٢٠٠ دينار - الدوحة ١٢ ريال - دبي / أبوظبي ١٢ درهم - مسقط ١٫٢٠٠ ريال - غزة والضفة والقدس ٢ دولار - لندن ١٫٥٠ جك .

سيناء

بقلم

د . جمال حمدان

تقديم

د . احمد أبو زيد

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب



مقدمة

بقلم الدكتور / أحمد أبو زيد

أستاذ الأنثربولوجيا بجامعة الإسكندرية

تحظى مدرسة الجغرافيا فى مصر بسمعة عالية ومكانة مرموقة فى الأوساط الأكاديمية فى مصر والعالم العربى ، بل إن عددا من أعضاء هذه المدرسة احتلوا مراكز ومناصب دولية ممتازة فى بعض منظمات الأمم المتحدة المتخصصة أو مناصب وزارية فى مصر ذاتها ، ولكنهم جميعا لم ينسوا أبداً أنهم جغرافيون بالتخصص وأكاديميون بحكم الدراسة الطويلة والتدريب الشاق والقيم العلمية السامية التى غرست فى نفوسهم وعقولهم وأصبحت تمثل طبيعة ثانية تتحكم فى دراساتهم وبحوثهم بل وفى نظرتهم إلى الحياة ذاتها . ويرجع معظم الفضل

في التمثل بهذه القيم إلى الرواد الأوائل من الجغرافيين الذين حرصوا على أن يقوم ذلك التخصص على أسس قوية ومتينة وراسخة من الدقة والتعمق في الدراسة والبحث واتباع أحدث أساليب ومناهج البحث الجغرافي ومتابعة التطورات والتغييرات في المداخل الدراسية مع الحرص في الوقت ذاته على كتابة نتائج هذه الدراسات والبحوث بأسلوب عربي رصين وعبارة دقيقة محكمة وواضحة مع الإحاطة بقدر الإمكان بالتخصصات الأخرى، التي قد تكون لها علاقة بالجغرافيا بطريق مباشر أو غير مباشر على اعتبار أن هذه العلوم والتخصصات قد تساعد على إلقاء مزيد من الضوء على الموضوعات الجغرافية التي يتناولونها في كتاباتهم وتؤدي إلى قدر أكبر من العمق ومن الفهم ومن هنا اتسمت كتابات هؤلاء الجغرافيين الأوائل وبعض تلاميذهم بالوضوح والشمول والعمق كما هو الحال في أعمال مصطفى عامر ومحمد عوض وسليمان حزين وعباس عمار ومن بعدهم علماء من أمثال محمد محمود الصياد وعبد العزيز كامل وغيرهم،

وإلى هذا الفريق من العلماء الجغرافيين المصريين الذين جمعوا بين عمق التخصص واتساع النظرة والقدرة الفائقة على التعبير ينتمى جمال حمدان بكتاباته الكثيرة المتنوعة التى تتراوح بين جغرافيا المدن والجغرافيا السياسية والسكان والجغرافيا الاقتصادية والتاريخية وغيرها مما يدل على تعدد جوانب فكره الجغرافى الذى بلغ ذروته فى كتابه الرائع العميق ذى المجلدات الأربعة عن «شخصية مصر» وما يتصل بهذا الكتاب من أعمال أخرى تدور حول الشخصية المصرية والقومية من مدخل جغرافى واضح وصريح .

ففى كل هذه الكتابات ، لم ينس جمال حمدان أنه جغرافى بالتخصص وأن الجغرافيا هى فى آخر الأمر علم الأمكنة أو علم الأماكن على الرغم من كل ما يقال ـ وهو قول صحيح وسليم ـ عن اتساع مجالاتها وتنوعها . فالمهم هو البحث عن الأنماط المكانية المختلفة والمتغيرة وعن علاقات الظواهر المكانية التى تؤلف عالم الإنسان وبذلك تعتبر الجغرافيا علما اجتماعيا بالمعنى الدقيق للكلمة، وإن

كان البعض يرون أن مجالها أوسع وأكبر من ذلك بكثير حيث نجد فى الجغرافيا الطبيعية مثلا ميادين وموضوعات متباينة تتجاوز مجالات العلم الاجتماعى وأنشطته مثل علم الخرائط وعلم المناخ بل وبعض مجالات الجغرافيا الحيوية biogeography والجيومورفولوجيا التى تهتم بدراسة طبيعة وعمليات تطور ملامح سطح الأرض وغير ذلك من العلوم التى تخرج فى طبيعتها ومناهجها وأساليب تفسيرها عن مجال العلم الاجتماعى . ومن هنا كان لكتاب «شخصية مصر» عنوان فرعى يكشف عن الأساس الجغرافى الذى ترتكز عليه دراسة جمال حمدان للموضوع رغم تأثره واستعانته بكثير من المعلومات والتفسيرات المستمدة من التخصصات الأخرى ، وهذا العنوان الفرعى الكاشف لشخصية مصر هو «دراسة فى عبقرية المكان» .

والنظرة السريعة إلى «فهرس» الجزء الأول من كتاب «شخصية مصر» خليقة بأن تعطى القارىء فكرة واضحة عن مدى اتساع نظرة جمال حمدان إلى الأمور مع عدم

خروجه عن موضوع تخصصه الدقيق . وإذا كانت مقدمة الكتاب أقرب فى طبيعتها إلى الدراسة الأنثربولوجية الاجتماعية الثقافية وذلك تحت عنوان «فى الشخصية الاقليمية» - وهى عبارة تذكرنا بدراسات الأنثربولوجيين عن الشخصية القومية أو الطابع القومى - فإن بقية أجزاء هذا الجزء الأول تقدم لنا جمال حمدان فى تخصصه الجغرافى الدقيق الأصيل . لأن ذلك الجزء مخصص كله لدراسة «شخصية مصر الطبيعية» وفيه يتدرج من الحديث عن «من الجيولوجيا إلى الجغرافيا» حيث يدرس ملامح أرض مصر وتاريخ حياة النهر والتغيرات التاريخية لهذا النهر ثم «وجه مصر» لكى ينتقل للحديث فى باب ثان عن دراسة الصحراوات دراسة جغرافية طبيعية تتعرض للملامح الفيزيقية للصحراء الغربية وأقاليم هذه الصحراء ثم الصحراء الشرقية وأقاليمها قبل أن يخصص فصلا طويلا هو الفصل العاشر لدراسة (سيناء) ـ وهذا الفصل هو الذى تعيد دار الهلال نشره فى هذا المجلد الذى بأيدى القراء الآن الذى نقدم له بهذه المقدمة . ثم ينتقل جمال

حمدان فى باب ثالث إلى الحديث عن وادى النيل فيتكلم عن فيزيوغرافية النهر ومورفولوجية الوادى ثم الوادى والفيوم ثم الدلتا . وكما هو واضح من هذا العرض السريع فإن جمال حمدان يقدم لنا فى هذا الجزء الأول الأساس الجغرافى الفيزيقي لمصر المكان ، وذلك قبل أن ينتقل فى الأجزاء التالية إلى مصر الإنسان أو مصر البشر أو ما يسميه شخصية مصر البشرية بكل ما تحمله هذه الكلمة من تجانس ووحدة وحضارة ونظام ، وانعكاس هذا كله فيما يطلق عليه تعبير «شخصية مصر السياسية» على مر العصور، ويعتبر ذلك أساساً لدراسة البناء الحضارى الذى ينظر فيه إلى مصر على أنها (قلب العالم) وعلى أنها هبة النيل مع تباين الأسماء والأقوال التى قيلت حول هذا الموضوع ومدى ما فى هذه العبارة من صدق وإن كان الكثيرون يتقبلونها على أنها أمر مسلم به .

وينتقل الكتاب «شخصية مصر» من هذا الجزء الثالث الذى يدور حول «شخصية مصر التكاملية» سواء فى مجال الاقتصاد حيث تتمثل ملامح شخصيتها الاقتصادية

فى هيكل الاقتصاد وطبيعته ومحدداته وإمكانات الزراعة المصرية وإمكانات الصناعة والثروة المعدنية ويعتبر ذلك مدخلا للحديث عن خريطة المجتمع المصرى وما يعانيه من كثافة بشرية ومن مركزية على الرغم من الامتداد . وفى ضوء ذلك يتحدث عن آفاق الزمان وأبعاد المكان مما يشير بالضرورة - من وجهة نظره إلى تعدد أبعاد المجتمع المصرى ومايتميز به ذلك المجتمع - أو تلك الشخصية الاجتماعية الثقافية لمصر - من تكامل ينعكس فى الاعتدال والتوسط، وما قد يطرأ على هذه الشخصية من استمرار وانقطاع، وهى كلها عوامل تتكامل وتتفاعل بعضها مع بعض ويعطى للمؤلف المبرر الكافى للحديث ذلك الجزء الثالث من كتابه الموسوعى عن شخصية مصر التكاملية ولا ينسى جمال حمدان بمقتضى نظريته العامة الشاملة أن يتكلم عن علاقة مصر بالعرب وعن الاختلاف القائم بين الوطنية المصرية والقومية العربية وتكامل الفكرين أو عدم تعارضهما لكى ينطلق من ذلك إلى دراسة مشكلة (مصر فى عالم عربى متغير) . وكان من الطبيعى بعد ذلك أن

تمهد هذه الدراسة النظرية الأكاديمية الطريق للنظر إلى مصر المكان ومصر الإنسان أو مصر البشر نظرة تطبيقية تحاول تقسيم الواقع ومعرفة إمكان تغييره أو تطويره وتنميته والارتقاء به وذلك على اعتبار أن علم الجغرافيا له جانبه التطبيقي العملي شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم الإنسانية والاجتماعية وبخاصة الأنثربولوجية التي تعتبر من أشد العلوم التصاقا بالجغرافيا لدرجة أن بعض الجامعات في الخارج - كما هو الحال في جامعة أكسفورد ومثلا - تضع الجغرافيا والأنثربولوجيا تحت (كلية Faculty) واحدة . وهذا الجانب التطبيقي لجغرافية مصر وعبقرية المكان الذى يطلق عليه اسم مصر ويمنح مصر شخصيتها الفريدة المتميزة نجد كثيرا من ملامحه في الجزء الرابع والأخير من كتاب «شخصية مصر» .

وأنا أدرك أن هذا العرض السريع الموجز لا يعطى لكتاب شخصية مصر كل حقه من ضرورة التعريف به لمن لم تتح له الفرصة أو لمن لا يتيح له تخصصه أو وقته الاطلاع على الكتاب ذاته . ولكننى أرجو على أية حال أن

يساعد هذا العرض المقتضب القارىء على تكوين فكرة عن مدة شمول الكتاب واتساع أفق جمال حمدان والمدخل التكاملى الذى يعالج به الموضوع بحيث يخرج به عن نطاق الجغرافيا بالمعنى الضيق الدقيق دون أن يتعارض ذلك في الوقت ذاته مع أصول ومناهج ذلك العلم الراسخ، كما أرجو أن يساعد هذا العرض السريع ـ على سرعته وإيجازه واقتضابه ـ القارىء على أن يدرك بعض أسباب احتفاء الأوساط الثقافية فى مصر بالكتاب وصاحب الكتاب حتى وإن جاء ذلك الاحتفاء متأخرا وبعد موت جمال حمدان نفسه ، وبعد كل ما عاناه جمال حمدان من إهمال وإنكار أو تنكر ، ولكن يبدو أن هذا الإهمال والإنكار والتنكر لأصحاب القيم وبخاصة القيم الأكاديمية والتهوين من شأنهم أثناء حياتهم ثم الاحتفاء بهم بعد موتهم واختفائهم هو جزء من الطابع القومى المصرى ـ أو من الشخصية القومية المصرية ـ الذى ينبغى علينا أن نتقبله كأمر واقع وإن كان ينبغى العمل على تغييره . وهذا أمر يتطلب كثيرا من الجهد ولكنه يستحق كل ما يبذل فيه من وقت ومجهود .

(١)

يقول جمال حمدان فى مطلع الجزء الأول من كتاب «شخصية مصر» ، «إن تكن الجغرافيا فى الاتجاه السائد بين المدارس المعاصرة هى التباين الأرضى ... أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض على مختلف المستويات، فمن الطبيعى أن تكون قمة الجغرافيا هى التعرف على شخصيات الأقاليم .. وإذا كان الإقليم بهذا التعريف هو قلب الجغرافيا، فمن المنطقى أن تكون الشخصية الإقليمية هى قلب الإقليم ، ومن ثم بيقين أعلى مراحل الفكر الجغرافى (الجزء الأول من شخصية مصر، صفحة ١١) .

وفى هذه العبارة يلخص لنا جمال حمدان كل فلسفته عن دراسة شخصية مصر وأهمية هذه الدراسة بل وأبعادها ومكانتها من علم الجغرافيا، وهو مدخل جديد على القارىء العربى، على الأقل، وهو الذى يعطى الكتاب

معظم مكانته وقيمته فى الأعمال والكتابات الجغرافية المعاصرة فى مصر والعالم العربى . فدراسة شخصية إقليم ما هى فى آخر الأمر محاولة للبحث عن المقومات والخصائص التى تعطى لذلك الإقليم تفرده وتميزه ، أو هى محاولة للنفاذ والتغلغل إلى روح المكان - كما يقول هو نفسه أيضا - لاستشفاف عبقريته الذاتية أو عبقريته الخاصة التى تحدد شخصيته الكامنة وتميزه بالتالى عن شخصيات غيره من الأقاليم ، ومن هنا كان استخدامه لمصطلح «عبقرية المكان genious Loci » - وهو اصطلاح قد يكون جديداً فى الكتابات الجغرافيا العربية - بقدر ما أعرف - ولكنه ليس جديدا تماما فى الأعمال الجغرافية فى الخارج وبخاصة فى أمريكا . فالبحث عن روح المكان هو الذى يفرض على الكاتب والباحث أن تكون نظرته نظرة عامة واسعة . شاملة .. إنها نظرة إلى العالم، أو بحسب المصطلح الألمانى الذى وضعه الفيلسوف المؤرخ الاجتماعى الألمانى فيلهلم ديلتاى Wilhelm Dilthey «النظرة إلى العالم» أو «رؤية العالم Weltenschauung » وهو

مصطلح وجد طريقه إلى الكتابات والدراسات، الأنثربولوجية على يد عالم الأنثربولوجيا الأمريكى روبرت رد فيلد Robert Redfield وبمقتضاه، لا يقنع الباحث الجغرافى – فى حالتنا الراهنة – بدراسة الإقليم من حيث هو «كائن» عضوى فيزيقى له خصائصه وملامحه الفيزيقية المميزة ، وإنما يعمل على الإحاطة بالأبعاد الأخرى التى تعطى لذلك الكائن الفيزيقى مقوماته الاجتماعية والثقافية بل والروحية أيضا ، بما فى ذلك العوامل التاريخية التى تتفاعل تفاعلا قويا ومباشرا مع تلك الملامح الجغرافية .

بقول آخر، فإن البحث عن «روح المكان» أو «روح الإقليم» مسألة تتعدى بمراحل حدود وصف المكان وملامحه الفيزيقية المحسوسة الملموسة إلى «فلسفة» المكان نفسها، أو ما يمكن تسميته «ما وراء الجغرافيا» أو «ما بعد الجغرافيا» ـ إن صح استعمال هذا المصطلح هنا أسوة بما هو معمول به فى الانثربولوجيا ـ وهى مجال تخصصى ـ حين يتكلم الأنثربولوجيون عن «ما وراء

الأنثربولوجيا» أو « ما بعد الأنثربولوجيا Meta-Anthropology » . والجغرافيون أنفسهم - ومنهم جمال حمدان - يستخدمون أحيانا تعبير «الجغرافيا العلوية» أو «السوبر جغرافيا super-geography » . وأغلب الظن أن هذا التعبير متأثر بما كان بعض الأنثربولوجيين يسمونه «ما فوق العضوى Super - organic » للإشارة إلى الثقافة التى تعلو على الواقع العضوى المحسوس الملموس على ما يظهر فى كتابات عالم الأنثربولوجيا الشهير كروبر Kroeber وبعض تلاميذه .

ربما يساعد على دراسة (شخصية الإقليم) وبالتالى شخصية مصر أن أى إقليم لا يكرر نفسه بدقة وصرامة (الجزء الأول من كتاب شخصية مصر، صفحة ١٣)، وإنما لكل إقليم مقوماته الخاصة المميزة التى يستمدها من مجموعة كبيرة من العوامل المتباينة والمتشعبة والمعقدة، لعل من أهمها العامل التاريخى، وهو ما يتمثل بأجلى صوره فى (إقليم) قديم وعريق مثل مصر، وارتباط الإنسان بالبيئة المصرية عبر القرون، والتفاعل المتبادل بين

هذا الإنسان المصرى وتلك البيئة المصرية المتميزة ، وهو تفاعل يؤدى بالضرورة إلى أن تعبر الأرض عن نفسها وعن شخصيتها وذاتيتها من خلال ذلك الإنسان الذى يتعامل معها ويتفاعل ولن نقول يستخدمها ويستغلها ويخضعها لصالحه ومتطلباته الخاصة . وقد تكون دراسة شخصية المكان أو الشخصية الإقليمية موضوعا من الموضوعات المشتركة التى يمكن أن يطرقها كثير من التخصصات كالتاريخ والانثربولوجيا بل والاركيولوجيا والجيولوجيا، ولكن من الطبيعى أن تكون الجغرافيا واحدة من أهم هذه التخصصات وأولاها بمعالجة الموضوع باعتبارها علما تكامليا يمكن أن ترتبط فيه العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . ومن هذا المنطلق يصدر جمال حمدان فى دراسته لشخصية مصر، وفى وصف ذلك الكتاب بأنه «دراسة عبقرية المكان» .

ومع ذلك فإن اهتمام جمال حمدان بدراسة «شخصية مصر» كنموذج أو مثال لدراسة الشخصية الإقليمية لا يتعارض ولا يتنافى مع أهمية الجغرافيا الإقليمية العادية

ولا يلغيها . بل إن هذه الجغرافيا الإقليمية العادية يمكن أن تعتبر ركيزة صلبة وراسخة لدراسة الشخصية الإقليمية لأنها تقدم الأساس المادى الملموس الذى تستند إليه مثل هذه الدراسات التى تتطلب درجة معينة من التجريد ومن الفهم بل ومن (التفلسف) - إن صح هذا التعبير . ولا يعنى ذلك أن دراسة الشخصية الإقليمية هى دراسة ذاتية أو أنها تنقصها الموضوعية . فهى لا تزال ترتبط ارتباطا وثيقا بالمكان ومقوماته وخصوصيته ، كما أنها تلتزم التزاما شديدا بالمنهج العلمى وقواعده وقوانينه وضوابطه وهى كلها أمور تحسها بقوة فى كتابه «شخصية مصر» وهو نفسه يعترف بأن «الجغرافيا بمعى ما فى النهاية فلسفة» وأن من أخطر قضايا الجغرافيا «فلسفة الجغرافيا ولهذا تصبح فلسفة المنهج من شروط أى عمل جغرافى كبير» (صفحة ٥٠ من الجزء الأول من كتاب شخصية مصر)

والحديث عن تفرد الشخصية الجغرافية لإقليم معين بالذات وتميز هذه الشخصية عن شخصية أو شخصيات

غيرها من الأقاليم لا يعنى - ويجب ألا يعنى - تدعيم الدعوة الانفصالية على أساس هذا التفرد أو التميز ، لأن الذى يهم العالم الجغرافى فى المحل الأول هو إبراز الجوانب الأساسية الى ينفرد بها كل إقليم والتى قد تتكامل كلها معاً فى آخر الأمر داخل وحدة جغرافية أو قومية أكبر من أى إقليم من تلك الأقاليم على حدة . ولذا كان جمال حمدان شديد الحصر على أن يبين أنه لا تكمن وراء كتاب «شخصية مصر» أى دعوة انفصالية أو أنه ارتداد إلى القومية الفرعونية مثلا على حساب القومية العربية الإسلامية . بل إنه يبالغ فى محاولته إبعاد هذا الظن الذى قد يراود بعض الأذهان فيذكر فى بعض العبارات التى قد تسىء إلى الأسلوب العلمى الرصين المحكم الذى يميز معظم الكتاب :

«ففى عصر البترول العربى الخرافى نخدَع أنفسنا وحدنا إذا نحن فشلنا فى أن نرى أن وزن مصر وثقلها ، حجمها وجرمها، قامتها وقيمتها، قوتها وقدرتها بين العرب وبالتالى أيضا فى العالم ككل، قد أخذت تتغير

وتهتز نسبيا فى اتجاه سلبى ، وإن كانت هى ذاتها فى صعود فعلى . ولم تعد مصر بذلك تملك ترف الاستخفاف والاستهتار بمن حولها من الأشقاء، أو الانعزال المريض المتغطرس العاجز الغبى الجهول الذى يغطى عجزه وتراجعه وارتداده وترديه بكبره المغرور وصلفه الأجوف وعنجهيته القزمية، والذى يعوض مركب نقصه باجترار الماضى وأمجاده وتمجيد العزلة والنكوص باستثارة أدنى غرائز الشوفينية البلهاء. من هنا فإن مصر فى وجه هذه المتغيرات بحاجة ماسة جدا إلى إعادة نظر جادة فى ذاتها وإلى مراجعة للنفس أمينة وصريحة، بلا تزييف أو تزويق، بلا غرور أو ادعاء ، بلا زهو ولا خيلاء ولكن كذلك بلا تهرب أو استخزاء ، وبلا تطامن أو استجداء» (صفحة ٢٠ من الجزء الأول من كتاب شخصية مصر ..) .

كذلك فإن الحديث عن شخصية إقليم من الأقاليم لا يعنى عدم وجود تناقض، وتباين، داخل ذلك الإقليم حتى على المستوى الفيزيقى . ويظهر ذلك فى مصر ذاتها حين ننظر إلى ذلك التباين الواضح بين الوادى والصحراء، وكما

يقول جمال حمدان إنه بنسبة «المساحة تعد مصر إحصائيا أكبر وأكثر الدول صحراوية» في العالم بغير استثناء، بما في ذلك دول الجزيرة العربية، فنحن دولة الصحراء الأولى فى العالم، بمثل ما إننا دولة النهر الأولى وسيادة صحارينا ليست بالكم فقط ولكن بالكيف أيضا. فمصر بصحراواتها تأتى قمة الصحراء الكبرى مثلما هى قلبها . ليس هذا فحسب، وإنما صحارينا عينة جامعة مانعة لكل أنواع وأنماط وتنويعات الصحراء الحارة ليثولوجيا ومورفولوجيا ومناخيا. مصر الصحراوية، باختصار، تصغير نموذجي للصحراء الكبرى» (صفحة ٣٦ من الجزء الأول من كتاب شخصية مصر) .

★★★

كانت هذه مقدمة ضرورية نمهد بها لتعريف القارىء بالكتاب الذى بين يديه الآن عن إقليم سيناء .

فالكتاب الحالى هو الفصل العاشر من الجزء الأول من كتاب «شخصية مصر » دراسة فى عبقرية المكان، وقد رأت دار الهلال أن تنشره فى مجلد منفصل وقائم بذاته

كمثال واضح لتفكير جمال حمدان وأسلوبه وطريقته فى تناول الموضوعات الجغرافية وبخاصة الجغرافيا الطبيعية: أو الفيزيقية التى تعتبر بغير شك من أصعب فروع الجغرافيا وبخاصة بالنسبة للقارىء غير المتخصص ولذا فإن تذليل موضوعاتها لتكون فى متناول المثقف العام وإضفاء (الروح) أو بث (الحياة) فى مادة الجغرافيا الطبيعية الصماء تتطلب قدرة فائقة للإحاطة بدقائق الموضوع والتعبير عنها فى سهولة ويسر ووضوح وهو ما يفعله جمال حمدان في ذلك الفصل العاشر من الجزء الأول من كتابه والذى يضمه المجلد الحالى .

ولعل أول ما يصادفه المرء حين يتعرض لشبه جزيرة سيناء هو شيوع كثير من الأخطاء التى تؤخذ على أنها أمور مسلم بها، كما هو الحال مثلا حول ما يذهب إليه الكثيرون من أن مساحة سيناء هى حوالى $\frac{١}{٦}$ المساحة الكلية لمصر مع أن الحقيقة هى أنها ٦٪ فقط أو $\frac{١}{١٦}$ من مساحة مصر، إذ تبلغ مساحة شبه الجزيرة حوالى ٦١ ألف كيلو متر مربع، وبذلك فهى حوالى ثلاثة أمثـال

الوادى وهذا فى حد ذاته يعطينا فكرة عن ضخامة هذه المساحة من أرض الوطن التى ظلت مجهولة من المصريين لفترات طويلة جدا من الزمن ولم يبدأ الاهتمام الحقيقى بها يظهر على السطح إلا منذ سنوات قلائل على ما سنبين فيما بعد.

ولقد حرص جمال حمدان فى ذلك الفصل العاشر الذى يقع بين صفحتى ٥٣٩ ، ٦١٧ من الجزء الأول من كتاب «شخصية مصر» على أن يزود القارىء بأكبر قدر من المعلومات الجغرافية وبخاصة الطبيعية أو الفيزيقية - والتى استمدها من عدد كبير من المراجع والدوريات المتاحة له حين عكف على تأليف كتابه الذى ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٨٠، وكما هو الحال بالنسبة لمعظم الكتابات الجغرافية فإن جمال حمدان يأخذ شبه جزيرة سيناء كوحدة أو «إقليم» طبيعى واحد، وهو أمر منطقى لأن الملامح والخصائص الجغرافية الطبيعية كثيرا ما لا تتفق مع التقسيمات الادارية ولا تعترف بها . وعلى أية حال فإن «شخصية مصر» تمت كتابته قبل أن تنقسم سيناء إلى

محافظتين مستقلتين هما محافظة شمال سيناء ومحافظة جنوب سيناء . ومن هنا نجد جمال حمدان يتكلم عن «الهيكل العام» لشبه جزيرة سيناء ككل لكى يبين العلاقة بين الشكل والموقع وما يطلق عليه اسم «الجزرية النسبية» ويبين بعض أوجه التفاوت أو التضارب والتضاد فى ذلك التكوين حيث يتكلم مثلا عن العزلة ضد الاتصال وغير ذلك من التباينات التى سوف يلمسها قارىء هذا الكتاب بنفسه.

وقد يكون من غير الملائم تلخيص ذلك الفصل العاشر عن «سيناء» والذى يضمه المجلد الحالى، فنحن نشعر بأن أى محاولة لتلخيص المعلومات الوفيرة التى يضمها هذا الفصل - على ما سيرى القارىء - سوف يسىء إلى الكاتب والكتاب معاً ولن يغنى شيئا عن قراءة الكتاب ذاته ليس فقط لكى يفيد من الكم الضخم من المعلومات الجغرافية والاقتصادية والبشرية والسكانية التى يضمها الكتاب ، ولكن أيضا لكى يحس مذاق أسلوب المؤلف الخاص ويدرك مدى قدرته على تطويع اللغة للتعبير فى

سهولة عن أدق المعلومات وأصعبها بحيث يقدم لنا شبه الجزيرة على أنها كائن عضوى ينبض بالحياة والحيوية .

ولكننا مع ذلك نود أن نشير إلى بعض الموضوعات الهامة التى شغلت بال جمال حمدان فى دراسته لسيناء مثل مشكلة هل سيناء إفريقية أم آسيوية ، وهو سؤال قديم جديد كثيرا ما كان يثيره العلماء والكتاب فى الغرب منذ القرن الماضى وانساق وراءهم عدد من العلماء المصريين والعرب دون أن ينتبهوا إلى النوايا المريبة التى تكمن وراء تساؤل العلماء الأجانب والأهداف الاستعمارية والسياسة التى يهدفون إليها وسوف يرى القارىء كيف تعرض جمال حمدان لهذه المشكلة وذهب إلى تقرير أن سيناء هى «امتداد طبيعى أو تصغير لصحراء مصر الشرقية أكثر مما هى امتداد أو تصغير للجزيرة العربية» وأنها «أقرب فى الجيولوجيا والطبوغرافيا والمناخ والمائية والنبات إلى الأولى منها إلى الثانية ، فلا هى جزء لا يتجزأ أو يتجزأ من قارة آسيا ، ولا هى من بلاد العرب الحجرية أى العرب البتراء أو شبه القارة العربية فى شىء» .

ومع التسليم بأهمية ما يذكره جمال حمدان عن سيناء وأهمية المعلومات الوفيرة التى يزخر بها هذا الجزء من عمله الضخم والذى تنشره دار الهلال فى هذا المجلد ، فإن هناك ملاحظتين هامتين لابد من توجيه أنظار القارىء إليهما - هما ملاحظتان لم تكونا لتنشآ لولا الظروف التى أحاطت بحياة جمال حمدان المأساوية والتى يعرفها القارىء بغير شك .

أولى هاتين الملاحظتين هى أن المراجع التى يستند إليها جمال حمدان فى كتابته عن سيناء مراجع قديمة بعض الشىء، فإذا كان الجزء الأول من كتابه «شخصية مصر» الذى يضم الفصل الخاص بسيناء قد ظهر عام ١٩٨٠ فإن أحدث المراجع التى رجع إليها جمال حمدان لا ترجع إلى أقرب من الستينات - أى قبل انعزاله هو نفسه عن المجتمع ، بل إن كثيرا من مراجعه يرجع إلى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، وهو نقص خطير بغير شك .

الملاحظة الثانية هى أن جمال حمدان يشير فى

أكثر من موقع من الجزء الأول من كتاب «شخصية مصر» إلى أهمية القيام بالدراسات الحقلية أو الميدانية بالنسبة لعالم الجغرافيا وأن الدراسات النظرية أو الأكاديمية التي يقتصر فيها الباحث على الاعتماد على الكتابات السابقة غير كافية بل ومنقوصة وقد تعطى انطباعا مخالفا لما يجده في الواقع حين يتصل هذا الباحث بالواقع . ويقول فى ذلك - على سبيل المثال : -

«والحقيقة أن الملاحظ أحيانا أن الجغرافى قد يدرس فى البعد أو على الورق إقليما دراسة أكاديمية مستفيضة، يحدد خطوط التضاريس والجيولوجيا ويحلل المناخ والنبات والتربة ويصنف ملامح الإنسان ويصف معالم السكان والإنتاج والاقتصاد ... إلخ ، حتى إذا ما أتاه زائراً على الطبيعة وجد نمطا من الحياة الجارية اليومية يرتبط بصميم البيئة الجغرافية ، ولكنه هو شخصيا يجهله ولا تسعفه فيه دراسته السابقة تلك . هذه الحلقة المفقودة هى بالدقة روح المكان وجوهر الإقليم (صفحة ٢١ من الجزء الأول من كتاب «شخصية مصر»)، ثم لا يلبث بعد ذلك أن

يقول : «لهذا فإن المطلوب جغرافية حية ، جغرافية الحياة بالدقة ، لا بمعنى الجغرافيا الحيوية ولكن بمعنى جغرافية الحياة اليومية everyday like geography تلك التى إذا عرفتها عرفت كل شيء عن نمط وطبيعة وظروف وقوانين الحياة فى هذا المكان أو ذاك» .

ولكن الغريب فى الأمر أن هذا نفسه هو ما لم يفعله جمال حمدان بالنسبة للفصل الذى كتبه عن سيناء، إذ ليس هناك ما يشير من قريب أو بعيد إلى أثر قام بأى دراسة ميدانية فى سيناء وأنه اكتفى على ما ذكرنا بالاعتماد على كتابات غيره وبالرجوع إلى المراجع التى كانت متاحة له حينذاك وأن معظم هذه المراجع ترجع إلى تواريخ قديمة .

وهذا ينقلنا بالضرورة إلى النظر إلى سيناء من زاوية أخرى ومدخل آخر غير ذلك الذى دخل فيه جمال حماد ، وأعنى بذلك الدراسات والبحوث الميدانية والحقلية فى سيناء والتى قام بها أصحابها لجمع المعلومات بأنفسهم من الواقع وعلى الطبيعة وأمكنهم بذلك أن يسهموا إسهاما

حقيقيا ويضيفوا إلى معلوماتنا عن سيناء سواء من الناحية الجغرافية أو الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المختلفة . ولقد قام عدد من علماء الجغرافيا والباحثين بدراسات عديدة هامة بعض هذه الدراسات رسائل جامعية لم تنشر ، ولكن المثال الهام لاهتمام العلماء الرواد بسيناء يتمثل فى الكتاب الفذ الذى كتبه الدكتور عباس عمار فى منتصف الأربعينات عن شبه الجزيرة وأسماه «المدخل الشرقى لمصر» واعتمد فى تأليفه - إلى جانب المراجع العديدة - على المعلومات التى جمعها أثناء بعض الزيارات الميدانية هناك وأفلح فى أن يغطى فى ذلك الكتاب جوانب وموضوعات لم يتطرق إليها جمال حمدان وبذلك يمكن اعتبارها مكملة لما يتضمنه الكتاب الحالى الذى يجده القارىء بين يديه الآن .

وقد يكون من الأفضل هنا أن أشير إلى إحدى الدراسات الميدانية فى مجال الأنثربولوجيا فى سيناء حتى يمكن إعطاء صورة أكثر تكاملا عن ذلك الجزء الحيوى من أرض الوطن وعن الأوضاع الاجتماعية الثقافية فيه .

وإذا كان جمال حمدان بحكم تخصصه وبحكم الفترة التى كتب فيها عن سيناء وبحكم مدخله النظرى البحت الذي اقتصر فيه على الرجوع إلى المراجع المتاحة له أعطى معظم اهتمامه لسيناء المكان مع بعض المعالجات للموضوعات والجوانب البشرية والاقتصادية المرتبطة بهذا الأساس الجغرافى الفيزيقى فإن الصورة تكتمل ويتحقق بذلك تلك النظرة التكاملية التى كان ينشدها إذا نحن قدمنا مزيدا من المعلومات عن الجوانب التى يهتم بها الأنثربولوجيون والتى لا يعطيها الجغرافيون من الاهتمام إلا القدر الذي يفيد تخصصهم . ويجب ألا ننسى على أية حال ما سبق أن ذكرناه عن قوة وعمق العلاقة بين الجغرافيا والأنثربولوجيا والتداخل القوى بين التخصصين.

(٢)

ولقد بدأ اهتمام الأنثربولوجيين فى مصر بدراسة المجتمعات الصحراوية بشكل عام منذ ما يقرب من أربعين سنة تمكنوا خلالها من إجراء عدد كبير من البحوث الميدانية فى أماكن ومواقع متفرقة من الصحارى المصرية. وتعتبر مصر بغير شك رائدة فى هذا المجال ليس فقط فى العالم العربى بل وفى العالم كله، وإذا كان الجغرافيون بما فى ذلك علماء الجغرافيا البشرية والجغرافيا الاجتماعية قد سبقوا الأنثربولوجيين فى هذا المضمار فإن الانثربولوجيين يتميزون على غيرهم فى دراسة المجتمعات الصحراوية بالمنهج وأساليب البحث التى يتبعونها ويتمسكون بها أشد التمسك ، وهى أساليب تقتضى من الباحث الاقامة الطويلة فى مجمع البحث وكثيرا ما تتعدى هذه الإقامة سنة كاملة ويقوم الباحث بجمع المعلومات بنفسه عن طريق الملاحظة المباشرة والمعايشـــة والاختلاط

بالأهالى والمشاركة فى كثير من أوجه نشاطهم وحياتهم اليومية حتى يمكـن دراسة المجتمع عن قرب ومن خلال العلاقات القوية الحميمة التى يقيمها مع أفراد ذلك المجتمع البدوى أو الصحراوى الذى يجرى بحثه فيه .

وربما كان أفضل مثال لتوضيح هذا الأسلوب من الدراسة والنتائج التى يمكن الوصول إليها بتطبيق المنهج الأنثربولوجى والمدخل التكاملى الذى يتبعه الأنثربولوجيون فى بحوثهم هو الدراسة التى كلفنى بإجرائها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى سيناء وذلك ضمن مشروع بحثى ضخم يهدف إلى دراسة كل المجتمعات الصحراوية فى مصر ، وبدأت أول خطوة فى ذلك المشروع البحثى الشامل بدراسة شمال سيناء حيث استغرق البحث أكثر من سنة (من نوفمبر إلى يناير ١٩٨٩) واشترك فيه عدد كبير من الباحثين الميدانيين الذين أقاموا هناك إقامة دائمة طيلة تلك المدة ، ثم الشروع بعد ذلك فى دراسة جنوب سيناء بنفس الطريقة وبنفس

الأسلوب وبإتباع نفس المنهج ونفس المدخل التكاملى الوصفى ونفس النظرة الشاملة . ونحن هنا على هذه البحوث والنتائج التى تم نشرها بالفعل (انظر في ذلك مثلا: أحمد أبو زيد المجتمعات الصحراوية فى مصر : البحث الأول : دراسة اثنوجرافية لشمال سيناء ؛ المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٩٠ ، وكذلك كتاب «الإنسان والمجتمع والثقافة في شمال سيناء - أعمال المؤتمر المنعقد فى العريش فى الفترة من ١٣ - ١٦ أكتوبر ١٩٩٠ - إشراف وتقديم أحمد أبو زيد وتحرير تغريد شرارة - القاهرة ١٩٩١»

وبطبيعة الحال فإنه لايمكن إغفال الأساس الجغرافى فى أى دراسة ميدانية لإقليم من الأقاليم ، وهذا هو بالضبط الوضع بالنسبة للدراسات الأنثربولوجية الميدانية لسيناء . إذ لايوجد مجتمع أبداً من فراغ بل إن لكل مجتمع إقليما خاصا يرتبط به ويتميز بملامح جغرافية وبيئية تتدخل بشكل مباشر أو غير مباشر فى تشكيل الحياة فى ذلك المجتمع وتؤثر فى كل نظمه وأنساقه

وأنماطه الاجتماعية والاقتصادية . ومع التسليم بوجود العلاقة بين الأوضاع والظروف الجغرافية والنظم الاجتماعية فإن ثمة نوعا من الاختلاف فى الرأى بين العلماء حول طبيعة هذه العلاقة بحيث نجد بعض الاتجاهات تبالغ أشد المبالغة فى إثبات وتقرير فاعلية هذه العلاقة ويصل بها الأمر إلى حد القول بأن العوامل الجغرافية تفرض قيام أنماط ونظم سلوكية واجتماعية وثقافية معينة بالذات محددة بالضرورة . ولكن الرأى الغالب يميل إلى رفض هذه (الحتمية الجغرافية) الجامدة الصارمة، وذلك على اعتبار أن العلاقة بين الانسان والبيئة أكثر تعقيدا مما يبدو فى الظاهر ، وأن ثمة تفاعلا متبادلاً بين (الطرفين) : الإنسان والبيئة الجغرافية وأن كل ما تفعله هذه البيئة فى هذا الصدد هو أنها تهيىء إمكانات للاختيار، وأنها بذلك (لاتحتم) قيام نظم وأنشطة وثقافة معينة بالذات وإنما هى ترسم حدود هذه الثقافة فحسب ، ولذا يقول هؤلاء العلماء إن الظروف الجغرافية (تحدد) أكثر مما (تحتم) شكلا معينا للحياة الاجتماعية والنشاط

الاقتصادى ونوع العلاقات الاجتماعية فى أى إقليم من الأقاليم ، وهو ما يصدق على إقليم سيناء .

وثمة عدد من الحقائق الجغرافية الأساسية التى ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار لفهم حقيقة وجوهر العلاقة المتبادلة بين الانسان والبيئة الطبيعية فى سيناء ، وهى حقائق لها أبعاد ونتائج اجتماعية هامة ، وربما كان أهم هذه الحقائق الأساسية التى يشير إليها معظم الجغرافيين الذين تكلموا عن سـيناء ومنهم جمال حمدان ماسوف يرى القارىء هى : -

أولاً : الطول النسبى لسواحل شبة جزيرة سيناء بالمقارنة بنسبة السواحل المصرية إلى مساحة مصر كلها، بمعنى أن نسبة السواحل إلى المساحة الكلية لسيناء أكبر بكثير من نصيب مصر من السواحل ، فإذا كانت سيناء تشغل حوالى ٦٪ من المساحة الكلية للأراضى المصرية فإن السواحل التى تحيط بها والتى يصل طولها إلى حوالى ٧٠٠ كم تؤلف ٢٩,١٪ من الطول الكلى للسواحل المصرية مما يؤدى إلى سيطرة البيئة الساحلية على معظم

أطراف سيناء الخارجية لوجود سواحل البحر المتوسط فى الشمال وسواحل البحر الأحمر التى تلتف بها من الشرق (خليج العقبة) ومن الغرب (خليج السويس) والتى تلتقى فى الطرف الجنوبى من المثلث الذى يؤلف شبه الجزيرة السينائية وقد أثر ذلك بغير شك فى نوع النشاط الذى يمارسه الأهالى والوافدون الذين يعيشون قرب السواحل وفى إمكانات التنمية هناك واتجاه كثير من المشروعات نحو إقامة القرى السياحية على هذه السواحل كما يظهر بوضوح فى جنوب سيناء .

ثانياً : وجود بيئتين جغرافيتين متمايزتين ولكنهما متداخلتان ومتكاملتان وهى البيئة الساحلية والبيئة الصحراوية فى داخل شبه الجزيرة ومايرتبط بهاتين البيئتين من اختلافات اجتماعية واقتصادية وسياسية وظهور مواقع الإقامة المستقرة فى البيئة الساحلية التى تمارس فيها أنشطة الصيد والسياحة والزراعة التى تعتمد على المطر فى الأغلبية والمياه الجوفية الناشئة عن تسرب المطر . بينما البيئة الصحراوية فى الداخل أكثر عرضة

للجفاف ولذا يعتبر الرعى هو نمط النشاط الاقتصادى الغالب عليها وإن كان ذلك لايعنى غياب الزراعة تماما ، وذلك مع وجود الأنشطة المتعلقة بالتعدين واستخراج البترول بالقرب من السواحل فى بعض المناطق والتعدين واستخراج الفحم من (منطقة المغارة فى شمال سيناء) والمحاجر فى بعض المناطق الداخلية .

ثالثا : الاعتماد الكامل أو شبه الكامل على المطر باعتباره المصدر الوحيد للماء وبما فى ذلك المياه الجوفية وذلك إذا نحن استثنينا ماء النيل الذى ينقل الآن بواسطة الأنابيب فى المنطقة الساحلية الشمالية والبدء فى العمل لحفر ترعة السلام . ولكن الملاحظ هو قلة المطر نسبيا مما يساعد على التصحر بل إن ذلك يعتبر من أهم أسباب التصحر . وربما كان الأهم من قلة كميات المطر هو عدم انتظام سقوطه وعدم إمكان التنبؤ به ثم مجيئه أحيانا فى شكل سيول جارفة وفى كلتا الحالتين (الامتناع أو السيول) فإن المطر يسبب كثيرا من الخسائر للزراعة والثروة النباتية الطبيعية والثروة الحيوانية على السواء .

وقد تكون هناك بعض الملامح الجغرافية المؤثرة الأخرى التى لا نرى ما يدعو للإشارة إليها هنا على أساس أن القارىء سوف يلتقى بها حين ينتقل من هذه المقدمة إلى الكتاب حيث يعالجها جمال حمدان بأسلوبه الرشيق وقدرته العلمية المتخصصة .

ومن الطبيعى أن تتدخل الأوضاع الايكولوجية (أى البيئية فى علاقتها بالإنسان) فى تحديد بعض مظاهر الحياة الاجتماعية وبوجه أخص فى التوزيع السكانى واختيار مواقع الإقامة والسكنى وقيام التجمعات السكانية بأشكالها المختلفة ، ويتمثل ذلك مثلا فى ظهور تلك السلسلة المتتابعة من المدن والقرى الزراعية والتجارية أو التى تعيش على الصيد بطول السهل الساحلى فى الشمال حيث يمتد الطريق الرئيسى بين وادى النيل وأقصى المدن الشرقية فى شمال سيناء ، أو المدن الساحلية التى تزدهر فيها فى الوقت الحالى السياحة مع طول خليج العقبة وهى كلها مدن وقرى أكبر نسبيا فى الأغلب من المدن والقرى الداخلية مثل الحسنة أو نخل وما إليها ، وذلك فضلا عن

أن الظروف والأوضاع الجغرافية داخل شبه جزيرة سيناء بعيدا عن المناطق الساحلية تساعد على قيام الرعي وما يتطلبه من تنقل بين الأماكن التي تجود فيها المراعى ، وهذا يؤدى بدوره إلى صغر حجم التجمعات السكانية بل والإقامة فى بيوت من الشعر حتى يمكن تركها والانتقال بسهولة ويسر وحتى فى المناطق التى أقيمت فيها مساكن دائمة ومستقرة كما هو الحال فى نخل مثلا والمدن المجاورة مثل التمد وبيرجريد كثيرا ما يترك الناس مساكنهم ويرحلون إلى (الجبل) بحثا عن المراعى ، فالعامل البيئى أو الايكولوجى فى توزيع المناطق السكانية والسكان وتحديد أحجامها عامل هام ولا يمكن إغفاله بحيث يمكن القول إن التوزع السكانى هو إلى حد كبير إحدى وظائف الأوضاع الايكولوجية .

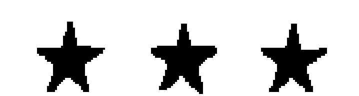
وليس من شك فى أن الأمور تغيرت الآن كثيرا عما كانت عليه قبل الحرب المصرية الاسرائيلية ثم عودة أهالى سيناء بعد الاحتلال ، إذ تحرص الادارة المصرية الآن على توطن الأهالى وتشجيع البدو الرحل وأنصاف الرحل

على الاستقرار وقامت لذلك ببناء القرى الجديدة وإقامة مساكن مستقرة فى كثير من أنحاء سيناء وتشجيع حركة السياحة وإقامة القرى السياحية امتدادا من شرم الشيخ حتى نويبع والاهتمام بمراكز البترول والتعدين وإحياء مشاريع التعدين مثل استخراج فحم المغارة وغير ذلك من المشروعات والأنشطة التى من شأنها العمل على إعادة خريطة التوزع السكانى والكثافة السكانية فى مناطق معينة من شبه جزيرة سيناء بل وازدياد عدد السكان الوافدين من وادى النيل للإقامة والعمل فى سيناء، ولكن حتى فى هذه الحالة فإن الأوضاع الايكولوجية تؤخذ فى الاعتبار سواء فيما يتعلق باختيار مواقع القرى الجديدة أو بناء المساكن وما إلى ذلك فاختيار مواقع التجمعات السكانية كان يراعى فيه مثلا البعد عن اتجاهات زحف الكثبان الرملية والقرب من مصادر المياه الطبيعية (الآبار مثلا) والقرب من الطرق الرئيسية ، وذلك إلى جانب بعض الاعتبارات الاجتماعية التى تتصل بالعلاقات بين القبائل وبخاصة فيما يتعلق بالمنازعات حول ملكية الأرض وكذلك

الاعتبارات الأمنية فى تلك المنطقة الحساسة من أرض الوطن ، وحين بدأ التحول إلى إقامة المساكن الدائمة المستقرة كان من الطبيعي أيضا الاعتماد على الخامات البيئية المحلية بحيث تتمشى المباني مع طبيعة التربة .

والطريف فى الأمر هنا، وله دلالته ومغزاه فى الوقت ذاته، هو أن البيوت البدوية المبنية من الطوب أو من الحجر لا تفرض على (البدو) فرضا من الجهات المسئولة، وإنما الأمر على العكس من ذلك تماما ، لأن التغيرات التى طرأت على مفاهيم البدو ونظرتهم إلى الحياة وبخاصة بعد إقامتهم فى الوادى أثناء احتلال سيناء كانت تمهد لهم الطريق فى الحقيقة وتعدهم نفسيا بطريقة لا شعورية لتقبل هذه المساكن بعد العودة إلى سيناء إذ لم يعد من السهل صنع أو اقتناء بيت الشعر عبد أن تناقصت الثروة الحيوانية فى المنطقة كما يقول الأهالى أنفسهم وبصرف النظر عن البيانات الرسمية ، وكذلك نظرا لارتفاع تكاليف بيت الشعر وحاجته الدائمة إلى (الترقيع) أو (التصليح) كما يقولون وذلك بعكس الحال

بالنسبة للبيت (المبنى) الذى يعتبر على هذا الأساس أرخص فى آخر الأمر من بيت الشعر ولكن هذا لا يعنى أن البدو يتخلون تماما عند إقامة هذه المساكن عن عاداتهم وتقاليدهم المتوارثة إذ الملاحظ أن بيوت الشعر لا تزال تستخدم فى المناسبات الاجتماعية العامة وبخاصة عند إقامة الأفراح، بل وقد يستعيرها الناس ممن يملكونها كمظهر من مظاهر المحافظة على التقاليد البدوية الأصيلة رغم كل التغيرات التى طرأت، على المجتمع البدوى، ومع ذلك لابد من الاعتراف بأن الاختفاء التدريجى لهذه (البيوت) التقليدية المصنوعة من الشعر يعتبر مقياساً ووظيفة أيضا للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى طرأت على المجتمع ، كما أنها مؤشر على مدى استمرار ونجاح السياسة التنموية التى تنتهجها الدولة بالنسبة لسيناء والتى تقوم على توطين الجماعات البدوية وتحويل سيناء إلى منطقة ذات كثافة سكانية عالية تحسبا للظروف فى المستقبل .



وأود هنا أن أشير إلى مسألتين أعتقد أنهما على جانب كبير من الأهمية ليس بالنسبة لسيناء فقط وإنما بالنسبة لكل المناطق الصحراوية فى مصر .

المسألة الأولى : تتعلق بالوضع العام فى سيناء ويمكن أن تمتد إلى صحارى مصر الأخرى لأنها تتعلق بمشكلة التصحر، فلقد شغلت هذه المشكلة جانبا كبيرا من اهتمام علماء الإيكولوجيا والعلوم الاجتماعية والأنثربولوجية المهتمين بدراسة المجتمعات الصحراوية والجماعات البدوية والرعوية فى مختلف أنحاء العالم ، وانقسمت الأراء إلى اتجاهين متعارضين حول أسباب التصحر وأساليب معالجة المشكلة ، ولكن الجميع يتفقون على خطورة تدهور البيئة الفيزيقية وضرورة العمل على تغيير الوضع القائم وإبطاء السرعة التى يتم بها التصحر إن لم تفلح الجهود فى تحويلها إلى الاتجاه الآخر ، وأن التهاون فى التصدى لزحف الصحراء قد يؤدى فى آخر الأمر إلى تدمير المجتمع الرعوى واختفاء ذلك النمط من أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وصحيح أن الكثيرين ينظرون

إلى الرعى على أنه يمثل نمطا أشد تخلفا وتأخرا من أنماط الحياة الأخرى التى تقوم مثلا على الزراعة المستقرة الكثيفة فضلا عن أشكال الحياة التى ترتبط بالصناعة والنشاط الصناعى أو الخدمات، مثل السياحة ومايرتبط بها من (صناعة) الفندقة وما إليها ؛ ولكن الرعى والبداوة لايزالان يعتبران فى نظر كثير من العلماء وبخاصة علماء الأنثربولوجيا أفضل نسق اقتصادى ويتلاءم مع المناطق القاحلة وشبه القاحلة وإن كان يحتاج إلى أساليب وطرق ووسائل خاصة لاستغلال الأرض واستخدامها ، وأن الجماعات الرعوية والبدوية قد اكتسبت خلال آلاف السنين خبرة طويلة فى التعامل مع البيئة ومع الأرض . ويزيد الأمر أهمية إذا أخذنا فى الاعتبار ماتوفره شبه جزيرة سيناء من إمكانات ضخمة للتطور والتنمية يمكن أن تساعد على الخروج من هذه الحلقة المغلقة ، أو على الأقل كسر حدتها . ولن يتحقق ذلك إلا من خلال فهم الأوضاع الأيكولوجية التى تسود مجتمع سيناء، وعلاقة هذه الأوضاع ببقية النظم والأنساق

الاجتماعية لأن المسألة أكبر بكثير من أن تكون مجرد مشكلة ظروف وعوامل جغرافية فيزيقية فقط. فإذا كان التصحر ينشأ من عوامل طبيعية منها القحط والجفاف لفترات طويلة فإنه ينشأ أيضا من تعامل الانسان مع الأرض وإساءة استخدام الغطاء النباتى الطبيعى واستنزافه عن طريق المبالغة فى الرعى بل إن القيود التى قد تفرضها السلطات الإدارية والتنفيذية - لبعض الاعتبارات ، الخاصة - على التحركات الرعوية وكذلك تركز السكان فى مناطق محددة بالذات من الصحراء ، ثم التدخل لتنفيذ بعض مشروعات التوطين دون أن تسبق ذلك دراسة عميقة أو متعمقة للأوضاع الاجتماعية ؛ بل وحتى مجرد حفر آبار للماء فى مناطق محدودة مما يجذب إليها السكان وتنشأ بذلك مراكز ثابتة محددة للإقامة مع إغفال بقية الصحراء، وإهمالها، كلها عوامل تؤدى فى آخر الأمر إلى التصحر أو تساعد عليه .

المسألة الثانية التى أريد أن أثيرها هنا لأهميتها البالغة تتعلق بالعزلة النسبية التى كانت تعانى منها سيناء حتى

وقت قريب والتى لانزال نجد لها آثارا أو بقايا حتى الآن أو إن لم تعد هذه العزلة بمثل ما كانت عليه من حدة ووضوح كما لم تعد تؤلف مشكلة خطيرة بعد زيادة الاتصال مع الوادى . ولكن هناك نوعا آخر من العزلة المفروضة على سيناء والتى قلما يتنبه إليها الناس وهى عزلة - أو بالأحرى انعزال - المجتمعات المحلية داخل سيناء ذاتها بعضها عن بعض نتيجة أيضا لصعوبة الاتصال وقلة وسائل النقل والمواصلات بين هذه التجمعات المتناثرة المتباعدة وبخاصة فى بعض الأودية البعيدة ووعورة الطرق المؤدية إليها وذلك على الرغم من الجهود المكثفة التى تقوم بها الأجهزة الرسمية بعد التحرير والتى لايمكن التهوين من شأنها أو إنكارها لتوفير وسائل النقل والمواصلات الحديثة ومد شبكات من الطرق الممتازة الطويلة فى مناطق كثيرة من سيناء ، ومع ذلك فلايزال الانتقال بين المواقع السكنية أمراً بالغ الصعوبة حيث لاتتوافر الأعداد الكافية من السيارات بحيث تقوم خطوط مواصلات منتظمة بينها ، بحيث إن البعض يقولون إن الاتصال

والانتقال بين أى مكان في سيناء والقاهرة مثلا أيسر وأسهل من الانتقال بين أى مدينة من مدن سيناء والقرى والنجوع في الوديان في نفس المنطقة .

ولابد من الاعتراف - على الرغم من أن الكثيرين قد ينكرون ذلك من قبيل المكابرة فقط - بأن الشعور بالعزلة عن وادى النيل لايزال رغم كل التسهيلات التى تمت بالفعل يخيم على كثير من الأفكار حين يقدر الناس الوضع الآن بما كان عليه قبل حرب ١٩٦٧ وإن كانت هذه الأقوال والأفكار تكشف عن قدر كبير من التناقض ولكنها كلها آراء تتردد فى كثير من أنحاء سيناء ويجب أن تلقى ماتستحقه من اهتمام وعناية . فإذا كان البعض يشكون من إهمال (مصر) لسيناء وأهل سيناء ولايزالون يميزون فى كلامهم بين (مصر) وسيناء ويشيرون إلى سكان الوادى بكلمة (المصريين) فإنهم على الجانب الآخر - فى شمال سيناء على الأقل - يتذكرون أن المنطقة الساحلية في الشمال كانت ترتبط فى الماضى بعضها ببعض بالوادى عن طريق السكة الحديدية من القنطرة ،

وأن ذلك الخط كان يمثل أفضل وسيلة للمواصلات والنقل الثقيل علاوة على مايتضمنه من معان اجتماعية وسياسية عميقة . وقد انتهى هذا كله مع الاحتلال الاسرائيلى لسيناء وأصبحت السيارات بأنواعها هى طريقة النقل والانتقال بين سيناء والوادى . وذلك إذا تغاضينا عن خط الطيران بين القاهرة والعريش من ناحية ورأس نصرانى (شرم الشيخ) من النـاحية الأخرى . وليس من شك فى أن حركة النقل والانتقال بالسـيارات تعتبر عاملاً أساسيا فى التواصل الاجتماعي والثقافى ، ولكن اختفاء (القطـار) له تأثيـر معنوى وسـلبى لا يمكن التهوين من شأنه .

وعلى أية حال . فلاتزال الحاجه ماسة لمد مزيد من الطرق البرية المرصوفة فى المناطق الداخلية والنائية من سيناء لأن الطرق هى الوسيلة الناجعة والناجحة لقيام واستمرار وازدهار المراكز والتجمعات السكنية والتغلب

على كثير من العوامل البيئية المناوئة للتماسك الاجتماعى على مستوى المجتمع ككل ، بصرف النظر عن التقسيمات والتمييزات العرقية أو القبلية التى تعتبر من أهم ملامح المجتمع فى شبه جزيرة سيناء .

(٣)

يرتكز المجتمع الصحراوى فى مصر فى تنظيمه الاجتماعى والسياسى على القبيلة . فهو مجتمع قبلى فى أساسه وجوهره ولايزال يحتفظ بذلك التنظيم القبلى حتى الآن على الرغم من كل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى طرأت عليه . ويصدق هذا الكلام على شبه جزيرة سيناء التى لاتزال تحتفظ بكثير من الملامح القوية المميزة لهذا التنظيم القبلى بشكل لانجده مثلا فى الصحراء الغربية ، وإن كان هذا لا يعنى اختفاء التنظيم القبلى تماما من هذه الصحراء .

وعلى الرغم من دخول نظام الحكم المحلى والإدارة المحلية إلى سيناء ومايتطلبه ذلك من مشاركة الأهالى فى إدارة شئون أنفسهم ومجتمعهم المحلى ، وتغير نظرتهم إلى الرؤساء التقليديين وازدياد اتصالاتهم بالأجهزة

التنفيذية فإن ذلك لم يترتب عليه القضاء على التنظيم القبلى التقليدى فى سيناء ربما باستثناء بعض المدن الرئيسية مثل العريش أو الطور أو نويبع حيث تضعف قوة هذا التنظيم ولايظهر أثره إلا فى حالات استثنائية أى أنه لم يقض عليه تماما وإنما ضعف أثره وفاعليته فى الحياة اليومية العادية فى تلك المدن والمراكز التجارية أو الصناعية والسياحية بحكم الأوضاع الجديدة والمستجدة . وعلى العموم فلايزال الشعور بالانتماء للقبيلة قويا ولايزال الناس يفخرون بانتسابهم إلى القبائل التى ينتمون إليها حتى وإن لم تكن مؤثرة فى الحياة العادية .

وتتوزع القبائل - وبخاصة القبائل الكبرى - إقليميا بحيث ترتبط كل قبيلة بإقليم محلى معين أو بوطن محدد يعرف باسمها بحيث يقال أرض الإحيوات أو أرض السواركة أو أرض المزينة أو أرض الترابين وما إلى ذلك . وانتشار أعضاء الجماعة القبلية خارج ذلك (الوطن) وتغيير مكان الإقامة لايتعارضان مع مبدأ الارتباط بذلك الوطن الأصلى - بالمعنى القبلى لهذه الكلمة التى يقصد

بها أرض القبيلة .. فكان تغيير الإقامة لايؤدى إلى ضياع هذه الرابطة الأساسية القوية كما أنه لايترتب عليه اختفاء العلاقة بين التنظيم القبلى والتوزع الاقليمي ، وإن كان من الصعب تتبع هذه العلاقة أو هذا التناظر فيما يتعلق بتفرعات القبيلة بكل دقة ، إذ كثيرا ما تتدخل بعض الاعتبارات الشخصية أو العائلية فى إعطاء أهمية بالغة لإحدى الجماعات القبلية دون غيرها بحيث قد تغفل الإشارة تماما إلى بعض هذه الأقسام القبلية لتلك الأسباب الشخصية أو الاجتماعية ومع ذلك فهناك قبائل معينة لا يختلف الأهالى جميعاً حول أصالتها وأهميتها وإن اختلفوا حول قوتها المادية والبشرية وانتشار أعضائها والدور السياسى الذى تقوم به فى المجتمع - أى دورها فى الحرب والأمان وفى الضبط الاجتماعى .. وليس من شك فى أن هذا موضوع هام يستحق الدراسة ولكن ليس هنا مجال الحديث فيه بالتفصيل وقد يمكن للقارىء الذى يريد الاستزادة من المعلومات حول هذا الموضوع الرجوع إلى الدراستين الصادرتين عن المركز القومى للبحوث

الاجتماعية والجنائية اللتين سبقت الإشارة إليهما وبخاصة إلى كتابُها المجتمعات الصحراوية فى مصر - البحث الأول - شمال سيناء حيث توجد كثير من المعلومات الهامة التفصيلية مع ضرب أمثلة لعدد من القبائل كى نبين طبيعة البناء القبلى وبخاصة فى شمال سيناء .

فليس من شأننا فى هذه (المقدمة) أن نعطى حصرا إثنوجرافيا شاملا وتفصيليا لكل القبائل الموجودة فى سيناء أو حتى لأهم هذه القبائل ، وإنما كل مانهدف إليه هنا هو إلقاء بعض الضوء على الخصائص العامة المميزة للبناء القبلى هناك . وقد يمكن أن نبدى بعض الملاحظات التى تساعد على فهم الموضوع وفى الوقت ذاته تلخص هذه الخصائص والمقومات وهى ملاحظات مستمدة من الخبرة الميدانية المباشرة وفى حدود هذه الخبرة :

(١) ليس هناك اتفاق عام حول أسماء القبائل وتفرعاتها ربما باستثناء عدد محدود من القبائل الكبرى ، وحتى فى هذه الحالة ينبغى أن تأخذ المعلومات الاثنوجرافية بشىء من الحذر ، وكثير من الجماعات التى

تعتبر نفسها (قبائل) يعتبرها غيرهم مجرد (عشائر) لايزيد عمقها على أربعة أجيال أو خمسة .

(٢) كثيرا ما تكون تقسيمات القبيلة الواحدة وتفرعاتها محل خلاف تبعاً لحجم القبيلة وعمقها مقدراً بعدد الأجيال التى تفصلها بين مؤسسى هذه الأقسام أو الفروع وبين الأحياء البالغين وتبعا لاهتمام الناس أنفسهم بتعرف ومتابعة هذه التقسيمات والتفريعات . ولكن الملاحظ بوجه عام أن الكثيرين من الأهالى بما فى ذلك أعضاء القبائل البدوية ذاتها لايكادون يعرفون سوى الفرع القبلى أو الجماعة القبلية التى ينتمون إليها بالفعل .

(٣) تختلف نظرة القبائل لنفسها ولغيرها ولبعضها البعض بحيث تضع كل قبيلة أو جماعة قبلية لنفسها معايير خاصة تحدد فى ضوئها مكانتها ودورها فى المجتمع إزاء غيرها من الجماعات القبلية المناظرة وصحيح أن معيار (الأصل) ومعيار (القِدَم) أى أسبقية النزوح إلى سيناء والإقامة فيها هما أهم المعايير والمحكات إلا أن هناك معايير أخرى أكثر خصوصية مثل القوى البشرية أو

عدد أعضاء الجماعة القبلية ومثل الثروة . وعلى العموم فإن كل جماعة قبلية تحرص على أن تبين انفرادها أو تفردها بميزة معينة تتمثل فى قيامها بوظيفة اجتماعية معينة أيضا فى البناء القبلى وبخاصة فى نسق الزعامة والرئاسة فى المجتمع مثل الوظيفة الدينية أو النظر فى نوع معين بالذات من القضايا والمنازعات أو التاريخ الحربى وما إلى ذلك .

وهذا كله معناه أن من الصعب تصنيف القبائل حسب معايير موحدة ، بل إن الروايات تختلف حتى عن تاريخ وأصل ومقومات كل قبيلة اختلافا شديدا ، ولاتخلو هذه الروايات من عناصر المبالغة والتهويل أو الاستخفاف والتهوين من شأن القبائل الأخرى .

ومع ذلك فإن التنظيم القبلى التقليدى يخضع الآن لكثير من التغيرات الناشئة عن دخول نظام الحكم المحلى والإدارة المحلية وقيام المجالس الشعبية بمستوياتها المختلفة من ناحية ، وانتشار التعليم وتقدم أساليب الاتصال الجماهيرى والإعلام من الناحية الأخرى إلى جانب بعض

العوامل الأخرى التى لاتقل تأثيراً عن ذلك .. ولكن الذى يهمنا هنا الآن هو أن قيام نظام الحكم المحلى وإنشاء المجالس الشعبية التى تتألف من أبناء سيناء عن طريق الانتخاب أتاحت كلها الفرصة للرجل العادى لأن يبدى رأيه فى الأشخاص الذين يمثلون فى هذه المجالس وأن يعلن عن ذلك الرأى صراحة . وبذلك أصبح شيوخ القبائل والعشائر والجماعات القرابية الذين يرشحون أنفسهم لعضوية هذه المجالس محل اختيار وتقييم من أعضاء تلك الجماعات القبلية والقرابية التى يحتلون فيها مكانة عالية كثيرا ما تكون متوارثة . وهذا تغيير جذرى فى المعايير التى كانت تنظم العلاقة بين أعضاء هذه الجماعات .

كذلك كان للتعليم وانتشاره ووصول أعداد متزايدة من الشباب إلى مراحل التعليم العالى والجامعى - وبخاصة فى شمال سيناء - أثره فى وضع بعض القيود على سلطة الشيوخ القلبيين والحد من نفوذهم . إذ على الرغم من أن المجلس البدوى لايزال ينظر إلى الشيوخ التقليديين باحترام وإجلال فإن آرأء المتعلمين كثيرا ما تُعطى الأولوية

وبخاصة من المشاكل المتعلقة بسياسة الحكم والعلاقة مع الحكومة . ولكن فى مثل هذه الحالات لابد من أن يجمع الشخص إلى جانب التعليم بعض المقومات الشخصية الأخرى التى تؤهله للقيادة واحتلال مركز ومكانة عاليين فى نسق التنظيم القبلى المتوارث والذى لايزال راسخا رغم مايطرأ عليه من تغيرات .

(٤)

يبقى بعد هذا كله موضوع واحد أحب أن أشير إليه فى الصفحات التالية وهو يتعلق بالجهود المبذولة الآن لتنمية سيناء ، وهى جهود تشارك فيها الدولة والقطاع الخاص والمستثمرون المصريون والعرب بل إن إمكانات الإسهام فى تنفيذ بعض المشروعات فى سيناء تداعب خيال كثير من المصريين المقيمين فى الخـارج وبعض الأجانب على السواء .

والواقع أن دراسة مشروعات التنمية فى سيناء كانت من الموضوعات الأساسية التى اهتم بها فريق البحث الذى سبقت الإشارة إليه فى الصفحات السابقة ، والذى قام بدراسة شمال سيناء ولا يزال حتى الآن يجرى دراسته وبحوثه فى جنوب سيناء ، وهى البحوث التى نعتمد عليها فى كتابة هذا القسم من المقدمة كنوع من

تكملة ما توقف عنده جمال حمدان ، ومع أن الدراسة الأنثربولوجية التى قمنا - ولازلنا نقوم بها - فى سيناء تهدف فى المحل الأول إلى رصد وتسجيل وتحليل الظواهر والعلاقات التى تؤلف أنساق البناء الاجتماعى فى سيناء فإن شطرا كبيرا من اهتمامنا كان موجها منذ البداية لتتبع الجهود التى تبذل لتنمية المجتمع السينائى ، ودراسة وتقديم المشروعات التى تم تنفيذها بالفعل وأصبحت تؤلف جزءا من الحياة الواقعية فى مجتمع سيناء ، أو المشروعات التى بسبيلها إلى التنفيذ أو التى تتضمنها خطط التنمية ، وتعرّف آراء الأهالى فيها ومن القائمين عليها وأسباب النجاح أو الفشل الذى كانت تصادفه هذه المشروعات ، والصعوبات التى كانت تواجه تنفيذها ، وذلك على اعتبار أن دراسة هذه المشكلات تؤلف الجانب التطبيقى للبحث الأنثربولوجى العام المتكامل . فهذه المعلومات المتكاملة يمكن أن تكون ركيزة لبحوث أكثر تحديد أو تعمقا ويمكن أن تخدم فى ذات الوقت المشتغلين بالتخطيط والتنمية ، بل إنها قد تساعد على تصور أنماط

بديلة للتنمية غير تلك التي توجد في المجتمعات الصناعية ، والتي يميل كثير من المخططين إلى محاكاتها وتقليدها وتطبيقها في المجتمع الصحراوى دون أن يؤخذوا الاعتبارات والاختلافات الجوهرية بين المجتمع الصناعى الغربي والمجتمع الصحراوى البدوى .

فكأن دراسة مشروعات التنمية وتقويمها كانت تميل إلى الجانب التطبيقى من البحث الأنثربولوجى العام ولكن على الجانب الآخر فإن مشكلات التنمية تشغل كما ذكرنا أذهان المسئولين فى سيناء فى كلتا المحافظتين ، محافظة شمال سيناء ومحافظة جنوب سيناء ، وهذا أمر طبيعى ليس فقط لأن سيناء مجتمع تقليـدى تقوم حياته الاقتصادية فى معظمها على ممارسة أنشطة (متخلفة) كالرعى والصيد باستخدام الأساليب القديمة البسيطة وعلى الزراعة التى تعتمـد على المطـر وعلى المياه الجوفية - وذلك إذا نحن استثنينا صناعة استخراج البترول والتعدين والمحاجر - ولكن أيضا نظرا لتوافر إمكانات

وموارد طبيعية ، ضخمة يمكن تطويرها وتنميتها والإفادة منها فى الارتفاع بمستويات الحياة بوجه عام .

كذلك فإن شبه جزيرة سيناء - وشأنها فى ذلك شأن المناطق الصحراوية الأخرى فى مصر - تعتبر فى نظر الكثيرين المتنفس الوحيد المتاح لاستيعاب بعض الزيادة السكانية الرهيبة فى مصر ، وبالتالى فهى تعتبر المجال الطبيعى لإقامة المجتمعات الجديدة والمراكز السكانية التى يمكنها استيعاب هذه الأعداد المتزايدة التى يضيق بها الوادى ، وبذلك تستطيع أن تسهم فى حل المشكلة السكانية فيما لو نفذت فيها بعض المشروعات التنموية .

ومع أن هذه النظرة إلى سيناء والمناطق الصحراوية عموما كملجأ للزيادة السكانية نظرة قديمة بعض الشئ كما أن الموضوع ذاته كان يعتبر أمراً مفروغا منه ومسلما به فقد أثير مرة أخرى وبشكل مكثف حين واجهت مصر عودة بعض مئات الألوف من الأيدى العاملة من منطقة الخليج نتيجة لغزو العراق للكويت ، وذلك لتعرف

مدى إمكان توطين هؤلاء العائدين أو بعضهم فى تلك المناطق الصحراوية ومنها سيناء وإمكان الإفادة منهم بالتالى فى تعميرها ، خاصة وأن الظروف المتعلقة بالأوضاع الأمنية فى سيناء ، وبالذات على حدودها الشرقية – تتطلب العمل على رفع الكثافة السكانية هناك ، وأن هذا لن يتحقق على الوجه الأكمل إلا فى إطار عام لخطة تهدف إلى تنمية المنطقة بحيث تصبح منطقة جذب سكانى من خارج الحدود المحلية لشبه الجزيرة ، أى من وادى النيل .

وليس ثمة ما يدعو إلى الدخول فى تفاصيل مشروعات التنمية التى يجرى تنفيذها الآن أو التى تم تنفيذها بالفعل فى سيناء ، فقد كثر الحديث عنها فى الآونة الأخيرة وأعتقد أن الكثيرين من القراء على معرفة ووعى كافيين بما يدور من نقاش حول هذه المشروعات التى تصدر عنها كثير من التصريحات الرسمية وتمتلئ بها صفحات الجرائد . ولذا فسوف أكتفى هنا بإثارة عدد من النقاط

العامة التي تتعلق بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية والملامح الأساسية لما يطلق عليه الآن اسم «استراتيجية التنمية الشاملة» وهو التعبير السائد الآن على ألسنة المسئولين فى سيناء فى كلتا المحافظتين .

وقد تختلف الآراء حول مفهوم التنمية كما تتعدد التعريفات ، ولكن كل التعريفات المتاحة على الأقل فى الكتابات الأنثربولوجية تكاد تجمع على عدد من العناصر التي يجب توافرها فى أى مشروع حتى يمكن اعتباره مشروع تنمية ، وذلك على أساس أن التنمية هى عملية تقوم على الجهود المشتركة للأهالى والحكومة بقصد استغلال الموارد الطبيعية والإمكانات البشرية الموجودة فى المجتمع وتوجيهها بما يحقق أكبر قدر ممكن من الرفاهية الاقتصادية ، والإرتفاع بمستويات الحياة الاجتماعية والثقافية مع العمل فى الوقت ذاته على ادماج المجتمع المحلى فى المجتمع القومى .

والعناصر الأساسية التى تتضمنها عملية التنمية هى :

أ ـ تكاتف وتعاون الهيئات الرسمية والأهالى فى تنفيذ المشروعات .

ب ـ النظرة الشمولية التى تعنى بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى المجتمع حتى وإن كانت الجوانب الاقتصادية هى نقطة الانطلاق فى تلك المشروعات .

جـ ـ العمل على ادماج المجتمعات المحلية المنعزلة فى المجتمع القومى .

وفى ضوء هذه العناصر سوف نحاول أن نعرض لبعض النقاط الهامة التى تبرز من الدراسة الميدانية التى قمنا بها فى سيناء على ماذكرنا من قبل ، وبالأخص فى شمال سيناء وإن كانت القضايا متشابهة فى شبه الجزيرة السينائية كلها .

والموضوع الأول الذى يفرض نفسه هنا هو النظرة الشمولية إلى عملية التنمية ، وليس المقصود بذلك هو ما تشير إليه الكتابات والتصريحات والتقارير الرسمية تحت

اسم استراتيجية التنمية الشاملة والتى تحدد بمقتضاها أربعة محاور ينبغى تنميتها وهى :

١ ـ الزراعة والرى .

٢ ـ الثروة المعدنية والصناعة .

٣ ـ الثروة السمكية .

٤ ـ السياحة .

وإنما الذى نقصده بالنظرة الشمولية إلى جانب هذه المحاور الأربعة هو ما يفهمه الأنثربولوجيون من ذلك المصطلح الذى يعنى الإحاطة بقدر الإمكان بكل النظم والأنساق الاجتماعية والاقتصادية بحيث يمكن العمل على تطوير الأنساق المختلفة التى تؤلف البناء الاجتماعى حتى تتلاءم مع متطلبات العصر مما يساعد فى آخر الأمر على ادماج المجتمعات المحلية في المناطق الصحراوية فى المجتمع القومى مع المحافظة فى ذات الوقت بقدر الإمكان على الخصائص والمقومات الأساسية المميزة لذلك المجتمع المحلى (الذى هو المجتمع السينائى فى هذه الحالة التى

نعرض لها هنا) وبخاصة فيما يتعلق بنسق القيم والعادات والتقاليد أو على الأقل عدم القضاء عليها تماما .

والموضوع الثانى الذى يفرض نفسه علينا هنا هو الأساس الإيكولوجى الذى تستند إليه استراتيجية التنمية الشاملة بمحاورها الأربعة التى سبقت الإشارة إليها والتى تعطيها محافظة شمال سيناء على الخصوص كثيرا من الاهتمام ، فهذه الاستراتيجية تأخذ فى الاعتبار الظروف والأوضاع البيئية والملامح والظواهر الجغرافية الرئيسية فى سيناء ، والتى تتمثل من ناحية فى صعوبة الحياة فى تلك المناطق القاسية من الصحراء بكل ما يحيط بها من قحولة وجدب وجفاف وقلة مطر وضعف الغطاء النباتى وزحف الكثبان وتعرض كثير من المناطق للسيول الجارفة فى بعض السنوات وما إلى ذلك ، ولكن هذه الظروف والأوضاع المناوئة يقابلها من الناحية الأخرى امتداد سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر وهى سواحل تكاد تحيط بكل جوانب سيناء ، ثم وجود بعض الثروات المعدنية

كالفحم فى منطقة المغارة فى شمال سيناء والبترول وبعض المعادن الأخرى فى جنوب سيناء . وكذلك وجود مساحات كبيرة جدا من الأراضى الصالحة للزراعة يقدرها البعض بخمسة ملايين فدان فى شمال سيناء وحدها ، وهذه الظروف والأوضاع البيئية العامة ، سواء منها الملائمة أو المناوئة ، تقف وراء مشروعات التنمية . ومع ذلك فإن الأمر يحتاج إلى إعادة النظر فى هذه الإمكانات وإعادة تقديرها تقديرا صحيحا مع عدم المبالغة أو المغالاة فى قيمتها الواقعية ؛ إذ ليس المهم هو توافر إمكانات معينة وإنما المهم هو القدرة الفعلية على الإفادة من هذه الإمكانات ، ولعل أفضل مثل لذلك هو مايقال عن وجود خمسة ملايين فدان من الأرض القابلة للزراعة فى شمال سيناء على ماذكرنا وأن المنطقة يمكنها على هذا الأساس أن توفر لمصر كل احتياجاتها من الحبوب لو توفرت لها المياه الكافية للرى ؛ ولكن بعض الدراسات حول تصنيف هذه الأراضى كشفت عن أن الغالبية العظمى منها هى أرض من الدرجة الثانية والثالثة بل والرابعة ، أى أنها فى

مجملها ليست على تلك الدرجة العالية من الخصوبة . ثم إن قلة الموارد المائية المتاحة الآن تفرض من ناحية أنواعا معينة من الزراعات واتباع أساليب معينة فى زراعتها وريها بينما سوف تظل الزراعة الكثيفة تعتمد على المطر غير المضمون ، إلا حين يتم مشروع ترعة السلام فى شمال سيناء ، وأمكن بشكل أو بآخر نقل ماء النيل إلى جنوب سيناء ، وحتي لو أمكن تذليل كل هذه الصعوبات الإيكولوجية فقد تقوم بعض الصعوبات والعوائق الاجتماعية الناجمة عن نظام الحيازة وملكية الأرض أو الانتفاع بها ومدى إمكان تمليكها لغير (أصحابها) من القبائل المقيمة فى الأراضى التى قد يقع عليها الاختيار لتنفيذ مشروعات التنمية فيها ثم هناك أيضا مشكلة مدى تقبل الأهالى (الأصليين) للسكان الجدد الوافدين وما إلى ذلك من مشكلات اجتماعية لابد من أن تؤخذ فى الاعتبار حين التخطيط لمثل هذه المشروعات .

أما المشكلة الثالثة والأخيرة التى تفرض نفسها علينا فهى تتعلق بموقف الأهالى أنفسهم من المشروعات ومن

خطط التنمية بوجه عام بل ومدى مشاركة الأهالى فى المشروعات التى يؤمنون هم أنفسهم بفائدتها وجدواها بالنسبة لهم ، وكثيرا ما تختلف آراء الناس وتقويمهم لتلك المشروعات سواء فيما يتعلق بأولوية التنفيذ وأولوية احتياج الناس إليها ومدى تحقيقها لمطالبهم . فالأجهزة الرسمية تحدد الأولويات بالنسبة للمشروعات فى ضوء الخطة العامة للمنطقة أو الإقليم ككل وهذه كثيرا ما تكون متأثرة بالخطة العامة للدولة ، وهو الأمر الذى قد يفوت على انتباه الأهالى وبخاصة فى بعض المناطق النائية حيث لايكون الناس أحيانا على دراية كافية باحتياجات المجتمع ومطالبه ككل ومن هنا تأتي الأولويات بالنسبة لهم متأثرة بمدى احتياجاتهم الخاصة ومطالبهم المحدودة والمحددة ، وبذلك تختلف الآراء وتتباين وجهات النظر بين الأهالى والأجهزة التنفيذية والهيئات المهتمة بالتخطيط والتنمية مما قد يعوق تنفيذ المشروع رغم أهميته للجميع ، مما يتطلب بالضرورة دراسة احتياجات الناس الفعلية وأخذها فى الاعتبار دون

الاكتفاء بالآراء النظرية التى يؤمن بها المخططون ويحاولون تطبيقها دون معرفة تامة وعميقة وتفصيلية بظروف المجتمع الصحراوى فى سيناء .

ولقد طالت بى هذه (المقدمة) وامتدت حتى جاوزت الحيز الذى كنت قد رسمته لنفسى فى بداية الأمر حين طلبت إلىّ دار الهلال أن أقدم للفصل الذى كتبه جمال حمدان عن سيناء فى كتابه المتميز عن «شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان » ، ولكننى كنت حريصا فى كتابتى هذه على أن أستوفى بعض النقاط التى كنت أشعر أن جمال حمدان قد تجاوزها أو لم يعالجها بالاهتمام الكافى ربما لأنها خارج نطاق الإطار الذى رسمه لنفسه وهو يؤلف كتابه ويعرض فيه لنواح وجوانب معينة وبالذات من «مصر المكان» ، وكان حرصى على أن تأتى المعلومات التى ذكرتها فى هذه المقدمة من الدراسة الميدانية التى قمت بها أنا نفسى وبمساعدة فريق من الباحثين الشبان وبتكليف من المركز القومى للبحوث

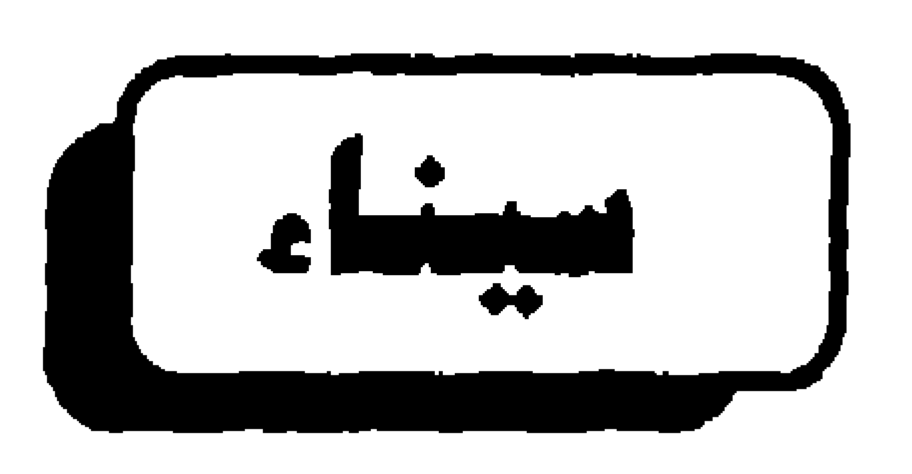
الاجتماعية والجنائية بل وأن تأتي هذه المعلومات من الكتابين اللذين أصدرهما المركز عن تلك الدراسة الميدانية التي تعتبر الأولى من نوعها فى مصر بل وفى العالم العربى ، والذى أرجوه هو أن يجد القارئ فى هذه المقدمة ما يكمل بعض الموضوعات التى درسها جمال حمدان حتى يخرج بصورة متكاملة عن سيناء ، وهى الموضوع الذى يشغل جانبا كبيرا من اهتمامنا جميعا على كل المستويات وفى مختلف المواقع .

وأنا أرجو أن تكون هذه المقدمة خير تحية لجمال حمدان الذى فقدناه والذى لم يجد منا جميعا أثناء حياته ما كان خليقا بأن يلقاه من إعزاز واعتراف وعرفان .

الإسكندرية / طور سيناء　　　　***أحمد أبوزيد***

يونيو ١٩٩٣

١



الهيكل العام

بين الشكل والموقع

سيناء – ٦١ ألف كيلو متر مربع ، حوالى ٦ ٪ أو $\frac{١}{١٦}$ من مساحة مصر ، أو نحو ٣ أمثال مساحة الدلتا – تبدو على الخريطة كمثلث منتظم بدرجة أو بأخرى ، ارتفاعه من رأس برون حتى رأس محمد نحو – ٣٨٠ – ٣٩٠ كم، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة نحو ٢١٠ كم . أى أن طوله نحو ضعف عرضه إلا قليلا ، قل بالأرقام المدورة ٤٠٠ ، ٢٠٠ كم على الترتيب .

لعل الادق ، لهذا ، أن نقول مثلثا مائلا قليلا فى الجنوب ، يرتكز على قاعدة عريضة كالمستطيل تقريبا فى الشمال . المستطيل الشمالى ، أو «شمال سيناء» ، أضلاعه قناة السويس غربا ، والحدود السياسية مع فلسطين شرقا ، ثم ساحل المتوسط شمالا ، وأخيرا الخط المائل بين رأس خليجى السويس والعقبة جنوبا ، أو قل تجاوزا خط عرض ٣٠ درجة . ومتوسط طول هذا المستطيل نحو ٢٠٠ – ٢١٠ كم ، وعرضه ثلثا ذلك تقريبا أى نحو ١٥٠ كم . أما المثلث الجنوبى ، أو «جنوب سيناء» ، فرأسه عند رأس محمد جنوب خط عرض ٢٨° بقليل ، وارتفاعه زهاء ٢٣٠ كم . أما ضلعاه فخليجا السويس والعقبة ، الأول طوله ٢٧٥ كم ، والثانى ١٨٠ كم .

بهذا الشكل تبدو سيناء ، بكتلتها المندمجة المكتنزة ، كثقل معلق أو كسلة مدلاة على كتف مصر الشرقى فى أقصى الشمال لا تلتحم بها إلا بواسطة برزخ السويس . ولقد ألفنا لذلك أن ننظر إلى سيناء على أنها تمثل أقصى شمال شرق مصر . وهذا صحيح أساسا بالطبع ، ولكن

مع تصحيحين ثانويين . فلأنها أكثر طولا منها عرضا ، نجد ثمة مفارقتين مثيرتين .

فأولا ، رغم أنها من أكثر أجزاء مصر امتدادا وتطرفا نحو الشرق ، إلا أنها ليست الأكثر فى هذا المضمار ، فهذا الموقع إنما يذهب كما رأينا إلى منطقة علبة فى أقصى جنوب شرق الصحراء الشرقية . فأقصى نقطة شرقية فى سيناء عند رأس خليج العقبة تقع على خط طول ٣٥° شــرقا ، بينما تتجاوز منطقة علبة خط ٣٧° شرقا .

ثانيا ، فرغم أنها من أكثر أجزاء مصر شمالية وتمددا نحو الشمال ، إلا أننا قليلا ما نذكر أنها ايضا بالغة التعمق نحو الجنوب ، أكثر بالتأكيد مما نتصور تقليديا . فبينما هى تبدأ مع ساحل مصر الشمالى حوالى خط عرض ٣١,٥° ، إذ بها تنتهى عند رأس محمد بعد خط عرض ٢٨° ، تقريبا على عروض ملوى فى وسط محافظة أسيوط ، أى أنها تتعمق حتى عروض قلب الصعيد الأوسط . وأنت عند رأس محمد تكون فى الحقيقة أقرب

إلى قنا وثنية قنا منك إلى القاهرة ورأس الدلتا ، وذلك بأي الطرق البحرية أو البرية المطروقة . وبعبارة أخرى فإن سيناء تترامى عبر نحو ٣ر٥ درجة عرضية ، لتبلغ بذلك أكثر من ثلث امتداد أو عمق مصر من الشمال إلى الجنوب . وبالاختصار الشديد ، سيناء $\frac{١}{١٦}$ من مصر مساحة ، ولكنها أكثر من $\frac{١}{٣}$ مصر عمقا .

الجزرية النسبية

بهذا الشكل أيضا ، تأتى سيناء فريدة بين أقاليم مصر فى وضعياتها الطبيعية . إنها شبه الجزيرة الكبيرة المتفردة الوحيدة فى يابس مصر القارى المندمج الرصيف المتصل بلا انقطاع . فليس فى مصر منطقة لها ثلاثة سواحل محيطة ، محدقة ، ومطوقة سوى سيناء (الطريف أن قناة السويس حولت هذه السواحل الثلاثة ، أو ان شئت الساحلين المنفصلين فى الشمال والجنوب ، إلى ساحل واحد متصل يلف شبه الجزيرة من جميع الجهات إلا على

حدود فلسطين) . وسيناء ، من ثم ، هى أكثر منطقة فى مصر يتداخل فيها اليابس والماء بشدة ، على التقاطع وفى أكثر من اتجاه . إنها ، بسهولة مطلقة ، أكثر أقاليم مصر «جزرية» وأقلها قارية ، النقيض المطلق لمنطقة العوينات على الركن المقابل تماما فى أقصى الجنوب الغربى .

اقرأ هذه الجزرية النسبية ، إن أردت ترجمتها الجغرافية الحية ، بلغة الارقام . فلسيناء أطول ساحل بالنسبة إلى مساحتها فى مصر ، وليس فى سيناء نقطة تبعد عن البحر إلا قليلا . عن الاولى ، يبلغ طول سواحل سيناء ٧٠٠ كم ، من ٢٤٠٠ كم هى مجموعة سواحل مصر . فسيناء بنحو ٦ر١ ٪ فقط من مساحة مصر تستأثر بنحو ١ر٢٩ ٪ من سواحل مصر . لهذا ينخفض «معامل القارية» فى سيناء كثيرا إذا ما قورن بنظيره فى مصر ككل ، كما يوضح هذا الجدول .

النسبة	سيناء		مصر(١)
نسبة السواحل إلى المساحة	٧٠٠ كم : ٦١٫٠٠٠ كم٢	١ : ٨٧	١ : ٤١٧
نسبة الحدود البرية إلى المساحة	٣٨٠ كم : ٦١٫٠٠٠ كم٢	١ : ١٦٠	١ : ٢٨٧
نسبة السواحل إلى الحدود البرية	٧٠٠ كم : ٣٨٠ كم	١ : ٥ر٠	١ : ١ر١
نسبة السواحل والحدود إلى المساحة	١٠٨٠ كم : ٦١٫٠٠٠ كم٢	١ : ٥٧	١ : ٢٠٤

(١) انظر بعده ، الجزء الثاني .

فسيناء تملك كيلومتر ساحليا لكل ٨٧ كم٢ من مساحتها ، مقابل كيلو متر لكل ٤١٧ كم٢ فى مصر عموما . بالمثل تنخفض نسبة حدود سيناء البرية إلى مساحتها عن نظيرتها فى مصر . فخلف كل كيلومتر من الحدود فى سيناء تترامى مساحة قدرها ١٦٠ كم٢ فقط ، مقابل ٣٨٧ كم٢ أى الضعف وزيادة فى حالة مصر . كذلك فبينما تكاد حدود مصر البرية تعادل سواحلها طولا، فإن سواحل سيناء تناهز ضعف حدودها البرية . وبالتالي فإن مجموع السواحل والحدود البرية إذا نسب إلى المساحة يعطى لسيناء قيمة احصائية أقل بكثير من القيمة المناظرة لمصر ، نحو الربع . ان سيناء ، من أيما منظور وبأى مقياس ، أقل قارية من مصر عموما ، بل هى أقلها قارية على وجه التخصيص ، وبالتـــالى اكثرها جزرية نسبيا .

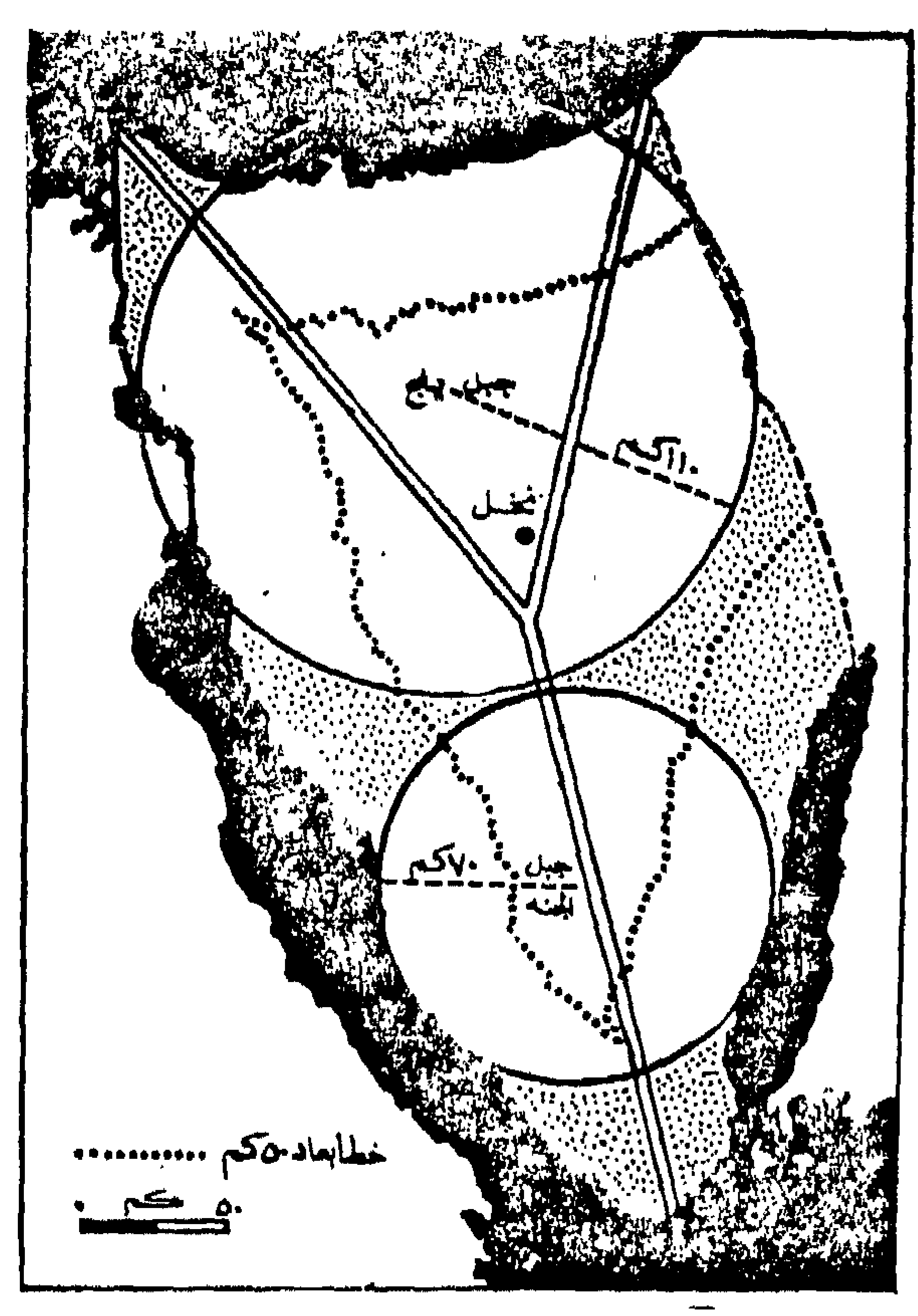
عن مدى القرب أو البعد عن البحر ، ارتكز على نقطة إلى الجنوب قليلا من نخل فى قلب سيناء ، وارسم حرف Y منتظما إلى أركان شبه الجزيرة ، تجد الخط الواصل

إلى كل من رفح وبورسعيد ورأس محمد خطا متساويا تقريبا طوله نحو ٢٠٠ كم . معنى هذا أن أبعد نقطة عن الساحل في سيناء لا تزيد على ٢٠٠ كم ، مع ملاحظة أن معظم رقعتها يقل عن ذلك كثيرا فى مدى بعده عن البحر. قــارن هذا بخط أبـعاد ٢٠٠ كم على خريطة مصر isostade ستجد الرقعة الكبرى من المساحة - على العكس من سيناء - داخل الخط لا خارجه .

العزلة ضد الاتصال

وكمقياس الجزرية - القارية ، يذهب مقياس العزلة - الاتصال . فالعزلة الطبيعية فى صحارى مصر تقل ، كالقارية ، كلما اتجهنا من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، من العوينات إلى سيناء كما رأينا . فكما أن الصحراء الشرقية أقل عزلة من الغربية ، فإن سيناء أقل عزلة من الشرقية . سيناء ، يعنى ، أقل صحارينا عزلة بالتأكيد ، وذلك لا شك بفضل الموقع البوابى البارز كمدخل

مصر الشرقي والأول بلا نزاع . ولهذا كانت سيناء بعامة على اتصال مباشر ومتواتر عبر برزخ السويس مع وادى النيل . ومن ثم نجد معظم قبائلها العربية ، التى تتكرر غالبا فـى فلسطين والجزيرة العربية ، تمتد غربا إلى شرق الدلتا ، وكان معظمها يعمل فى حرفة التجارة والنقل وخدمة قوافل الحج .



شكل ١ – سيناء أقل أجـــزاء مصر قارية وأكثـــرها جزرية نسـبيا . فكما يوضح خط أبعاد ٥٠كم وحرف Y الدال ودائرتا الابعاد، ليس فى سيناء نقطة تبعد عن البحر أكثر من ٢٠٠ كم بل من ١٠٠ – ١٢٥كم.

على أن قناة السويس عزلت هذه القبائل على جانبيها نوعا ، فانحصرت قبائل سيناء فى دائرتها المحلية [1] ، ولو أن القناة من الناحية الأخرى عادت فاستقطبت حولها كثيرا من أبناء هذه القبائل من الجانبين وصهرتهم فى بوتقة نواتها البشرية الجديدة معجلة بذلك بعملية تمصيرهم ودمجهم فى مجتمع الدولة الحديثة . والقناة بذلك كله أن تكن قد وضعت حدا للعلاقات القديمة فقد أحلت محلها تفاعلات جديدة أنضج وأرقى مستوى .

أخيرا وفى الاتجاه نفسه جاءت مأساة سيناء كأرض المعركة فى الصراع العربى - الاسرائيلى لتزيد من عمق الارتباط مع ، والانصهار فى ، مجتمع وحياة وادى النيل ، ولتخفف من عزلة سيناء ، بل ولتعدل نوعا ما من نمط حياتها الرعوى البدوى وتطبعه بالطابع المصرى أكثر . فتهجير العديد من ابناء سيناء إلى داخل وقلب الدلتا اثناء العدوانات الاسرائيلية ، واقامتهم فى القرى النيلية واختلاطهم بالفلاح المصرى ، علمهم الزراعة والاستقرار ،

(1) M. Awad,"Settlement of nomadic etc. " , p.26.

وهذا بدوره انعكس على حياتهم فى سيناء بعد العدة إليها .

الزراعة ، مثلا ، خاصة زراعة الخضراوات ، بدأوا يهتمون بها ، وكذلك تربية الاغنام المنتخبة والماشية المدخلة بدل الرغى المترحل . من ثم بدأ بناء القرى الدائمة وتوسع المدن كالقنطرة التى ستصبح مدينة جديدة تستوعب ٢٥ ألف نسمة بعد ازالة ثلاثة أرباعها فى توسيع القناة . وقد استدعى هذا العمران الاستقرارى انشاء مصنع هناك للطوب الطفلى . وهكذا إلى آخره وعلى الجملة فإن سيناء فى المستقبل لن تعود سيناء التقليدية بحال ، وإلى أقصى حد سوف تخف عزلتها إلى أدنى حد .

وهاهنا يأتى دور التخطيط القومى الواعى الفاعل كمذيب للعزلة . فبعد درس العدوان الاسرائيلى المتكرر وتجربة احتلال العدو التعسة ، أصبح ربط سيناء بالوطن الاب ودمجها فى كيانه العضوى وادخالها فى دائرة كهربائه الحيوية والحياتية بديهية أولية للبقاء . والمواصلات والتصنيع والزراعة والتعمير هى أدوات هذا التخطيط الحضارى الرئيسية .

فعن المواصلات ، تقرر اخيرا ولاول مرة مد ثلاثة خطوط حديدية بسيناء : الأول خط الساحل القديم إلى رفح ، الثانى على محور الوسط من الدفرسوار إلى أبو عجيلة ، والثالث يربط بين السابقين بطول شرق القناة ثم يمتد جنوبا بطول الساحل الغربى حتى الطور على الاقل . أما الصناعة فقد تقرر مبدأ التصنيع المحلى ، أى انتقال الصناعة إلى مناجم وخامات سيناء بدلا من نقل هذه إلى الصناعة فى الوادى . أما الزراعة والتعمير فيسيران معا على أساس استصلاح كل ما هو صالح للزراعة بسيناء مع نقل أكبر حجم ممكن من الكثافة السكانية من الوادى إلى شبه الجزيرة . وبهذا كله تنقرض إلى الأبد عزلة سيناء ، جغرافية كانت أو تاريخية ، سياسية كانت أو اجتماعية ، حضارية كانت أو حربية .

على أن سيناء إذا كانت تقليديا أقل صحارينا عزلة ، فإن هذا انما يصدق على المستوى العام فقط ، أما على المستوى التفصيلى فهو لا يصدق إلا على شمالها وحده . ونستطيع لهذا أن نميز بين نطاقين : نطاق اتصال يتفق

مع المستطيل الشمالى ، ومنطقة عزلة تتفق مع مثلث شبه الجزيرة الحقيقى . وسيناء بهذا تذكر ، على نطاق مصغر جدا بالطبع ، بشبه الجزيرة العربية حيث الهلال الخصيب شمالها طريق حى مطروق عارم بالعمران بينما الجزيرة العربية جيب هائل معزول على جانبه إلى الجنوب بين آسيا وأفريقيا .

فأما نطاق الاتصال فهو القطاع الذى يحمل كل طرق سيناء التاريخية بين الشرق والغرب . وهى طرق ثلاثة اساسا تتحدد فى الواقع بمعالم السطح . فحول نطاق الكثبان الرملية فى الشمال تدور الحركة وتتشعب إلى طريقين : واحد شمالها هو الطريق الساحلى ، والآخر جنوبها هو الطريق الأوسط . ثم بين رأسى الخليجين يجرى الطريق الثالث الجنوبى والأخير ليحمل طريق الحج إلى الأراضى المقدسة . أى أن الطريقين الأولين يؤديان إلى فلسطين والشام «طريق الشامات» ، والأخير إلى الحجاز والجزيرة العربية «درب الحج» .

هذا ويكمل طريق الشامات الطريق البحرى الملاحى

إلى الشام . لا سيما حين كانت الاخطار تهدد الطريق البرى ، بينما كان طريق خليج السويس البحرى بديلا لدرب الحج احيانا ، واحيانا أخرى كان طريق النيل - الصعيد - ثنية قنا هو البديل . وبديهى أن قيمة كل هذه الطرق قد قلت نسبيا فى العصر الحديث ، ولو أنها تحولت من مدقات إلى طرق سيارات ممهدة ، كما ضوعف الطريق الساحلى خاصة بطريق حديدى . وهناك الآن كما رأينا مشروع لتحويل طرق سيناء المحورية الثلاثة إلى خطوط حديدية فى المستقبل .

أما عن كتلة الجنوب الوعرة المتطوحة فإنها ، كجبال هامشية ، تعد هنا نهايات الأرض ليس فقط أفقيا بل ورأسيا أيضا . لذا فهى في الواقع جيب معزول على جانب سيناء لا يقل عزلة عن أعمق أعماق الصحراء الشرقية بحال ، إن لم يزد ، وكان طوال التاريخ معقل عزلة والتجاء ابتداء من تاريخ اليهودية حتى المسيحية ، من موسى حتى سانت كاترينا .

والواقع أن هذا الجزء من سيناء هو الذى يحمل فى

أسماء أماكنه كل آثار قصة موسى وفرعون واليهود من البعث حتى الخروج ، ابتداء من عيون موسى قرب رأس خليج السويس ، إلى جبل حمام فرعون وجبل حمام موسى على الساحل الغربى لسيناء ، إلى هضبة التيه فى الداخل ، إلى جبل موسى وجبل المناجاة فى عمق الجنوب أى الطور ، بما فى ذلك لا شك الوادى المقدس طوى وإن كنا لا نعرف أين هو بالضبط .

٢

وجه سيناء

العقدية هي بلا شك أخص خصائص سيناء ، ليس فقط في الموقع ولكن أيضا فى البنية والتضاريس ، ليس فقط على الأرض ولكن في الجو ، أى في المناخ ومعه بالطبع النبات . فسيناء بالتأكيد عقدة جيولوجية بارزة بل ومعقدة . هى أول وآخر جزيرة - تقريبا - فى صميم بحر الاخدود ، شأنها فى ذلك - نكاد نقول - شأن جزيرة بريم بين دفتى أو ضلفتى باب المندب على الطرف الآخر من البحر الأحمر ، إلا أنها على مقياس هائل وبمعنى مجازى نوعا .

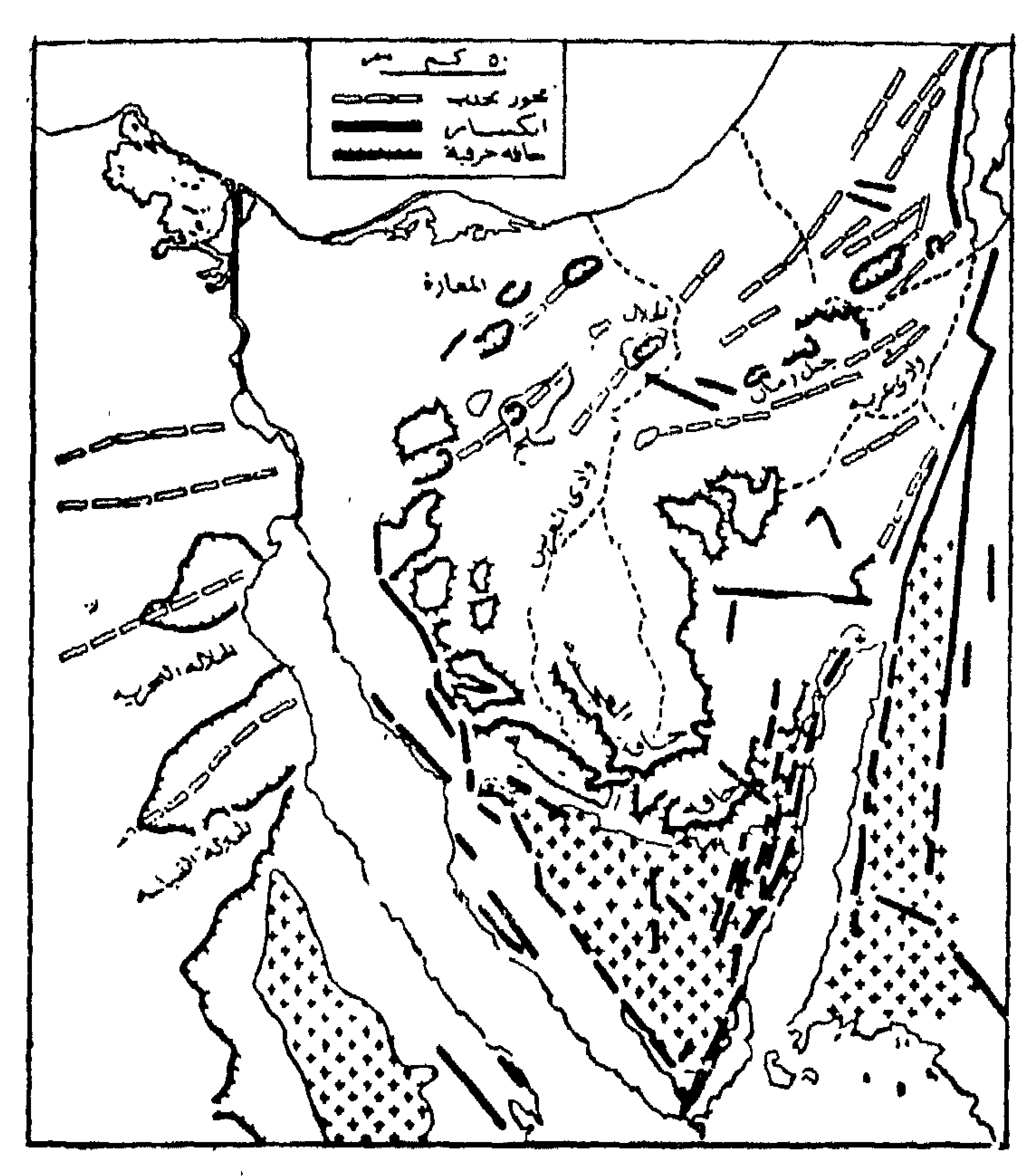
ذلك أن سيناء ، أو بالدقة الكتلة الجنوبية منها ، ليست النموذج المثالى للهورست الاخدودى الانكسارى فى مصر وحدها فحسب ولكن ربما أيضا فى كل منطقة الكتلة

العربية – النوبية جميعا . فهى وحدها الكتلة القديمة التى يكتنفها الانكسار الاخدودى من الجانبين وعلى الضلعين ، خليج العقبة وخليج السويس ، تتخندق هى بينهما كالجزيرة تقريبا وتتمترس خلفهما كالقلعة الشماء . وفى هذا تختلف سيناء عن سائر الاخدود الافريقى من حيث إنها يابس واحد بين بحرين وهو بحر واحد بين يابسين ، أو قل من حيث انها هورست واحد بين أخدودين وهو أخدود واحد بين هورستين .

حتى فى جيولوجيتها الاقليمية ، تكاد سيناء تختزل جيولوجية مصر كلها تقريبا . ففى داخل مساحتها المحدودة نسبيا تجتمع معظم أنواع التكوينات الجيولوجية وطبقات الارض والصخور التى تتمثل فى مصر عموما . بل إنها حتى لتنفرد ببعض من أنواع وعصور التكوينات التى لا تعرف فى بقية أجزاء مصر ، وإن كان ذلك على نطاق ضيق للغاية كالعصر الكربونى والجوراسى .

كذلك من حيث ليثولوجية أو مورفولوجية الصحارى ، يجتمع فى سيناء بنسب ممثلة معقولة نوع الصحراء الصخرية التى تسود الصحــراء الشرقية ونوع الصحــراء الرملية الكثيبية التى تميز الصحراء الغربية بالاضافة إلى الصحراء الحصـوية العامة والمشـتركة . والمقــدر أن الصحـــراء الرملية تغطى ١٣ ٪ من مجموع مساحة سيناء ، معظمها فى السهول الشمالية مع ألسـنة ممتدة على القطاع الشمالى من الساحل الغربى.

بالمثل جغرافيا ، فإن سيناء أدنى أن تلخص الصحراء الشرقية بصفة خاصة ، فهى تمثل «تضاغطا» مكثفا ومصغرا فى مثلث للأقاليم الطبيعية والجغرافية التى تتمثل فى مستطيل تلك الصحراء بأسرها . انها ، كما قلنا ، تصغير مثلما هى امتداد للصحـــراء الشرقية . لكن سيناء ، فضـــلا عن ذلك ، هى «المفصـــــل charniere»



شكل ٢ – خريطة مورفوتكتونية عامة لسيناء .

(عن حسان عوض ، جان درش)

(المفصلة) [1] أو العقدة الطبيعية التى تلحم افريقيا بآسيا ، ومصر عموما بالمشرق العربى مباشرة . بل إن فيها تجتمع مصر والشام والجزيرة العربية جيولوجيا وتضاريسيا . فالسهل الساحلى إنما هو استمرار لسهول فلسطين ، والهضبة الوسطى امتداد مباشر لهضبة صحراء أو بادية الشام ، أما كتلة الجبال الجنوبية فعقدة الالتحام المشتركة بين جبال حافتى الاخدود الانكساريتين فى حوض النيل والجزيرة العربية .

شبكة التصريف

كالصحراء الشرقية ، ورثت سيناء عن العصور المطيرة السابقة شبكة كثيفة من الاودية الجافة التى لا تجرى بالمياه الا فصليا وسيليا ، ترصع وجهها وتقطع مرتفعاتها وتخدد سفوحها بحدة . وهى بذلك تزيدها وعورة على وعورة وتمزيقا على تضرس ، لكنها فى الوقت نفسه تفتح لنا ، كما فى الصحراء الشرقية ، داخلها وتقرب باطنها

(1) Lorin, p. 106.

المعدنى وترسم خطوط الحركة والمواصلات ، وكذلك ترسى بمياهها وينابيعها مواطن الاستقرار والعمران .

على أن الغالبية العظمى من هذه الاودية أشبه بأودية السفوح الشرقية لا الغربية من الصحراء الشرقية ، أعنى أنها من النوع القصير الشديد الانحدار ، وذلك بحكم ضآلة المساحة النسبية . الاستثناء الوحيد هو وادى العريش الطويل المترامى المتشعب الذى ينتمى بجدارة إلى نمط أودية المنحدرات الغربية من الصحراء الشرقية ويقارن بأطولها ويوشك أن يبزها . وفيما عدا هذا فان أودية الساحل والسفوح الغربية أطول دائما من أودية الساحل والسفوح الشرقية ، كما أن هذه وتلك جميعا تمتاز بالضحالة والاتساع فى الشمال الاقل ارتفاعا بينما تزداد عمقا وضيقا كلما أوغلت فى مرتفعات الجنوب الشاهقة.

كذلك فبحكم مورفولوجية سيناء العامة وشكلها الربعة ، فإن نمط التصريف الذى يسود شبه الجزيرة برمتها هو النمط الدائرى المشع radial . فكل أوديتها تنبع من قلب

المرتفعات أو ضلوعها متجهة إلى سواحلها الثلاثة . ولذلك ترسم شبكة التصريف الهيدرولوجى خطة دائرية مثالية ، أكثر بالتأكيد وأوضح من أى شىء مماثل فى الصحراء الشرقية.

وبطبيعة الحال فإن سيناء منطقة صرف خارجى ، وهى فى هذا ، مرة اخرى ، تشبه الصحراء الشرقية من حيث إن الصرف مزدوج إلى البحرين الاحمر والمتوسط ، ومن حيث إن التصريف إلى الأول يجمع الاودية الصغرى فى الحالين بينما يستأثر التصريف إلى الثانى بالاودية الكبرى . الفارق الاساسى ، مع ذلك ، هو أن تصريف سيناء المتوسطى تصريف مباشر ، حيث تصريف الصحراء الشرقية غير مباشر عن طريق النيل .

على أن الطريف هنا نقطتان أو ثلاث على جانبى شبه الجزيرة فى أركانها المتقابلة ، تضيف أيضا إلى صفة العقدية البارزة فى هيدرولوجيتها . فالركن الشمالى الغربى الاقصى من سيناء ، مثلث سهل الطينة ، هو مورفولوجيا جزء لا يتجزأ من دلتا النيل ، تكون صلبه أو سطحه من

طميها ، وحمل أحد فروعها القديمة ، ولذا فهو هيدرولوجيا جزء من حوض النيل ونظام تصريفه .

ثم على المنحدرات الشمالية والغربية لخط جبال شمال سيناء الممتد من السويس إلى «أبو عجيلة» تجرى مجموعة من الاودية الجافة ، ابتداء من وادى الحاج إلى وادى الحسنة ، وكلها تنتهى إلى الصحراء ، فتمثل بذلك نطاقا من الصرف الداخلى .

اخيرا ، وعلى الركن المقابل شمال غرب رأس خليج العقبة فى منطقة الكونتيلا ، ثمة للغرابة رقعة تحمل رؤوس عدة أودية يضمها وادى الجرافى الذى هو أحد روافد وادى عربة الـــذى ينتهى بدوره إلى البحر الميت فى فلسطين . فالصرف هنا داخلى بحت . ولعل هذه هى منطقة الصرف الداخلى الصريح الوحيدة فى كل سيناء ، لكن وجه الغرابة ، على ضآلة الرقعة ، انها على مرمى حجر من البحر عند الخليج .

٣

عقدة مناخية

نفس فكرة العقدية واضحة بعد هذا حتى على المستوى المناخي . فسيناء هى ركن الزاوية أو زاوية الركن فى اطار الرطوبة الساحلية الخفيف على ضلعى مصر البحريين ، وفيها تجتمع آخر السنة الرياح الشرقية بأمطارها العاصفية الربيعية مع فلول الغربيات العكسية بأعاصيرها الشتوية . ولهذا يضطرب جو سيناء بشدة فى الخريف والربيع حين تكثر فى هذين الفصلين العواصف الرعدية العاتية والسيول المدمرة ، هذا إلى جانب أمطار الشتاء برخاتها التى لا تقل عدم انتظام . ومن هنا تكاد سيناء تتميز، على استحياء شديد وبمقياس ميكروسكوبى، بقمتين فصليتين للمطر ، الشتاء والخريف .

وبكل المقاييس المناخية بالطبع ، فإن سيناء منطقة

صحراوية أو شبه صحراوية على أفضل الاحوال . فالامطار قليلة نادرة ، تتخلف أحيانا وأحيانا تتحول إلى سيول فجائية عنيفة كأفواه القرب . لكن سيناء على أية حال أغزر مطرا من كلتا الصحراوين الشرقية والغربية بعامة ، إذ يتراوح المطر فيها بين ٦ بوصات في الشمال ، ٣ - ٢ في الجنوب . ولقد تكون في كلتا هاتين الصحـــراوين رقع محلية تفوق كثيرا من أجزاء سيناء مطرا ، لكن سيناء بيقين هي أغزر صحارينا مطرا على وجه العموم .

وشريط الساحل هو أغزر سيناء مطرا ، خاصة كلما اتجهنا شرقا بحكم وضعيات محور الساحل المتغيرة بالنسبة إلى الرياح الشمالية الغربية . وإذا كان المطر بعد هذا يقل هكذا كقاعدة من الشمال إلى الجنوب ،فإنه في أقصى الجنوب المرتفع وبحكم التصعيد الاوروجرافي يعود إلى قمة محلية ثانوية يزداد فيها من جديد ، تاركا الوسط بين الطرفين «كانخفاض» مطري عميق يجعله أشد أجزاء سيناء جفافا . معنى هذا أن هناك قمتين للمطر اقليميا مثلما هناك فصليا . وفي هذا تختلف سيناء عن

الصحراوين الشرقية والغربية ، أو قل هى تجمع بينهما ، حيث يقل المطر بانتظام نحو الشمال فى الأولى ونحو الجنوب فى الثانية .

وعقـــدة نباتيـــة

هذا التعدل الطفيف أو النسبى فى درجة الجفاف ينعكس بطبيعة الحال على الغطاء النباتى . فنسبة الكساء الخضرى ،الذى يختفى تماما فى المناطق القاحلة الجرداء، يزيد نوعا فى رقع كثيرة حتى تصل إلى ١٠ ٪، ٢٠ ٪ بل واحيانا إلى ٣٠ ، ٤٠ ٪ وحتى الكثبان الساحلية لا تخلو من بقعَ نباتية تنقطها ، وأحيانا تمسكها وتثبتها . كذلك فرغم أن أنواع النباتات والاعشاب السائدة هى أنواع الجفاف عموما وأنواع الملوحة فى المستنقعات الملحية ، فإن أنواع الرطوبة hygrophytes تنتشر فى المناطق الجبلية المرتفعة على السفوح والقمم والاودية الجبلية . وفى بعض الرقع نكاد نكون ازاء منطقة شجرية لا صحراوية ،

حيث تتكاثف آجام الشجيرات والاشجار ، خاصة من الاثل والسنط ، بجانب النخيل العالى بالطبع ، فى شبة واحات ولا نقول شبه ادغال واضحة الغنى والوفرة ، كوادى فيران مثلا نموذجيا .

وعلى النقيض من جبال الصحراء الشرقية العارية الموحشة ، تحمل جبال جنوب سيناء غطاء نباتيا غنيا على كل الارتفاعات من القاع إلى القمة . وتزداد هذه النباتات غنى كلما اتجهنا إلى أقصى الجنوب [1] . وحتى السطوح والسفوح الصخرية الصماء ، التى تخلو من التربة تماما ، لا تخلو من انبثاق نباتات الشقوق المتخصصة chas-mophytes. كذلك فعلى سفوح ومنحدرات الجبال الجنوبية الشاهقة تعرف ظاهرة المناطق النباتية الطباقية التى تتوالى بحسب الارتفاعات المختلفة vertical zonation، بل

(1) A.M. Migahid et al., "Ecological observations in western & southern Sinai " . B.S.G.E., 1959, p. 175.

وتظهر الفروق البارزة بين السفوح الشمالية المواجهة للرياح والمطر بغطائها النباتي الغني وبين السفوح الجنوبية في منصرف الرياح وظل المطر فتبدو الخضرة عليها أقل كثافة وربما تصبح قاحلة تماما (aspect) [١] .

على أن المثير حقا في النبات الطبيعي بعامة هو غنى سيناء الشديد بالأنواع النباتية . فلقد قدر أن هناك أكثر من ٥٢٧ نوعا ، ربعها على الاقل لا وجود له في أي منطقة أخرى من مصر [٢] ، مما يشير إلى ارتباطات اقليمية خاصة ، ايكولوجية وبيئية ، بمناطق جغرافية مجاورة . والواقع أن سيناء تجمع في نباتها عناصر من كلتا القارتين افريقيا وآسيا . إنها ، مرة أخرى ، خاصية العقدية الاقليمية . فهي تنفرد عن سائر أقاليم مصر بأنواع أسيوية ، في الوقت الذي تنفصل فيه – كما يلاحظ

---

(1) Id., P. 190 .
(2) Id., P. 175 .

مجاهد وزملاؤه – عن أقاليم مصر الجغرافية – النباتية بحاجز خليج السويس الفعال ، «بحيث تبدو معزولة تقريبا ولها نباتها الخاص وحدها» : وفى جبال الجنوب المنعزلة بالذات بقايا لنباتات غرب آسيا بوجه عام [1] .

---

(1) Id., P. 167 .

٤

أفريقية أم أسيوية ؟

افريقية أم أسيوية ؟ - هذا هو السؤال ، القديم الجديد، الذى يطرح نفسه عند هذا الحد ويتطلب منا اجابة علمية شافية - وواعية أيضا . فالأمر ما ألح بعض الكتاب والعلماء الغربيين منذ وقت مبكر فى القرن الماضى على هذا السؤال إلحاحا سافرا ومريبا ، ليس فقط بشريا ولكن طبيعيا ، ليس فقط جغرافيا ولكن حتى جيولوجيا . ومن أسف أن بعضا منا رجع التساؤل نفسه دون وعى فكرى وبلا نقد علمى كاف . لكن واقع الامر علميا أن المشكلة مفتعلة والقضية مزيفة ، أصطنعها الاستعمار تمهيدا وتبريرا فكريا لاغراض سياسية بعيدة ومبيتة تكشفت فيما بعد . أما الحقيقة الموضوعية فى الجدل كله فمسئولية العلم ، والعلم الجغرافى وحده .

فلأن سيناء ، كشبه جزيرة يطوقها خليجان متعمقان ، تنفصل أرضيا انفصالا جزئيا عن كتلة أرض مصر وتتصل بالدرجة نفسها تقريبا باليابس الاسيوى ، فقد ألحقها البعض تصنيفيا بالجانب الاسيوى أو العربى ، بينما حار البعض الآخر فى تحديد موقفها أو موقعها جيوديزيا وغير جيوديزى . هذا فضلا بالطبع عن تشابه بعض ملامح التضاريس والسطح والمناخ ، وكذلك بعض أنواع النبات الاسيوية المتخلفة ، عدا تدفق قبائل البدو العربية السامية المتوطنة (ودعك من الاسم نفسه ، سيناء، السامى الاصل من سين اله القمر عندهم ، أى بمعنى أرض القمر) .

حتى على المستوى الجيولوجى البحت ، حاول البعض أن يربطها بالجانب الاسيوى دون الافريقى . يقول لوران مثلا ، «شبه جزيرة سيناء تكمل شبه الجزيرة العربية ، التى تربطها بها كل خصائصها الجيولوجية ، فخليج العقبة، الذى يحفها من الشرق ، هو الاستمرار لانكسار وادى الاردن الفلسطينى الكبير (......) ، ولا يختلف على

الجملة عن البحر الميت ، المماثل تحت أبعاد مصغرة ، إلا في أنه يتصل بالمياه المفتوحة » (١) .

من هنا جميعا اعتبر البعض سيناء جزءا من بلاد العرب الصخرية Arabia Paetra التى تقع شمال غرب الجزيرة العربية فى منطقة مدين والحجاز ، ومن ثم أصبحت عندهم جزءا من آسيا (٢) . بل هناك أيضا من شبهها بأنها تصغير شديد للجزيرة العربية بيئة وبنية وتركيبا (٣) . ولقد تبدو سيناء بالفعل ، بحسبان اتصالها الارضى مع شبه القارة العربية بمعناها الواسع الذى يشمل الهلال الخصيب ثم تشابه التركيب الارضى والهيئة الطبيعية والطبيعة الجغرافية بين الاثنتين بدرجة أو بأخرى، قد تبدو وكأنها نتوء بارز واستمرار مصغر لكتلة الجزيرة العربية على نحو ما تفعل شبه جزيرة آسيا الصغرى مثلا بالنسبة إلى قارة آسيا . يعنى أن سيناء قد تبدو من هذه الوجهة ولأول وهلة وكأنها «جزيرة العرب الصغرى Arabia Minor » ، على وزن آسيا الصغرى Asia Minor .

---

(1) P. 106 . (2) Id.,

(3) j. L. Myres, The dawn of history, H.U.L., 1933, p. 47.

مصر الصغرى

لكن الحقيقة مختلفة عن ذلك كثيرا . فالواقع أن سيناء انما امتداد أو تصغير لصحراء مصر الشرقية أكثر مما هى امتداد أو تصغير للجزيرة العربية . وهى أقرب فى الجيولوجيا والطبوغرافيا والمناخ والمائية والنبات إلى الأولى منها إلى الثانية ، فلا هى جزء لا يتجزأ من قارة آسيا ولا هى من بلاد العرب الحجرية أى العرب البتراء أو شبه القارة العربية فى شىء .

خذ الجيولوجيا أولا. إن خليج العقبة استمرار لانكسار أخدود البحر الميت ، كما يشير أو يثير لوران ، إنما يمعن لا فى فصل سيناء عن مصر ولكن فى فصل سيناء بل ومصر جميعا عن شبه الجزيرة العربية وعن الشام كليهما، وذلك بحسبان أن خليج العقبة بعمقه الخندقى العظيم ، وليس خليج السويس الرصيفى الضحل ، هو المسار

الشريانى هنا للأخدود الافريقى العظيم ، ومن ثم «خط الاستواء الجيولوجى» الحقيقى بل الوحيد أصلا وأساسا داخل الكتلة العربية - النوبية الجوندوانية الصلبة ككل .

اما تشابه مظاهر السطح والتضاريس فعام ومشترك بين سيناء والصحراء الشرقية كما بينهما معا وبين غرب الجزيرة العربية . وفوق هذا فإن الاخيرة والشام ينفردان دون سيناء والصحراء الشرقية بغطاءات اللافا البركانية وطفوح الحرات البازلتية الهائلة المساحة والانتشار ، بما يرجح كفة افريقية سيناء فى ميزان المقارنة .

أخيرا ، عن الانواع الاسيوية في نبات سيناء ، نقول إنها الاقلية لا الأغلبية كما رأينا ، هذا إلى أن ظاهرة الانواع النباتية الغريبة أو الاجنبية فى مصر لا تقتصر على سيناء وانما تسرى على أركانها الهامشية الثلاثة كما رأينا فى جبل علبة ومرمريكا ، وهى قانون عالمى عام في كل مناطق الانتقال الحيوية أى البيولوجية على التخوم والاطراف .

والحقيقة أن الخطأ فى اتباع سيناء جيولوجيا أو

جغرافيا أو طبيعيا للجزيرة العربية دون مصر إنما ينبع
من انكسار عام فى الرؤية العلمية مثلما يذكر «بخداع
ارسطو» . فمصر والجزيرة كلتاهما كما رأينا نظائر
جيولوجية على ضلعى الاخدود الافريقى بعد أن كانتا
اصلا وحدة جيولوجية واحدة فى الكتلة العربية - النوبية
الصلبة . فالتشابه الجيولوجى مشترك بين الجميع سيناء
ومصر والجزيرة . وسيناء فى هذا هى العقدة الجيولوجية
مثلما هى العقدة الجغرافية بين الجانبين ، إلا انها دائما
أقرب جيولوجيا إلى صحراء مصر الشرقية مثلما هى
أدخل جغرافيا فى مصر الام عموما .

ثم بعد هذا فإذا كانت سيناء تبدو كنتوء بارز من كتلة
الجزيرة العربية بمعناها الواسع ، فإن نظرة إلى الخريطة
لتوضح على الفور أنها المتمم الطبيعى لجسم مصر الذى
يكمل مربعها المنتظم فى أقصى الشمال الشرقى تماما
كما تكمل آسيا الصغرى مثلث قارة أوروبا فى أقصى
جنوبها الشرقى رغم أنها تخرج ناتئة من كتلة القارة
الاسيوية الكبرى . أكثر من هذا ، فتماما كما تعد شبه

جزيرة آسيا الصغرى جغرافيا من أوروبا ، شأنها فى ذلك شأن شبه جزيرة أيبيريا كما ينبهنا كريسى وذلك رغم أنها من آسيا جيوديزيا [1] ، نستطيع أن نرى أن سيناء التى تلتحم باليابس المصرى بقدر ما تلتحم باليابس العربي هى من مصر وافريقيا جيوديزيا وجغرافيا اكثر مما هى من آسيا والجزيرة العربية . إنها فى معنى حقيقى جدا «مصر الصغـرى Egypt Minor أكثر منها جزيرة العرب الصغرى .

وبهذا فإن السؤال «افريقية أم أسيوية» محسوم علميا ، ولا مبرر لحيرة أو لتناقض . فسيناء ، على المستوى الطبيعى ، افريقية اكثر مما هى اسيوية ، ومصرية اكثر وأكثر منها عربية . كل هذا ، لاحظ ، على المستوى الطبيعى فى الجيولوجيا والجغرافيا والأرض ، أما في التاريخ فتلك قصة أخرى نعرض لها فيما بعد . وكل ما يمكن أن نقوله هنا هو أن مصر كما هى فى افريقيا بالجغرفيا فانها فى آسيا بالتاريخ . وفى هذا المفهوم فإن

(1) G.B. Cressey, Asia's lands & peoples, Mc Graw-Hill, 1952, p. 403 .

مصر تزداد أسيوية بالضرورة كلما اتجهنا شمالا بشرق، فالصحراء الشرقية اكثر اسيوية إلي حد ما من الغربية ، وسيناء أكثر نوعا من الاثنتين ، ولكنها فى النهاية لا تزيد أسيوية ولا تقل افريقية عن مصر . إنها بكل بساطة جزء لا يتجزأ من مصر ، كما تذهب تذهب .

الموارد والاقتصاد

الماء ، ماء المطر بأوديته والينابيع ، والماء الباطنى بآباره والعيون - ذلك هو ضابط الحياة الأولى فى سيناء ، وعوامله الاولية تلك ، أى الاودية أولا والآبار ثانيا ، هى ضوابط توزيعها الحاكمة . وفى سيناء ما لا يقل عن ٢٥٠ بئرا أو عينا من مختلف القدرات والتدفقات [١] . ومعظم هذه الآبار والعيون يقع فى بطون الاودية كالعريش وفيران، وبعضها يقع فى المناطق الرملية كالنطاق الشمالى وكعيون موسى ، وبعضها خارج النوعين كالمناطق الجبلية

(١) رشدى سعيد ، تعمير شبه جزيرة سيناء ، القاهرة ، ص ٦١ .

فى الطور ، كما توجد صهاريج محفورة فى الصخر فى القصيمة والجديرات .

ومن المؤكد أن الامكانيات الكامنة لموارد المياه فى سيناء تفوق الموارد المنتجة والمستغلة منها فعلا فى الوقت الحالى . فبعض الابحاث فى منطقة العريش مثلا تدل على أن من الممكن دق آبار تزيد ثلاثة أمثال عما هو موجود حاليا [١] . كذلك كشفت محاولات البحث عن البترول عن آبار جافة بتروليا ولكنها غنية بالمياه العذبة على أعماق مختلفة دون أن تستغل أو تعرف مصادرها ، مثال ذلك بير حبشى شرق البحيرات المرة (عمق ٤٦٠ مترا) ، بير أبو قطيفة جنوب شرق السويس (٦٢٠ مترا) ، نخل وسط شبه الجزيرة (٩٠٠ - ١٣٥٠ مترا) .

ثم هناك المياه السطحية ، مياه السيول الجارية بالأودية العديدة والتى يمكن استغلالها بواسطة سدود صغيرة ، ولو أن التجربة اثبتت فشلها غالبا إما لاطمائها السريع أو لانهيارها تحت ضغط السيول الجارفة . ولذا يفضل

(١) السابق ، ص ٥٠ .

البعض التوصية بالاتجاه إلى الصهاريج الصخرية المتناثرة.

على أنه يبقى فى النهاية بالطبع أن هذه جميعا موارد محدودة متواضعة نسبيا . ومع ذلك فإن الموارد المائية فى سيناء لا ترادف أو تحدد الموارد الاقتصادية جميعا وانما الموارد الزراعية والرعوية فقط . فهناك ، بالاضافة ، الموارد المعدنية التى قد تزيد أهمية بكثير جدا ، ثم موارد الصيد التى قد لا تقل أهمية بكثير جدا . الزراعة ، الرعى، المعادن ، الصيد - بهذه الرباعية اذن تتحدد اقتصاديات سيناء وبالتالى امكانياتها العمرانية والبشرية .

٥

عقدة اقتصادية

وبهذه الرباعية وبهذا التعدد البادى تجمع سيناء ايضا وبصورة دالة بين اقتصاديات كلتا الصحراوين الغربية والشرقية . من الاولى تأخذ رعى الساحل المختلط وزراعة واحات الداخل ، ومن الثانية تأخذ اقتصاد التعدين والصيد البحرى . إنها «عقدة» اقتصادية أيضا ، تختزل مجمل صحارينا مرة أخرى .

والواقع أن ساحل سيناء الشمالى ، بأمطاره ومياه كثبانه ورماله وبقطعانه وزراعاته بل وبمدنه وبدوه ثم بامكانياته السياحية الجذابة ، يكاد يكرر إلى حد ما نطاق مرمريكا على ساحل الصحراء الغربية الشمالي ، على الاقل فى ملامحه الاساسية ، كما لا يخلو من أشباه

واحاتها الداخلية بمعنى ما أو بالادق من «واحات الكثبان».
حتى دور الرومان وطرقهم وآبارهم والصهاريج ، التى تعرف هنا «بالهرابات» ، وكذلك الدلائل على أن السكان والعمران كانت أكثر فى الماضى ، ثم أدلة تعرية النبات والتربة بافراط الرعى وازالة الاشجار ، كلها تتكرر هنا أيضا . فتاريخ الجفار أو ساحل شمال سيناء عمرانيا هو كتاريخ مراقية أو مرمريكا مريوط . خذ مثلا شهادة ابن عبد الحكم :« ... الجفار بأجمعه كان أيام فرعون وموسى فى غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان » .

هذا من ناحية . من الناحية الاخرى ، فإن كتلة جنوب سيناء ، بجبالها واوديتها وبسواحلها الصخرية وبمعادنها ومناجمها ومدن معسكرات التعدين وموانىء صيد الاسماك، تكرر بوضوح كاف نمط الاستغلال والاستقرار السائد فى الصحراء الشرقية فى جبال وسواحل البحر الاحمر . وهكذا تنتهى سيناء وهى تجمع بطريقة ما بين نمطى الصحراوين الغربية والشرقية الاساسيين فى الاستثمار والتعمير .

واخيرا ، ورغم اشتراك أضلاع مثلث سيناء الثلاثة فى الرعى والصيد بنسب مختلفة ، وكذلك فى الزراعة إلى حد أقل ، يمكن القول بصفة تعميمية أو تغليبية لا تنفى الاستثناءات أن الساحل الشمالى هو أساسا ساحل الزراعة ، والغربى هو ساحل التعدين ، والشرقى هو ساحل الرعى .

المركب الاقتصادي

أهم مناطق الزراعة في سيناء هى الساحل الشمالى المطير حيث يوجد شريط من الأراضى الرملية - الطينية الصالحة للزراعة والتى لا تنقصها موارد المياه المعقولة . وهى زراعة أمطار - آبار مشتركة أو مزدوجة ، أكثر منها زراعة مطرية بعلية مباشرة كمريوط أو زراعة واحات مياه جوفية مطلقة كواحات الصحراء الغربية . أو قل هى زراعة مطرية غير مباشرة أو زراعة شبه واحات .

فالامطار تسقط فتروى بعض المحاصيل مباشرة ، ثم تتسرب فى الكثبان الرملية حيث تختزن فى قاعها فتستدق

بالآبار الضحلة لتروى محاصيل أخرى بين فجوات الكثبان. وفى منطقة العريش تسود الآبار واسعة القطر (٨ – ١٠ أمتار) قليلة العمق (٦ أمتار) ، ترفع منها المياه بالشواديف . ولكل مزارع عادة بئر خاصة تسقى نحو ٥٠٠ «تحويلة» ، أى لكل مزرعة بئرها أو لكل بئر مزرعتها المسورة بسياج نباتى (١) .

ومياه هذه الآبار عذبة رغم شدة القرب من البحر ومن السطح على السواء . والقطاع الشرقى ، خاصة العريش – رفح ، هو أغنى النطاق ، بينما فى أقصى القطاع الغربى فى سهل الطينة الدلتاوى امكانيات جيدة للاستصلاح والاستزراع .

هكذا على طول الساحل ، وإلى جانب آجام النخيل الكثيفة وبينها وتحت ظلها intercuiture . تنتشر زراعات الفواكه والاشجار المثمرة من أنواع البحر المتوسط (خاصة التين والزيتون) ، والخضراوات والمقات (خاصة البطيخ الذى يمثل العلف الصيفى الاساسى للابل كما

(١) عز الدين فراج ، ص ١١٦ .

يصدر فائضه إلى الوادى) ، فضلا عن الشعير الذي هو محصول الحبوب الرئيسى . وفى قطاع العريش - رفح المتميز يصل غنى الزراعة النسبى إلى حد تعرف معه الدورة الزراعية التى تجمع بين الشعير شتاء والذرة الرفيعة صيفا . كذلك فهنا فقط من بين كل سيناء توجد الابقار والماشية وإن كانت من الحجم الصغير نوعا ، ومثلها تفعل الخيل والحمير .

خارج هذا النطاق الساحلى تقتصر الزراعة على رقع أو بقع متناثرة كالجزر حول الآبار فى بطون وجوانب بعض الاودية أو فى دالاتها كزراعة شبه واحية ضئيلة ، أساسها الشعير وربما الذرة ، ثم النخيل وربما الزيتون ، إلى جانب بعض الفواكه المختلفة . من أهم هذه النقط المبعثرة في الحقول الشمالية نخل وثمد والعوجة والقصيمة حيث عين جديرات الشهيرة بالزيتون . أما فى الهضبة الجنوبية فهناك واحة وادى فيران الغنية بمياهها ونباتاتها ومزروعاتها خاصة الفواكه ، وواحة دير سانت كاترينا التى تغذى الدير ، ثم أساسا سهل القاع .

فيما عدا هذا فان امكانيات الزراعة في سيناء رهن بمشروعات الرى والاستصلاح ، أما على أساس موارد المياه المحلية وهو أساس محدود ولكنه اقتصادى ، وأما على أساس مياه النيل المنقولة وهو باهظ التكاليف بالطبع. الاولى محورها إما مضاعفة السحب بدق الآبار العميقة التى تتخطى الطبقة المطرية السطحية إلى طبقة المياه الباطنية العميقة التى تعرف محليا باسم «الفجرة» (١) ، أو اقامة عشرات السدود الصغيرة لحجز مياه الاودية الدافقة الفاقدة . وأكبر هذه السدود كان سد الروافعة على وادى العريش قرب أبو عجيلة بطاقة ١ - ٣ ملايين متر مكعب ، وإن كان الاطماء المتراكم فى خزان السد والرشح فى الترع قد أدى إلى فشل المشروع . وهناك مشروع سد آخر على الوادى عند الضيقة أعلى الروافعة بكيلومترات .

أما مبدأ توصيل مياه النيل أسفل القناة عبر سحارة خاصة من ترعة الاسماعيلية ففكرة قديمة ، وقد تحققت مؤخرا رغم اضطراب المشروع بسبب العدوانات

---

(١) رشدى سعيد ، تعمير ، ص ٥١ .

الاسرائيلية . وبه عاد قطاع من سيناء ، كما كان فى القديم ، جزءا من حوض النيل . وكانت خطة المشروع زراعة ٥٠ ألف فدان فى غرب سيناء ، يمكن التوسع فيها مستقبلا لتشمل استصلاح سهل الطينة ، كما يمكن مده ليتصل بوادى العريش نفسه مباشرة أو حتى عن طريق وادى الحاج ووادى بروك [١] . وهناك الآن تقديرات مليونية لامكانيات التوسع ، إذا تحققت فستقلب الصورة تماما .

رغم أهمية هذا الاقتصاد والاسقرار الزراعي ، فإن الرعي يسود ، بحيث يغطى الرقعة الكبرى من سيناء ويمثل الحرفة الاساسية للقطاع الاكبر من السكان ، نحو الثلثين ربما . وهكذا تنتشر قبائل البدو الرحل التى تتحرك بلا حدود أو بانتظام وراء المرعى . واغنى نطاق من المراعى يتوزع فى ظهير النطاق الساحلى ، ولكن مع المطر يقل المرعى داخله كلما اتجهنا غربا وتزداد خشونته وملوحته . ولما كان من الثابت أن سيناء قد ورثت غطاء نباتيا مخربا ومبددا بسبب تعرية الرعى أساسا ، فإن

(١) السابق ، ص ٤٧ – ٤٨ .

البعض لا ينصح باعتماد أعادة تنمية الرعى من جديد [1].
وربما كان رعى البحر أجدى ، فسيناء بسواحلها الثلاثة وبحيرات الشمال ذات امكانيات ضخمة فى صيد الاسماك .

الثروة المعدنية

عن المعادن ، أخيرا ، فلعل سيناء أول مناجم مصر القديمة ، حتى قبل الاسرات ومنذ البدارى ، إن لم تكن حقا أقدم مناجم العالم المعروفة فى التاريخ . وكما فى الصحراء الشرقية ، آثار وبقايا عمليات التعدين التاريخية لاتزال شاهدة شاخصة حتى الآن ، أحيانا ببوتقاتها وقوالب السبك وكسر الخام ، وذلك ابتداء من الذهب إلى الفيروز والنحاس ، ومن المغارة إلى صرابيت الخادم .

ورغم أهمية التعدين منذ القدم ، ثم فى العصر الحديث خاصة ، وبالاخص منذ البترول ، فإنه يقتصر أساسا على

(١) السابق ، ص ٥١ – ٥٢ .

نطاق ساحل خليج السويس وما وراءه من منحدرات على ضلوع الهضبة . فهنا كانت تتركز مناجم المعادن والاحجار الكريمة الفرعونية القديمة ، وهنا تتركز مناجم المنجنيز والحديد الحديثة ، وأهم منها حقول البترول التى كانت فى وقت ما تقدم نحو ثلثى انتاج مصر .

على أن امكانيات سيناء المعدنية تتجاوز هذه المنطقة وتلك المعادن بكثير ، كما اثبتت الكشوف الحديثة التى أضافت آفاقا جديدة فى المنجنيز والفوسفات والنحاس والحديد ثم الفحم ، عدا الكاولين والجبس والرمال االسوداء والكوارتزية البيضاء.

ففى المنجنيز كشف عن مواطن جديدة فى جبل موسى وحول دير سانت كاترينا ، وكذلك فى منطقة شرم الشيخ حيث رصد منه ٣٠ ألف طن خاما . والفوسفات وجد أيضا فى السفوح العليا لهضبة التيه وحول هضبة العجمة فضلا عن شمال سيناء . أما النحاس ففى الجنوب هناك وادى سمرة والجنوب الشرقى ، وفى الوسط المغارة

وسرابيط الخادم ووادى الغيب ثم فى الغرب . وعثر على الحديد فى مناطق الكريتاسي الاعلى .

لكن الفحم يقينا هو مزية أو هدية سيناء الخاصة . فقد جاء الكشف الثورى فى منتصف الستينات برصيد يبلغ نحو ١٠٠ مليون طن مؤكدة ، ١٠٠ مليون أخرى محتملة. حقل المغارة فى الصدارة ، ٥٢ مليون طن مؤكدة ، ٣٦ مليونا محتملة . تلى منطقة بدعة وثور ، ١٥ مليونا مؤكدة، ٦٠ مليونا محتملة . أخيرا فى عيون موسى ٤٠ مليونا ، ولو أنها فى تقدير آخر ١٨٫٥ مليون فقط . النوعية فى المغارة وعيون موسى تصلح لتشغيل محطات القوى الكهربائية ومجمعات الحديد والصلب . فى حقل المغارة بدأ الاستغلال قبل ١٩٦٧ ، وذلك بمنجم الصفا وبطاقة ١٠٠٠ طن يوميا ، لكن العدوان الاسرائيلى أوقفه . وقد تقرر الآن فتح ٥ مناجم جديدة إلى جانب اعادة تشغيل الصفا الذى يقدر أن انتاجه يمكن أن يلبى ٣٠ ٪ من احتياجات صناعة الحديد والصلب بحلوان ، ويمكن أن

ينقل اليها تلقائيا ومباشرة على خط سكة حديد العريش بعد اعادة تشغيله .

أما عن الكاولين فهناك منجم من نوعية ممتازة تصلح لأفضل أنواع الخزف ، وكانت طاقته قبل العدوان ٤٠ ألف طن سنويا . وفى الخبوبة ، وسط سيناء ، أكبر وانقى منجم للرمال البيضاء الصالحة لانتاج ارقى انواع الزجاج، وكانت طاقته ٢٥ الف طن . اما الجبس ففى رأس ملعب ، والنوعية ممتازة تصلح للتصدير ، أما الانتاج فنحو ١٢٠ الف طن سنويا .

٦

الهيكل العمرانى

الآن ، على هذه القاعدة الاقتصادية المخلخلة نسبيا ، يقوم الهيكل العمرانى وبها يتحدد . فمجموع السكان محدود جدا بالنسبة إلى المساحة الشاسعة . وتتفاوت تقديرات السكان بشدة ، ما بين ١٠٠ الف ، ٢٠٠ ألف قبل الاحتلال الاسرائيلى (الذى فرغ المنطقة من نحو نصف سكانها فيما يقدر بالتهجير الاجبارى والطرد والارهاب ، وبذا أحال سيناء إلى منطقة طرد بشرى تصدر السكان إلى وادى النيل بدل أن تستوردهم) . أما فى تعداد ١٩٧٦ فقد قدر عدد سكان المناطق غير المحررة بنحو ١٤٧ الفا ، بينما بلغ سكان المنطقة المحررة ١٠ آلاف . أى أن المجموع الكلى نحو ١٥٧ الفا ، أو ما يعادل بالكاد سكان مدينة متوسطة الحجم فى الوادى .

لهذا فإن متوسط الكثافة العام منخفض جدا ، ٥ر٢ نسمة في الكيلو المربع .

يبقى ، مع ذلك ، أن رقم السكان المقدر إن صح يجعل من سيناء ، صغرى صحارينا مساحة ، كبراها سكانا على الارجح ، أكبر جدا بالتأكيد من الصحراء الشرقية ، وربما اكبر من الصحراء الغربية بواحاتها وساحلها أو على الاقل قدرها . ولقد كانت سيناء دائما اكبر سكانا من الصحراء الشرقية (٣٨ الفا مقابل ١٦ الفا ، أى أكثر من الضعف ، فى ١٩٤٧) ، ولكن لم يكن هكذا الوضع قط بالنسبة إلى الصحراء الغربية التى عدت ٣ أمثال سيناء تقريبا فى ١٩٤٧ (١٠٧ آلاف مقابل ٣٨ ألفا) .

وإن دل هذا على شىء فانما يدل على امكانيات سيناء الكامنة . والواقع أنه لا غرابة فى بروز سيناء سكانيا ، فهى أغزر صحارينا مطرا . ولا غرابة بعد هذا أن تكون العريش - ٤٥ ألفا الآن - هى اكبر مدينة صحراوية فى مصر أو بالاصح كبرى مدن صحارى مصر ، فهى تعادل على الأقل ضعف أى مدينة أخرى فى صحارينا سواء مرسى مطروح أو رأس غارب أو أو ... الخ .

ليس هذا فحسب . فمن المحقق أن نمو سكان سيناء في العقود الاخيرة لم يفرض عليه أن يكون مضطربا مذبذبا بعنف فحسب ، أو حتى متوقفا فقط ، بل متناقصا قطعا . والاشارة بالطبع هي إلى العدوان الاسرائيلي الكامن أو الجاثم . ولولا ذلك لكانت سيناء أكبر سكانا مما هي عليه أو كانت عليه في أوجها . وزوال هذا الخطر يعني أن أمام سيناء بالتأكيد طاقة سكانية لا بأس بها في المستقبل ، وانها يمكن أن تتحول إلى طاقة عمرانية تصب فيها مصر الوادي بعض فائضها البشري .

الملاحظة الجديرة بالتسجيل في النهاية ، مع ذلك كله ، هي ارتفاع نسبة سكان المدن في شبه الجزيرة ككل ، الثلث على الاقل وربما النصف . ولقد يبدو هذا غريبا في مثل هذه البيئة الصحراوية ، لكنما هي طبيعة بيئات التعدين والرعي . ففي مثلها ينقسم السكان بحدة عادة ما بين سكان مدن محتشدة في كفة وبدو رحل مبعثرين في الكفة الاخرى ، بينما سكان ريف أو زراع تفصل بين النقيضين بدرجة مكافئة أو مذكورة .

توزيع السكان

هذا عن حجم السكان وتركيبهم . أما عن التوزيع الجغرافى فان السواد الاعظم من أبناء سيناء مركز أساسا فى مواطن الانتاج والمياه التى ترتبط بأطراف المنطقة وهوامشها ، بينما تخلو رقع كثيرة وشاسعة فى الداخل الهضبى والجبلى من السكان تقريبا وتكاد تعد من اللامعمور . الانتاج اذن حدى ، والعمران هامشى ، ونمطه الاساسى حلقى . فالعمران يتخذ بصورة تقريبية شكل الحلقة الضعيفة حول «القلب الميت» . وهذه صورة أو متناقضة مألوفة فى الجغرافية البشرية ، ولكنها هنا تبدو غريبة لأن المنطقة جميعا ضعيفة السكان للغاية . وعلى العموم وبالتقريب يمكن القول إنه من بين أضلاع مثلث سيناء الثلاثة يعد الساحلان الشمالى والغربى من المعمور والسواحل الحية في حين يأتى الساحل الشرقى أقرب نوعا إلى الساحل الميت أو شبه اللامعمور .

تحديدا ، تبدأ تلك الحلقة الهامشية من العمران على شكل شريط متصل نوعا على الساحل الشمالى الشرقى من رفح حتى البردويل ، تتوجه مدينة العريش ، كبرى مدن سيناء ، نحو ٤٥ ألفا تمثل وحدها حوالى ٢٩ ٪ من سكان شبه الجزيرة . وينقطع هذا الشريط فى امتداده غربا ، ثم يتحول إلى عقد من النقط المأهولة على الضفة الشرقية لقناة السويس حيث مدن القناة الصغيرة ، وكبراها لقنطرة شرق التى تعد ثانى أكبر مدينة فى سيناء (٥ آلاف) . وعلى ساحل خليج السويس ينتثر عقد مدن التعدين مثل أبو زنيمة (المنجنيز) ، ومستعمرات البترول الحديثة التي أبرزها أبورديس وسدر ، بالاضافة إلى الطور مدينة الصيد ومحجر الحج الصحى .

اخيرا ، وعلى ساحل خليج العقبة تزداد نقط العمران تضاؤلا وتباعدا ، واغلبها موانىء الصيد أو الموانىء الحربية. وتكمل الحلقة على طول الحدود الشرقية مجموعة من نقط المخافر والمراكز العسكرية ابتداء من رأس النقب وطابا والكونتيلا إلى القصيمة وأبو عجيلة . وفيما عدا

هذا، فهناك شتيت منثور من الواحات ومراكز الاستقرار الصغيرة فى قلب الداخل اشبه بالجزر المنعزلة ، وأغلبها مرتبط بالاودية الرئيسية وخاصة على نقط تقاطعها .

عند هذا الحد ، لن نخطىء بالتأكيد ذلك التناقض الحتمى الكامن بين موقع العاصمة والنمط العمرانى . فتقليديا كانت عاصمة سيناء القديمة هى نخل ، وسطية الموقع جدا ولكن فى عين القلب الميت ، وان دعمها نوعا درب الحج قبل أن ينقرض فى العصر الحديث . ولذا كان طبيعيا أن تنتقل العاصمة بعد ذلك إلى العريش التى ، وإن جاءت على العكس فى أغنى قطاع عمرانى من شبه الجزيرة ، إلا أنها تأتى من الناحية الاخرى متطرفة الموقع إلى أقصى حد . على أن تقسيم سيناء اداريا إلى محافظتين مؤخرا قد أدى إلى ثنائية العاصمة ، العريش للشمال والطور للجنوب . ولعل هذه المعادلة الجديدة أدنى إلى حل متناقضة توزيع السكان - توقيع العاصمة ، مثلما تعد دليلا عليها وتشخيصا لها .

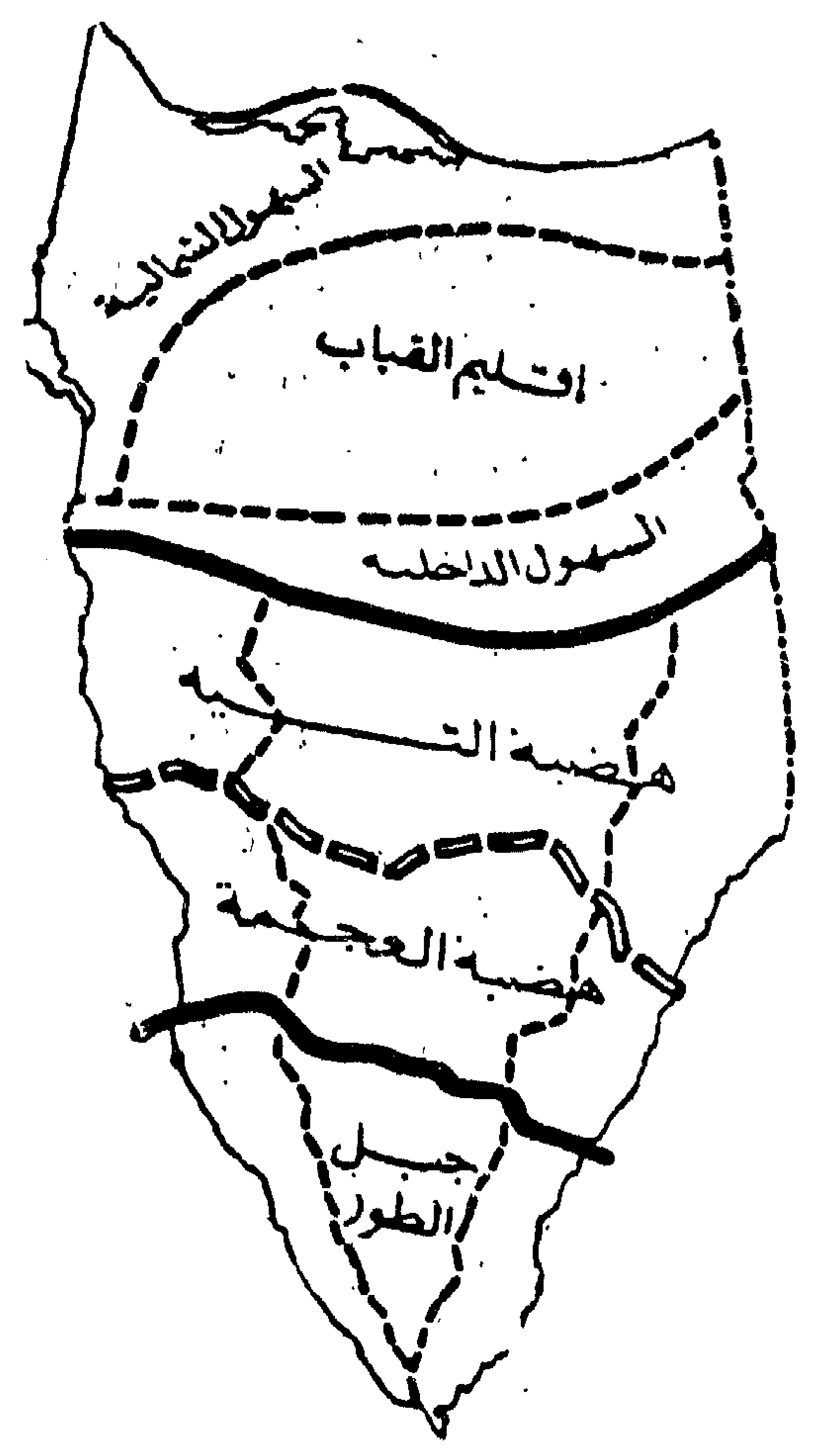
أقاليم سيناء

سيناء على الخريطة وفى الحقيقة ثلاثية فى مثلث ، كتلة جبلية هضبية – سهلية . ومن هذه الزاوية فإنها ، وإن كانت تشبه عموما شبه جزيرة العرب على تصغير شديد ، تذكر أيضا بشبه جزيرة الدكن فى الهند إلى حد ما شكلا وسطحا . وعلى الجملة تبدو شبه الجزيرة فى مجموعها كتلة رصيفة مكتنزة من المرتفعات تترك سهولا واسعة نسبيا فى الشمال ، مقابل سهل ساحلى ضيق نوعا فى الغرب تنحدر إليه سلميا ويختنق بشدة فى وسطه ، بينما يكاد السهل يختفى تماما فى الشرق .

جغرافيا ، تنقسم سيناء بسهولة إلى ثلاثة اقاليم طبيعية أو فيزيوغرافية تتوالى من الشمال إلى الجنوب : سهول واسعة تعرف اصطلاحا بسهول العريش وأحيانا بالصحراء ، هضبة وسطى يطلق عليها تعميما هضبة

التيه، ثم اخيرا كتلة جبلية تسمى عموما جبل الطور . أو على الترتيب : اقليم السهول ، اقليم الهضاب ، اقليم الجبال.

الاخير هو الثلث الجنوبى الاقصى من مثلث شبه الجزيرة بمعناها الدقيق ، أى ذلك المحصور بين خليجى السويس والعقبة . والثانى هو المستطيل الاوسط الذى يرسمه الثلثان الباقيان من هذا المثلث نفسه . والثالث هو المستطيل الشمالى الاكبر الذى يمتد حتى الساحل شمالى مثلث شبه الجزيرة بمعناها الضيق . أى أن هذا المثلث الاخير ، أو ما يعرف عادة «بجنوب سيناء» ، يتوزع بين الاقليمين الجبلى والهضبى ، بينما ينفرد الاقليم السهلى بالمستطيل القارى الشمالى برمته وهو ما يعرف بالمقابل «بشمال سيناء» .



شكل ٣ – اقاليم سيناء الفيزيوغرافية : هيكل اقليمى

ولقد يمكن القول بصورة تقريبية جدا ان هذه الاقاليم الرئيسية تتفق إلى حد بعيد مع درجات العرض الثلاث الاساسية التي تغطي سيناء ، كل خط عرض يفصل بين اقليمين ، وكل اقليم منها يحتل درجة كاملة على الأقل : السهول شمال خط ٣٠° ، والهضاب بين ٣٠° ، ٢٩° ، والجبال جنوب ٢٩° . الاستدراك المهم الضرورى هو أن كلا الخطين الفاصلين بين الاقاليم الثلاثة يتقوس فى وسطه نحو الجنوب حوالى ربع درجة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فلأن سيناء تمتد نحو ربع درجة إضافية شمال خط ٣١° وربع درجة أخرى جنوب ٢٨° ، فان التقسيم الحقيقى بين الاقاليم الثلاثة يتعدل ويبتعد فى وسطه بالدقة عن هذا النظام النظرى العرضى بأن يتقوس هنا منبعجا أو هناك متفلطحا . فيتسع اقليم السهول فى وسطه نحو ربع درجة شمال خط ٣١° وربع درجة جنوب خط ٣٠° ، بينما يتقوس كل من اقليمى الهضاب والجبال فى وسطه نحو الجنوب بحيث يصل الاخير إلى نهاية ساحله متجاوزا خط ٢٨° بنحو ربع درجة .

ورغم تساوى عرض الاقاليم الثلاثة نسبيا كدرجات عرض ، فان مساحاتها بحكم الشكل المثلثى العام لشبه الجزيرة تتناقص بسرعة وبشدة جنوبا أو تتزايد باطراد شمالا إلى أن تصبح أبعد شىء عن التساوى . ولهذا أيضا نجد كلا من الاقليمين الجبلي والهضبى متجانسا فيزيوغرافيا ، ممثلا وحدة طبيعية متميزة تماما ، ومن ثم سهل التصنيف والتقسيم اقليميا رغم تعقده ووعورته طبيعيا ، بينما يأتي الاقليم السهلى الشاسع المساحة فى الشمال وهو على العكس غير متجانس فيزيوغرافيا بل متنوع بشدة ، وبالتالي صعب معقد فى تصنيفه وتقسيمه الاقليمي رغم سهولته الفيزيوغرافية .

شمال سيناء

على أساس التقسيم العام السابق ، يتحدد مستطيل شمال سيناء بخط الساحل فى الشمال وخط كنتور ٥٠٠

متر في الجنوب حيث يبدأ اقليم الهضاب . والخط الاخير يتفق بصورة عريضة جدا مع خط عرض ٣٠° شمالا ، أو بصورة أدق مع خط مقوس يتقعر شمال خط العرض هذا في وسطه ويتحدب في شرقه ممتدا من رأس خليج السويس حتى منطقة الكونتيلا شمال رأس خليج العقبة ، أو بمزيد من الدقة من ممر متلا حتى جبل عريف الناقة .

بهذا التحديد تبلغ مساحة المستطيل نحو ٢١ الف كم٢ ، أي نحو ثلث مساحة سيناء جميعا . وبهذا التحديد الكنتوري أيضا يتنوع الاقليم بشدة بين سهول ساحلية منخفضة وسهول داخلية عالية نسبيا يتوسطهما نطاق من المرتفعات والجبال القبابية المنتثرة . وبالتالي فلا هو بالسهول الصرفة ولا هو بالجبال المطلقة ، بل يجمع بين العنصرين في نمط معين خاص .

لهذا فان تسمية الاقليم الدارجة بسهول العريش تسمية قاصرة نوعيا وجزئية اقليميا يمكن أن تصدق على شماله الساحلي وحده فقط . ومن الناحية الاخرى فان تسميته الشائعة بشمال سيناء ليست بافضل ، فما هي بتسمية

فيزيوغرافية أو مورفولوجية وانما مجرد تسمية موقعية أو قطاعية فرضتها الضرورة على علاتها فى غياب تسمية موفقة دقيقة وجامعة .

ومهما تكن التسمية ، فان من الممكن تقسيم الاقليم بخطين قاطعين إلى ثلاثة اقاليم ثانوية ، تكاد كلها داخل حدود المستطيل العام تكون هندسية الشكل بالضرورة : مثلث السهول الشمالية شمال خط مقوس يمتد من البحيرات المرة إلى رفح ، مثلث السهول الجنوبية جنوب خط مقوس يمتد من ممر متلا الى عريف الناقة [١] ، ثم بين المثلثين أخيرا بيضاوى ضخم يتوسط رقعة المستطيل على محور قاطع محتلا نصف مساحته تقريبا وهو نطاق المرتفعات والجبال القبابية .

الأول يقع تحت خط كنتور ٢٠٠ متر ، والثانى ينحصر بين كنتورى ٢٠٠ – ٥٠٠ متر ، بينما يتراوح الثالث بين ٢٠٠ – ١٠٠٠ متر . وعلى هذا تختلف السهول الشمالية

---

(1) A. Shata "Structural development of the Sinai peninsula" , Bull . inst. désert Egypte, 1956, p. 117 ff.

عن الجنوبية فى أن الأولى أقل ارتفاعا ، بمثل ما أن الاولى ساحلية والثانية داخلية . هذا بينما يتراوح بيضاوى نطاق المرتفعات والجبال القبابية بشدة فى مستويات ارتفاعه ما بين مستوى السهول المحيطة والجبال المجـــاورة.

كذلك فلقد تختلف أو تتعدد تسميات هذه الوحدات الثلاث . فالسهول الشمالية أو الساحلية هى الساحل الامامى fore-shore عند شطا ، أو اقليم الرمال والكثبان عند غيره . ونطاق المرتفعات البيضاوى هو نطاق الالتواءات الامامية frontal folds عند شطا ، وهو اقليم القباب region des domes عند حسان عوض [1] وهى خير تسمية دالة ومعبرة . أما السهول الداخلية فتتفق مع النطاق المفصلى hingebelt أو اقليم الانكسـارات عند شطا [2] .

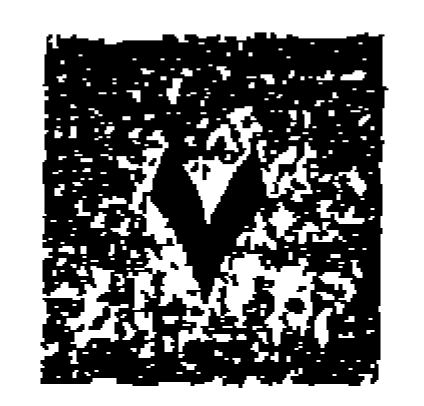
والمهم من الناحية التركيبية على أية حال أن اقليم

(1) H. Awad, La montagne du Sinai central, Le Caire, 1951, p. 15 .

(2) Shata, ibid .

شمال سيناء يبدأ من الشمال أو البحر كثنية مقعرة منخفضة فى السهول الشمالية ، يرتفع منها إلى ثنية محدبة عالية ومركبة فى نطاق المرتفعات والجبال القبابية ، يعود فيهبط جنوبها فى ثنية مقعرة أخرى ولكنها ضحلة فى السهول الداخلية قبل أن يرقى منها نهائيا إلى اقليم الهضاب أو التيه الذى يتوسط قلب سيناء . وكلا الاقليمين، شمال سيناء بعناصره التركيبية المختلفة واقليم الهضاب أو التيه - يصنعان معا فى تشخيص مرن وصادق منطقة ثنية مقعرة عريضة واحدة synclinal ، إلا أنها تتخفى وتتوارى خلف متاهة أرخبيل الجبال القبابية فى بيضاوى نطاق المرتفعات[1] .

(1) F.W. Moon; H. Sadek, Topography and geology of northern Sinai, Cairo, 1921, p. 10-15 .



السهول الشمالية
خـــط الســـاحل

من مياه ضحلة بفعل تراكم ارسابات دلتا النيل المحمولة شرقا بواسطة تيار جبل طارق الجنوبي ، يبرز ساحل سيناء الشمالي ببطء ، رمليا خفيضا واطئا ، يحمل هو الآخر بصمات تلك الارسابات بحيث يكاد يكون ساحلا «نيليا» إلى حد أو آخر ، ليس فقط تكوينا بل وشكلا ايضا كما سنرى . فطمي النيل المنقول يمتزج برمل الساحل الاصيل في شريط خيطي دقيق كأنما يضع خطا مسودا ثقيلا تحت نهاية (أو بداية) الصحراء السينائية المصغرة الشاسعة .

وكما يتوقع ، تقل نســبة هذا الطين والصلصال وتزداد

نسبة الرمل شرقا كلما بعدنا عن المصدر الدلتاوى. على أن فى هذا ما يكفى لكى يعطى خط الساحل عموما طابعا لزجا وليؤكد ضحولته ، كما ينقط خلفيته بسلسلة من المضاحل الآسنة والمستنقعات والسبخات والرقع الملحية . وهذا كله ما يفسر عدم صلاحية الساحل لاستقبال السفن الكبيرة ، كما يفسر لماذا تبتعد كل موانيه ومدنه إلى الداخل بضعة كيلومترات سواء منها القديمة مثل بيلوزيوم (الفرما العربية أو بالوظة الآن) ورمانة أو الحديثة مثل العريش ورفح ... الخ .

تبدأ سلسلة المستنقعات والسبخات ، التى تعكس طبيعتها تلقائيا فى أسمائها ، بالملاحة ، جنوب بورفؤاد ، حيث تكاد تبدو بحيرة داخلية مقتطعة من جسم بحيرة المنزلة الكبير . والملاحة بدورها تحتل مثلث سهل الطينة الذى يشير اسمه إلى أصله الدلتاوى كالسهل الفيضى للمصب البيلوزى القديم . فكأن الطرف الدقيق الشمالى الغربى الاقصى من سيناء أو بالدقة من سهلها الساحلى هو نيلى صرف .

العريش
البردويل
رفح
القنطرة

شكل ٤ – شمال سيناء

ثم تلى سبخة البردويل وامتدادها الغربى بحيرة الزرانيق – البحيرتان بحيرة واحدة فى الحقيقة ، وإنما البردويل هى البحيرة الأم ، مكتنزة عريضة ، والزرانيق لسان ضيق متطاول منها . المساحة الكلية ١٦٤ر٥٠٠ فدان ، أى أكبر نوعا من بحيرة البرلس ، التى تشبهها بصورة لافتة فى كثير من النواحى ، وذلك قبل التجفيف (١٤٠ر٠٠٠ فدان) ، واقل نوعا من المنزلة بعد التجفيف (١٨٠ر٠٠٠ فدان) . أى أنها كانت دائما ثانية بحيرات ساحل مصر الشمالى مساحة ، قبل كما بعد التجفيف . بل ولسوف تكون كبراها يوما ما ، وحتى ضعف تاليتها ، اذاما نفذ برنامج التجفيف الموضوع .

طول البحيرة ككل نحو ١٣٠ كم ، تمتد من المحمدية قرب رمانة وشرق بور سعيد بنحو ٤٥ كم فى الغرب حتى غرب العريش بنحو ٥٠ كم . البردويل وحدها طولها ٧٦ كم وعرضها ٤٠ كم ، أما الزرانيق فطولها نحو ٦٠ كم وعرضها ٣ كم فى المتوسط . قرب القلس (رأس برون) تتصل البحيرة بالبحر بفتحة أو بوغاز اتساعه نحو ١٠٠

متر . وفى الشتاء تؤلف البحيرة مسطحا مائيا واحدا ، تنحسر عن قطاعها الشرقى صيفا ، فتنفصل الزرانيق عن البردويل مؤقتا .

البحيرة اذن تتوسط الساحل وتتوجه بقوسها المحدب المتميز الذى يذكر توا بنمط بحيرة المنزلة وبأكثر منه بنمط بحيرة البرلس . والواقع أن البردويل تكرر البرلس بالذات موقعا وشكلا ومورفولوجية ونشأة كبحيرة ساحلية يفصلها عن البحر لسـانان ارضيـان دقيقان متقابلان من الجانبين.

بل إن ساحل سيناء ككل ، فى خطه العام وتقوساته الانسيابية المديدة والمتغيرة الاتجاه ، التى ترسم فى مجموعها شكل رقم ٤ مديد الانفراج مفتوح نحو الشمال، فضلا عن بحيرته الساحلية الطولية ، هذا الساحل يكاد أن يكرر ساحل الدلتا الوسطى ما بين الفرعين . وإذا كان ساحل سيناء الشمالى يختلف بذلك كلية عن ساحل الصحراء الغربية الشمالى الصخرى الرملى السلمى ،

فإنه على الجملة يكاد يكون نمطا انتقاليا أو مزيجا منه ومن ساحل دلتا النيل إلى الغرب .

كلمة أخيرة عن السواحل القديمة قبل أن نغادر خط الساحل . الادلة متوافرة على أن الساحل القديم تحرك وتقدم كثيرا ومرارا خلال العصر الحديث على الاقل . فهناك أربعة مدرجات شاطئية مرفوعة raised beaches تجاذى الساحل الحالي وتتابع على أبعاد مختلفة منه وعلى ارتفاعات متفاوتة بالنسبة إليه . وهي ترتبط بمراحل هبوط مستوى سطح البحر المتوسط ، كما أمكن ربطها بسائر الشواطىء المرفوعة حوله خاصة غرب الاسكندرية ، على نحو ما يلخص هذا الجدول [1] .

المرحلة	الارتفاع فوق سطح البحر الحالي بالمتر	البعد عن الساحل الحالي بالكم
الصقلية	٨٢	١٠
الميلاتزية	٦٢ - ٥٥	٦
التيرانية	٣٣ - ٢٢	٢
الموناستيرية (أو قبل الرومان)	١٢	١ ر ٠

(1) A. Shata, "Ground water & geomorphology of the northern sector of Wadi El Arish basin", B.S.G.E., 1959, p. 229 - 230 .

نطاق السهول

الآن ، بين خط الساحل وخط كنتور ٢٠٠ متر تقريبا ، تتحد سهول سيناء الشمالية التى تعد استمرارا لصحراء شرق الدلتا ، آخر نهاية الصحراء الشرقية . مساحة النطاق ٨٠٠٠ كم . السهول تتراوح فى اتساعها حول ٥٠ كم ، ولكنها تتسع كثيرا فى الغرب لتبدأ قرب السويس ، ثم تضيق قليلا فى الوسط ، وفى أقصى الشرق تندغم بلا انقطاع فى سهول جنوب فلسطين الساحلية . الارض تتدرج فى الارتفاع بهوادة نحو الجنوب ، ولكنها تظل بعامة سهولا منخفضة متموجة فسيحة . التربة السائدة على السهول الشمالية هى تربة السيروزوم المتوسطية Mediterranean sierozem . لكن أبرز معالم السهول الشمالية ، تلك التى أعطتها اسمها العربى القديم «الجفار» والتى تعطى اللاندسكيب أخص ملامحه ، هى بلا شك نطاق الكثبان الرملية .

النطاق يترامى بعرض شبه الجزيرة من القناة حتى الحدود ، بادئا بطول القناة حتى جنوب مدينة السويس ، وممتدا شرقا بحذاء الساحل بعرض يتراوح بين ٨ و ٢٤ كم ، ومبتعدا أو مقتربا من الساحل قليلا حتى يصل إلى سيفه في قطاع العريش - رفح . ويلاحظ أن هذا النطاق يشكل في الجزء الاكبر الشمالي منه رقعة متصلة بلا انقطاع تشبه أن تكون بحر رمال صغير ، بحر رمال سيناء ، فيما هو يتقطع ويتخلخل في جزئه الجنوبي إلى جزر رملية متفرقة ومجموعات كثبان متباعدة الانتشار .

من أبرز أمثلة هذه الكثبان كوكبة على خط قاطع بعيدا شرق البحيرات المرة : كثيب الحبشي ، فالمغازن ، فالصبحة ، ثم إلي الشمال كثيب الحنو . وقد تظهر بين تضاعيف هذه المساحات الرملية بعض البرك أو المستنقعات المسطحة الضحلة تعرف محليا «بالمشاش» ، مثل مشاش السر قرب جبل لبني .

والواقع أن الذى يضع نهاية لامتداد الكثبان ويحدد حدود النطاق جنوبيا هو حاجز خط المرتفعات القاطع الذى

يقع في مقدمة الهضبة الوسطى ، ولولاه لربما توغل النطاق إلي داخل سيناء الوسطي أكثر . وبالفعل تتسلل بعض ألسنة متلصصة ولكنها معزولة من الكثبان إلى الداخــل عبر الفتحات المنخفضــة العديدة في ذلك القاطع[1] .

ولنلاحظ اخيرا أن موقع نطاق الكثبان هذا في سيناء هو عكس موقع كثبان الرمال في الصحراء الغربية . هو هنا في سيناء على السهل الشمالي يرتبط بالساحل ، بينما يقع في الصحراء الغربية بعيدا في الداخل .

أما على المســتوى التحليلي ، فثمــة هذه النقاط الأساسية . جيولوجيــا ، تــرجع هذه الكثبان إلى البلايستوسين والحديث حيث إنها تقع فوق طبقات وإرسابات بلايستوسينية . أما أصل رمالها ، فالمثير أنها مشتقة من إرسابات النيل التي تلعب دورا هاما في تكوين الرواسب الشاطئية بساحل سيناء وسواحل شرق البحر

(1) A. Shata, "GEology & geomorphology of El Qusaima area" B.S.G.E., 1960, p. 104.

المتوسط . وفى قطاع العريش – رفح تتحول بعض الكثبان الرملية القديمة تحت السطح إلى نوع من الحجر الرملى الجيرى يعرف محليا باسم الكركر Kurkar ، بينما تتحول فى منطقة رفح إلى ارسابات أشبه باللوس [1] الذى يظهر ويتبلور أكثر فى النقب بجنوب فسطين [2] .

جغرافيا ، تصـــل ارتفاعات الكثبـــــان أحيانا إلى ١٠٠ متر، ورمالها كقاعدة مفككة غير متماسكة تغور فيها الاقدام إلا فى الشمال حيث يربطها أحيانا العشب الذى ينمو على سطحها . جيومورفولوجيا ، إلى جانب الغطاءات الرملية المتموجة ، تتقاسم النطاق الكثبان الخطية (السيف) فى الشمال والهلالية (البرخان) فى الجنوب ، ومن أمثلة الاخيرة كثيب الطير قرب وادى العريش.

اقتصادية ، الكثبان هى خزان مياه الامطار الطبيعى ، خاصة كركر الساحل ، ومن ثم عماد اساسى للحياة الاقتصادية والعمران البشرى . عمرانيا ، هى مع ذلك

(1) Shata, ibid., p. 110 .
(2) W.B. Fisher, p. 60 - 1 .

تهديد دائم لطرق المواصلات والحلات والمساكن تقرضها وتقوضها وتدفنها وتفرض باستمرار حمايتها بجهد وثمن باهظ.

فيما عدا هذا فالواقع أن وجود الكثبان هنا مع المطر قد دمغ الاستقرار والاستغلال البشرى بطابع متفرد ، اذ خلق نمطا متميزا من الواحات هو «واحات الكثبان أو الواحات الكثيبية oasis dunaires» الذى تعرف عليه وعرف به برون فى دراسته الشهيرة عن واحة سوف على تخوم العرق الشرقى الكبير بجنوب الجزائر . ففى تجاويف ووهاد ما بين الكثبان تستقر بعض نجوع وحلات البدو ويزرع قليل من الشعير فى ظل النخيل [١] . وعلى خلاف وادى النيل حيث الملكية هى ملكية الارض ، وعلى خلاف واحات الصحراء الغربية حيث الملكية هى ملكية الماء ، فالطريف هنا أن الملكية هى ملكية النخيل وحده وأساسا [٢] .

(1) Shata, " .. Wadi El Arish etc. ", p. 234 .
(2) H. Awad, "L'eau et la géog. hum. etc. ", p. 202.

والمثير هنا انهم ، تماما كما فى السوف : يلجأون إلى تكنيك جفاف بارع بقدر ما هو غريب ، اذ بدلا من أن يحفروا الآبار للوصول إلى المياه الجوفية لرى النخيل ، يحفرون حفرا عميقة فى الارض يفرسونها فيها بحيث تقترب جذورها من الماء الجوفى وترتوى منها مباشرة . بدلا ، يعنى ، من أن يرفعوا مستوى الماء الباطنى إلى السطح ، يهبطون بمستوى السطح إليه . من ثم تصبح الواحة وهى نوع من «حدائق الحفائر jardins d'excavation » أو «الواحات الجافة» ، الماء فيها لا يرى ولكن من مواطى قاعها تبزغ باقات النخيل منتصبة سامقة[1] .

أخيرا ، فإن السهول الشمالية هى بالطبع الموطن الرئيسى للاستقرار الدائم الكامل فى سيناء ، لا تتدهور على الاسوأ إلى أقل من نصف البداوة أو الترحل [2] .

(1) Ibid., p. 201 - 2; j. Brunhes, La géog. hum., p. 345 .
(2) M. Awad. "Settlement of nomadic etc. ", p. 26 .

هنا على الاقل نصف سكان سيناء جميعا (١) . وهنا العقد الفريد من المدن والتجمعات الهامة بها . وهو عقد ساحلى بالضرورة ، أى أغلبه موانىء ، وإن كانت ضحلة متراجعة: بالوظة ، رمانة ، المساعيد ، العريش ، الخروبة ، الشيخ زويد ، رفح . وهنا أيضا الخط الحديدى الوحيد الذى يربط هذه المواقع جميعا ، خط فلسطين الذى بناه الانجليز للزحف عليه اثناء الحرب الاولى والذى ورث خط حديد مريوط . والواقع أن السهول الشمالية فى مجموعها تحمل شرايين الطريق التاريخى بين مصر وفلسطين .

إقليم القبـــاب

هذا هو بيضاوى المرتفعات والجبال القبابية الشديدة التميز جملة وتفصيلا لا فى قلب شمال سيناء وحدها ولكن فى كل شبه الجزيرة جميعـــا . مســاحة الاقليم

(١) عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ، ١٩٤٦، ص ١٥٨ .

١٣ ألف كم٢ ، يحده شمالا خط كنتور ٢٠٠ متر ، وتتراوح أرضيته العامة وسهوله القاعدية حول ٢٠٠ – ٥٠٠ متر ، ولكن على هذه الارضية تبرز جزره الجبلية لترتفع إلى أى شىء بين ٥٠٠ – ١٠٠٠ متر . من هنا فإذا كان المعلم البارز فى السهول الشمالية هو الكثبان الرملية ، وفى اقليم الهضاب الوسطى هو الهضاب الشاسعة الرتيبة ، فإنه هنا الجبال القبابية المكورة والمحدبة الواسعة الانتشار والتى تتكون من الحجـــر الجيـــرى ويكثر بها الطفل والرمل .

فأهم ما يميزه مجموعة عديدة كالارخبيل السديمى من المحدبات البيضاوية الشكل تفصل بينها مقعرات منخفضة تتخذ جميعا محورا واحدا سائدا هو الشمال الشرقى – الجنوب الغربى . كل محدب منها كتلة بيضاوية متطاولة غير سمترية أى غير متناظرة الجانبين ، تبدو كظهور الخنازير hog-backs ، تنحدر طبقاتها نحو الشمال الغربى انحدارا معتدلا لطيفا يتراوح بين ٥ – ٢٠ درجة ، بحيث تتحول أحيانا إلى منحدر تقليدى من نوع السفحية

الصخرية pediment ، بينما تنحدر نحو الجنوب الشرقى بحدة تتراوح بين ٤٥ - ٩٠ درجة ، بحيث توجد دائما منطقة حادة الانحدار على الضلوع الجنوبية الشرقية ترتبط غالبا بالانكسارات التى تختط تضاعيف المنطقة بلا عدد .

فكل هذه المحدبات والمقعرات التى بينها اعترتها وصدعتها خطوط الانكسارات الكثيفة على نفس محاورها السائدة الشمالية الشرقية ، مثلما نالتها التعرية بالتآكل والتخديد . وأغلب هذه الانكسارات بسيط عرضى يفترض أنه ارتبط فى نشأته بعملية الالتواء نفسها . أما الانكسارات الطولية فنادرة ، وإن وضحت فى جبلى المغارة والجدى ، وبعضها انكسارات عكسية reverse كما فى الجبلين نفسهما وكما فى جبل أم مفروث . وثمة سدود بازلتية تتعامد على محاور تلك التراكيب والانكسارات ، كما فى شمال شرق جبل يلج والمقعر الفاصل بين يلج والمغارة(١) .

---

(1) R. Said, Geology of Egypt, p. 227 - 9 .

وبصفة عامة تخرج هذه المحدبات فجأة من وسط طباشير وجير السهول على شكل جبال ومرتفعات تتفاوت جدا في مساحاتها وارتفاعاتها بين الكتل الجبلية العريضة الشامخة وبين الجبيلات والتلال القزمية . وكقاعدة عامة تتكون محدبات الجبال من الكريتاسى، فى حين تتكون المقعرات البينية من الايوسينى . ولكن فى حالات معينة معدودة ترجع المحدبات والمقعرات إلى تكوينات أقدم خاصة الجوارسى وأحيانا الترياسى .

والواقع أن هذه المنطقة هى واحدة من المناطق النادرة جدا التي تظهر بها تكوينات هذه العصور فى كل أرض مصر . وبهذا الشكل ، تصل الخريطة الجيولوجية هنا إلى قمة تداخلها المربك ما بين جزر الكريتاسى والايوسينى فضلا عن شظايا الترياسى والجوارسى . هذا بينما تصل الخريطة الطبوغرافية بعدها إلى قمة التعقد والتمزق حيث قطعت التعرية المنطقة واقتطعت كثيرا من أجزائها ككتل صغيرة منفصلة وكجبال منعزلة مبعثرة .

ولأن هذه الجبال المقببة والمرتفعات المحدبة تنتشر

بأعداد كبيرة جدا على صفحة الهضبة ، بينما تفصل بينها وتجرى فى فجواتها روافد وادى العريش العديدة ، فإن النتيجة أن تكتسب هذه الفتحات الجبلية قيمة استراتيجية كبرى كطرق المواصلات والحركة الطبيعية إلى جانب تركز الآبار والينابيع والحياة فى باطنها . وتعبيرا عن هذا التداخل بين الجبال والاودية ، نجد عادة فى كل محلية جبلا وواديا وبئرا تحمل نفس الاسم .

ورغم أن هذه الجبال المنثورة تنتشر على وجه الهضبة بلا تحديد أو نظام صارم ، فانها تقع فى ثلاثة خطوط أو نطاقات واضحة بدرجة أو بأخرى . فثمة فى الوسط يختط البيضاوى الكبير من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى خط قاطع شديد التبلور والبروز يتألف من كتل جبلية بالغة الضخامة والارتفاع والاتساع بحيث يعد محور النظام الجبلى كله . ثم على جانبيه من شمال وجنوب يتوزع خط مزدوج أو مثلث ولكنه ثانوى بالمقارنة ، وبلا خطة تقريبا خاصة على تخوم البيضاوى ، فى شتيت من الجبال الصغيرة والجبيلات المنفردة المتواضعة .

والواقع أن هذه الخطوط الثلاثة تمثل ثنيات اقليمية محدبة upwarps أو حافات طيات anticlinal ridges تحصر أو تفصل بينها ثنيات مقعرة synclinal down-folds تشترك فى المحور الشمالى الشرقى - الجنوبى الغربى وتتفاوت فى حدة رمياتها وعلوها أو انخفاضها[1] .

(1) Shata, " .. Wadi El Arish etc. ", p. 224 - 5 .

٨

القاطع المحورى

فالقاطع المحورى يترامى ما بين منطقتى السويس والصبحة ، وهو يقل عرضا واتساعا كلما تقدم شمالا حتى يدق فى النهاية قرب الحدود إلى منثور من التلال الصغيرة . يتألف من أربع كتل جبلية رئيسية ، هى كتلة واجهة السويس فى الغرب ، ثم جبل يلق فى الوسط ، فجبل الحلال فى اقصى الشمال الشرقى ، واخيرا منثور التلال الصغيرة بين وادى العريش والحدود . وتفصل بين هذه الكتل ، كما تجرى على سفوحها الشمالية ، مجموعة من الاودية التى تنحدر غربا أو شمالا غربا أو شمالا لتضيع فى الصحراء دون أن تصل إلى البحر . وبذلك تؤلف نطاقا أو منطقة من الصرف الداخلى على منحدرات القاطع الجبلى الشمالية .

وكتلة واجهة السويس ، التى يحدها ويفصلها عن جسم هضبة التيه الكبير فى الجنوب ممر متلا ، هى أشدها تعقيدا وتقطعا . فهى كتلة طولية فى محورها العام ، تنهض كالحائط المرتفع امام منطقة السويس ، ولكن يختطها عدد من الاوديـــــة المرية العرضية التى تقسمها إلى عدة جبـــــال منفصلة تتراوح أعلى قممها حول ٧٠٠ - ٨٠٠ متر .

فنبدأ في الجنوب بجبل الجدى الذى يواجه جبل حيطان عبر الممر . الممر ، ذو الشهرة الاستراتيجية الفائقة كمفتاح مدينة السويس ، يمتد بضع عشرات من الكيلو مترات ، لكنه يضيق حتى يصل احيانا إلى عدة عشرات من الامتار فقط . ولان جبلى حيطان جنوبا والجدي شمالا هما أعلى جبلين في المنطقة ، كانت أهمية الممر الخاصة مضاعفة .

أما جبل الجدى نفسه فجسمه كريتاسى : على قمته البالغة ٨٤٠ مترا بروز خراسان نوبى نالته التعرية ، بينما تظهر الصخور الايوسينية فى الانكسارات الارضية تحت

اقدامه . على سفوحه الغربية ينحدر وادى الحاج الذى يتلاشى ازاء الشط ، والذى كان بداية درب الحج القديم ، بينما يحد الجبل من الشمال وادى الجدى نفسه الذى يضيع فى الصحراء قبل البحيرات المرة الصغرى . ثم يلى جبل أم خشيب (٦٤٠م) ويحده شمالا وادى أم خشيب الذى يفقد نفسه عند كثيب الحبشى ازاء البحيرات المرة الكبرى. واخيرا يأتى جبل سحابة (٦٨٠م) .

هنا تنتهى كتلة واجهة السويس الطولية . اذ يأتى وادى المليز وامتداده وادى الحجاب ، جاريا نحو الشمال الغربى ومنتهيا قرب بير الجفجافة ليفصل الكتلة عن الكتلة الجبلة الرئيسية التالية وهى جبل يلق (يلج) . هذا ، الذي يظهر فى نواته الخراسان النوبى بينما تتكون منحدراته السفلي من الحجر الجيرى الكريتاسي ، كتلة جليلة الحجم والضخامة والاتساع ، اضخم وحدات ومحدبات النظام القبابى جميعا ، ينهض فى قلب الوسط كجزيرة جبلية قبابية على محور شمالى شرقى - جنوبى غربى ويبدو كعلم مفرد شامخ (١٠٩٠ مترا) . كما يفصله من الغرب

وادى المليز ، ومن الجنوب وادى البروك ، يفصله من الشرق وادى الحسنة حيث بئر الحسنة المعروفة وجبل الحسنة الضئيل ، بينما تنحدر على سفوحه الشمالية عدة أودية أخرى داخلية الصرف ينتهى أحدها إلى بير روض سالم شمالا بغرب وينتهى أهمها شمالا بشرق وهو وادى الاثيلى.

بعيدا عبر وادى الخسنة ، يأتى أخيرا جبل الحلال . كتلة جسمه كريتاسى ، ضلوعه حجر جيرى ومارل كريتاسى ، على قمته طاقة ضيقة من الخراسان النوبى . محوره كيلق ، الا أنه أقل طولا وعرضا ومساحة بكثير ، وكذلك أرتفاعا (٨٩٠ مترا) . كحافة طية محدبة ، نجد أن عشرات الانكسارات العرضية تقطعه . وكتركيب قبابى نموذجى ، نجد أن التعرية قد ازالت أعلى قمته المقوسة وحولتها إلى «سيرك تعرية erosional cirque » مستدير أشبه بفوهة التركان الواسعة ويعرف محليا باسم الحضرة (أو الحدرة) [1] . نهاية الجبل فى الشرق تشرف على وادى

(1) Shata, " .. Qusaima area", p. 103.

العريش مباشرة بحافة منحدرة عند الضيقة ، ولذا يتحول الوادى هنا إلى خانق ضيق كما يتضح من الاسم. وهنا فى الواقع تبدأ مجموعة التلال الصغيرة المبعثرة التى تختم سلسلة القاطع المحورى .

فالى الشرق من وادى العريش وحتى الحدود تتفرق السلسلة وتتضاءل إلى عدد من الجبيلات المتواضعة والتلال التى يتراوح ارتفاعها حول ٢٠٠ - ٤٠٠ متر ، تحصر بينها حوضا تركيبيا morphotectonic هو حوض الصبحة الذى تصرفه عدة أودية تعرية تجرى بين تلك التلال وتفصل بينها ، مثل وادى الصبحة والجديرات والابيض والعمرو ... الخ . ولأغلب هذه التلال غطاءات كاسية مدورة madra من الحجر الجيرى الاصلب [١] .

أول هذه الجبال واكبرها جبل صلفة ، يواجه مباشرة جبل الحلال عبر وادى العريش ، وهما معا اللذان يكونان خانق الضيقة . ثم يلى جبل ام قطف فقارة أم بسيس على خط الحدود . وإلى الجنوب قليلا يأتى جبل الوجير

(1) Id., p. 100 - 1 .

والابيض فجبل العمرو والصبحة ، الاخير على الحدود أيضا . وإلى الجنوب أكثر ، إلى الداخل قليلا ، يظهر جبل أم خروبة فالقصيمة .

خط المرتفعات الشمالى

إذا انتقلنا إلى خط المرتفعات الشمالى على تخوم مقدم الالتواء ، نجد مجموعة من الجبال والتلال المحلية الصغيرة المتوسطة الارتفاع مبعثرة على محور عرضى ، تجرى وتفصل بينها بضعة اودية داخلية التصريف ، والكل يتداخل مع أرخبيل من كثبان شمال سيناء المتناثرة . فالخط بهذا يمثل مؤخر سهل سيناء الشمالى وطلائع اقليم القباب . والاودية المحلية المتخللة ، التى أهمها وادى الفتح وروافده وادى المساجد والمغارة وبعض روافد وادى الاثيلى ووادى الحسنة ، تكاد تقسم مجموعة المرتفعات إلى ثلاثة خطوط ، شمالى واوسط وجنوبى ، تدور أعلى قممها بين ٦٠٠ – ٧٠٠ متر ، تقل أحيانا إلى ٤٠٠ متر ، وقليلا ما ترتفع إلى ٨٠٠ متر .

الخط الشمالى هو اكثرها تعددا ، يجمع محدبات وجبال قديرة (٤٣٤م) - حمير (٦٢٦م) - البرقة (٤٦٠م) - الركوة - اللجمة - أم مفروث (٢٦٠م) - المستن (٢٩٠م) - ريسان عنيزة (٣٧٠م) - ابو لهيمن (١٨٩م) . وفى كل من أم مفروث وريسان عنيزة ينكشف الجوراسى فى نواته .

الخط الشمالى هو اكثرها تعدادا ، يجمع محدبات وجبال قديرة (٤٣٤م) - (٧٣٥م) - أم عصاجيل (٨٠٧م). والمغارة هو بلا شك اضخم وأبرز حلقات السلسلة ، متوسط ارتفاعه ٥٠٠ - ٦٤٠ مترا ، يصل إلى قمته فى شوشة المغارة بالجنوب الشرقى (٧٣٥ مترا) . ترجع أهميته أولا إلى كشف منجم الفحم به حديثا ، وثانيا إلى أن به يوجد أعظم ظهور للصخور الجوراسية فى مصر مساحة وسمكا . فنواة المحدب والجزء الاكبر منه من طبقات الجوراسى ، وسمكها ٢٢٠٠ متر ، تحيط بها صخور الكريتاسى فى المنخفضات عموما [1] .

---

(1)Ibid., p. 230.

الخط الجنوبى هو خط أم مخاصة (٢٩١م) - الختمية (٤٢٦م) - فلج (٦٨١م) - منيدرة الاثيلى (٥٤٦م) - لبنى (٤٦٣م) . ويلاحظ أن منيدرة الاثيلى يقع عند النهاية الشمالية الشرقية لجبل يلج يفصله عنه فقط مقعر ضيق . أما جبل لبنى فلا يذكر دون الشهرة الحربية التى اكتسبها فى معارك سيناء الحديثة .

خط المرتفعات الجنوبى

إذا انتقلنا إلى الجنوب من القاطع الجبلى المحورى وجدنا مجموعة جبال وتلال الخط الجنوبى من البيضاوى . وهى أقل عددا من مجموعة الخط الشمالى ، شديدة الانتثار والتبعثر بين مجارى روافد وادى العريش الوسطى والعليا . أغلب قممها تتأرجح بين ٤٠٠ - ٧٠٠ متر ، لا تتجاوزها إلى أكثر من هذا إلا القلة المعدودة . ويتألف الخط العريض من خطين منفصلين ، شمالى وجنوبى .

الخط الشمالى يجمع محدبات وجبال حمرة (٦٠٠م) - رأس الجيفة - الجدى الجنوبى (٧٠٠م) - ميتان - غرب يلج (٧٥٠م) - المنشرح (٥٧٠م) - أبو صويرة - الحسنة (٢٠٠م) طلحة البدن (٤٠٩م) - متمتنى - القصيمة (٤٤٤م) - الصبحة (٤٤٩م) . ويلاحظ أن جبلى طلحة البدن ومتمتنى يتواجهان لا يفصلهما إلا وادى العريش . غير أن المنشرح هو أبرزها جيولوجيا إذ يظهر الجوراسى فى نواته يحيط به الكريتاسى على الضلوع والسفوح .

الخط الجنوبى هو خط جبل السربه - جبل الحصن - البروك (٤٠٧م) - خرم (٧١٠م) - شريف (٤٣٨م) - أم حصيرة (٥٩٣ م) - البرقة (٦٦٦ م) - عنيجه (٨٠٢ م) . وفى هذا الخط يقع البروك جنوب المنشرح يفصلهما وادى البروك ، كما يلاحظ أن البرقة كتلة هورستية تحددها وتحدق بها الانكسارات العديدة .

مثلث السهول الداخلية

لا يبقى الآن من مستطيل شمال سيناء سوى مثلث السهول الداخلية الواقع جنوبه وجنوبى شرقى بيضاوى المرتفعات والجبال القبابية . وهذا المثلث هو النطاق المفصلى واقليم الانكسارات عند شطا . مساحته ٤٠٠٠ كم٢ ، ينحصر بين خط ممر متلا - عريف الناقة فى الشمال وحافة هضبة التيه فى الجنوب . متوسط ارتفاعه يتراوح بين ٢٠٠ - ٥٠٠ متر . وبهذا يمثل سهولاً مرتفعة نسبيا ، تنحدر بالتدريج من الجنوب إلى الشمال ، تختطها غالبا بالطول المجموعة الكبرى من الاودية العديدة التى ترفد وادى العريش وتفصصها إلى شرائح طولية من السهول العالية بين الوديانية interfluves .

فيما عدا هذا فان المنطقة انتقالية بالطبع ، تختلف عن السهول الساحلية الشمالية فى أنها داخلية قارية . أكثر ارتفاعا ، كما تخلو عمليا من الكثبان والرمال . وتختلف

عن نطاق المحدبات والجبال القبابية فى أنها قليلة المحدبات للغاية ، ومحدباتها متواضعة الابعاد ، لا ترسم خطوطا متصلة أو غير متصلة ، وانما بضع نقط متباعدة منتثرة هنا وهناك ، أما فى تضاعيف المناطق بين الوديانية واما على حوافها قرب اقدام حافة التيه .

على أن أهم ما يميز المنطقة كثرة الانكسارات الطولية التى توازى محاور الالتواءات ، لا التى تتعامد عليها كما فى نطاق الجبال والمحدبات القبابية ، وهذه الانكسارات الطولية تؤثر بشدة على مورفولوجية وتضاريس المنطقة ، كما أنها هى التى أبرزت إلى السطح الطبقات القديمة فى بعض المحليات مثل الجوراسى فى عريف الناقة . أما الانكسارات العرضية فقليلة محدودة الرميات ولذا لا تأثير خاص لها على السطح . أيضا تمتاز المنطقة عموما بالسدود البازلتية المختلفة[1] .

من الجبال القليلة التى تنقط المنطقة ، لا نجد بالداخل

---

(1)Shata, "Structural development etc.",loc. cit.

سوى جبل المطلة (٤١٠م) إلى الجنوب من جبل خرم ، أما الاغلبية الباقية فتحف بها على أطرافها قرب أقدام هضبة التيه . فابتداء من الغرب ، هناك ثلاثية تتوزع حول مدينة نخل :جبل الغرة (٥٢٥م) غربها ، جبل رأس أبو طليحات (٥٥٦م) جنوبها ، جبل أم على (٥٦٠م) شرقها . ثم بعيدا فى منتصف المسافة بين نخل والحدود الشرقية نجد جبل شعيرة (٥٢٦م) .

اخيرا قرب الحدود وبموازاتها نجد من الجنوب إلى الشمال جبل الاحيجية (٦٥٨م) ، فجبل أم حلوف (٦٤٢م)، ثم جبل عريف الناقة (٩٣٤م) . وليس عريف الناقة اعلاها فحسب ، بل وأكبرها أيضا حيث يبلغ طوله ٧ كم وعرضه ٤ كم . لكنه فوق ذلك أهمها جيولوجيا ، فهو إحدى المناطق المعدودة فى مصر التى تظهر فيها طبقات الترياسى على السطح . ففى نواته يظهر الترياسى على شكل طبقات من الحجر الرملى والمارل والحجر الجيرى ، يعلوه الكريتاسى ، بينما أسافله ايوسينى ،

ويرجع ظهـور الترياسـى هنـا إلى فعـل الانكسارات الحـادة الانقلابية (١) .

اخيرا ، وفى ختام اقليم شمال سيناء بمناطقه المختلفة، يقدم الجدول الآتى خلاصة مركزة لاهم محدباته مرتبة بحسب خطوطها الاقليمية (٢) .

(1) Saịd, p. 229 - 230 . (2) Id., p. 31, 39-42.

المحدب	الطول والعرض كم	أقصى ارتفاع	ملاحظات
أم مفروث	١٥ × ٧	٢٦٠	الجوراسي ينكشف في نواته .
ريسان عنيزة	٢٠ × ٧	٣٧٠	الجوراسي ينكشف في نواته .
المغارة	٤٠ × ٢٤	٧٣٥	أعظم ظهور للجوراسي بمصر مساحة وسمكا .
ام مخاصة	١٠ × ٥		نواته حجر جيري كريتاسي .
فلـــج	١٥ × ٧	٦٨١	على قمته يظهر الخراسان والحجر الجيري الكريتاسي .
متيدرة الاثيلي	١٢ × ٥	٥٤٦	يفصله مقعر عن الطرف الشمالي الشرقي ليلج ، معظمه كريتاسي .
لبني	١٠ × ٧	٤٦٣	معظمه كريتاسي يحيط به الايوسين .
الجدي	٣٠ × ١٢	٨٤٠	جسمه كريتاسي ، يتوجه ظهور خراساني.
يلج	٤٥ × ٢٠	١٠٩٠	جسمه وضلوعه حجر جيري ومارل كريتاسي وقمته خراسان .
حلال	٤٥ × ١٥	٨٩٠	نواته خراسان ومنحدراته السفلى حجر جيري كريتاسي .
حمرة	١٢ × ٥	٦٠٠	في نواته يظهر الكريتاسي .
رأس الجيفة	٢٫٥ × ١		في نواته يظهر الكريتاسي .
الجدي الجنوبي	٤ × ٢	٧٠٠	في نواته يظهر الكريتاسي .
غرب يلج	١٠ × ٤	٧٥٠	معظمه كريتاسي .
المنشرح	٨ × ٥	٥٧٠	في نواته يظهر الجوراسي ، محاطا بالكريتاسي .
طلحة البدن	١٥ × ٨	٤٠٩	كريتاسي في نواته ومحيطه ، يقطعه وادي العريش .
البروك	٥ × ٢	٤٠٧	نواته كريتاسي ، تظهر السدود البازلتية في انكساراته .
خرم	٩ × ٥	٧١٠	خراسان نوبي أسفله كريتاسي مارلي.
أم حصيرة	٧ × ٥	٥٩٣	نواته كريتاسي .
البرقة	٣ × ١	٦٦٦	كتلة كريتاسية هورستية وسط الانكسارات المعقدة
عريف الناقة	٧ × ٤	٩٣٤	أهم ظهور للترياسي بمصر . نواته ترياسي ، وأعاليه كريتاسي ، وأسافله ايوسيني .

المصدر الأساسي هو رشدي سعيد :

R. Said Geology of Egypt p. 31 - 42 .

٩

إقليم الهضاب

يمتد بين خطى عرض ٣٠°، ٢٩° بالتقريب ، ولكن مع تقوس نحو الجنوب فى الوسط ، أى عموما بعرض درجة وبعض درجة . بالتقريب أيضا ، يتحدد بخطى كنتور ٥٠٠، ١٥٠٠ متر . المساحة نحو ٢١ ألف كم٢ ، أى حوالى ثلث سيناء . ولان الهضبة تجنح نوعا ما الى الشرق حيث تترك سهلا ساحليا مذكورا فى الغرب دون نظير له فى الشرق ، فان خط طول ٣٤° يكاد يتوسطها ويشطرها الى نصفين وان كان بعيدا عن تنصيف شبه الجزيرة ذاتها ككل .

هنا تسود السطح هضبة مترامية . أو بالأصح

هضبتان فى واحدة ، تتواصل من الخليج إلى الخليج على شكل مستطيل يكاد يتوسط شبه الجزيرة من الشمال الى الجنوب . هذا هو إقليم «سيناء المائدى Sinai tabulaire» كما يسميه بحق حسان عوض (ص ١٢) . وهو وحدة طبيعية ، جغرافية ، مورفولوجية واحدة ، تتباين بشدة وبكل وضوح مع كل من شمال سيناء بسهوله ذات القباب المسطحة وأقصى جنوب سيناء بجباله ذات القمم المدببة . وهذه الوحدة تستمدها من تركيبها الجيولوجى من أسفل كما من سقفها السطحى من أعلى .

فهى تتألف أساسا من طبقات أفقية تقريبا ، تميل باطراد نحو الشمال ميلا طفيفا لا يعدو درجتين فى اتجاه الشمال الشرقى دون أن يعتورها الاضطراب فيما عدا بعض الحالات المحلية المحدودة . هذه الطبقات تصنع متتابعة من التكوينات الرسوبية تلف النواة الأركية وتغلفها ، بادئة بالخراسان النوبى ثم الكريتاسى فالطباشير فالطفل فالحجر الجيرى ، ينقطها أخيرا بعض القواطع أو السدود البازلتية . الهضبة اذن ، فى الغالب الأعم ، تسودها

صخور الطباشير الكريتاسى والحجر الجيرى الايوسينى بحيث تشكل كتلتها استمرارا واضحا لهذا النوع وذاك من التكوينات على الجانب الآخر من خليج السويس فى هضبة المعازة سلاسل البحر الاحمر الشمالية .

السطح ، ترتيبا على البنية ، ينحدر بالتدريج من الجنوب الى الشمال لا يقطعه بالطول الا روافد وادى العريش وبالعرض الا مجوعتان من الحافات الجرفية أو الكويستات . فأما روافد الوادى ، تلك التى تنبع عند الحافة الجنوبية العظمى من هاتين الحافتين ، فكثير منها يجرى عميقا فى الهضبة مكونا خوانق غائرة فى الأحباس العليا حيث يشق ويحت بقوة فى طبقات الحجر الجيرى الكريتاسى الصلبة المتجانسة . ولشدة تعدد هذه الأودية شبه الطولية شبه المتوازية ، فانها تفصص الهضبة أو قلبها الى شرائح طولية متراصة على شكل مناطق بين وديانية عريضة مسطحة interfluves .

لكنما هى حافات الكويستات بالتأكيد التى تمثل المعلم

الابرز على سطح الهضبة المائدية . هما حافتان عظيمتان، أو بالاصح مجموعتان من الحواف ، تحيطان بالنواه الاركية القديمة من جانب بقدر ماتحفان من الجانب الآخر بالهضبة الوسطى بقسميها هضبة التيه وهضبة العجمة ، وذلك على شكل رقم ٧ مزدوج وبالغ التشويه .

كلتا الحافتين تواجه الجنوب بجرف حائطى شبه عمودى ، ولكن الجنوبية هى الاضخم والاعلى والاطول بينما الشمالية أقل أبعادا . الجنوبية تسمى كويستا جبل التيه نسبة الى جبل التيه الذى يشكل القطاع الغربى والابرز منها ، بينما تسمى الشمالية كويستا جبل العجمة نسبة الى جبل العجمة أهم معلم بقطاعها الشرقى .

معنى هذا ، حتى لا يحدث خلط أو خطأ ، أن الحافتين غير منسوبتين الى هضبتى التيه والعجمة نفسهما كما قد يظن ، لا ولا تختص كل منهما بحافتها أو أن هذه تحددها على حدة دون الاخرى ومنفردة عنها . وإنما كلتاهما تقطع وتقع فى كلتا الهضبتين على السواء ، ولكن بمواقع ونسب مختلفة . بل إن ترتيب الحافتين الجغرافى

لهو عكس ترتيب الهضبتين نفسهما ، فبينما تقع هضبة التيه شمال هضبة العجمة فان حافة التيه هى التى تقع جنوب حافة العجمة.

تمتد حافة جبل التيه بعرض شبه الجزيرة من الشرق الى الغرب نحو ١٤٠كم مترسمة فى مسارها كله حدود الصخور الكريتاسية بهضبة التيه . وتبدو الحافة فى القطاع الغربى منها أى فى جبل التيه نفسه خطية مستقيمة للغاية بمحور شمالى غربى ، مستمرة نحو الجنوب الشرقى حتى جبل ضلل الذى يمثل رأس زاوية الكويستا . هذا بينما يبلغ ارتفاع جرفها الحائطى نحو ٧٠٠ متر تمثل مدى عمق ما أزالت التعرية .

هذه الضخامة مع الاستقامة النادرة فى الغرب إنما يفسرها ، كما وضح حسان عوض ، أنها حافة انكسار مقلوب تطورت الى كويستا بفعل التعرية العميقة للسطح ما قبل الخراسان النوبى Pré nubienne [1] . فالحافة انما شكلتها فى معظمها التعرية ، مثلا الى الشمال من جبل

(1) Ibid.

الجنة أزيلت طبقات الخراسان النوبى الرخوة وبقى السطح وعرا . ويضاعف من وعورة ومنعة الحائط قلة الاودية التى تخترقه.

جيولوجيا ، تتكون الكويستا من طبقات سميكة من الحجر الرملي النوبى فالطباشير الكريتاسى فالحجر الجيرى الايوسينى . وفى المقاطع الغائرة من الاودية القليلة التى تخترق الحافة ، ترى بوضوح كل درجات هذا السلم الجيولوجى ابتداء من الخراسان القاعدى حتى الايوسين الكلسى الكاسى . وفى جبل ضلل مقطع آخر تنكشف فيه صخور الخراسان كأوضح ما تكون بمصر ، حيث نراه يتكون من طبقة سفلى من الحجر الرملى الحديدى يتألف من عدة أشرطة بنفسجية ووردية ومصفرة ، ثم من طبقة عليا من الحجر الرملى الابيض أو الملون (١) .

أما حافة العجمة فتقع الى الشمال من حافة التيه ، وتمتد زهاء ١١٥ كم كقوس مقعر نحو الجنوب بحيث تبدو

(1) Id.' p.170 --189.

فى وسطها كمقدمة السفينة بينما يتعرج طرفاها نحو الشمال الى أن تنتهى وتتوقف . ويعتبر جبل الجنينة رأس الزواية أو قمة المقدمة فى هذا القوس . وفى هذا الجبل ، الذى يرتفع الى ١٦٢٦ مترا ، يبلغ ارتفاع الحافة وحدها ٤٠٠ متر .

تكوين صخورها يقتصر على ثنائية الكريتاسى والايوسينى فقط دون قاعدة خراسانية . فهى تبدأ من طبقات لينة من الطباشير الكريتاسى الابيض والحجر الجيرى الطباشيرى ، تعلوها طبقات من الحجر الجيرى الايوسينى السميكة الصلبة . ولان الطباشير والجير هكذا يسودانها ،يغلب البياض الثلجى الناصع على معظم قطاعاتها . الحافة ، أخيرا ، منتظمة جدا ، بلا تلال مقتطعة أمامية ازاء الجبهة الغائرة ، وذلك لقلة سمك الطبقة الكلسية .

فيما بين هاتين الحافتين ينداح انخفاض طبوغرافى تختطه روافد وادى العريش العليا ويمثل أبرز معلم جغرافى محلى . أصل هذا الانخفاض ، حيث لا دليل على

قلقلة باطنية ، تعرية لا شك فيها ترتبط بتآكل التكاوين المحلية الهشة الضعيفة [1] . وباستثناء هذا الانخفاض وتلك الحافات تسود الصفة المائدية على الهضبة العامة التى تصرفها شبكة غنية من الأودية تغضن سطحها بالاضافة الى خطوط انكسارات تمزقه الى مجموعة من الكتل الجبلية أو القمم المنفردة .

على هذا يمكن تلخيص التركيب المورفولوجى لاقليم الهضاب فى أنه أساسا هضاب تركيبية مائدية تحفها من الجهات الاربع جميعا حافات كويستا أو حافات منحدرات أو الانكسارات بينما يحكم الانكسار مظاهر السطح الرئيسية بداخلها. والواقع أن وسط سيناء برمته تتشكل أساسا بالانكسار ثم بالتعرية اللاحقة . فالواضح أن نظام الانكسارات الافريقية بالاضافة الى الانكسارات الثانوية الشمالية الشرقية والشمالية - الجنوبية قد أثرت كلها فى كل شبه الجزيرة مكونة سلسلة من الانكسارات السلمية

(1) Id., 200-203.

جوانبها الهابطة هى تلك التى تقع ناحية الغرب تجاه كتلة اليابس الافريقى .

أهم هذه الانكسارات مجموعة تحف بخليج السويس غربا واخرى تحف بخليج العقبة شرقا . وما هضبة التيه فى واقع الامر الا كتلة هورستية بين هاتين المجموعتين من خطوط الانكسار . وتمتاز مجموعة خليج السويس التى يسودها المحور الشمالى الغربى ، بأنها قديمة تعاصر نشأة خليج السويس نفسه . أما مجموعة خليج العقبة فتنقسم الى مجموعتين ثانويتين ، واحدة شمالية غربية وشمالية - جنوبية فى الداخل وهى الاقدم وتعاصر مجموعة انكسارات خليج السويس ، وأخرى شمالية شرقية قرب الساحل تصل بعض رمياتها الى ٢٥٠٠ متر وهى أحدث ترجع فقط الى البلايستوسين (١) .

تلك فى خطوطها العريضة هى صورة اقليم الهضاب أو الهضبة الوسطى. وكما رأينا فان البعض يطلق على الاقليم جميعا اسم هضبة التيه وذلك من قبيل اطلاق

---

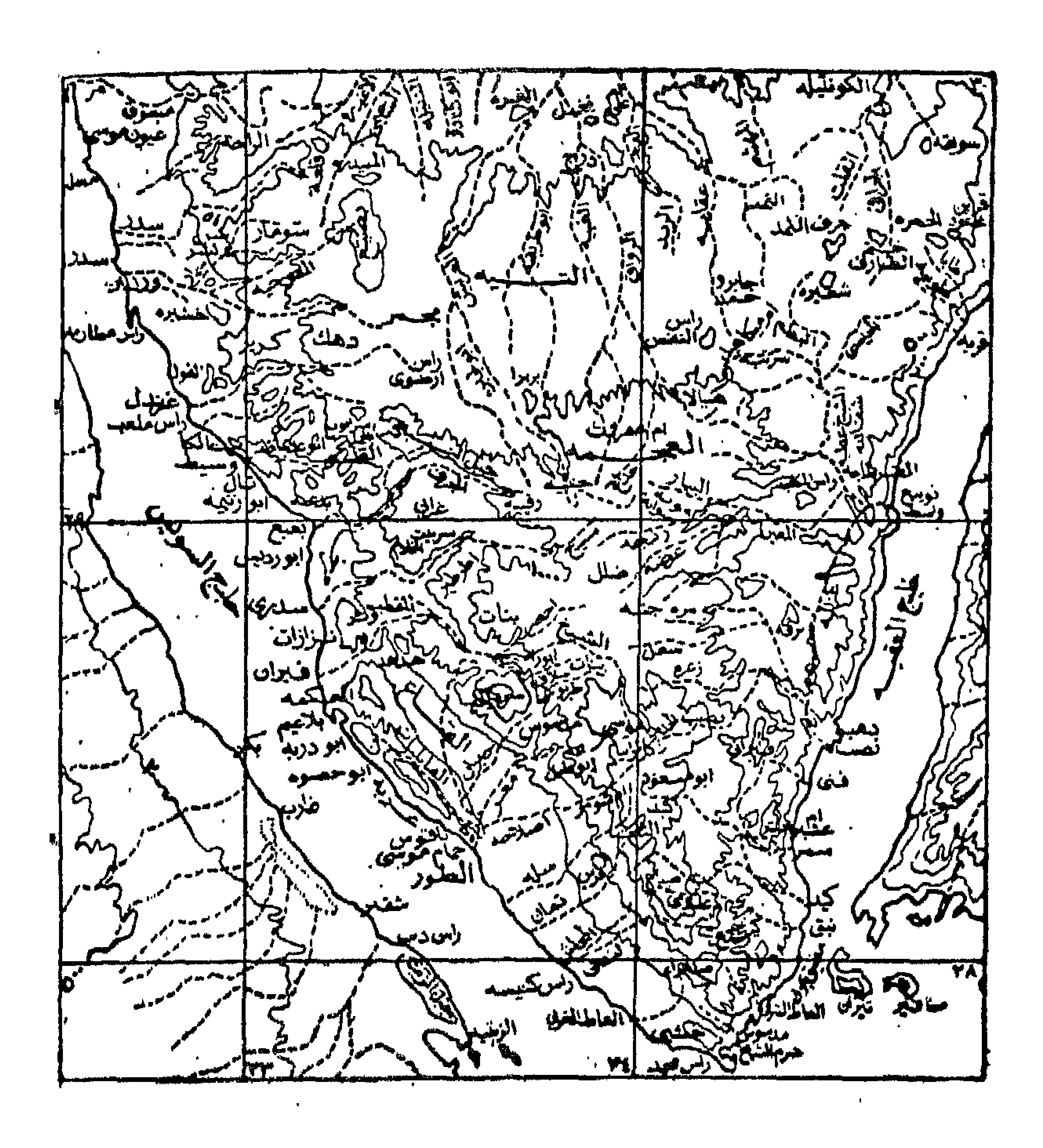
(1) Said, p. 125-6.

الجزء على الكل وكاسم مرادف . غير أن الحقيقة أن هضبة التيه ما هي الا جزء فقط ، وان يكن الجزء الاكبر، من اقليم الهضاب ككل - الجزء الآخر هو هضبة العجمة في الجنوب . كذلك فان البعض فيما يبدو يعتبر هضبة العجمة الجزء الاوسط بالتقريب من هضبة التيه .

لكن هذا وذاك لا يسفر الا عن الخلط الاقليمي وعدم الوضوح التحديدي ، مثلما يلاحظ فعلا في بعض الكتابات عن المنطقة . وذلك ولا سيما اذا أضفنا أن «جبل التيه» الذي يؤلف القطاع الغربي من الكويستا الجنوبية بجنوب المنطقة هو شيء ، «وهضبة التيه» في شمالها شيء آخر . لهذا فليكن واضحا أن أقليم الهضاب ينقسم الى هضبتين متميزتين هما التيه في الشمال والعجمة في الجنوب، وخط التقسيم بينهما هو بالتقريب الشديد خط كنتور ١٠٠٠ متر.

كلتا الهضبتين على حدة أو كلتاهما معا كاقليم الهضاب على الجملة يمكن ، أخيرا ، تقسيمها جغرافيا الى ثلاثة أقاليم ثانوية أو قطاعات اقليمية لكل منها

ملامحه الخاصة : القطاع الغربى والاوسط والشرقى .
فالقطاع الغربى جبلى - هضبى أكثر مما هو هضبى تماما ، فهو دائما مجموع كتل الحافة الغربية المضرسة المقطعة بفعل الاودية ، وأوديته تتجه غربا ، وغربه سهل ساحلى واسع بدرجة أو بأخرى . أما القطاع الاوسط فأقرب الى مفهوم الهضبة المائدية التقليدية ،تخططه الى فصوص مستطيلة روافد وأدى العريش ، وأوديته شمالية جنوبية تصرف شمالا . أما القطاع الشرقى فقد يكون أقل ارتفاعا نسبيا ليس فقط من القطاع الغربى ولكن حتى من الاوسط أيضا ، وأوديته تتجه وتصرف شرقا، الا أنه بلا سهل ساحلى تقريبا .



شكل ٥ – جنوب سيناء

هضبة التيه

تنحصر بالتقريب بين كنتورى ٥٠٠ - ١٠٠٠ متر ، ومن ثم كذلك بين خطى٢٩° - ٢٩,٥° أو أكثر نوعا مع تقوس نحو الجنوب فى الوسط دائما . وبهذا التحديد فانها ترسم مستطيلا يستعرض بكامل اتساع شبه الجزيرة من الخليج الى الخليج ، كما يكاد يتوسطها بالضبط ما بين الشمال والجنوب . فهى قلب سيناء جغرافيا ، ولكن القلب الميت بامتياز ، لانها أشدها جفافا وفقرا : إنها بيداء التيه الكلاسيكية Wilderness of Tih.

تكوينها من صخور الطباشير الكريتاسية أساسا . يحدها ويحددها من الجوانب الاربعة تقريبا أما الحافات أو الكويستات وأما الانكسارات وأما الاثنتان معا وهو الاغلب . فالحــــدود الشــــمالية لهضبة التيه تمتاز بانكسارات عظيمة شرقية - غربية تقطع سيناء بكامل

عرضها ، وتعـد في تاريخها انكـسارات قديمة تتعاصر مع انكسارات خليج السويس .

أبرز قطاعات هذا الانكسار في الشرق في جبل حمرة شمال غرب رأس النقب مباشرة وبالقرب من رأس خليج العقبة . هناك يفصل الانكسار الجرانيت القاعدى عن الحجر الجيرى الكريتاسى برمية تناهز ٢٠٠٠ متر . وعلى امتداد الانكسار في قطاع حمرة - الثمد يظهر الطباشير بمساحات كبيرة .

لكن الانكسار أقل حدة فى قطاعه الغربى ، غير أن الى جانبه هنا يظهر قاطع أو سد بازلتى مترام هو سد رقبة النعام يمتد بضع عشرات من الكليو مترات شرقا بغرب يقطع بكلا انكساره وسده جبل بضيع كاشفا كل تكويناته . ويرجع بازلت ودوليريت هذا السد الى الزمن الثالث الاسفل .

هذا شمالا ، أما جنوبا وشرقا وغربا فتحف بالهضبة الجروف الحادة شبه الرأسية التى يصعب ارتقاؤها

الابنقوب معينة . وكلتا الحافتين الغربية والشرقية محددة بالانكسارات . الغربية يزداد ارتفاعها كلما تقدمت جنوبا ، فهى تبلغ ٨٠٠ متر فى جبل الراحة فى ركنها الشمالى الغربى ، بينما تصل الى ١١٠٠ متر فى ركنها الجنوبى الغربى الذى يطل على وادى أبو قضا أحد روافد غرندل . هذا بينما تظهر غير بعيد فى رأس أرضوى اندساسات البازلت والدولريت على شكل سدادة بارزة متميزة plug أما الحافة الشرقية فأقل ارتفاعا وبروزا ، وهى بحكم الموقع تشرف على وادى عربة أكثر مما تشرف على خليج العقبة . وثمة انكسار طولى يكتنفها بين كتل الجرانيت يظهر شمال طابا [١] .

بين هذه الحواف والانكسارات ، تبدو هضبة التيه فى الداخل بطبقاتها الافقية هضبة مائدية تقليدية أو مائدة صحراوية نموذجية ، معتدلة الطبوغرافيا لطيفة الانحدار ، تنحدر بالتدريج شمالا بينما تنحدر جوانبها بشدة الى

---

(1) Id., p.120 - 6.

الخليجين شرقا وغربا . وعلى هذا الاساس ، ورغم الوحدة الطبيعية العريضة ، تكتسب أجزاء الهضبة المختلفة صفات محلية متميزة تسهم فى تحديد أقاليمها الثانوية أو المحلية. وللدراسة التفصيلية سوف نقسم هذه الاقليم الآن ثلاثة قطاعات ، غرب ووسط وشرق الهضبة ، بادئين دائما من الغرب.

القطاع الغربى

يبدأ القطاع الغربى بسهل ساحلى يتحدد تقريبا بكنتور ٢٠٠ متر ، متسعا نوعا فى الوسط ، ومتوسط اتساعه عموما نحو ٣٠ كم . السهل ميوسينى أساسا ،تغطيه قرب الساحل وعلى امتداد أوديته العرضية الرواسب الرملية البلايستوسينية والحديثة . فى الشمال فى منطقة عيون موسى يخترق السهل عديد من الانكسارات الصغيرة ، وفى الجنوب تزداد الانكسارات عددا وتعقيدا . ويبعضها ترتبط بعض الاودية الثانوية الطولية مثل وادى

عمارة ووادى سلفة ، وبعضها الآخر يرتبط ببعض الحافات والبروزات التلية المنعزلة الصغيرة مثل جبل خشيرة وجبل فول .

فيما عدا هذا فان السطح متموج بتدرج لطيف ، تنقطه هنا وهناك تلال منخفضة من الحجر الجيرى ، ويغطى وجهه عموما الرمل السائب الذى يتحول الى كثبان هلالية فى الشمال تجاه السويس والى مارل رملى وجبس وحصى فى الجنوب . كذلك تنتشر على السهل بعض المستنقعات التى قد تحمل أو تتحول الى قشرة ملحية بيضاء فى الفصل الجاف [1] .

تفصيلا ، أشهر وأبرز ملامح السهل هى عيون موسى فى الشمال وجبلا خشيرة والفول فى الجنوب . فأما عيون موسى ، على رأس السهل غير بعيد عن السويس الابنحو ٢٠ كم ، فمجموعة عيون طبيعية تتجمع مياهها فى برك مستديرة متفاوتة الاقطار ، أكبرها ١٠ وأصغرها ٥ أمتار. المياه المنبثقة منها تنساب فى قنوات لرى أجمات

(1) Migahid et al., p.168.

النخيل الكثيفة والقليل من محاصيل علف الحيوان . والمنطقة ملحية التربة عموما ، الا أنها لا تمنع زراعة النخيل.

أما جبلا خشيرة والفول فيقفان قرب أقدام كتلة جبل المرير ، الأول فى الشمال جنوب وادى وردان ، والثانى فى الجنوب شمال وادى غرندل . خشيرة جرف ميوسينى لا يعدو ٢٨٠ مترا فى أقصاه ، بينما يصل فول الى ٤٢٥ مترا .

اذا انتقلنا من السهل الساحلى الى جسم الهضبة نفسها ، التى يفصلها عنه مجموعة خطوط الانكسارات الطولية المعقدة الرئيسية الموازية للساحل ، وجدناه يتألف من مجموعة من الكتل الهضبية والجبلية الواضحة التحديد الى حد أو آخر . وهذه الكتل تمثل التواءات أو محدبات تفصل بينها مقعرات المنخفضات البينية ومجارى الاودية المختلفة التى تقطعها مصرفة الى الخليج . وتقع المجموعة فى صفين بالطول ، خارجى فى الغرب تتأثر

حافته الغربية بالانكسار الرئيسى ، وداخلى فى الشرق تسود وحداته التراكيب القبابية أساسا .

الصف الخارجى ينحصر ويتحدد ككل بين ممر متلا فى الشمال ووادى غرندل فى الجنوب ، ثم ينقسم بواسطة واديى سدر ووردان الى ثلاث كتل رئيسية تقل مساحاتها باطراد جنوبا ، وتنقسم كل منها بدورها داخليا الى بضع كتل أصغر .

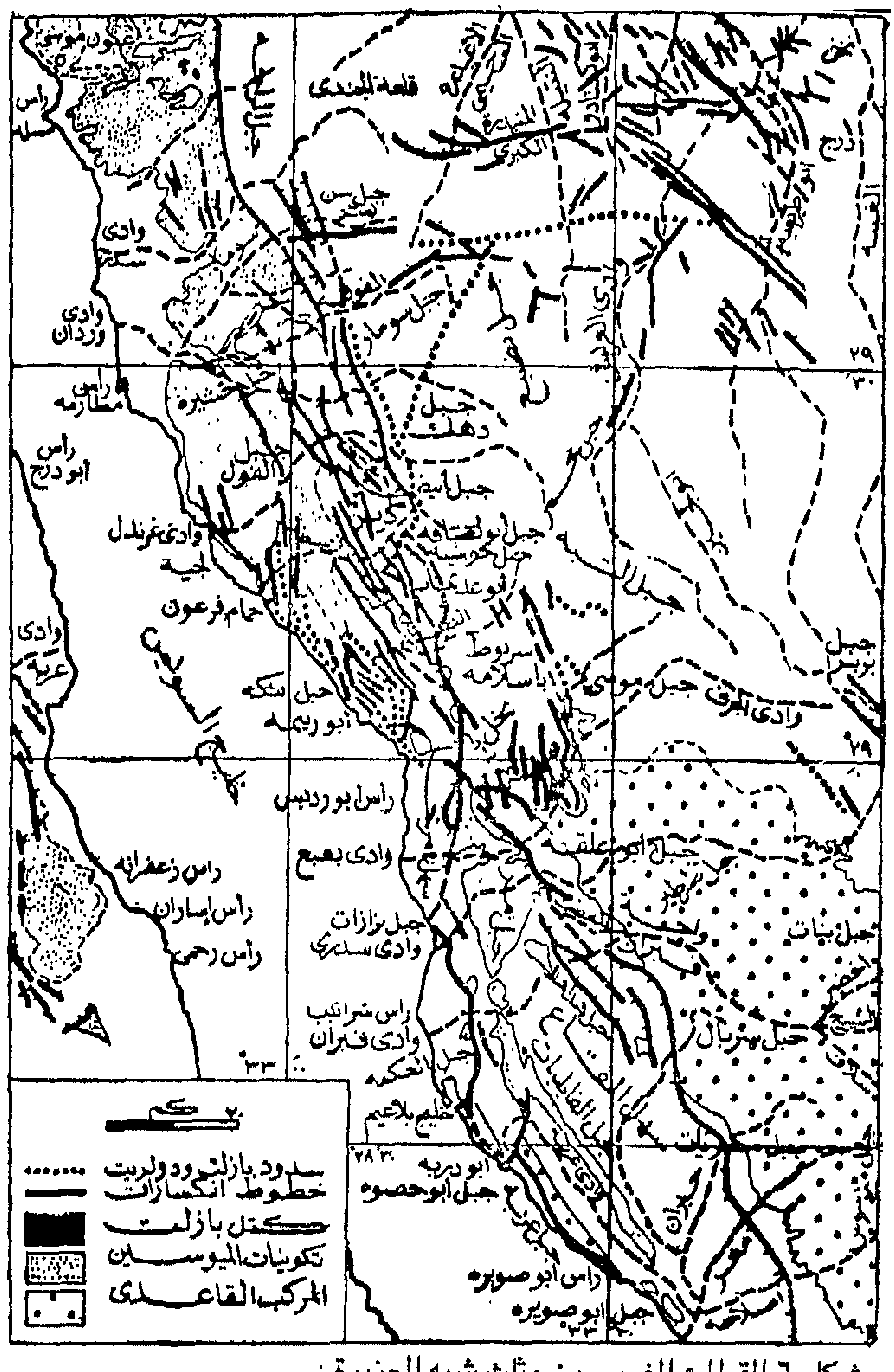
تشمل الكتلة الشمالية المحصورة بين ممر متلا ووادى سدر ثلاثة جبال : الراحة ، حيطان ، الزرافة . فإلى الجنوب من ممر متلا نبدأ بجبل الراحة ازاء السويس والشط وعيون موسى الى أن ينتهى جنوبا عند وادى سدر. الجبل كتلة ايوسينية تبلغ أقصى ارتفاعها فى الجنوب حيث تصل الى ٧٤١ مترا ، وتعلو فى متوسطها نحو ٣٠٠ متر على السهل الساحلى الميوسينى المجاور .

الكتلة تمثل الجانب الناهض من الانكسار الرئيسى الشمالى الجنوبى الحاد المستقيم الذى يحددها أيضا بكل

وضوح . على السقف تكاد الطبقات الايوسينية تكون أفقية ، ولكنها تنثنى بعنف عند حدها فى التواء أحادى الطية monoclinal fold بحيث تبدو الحافة الغربية للجبل عمودية تقريبا مثلما هى ملساء للغاية ، بينما عند أقدامها يتكدس هشيمها بغزارة [١] .

يخترط الكتلة بكامل عرضها وحوالى منتصفها واد يستمر حتى ينتهى عند أقصى شمال رأس خليج السويس، متخذا ثلاثة أسماء على الطريق ، فهو وادى الراحة على سقف الجبل ، ثم وادى مبعوق بعد حضيضه، وأخيرا وادى مر فى أدناه ، وبكل قطاع بئر تحمل نفس اسمه .

(1) Said,152.



شكل ٦ القطاع الغربى من مثلث شبه الجزيرة :

تفصيلة طبوغرافية – مورفولوجية . (عن رشدى سعيد وآخرين)

الى الداخل وراء الراحة ، وجنوب ممر متلا أيضا ينتصب كالحائط جبل حيطان - لاحظ الاسم - الذى تبلغ قمته ٨٠٦ أمتار ، والذى يحدد خانق الممر نفسه مع جبل الجدى فى الشمال . ثم الى الجنوب من كتلة حيطان وخلف الراحة يقع جبل الزرافة ، تفصله عن جاريه أعالى وادى الراحة ، وتبلغ قمته ٧٠٦ أمتار .

تنتهى الكتلة الشمالية عند وادى سدر ، الذى تقع فى أعاليه عين سدر ، ويمتد على محور شمالى شرقى - جنوبى غربى ، ويصب عند رأس السدر . الوادى يمثل أوسع واهم فتحة فى حائط غرب سيناء جميعا ، مناظرا فى ذلك لوادى عربة على الجانب الآخر من الخليج بل ومكملا له تركيبيا . وكما يضع الوادى حدا للكتلة الشمالية من غرب التيه ، يحدد بداية الكتلة الوسطى التى تنتهى عند المجرى الرئيسى لوادى وردان الذى يتخذ تقريبا محورا شرقيا - غربيا نصا وينتهى عند رأس مطارمة .

وكما فى الكتلة الشمالية ، تتحدد الحافة الغربية للكتلة

الوسطى بنفس الانكسار الرئيسى الطولى المستمر ، الا أنه ينحنى هنا قليلا نحو الجنوب الشرقى . وفى النتيجة ، نلاحظ ان الكتلة تتراجع نوعا الى الداخل بالقياس الى سابقتها . على سطوح وسفوح هذه الكتلة تجرى روافد وردان وأهمها سومار (أو سمار) فى الشمال والفوقية (أو الفوجية) وسيج فى الجنوب . وكما تقع عين سدر فى أعلى واديها ، تقع كل من عين سومار وعين الفوقية فى أعلى واديها على التوالى .

نفس هذه الاودية تساعد على تقسيم الكتلة الى بضعة جبال هضبية . فالركن الشمالى الغربى ، شمال وادى سومار ، هو جبل سن بشر ، الذى يصل فى أعلاه الى ٦١٨ مترا . وفى أقصى الجنوب تنفصل بين وادى الفوقية ومجرى وردان الرئيسى كتلة محدب جبل حلفاية ، وهو أيوسينى النواة ميوسينى الضلوع . بقية الكتلة ، وهى جسمها الرئيسى ، هو جبل سومار .

الجبل متطاول نوعا كجبل الراحة ، الا أنه لا يقع جنوبه بقدر ما يقع جنوب شرقيه . ومثله أيضا تتأثر

حافته الغربية بخط الانكسار الرئيسى ، إلا أنه يختلف تركيبيا فى أنه أساسا تركيب قبابى . والواقع أنه أول وحدة من مجموعة تراكيب قبابية تسود ظهير القطاع الغربى من هضبة التيه . فالجبل قبة لطيفة ، كريتاسى الطبقات من الطباشير الابيض ، يبلغ أقصى ارتفاعه ٩٢٥ مترا ، ويعد بهذا من أعلى كتل الحافة الغربية لهضبة التيه . فى جنوبه الشرقى تقطعه على محور شمالى شرقى شعبة من سد رقبة النعام البازلتى .

الكتلة الجنوبية هى الصغرى مساحة ، وتنحصر كشريط مستعرض بين واديى وردان وغرندل الذى يصب عند رأس نلعب . الكتلة تنحدر بوضوح من الشرق الى الغرب منقسمة الى وحدتين غير متكافئتين مساحة وارتفاعا ، ففى الغرب جبل المرير الصغير المتوسط العلو ، قمته ٤٣٥ مترا فقط . أما الشرق فجبل ضخم مرتفع هو جبل دهك ، قمته نحو الضعف ارتفاعا ، ٩١٦ مترا ، السد البازلتى القاطع لجبل سومار يستمر عبرالجبل قاطعا أياه على نفس المحور ، بينما تظهر على تخومة الشرقية

القصوى آخر نهايات (أو أول بدايات) كويستا جبل التيه الشاهقة.

اذا انتقلنا الآن الى صف الكتل الدخلية فى الشرق وجدناه يتألف من مجموعة من التراكيب القبابية ، بعضها صغير ولكن معظمها كبير ، وكلها تراكيب قديمة ترتبط بنظام القوس السورى ، وتمثل التواءات لطيفة طفيفة الميل ذات أشكال سمترية . أهم هذه القباب من الشمال قلعة الجندى المنيدرة الكبيرة ، بضيع ، مجمر .

قلعة الجندى كتلة محدودة الرقعة والعلو نوعا ، ٦٥٦ مترا فى اقصاها ، تقع الى الخلف من جبل الزرافة محصورة بين أعالى اثنين من روافد وادى العريش هما الاغيدرة غربا والسحيمى شرقا .

أما المنيدرة الكبيرة فتقع الى الجنوب الشرقى محصورة بين أعالى واديى السحيمى غربا والنتيلة شرقا . وهى قبة مصدوعة ، ان تكن محدودة الرقعة للغاية فانها تمثل محدبا عظيما يبلغ فى قمته ٧٨٠ مترا . ويكون

الطباشير ضلوع محدب المنيدرة ، بينما يظهر الطفل فى سهوله المحيطة .

الى الجنوب مباشرة من المنيدرة تترامى كتلة بضيع الضخمة . الجبل يقع الى الشرق من سومار ، ويبدو كتل متطاول مسـطح السقف يرتفع بالتدريج جنوبا ، من ٨٥٠ - ٨٩٠ مترا كقمم الشمال الى قمته الكبرى ١٠٧٦ مترا فى أقصى الجنوب . وهو يمتاز بغطاء صلب من الحجر الجيرى الايوسينى الشديد المقاومة ، بينما يكون الطباشير ضلوع مقعره العظيم المجاور ، كما يظهر الطفل الرمادى المخضر فى سهول واديه . فى شماله يختطه بكامل عرضه سد رقبة النعام البازلتى كاشفا كل تكويناته بكامل سلمها .

أخيرا ، وبعيدا إلى الجنوب الشرقى من بضيع ، يأتى جبل مجمر . هو قبة أخرى تصنع كتلة ضخمة منعزلة نوعا ، أصله التواء يظهر كبروز من الطبقات الأقدم فى نواة القبة .

القطاع الأوسط

من القطاع الغربى لهضبة التيه ، ننتقل الآن إلى القطاع الأوسط . هنا فى الداخل تقل الانكسارات ، وحيثما وجدت فإنها عادية ، رمياتها ضعيفة محدودة ، ومعظم محاورها شمالية شرقية . كذلك تندر السدود والقواطع البازلتية ، وإن وجدت فشرقية - غربية . فيما عدا هذا فإن أهم ملامح اللاندسكيب هى الخطوط العديدة لروافد وادى العريش التى تجرى هنا بانتظام وتواز ملحوظين من الجنوب إلى الشمال فتقطع الهضبة طوليا بالنمط نفسه . وفى هــذه الأودية ، عـلى شدة تعددها ، تتجمع أمطار المنطقة القليلة فى آبار شديدة التباعد مياهها قليلة العذوبة .

مستوى الهضبة الرتيب يزيد عموما على ٥٠٠ متر ، لكنه لا يصل إلى ١٠٠٠ متر أو يتجاوزها إلا حيث تعلوه

كتل جبل تكسر من رتابتها العامة . ففى الجنوب حيث تصل الهضبة إلى أعلاها نقابل الجبال المرتفعة التى يتناظر بعضها على جانبيها شرقا وغربا بصورة لافتة . ففى أقصى الجنوب نجد رأس أرضوي فى الغرب ، يقابلها فى الشرق جبل حيالا (١٣٠٠ متر) وشماله مباشرة رأس النفس (١٠٨٠ مترا) . وإلى الشمال على عروض وسط الهضبة نجد جبل مجمر فى الغرب يقابله فى الشرق جبل جابرو حمد ثم شرقه جبل أم ميكاهيل .

وإذا كانت كتل ومخاريط الجبال العالية تنتشر هكذا في الجنوب ، فثمة على العكس فى الشمال ولا سيما على أقصى تخوم الهضبة عدد كبير من التراكيب القبابية الصغيرة . ولكن لأنها قباب ثانوية الأبعاد ، لا يعدو طولها غالبا ٥ كم ، فإن تأثيرها على فيزيوغرافية المنطقة محدود نوعا ، هى قباب سمترية ، كل محاورها شمالية شرقية ، لطيفة للغاية لا يزيد ميل ضلوعها على ١ - ٥ درجات . وأهم هذه القباب الصغيرة درج جنوب نخل ، ثم قبة نخل نفسها ، ثم قبة أبو حمظ شمال غرب نخل . ونواتها جميعا تتكون من الطفل الرمادى المخضر .

القطاع الشرقى

هذه القباب الصغيرة الاخيرة تنقلنا بالتدريج الى القطاع الشرقى والاخير من هضبة التيه . هنا يتواضع السطح قليلا وتقل الجبال فتتباعد منعزلة بين روافد وادى العريش العديدة وروافد وادى عربة الممدودة . فأهم القمم هنا مجموعة تقع غرب رأس خليج العقبة تشمل جبل شعيرة (١٠٣٠ مترا) ، ثم الى الشمال منه جرف الثمد (١٠٦٦ مترا) ، يليه شرقا ختم الطارف (٨٧٤ مترا) ، فجبل حمرة (٩٢٧ مترا) ، فجبل قرين عنود (٩١٣ مترا) والاخير يشرف على الحدود شمال رأس النقب . وأخيرا يأتى جبل سويقة (٧٤٠مترا) على الحدود أيضا ولكن بعيدا الى الشمال حوالى جنوب الكونتيلا .

غير أننا هنا على المنحدرات الشرقية لهضبة التيه نجد نظام الصرف يحتل أو يتعدل . ففى الشمال نجد منطقة

الصرف الداخلي التى تنتهى الى البحر الميت عن طريق رافد وادى عربة وهو وادى الجرافى الذى يبدأ جنوب جبل ختم الطارف ثم يجمع عدة روافد محلية أهمها خريصة ، خداخد ، القدانى ، والقلت الذى ينبع شمال جرف الثمد . أما فى الجنوب فيتم الصرف عن طريق الروافد الشمالية لوادى أواطير الذى هو أدخل فى هضبة العجمة . وفيما بين الجرافى شمالا وأواطير جنوبا يخلو شرق هضبة التيه عمليا من الاودية الساحلية الا أن تكون مجارى قزمية جدا مثل وادى طابا وطوبية وقرية الى الجنوب مباشرة من رأس خليج العقبة .

هضبة العجمة

هذه هى آخر وحدات الهضاب الوسطى ونهايتها جنوبا ، تكاد تقع وتتوزع على جانبى خط عرض ٢٩° بالتساوى شمالا وجنوبا . من ثم فهى أضيق وأقل عرضا

من هضبة التيه ، ولذا لا تزيد كثيرا عن نصف مساحتها. غير أنها أكثر ارتفاعا للغاية ، اذ تنحصر بين كنتورى ١٠٠٠ متر شمالا ، ١٥٠٠ متر جنوبا والحد الاول هو آخر جروف سيناء الكبرى ويتفق مع جبل التيه المستعرض. أما الحد الثانى فهو خط أودية فيران - نصب الذى يفصلها عن الكتلة الجبلية القديمة فى الجنوب. وهى بهذا الوضع تمثل بالنسبة الى هذه الكتلة الاخيرة «المقدم الثابت stable foreland » كما يسميه شطا [1] .

من أبــرز مـــا يميز العجمة كـذلك أنها أكثر قطاعات مرتفعات سيناء بروزا وتقدما نحو الغرب ، تقترب بشدة من خليج السويس ، الذى يتفق أن يتأرجح هو الآخر هنا الى أقصى مداه نحو الشرق ليبلغ أقصى اتساعه ، مما يضاعف من ظـــاهرة التقارب الشـــديد بين الهضبة والساحل. يحدث هذا بالتحديد على خط عرض ٢٩° الذى ينصف الهضبة بالتقريب ، وبالتالى يقع بالتخصيص ازاء قطاع أم بجمة - أبو زنيمة . من هنا لا تكـــاد الهضبة

(1) Op. cit.,1956.

تترك سهلا ساحليا يذكر ، حتى ليوشك السهل أن يختنق الى مضيق أو ممر محصور فى منطقة أبو زنيمة حيث يشرف جبل حمام فرعون وجبل تال على البحر مباشرة .

والعجمة هضبة مائدية من الحجر الجيرى الايوسينى أساسا على خلاف هضبة التيه التى يسودها الكريتاسى . وعلى الفور يلفت النظر هنا هذا الترتيب أو التتابع الجغرافى المعكوس ، حيث يقع الكريتاسى الاقدم فى الشمال والايوسينى الاحدث فى الجنوب ، فى حين ينتظر العكس . السبب ببساطة أن التعرية قد أزالت الطبقة الايوسينية فى حالة هضبة التيه بينما احتفظت بها هضبة العجمة ، فكان هذا الترتيب المعكوس .

هكذا نجد كل سطح هضبة العجمة الايوسينى يغطيه بشكل متجانس الحجر الجيرى المرصع بالصوان يعلوه فى بعض المحليات فقط الحجر الجيرى النوموليتى كما فى بروز أم عفروث فى الجنوب . ويقطع هذه التكوينات محليا اندساسات البازلت ، وأهمها تلك التى تعترض الخراسان

النوبى جنوب جبل رقبة فى الجنوب ، وتلك التى تجرى بامتداد حافة جبل التيه .

تضاريسيا ، العجمة أكثر وعورة وتقطعا ، مثلما هى أعلى مستوى ، من التيه ، كما أنها أغزر مطرا ومائية . والواقع أنها فى مجموعها تمثل خط تقسيم المياه بين روافد وادى العريش شمالا وأودية الخليجين جنوبا ، فتجتمع من ثم فيها رؤوس ومنابع كلتا المجموعتين ، بل وتتقارب أحيانا الى درجة يمكن أن تغرى بالاسر النهرى ، خاصة مع طبيعة مياهها السيلية .

القطاع الغربى

وكالتيه ، تنقسم هضبة العجمة الى ثلاثة قطاعات ، الغرب والوسط والشرق ، فالقطاع الغربى ، الذى ينحصر بين واديى غرندل شمالا وفيران جنوبا ، يتشكل من الحافة الناهضة البارزة من الهضبة وتمزقه الاوديه والانكسارات الى عديد من الكتل الجبلية الواضحة ، ثم لا يترك الا سهلا ساحليا بالغ الضيق تكثر به السلاسل التلية الثانوية المنفصلة .

فأما السهل الساحلى فان خط الساحل الذى يبدأ ومحوره متجه نحو الجنوب الشرقى ينحرف بحدة عند مصب وادى بعبع ليصبح شماليا - جنوبيا نصا . ويتحدد السهل نفسه بنية وتضاريس بتأثر الانكسار الطولى الرئيسى والانكسارات العريضة الثانوية . ففى كل من ثلثه الشمالى والجنوبى تبرز لصق الساحل مباشرة سلسلة تلية

منفصلة موازية ، بينما يتسع السهل نسبيا فى ثلثه الاوسط.

فالسلسلة الشمالية ، التى تحف بها وتحكمها الانكسارات المعقدة ويقطعها فى وسطها وادى وسيط تتألف من ثلاثة جبال صغيرة : جبل حمام فرعون فى الشمال ، تانكا فى الوسط ، تال فى الجنوب . جبل حمام فرعون بقايا كتلة انكسارية معقدة تحاذى الساحل ، يتكون من الحجر الجيرى النوموليتى الايوسينى وسط قاعدة السهل الميوسينية ، وتصل قمته الى ٤٩٤ مترا ، أما جبل تانكا فايوسينى ميوسينى . وشمال أبو زنيمة يظهر جبل تال الذى تصل قمته الى ٥١٧ مترا .

فيمابين مصبى واديى بعبع وسدرى تتراجع كتلة الهضبة الى الداخل نوعا ، فيتضاعف عرض الشقة الساحلية لتعطينا سهل المرخا الميوسينى الشهير الذى يتوسطه حقل بترول أبورديس . غير أن السلسلة الساحلية الجنوبية لا تلبث أن تظهر جنوب وادى سدرى وحتى وادى

فيران . فعلى الساحل جبل صغير هو جبل نزازات ، تنهض خلفه كتلة متطاولة هى جبل ونر ، وقمته ٤٩١ مترا .

من داخلية السهل الساحلى التى تبدو هنا كواد طولى أو كثنية مقعرة ، ترتفع كتلة هضبة العجمة بحدة فى سلسلة من الطيات تشكل بضع سلاسل جبلية متوازية تنتهى فى الشرق عند أقدام حافة جبل التّيه شمالا وعند نهايات الكتلة الاركية النارية جنوبا . ومن الجهة الاخرى تتعامد مجموعة الاودية الساحلية على كتلة الهضبة فتشارك فى تفصيصها الى كتل جبلية محددة .

فالى الجنوب من وادى غرندل نجد رأس أم مغرب (٩٢٠ مترا) ، ثم جبل كرير وأبو صافة وجوشية وأبو عذيمات (٧٩٩ مترا) . لعلها تؤلف مع جبل خشيرة فى الشمال محدبا مركبا شديد التعقيد . وكرير مورفولوجيا جرف من الحجر الجيرى الايوسينى، وجوشنية حافة شامخة ميوسينية وتصرف الرقعة روافد غرندل ووسيط .

غير أنه إلى الجنوب من وسيط تنحدر على ضلوع الهضبة بضعة أودية صغيرة لا تصل إلى البحر بل تفقد نفسها فى السهل الداخلى شرق سلسلة فرعون - تال . أهم هذه الاودية وادى الطيبة ، بدعة ، فور . وتجنب هذه الاودية كتل جبال سرابوت الجمل فى الداخل ثم موسى باسلامة ونخل والمطلة . وباستثناء المطلة الكريتاسى ، فإن هذه الجبال ميوسينية ، ومع ذلك قد تكون أحيانا أعلى من كتلة الهضبة الكريتاسية والكربونية فى الداخل . مثال ذلك سرابوت الجمل الذى يصل إلى ٦٤٢ مترا ، مقابل ٤٠٠ متر فقط للهضبة ذاتها .

على امتداد النهاية الغربية لكويستا جبل التيه الخراسانية ، وفى قطاع أم بجمة بين واديى بعبع ورافده الجرف وسدرى ورافده سبيح ، تتداخل فى الحجر الرملى النوبى طبقات رسوبية من العصر الفحمى تحمل حفريات هذا العصر ، ويتخللها بعض حجر جيرى دولوميتى محدود الانتشار كما يقل سمكه نحو الاطراف . هذه ، بالطبع، هى إحدى المنطقتين الوحيدتين الهامتين اللتين تمثلان

العصر الفحمى جيولوجيا – الثانية هى نظيرتها عبر الخليج مباشرة فى وادى عربة ، أى امتداد لها بالتأكيد . فأما صخور العصر الفحمى فتتكون من طبقتين رمليتين تتوسطهما طبقة من الجير ، والسفلى منهما هى حاملة المنجنيز الذى يوجد فقط بجوار مناطق الانكسارات ودائما عند قاعدة الحجر الجيرى الكربونى (١) .

أما على السطح فتنتشر الكتل الجبلية مثل جبل المغارة فى الغرب (٤٧٨ مترا) ثم جبل غرابى (٩٩٢ مترا) وسرابيت الخادم (١٠٩٦ مترا) فى الداخل . ومن الواضح أن فى هذه الضلوع والمنحدرات الغربية من هذه الشقة المتقدمة بصفة خاصة نحو البحر من هضبة العجمة يكمن الموطن الأساسى لكثير من ثروة سيناء المعدنية . فهنا فى الطبقة الفحمية يتكدس منجنيز أم بجمة ومناجم سرابيت الخادم القديمة ، فضلا عن حقول البترول العديدة الهامة فى ميوسين الساحل .

أخيرا ، بين واديى سدرى وفيران تتقدم ألسنة الكتلة

---

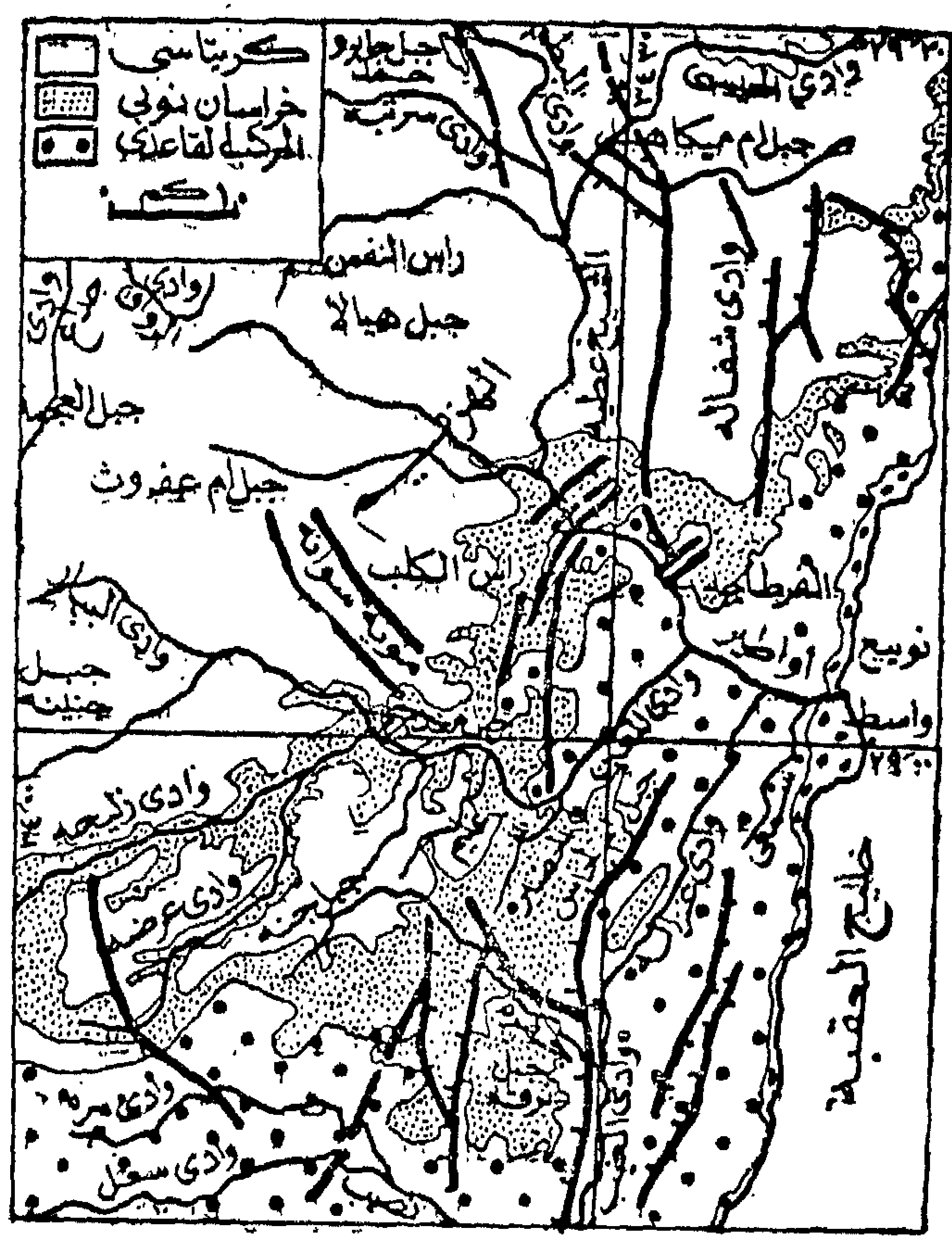
(1) Said, p. 154, 156.

الاركية الجنوبية والخراسان النوبى لتصل إلى الحافة الناهضة لخط الانكسار الرئيسى مصاقبة بذلك لميوسين حافته الهابطة الساحلية فى الغرب . فنجد كتل جبل مر فأبو علقة (٧٩٤ مترا) ، وفى الداخل جبل أطرطير فى الشمال (١٠٥٧ مترا) والمقطب فى الجنوب (٥٤٢ مترا).

القطاع الأوسط

ننتقل الآن من القطاع الغربى لهضبة العجمة إلى القطاع الاوسط . كالمتوقع ، فى الداخل يزداد مستوى السطح ارتفاعا بصفة عامة كلما اتجهنا جنوبا ، كما يزداد وعورة وتضرسا وذلك باجتماع وتداخل حافتى جبل التيه وجبل العجمة مع مجموعة الاودية التى تنبعث من الهضبة شرقا وغربا . فهنا تقطع الحافتان فى قلب الهضبة ، بكل حوائطهما الشاهقة وجروفهما الحادة ، وبالمنخفض الاقليمى الذى ينداح بينهما ، وفى الوقت نفسه

تعمل منابع الاودية بالنحت التراجعى على جانبى الهضبة والحافتين بالتخديد والتعريج وعزل الكتل الجبلية المقتطعة والمنفردة ، فيزداد السطح كله تمزقا وتعقدا . يشتد هذا فى الشرق بصفة خاصة حيث تشكل الهضبة أرضا وعرة صعبـــة العبور والاختراق تعرف محليا باسم هضبة الهزيم.



شكل ٧ – شرق العجمة وجنوب شرق سيناء

(عن بيدنل ، سعيد)

من الجنوب إلى الشمال ، اذن ، تتابع الكتل والقمم الجبلية ، يجنبها هنا واد أو يعزلها هناك انخفاض . في أقصى الجنوب ، تجاه اليمين ، نجد وادى زليقة أو زليجة (وليس زليخة) يجنب جبل الجنه على يساره أو قبليه وسط هضبة عالية متموجة حتى يصل إلى ١٥٨٣ مترا . وتجاه اليسار يقوم جبل ضلل كراس الزاوية في كويستا جبل التيه وككتلة منعزلة فصلتها فتحة واد عكسى . وبينما يبلغ الجبل فى قمته ١٥٧٠ مترا ، تنحدر جروفه الحائطية وحدها نحو ٥٠٠ متر .

وإلى الشمال قليلا ، قد يبدو الوادى أو المنخفض الذى يطل على حافة جبل التيه رتيبا شاحب الملامح ، غير أنه لا يخلو أحيانا من سد بازلتى أو بروز جرانيتى يكسر هذه الرتابة . مثال ذلك بروز جرانيتى جبل رقبة (١٣٩٨ مترا) على الجانب الايسر قرب وادى سيج رافد وادى سدرى ، وجبل مندرة على الجانب الايمن قرب وادى العين رافد الواطير .

إلى الشمال اكثر ، على امتداد حافة جبل التيه نفسها،

تعاود الذرى تتويج سطح الهضبة . جبل الجنينة ، رأس زاوية الحافة ، يأتى بلا شك فى الصدارة . ففيه يصل انحدار جرف الحافة وحده إلى ٤٠٠ متر ، بينما تصل قمة الجبل إلى ١٦٢٦ مترا ، محددة بذلك واحدة من أعلى مواضع سيناء جميعا خارج كتلة جبل الطور النارية فى الجنوب [١] . قمة أخرى بارزة على خط الحافة جبل أم عفروث إلى الشمال الشرقى .

هذا بينما إلى الجنوب الشرقى من أم عفروث وحتى جبل مندرة تتحدد منطقة موية سوانه بالانكسارات المتوازية العديدة . واخيرا ، وفى أقصى الشمال ، فى الوسط تقريبا ، قد يمكن اعتبار جبل بربرا (١٠١١ مترا) آخر جبال هضبة العجمة أو أول تخوم هضبة التيه .

(1) Ibid., p. 123 - 5 .

القطاع الشرقى

إلى الشرق من هضبة الهزيم ، ينخفض السطح نسبيا، من حدود ١٥٠٠ - ١٠٠٠ متر إلى حدود ١٠٠٠ - ٥٠٠ متر ، لكنه يظل عاليا هضبيا وعرا حتى مشارف ساحل الخليج تقريبا . كذلك فبدلا من سيادة الحجر الجيرى الايوسينى في الداخل ، تتقاسم النواة الاركية معه الجناح الشرقى من هضبة العجمة ، إذ تمتد صخور النواة النارية هنا لتظهر على السطح فى القطاع الجنوبى تاركة القطاع الشمالي لايوسين الداخل .

أهم الملامح التضاريسية هنا اثنان هما مجموعة الانكسارات الطولية التى تخدد المنطقة ، ثم مجموعة الاودية العرضية التى تتعامد عليها كقاعدة ولكن قد تتبعها بعض روافدها كمجار محددة . الانكسارات هى من مجموعة انكسارات خليج العقبة الداخلية الاقدم ومحاورها شمالية - جنوبية غالبا . أهمها انكساران متجاوران

متوازيان هما ، كما يسميهما بيدنل ، انكسار الشيخ عطية فى الغرب وانكسار شفا الله فى الشرق .

فأما انكسار الشيخ عطية فيمتد أولا من الشمال إلى الجنوب من حوالى منطقة جبل أم ميكاهيل إلى جيرة عين الفرطاجة ، محتلا اياه وادى الواطير . ثم من نهايته في الجنوب ينحرف الانكسار نحو الجنوب الغربى حتى جيرة منطقة جبل مندرة ، وفيه يجرى وادي العين رافد الواطير. والانكسار في التفريعة الاخيرة سلمى تظهر فى مقاطعه الصخور الخراسانية ضد جرانيت النواة مباشرة .

انكسار شفا الله لا يقل وضوحا إن لم يزد ، وإن كان أقل طولا وامتدادا . فى قطاعه الاوسط يحدد لوادى الابرق مجراه ، ثم يستمر هو إلى الجنوب منه لمسافة طويلة . ميل الطبقات على جانبى الانكسار يتراوح من ٢٠ درجة حتى العمودى التام . وبينما تميل الطبقات على شفرته الغربية نحو الشرق ، فانها تغدو أفقية على شفرته الشرقية . وعلى تلك الحافة الغربية للانكسار تكثر التلال

المنعزلة المكونة من الطباشير الكريتاسى الابيض الذى يكسوه الحجر الجيرى الايوسينى الصلب [1] .

إذا نقلنا من الانكسارات إلى الاودية التى تقطع شرق العجمة ، فإن هذه لا تعنى الا واديا واحدا فى الحقيقة ، أواطير (الوتير) ، الوحيد الذى يصرف شرق الهضبة على مدى امتداد الساحل من رأس النقب حتى نويبع وأواسط. ولئن كان الوادى وحيدا ، إلا أنه ليس أحاديا ، بل على العكس تماما يمثل نظاما مركبا شجريا متعددا جدا بروافده التى تجاوز «الدستة» .

بعض هذه الروافد ينبع من الشمال توا من تخوم هضبة التيه ، وبعضها من الغرب مباشرة من قلب العجمة. أى أن حوضه يتجاوز العجمة ليشمل التيه أيضا، وممتدا فى أقصى أطرافه من جبل شعيرة فى الشمال إلى جبل الجنة فى الجنوب ، أى على مدى أكثر من نصف درجة عرضية . والواقع أنه أكبر واد فى الساحل الشرقى،

---

(1) H. Beadnell, The wilderness of Sinai, Lond., 1927,p. 116 et seq .

بل والغربى أيضا ، ويعد بذلك فعلا ثانى أكبر أودية سيناء جميعا بعد وادى العريش .

للوادى شعبتان رئيسيتان ، شمالية تجمع روافد شرق هضبة التيه ، وغربية تجمع روافد شرق هضبة العجمة . وتعزل الشعبتان بينهما قبل التقائهما بضع كتل جبلية أهمها جبل رأس الكلب (٩٩٩ مترا) . الشعبة الاولى تبدأ بوادى الحيسى قرب رأس خليج العقبة ، ووادى البطم آخذا قرب جبل شعيرة ، ووادى سرتبه غير بعيد عن جبل رأس النفس . ثم تتجمع الاودية الثلاثة بروافدها الصغرى فى مجرى رئيسى يحتل انكسار الشيخ عطية ، إلى أن ينثنى جنوبا شرقا حتى ينتهى إلى البحر عند أواسط جنوب نويبع .

الشعبة الثانية تجمع بالترتيب من الشمال وادى البيار الذى ينبع غير بعيد عن جبل الجنينة ، فواديى زليقة وعرضة اللذين يأخذان من حوالى جبل الجنة . وبعد أن

تجتمع ثلاثتها في مجرى موحد باسم وادى العين ترفده من الجنوب عدة أودية صغرى مثل أبو طريفية وغليم والحضيرة . وعند القرطاجة يلتقى وادى العين بالمجرى النهائى للواطير الذى يرفده من الجنوب وقبل أن يصل إلى البحر واديان ثانويان هما غزالة وسمعى اللذان يأخذان قرب جبل أم لهاس .

١٠

وادى العريش

تلك بصورة عامة مورفولوجية الهضبة الوسطى من سيناء بأقسامها المختلفة ، لا تكتمل إلا بإضافة ذلك الوادى الكبير الذى يمنحها وحدتها العامة - وادى العريش . فوادى العريش ليس فقط أكبر الاودية الصحراوية طولا وتشعبا ومساحة حوض فى سيناء وحدها ، ولكنه من أكبر ما فى مصر كلها ، فلعله يتفوق على كل أودية جنوب الصحراء الشرقية فى هذه الابعاد ربما باستثناء العلاقى وحده . وهو على أية حال أكثر أودية مصر الصحراوية الكبرى شمالية واعتدالا وأقلها مدارية . ولا غرابة بعد هذا إن كان يسمى منذ أقدم العصور «نهر مصر» ، ولعله المقصود « بنهر مصر الكبير»

فى التوراة ، ولو أن هذا لا يصدق بالطبع إلا على النيل . ومهما يكن ، فلعلنا لا نتجاوز كثيرا إذا قلنا إن العريش بمعنى ما – سنرى كيف – هو «نيل سيناء» .

وغنى عن الذكر أن روافد الوادى العديدة هى التى تفتح قلب سيناء للمواصلات والحركة سواء التجارية أو الاستراتيجية ، وبها يتحدد كثير من دروبه ومدقاته . لكن الجدير بالذكر أن الكثير جدا من مواقع وسط وشمال سيناء المعروفة ما على الحدود السياسية كما فى القلب الداخلى ، تقع على واحد أو أكثر من هذه الروافد . مثال ذلك : نخل ، بير جبل الحصن ، بير التمادة ، الثمد ، هذا فى الداخل ، ثم الكونتيلا ، القصيمة ، الصبحة ، على الحدود ، بينما تقع أبو عجيلة عليه قرب مصبه ، ثم بعدها بير لحفن قبل أن ينتهى أخيرا عند مدينة العريش التى يستمد إسمه منها كما استمدت هى اسمها من «العريشة» التى ضربها قوم ابراهيم أو يوسف فى طريقهم إلى مصر .

طوله نحو ٢٥٠ كم ، وحوض صرفه يكاد يضم نصف

مساحة سيناء أو على الأقل ١٥ الف كم٢ ، ويجمع ثلثى مياهها جميعا أو نحو ١٦٠ مليون متر مكعب سنويا . ورغم أنه جاف معظم السنة ، سيلى فى الشتاء ، فهو إلى حد معين أكثر انتظاما من سائر الاودية الصحراوية . أما فى موسم «فيضانه» ، فيكاد يبدو نهرا حقيقيا جليل القدر عظيم الخطر ، يزحف كالسيل طوال شهر تقريبا مقتلعا المباني والمزارع . لذا تبنى الحواجز الحجرية فى مجراه الادنى ضد اكتساحه ، مثلما ترمى السدود الحجرية أو الطينية فى عرضه استفادة بمياهه وكسرا لحدته . من الاولى سد وادى العريش شرقى المدينة حماية لها ، وهو سد حجرى ضخم يمتد حتى البحر بطول ٤ كم وارتفاع ٥ أمتار . ومن الثانية سد الروافعه المعمارى الذى توقفت بعد انشائه اخطار السيول .

شجرة الوادى

أما تركيبه المورفولوجى فشجرى مثالى ، يتألف من عدد كبير جدا من الروافد التى تنتظم كالمروحة أو العنقود أو الحزمة ، مما يشير إلى سيادة النمط المشع على النظام كله ، الذى يعكس بدوره انحناء سطح الأرض . فوادى العريش الرئيسى نفسه واد أولى تابع consequent يتبع ببساطة انحدار السطح العام ، ترفده شبكة من الاودية التالية subsequent من يمين ويسار [1] . ورغم أن الجزء الاكبر من حوضه يتوسط قلب سيناء تماما ، إلا أنه فى مجراه الادنى يجنح بشدة نحو شرقها مقتربا جدا من الحدود ومبتعدا جدا عن قناة السويس ، تقريبا مثلما يفعل النيل بين صحراوينا الشرقية والغربية .

والطريف بعد هذا أن الوادى بقدر ما يبدأ ويجرى بالغ التشعب بالروافد ، ينتهى فى مجراه الاسفل بعد خانق

(1) Shata, "Wadi El Arish etc." p. 227 .

الضيقة وحيدا لا يكاد يرفده رافد هام . وهو فى هذا لا يشبه أودية الصحراء الجافة الكلاسيكية فحسب وانما كذلك انهارها بما فى ذلك بل وعلى رأسها النيل نفسه الذى يبدأ بأكثف وأعقد حزمة عنقودية من الروافد فلا ينتهى إلا نهرا أحاديا بحتا .

الاطراف من هذا أن شبكة روافد الوادى العليا حتى منطقة جبل خرم تكاد تذكر فى شكلها وأوضاعها واتجاهاتها بنيل السد فى منطقة بحر الغزال ، بل يكاد القطاع التالى حتى الضيقة يذكر بروافده الشرقية بمنطقة النيلين الابيض والازرق . ومن الناحية الاخرى ، فإن للوادى فى مجراه الاوسط والادنى تقوسا شاسعا قبل أن يصل إلى البحر يكرر فى الذهن هيئة نهر الفستيولا المعروفة .

قطاعات المجرى

تنبع روافد الوادى العليا من جنوب هضبة التيه على ارتفاع ١٠٠٠ متر ، ويكاد خط تقسيم مياهه أن يحدد جبهة التقسيم بين هذه الهضبة وهضبة العجمة إلى الجنوب منها . وبهذا ينحدر فى رحلته نحو ١٠٠٠ متر فى ٢٥٠ كم ، أى بمعدل ٤ أمتار فى الكيلو ، ولو أن معظم هذا الانحدار مركز فى مجاريه العليا .

للوادى رافدان رئيسيان . فبعد أن تقطع روافده العديدة هضبة التيه ، تتجمع فى مجمعين اساسيين هما وادى العقبة من الجنوب الشرقى ووادى البروك من الجنوب الغربى ، وهما يلتقيان قرب منطقة جبل خرم . الأول يأخذ من قلب العجمة ومشارف رأس خليج العقبة ، والثانى من جبال رأس خليج السويس الراحة وسومار ثم بضبع . الاول أهم روافده الثمد فالرواق فأبـــو طريقية فأبو لجين ، والثانى النتيلة فالسحيمى فالاغيدرة .

في المجرى الاوسط بين خرم والضيقة يتجه الوادى نحو الشمال الشرقى ويتوسطه خانق متمتنى حيث ينحصر الوادى بين جبلى متمتنى غربا وطلحة البدن شرقا. يرقد هذا القطاع من الجنوب الشرقى عدد كبير من الاودية ، مثل وادى قرية الذى يلم مجموعة من الاودية الثانوية ، ثم وادى الشريف فالجرور فالجيفى فالمويلح فالحسانى .أما من الجانب الغربى فالروافد قليلة وصغيرة، أهمها متمتنى والحضيرة وأم مرجب التى تصرف جبل الحلال.

وعند الضيقة يبدأ الوادى يغير اتجاهه نحو الشمال الغربى ، كما يبدأ سلسلة من الخوانق يتحول بها إلى نهر سالف antecedent ذى تاريخ جيولوجى معقد (١) . الضيقة نفسها ، بين جبلى الحلال وصلفة ، هى أول وأهم تلك الخوانق لأنها أضيقها وأعمقها ، نحو ١٥٠ مترا فوق مجرى الوادى . ثانيها خانق الروافعة قرب أبو عجيلة ، ثالثها عند بير لحفن وهو يرتبط بخط مرتفعات ريسان عنيزة إلى الغرب .

(1) H. Awad, La montagne du Sinai .

وترجع نشأة هذه الخوانق إلى حركة رفع بطيئة ، هى التى يرتبط بها تكون خطوط المرتفعات القبابية المحيطة ، أصابت الأرض فى أواخر الزمن الرابع ، فأخذ الوادى يعمق مجراه كرد فعل ، بينما تقدمت التعرية بنفس خطى الرفع . فى الضيقة مثلا عمق الوادى مجراه بنحو ٤٠ مترا تحت سطحه الحالى . وربما ساعدت بعض الانكسارات المحلية فى هذه العملية .

ومن الناحية الأخرى ، حصرت هذه الخوانق بينها بحيرة فى مجرى الوادى فى ذلك الوقت كونت دلتا مروحية كانت تصب فى بحر البليوسين . وهى التى شق فيها الوادى مجراه بعد ذلك . واذا كان الوادى بهذا يعد واديا سالفا ، فقد تركت عملية التعميق على جانبيه مجموعة من المدرجات ، تسجل أيضا عملية انخفاض مستوى البحر المتوسط المصاحبة خلال العصر الحديث . هذه المدرجات، التى يمكن متابعتها اليوم لمسافات طويلة ، عددها ثلاثة ، على مناسيب ١٠ ، ٢٢ ، ٣٥ مترا فوق

بطن الوادى (١). وهناك عدا هذا بقايا سطح تعرية قديم يقع على ارتفاع ٥٠ مترا فوق قاع الوادى الحالى يفترشه غطاء عظيم من الحصى والحصباء .

وادى العريش ، أخيرا ، يكاد يكون أحاديا فى مجراه الاسفل ، فلا يرفده إلا عدة أودية تالية صغيرة من الشرق

شكل ٨ – قطاعات عرضية عبر سيناء

(عن مون وصادق بتصرف)

---

(1) Shata, ibid., p. ٢٣٠ – ٢٤٤ .

مثل الدخاخين والفيهيدية ثم حريضين والازارق المترابطين واللذين يتصلان به بعد خانق لحفن ، ثم فى النهاية المزار الذى يصب عند مدينة العريش نفسها . والطريف هنا أن المجارى العليا من حريضين والازارق تقع عبر الحدود فى نقب فلسطين . وعلى الضفة الغربية من جذع الوادى ، لا تبدو هناك روافد واضحة . ولكن يحتمل أن وادى الحسنة، النابع من يلق والذى يبدو تصريفا داخليا شديد البعد ، يستمر شمالا كواد خفى تحت الرمال ليصب مياهه بين الحين والحين فى وادى العريش[1] .

جبل الطور

أو إقليم الجبال ، أو الكتلة الجبلية الحقيقية ، كتلة الصخور الاركية النارية البللورية الجرانيتية الصلدة . تحتل الثلث الجنوبى الاقصى والاضيق من مثلث شبه

(1) Ibid.; Shata, ".. Qusaima area", p. 110 .

الجزيرة ما بين الخليجين جنوب خط عرض ٢٩ْ بقليل . بل هي نفسها مثلث متساوى الاضلاع تقريبا ، مع تقعر خفيف نحو الجنوب فى الضلع الشمالى ، ومع ملاحظة أن من الضلع الشرقى يخرج لسان ضيق ولكنه متصل تماما وذلك بامتداد الساحل حتى رأس خليج العقبة تقريبا ، فى حين أن الضلع الغربى أقصر بوضوح ولكن تخرج منفصلة عنه بالمقابل بعض شظايا موازية مستقلة .

الكتلة كلها محدودة المساحة نسبيا ، أقل من ١٩ الف كم٢ ، أى أقل من ثلث شبه الجزيرة بكثير ، لكنها متميزة إلى أقصى حد ، متبلورة الشخصية جدا . فالى الجنوب من خط أودية فيران – نصب ، الذى يفصلها عن الهضبة الوسطى ، يتغير فجأة كل شىء فى مورفولوجية الاقليم ومظهر البيئة . فهنا قل أن تقابل رمالا أو هضابا مائدية كما فى الشمال ، بل حيثما اتجهت فثم قمم الجبال المدببة الشاهقة والكتل الجبلية الضخمة الحادة تتسلل أو تتدفع بينها أودية عميقة غائرة ... الخ. باختصار ، هنا نواة سيناء الصلبة وقلعتها المعزولة الشماء .

وبينما يمتد تحت أقدام هذه القلعة على الجانب الغربى السويسى سهل ساحلى متسع نسبيا ، فإنها تهوى بلا منحدر تقريبا glacis إلى البحر على الجانب الشرقى لتشرف على خليج العقبة مباشرة كأنها قلعة مخندقة مائيا moated . أما فى الداخل فان مثلث الكتلة تخدده شبكة كثيفة من الاودية العميقة التى تصرف يمينا ويسارا فتبدو فى هيئتها كضلوع القفص الصدرى . وكما يتفق فإن معظم هذه الاودية يبدأ حوالى خط طول ٣٤° حوالى منتصف المثلث ، فيصبح الخط بذلك تلقائيا بمثابة خط تقسيم مياه – ماذا نقول ؟ فلكيا ! – بين شبكتى تصريف السويس والعقبة ، أو فلنقل بالاصح مؤشرا عشوائيا إلى ذلك الخط .

المهم ، فى النتيجة ، أن أودية الكتلة الجبلية الجنوبية على كلا جانبيها تبدى بانتظام اتجاها مطردا نحو القصر من الشمال إلى الجنوب ، وذلك بحكم الشكل المثلثى من ناحية مع انتظام تنصيف عمود خط تقسيم المياه فى وسطه الهندسى من الناحية الأخرى . على أن هذا

الاتجاه المنتظم، دعنا نستدرك ، ظاهرة تقتصر على الكتلة الجبلية من سيناء وحدها دون سائر مناطقها ، وذلك لعدم التزام أودية جانبيها هناك بخط تقسيم موحد أو متقارب رغم سيادة الشكل المثلثى العام .

السهل الساحلى : القاع

على العكس من العجمة ، تنزاح الكتلة الجبلية أو تنحاز إلى الشرق كلية لتلاصق ساحل العقبة ، تاركة على الجانب الآخر السويسى سهلا ساحليا فسيحا مديدا يبدأ من رأس أبورديس فلا ينتهى إلا عند رأس محمد . هذا هو سهل القاع ، وحدة مورفولوجية وحده ، طوله ١٥٠ كم، متوسط عرضه ٢٠ كم ، يصل إلى أقصاه فى الوسط عند ميناء الطور بالغا نحو ٣٥ كم ، بينما يضيق ثم يدق عند نهايتيه شمالا وجنوبا إلى ٣ – ٤ كم ، بحيث يبدو شكله العام اشبه بالسيجار تقريبا . هو بوضوح اذن أكبر رقعة منبسطة فى سيناء شبه الجزرية كلها .

السهل ميوسينى أصلا وأساسا ، وهذا ما يفسر بتروله الغزير (حقول بلاعيم وأبورديس واخوتهما ... الخ). يحدده عند اتصاله بالكتلة الجبلية شرقا خط الانكسار الطولي الرئيسى خاصة فى الشمال ، أما فى الجنوب فيبتعد الانكسار غربا مختطا وسط السهل نفسه إلى أن ينتهى . سطحه تغطية الرواسب الحديثة ، فهو حصباوى حصوى عموما يكسوه المارل الرملى والجبس واحيانا الزلط . والى الجنوب من الطور تغشاه الرمال السائبة وكتل رجم الجرانيت المتناثرة boulders ، وكلما اقتربنا من رأس محمد فى أقصى الجنوب ظهرت بقع أو رقع من الصخور الجرانيتية تنقط السهل هنا وهناك . وبينما يبدو السهل فى الداخل فقيرا للغاية فى نباته لشدة انحداره وانفتاحه ، تحف الشعاب المرجانية الحديثة بساحله الخطى .

السلاسل الساحلية

الاستثناء الوحيد الذى يكسر رتابة السهل هو مجموعة من السلاسل الجبلية الساحلية المحلية فى أقصى شماله الغربى ، تتكون من صخور قديمة أركية أو كريتاسية إلى ما بعد الكريتاسية ، ممثلة بذلك شظايا متطايرة من الكتلة الاركية الام إلى الشرق تستقل على شكل بوارز أو نواتىء منفصلة . وهنا نرى على التو أن المجموعة تأتى ، تكوينا صخريا وتعدد خطوط ومحاور امتداد ، نظيرا مباشرا للمجموعة المواجهة عبر خليج السويس على ضلوع جبال البحر الاحمر وهى مجموعة جبل الزيت - عش الملاحة ، وإن وقعت هذه إلى الجنوب منها تماما أكثر مما تقع إلى الغرب أو حتى الجنوب الغربى . هذا التناظر ليس إلا جزءا بالطبع من التناظر العام بين جانبى الخليج - خطوط الانكسارات ، تواجه الاودية والفتحات ، لتكوينات

الجيولوجـية ... الخ - مما تفسره وحدة تاريخه الجيولوجي.

المجموعة تتبع محور الساحل من الشمال الغربي إلي الجنوب الشرقي وتتألف من سلسلتين جبليتين متوازيتين ، سلسلة ساحلية وأخري خلف ساحلية إلى الشرق . وكلتاهما يقل ارتفاعها جنوبا ، كما تنقسم إلى ثلاثة قطاعات أوسطها يشمل معظمها بحيث تبدو الثلاثية كشرطة طويلة بين نقطتين .

السلسلة الساحلية هى سلسلة أبو دربة - عرابة - حمام موسى ، وتمتد من خليج بلاعيم فى الشمال إلى أن تنتهى شمال مدينة الطور بنحو ١٥ كم . هى كتلة من الجرانيت الوردى ، تنحدر بشدة إلى الساحل وبالتدريج نحو الداخل . يقسمها انكسار عرضى أو أكثر إلى قطاعاتها الثلاثة . كتلة الشمال هى جبل أبو دربة ، وقمته ٤٥٠ مترا . الجسم الاساسى الاوسط هو سلسلة جبل عرابة ، وقمتها فى الشمال وتسمى جبل أبو حصوة وتبلغ ٦٩٦ مترا . كتلة الجنوب هى جبل حمام موسى ، وقمته

٢٥٦ مترا . وبالقرب منه يقع جبل صغير آخر هو جبل أبو صويرة ازاء رأس أبو صويرة .

تنحدر السلسلة الساحلية بالتدريج شرقا إلى واد سهلى هو مقعر ضيق يجرى فيه أحد روافد وادى معر . ثم يرقى الوادى تدريجيا إلى مجموعة من شرائح طولية ضيقة متتابعة من تكوينات الخراسان النوبى والمارل والحجر الجيرى الكريتاسى ثم الحجر الجيرى الايوسينى فالميوسينى تكون معا حافة جبلية هى السلسلة الداخلية أو خلف الساحلية أو سلسلة العكمة - القابليات -ناقوس [١]. السلسلة تنحدر تدريجيا نحو الشرق حتى تختفى تحت رواسب سهل القاع الحديثة ، وهى أطول قليلا من الساحلية.

قطاعاتها الثلاثة تبدأ بالكتلة الشمالية وهى جبل العكمة، وأعلاه ٦٣١ مترا . فى الوسط السلسلة الرئيسية وهى جبل القابليات الذى يتجاوز سلسلة عرابة امتدادا ولكنه دونها ارتفاعا ، فلا تزيد قمته فى الشمال على ٤٩٤

---

(1) Said, p. 154, 156.

مترا . الكتلة الجنوبية الاخيرة هى جبل ناقوس ، ولا تعدو قمته ٢٤١ مترا . وبعيدا إلى الجنوب بنحو ١٠ كم يقع إلى الشرق من مدينة الطور جبل منفصل هو جبل جبيل .

سلسلة الأودية

فيما عدا هذه السلاسل ، فإن أهم معالم سهل القاع هى سلسلة الاودية التى تخترقه نابعة من قلب الكتلة الجبلية الاركية فى الداخل . الطريف أن أغلبها يأخذ رؤوسه حوالى خط طول ٣٤° ، وبالتالى فانها تزداد طولا كلما اتجهنا شمالا باطراد ، كذلك فإن معظمها يتجه نحو الجنوب الغربى أكثر منه نحو الغرب مباشرة ، بل يتجه بعضها نحو الجنوب كلية ، كما أنها جميعا باستثناء وحيد تصل إلى البحر .

أهم هذه الاودية هو أولها وأطولها وهو فيران بالطبع ، الذى يحدد الخط الفاصل بين هضبة العجمة فى الشمال

وكتلة الطور فى الجنوب ، كما يعد فاتح الطريق الأساسى إلى الأخيرة . فبفضل روافده أخضر والشيخ وسلاف يتوغل فى قلب الكتلة فاتحا الطريق إلى دير سانت كاترَينا رأسا .

يلى بعد ذلك مركب حبران – معر الذى يجمع نحو ٥ أودية بعضها يجرى من الشمال بين أو حول مجموعة السلاسل الجبلية الساحلية ويجرى بعضها الآخر من الشرق ، ثم تلتقى جميعا قبيل المصب قرب جبلى ناقوس وحمام موسى على شكل أصابع اليد المفتوحة .

إلى الجنوب من الطور تتوالى الاودية الاصغر : اصلاحه ، اسله ، ثم واديا المحاش ولتحى اللذان يلتقيان بعيدا عن الساحل ازاء رأس كنيسة ولكنهما يفشلان فى الوصول إلى البحر . أخيرا وشمال رأس محمد يجرى أصغر المجموعة وهو وادى العاط الغربى الذى ينبع من جبل العاط فى الشمال الشرقى .

الكتلة الجبلية

من سهل القاع إلى جبل الطور نقلة سريعة فجائية وكاملة من قاع سيناء إلى سقفها بل سقف مصر جميعا . فهنا جسم الكتلة الجبلية الصلبة الصماء ، نواة سيناء النووية وعقدتها المعقدة التى تعد جيولوجيا كتلة بارزة من المركب القاعدى وتتألف من الصخور الاركية القديمة تغطيها فى الشمال بعض الرواسب الاحدث . لكن النواة تنكشف تماما فى الجنوب ، كما أن التعرية أزالت بعض هذه الرواسب تاركة خلفها سطح تعرية على شكل سقف شبه مستو نوعا له مثيله فى فلسطين بحيث سمى بالسطح السينائى - الفلسطينى . Sinai-Palestine erosion surface

وبمزيد من التفصيل ، ففى أقصى الشمال من مثلث الكتلة يوجد شبه سهل رملى منبسط نسبيا ، يتفق مع خط

وادي فيران - نصب ، تنتشر فيه كتل الحجر الرملى النوبى . ثم يلى إلى الجنوب نطاق عريض من الحجر الرملى الداكن البنفسجى المحمر يختط شبه الجزيرة من الساحل إلى الساحل . وأخيرا يأتى مثلث الكتلة الاركية العارية التى تحررت من عبء غطاء الارسابات السطحية، ومساحته ٧٥٠٠ كم٢ . الصخور هنا بالطبع قديمة نارية ومتحولة يسودها الجرانيت بألوانه المختلفة ، بعضها خلاب، كما تنتشر محليا بعض الطفوح البركانية البازلتية فى بعض الرقع الغربية متممة لنظيرتها فى وادى عربة غرب خليج السويس .

الاضطرابات التكتونية العنيفة التى تعرضت لها فمزقتها بالانكسارات التى لا حصر لها ، إلى جانب التعرية الطويلة الامد بعيدة المدى ، جاءت كلها فملأت هذه الكتلة الصلدة بالاودية الخانقية العميقة الغور ، التى يصفها البعض باللولبية ويصمها البعض الآخر بالثعبانية serpentine ، والتى يقترب بعضها من «الاودية المعلقة» بينما يخلق بعضها الآخر «واحات معلقة» كنوع من

الواحات الجبلية . وعلى أطراف الكتلة قد تفصل هذه العوامل بعض جبال مقتطعة مثل جبل هداهد فى أقصى الشمال الغربى جنوب وادى فيران .

النتيجة النهائية بالطبع هى لاندسكيب معقد وعر إلى أقصى حد ما حتى ليعد من أشد مناطق العالم تعقيدا ووعورة . والواقع أن كتلة جبل الطور هى أشد أجزاء سيناء بزية ووحشية وصعوبة مثلما هى أعقد منطقة فى مصر قاطبة .

١١

غابة من الجبال

الارتفاع شاهق لا يقل كحد أدنى عن ١٠٠٠ – ١٥٠٠ متر ، يصل إلى ٢٠٠٠ فى قلب الكتلة ، بينما يتجاوز ٢٥٠٠ فى قمة الجبال العليا التى تسجل عدة قمم هى أعلى ما فى مصر جميعا – سقف مصر . فأعلاها ، جبل كاترينا ، هو قمة قمم مصر كما هو قمة سيناء ، يليه جبل أم شومر ، وكلاهما يزيد على ٢٥٠٠ متر . وهناك بعدهما أيضا خمس قمم فئة ٢٥٠٠ – ٢٠٠٠ متر ، هى على الترتيب التنازلى جبل الثبت فموسى فأبو مسعود فسربال فمدسوس . وبذلك فإن الاربعة الاولى منها تفوق جبل الشايب أعلى قمم جبال البحر الاحمر . وهناك عدا تلك الجبال السبعة كوكبة كاملة أخرى من القمم الاقل ارتفاعا.

والواقع أن القمم الجبلية تتكدس هنا وتتلاحق فى مساحة صغيرة نسبيا بكثافة لا نظير لها فى أي رقعة أخرى من مصر الجبلية حتى لتكاد المنطقة تكون غابة صنوبرية من الاقماع الجبلية المخروطية . وتتراكم هذه الاقماع الجبلية أو تتزاحم عادة فى مجموعات أو كومات جبلية piles ، أبرزها أربع أو خمس .

فمن الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، ثمة أولا مجموعة جبل سربال (٢٠٧٠ مترا) جنوب واحة فيران ، وجبل مدسوس (٢٠٢٣ مترا) ، وجبل سفريات على تخوم سهل القاع . وإلى الشرق فى شمال الداخل حول أعالى وادى فيران وروافده مجموعة جبل بنات (١٧٥٨ مترا) ، وجبل أبورا وهو مركب كريتاسى أيوسيتى على ضلوع الكتلة ، ثم جبل طربوش (٢٩٣ مترا) . ثم هناك كوكبة جبل موسى (٢٢٨٥ مترا) ، وسانت كاترينا (٢٦٣٧ مترا) «أقرب نقطة فى مصر إلى السماء» حيث الدير وجبل المناجاة حيث ناجى موسى ربه ، ثم جبل الحديد فى قلب الداخل . تلى مجموعة أم شومر (٢٥٨٦ مترا) ، وأبو

طبل (١٨٢٠ مترا) فى الجنوب . وأخيرا تأتى مجموعة جبل الثبت (٢٤٤٠ مترا) وجبل صباغ فى أقصى الجنوب، وجبل قرين عطوط (٤٧٩ مترا) فى الجنوب الغربى قرب سهل القا ع .

الواحات الجبلية

اخيرا ، وبفضل هذا الارتفاع البالغ ، فإن الامطار هنا أغزر بكثير مما هى عليه فى الهضبة الوسطى ، حتى لقد تتحول الاودية بسيولها مؤقتا إلى نهيرات قوية واحيانا دائمة . أما موارد المياه فى الاودية فأكثر كما هى أعذب. وعلى حين يصل صفاء ونقاء الجو على الجبال صيفا إلى درجة نادرة تسمح بالرؤية المديدة ، فما أكثر السحب الكثيفة التى تلفع القمم شتاء . بل إن تساقط الثلج نفسه ظاهرة شتوية ليست غير معروفة ، وقد يصل سمك طبقته على الارض إلى المتر ، وربما دام غطاؤها طوال الشتاء ،

حتى إذا ذابت فى الصيف أضافت بعض الشىء إلى موارد المياه . ويعتقد تزوهارى Zohary أن بعض القمم العليا من كتلة الطور تتلقى مطرا سنويا لا يقل عن ٣٠ سم[1].

من هنا جميعا بعض الواحات وغابات الشجيرات المبعثرة التى اهمها اثنتان : واحة فيران ومنطقة دير سانت كاترينا . واحة فيران تقع بالتقريب فى أواسط واديها قرب المنحدرات الغربية للكتلة الجبلية ، تترامى نحو ٥ كم طولا لترسم أو لترسى قطب الخصوبة فى كل جنوب سيناء . يحيط بها على البعد جبل بنات من الشمال وجبل سربال من الجنوب وجبل هداهد من الغرب وجبل أبورا من الشرق . جبال سربال الصخرية الشاهقة التى تحف بها من الجنوب تنتهى قاعدتها بطبقة طمية سهلة الحفر ، بينما أن أرض الواحة صفراء سهلة الخدمة ، كما أن مياهها غزيرة ولو أنها مهملة . الماء يخرج من عيون ، العيون أمامها خزان محفور تتجمع فيه كالبركة وسمى

(1) Migahid et al., p. 170 .

«محاش» ، ثم من الخزان تخرج قناة إلى الحقول والحدائق الغنية بزروعها الخضراء .

أما منطقة الدير فحديقة فواكه وخضراوات مشتركة بين الرهبان والعربان ، تعتمد على المطر والرى ، شديدة التنوع مثلما هي فائقة الجودة .

فالفواكه بحكم الكنتور تجمع بين أصناف البحر المتوسط كالعنب والزيتون واللوز وأصناف غرب أوروبا كالتفاح والكمثرى ، بينما تكاد الخضراوات تتسع بحكم الضرورة لكل أصناف وادى النيل المعروفة .

رغم هذه الواحات وأمثالها فان اللاندسكيب عموما فقير عار والجبال جرداء . لولا فرط الجفاف ، اذن ، نكاد ننتهى ، بل نكاد نأسف ، لكانت كتلة سيناء الجبلية الجنـــــوبية بمثابة لبنـــان مصر بمعنى ما ، إلى حـــد أو آخر .

المنحدرات الشرقية

نحو الشرق ، أخيرا ، تميل كتلة جبل طور سيناء إلى الانخفاض قليلا تمهيدا للانتقال إلى منحدراتها الشرقية . ولكن حتى مع ذلك فانها تشرف على خليج العقبة بارتفاع بالغ تهوى منه إليه عموديا تقريبا غير تاركة أى سهل ساحلى يستحق الذكر ، على العكس تماما من الجانب السويسى . الاودية هنا من ثم أقصر ، كما هى أقل عددا، مثلما تقل روافدها كلما اتجهنا جنوبا . على أن المثير أن معظمها يبدأ ، كما فى أودية الجانب الغربى من الكتلة ، حوالى نفس خط طول ٣٤° تقريبا .

أول الاودية من الشمال نصب ، وهو أهمها وأطولها واضخمها . تؤدى بعض روافده العديدة إلى منطقة دير سانت كاترينا ، بينما يصب هو عند دهب ، وبذلك يتمم وادى فيران كالطريق الرئيسى عبر شبه الجزيرة فى جنوب سيناء وكذلك كالحد الفاصل بين هضبة العجمة

والكتلة الجبلية . للوادى على الاقل خمسة روافد هامة : الغيب الذى يجرى طوليا من الشمال إلى الجنوب نصا موازيا للساحل ، والذى تطوق منابعه كتلة جبلية صغيرة معزولة هى جبل برقه وجفرا . ثم هناك وادى مرة ، ثم عسل ، ثم زغرة ، ثم أخيرا وادى النصب نفسه الذى يجرى نصفه الادنى طوليا ولكن من الجنوب إلى الشمال وتقع فى أواسطه بير النصب ، بينما تقترب أعاليه من دير سانت كاترينا حيث ينبع من منطقة جبل الحديد وجبل كاترينا .

كثير من هذه الروافد يتحدد انكساريا ، فيتتبع مجراه انكسارا أو اكثر من الانكسارات العديدة القديمة أو الحديثة بمحاورها المختلفة . فالانكسارات هى التى تحدد مجارى وادى دهب والغيب ، بينما يجرى وادى نصب فى جريبن تظهر فيه الصخور الخراسانية معرضة ضد الحوائط الجرانيتية للانكسار .

عدا وادى قنى الضئيل جنوب دهب ، وادى كد المروحى الشكل هو التالى موقعا وأهمية . ويبدو أنه واد

مركب ذو أكثر من مصب واحد ، إذ بينما ينتهى مصبه الرئيسى شمال نبق (نبك) وعلى عنق خليج العقبة المختنق، يتصل به إلى الشمال واد صغير هو وادى سمر ، وربما آخر هو وادى عرابى ، ليخرج الجميع عند رأس اتانتور . فيما عدا هذا فان أول روافده وادى ملحج الطولى الذى ينبع من جبل فيرانى ويتجه جنوبا موازيا للساحل . ثم يأتى وادى كد نفسه ، ويأخذ من جيرة جبل أبو مسعود . وبين ملتقى الاثنين يقوم جبل كد . أخيرا فى أقصى الجنوب يأتى وادى تمان من أقصى الغرب متخذا مجرى عرضيا مباشرا .

عند نبق نفسها يصب واد يجمع بين رافدين هما أم عدوى شمالا وليتح جنوبا ، والاخير يأخذ عند ممر جمال فى نهاية مثلث الكتلة الاركية وقريبا من مأخذ وادى لتحى المصرف غربا إلى خليج السويس . ثم بين رأس نصرانى التى تواجه جزيرة تيران وشرم الشيخ التى تحكم مضيق تيران ، يصب وادى العاط الشرقى الذى يناظر سميه على الساحل الغربى . آخر الاودية واد قزمى حقا هو وادى

مدسوس ، يأخذ من جبل مدسوس ويندس بين شرم الشيخ شمالا ومرسى الغزلان ورأس محمد جنوبا أو بين جبلى مدسوس وخشبى على الترتيب .

كما على الجانب الآخر من الكتلة الجبلية ، هنا أيضا تمزق الاودية المرتفعات إلى كتل منفصلة لا تخلو من قمم عالية . فإذا كان جبل فيرانى فى أقصى الشمال قرب الساحل لا يزيد على ٦٨٥ مترا ، فإن جبل أبو مسعود أعلاها فى الداخل يصل إلى ٢١٣٥ مترا . وقرب الساحل أيضا تتتابع القمم نحو الجنوب . فهناك جبل أم عشيرات (١١٢٠ مترا) وبجانبه جبل كد ، وفى أقصى الجنوب نجد جبل صحراء (١٤٥٩ مترا) وبجانبه جبل العاط (١٣٥٧مترا) . وعند الطرف النهائى لسيناء أو نهاية الارض تقل الارتفاعات بسرعة ، فنجد جبل مدسوس (٧٤٠ مترا) ثم آخر جبل فى سيناء جبل خشبى (٣١٦مترا) غرب شرم الشيخ وشمال رأس محمد .

الخليجـــــان

لا تكتمل لنا صورة سيناء بغير ذكر الخليجين . والدراسة المقارنة للخليجين هى بالضرورة دراسة فى الاختلاف لا التشابه . فلئن هما بديا كالتوأمين البحريين حول سيناء ، فان الفروق بينهما جذرية ، إلا أن يكون غياب الجزر بصورة لافتة هو وجه الشبه الوحيد . ففيما عدا عند النهايتين ، كالجزيرة الخضراء عند رأس السويس وجزيرة فرعون على رأس العقبة فى الشمال ، فضلا عن جزر مضيقى تيران وجوربال فى الجنوب ، يخلو الاثنان من الجزر . فيما خلا هذا فلا تشابه بل اختلاف كامل .

فعدا إختلاف المحور إلى حد التعامد والتقاطع ، يظهر على الخريطة بوضوح كيف يمتاز ساحل خليج العقبة بالانتظام الشديد فى اتجاهه الواحد ، بينما تتعدد محاور ساحل خليج السويس حيث يغير اتجاهه فى الوسط إلى الاتجاه الشمالى - الجنوبى نصا ، وبالتالى تكثر فيه

الرؤوس البارزة ابتداء من رأس مسلة حتى رأس بلاعيم ... الخ ، مما لا نظير له على ساحل العقبة . كذلك يمتاز خليج السويس بسهل ساحلى واسع نسبيا على كلا شاطئيه ، بينما يكاد يختفى السهل الساحلى تماما على كلا شاطئى خليج العقبة .

وبينما يبدو حائط الجبال متقارب الارتفاع على جانبى العقبة ، يزيد ارتفاع الحائط الجبلى فى غرب سيناء كثيرا على نظيره على ساحل خليج السويس ، الذى تكثر فيه أيضا الفتحات المنخفضة الواسعة نسبيا ، خاصة فتحة وادى عربة الفسيحة ، بعكس حائط غرب سيناء شبه المصمت . ويبرز هذا بصورة مؤثرة لمن يقف فى وسط الخليج ، حيث يروعه فارق الارتفاع والاستمرارية على الجانب الايمن والانخفاض والانقطاع النسبيين على الجانب الايسر .

فى مياه الخليج

فإذا ما نزلنا نهائيا من ساحل كل خليج إلى مياهه ، فإن أول فارق هو أن السويس أعرض بكثير كما هو أطول . السويس طوله ٢٧٥ كم ، أى نحو درجتين عرضيتين وربـــع درجة من خط ٣٠ْ إلى خط ٤٥ ٢٧ْ تقريبا . أما العقبة فطوله ١٨٠ كم ، أو حوالى درجة ونصف درجة فقط من خط ٢٨ْ إلى خط ٣٠ ٢٩ْ بالتقريب. أما عرضا فالسويس فى أقصى اتساعه يعادل ضعف العقبة فى أقصى اتساعه ، بل إن السويس فى اضيقه يفوق العقبة فى أوسعه . والواقع أن السويس فى أوسعه – خط ٢٩ْ ، عروض أبو زنيمة – أبو رديس – يكاد يتحول بالفعل من مجرد خليج محدد إلى بحر عجاج ، نحو ٥٠ كم . والطريف أن الخليجين يتعارضان فى العرض ، فحيث يتسع الواحد يضيق الآخر ، والعكس . وفى النتيجة فإن

خليج السويس يوشك أن يعادل ضعف خليج العقبة مساحة .

كذلك وعلى الجملة فإن خليج السويس فى شكله الجغرافى العام أسطوانى مستطيل أكثر ، لا يقل اتساع طرفيه كثيرا عن اتساعه العام . أما العقبة فرغم أنه أكثر تجانسا فى عرضه العام ، فإنه يضيق ويدق بوضوح عند الطرفين في اختناقين كالعنق النحيل . والواقع أن مدخل خليج العقبة المخنوق إنما يمثل جيولوجيا قواطع عارضة sill ، قواطع تيران التى تقع إلى الجنوب من شرم الشيخ وجزيرة تيران وتفصل الخليج عن البحر . ولذا فإن السويس خليج بحرى اكثر انفتاحا وانفساحا ، فى حين يبدو العقبة كبحر شبه مغلق أو كشبه بحيرة مقتطعة . ويتلخص هذا كله فى الشكل العام ، حيث يرسم خليج العقبة صورة اذن الارنب الطويلة تقريبا ، بينما السويس أقرب إلى ذراع القط الممدودة .

أهم من الشكل وأخطر ، فارق البنية والتركيب الجيولوجى . فالسويس خليج رصيفى متوسط العمق بل

ضحل ، لا يزيد على ٧٠ مترا بالكاد . أما العقبة فأعمق بكثير جدا ، أخدودى جدا ، نحو ١٠٠٠ متر عمقا ، أى أكثر من عشرة الامثال ، ولعله فى ذلك ، حسب رشدى سعيد ، «أعمق بحار الارض بالنسبة لاتساعه» (١) . ومن هنا فلا ريب أن حجم خليج العقبة أضعاف حجم خليج السويس . إن العقبة يعوض عن المساحة بالكتلة أو عن التوسع الافقى بالرأسى إن شئت . أما سبب هذا الاختلاف وغيره فهو التاريخ الجيولوجى عموما والعمر الجيولوجى خصوصا .

---

(١) تعمير شبه جزيرة سيناء ، ص ١٥ .

١٣

التركيب الجيولوجى

فإذا بدأنا بالأقدم ، الأقدم جدا فى الواقع ، فإن خليج السويس وحدة تركيبة وحده وعلى حدة ، ليس فقط اقليميا بل حتى على مستوى البحر الاحمر نفسه ككل . فالخليج تعرض لكل الحركات الباطنية التى وضعته تحت البحر طوال التاريخ الجيولوجى بأسره تقريبا ، مما رسب فى قاعه سمكا هائلا من الرواسب المنوعة . ولقد كان الخليج دائما غارقا وفى حالة هبوط مستمر ، وإن لم يتخذ شكله الحالى إلا فى الزمن الثالث ، وما زالت جوانبه تهبط بقدر ضئيل جدا غير محسوس حتى اليوم .

أما القوى التى شكلت حوضه نهائيا فهى قوى الشد اساسا : إنه أساسا بحر جيولوجى انكسارى مفلوق

taphrogeosyncline . وهذه القوى أى الانكسارات قديمة للغاية يرجع بعضها إلى الزمن الاول على الاقل ، وبعضها الاحدث ليس الا تجديدا لشباب بعضها الاقدم . أما الطى أو اللى فلم يلعب فى تحديد تركيب الخليج إلا دورا ثانويا ، إن لعبه على الاطلاق فكل ما به من التواءات نجم إما عن ثنى الطبقات قبل حركة الانكسار أو عن حركات ادت إلى ثنى الرواسب الاقل صلابة على شكل طيات محدبة أو مقعرة.

ومن المؤكد عموما أن تاريخ خليج السويس مفعم ومعقد إلى أقصى حد . فهناك أدلة على أن لكل جزء من اجزائه المختلفة تاريخه الجيولوجى المختلف ، إلى حد أن أحدا منها لا يمثله فى مجموعه . والواقع كما صور رشدى سعيد بنفاذية ثاقبة أن لنا أن ننظر إلى الخليج كاقليم يتألف من عدد كبير من الكتل التى كانت باستمرار ترتفع وتنخفض فى أزمنة مختلفة وبأقدار متباينة وبحدة متفاوتة على كلا جانبيه . وما تاريخ هذا الاقليم إلا تاريخ حركات الارتفاع والانخفاض هذه .

ويبدو أن نواة نشأة وتكون الخليج كانت فى أقصى شماله الغربى ، حيث إن كل رواسبه تقل سمكا نحو الجنوب الشرقى ، مما يدل على أن قلب الحوض كان تجاه الشمال الغربى حوالى منطقة عيون موسى . ومن المحتمل ، بعد ، أن كتل الجانب الغربى كانت أكثر نشاطا من كتل الجانب الغربى فى العصور الجيولوجية المبكرة ، وبذلك ظل الخليج حينا ما وهو نصف جريبن half-graben . ولكن الوضع انعكس فى العصور المتأخرة ، فأصبحت كتل الجانب الشرقى هى الاكثر نشاطا . بل إن الادلة تشير إلى أن هذا الجانب الاخير آخذ فى الهبوط اليوم بمعدل اكبر من معدل الجانب الغربى . ويقدر هذا المعدل منذ البلايستوسين بنحو متر واحد كل ١٠٠٠ سنة .

ليس هذا فحسب . فخليج السويس تكتونيا يعد واحدا من أكثف مناطق العالم أجمع بالانكسارات وتعرضا للانكسارات . ذلك ، لاحظ ، بين كتلتين من أقل المناطق اضطرابا وقلقلة ، وهما كتلة قلب ووسط سيناء وكتلة

هضبة وسط الصحراء الشرقية [١] . والواقع أن الانكسارات لا تخطط شكل الخليج فحسب بل تشكل حدوده نفسها . فالانكساران الرئيسيان على جانبيه ، واللذان يبعدان عن خط الساحل بمسافة متساوية تقريبا عند أقدام المرتفعات فى الداخل ، انما هما اللذان يرسمان خطوطه العريضة وحدوده الدقيقة على حد سواء .

والخلاصة أن السويس خليج قديم جدا ، بالغ العمر ، ومن ثم فقد امتلأ طويلا بالرواسب البحرية المتراكمة السميكة ، فارتفع قاعه كثيرا ، كما بنيت حواشيه الساحلية فى شكل سهل ساحلى واسع إلى حد أو آخر .

أما العقبة فخليج حديث النشأة جدا تأخر ظهوره كأخدود وظل يابسا إلى عصور حديثة للغاية . فهو ابن البلايستوسين ، أى لم يغمر إلا منذ نحو مليون سنة ، ولهذا تخلو جوانبه من رواسب الميوسين والبليوسين التى تعد علامة مميزة على خليج السويس بضفتيه . فقط عند نهاية الخليج فى شرم الشيخ وجزيرة تيران إلى الجنوب

---

(1) Said, 151 - 2, 185 .

من قواطع تيران التى تفصل الخليج عن البحر الاحمر ، يوجد الميوسين ، وربما أيضا كان تحت الميوسين أوليجوسين . فيما عدا هذا فإن غياب رواسب الميوسين أو البليوسين لا يعنى إلا أن الخليج كان هضبة مرفوعة فى تلك العصور ، وبالتالى أن الخليج ما تكون إلا فى البلايستوسين فقط .

رواسب البلايستوسين ، بالتالى ، واسعة الانتشار متعددة الاشكال على جانبى الخليج . اولا ، دالات مروحية عند مصاب الاودية الرئيسية العديدة المصرفة اليه، وهى تغص بالزلط والحصى النارى والمتحول وكذلك الكريتاسى والايوسينى . ثانيا ، مدرجات ومصاطب حصباء توجد على مستويين على الاقل : ٢٣ ، ٣١ مترا ، ويمكن تتبعها على جوانب كثير من الاودية الرئيسية . ثالثا ، شعاب مرجانية تقع هى الاخرى على مستويين على الاقل : ١٥ ، ٢٥ مترا [١] .

فضلا عن هذا يبدو العقبة ذا تاريخ جيولوجى معقد بخطوط الانكسارات العديدة الحديثة التى تحف به فى

---

(1) Ibid., p. 126, 192 .

موازاته ومتجاوزة فى رمياتها الكيلو مترين إلى الثلاثة أحيانا [1] . ومع هذا تظل الحقيقة قائمة وهى أن العقبة لم يكد فى المحصلة يعرف رواسب القاع فظل عميقا ، ولا رواسب السطح فلا يكاد السهل يبنى أو يبين ، فيما عدا المخاريط الفيضية القزمية التقليدية على فم الاودية .

ولعل هذه الفروق التركيبية الجيولوجية كلها أن تفسر أيضا فارق الثروة المعدنية ، حيث السويس خليج بترول غنى أرضا وماء ، بينما أن العقبة خليج «جاف» بتروليا . ولا شك أن هذا الفارق يفسر بعض مظاهر الاختلافات البشرية والعمرانية على شواطىء الخليجين وفى مياههما ، ولو أن الفارق التاريخى والبشرى الحاسم إنما أتى - يقينا - من تفرد خليج السويس بقناة ملاحة الشرق - الغرب العظمى ، فكان شريانا عالميا ، حيث ظل العقبة منزويا كزقاق مغلق مظلم شبه مهجور ، وإن بدأ يتحول مؤخرا إلى حارة أو عطفة محلية لاسباب طارئة عابرة غالبا . هل نحن ، أخيرا ، بحاجة إلى أن نضيف أن السويس خليج مصرى كله ، بينما إن العقبة نصف مصرى - نصف سعودى أساسا ؟

---

(1) Ibid., p. 125 - 6.

الفهـــرس

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٥٥٩٣

I . S . B . N

977 - 07 - 0274 - 9

هذا الكتاب

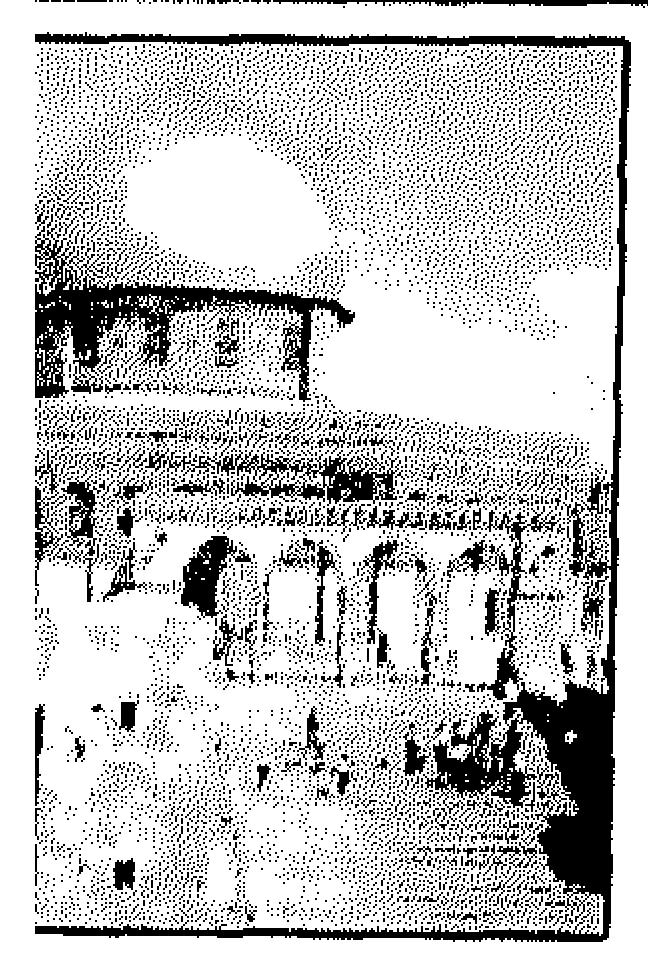
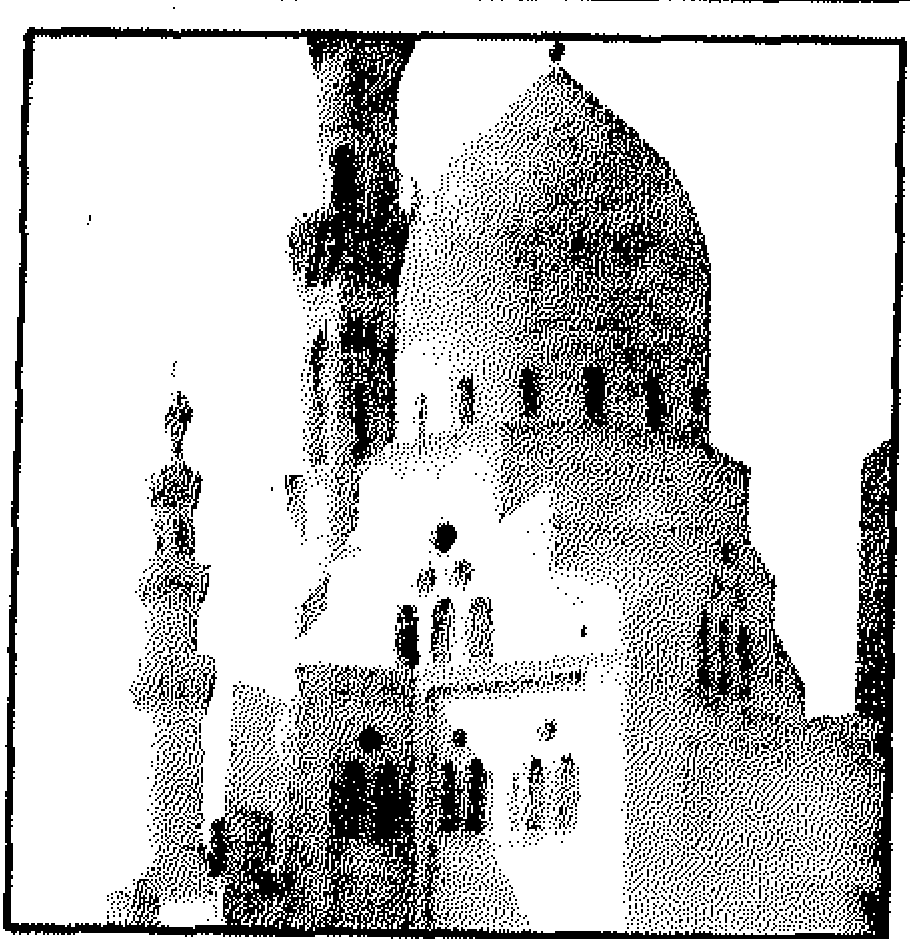
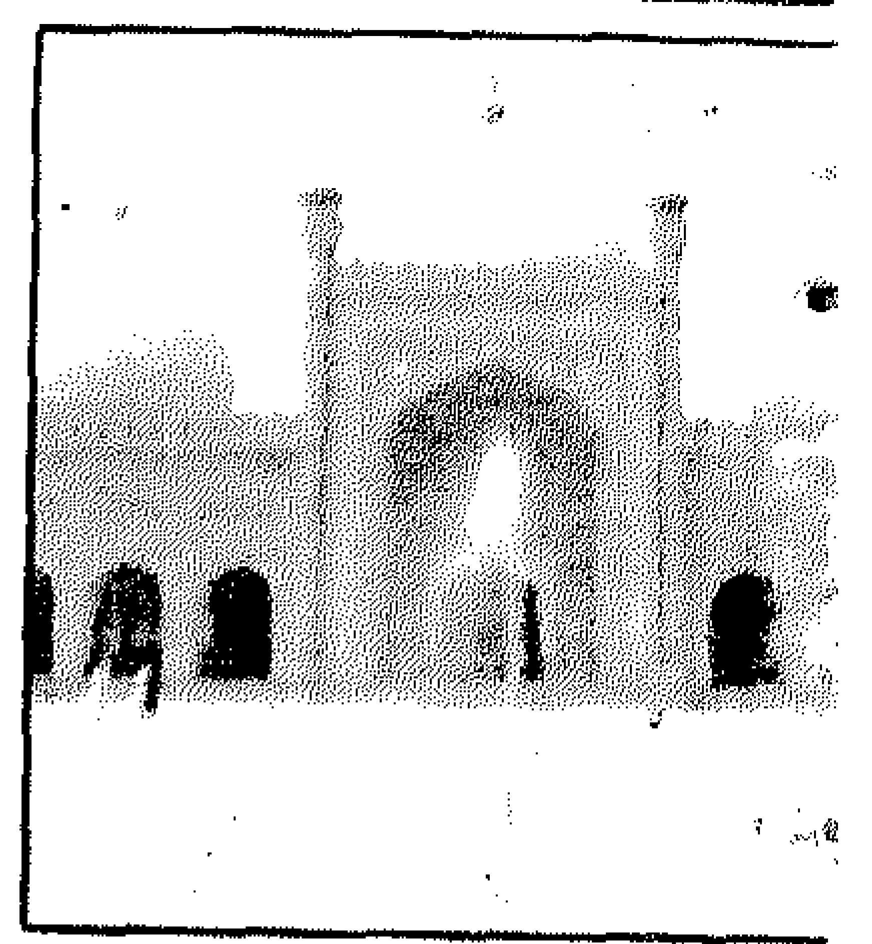
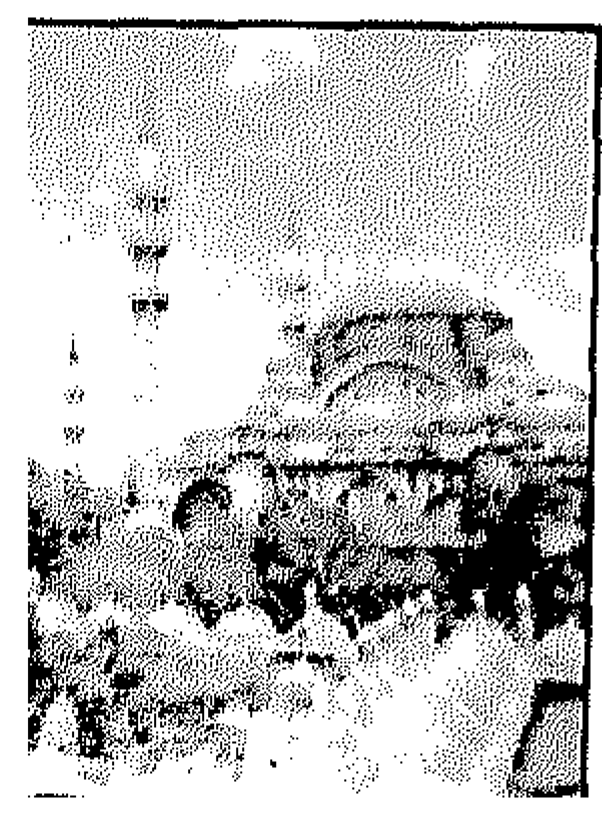
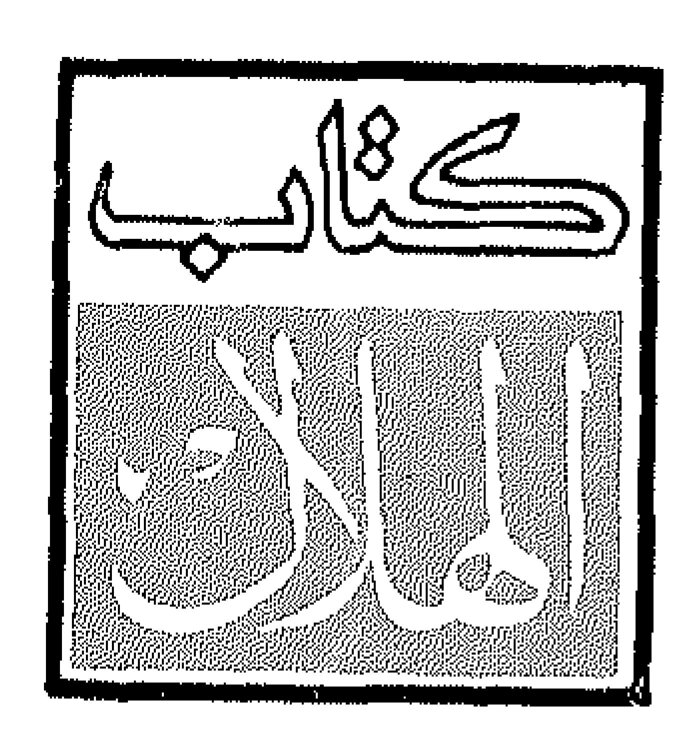
سيناء بوابة مصر الشرقية وبالأدق بوابة الأمن القومى المصرى فهى مصدر كل الغزوات والحملات العدوانية التى تعرضت مصر لها سيناء منطقة فريدة فى طبيعتها وموقعها ، وهى المورد الأول لثروة مصر المعدنية ومنجمها الكبير الذى لاتزال ثرواته كامنة فى باطن الأرض ، وهى أيضا ثروة مصر البترولية كما أنها أحد الآمال الكبرى لمصر بحكم طبيعة التربة فيها .

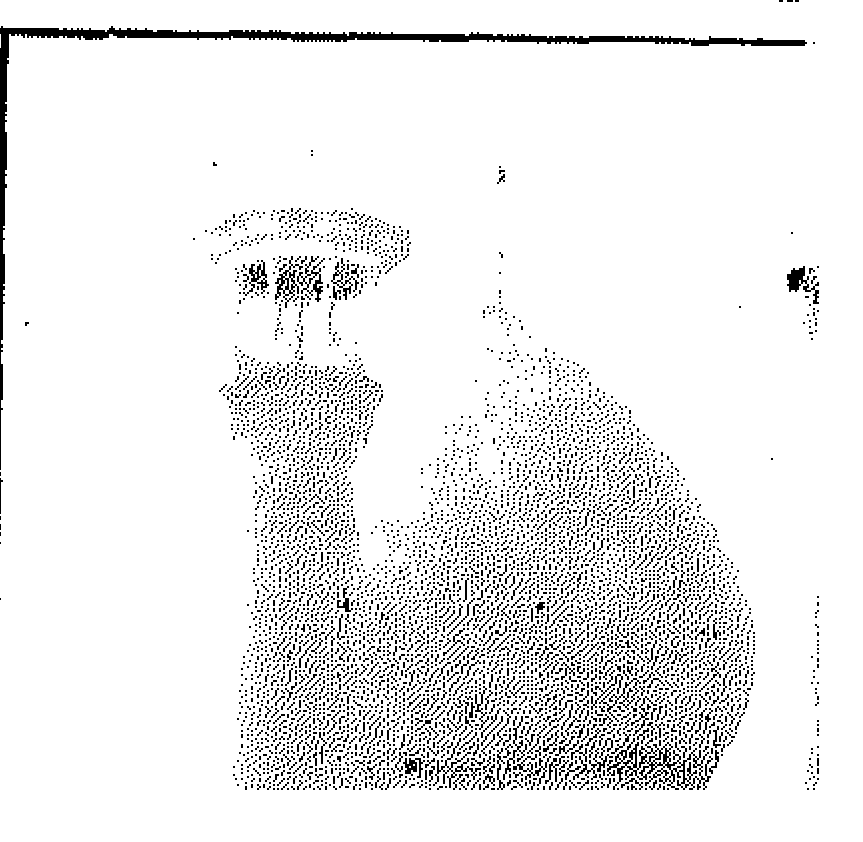
وسيناء كنز سياحى يضيف إلى مستقبل مصر السياحى ابعادا جديدة حيث تتوافر فيها كل أنواع السياحة فهناك السياحة الدينية والثقافية والتاريخية والعلاجية والترفيهية والرياضية والعسكرية ، مما يجعلها من أجمل مناطق العالم جذبا للسائحين ، ولذا تمر سيناء اليوم بمرحلة العمل والبناء والاستقرار بعد مرحلة الدراسة ووضع خطط التنمية الشاملة ، وتسير عجلة البناء والتعمير بسرعة كى تحقق استقرار الحياة فوق أرض سيناء .

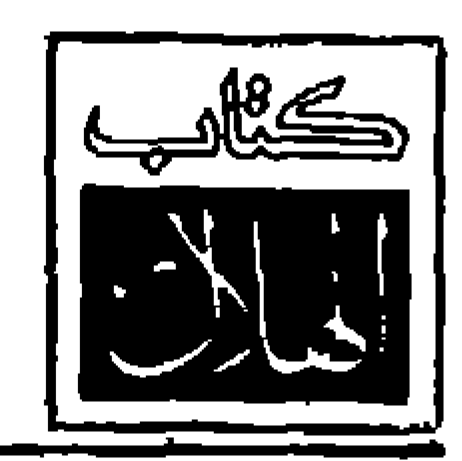
وهذا الكتاب هو دراسة هامة لاقليم سيناء ، قدمها الدكتور جمال حمدان ، ضمن كتابه الموسوعى **شخصية مصر** ، وقد رأت **دار الهلال** ان تنشره فى دراسة مستقلة بعد ما قدمت للقارىء كتابى **«شخصية مصر»** و **«القاهرة»** كنماذج واضحة لتفكير واهتمامات جمال حمدان ، واسلوبه وطريقته فى تناول الموضوعات الجغرافية ، وبخاصة الجغرافية الطبيعية ويتضمن الكتاب معلومات جديدة وهامة عن شبه جزيرة سيناء مبينا العلاقة بين الشكل والموقع وبعض اوجه التفاوت والتضارب فى ذلك التكوين .



د. جمال حمدان





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
NO - 512 - AN - I993 العدد ٥١٢ – صفر – أغسطس ١٩٩٣
FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرش

سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٦٦٠٠ ليرة – الأردن ٢٤٠٠ فلس – الكويت ١٢٥٠ فلساً – السعودية ١٢ ريالا – تونس ٢ دينار – المغرب ٢٥ درهما – البحرين ١,٢٠٠ دينار – الدوحة ١٢ ريالا – دبى / أبو ظبى ١٢ درهما – مسقط ١,٢٠٠ ريال – غزة والضفة والقدس ٢ دولار – لندن ١.٥٠ جك .

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب

العالم الإسلامى المعاصر

بقلـــم :

د . جمال حمدان

●

دار الهـــلال

هذا الكتاب

تأتى الأهمية البالغة للدكتور جمال حمدان من أنه أحد رواد الجيل الذى حمل شعار النهضة بعد د . طه حسين وعباس العقاد وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل ، ودعا لثورة فكرية مستقلة فى الستينات والسبعينات بتعبيراتها الفكرية الجديدة ..

لذا يقدم كتاب الهلال أعمال جمال حمدان ، فبعد «شخصية مصر» و«القاهرة» و«سيناء» نقدم كتاب «العالم الاسلامى المعاصر» الذى يعالج العالم الاسلامى من منظور جديد ، ويراه على امتداد تاريخه الحافل بالأحداث ، والذى يقدم أرضية عامة ونقطة بداية لمزيد من البحث والدراسة ، ويقدم الإسلام من حيث هو ظاهرة فى المكان له توزيعه وامتداده الجغرافى فى ثلاث قارات ، وعلاقاته بما حوله ، وكعامل مؤثر فى إقليمه وفى حياة سكانه وتكوين أوجه النشاط البشرى والعلاقات الاجتماعية وعلاقات القوى بينه وبين العالم .

ويعتمد الدكتور جمال حمدان فى كتابه على تقديم الحقائق العلمية الدقيقة بأسلوبه المتميز وطريقته الفريدة فى عرض نظرياته

بصورة شيقة ، مع تقديم جذور القضية التى يطرحها ونتائجها محللا ومنبها لخطورة القضايا التى يزداد البحث فيها اليوم . وقيمة رؤيته تظهر فى مرونتها التطبيقية وعمقها العلمى والتاريخى .

ومعلومات وأرقام هذا الكتاب ترجع لنهاية الستينات وقد وقعت فى العشرين سنة الأخيرة أحداث جسام ، أهمها قيام الجمهورية الاسلامية فى ايران وحصول جمهوريات آسيا الوسطى على استقلالها ، بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفييتى وسقوط يوغسلافيا وسعى الصرب والكروات لمنع قيام دولة اسلامية - البوسنة والهرسك - فى أوربا وانفصال إريتريا وقيام دولة أفريقية جديدة ، وقيام كيان اسلامى منفصل فى قبرص .

لذلك كتب د . عمر الفاروق دراسة تحليلية حتى تتواصل نظريات وأفكار الدكتور جمال حمدان مع التغيرات الجديدة .

إن هذا الكتاب بحق فتح جديد فى الدراسات الإسلامية التى تعتمد على المعلومـــات الدقيقة والرؤى الناضجة . ولا تكتفى بالحماس.

« الهــلال »

الفصل الأول

« من جغرافية الإسلام »

ليس ثمة بين أيدينا – فيما نعلم – دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية الراهنة لتوزيع الإسلام فى العالم. وحقاً تحفل كتب المستشرقين والدراسات الإسلامية (الإسلامولوجيا كما يسمونها) بأكثر من مسح تخطيطى أو ثبت إحصائى للمسلمين فى هذه القارة أو تلك، أو لانتشار الإسلام التاريخى هنا وهناك، ولكنها فى الأعم الأغلب لا تعدو أن تكون خطوطاً عريضة أو إلماعات سريعة متناثرة، وكثيراً ماتعتمد على أرقام قديمة أو غير وثيقة، وأحياناً – وهو أمر جد مفهوم – قد لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة .

ولهذا فنحن مازلنا بحاجة إلى دراسة متكاملة ترسم جغرافية الإسلام من حيث هو غطاء روحى واسع الانتشار، بالغ الخطورة فى الحياة اليومية المعاصرة، المادية والثقافية، والاقتصادية والسياسية، لقطاع كبير من البشرية .

وما نزعم أن هذا البحث الذى نقدم الآن يمكن أن يسد هذه الثغره تماماً، ولكنا نحسب أنه يقدم أرضية عامة ونقطة ابتداء صالحة لمزيد من التعمق والتمحيص. إنه مدخل، مدخل لن نعرض فيه لأكثر من واقع التوزيع الجغرافى الراهن للاسلام، فى جولة استقراء واستقصاء أشبه شىء بالرحلة العلمية travelogue، لا تستدعى بالضرورة أن نعود إلى القصة التاريخية لانتشار

العقيدة إلا بمقدار ما تلقى من ضوء على الصورة الراهنة، كما لاتتعرض بأى قدر من تحليل للجوانب السياسية أو الاجتماعية المنبثقة من الوجود الإسلامى أو فيه، فضلا عن أن تحاول اقتحام «نظرية عاملة» شاملة تجمع شتات الصورة فى نظام مورفولوجى واحد أو تخضعه لفلسفة إيكولوجية أحادية. فإن بدا هدف هذا البحث لأول وهلة مجالا ضيقاً إن لم يكن متواضعاً، فإن الرحلة نفسها، إذ نلهث معها عبر القارات والمحيطات والعوالم الشتى، جديرة بأن تقنعنا أن بعض الاستقراء الأولى للمادة الخام قد يكون أشق منالا من بعض التنظير العلمى والتقنين أو التفلسف المنهجى الذى، على أية حال، سوف نعود إليه فى دراسة منفصلة بعد قليل.

أبعاد العالم الإسلامى

ليس سهلا أن نحصر عدد المسلمين فى العالم بدقة، فما كانت الإحصاءات دائماً ميسورة ولا كانت التقديرات بعدها شيئاً يقينياً. ومن ثم تتفاوت التقديرات تفاوتاً كبيراً، ولكنها لا تقل الآن بحال عن ٥٠٠ - ٦٠٠ مليون، وربما رفعها البعض إلى ٧٠٠ مليون، ومن الكتابات الدارجة مايقفز بالمجموع على غير أساس إحصائى إلى ثلاثة أرباع البليون. ومن الإنصاف، بل الواجب العلمى هنا أن نقرر أنه بقدر ماتجنح التقديرات الغربية إلى التهوين والتقليل من حجم الإسلام، بقدر ماتندفع بعض الكتابات العربية إلى التهويل والتضخيم. وكل من الاتجاهين ليس من العلم ولا من الدين فى شىء. ويبقى أن الاسلام يمثل بالتقريب ١٥٪ من سكان هذا الكوكب الذين يبلغون اليوم نحواً من ٣٥٠٠ - ٣٦٠٠ مليون نسمة، أو قل إن واحداً من كل ستة أو سبعة أشخاص فى العالم يدين بالإسلام .

والإسلام بعد هذا فى توسع ديناميكى مطرد بعيد المدى، بل لعله اليوم أكثر الأديان نمواً عددياً. فهو من ناحية يكسب كل يوم أرضاً جديدة وقوى مضافة على امتداد جبهة عريضة فى إفريقيا، وربما فى آسيا المدارية بالإضافة إلى العالم الجديد شماله والجنوب. ومن ناحية أخرى يتفق أن أغلب مناطق العالم الإسلامى

يعد من أقاليم النمو السكانى السريع حيث لم تزل معدلات المواليد مرتفعة فى الوقت الذى انخفضت فيه معدلات الوفيات انخفاضاً كبيراً. أى أن الإسلام يكسب، ويكسب بمعدل الربح المركب، ومن المرجح أن قوته النسبية فى ديموغرافية العالم ستتمدد باستمرار، وقد لا تحل دورة القرن إلا وقد أصبح خمس البشرية من المسلمين .

ويجوز لنا هنا أن نشير - عابرين - إلى أثر الاستعمار على توسع الإسلام. فما أكثر ما يتردد فى كتابات الاستعمار عن «فضله» فى زحف الإسلام فى القرن الأخير، خاصة فى إفريقيا، بما قدم من تسهيلات حديثه ومواصلات لانتقاله، وبتبنيه له «كوسيلة ما للتحضير»، وبعدم معارضته له كقوة سياسية وكأداة تشريعية. وهذه النغمة تملأ المصادر الفرنسية والإنجليزية على حد سواء، كما لا تخلو منها الكتابات الهولندية عن إندونيسيا، وإن كانت أحد نبرة فى الأولى بوجه خاص .

ولكن الحقيقة الموضوعية أن دخول الاستعمار جاء سداً أمام انتشار الإسلام، أثقل خطوته وإن لم يستطع حقاً أن يشل حركته. ولولاه لكانت خريطة الإسلام اليوم على الأرجح شيئاً يختلف كثيراً عما هى عليه الآن. وعلى سبيل المثال، فإن التبشير الاستعمارى، لاسيما فى إفريقيا، إنما تم على حساب الرصيد أو الاحتياطى الكامن بالقوة للاسلام. وفى الهند - مثل آخر - حيث عمق الاستعمار عن عمد الصراع الدينى بين المسلمين والهندوس، أدى

التعصب الجديد إلى وقف أو إبطاء زحف الإسلام الذى كان منطلقاً فى شبه القارة .

وإذا نحن أردنا أن نضع الإسلام فى مقياس الأديان العالمية الكبرى، لوجدناه يأتى فى المرتبة الثالثة بعد البوذية فالمسيحية، بينما بعده تأتى الهندوكية. وتكاد قوة الإسلام تتعادل عددياً مع قوة الكاثوليكية كبرى طوائف المسيحية. غير أن لنا، إذا اعتبرنا أن الأديان السماوية هى الأديان بمعنى الكلمة أن نقول إن العالم المعاصر يستقطب فى واقع أمره فى قطبين لا ثالث لهما: المسيحية والإسلام ، فهاتان - توحيدياً - هما الديانتان الفعالتان اللتان تتقاسمان، ربما تتنازعان، العالم اليوم. أما اليهودية فبحجمها (١٥ - ١٦ مليونا) وبإحجامها عن التبشير فوقعة حفرية بلا تحفظ أو تحيز .

ولئن بدا الإسلام اليوم - موضوعياً - أقل عددا وأضعف ناصرا من المسيحية، فما هو إلا نمط وتوازن حديث العهد نسبيا ولم يتحقق إلا منذ الكشوف الجغرافية وتوسع أوربا المسيحية فى العالم الجديد والقديم، ثم أكدته بصفة حاسمة الثورة الديموغرافية العارمة التى عرفتها أوربا الصناعية منذ القرن التاسع عشر. أما قبل ذلك فمن المرجح أن العكس كان صحيحاً، بينما من المؤكد أن رقعة الإسلام كانت أشد تراميا واتساعاً من رقعة المسيحية. فكمؤشر وعلى سبيل المثال، حين كانت أوربا تعد ١٠٠ مليون نسمة

فى سنة ١٦٥٠، كان لإفريقيا نفس العدد، فى حين بلغت آسيا ٢٥٠ مليون نسمة. وعدا هذا فهناك الدليل التاريخى غير المباشر، حين كان الشرق الإسلامى مركز الثقل الحضارى والسياسى فى العالم الوسيط .

أما من حيث الرقعة ومدى الانتشار، فالإسلام دين عالمى أو كوكبى بلا مراء، رغم مايدعيه البعض من أنه دين جزئى أو إقليمى أحياناً، أو من أنه دين «إفريقاسى» أحياناً أخرى. إذ يوشك ألا تكون هناك دولة فى عالم اليوم لا يتمثل الإسلام فيها ولو ببضعه عشرات من الآلاف كما فى استراليا أو غرب أوربا مثلا. فإن عد هذا وجوداً رمزياً، فإن جسم الإسلام الحقيقى - بيت الإسلام - يظل يشغل حيزاً جغرافياً هائلا بأى مقياس .

فالإطار الخارجى الأقصى للإسلام يصل شمالا حتى أعالى الفولجا غير بعيد عن دائرة العرض °٦٠ شمالا، ويترامى جنوباً حتى نهاية إفريقيا عند الرأس على خط عرض °٣٥ جنوباً. أما شرقاً بغرب فنحن نلهث مع الإسلام من خط طول °١٢٠ شرقاً حيث الفلبين إلى حوالى °٢٥ غرباً عند الرأس الأخضر. فهذه شقة تبلغ ٩٥ درجة بالطول ونحو ١٤٠ درجة بالعرض، أى حوالى ربع وثلث محيط الأرض علي الترتيب، أو ما يعادل نصف دورة من دورة الليل والنهار ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالى .

وبهذا أيضاً فإن محيط الإسلام يتحدد أساساً بنصف الكرة الشمالي أولا، وبنصف الكرة القديم ثانياً. فالإسلام جنوب خط الاستواء أطراف وأصابع ثانوية، وهو في العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة. وهذا - بالمناسبة - وهو النمط الهيكلي العريض لتوزيع السكان العام على الكرة الأرضية. ذلك الربع من الكرة الأرضية هو إذن «الربع الإسلامي» كما قد نقول .

ويمكننا أن نعبر عن هذا الامتداد النادر بأكثر من طريقة أخرى فنقول إن الإسلام يمتد في قوس محدد من بكين إلى كازان إلى بلغراد في الشمال، أو في قاطع من فرغانة إلى غانة كما كان يقول مؤرخو الإسلام، أو في قاطع آخر من جبل طارق الأطلسي إلى سنغافورة جبل طارق الهادي، أو من مالاجا بالأندلس إلى ملقا بالملايو (وكل من الاسمين مشتق من ملقى العربية)، من أرض المور بالمغرب إلى قبائل المورو بالفلبين (وكل من تسمية الإسبان للمسلمين). كذلك يمكن أن نحدد قاعدة العالم الاسلامي في الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال حتى قبائل التاجال (بالفلبين)، أو من غينيا إلى غينيا الجديدة. أما بالطول، فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزي والليمبوبو. وبعامة، فتلك أبعاد لا تقل بحال عن نصف مساحة العالم القديم، ولايفوقها من بين الأديان جميعاً إلا أبعاد المسيحية .

الإسلام بين القارات الثلاث

ويحسن هنا أن نتعرف على توزيع الإسلام بين القارات الثلاث. فأوربا، بما فيها الاتحاد السوفييتى الأوربى، لا تضم من المسلمين إلا نحو ١٥ - ٢٠ مليوناً يتركز ٤ - ٥ ملايين منهم فى البلقان خاصة غربه وبالأخص فى يوجوسلافيا، والباقى فى سوفييتات جنوب الاتحاد فى القوقاز وشمال البحر الأسود. تلك إذن مجرد بقايا محدودة الوزن، وجبهة متراجعة تاريخياً وحالياً إذا ماقورنت بإسلام أوربا الوسيطة المتأخرة، بل بأوربا القرن التاسع عشر .

فطوال العصور الوسطى كان الإسلام يغطى جزر البحر المتوسط لا سيما صقلية والبليار، فضلا عن الجزء الأكبر من إسبانيا وخاصة الأندلس، وقد انحسرت هذه الجبهة مع طرد المور. غير أن المد العثمانى جاء كبديل وتعويض فى أقصى الشرق، فكان الإسلام فى العصور الحديثة أعظم ثقلا وأوسع انتشاراً فى كل جنوب شرق القارة حتى الدانوب والمجر إلى سهول جنوب أوكرانيا . ثم بدأ التقلص والانكماش إلى أن اشتد مع القرن الماضى، ثم استكمل بتبادلات السكان والأقليات فى العشرينات الماضية، فقد كانت هذه التبادلات السكانية الضخمة فى حقيقتها تبادلات دينية بين الإسلام والمسيحية .

وحتى فى أيامنا هذه سجل الإسلام انكماشة أخرى حين نقل الاتحاد السوفييتى بالجملة كثيراً من الأقليات الإسلامية فى القرم والفولجا إلى سوفييتاته الأسيوية .أثناء الحرب الماضية وتقدم الألمان، وإن كان قد سمح لبعضها بالعودة فى الستينات. كذلك فقد أخرج كثير من المسلمين من بلغاريا واتجهوا إلى تركيا منذ عام ١٩٥٠ .

والمحصلة النهائية هى أن الإسلام الآن ليس إلا ظلا باهتا لما كان عليه فى يوم ما فى أوربا المتوسطية والجنوبية الشرقية. بيد أننا ينبغى أن نضيف أن هذا التراجع والانكماش هو عملية زحزحة وخروج وليس ردة دينية بطبيعة الحال، فيكاد الإسلام ينفرد بين الأديان جميعاً بأنه لم يعرف أى ارتداد عقائدى بمعنى التحول عنه إلى غيره وإن عرف الانحسار والتراجع الجغرافى فى أكثر من مرحلة وفى أكثر من جبهة. هذا، وإذا كان الإسلام قد سجل «كسباً» حديثاً فى أوربا، ممثلا فى الهجرة من المغرب العربى، خاصة من الجزائر، إلى فرنسا حيث يقيم نحو نصف المليون إلى المليون منهم، فإن هذا وضع خاص جداً ومؤقت ولا يمكن أن يعد توطناً حقيقياً دائماً .

وإذا كان الإسلام قد تراجع أو تضاءل فى أوربا، فهو على العكس من ذلك فى أفريقيا: جبهة مدية زاحفة بقوة وإيقاع لا

يعرفهما فى أى قارة أخرى كما لا يعرفهما أى دين آخر سواه فى الوقت الحالى فى أى مكان. فلقد قدر عدد المسلمين فى عام ١٩٣١ بنحو ٤٠ مليوناً، بينما قدر فى عام ١٩٥١ بنحو ٨٥ - ٩٠ مليوناً، وهو الآن بلا شك يتعدى علامة المائة بكثير، ربما مائة ازدادوا عشراً أو خمسة عشر. وهذا من مجموع قدره نحو ٣٥٣ مليوناً حالياً يعنى زهاء ثلث القارة: وهى طفرة لا يمكن أن تفسرها الزيادة الطبيعية وحدها .

وهكذا إذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط «كبحيرة إسلامية»، فإنه قد كسب إفريقيا كقارة إسلامية. غير أن زحف الإسلام فى إفريقيا المعاصرة يختلف عنه فى آسيا الوسيطة، ففى الماضى كان اكتساحة سريعة أخاذة وخاطفة كالطوفان، وهو الآن أقرب إلى الانتشار الغشائى (الأسموزى) الهادىء، وئيد ولكنه أكيد.

والإسلام بهذا وبعد هذا لا يزيد فى إفريقيا على قوته العددية فى أى من الباكستان أو إندونيسيا بكثير أو بالتقريب، وبالتالى لا يكاد يبلغ خمس قوة الإسلام فى العالم. ولكنه مع ذلك كفيل بأن يجعل منها «قارة الإسلام» بالضرورة لأن الإسلام لا يصل إلى نسبة الثلث فى أى قارة سواها. أبعد من هذا تعد إفريقيا، أكثر من أى قارة أخرى، جبهة ريادة وزحف الإسلام واحتياطى توسعه فى المستقبل. فكل شىء بإجماع - وقلق! - كل الكتاب والمبشرين

الغربيين قبل سواهم يشير إلى أن دين المستقبل فى قارة المستقبل إنما هو الإسلام .

آسيا، بسهولة هى مركز ثقل الإسلام وبيته الحقيقى مثلما كانت موطنه الأصلى، وحدها تضم أربعة أخماس مسلمى العالم أو نحو ٤٥٠ مليون نسمة – آخرون يقولون ٥٥٠ مليوناً. هى إذن للاسلام كأوريا للمسيحية: قلعة وكعبة وقلب. غير أن وزن الإسلام النسبى فى آسيا أضعف منه بكثير فى إفريقيا، حيث لا يزيد على ٢٠٪ من مجموع سكان القارة البالغ نحو ٢٠٠٠ مليون (١٩٧١). أى أن المطلق هنا والنسبى فى تعارض ما بين القارتين. وهذا بين قوسين، يكاد يكون عكس الوضع بين أوزان وأثقال قطاعى العالم العربى فى آسيا وفى إفريقيا .

كذلك فإن الإسلام فى شماله الأسيوى قد أصابه بعض ما أصاب الإسلام الأوربى من تقلص وتدهور لا يرجحه – فيما يبدو – ما يكسبه فى جنوبه الموسمى، ومن ثم فهو إلى الاستقرار والثبات النسبى أقرب، وذلك على مستوى القارة ككل. والمقدر أن الإسلام فى جنوب القارة لا ينمو الآن إلا بالزيادة الطبيعية للسكان وحدها وبمقدارها .

ولعله قد تبدت للقارىء الآن، من ديناميكيات الإسلام فى القارات الثلاث، حركة محددة حديثة أو معاصرة، لا يمكن أن

تخطئها العين. إن جسم الإسلام ككل يزحف تحت ناظرينا في حركة كتلية من الشمال إلى الجنوب، فيستبدل على أطرافه الجنوبية عروضاً سفلى بعروض عليا على أطرافه الشمالية. وهو بهذا يزداد دفئاً أو حرارة إذ يزداد ابتعاداً عن القطب واقتراباً من خط الاستواء، إنه باختصار وبالمجاز «يهاجر» من أوربا إلى أفريقيا .

ولقد أعطت هذه الحركة مادة لناقدى الإسلام، كما أعطاها الاستعمار كثيراً من دلالة وتأويل. فهؤلاء الذين طالما قذفوا الإسلام بكل النعوت، فسروا هذه «الزحزحة القارية» للاسلام على أنها انزلاق من مستوى حضارى أعلى إلى آخر أدنى، بمثل ماهى تحول عن الجنس الأبيض المسيطر إلى الأجناس «الملونة» المستعمرة. ومن هذا وذاك خرجوا ماشاء لهم من دعاوى، ليس أشدها نكراً أن الإسلام ليس دين الحضارة الراقية أو أنه «دين الملونين» أو دين مدارى وحسب! ولسنا هنا فى معرض الدفاع، ولكنا نذكر هذه الاتهامات والتأويلات للتسجيل الموضوعى فقط .

مورفولوجية العالم الإسلامى

الآن، كيف يبدو النمط الجغرافي للاسلام أو كيف تتشكل مورفولوجيته العامة داخل إطاره الكبير فى العالم القديم؟ ثمة يجبهنا فى شكل الإسلام، إذا نظرنا إلى خريطة توزيعه الفعلى، نمط قوسى أساسى يتوسط المثلث القارى ويتعامد عليه بصورة ما كمحور هيكلى أو كنطاق محدب، يترامى بعمق متفاوت ولكنه عظيم، ويواكب بصفة تقريبية نصف دائرة المحيط الهندى ويوازيها ويكاد يحف بها وهذا القوس العظيم الذى يبدأ بجناح أيسر عميق عريض فى إفريقيا من عروض مدارية سفلى، لا يلبث أن ينثنى شمالاً لينتظم غرب آسيا ووسطها فى عروض أعلى بكثير، ثم إذا به يعود فى جناحه الأيمن فينحنى نحو الجنوب مرة أخرى وذلك فى جنوب آسيا وجنوبيها الشرقى حيث يضيق كثيراً ويدق أحياناً حتى ليتقطع ويتبعثر، إلا أن ينتهى كما بدأ فى عروض مدارية أو استوائية .

هذا فى معنى حقيقى جداً هو «هلال الإسلام»، وفى قلبه، ونكاد نقول كنجمته، يستقر المحيط الهندى، الذى هو منطقياً وبالضرورة «محيط الإسلام». وإذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط كبحيرة إسلامية أو شبه إسلامية تقليدية، فقد كسب المحيط الهندى الذى

أصبح «البحر المتوسط» الجديد فى العالم الإسلامى، الحضارمة والعمانيون إغريقه وبنادقته وإن لم يكونوا رومانه.. وبعامة، فمن هذا الشكل القوسى تنبثق حقيقة أساسية وهى أن دار الإسلام فى إفريقيا تتركز بالدرجة الأولى فى نصفها الشمالى، بينما تقع من آسيا فى نصفها الجنوبى .

وقد يمكن أن نرى فى تركيب هذا الهلال قدراً ما من السمترية والتناظر، فننظر إليه على أنه يتألف من قلب وجناحين: قلب قارى ضخم متصل يمتد بلا انقطاع من حدود الصحراء الكبرى حتى وسط آسيا، وبعده يبدأ جناحان جزريان يتحول الإسلام فى كل منهما إلى أرخبيل أو مجموعة من الجزر صغرت أو كبرت، فى الغابة فى إفريقيا جنوب الصحراء أو فى المحيط فى آسيا الموسمية. إلا أن الجناح الإفريقى لا يقاس البتة وزناً وثقلا بالجناح الأسيوى. ولهذا فقد يكون من الخير لنا أن نكتفى بأن نميز فى هلال الإسلام بعامة بين قطاعين جوهريين واضحين بما فيه الكفاية. قطاع غربى وآخر شرقى، خط التقسيم بينهما يمر بالتبت والهند .

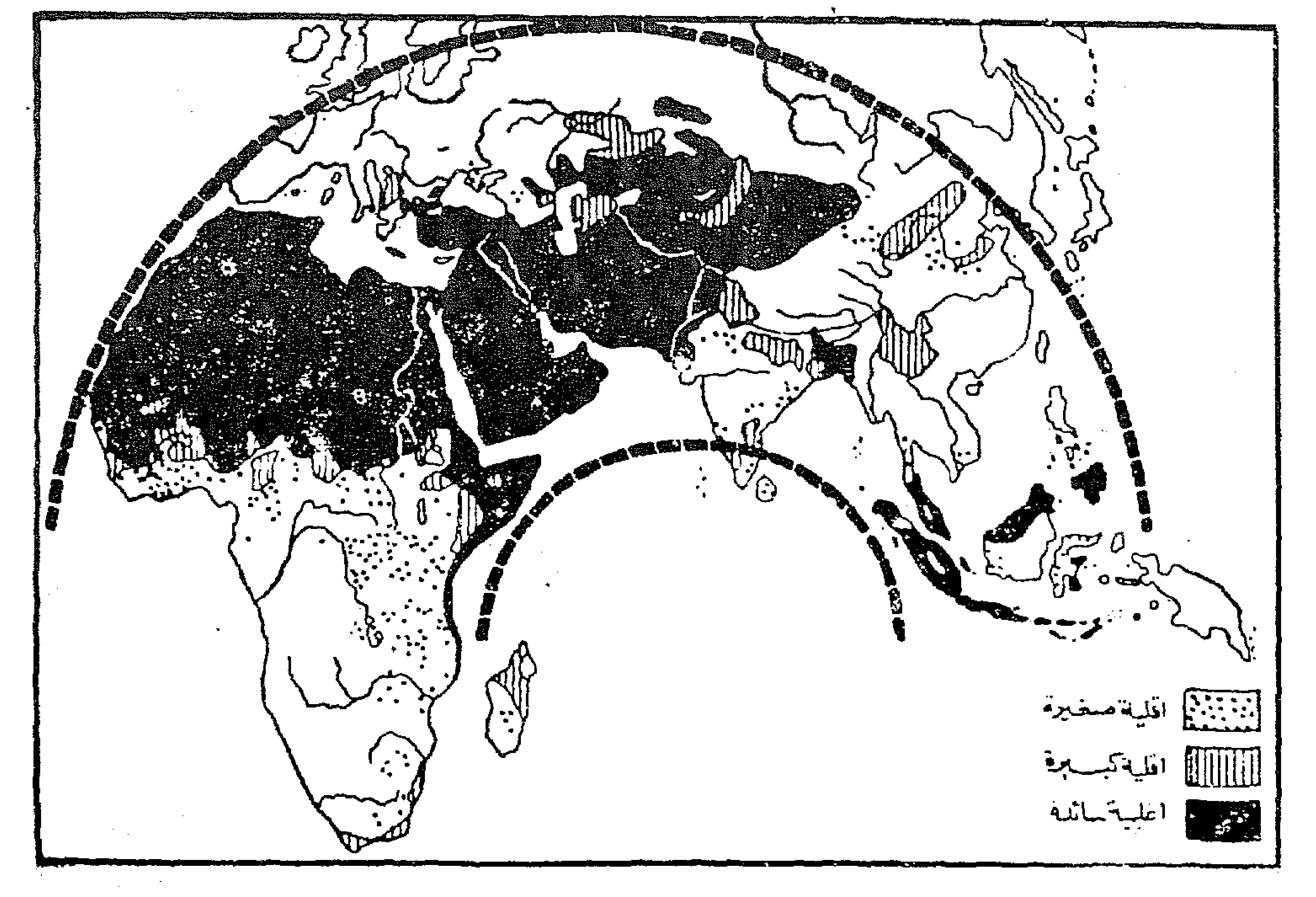
غير أننا قبل أن نتتبع كلا من هذين القطاعين بالدراسة، ينبغى أن نستدرك حقيقة هامة فنقول: إن الإسلام كدين وإن بدا فى معظم رقعته نطاقاً متصلا فهو كسكان يتألف أساساً وبالدقة من أرخبيل - ليس أرخبيل العرب إلا جزءاً منه - من الجزر أو الواحات البشرية المركزة المتباعدة فى وسط بحر الرمال أو بحر الماء .

ولا تعارض فى ذلك بين الحقيقتين الدينية والديموغرافية. فالنمط السكانى كتل متبلورة يفصلها عن بعضها البعض مساحات شاسعة من الصحارى أو المرتفعات تكاد تكون من اللامعمور .

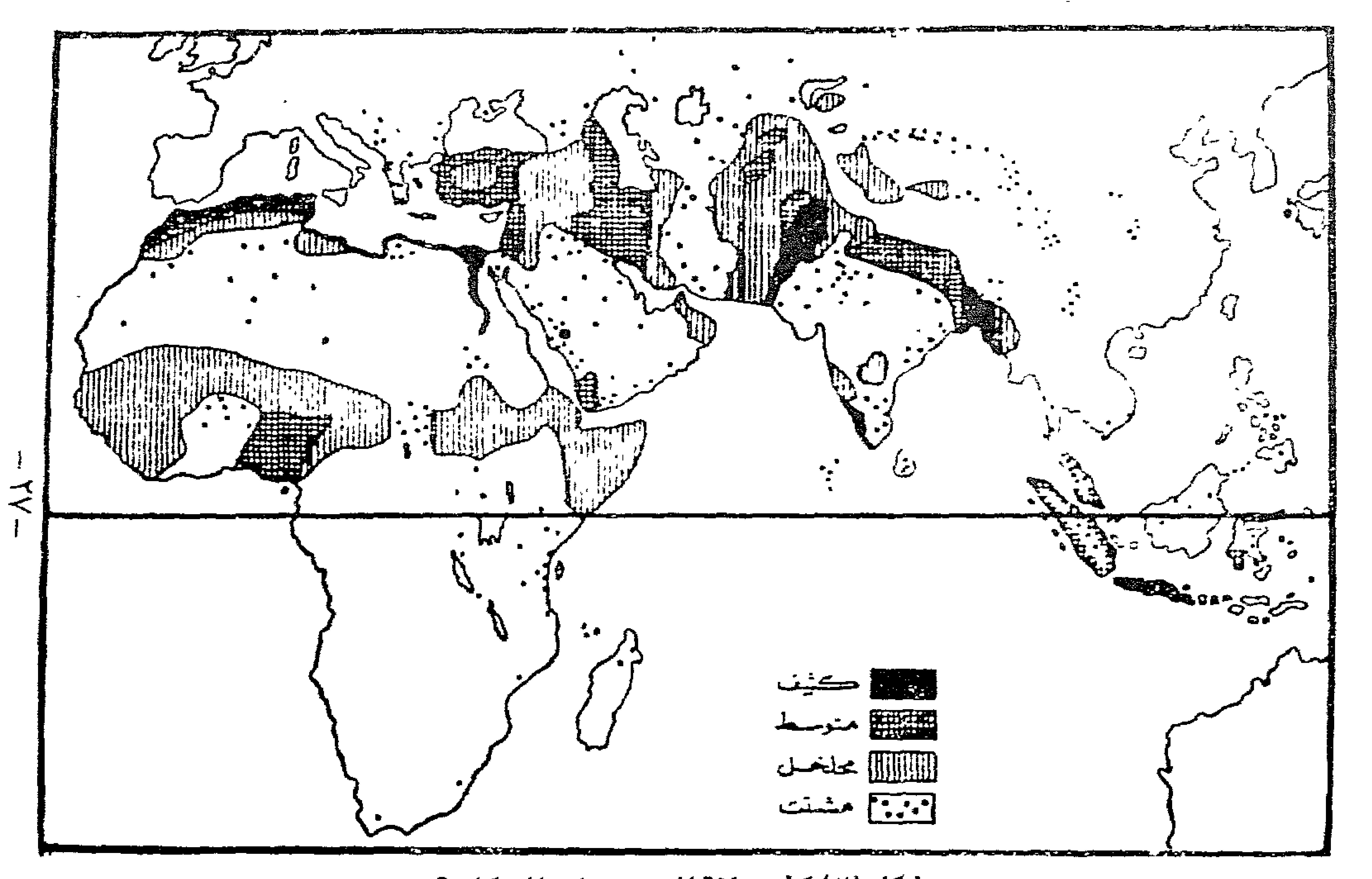
ثمة كتلة المغرب العربى مثلا، ثم مصر، وسودان السفانا على الجانب الآخر من الصحراء الكبرى، وهناك كتلة الشام والعراق، ونواة تركيا وإيران، وكتلتا الباكستان الغربية والشرقية، حتى نصل إلى الأرخبيل الإندونيسى، هذا عدا كتلة الصين وكوكبة الاتحاد السوفييتى. ويمكن أن نضيف فى النهاية أن توزيع الإسلام بعامة يأخذ فى ذلك كله صورة ونمط توزيع السكان عامة فى محيطه إلى حد بعيد، وهذا أمر منطقى حيث إنه إن لم يمثل الأغلبية السائدة فى كثير من مناطقه فهو على الأقل جزء لا يتجزأ من الغطاء البشرى فيها .

بل إن هناك حقيقة أساسية وأسية فى نمط توزيع الإسلام داخل محيطه الكبير تفرض نفسها على كل باحث. فهذا الأرخبيل المزدحم من الكتل السكانية المنفصلة لا ينتثر عشوائياً كسديم شتيت بلا خطة، وإنما هو يتنضد فى سلسلة أو مجموعة متراصة من الحلقات – كحلقات الجزر المرجانية atoll – التى تتجاور وتتعاقب وقد تتماس بطول امتداده من الشرق إلى الغرب، وإن اختلفت فى أقطارها وكثافاتها وأوزانها .

ففى إفريقيا الشمالية يتكثف الإسلام الفعال فى حلقة متصلة بدرجة أو بأخرى تحفّ بأطراف الصحراء الكبرى، بادئة بكتلة المغرب الكبير ثم كتلة وادى النيل، وأخيراً يغلق الدائرة نطاق السكان الكثيف فى شريط السفانا. فالصحراء الكبرى أشبه فى هذا ببحر داخلى عظيم يتكدس المسلمون على شطآنه وسواحله أكثر مما يخوضون فيه. والواقع أن المحاور الرئيسية لانتشار الإسلام التاريخى فى هذا النطاق إنما تبعث هذه الشواطىء الكثيفة العمران، ولم يخترق بحر الصحراء إلا شعب فرعية ملأت فراغاته بغشاء، وإن كان عالمياً، خفيفا جداً كأنه «تراب الإسلام» .



شكل (١) هلال الاسلام فى العالم القديم



شكل (٢) كثافة الاسلام السكانية.

لاحظ النمط الحلقى فى توزيع كتل الاسلام

والمشرق العربى بدوره يمثل حلقة كلاسيكية هى «الحلقة السعيدة»: الهلال الخصيب فى الشمال تتممه فى جانب كتلة مصر، ثم نطاق الكثافة الذى يحف بالجزيرة العربية على طول سواحلها ابتداء من الحجاز حتى اليمن والجنوب العربى ثم الخليج حيث تتصل الدائرة مع العراق. وداخل هذه الحلقة ليس ثمة إلا «قلب ميت» سكانياً، وإن يكن قلب الإسلام كله عقيدة. كذلك يمتاز توزيع السكان فى تركيا تقليدياً بتطرفه على الهوامش الساحلية خاصة الغربية والشمالية الغربية تاركا قلب الأناضول شبه ميت. وبالمثل تفعل الكثافة فى هضبة إيران الطبيعية حيث يتركز السواد الأعظم من سكان إيران على هوامشها الشمالية والغربية وإلى حد ما الجنوبية، بينما تتم الدائرة شرقاً بكتلة السكان فى أفغانستان والباكستان الغربية، تاركة قلباً ميتاً آخر فى وسط الهضبة بصحاريها الملحية .

وإذا اعتبرنا الإسلام فى شبه القارة الهندية ككل لتكرر النمط مرة أخرى : تبدأ الدائرة بكتلة المسلمين الصلبة فى الباكستان الغربية، وتستمر على طول نهر الجانج حتى تستقر على خليج البنغال فى كتلة الباكستان الشرقية، ثم تكتمل الدائرة على طول سواحل الدكن - دون قلبها - شرقاً وغرباً. وفى غرب الصين فى سينكيانج يرسم توزيع الإسلام نمطاً حلقياً بيضاوياً. وأخيراً يؤكد

النمط نفسه – أو يشى بنفسه بالأحرى ـ فى عالم جزر وأشباه جزر جنوب شرق آسيا، فعلى طول قوس جزر الملايو وإندونيسيا الفستونية نجده، حتى ينثنى شمالا عبر سيلاويزى إلى جنوب الفلبين. ويمكن أن نعد الإسلام على الأطراف الجنوبية لفيتنام وكمبوديا نهاية الدائرة. بل حتى البلقان يمكن أن نتعقب هذا النمط الملح. فالإسلام هنا يتركز على هوامشها الحوضية فى غرب يوجوسلافيا وألبانيا ثم شمال اليونان ثم تركيا أوربا وأخيراً شرق بلغاريا .

القطاع الغربى من الإسلام

نستطيع الآن أن نبدأ رحلتنا فى عالم الإسلام بتفصيل. القطاع الغربى يشمل الإسلام فى إفريقيا وغرب آسيا - ومعها البلقان - وكل هضبة إيران ثم الباكستان الغربية، ثم يستمر فى سهول طوران وتركستان حتى مشارف الفولجا والأورال شمالا وسينكيانج أو التركستان الصينية شرقاً. يتأرجح وزن هذه الكتلة الضخمة حوالى ٣٨٠ - ٤٠٠ مليون نسمة، أى أنها تقترب من ثلاثة أخماس العالم الإسلامى جميعا. فإذا أضفنا أنها تغطى - مساحة الرقعة الكبرى والكبرى جداً من أرض الإسلام، جاز لنا أن نعدها صلب ومركز ثقل الإسلام.

والقطاع ككل يبدو كقاطع ضخم بارز عبر العالم القديم، حتى ليحسبه البعض كل هيكل العالم الإسلامى، وهو ماليس صحيحاً بالدقة، لأنه يغفل القطاع الشرقى برمته. أو قد يرى البعض فى هذه الكتلة الماموث قارة داخل القارات، «قارة وسطى» كما يسميها مونتى V. Monteil كما، أو «جزيرة قارية» فى صميم يابس العالم القديم. وأهم حقيقة جغرافية فى هذا القطاع بلا ريب أنه بقعة زيت عظمى تمددت، كتلة واحدة متصلة لا انقطاع فيها وإن

دقت كثافتها وتخلخلت كلما بعدنا عن قلبها بصورة عامة حتى تتعرج على أطرافها والهوامش فى بروزات كالرء وس والخلجـان ، تتقطع كالجزر والأسافين فى المحيط غير الإسلامى المجاور، وذلك كما على حواف الغابة المدارية فى إفريقيا جنوباً وكما فى البلقان وعلى أطراف القوقاز واستبس وسط آسيا شمالا .

والذى يفسر هذا الاستمرار الأرضى الطاغى هو أولا وبلا تردد قرب الكتلة جميعها من الوطن الأصلى للاسلام، فكانت قوة دفع العقيدة بكراً فتية ونبض الانطلاقة مرتفعاً غلاباً، فجاء انتشار الدين فى كل الاتجاهات غطائياً عالمياً وكاسحاً. غير أن ثمة بعد هذا عاملا جغرافياً مساعداً ومواتياً، إن لم يكن ضاغطاً، هو طبيعة الكتلة القارية المتصلة لاسيما فى إفريقيا القارة – الكتلة بالضرورة.

العالم العربى

حوالى الوسط الجغرافى من هذا القطاع الغربى من الإسلام يقوم العالم العربى كقلب العالم الإسلامى النابض، باعتباره مهد العقيدة وموطن الأماكن المقدسة. فالعالم العربى هو أولا النواة النووية فى الإسلام، وهو بعد القطب المغناطيسى للمؤمنين. لكن

العالم العربى بعد هذا أكثر من قلب: إنه أيضاً رأس، ورأس مؤثر وموح عند ذلك، على الأقل فى القطاع الغربى من الإسلام. ذلك أنه يضم وحده أكثر من ١١٠ ملايين، الغالبية الساحقة منهم من أبناء الدين، يمثلون خمس وربما أكثر من خمس المسلمين جميعاً، وأهم منها يمثلون قمة تطور وتبلور وأصالة العقيدة ونقاوتها مذهبياً. ولهذا كان أمراً مقدوراً دائماً ومن قديم أن يلعب العالم العربى فى العالم الإسلامى دوراً خاصاً لا على المستوى الدينى فحسب، بل وعلى المستوى السياسى كذلك.

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن الإسلام يختلف فى تاريخه وتوسعه عن بعض الأديان الكبرى الأخرى. فكثيرة هى الأديان التى نشأت فى موطن - مشتل ثم هاجرت منه وهجرته كلية أو تقريباً لتنتشر خارجه أساساً كالبوذية بالنسبة إلى الهند وكاليهودية والمسيحية بالنسبة إلى فلسطين. لكن الإسلام وحده يتفرد أو يمتاز بأنه، رغم أن انتشاره الأكبر يقع اليوم خارج موطنه الأصلى فى العالم العربى، فإن هذا الوطن لم يزل له معقلا أساسياً وظل دائماً حقلا كثيفاً من أخصب حقوله. غير أن الشق الأسيوى من العالم العربى إذا كان مهد الإسلام ومشتله الأول، فإن الشق الإفريقى هو اليوم حقله الرئيسى مساحة وسكاناً، إذ يحتكر نحو ثلثى العرب (٧٥ مليوناً) حيث لا يضم الأول إلا الثلث، وتستوعب مصر وحدها أقل

قليلا من ثلث العرب المسلمين، وتكاد تعادل بذلك أياً من أسيا العربية أو مجموع المغرب العربى الكبير، وتأتى بذلك رابعة أو خامسة دول العالم فى عدد المسلمين .

بيد أن العالم العربى بعد هذا ينتظم نسبة مذكورة من الأقليات الدينية، وهو أمر مفهوم تاريخيا وجغرافيا، لأنه هو أيضاً مهد الديانات التوحيدية الأسبق. فرغم أن آخر وأحدث الغطاءات الدينية التى نشأت وانتشرت فى المنطقة هى التى سادت فى النهاية، إلا أن بقايا الغطاءات الأسبق والأقدم ظلت متوطنة فى جيوب عدة هنا وهناك. على أن هذه الأقليات تختلف مابين المشرق والمغرب. فصلبها فى الأخير هو اليهودية حيث كانت قوتها تبلغ تقليدياً نحو نصف المليون، مركزها الرئيسى فى المغرب الأقصى (مراكش)، إلى أن بدأت أخيراً تتناقص بسرعة بالهجرة الخارجة .

أما فى المشرق فإنها هى المسيحية أساساً، وتتركز فى نواة صلبة رئيسية فى مصر ونوية ثانوية فى الشام. ففى مصر مليونان من الأقباط مع امتدادهم فى السودان بين كتلتهم فى مصر وكتلتهم فى إثيوبيا. إلا أن هذا – نسبياً لا يشكل إلا ٦٪ من مجموع سكان مصر. وعلى العكس من هذا الشام، فهنا لا يزيد حجمها عن المليون تقريباً، ولكنها بالنسبة أثقل وزناً من نواتها فى مصر. فتتفاوت محلياً مابين نصف السكان فى لبنان ونحو ١٦٪ فى سوريا وأقل من ذلك فى فلسطين .

لكن هذه جميعاً هى الأقليات الدينية الوطنية، إلى جانبها ينبغى أن نضيف الأقليات الطارئة الدخيلة التى جلبها الاستعمار: اللاتينى فى المغرب والصهيونى فى المشرق. وهى فى الحالين تتناقض ونوع الأقلية الوطنية. ففى المغرب حيث الأقلية الوطنية يهودية، جلب الاستعمار اللاتينى ـ خاصة الفرنسى ـ نحو مليونين من المسيحيين تركز أكثر من نصفهم فى الجزائر وحدها. ومن حسن الحظ أن التحرير قد صفى السواد الأعظم منها جميعاً. أما فى المشرق حيث الأقلية الوطنية مسيحية أساساً، حشد الاستعمار الصهيونى قطيعاً خلاسياً مغتصباً من شذاذ اليهود يناهز هو الآخر المليونين ونصف المليون. وكنظيره فى المغرب، لايمكن إلا أن يعد انحرافة طارئة دخيلة، ولا يمكن إلا أن يلقى نفس المصير، وهو يوم قد يراه البعض بعيداً ونراه قريباً .

إفريقيا المدارية

من العالم العربى ننتقل إلى الإسلام فى إفريقيا المدارية لنلقى – بتقريب شديد – نحواً من ٥٥ – ٧٠ مليوناً من «المسلمين السود» أو «المسلمين البانتو» أو «الإسلام المدارى» كما يسميهم الكتاب الأوربيون.

ويتوزع هذا النطاق أساساً بين غرب إفريقيا فى الدرجة الأولى وشرقها فى المحل الثانى. ففى غرب إفريقيا يستوعب الإسلام صف دول الصحراء والسفانا فى الشمال (تشاد، النيجر، مالى، موريتانيا، السنغال، غمبيا) وصف دول السفانا والغابة فى الجنوب، فى الأولى كأغلبية مطلقة لا تقل عن ٩٠٪ بحال، وفى الثانية كأقلية هامة باستثناء غينيا التى يسودها الإسلام. فى الأولى يتركز سكاناً فى الشريحة الجنوبية من دوله وإن كان عالمياً كدين فى رقعة الدولة، وفى الثانية يتركز سكاناً وديناً فى القطاعات الشمالية ويقل بسرعة واطراد كلما اقتربنا من الساحل .

وتفسير النمط الجغرافى الأخير فى دول السفانا والغابة أن هنا التقى تيارا الإسلام من الشمال والمسيحية القادمة مع الاستعمار من الجنوب، فتركز الأول خاصة فى الشمال السافانى وتوطن الثانى فى السواحل الجنوبية. ولكن السيادة العددية العامة لا تتحقق لأى منهما ، بل تظل للوثنية الاستحيائية. ففى الكمرون مثلا نصف مليون مسلم، وفى فولتا العليا يؤلف المسلمون من طوارق وفولا وديولا نحو ٦٠٠ ألف، وفى غينيا «الصغرى» (البرتغالية) يجمع الماندنجو والفولا ١٧٢ ألفاً، وثمة فى ليبريا جماعات الماندنان الشديدة التمسك بالإسلام. وفى بقية وحدات السفانا والغابة ابتداء من سيراليونى حتى جمهورية إفريقيا الوسطى، بل وحتى جنوب

السودان تسود الوثنية ولكن المسلمين كثيرون، كما أن بالكنغو، غير بعيد، نحو ١٠٠ ألف مسلم (الأرقام الأخيرة أرقام أوائل الستينات).

ولكن نيجيريا لا شك أهم جزيرة إسلامية فى إفريقيا السوداء، وتستدعى وحدها وقفة قصيرة. ففى عام ١٩٥٣ حين كان مجموع سكان نيجيريا الكلى ٣٠.٥ مليون كانت نسبة المسلمين تتراوح حول ٤٤ - ٤٦٪، أى تضم نحو ١٤ مليوناً. والغالبية العظمى من هذا الجسم يتمدد فى الشمال حيث ترتفع نسبة الإسلام إلى ٧٠ أو ٨٠٪ ولا يتسرب منه إلى الجنوب إلا أطراف ثانوية تهوى معها نسبته إلى الثلث فى الغرب والصفر فى الشرق. وفى عام ١٩٦٣ أتى أول إحصاء بعد الاستقلال، أتى نيجيريا بمجموع ٥٥.٥ مليون نسمة، أجمع الكل داخل وخارج نيجيريا على افتعاله ومبالغته العامدة إلى درجة تسلبه كل قيمة. ويرجح البعض أن الرقم الصحيح ربما كان يدور حول الأربعين مليوناً. فإذا صح هذا، فلعله كان فى نيجيريا يومئذ حوالى من ١٨ - ٢٠ مليون مسلم، قد تصل اليوم إلى ٢٥ - ٢٧ أو ٣٠ مليوناً، وهو مايجعلها الدولة السادسة أو السابعة فى عدد المسلمين فى العالم والثانية فى أفريقيا .

وعدا هذا فمن الواضح فى نيجيريا أن الإسلام يرتبط بالسفانا أكثر منه بالغابة، ولكن أيضا بالسهول أكثر منه بالمرتفعات التى

تحولت إلى ملاجيء للعناصر الوثنية المستضعفة الهاربة من زحف المسلمين الفولا والحوصا (الهاوسا)، ومثالها هضبة جوس (بوتشى) في الوسط حيث تتكدس قبائل كالتيف Tiv والنوبى Nupe.
وبين هذه الجماعات وأمثالها يتقدم الإسلام اليوم بخطى حثيثة، وأحيانا تفرض الشريعة الإسلامية نفسها قانوناً لا ديناً محل التقاليد القبلية الاستحيائية كما هو مشاهد بين النوبى .

أما إذا انتقلنا إلى الإسلام فى شرق إفريقيا، فإن إثيوبيا هى النواة. ففيها يقدر المسلمون بنصف مجموع السكان الكلى الذى تتراوح تقديراته بين ١٨ , ١٢ مليوناً. وهنا يتبلور معامل الارتباط بين الإسلام والكنتور (خط الارتفاع): فيبدو الإسلام بوضوح دين السهول فى الشرق والجنوب (اسلامبحرى) حيث المركز هرر وحيث العنصر السائد هو الجلا والدناكيل. هذا فى حين أن الهضبة فى الغرب هى القلعة المسيحية القبطية القديمة التى تمثل أكبر جزيرة مسيحية فى القارة الأفريقية سواء أصيلة أو دخيلة. وتتكرر العلاقة فى إرتريا حيث ينصف مجموع السكان (١,٥ مليون) بالتساوى بين الإسلام والأقباط، وحيث يتركز المسلمون فى النصف الغربى السهلى والساحل السهلى بنسبة ٩٥٪ من مجموعهمـــا فى حين يتركز الأقبـــاط فى النصف الشـــرقى الهضبى بنســـبة ٨٥٪ من مجموعه .

وننتقل إلى الصومال بأقسامه العديدة لنجد نسبة الإسلام ترتفع إلى أعلى ماتصله فى كل إفريقيا – ٩٩٪ – ولكنه لا يزيد فى جملته على الثلاثة أو الأربعة ملايين عدداً. ونحو هذا نلقاه على طول الساحل ابتداء من كينيا حتى الرأس، ولكن بثقل أساسى قطبه حوالى زنجبار، ويعمق متفاوت يصل إلى خط البحيرات ابتداء من فيكتوريا إلى تنجانيقا ونياسا. والإسلام هنا قديم الجذور، إلا أنه تلقى موجة جديدة فى القرن الماضى والحالى مع هجرة الهنود إلى الساحل الشرقى لإفريقيا الجنوبية . وهذه هى الهجرة التى تعلل وجود أكثر من ١٥٠ ألف مسلم فى جمهورية جنوب إفريقيا. والإسلام فى كل هذا النطاق يتبع أساساً نمطاً ساحلياً فى توزيعه، ويقل كلما توغلنا فى الداخل وارتقينا المرتفعات، كما أن تركزه فى المدن أوضح. وهذا – سيلاحظ – على النقيض من الصورة مصدراً وموقعاً فى غرب إفريقيا حيث النمط داخلى لا ساحلى. وكل هذا يذكر بأصله البحرى الذى جاء من جنوب الجزيرة العربية مباشرة ثم ارتبط دائماً بساحل البحر. ففى جنوب إفريقيا مثلا يتوزع المسلمون كالآتى: ٤٦ ألفاً فى الكاب، ٣٥ ألفاً فى ناتال، ٢٨ ألفاً فى الترنسفال، فى حين يختفون من الأورنج الداخلية (أرقام أوائل الستينات المتاحة) .

من البلقان إلى الباكستان

يبقى الآن من القطاع الغربى للاسلام أن ندرس امتداده فى غرب ووسط آسيا خارج العالم العربى، وقد يجوز أن نضمنه أطرافه البلقانية كنقطة ابتداء. وتنقسم هذه الرقعة بوضوح إلى نطاقين، هضبى فى الجنوب وسهلى فى الشمال. فأما الأول فسلسلة متصلة من الأحواض الهضبية المرتفعة المغلقة حلقاتها: البلقان فالأناضول فإيران الطبيعية حتى مشارف السند. هنا يمكن أن نتكلم عن «الإسلام المعلق» الذى يعتلى ظهور هذه القلاع الطبيعية الشماء .

ففى البلقان يقع مركز ثقل الإسلام فى هوامشها وحوافها الغربية الأكثر جبلية بصفة خاصة. فتجمع يوجوسلافيا وألبانيا فيما بينهما نحو ٣ - ٤ ملايين مسلم أو أكثر. وإذا كانت نسبة الإسلام فى ألبانيا هى العليا حيث تصل إلى حوالى الثلثين، فإن قوته العددية لم تكن تزيد فى عام ١٩٥٥ على ٧٠٠ ألف، قل ثلاثة أرباع المليون أو المليون اليوم. وعلى العكس من هذا يوجوسلافيا، لايعدو فيها الإسلام ثمن السكان نسبة (١٢,٣٪)، ولكنه قد لا يقل الآن عن ثلاثة ملايين عدداً. ويتركز مسلمو يوجوسلافيا خاصة فى

مقاطعات الجبل الأسود والهرسك والبوسنة، وتعد سراييفو وسكوبيه Skopje المركز الديني للاسلام .

ثم نتجه جنوباً إلى اليونان حيث بلغ تعداد المسلمين عام ١٩٥١ نحو ١٠٥ آلاف. والإسلام في اليونان يعني تواً منطقة سالونيك التي كانت من مناطق الارتكاز التركي التقليدية في العصر العثماني. ويرتبط باليونان نواة أخرى من المسلمين في قبرص، ولكنها من أصل تركي خالص، تناهز المائة ألف نسمة من مجموع الجزيرة الكلي الذي يربو قليلا على نصف المليون. ولا يتركز المسلمون في قبرص في قطاع بعينه، ولكنهم أدنى إلى الانتشار في كل أجزائها بصفة عامة .

فإذا ماعدنا إلى جذع البلقان، يستمر الوجود الإسلامي على طول ساحلها الإيجي في تراقيا ثم في تركية أوربا حيث يتركز نحو ٣ ملايين من المسلمين. ومع ساحل البحر الأسود في شرق بلغاريا يستكمل الإسلام نمطه الحلقي، فنجد جزيرة إسلامية تستمر عبر الدوبرجه برومانيا حتى مصب الدانوب وتتعداه في رشاش متطاير إلى مشارف بسارابيا، وللمسلمين في بلغاريا تقدير رسمي وضع في عام ١٩٤٩ يدور حول ثلاثة أرباع المليون من مجموع كلي كان قدره نحو ٧,٦ مليون، وكان ٦٣٨ ألفاً من الأتراك أصلا، ١٢٣ ألفاً من البلغار الذين يعرفون باسم البوماك Pomaks . وليس لدينا

تقدير حديث، ولكن قد لايزيد العدد اليوم عن ذلك كثيرا حيث قد تعرض كثير من البوماك والترك للطرد منذ عام ١٩٥٠ إلى تركيا .

أما تركيا نفسها فكتلة إسلامية ضخمة بلغ حجمها نحو ٣٤,١ مليون في عام ١٩٧٠ بنسبة ٩٨,٩٪ للمسلمين. ولعلها الآن ـ كمصر ـ الرابعة أو الخامسة في عدد المسلمين بين دول العالم. والحقيقة المركزية في الإسلام التركي أنه تعرض في الفترة الحديثة الكمالية وقبل الكمالية لعملية تكثيف وتبلور تمت بطرق إيجابية وسلبية. إيجاباً، بنقل أكثر من ثلث مليون من المسلمين الأتراك من البلقان إلى الاناضول وإعادة نحو المليون من اليونان المسيحيين من آسيا الصغرى إلى وطنهم الأصلي. وسلبا، بالمذابح والمعارك الحربية التي صفت عدداً آخر من اليونانيين في الغرب، وعدداً أضخم ـ يفوق المليون في بعض التقديرات ـ من الأرمن في الشرق. وبغض النظر عن الأسلوب، فقد أدى هذا لا إلى مزيد من «التجنيس الإثنولوجي» داخل الأناضول فحسب، وإنما كذلك إلى التجنيس الديني شبه المطلق .

وإذ ننتقل إلى هضبة إيران - بمعناها الطبيعي - نلقى كتلة إسلامية تناهز الخمسة والأربعين إلى الخمسين مليوناً: نحو ٣١ مليوناً في إيران، ١٦ في أفغانستان. وتنفرد إيران بأنها كتلة الشيعة الأولى في العالم الإسلامي جميعاً فهنا موطن الاثنا عشرية

التي يتشعع نفوذها بدرجة ما غرباً في جنوب العراق، وبدرجة أقل شرقاً في أفغانستان وبعض باكستان. ففي إيران لا تزيد السنية على المليون أو المليونين، وعلى العكس أفغانستان لاتزيد الشيعية فيها على المليون، هذا وينبغي أن نشير، على التخوم المشتركة بين كتلتي تركيا وإيران إلى ألسنة جبلية يرسلها الإسلام في منطقة أرمينيا والقوقاز وأذربيجان من الاتحاد السوفييتي. فهنا يغطي الإسلام كثيراً من هذه العقدة الجبلية ثم ينحدر على سفوحها الشمالية هابطاً مع السهول حتى شواطئ قزوين الغربية في توزيع نقطي متقطع يؤدي بالتدريج إلى الإسلام الغطائي الذي يغمر سهول طوران شمال وشرق البحر .

أخيراً ينتهي خط إسلام الهضاب الجبلية في الشرق بكتلة باكستان الغربية. هنا شريحة طولية تتخذ من نهر السند محوراً لها، وتمثل أكبر كتلة إسلامية منفردة في كل القطاع الغربي من العالم الإسلامي، وبكثافة نادرة كذلك. ففي عام ١٩٧٠ بلغ تعداد باكستان الغربية نحو ٥٩ - ٦٠ مليوناً يمثل المسلمون منهم ٩٧,١٪ وكما في تركيا، مر الإسلام هنا بعملية استقطاب وتركيز، دموية هي الأخرى أو على الأقل رهيبة، تمت عن طريق المبادلات السكانية والهجرة بالجملة بين الهند والباكستان إبان التقسيم. ففي عام ١٩٤٧ عبر حدود البنجاب ٣,٥ مليون، وفي عام ١٩٤٨ كان المد

الأساسى حين غادر ٦.٥ مليون مسلم الهند إلى غرب البنجاب بباكستان الغربية، بينما هاجر من الأخيرة إلى الهند ٦ ملايين من الهندوس والسيخ .

ومن الفولجا إلى سينكيانج

لا يبقى لنا الآن إلا أن نطل إطلالة من حالق، من سقف البامير أو سطح إيران، على وسط آسيا الذى ينداح من التركستان الروسية حتى التركستان الصينية، لننتقل من إسلام الهضاب إلى إسلام السهول. فهنا سهل حوضى ساحق الأبعاد سحيق الموقع، سهل طوران أو التركستان الروسية، إن احتل موقعاً هامشياً من العالم الإسلامى، فهو يكاد يحتل من العالم القديم قلبه الهندسى، ويوشك أن يكون قطب القارية فيه ممثلا أبعد قلب اليابس عن المحيطات. غير أنه فى الشرق يرتفع سريعاً وشديداً إلى هضاب وجبال التركستان الصينية (سينكيانج) التى تترامى حتى مشارف منغوليا الداخلية والصين الحقيقية، ويعود الإسلام عليها معلقاً مرة أخرى .

فى هذه الدائرة موطن للاسلام قديم وعريق، مركز ثقله فى التركستان الروسية وأطرافه فى الصينية. ففى الأولى يتوزع

الإسلام ابتداء من الفولجا، أعاليه وأسافله، بل من جنوب الروسيا الأوربية شمال البحر الأسود والقرم، ممتداً شمالا حتى عروض موسكو وبرم وأومسك، غير بعيد ـ يعني ـ عن الحدود الشمالية لجمهورية كازاكستان السوفييتية حالياً. وقد كانت سيادة الإسلام هنا تقليدياً سيادة مطلقة أو شبه مطلقة بين القبائل والشعوب التركية المغولية من تركمان وكازاك وقرغيز وتاجيك وأزبك، إلى أن بدأ التوغل القيصرى فى القرن الماضى ثم تيار الهجرة السوفييتى الحديث من سلاف الروسيا الأوربية .

فإذا كان مجموع السكان الكلى فى المنطقة قد ارتفع كثيراً بالتنمية الاقتصادية الانفجارية وبالهجرة السكانية الداخلة، فإن نسب الإسلام قد انخفضت كثيراً وكثيراً جداً أحياناً بينما لم يزد عدد المسلمين فى الأرجح كثيراً جداً. ويعطى تعداد عام ١٩٥٩ لجمهوريات وسط آسيا الخمس الرئيسية هنا نحواً من ٢٣ مليون نسمة غير أن من الصعب أن نقدر عدد المسلمين منهم. ولكن المعروف أن نسبة العناصر الروسية المهاجرة تتراوح الآن بين ٦٠٪ فى جمهوريات الشمال الأقرب إلى المصدر، ٢٠٪ فى جمهوريات الجنوب الأبعد عنه .

ولما كانت جمهوريات الشمال هى إلى أبعد حد الأكثر تعداداً، وإن كانت بحكم ضخامة مساحتها الأقل كثافة، فإن هذا يعنى على

الجملة أن مجموع عدد المسلمين هو على الجانب السالب الخاسر، وأنهم إنما يظلون الأغلبية محلياً فقط حيث حجم السكان الكلى ضئيل، بينما يتحولون إلى أقلية متضائلة حيث النصيب الأوفر من مجموع السكان الكلي. وليس من الممكن التنبؤ إلى أى مدى سيغرق الطوفان السلافى العنصر المغولى الأصلى أو يطمس معالمه الإسلامية .

أما عن التركستان الصينية (سينكيانج) فهى إلى حد كبير امتداد مصغر للاسلام فى التركستان الروسية، وهى حلقة الاتصال وجسر الانتقال بين الإسلام فى غرب آسيا وفى الصين الحقيقية، وكان ممر زونجاريا الشهير على تخومها الشمالية ممرا للاسلام فى طريقه إلى الصين بمثل ما كان من قبل ومن بعد ممراً للطوفانات المغولية والتترية على غرب آسيا وشرق أوربا، كما كان «طريق الحرير» على تخومها الجنوبية طريق الإسلام الآخر حول الحوض. ويعد المسلمون هنا إثنولوجيا بدرجة أو بأخرى امتداداً عبر الحدود لكثير من شعوب التركستان الروسية، فإلى جانب عناصر الخوى واليوجور والسالار وخلخاس ونونجشيانج، يضم الإسلام أيضاً عناصر من الأزبك والتاجيك والتتار والكازاك. ومن الصعب أن نحدد عدد المسلمين فى سينكيانج التى تبلغ كلها ٥ – ٧ ملايين، ولكنهم على أية حال يشكلون الأغلبية الساحقة تقليدياً .

القطاع الشرقى من الإسلام

عالم آخر برمته يفصله عن كتلة الإسلام المتصلة فى الغرب برزخ أرضى عريض وصريح يمتد على محور شبه جزيرة الهند وهضبة التبت. ذلك هو القطاع الشرقى من العالم الإسلامى، وما يقصد بهذا أن الهند تخلو من الإسلام وإن فعلت التبت، وإنما المسلمون هاهنا أقلية ضئيلة نسبياً أولا، وأقلية مبعثرة فى خضم الهند الشاسع ثانياً. وهذا الانقطاع المحورى الرئيسى هو الذى يفسر انشطار دولة الباكستان إلى اقليمين منفصلين يفصل بينهما برزخ أرضى عرضه ١٠٠٠ ميل كاملة. وتركيب الباكستان السياسى بهذا أبرز مظهراً ونتيجة - ونوشك أن نضيف: وضحية - لانقسام هلال الإسلام إلى قطاعين رئيسيين .

وهذا مايضع أيدينا على السمة الجوهرية فى صورة الإسلام فى هذا القطاع الشرقى، الجزرية هى تلك السمة، والتقطع هو مفتاحها. فعلى النقيض من القطاع الغربى، أهم مايميز القطاع الشرقى أنه رخبيل من الإسلام يتألف من كوكبة محدودة العدد من الجزر الحقيقية فى إندونيسيا أو المجازية فى تضاعيف الغابة

الموسمية على القارة، جزر صغير اتساعها نسبياً ولكن ضخم حجمها سكانياً بفضل كثافة عنيفة تعوض بها عن المساحة. ولا شك أن هذا التقطع الأسى يعكس إلى مدى بعيد درجة البعد عن قلب الإسلام فى مهده العربى، فمع المسافة السحيقة من الطبيعى أن تضعف قوة الاندفاعة وأن يتقطع نفس الحركة. وكذلك وبنفس القوة فهو انعكاس لطبيعة المسرح الجغرافى هنا: أشباه جزر وجزر قطعتها الطبيعة بالبحار القارية من الخارج وبالجبال الوعرة فى الداخل .

وعلى الخريطة يبدو هذا القطاع الشرقى شقيقاً هزيلا للقطاع الغربى بالغ الضآلة فى امتداده ومساحته، حتى ليوشك فى مجموعه ألا يزيد على شريحة منه فى حجم الجزيرة العربية مثلا. ولكنا هنا فى عالم الكثافات السكانية الثرى، وفى مشتل متوطن مزمن للبشرية لايدانى فى اكتظاظه. من هنا تتكثف الحياة وتتكدس وتتضاغط إلى أعلى بدلا من أن تنساح أفقياً، ومن هنا تتعارض دلالة الخريطة الجغرافية ودلالة الجدول الإحصائى، ومن هنا وزن القطاع فى عالم الإسلام. فهنا مالا يقل عن ٢٥٠ مليون مسلم تعادل خمسى المسلمين فى العالم بالتقريب .

ومن هذا الاحتشاد الضخم فى عدد قليل من النويات، لم يكن غريباً أن نجد هنا فى القطاع كبرى دول العالم الإسلامى قاطبة

الباكستان وإندونيسيا، بل حتى حيث يتحول الإسلام إلى أقلية نلقى متناقضة أكثر إثارة وهى أنه يظل قريبا من الصدارة كما فى الهند حيث تأتى – بعدهما – الثالثة بين دول العالم من حيث عدد المسلمين، وحيث تضم منهم أكثر مما تضم أى دولة إسلامية بحتة فى القطاع الغربى بما فى ذلك نواته العربية !

ويمكن أن نحلل هذا الأرخبيل الإسلامى – مورفولوجياً – إلى خطين محوريين من فستونات الجزر القوسية الواضحة بدرجة أو بأخرى. ففى الشمال أقل الخطين وزناً، حيث يجمع بين جزيرة الإسلام فى شمال غرب الصين وكوكبته المنتثرة فى شرقها حتى ينتهى إلى الفلبين. وفى الجنوب المحور الأساسى الذى يجمع بين جيوب الإسلام فى الهند وجنوب غرب الصين حتى يصل الملايو وإندونيسيا. غير أن من الخير لنا أن نتخذ الوحدات السياسية أساساً لدراستنا التحليلية، ولتكن الصين بدايتنا حتى نلتقط الخيط فى أقرب موضع تركناه من القطاع الغربى.

إسلام الصين

فى الصين ظل المسلمون لفترة طويلة يقدرون تقليدياً بما يتراوح بين ٢٠، ٣٠، ٤٠ مليوناً، وربما وصل بهم البعض إلى ٥٠ مليوناً،

وكان هناك من يخمن نسبتهم بنحو ٥٪ من مجموع السكان. ولو صحت هذه الأرقام والنسب لحق أن نرفع حجم الإسلام الصينى إلى حد قد يجعل الصين - لا الهند - ثالثة دول العالم من حيث تعداد المسلمين. ولكن يبدو أن الإسراف فى التفاؤل كان يحكم هذه التقديرات، فقد خرج تعداد الصين الشعبية الأول (١٩٥٣) بما لا يزيد عن ١٠ ملايين مسلم فقط، أغلبهم من العناصر التركية، وليس أقلهم خارج الصين الحقيقية! فإن صح هذا الرقم، الذى يهوى بنسبة الإسلام من جزء من عشرين إلى جزء من خمسة وسبعين، فهو عدا خيبة الأمل فيه جدير بأن يغير من تقديرنا لحجم الإسلام بعامة ولوزنه فى آسيا بخاصة .

ومهما يكن من أمر، فالمسلمون فى الصين يوجدون فى كل مقاطعة، غير أنهم يتركزون فى ثلاث جزر أساسية ترسم فيما بينها زاوية قائمة بالتقريب. أولاها وأهمها هى منطقة الشمال الغربى فى مقاطعات كانسو (الأقرب إلى سينكيانج)، ثم شنسى، شانسى، وهونان. ذلك مركز الثقل. أما الجزيرة الثانية ففى الشمال فى مقاطعات هوبى وشانتونج وتجاه تخوم منشوريا، ومركزها التاريخى حول بكين. وفى الجنوب الغربى فى يونان تتوطن الجزيرة الثالثة. وليس يفصل بين هذه النوايا ثغرات حقيقية، فعلى الطرق بينها يظل للاسلام وجود خاص كما فى حوض ستشوان مثلا .

وعلى الفور يشكل هذا التوزيع مؤشراً إلى، وانعكاساً لطرق دخول الإسلام إلى الصين. فرغم أن العلاقات التجارية البحرية بين العرب والصين تسبق العصر الإسلامي بكثير، ورغم جاليات التجار العرب ثم المسلمين في مدن وموانيء الصين الساحلية ابتداء من كانتون حتى بكين طوال أو خلال العصور الوسطى، فإن البحر لم يكن قط طريق الإسلام إلى الصين. وحتى الوقت الحالي لا يزيد المسلمون في موانيء ومقاطعات السواحل على عشرات من الآلاف. إنما دخل الإسلام الصين من الغرب، من القارة من الطريق البرى، ابتداء من سينكيانج وامتداداً لها. وهذا يفسر موقع جزر الإسلام الثلاث على الأطراف الغربية للصين الحقيقية، كما يوضح دور نواة الشمال الغربى الرئيسية كأرض الزاوية فى التوزيع والانتشار والتى لعبت دور الرافعة فى الإسلام شرقاً وجنوباً. ورغم أن بعض العناصر العربية نقلت الإسلام إلى الصين مبكراً وذابت فى السكان، فإن العناصر المغولية التركية من رحل التركستان بشقيها نقلة وحملة الإسلام الحقيقيين إلي الصين، وذلك فى هجراتهم وغزواتهم المتواترة من قلب الاستبس إلى الصين. وهذا يفسر أن كثيرا من المسلمين فى الصين ينتمون إلى نفس الشعوب والقبائل الإسلامية التى رأينا فى التركستان كالسالار والخوى واليوجور...الخ.

فى الهند والباكستان الشرقية

فأما فى الهند فقد عد فى عام ١٩٥١ نحو ٣٥،٤ مليون من المسلمين من بين مجموع السكان البالغ يومئذ ٣٥٦ مليوناً أى بنسبة العشر تقريباً. واليوم إذ تعد الهند ٥٥٠ مليوناً (١٩٧١) فإن حجم الإسلام بها لا يقل عن ٥٥ مليوناً وقد يصل إلى ٦٠ مليوناً. وهذا يزيد على نصف سكان الباكستان جميعاً وعلى ضعف عدد الهندوس فى كل الباكستان، ويؤكد أن التقسيم السياسى لم يحل المشكلة الدينية ولا جانس التركيب الدينى ورغم أثر الاستعمار التحديدى والتجميدى على توسع الإسلام فى الهند، فهو لا يعدم تحولات هامة حتى الآن، ولو أنها تتم أساساً بين طبقة المنبوذين الذين قد يمكن اعتبارهم الاحتياطى الكامن للاسلام فى هند المستقبل .

ومراكز الإسلام فى الهند نوعان: الأول مناطق تبدو كالهالات أو أشباه الظلال حول شطرى الباكستان اللذين يأخذان دور النواة والركيزة. وهذه المناطق ترسم بالتالى شبه خط يصل بين النواتين بطول نهر الجانج. ويتمثل هذا فى كشمير التى يسودها الإسلام

وتؤلف فى واقع الأمر ورغم الوضع السياسى استمراراً وجزءاً من كتلة الإسلام فى الباكستان الغربية. كذلك يتمثل حول الباكستان الشرقية حيث نجد نسباً مرتفعة بوضوح فى الإسلام، فتصل إلى ٢٢,١٪ فى أسام، وإلى ٢٠٪ فى البنغال الغربية (التى تتبع الهند)، وإلى ١٤,٣٪ فى أوتار براديش التى تلاصق البنغال الغربية تجاه الغرب .

بعد هذه المناطق جنوباً تنخفض نسبة الإسلام بشدة حتى تعود مرة أخرى فترتفع نوعاً فى جنوب الهضبة على شكل رقع وجيوب، خاصة فى حيدر أباد ومدراس (٩,١٪)، مع ميل واضح إلى الازدياد على السواحل وخاصة الغربية. وهذه الجزر الإسلامية فى جنوب الدكن هى النوع الثانى من أنماط توزيع الإسلام فى الهند. وإليها ينبغى أن نضيف إسلام سيلون حيث جاءها من البحر وحيث يقدر عدد المسلمين، وأغلبهم من التاميل، بنحو المليون أو أكثر من ١١ - ١٢ مليوناً أى بنسبة العشر تقريباً. وبالمثل نضيف أرخبيل جزر الملديف المرجانية - ١٠٠ ألف نسمة ويزيد - كلهم يدينون بالإسلام على وجه الاطلاق .

وهنا لا بد أن نتساءل لماذا ينشطر مجال الإسلام فى الهند إلى دائرتين منفصلتين، واحدة فى الشمال وأخرى فى الجنوب، بينهما برزخ لا يلتقيان، فضلا عما يترتب على ذلك من الاختلاف فى

العنصر، هندو - أوربيون فى الشمال كإخوانهم فى العقيدة فى الباكستان، درافيديون فى الجنوب. تلك فى الحقيقة نتيجة منطقية إذا اعتبرنا الحركة التاريخية والظروف الجغرافية. فنطاق الشمال هو امتداد مباشر لكتلة الإسلام المتصلة فى غرب آسيا حتى الباكستان الغربية. فسهم الإسلام هنا أتى من الشمال. أما دائرة الجنوب فقد أتاها الإسلام من الجنوب، من مصدر مختلف هو البحر، على يد التجار العرب وربما الإيرانيين من جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج. ومن بوابة ساحل الملبار توغل إلى الداخل حتى وسط الدكن شمالا وحتى سيلون جنوباً. وهذا مايفسر فى نفس الوقت تكاثف الإسلام نسبياً على ذلك الساحل الغربى .

بعد هذه الشظايا المتناثرة نسبياً فى الهند نصل إلى أول كتلة كبيرة فى هذا القطاع الشرقى من العالم الإسلامى، وذلك فى الباكستان الشرقية. فهنا كان ٤٣،٨ أو ٤٤ مليون مسلم من مجموع السكان البالغ زهاء ٥٧ مليوناً عام ١٩٦٥ والذى وصل الآن (١٩٧١) إلى ٧٠ مليونا. وهنا يبرز فارق بين شطرى الباكستان. فرغم أن الباكستان الشرقية أكثر سكاناً من الغربية، فإنهما أدنى إلى التعادل فى قوة عدد المسلمين، وذلك لأن نسبة الإسلام فى الشرقية أقل منها فى الغربية . فبينما وجدنا ٩٧،١٪ من كل سكان الباكستان الغربية من المسلمين، تضم الشرقية أقلية هندوكية كبيرة

ولاتزيد نسبة الإسلام عن ٧٦٪. ولهذا فإذا تعادلت قوة المسلمين العددية المطلقة فى الكفتين، فإن الكفة الغربية ترجح بالنسبة. ولعل هذا يفسر لماذا كانت الباكستان الغربية هى الإقليم النواة ومركز الثقل السياسى فى الدولة الدينية المشطورة .

هذا وقد تعرضت الباكستان الشرقية كالغربية لتبادلات سكانية ضخمة، ولكنها أقل نسبياً، مع الهند بعد التقسيم. ففى ١٩٤٨ - ١٩٥٠ قذفت الاضطرابات الدينية بأربعة ملايين لاجىء منها إلى الهند، وتلقت بالمقابل مليون مسلم. ومن المفيد أن نذكر أن مسلمى الباكستان الشرقية ينتمون إثنولوجياً إلى نفس العنصر الذى ينتسب إليه مسلمو الباكستان الغربية وهو الهندو - أوربيون أو الهندو - آريون .

جنوب شرق آسيا

وإذ نتابع رحلتنا إلى نهاية هلال الإسلام فى جنوب شرق آسيا، لابد أن نذكر أولا حقيقة أساسية مفتاحية. فهنا لم يأت الإسلام عن طريق القارة أى من الطريق البرى، وإنما بالطريق البحرى جاء. أما لماذا انتهى دورالطريق البرى عند هذا الحد وأعطى مكانه للطريق البحرى، فلعامل جغرافى طبيعى بحت ومقنع

بما فيه الكفاية. فإلى الشرق من الباكستان الشرقية حيث «كوع» الهمالايا الشهير، تتحول السلسلة الجبلية الألبية إلى محور شمالى - جنوبى وتقوم كحائط شاهق عريض شديد الوعورة كثيف بالغابات. وقد كان هذا هو العامل الأساسى الذى فصل الهند حضارياً وتاريخياً إلى حد كبير عن الهند الصينية ووضع حداً لانتشار نفوذها الثقافى والسياسى منذ فجر التاريخ، وهو نفسه الذى أوقف تقدم الإسلام فيما بعد فى هذا الاتجاه، حتى جاء راكباً البحر من الجنوب. وهذا مايفسر انقطاع الإسلام وتفتته المتزايد على القارة بعد أن نغادر الباكستان الشرقية، بل يفسر كذلك لماذا استمدت جزيرة جنوب غرب الصين إسلامها من الشمال الغربى وليس من كتلة الباكستان الشرقية رغم قربهما النسبى.

ولمحور الطريق البحرى قطبان أساسيان: الجنوب العربى، وخاصة حضرموت، كمركز إرسال، وشبه جزيرة الملايو كمركز استقبال وإشعاع. فالملايو هى بؤرة توزيع ومحطة توصيل الإسلام فى كل دائرة الجنوب الشرقى من آسيا. وكما أتى الإسلام إلى الملايو من البحر، فقد تشعع منها وهاجر - والملايون أهل بحر وتجارة - فى كل جنوب شرق القارة بالبحر أساساً. بل إن التركيب الجنسى للمسلمين فى أغلب وحدات جنوب شرق آسيا يتحلل فى النهاية إلى قاعدة من الأهالى المحليين وخميرة نشطة من الملاويين

المهاجرين ! والمحصلة النهائية أن الإسلام هنا إسلام سواحل فى الدرجة الأولى، والجاليات الإسلامية تقتصر على تجمعات ساحلية، خاصة حول مصبات الأنهار والدالات الرئيسية، وقل أن يتوغل فى داخل اليابس .

ولنفصل. جذع الهند الصينية نفسه «انخفاض» إسلامى أو شبه فراغ تقريبا . فليس ثمة فى بورما إلا ٤٪ مسلمون أو نحو المليون إلى المليون ونصف المليون تقريبا . ومثل هذا العدد أو أقل – ٧٠٠ ألف إلى مليون – نلقاه فى تايلاند. غير أننا إذا قلنا الإسلام فى تايلاند فقد قلنا فى أقصى جنوبها المتطرف، أو القطاع الشمالى الدقيق من شبه جزيرة الملايو وليس جذع تايلاند نفسها . فالحقيقة أن إسلام تايلاند يمتاز بالتركيز العنيف شبه المطلق فى هذا القطاع، وهو بهذا ليس إلا امتداداً عبر الحدود السياسية المصطنعة لكتلة الإسلام في الملايو. وبالفعل فقد كانت تلك المنطقة أصلا من ولايات الملايو، كما تخضع اليوم لنفوذها وإشعاعها الدينى خاصة من ولاية كيلانتن الملاصقة .

ولكن قبل أن نعبر إلى الملايو، هناك كمبوديا وفيتنام. فعلى الجانب الآخر من خليج سيام، الذى يمكن عبوره بالشراع فى ساعات، يمتد نفوذ إسلام الملايو على الحافة الجنوبية للهند الصينية ففى كمبوديا أكثر من ١٠٠ ألف مسلم يستقرون عموماً

على الساحل وشواطىء الأنهار، زراعاً وسكان مدن، حول نهر الميكونج وبحيرة تونلى ساب. ويتألف هؤلاء المسلمون من العنصر الملاوى المهاجر الذى أدخل الدين هنا، ومن عنصر التيام Cham المحلى (وهكذا ينطق ولكن هكذا تقليدياً يكتب) الذى تحول على أيديهم فى تاريخ حديث جداً. ومن هؤلاء التيام المسلمين شريحة قزمية تقع عبر الحدود فى فيتنام الجنوبية على الساحل جنوب نها ترانج Nha Trang ولا تزيد على الخمسة آلاف وتعرف بالتيام بانى Cham Bani (هل تعنى بنى الإسلام ؟ - هكذا يتساءل بيير روندو). كذلك تعود الملاوية بجزيرة إسلامية صغيرة أخرى فى منطقة Chaudue إلى الجنوب الغربى من سايجون .

من هذا الإسلام الفسيفسائى نعود إلى الملايو، الكتلة - الأم هنا، لنجد نحواً من ٥.٥ مليون من المسلمين يؤلفون حوالى ٥٥٪ من سكان الملايو البالغين نحو ١٠ ملايين فى عام ١٩٧١. أغلبية، ولكنها ضئيلة بوضوح، ولا تتناسب كما يلوح مع الدور التاريخى الريادى للملايو فى بث الإسلام «وضخه» هنا. غير أن الهجرة الحديثة هى السبب، فقد أغرق طوفان الهجرة الهولندية، ولكن الصينية بالدرجة الأولى، أغرق العنصر الملاوى المسلم فى القرن الأخير. ورغم أن الهجرة الهندية أضافت إلى قوة الإسلام بعض الأعداد، فقد كان الحساب الختامى خاسراً بسبب الهجرة الصينية

السائدة. وحيث تتبلور هذه الهجرة إلى الذروة فى سنغافورة، ينخفض الإسلام إلى أدناه، فلا يزيد على ١٢٪ من المليونين ونيف التى تؤلف سكان الجزيرة. ويتركز الإسلام فى الملايو، مع كثافة السكان العامة، على الساحل الغربى بصفة خاصة .

إندونيسيا هى ثانى أكبر دولة إسلامية فى العالم، وقد سجلت فى عام ١٩٦٥ من السكان ١٠٥ ملايين نسمة، لا شك تعدّت العشرين بعد المائة مليون الآن، الأغلبية الساحقة منها – ٨٠٪ – من المسلمين. أى أن إندونيسيا تضم سواء من السكان أو من المسلمين مثلما يضم العالم العربى بالتقريب. وتكاد جزيرة جاوه وحدها بتعدادها البالغ نحو ٦٥ – ٧٠ مليوناً تكاد تضم من المسلمين على رقعتها التى لاتزيد على ٥١ ألف ميل[٢] مثلما تضم إفريقيا العربية البالغة ٣,١ مليون ميل مربع مساحة! هذا وفى المستعمرات البريطانية السابقة فى بورنيو ـ صباح وسرواك وبرونى من اتحاد ماليزيا حالياً – نحوا من ٩٠٠ ألف مسلم، قل مليوناً. وتحمل حركة التهجير المخططة التى تتبعها إندونيسيا إلى «الجزر الخارجية» المخلخلة السكان، تحمل معها انتشاراً جغرافياً محققاً للإسلام فى الأرخبيل المترامى .

لا يبقى الآن فى جولتنا إلا الفلبين ـ أرض الشمس المشرقة فى العالم الإسلامى!– حيث مسلمى المورو Moros ؛ كما سـماهم

المستعمرون الإسبان على نحو ماعرفوا المسلمين فى إسبانيا والمغرب، والذين حاربوهم بعنف وقاوموهم كما فعلوا هناك أيضاً. ويتراوح تقديرهم بشدة بين المليون (٩٠٠ ألف) وبين الأربعة ملايين! فهم إما جزء من عشرين من سكان الفلبين وإما خمسهم - بحسب المراجع ... وهم بعد هذا يتركزون أكثر مايتركزون في جزيرتى مندناو وسولو، أى فى الجنوب مما يشير إلى أن الاسلام مصدره هنا امتداد لكتلته الأساسية فى الأرخبيل الإندونيسى مثلما يشير إلى أن مصدره إنما هو عن طريق الجسر الجزرى وليس من القارة مباشرة. وبالفعل فإن مسلمى الفلبين يتألفون جنسياً من عنصرين: الملايو المهاجرين الذى جلبوا الإسلام بعد القرن الحادى عشر، وقبائل التاجال الوطنية التى أسلمت على أيديهم فى القرن الرابع عشر .

الفصل الثانى

« نظرية عامة فى مورفولوجية »
« العالم الإسلامى »

هل يمكن أن نضع نظرية عامة عاملة تجمع شتات العالم الإسلامى فى توزيعه الكوكبى، وتستقطب تفاصيله فى معادلة إقليمية محددة؟ لست أقصد تلك النظريات «الإيكولوجية» الشائعة من مثل «الإسلام دين الصحراء» أو «الإسلام دين السهول» دين السهوب والسهول كما قد نجمع بينهما فى تعبير واحد . فمثل هذه العلاقات المفترضة إن لم تتعارض مع الحقائق الواقعة فهى على أحسن تقدير ارتباطات جزئية لا تعدو أنصاف حقائق . إنما المقصود نظرية «كورولوجية» ـ يعنى إقليمية ـ تلخص وتفسر معاً ما يمكن أن نسميه بتعبير جاستون بارديه معالم «الطبوغرافيا الاجتماعية topographie sociale» [١] كما تتباين أو تتشابه داخل هذا الجسم البشرى الهائل الذى هو الإسلام . فى كلمة واحدة ، هدفنا فى هذه الدراسة هو تحديد أقاليم الإسلام الجغرافية ، بالمعنى الواسع للأقاليم الجغرافية أى بأبعادها الطبيعية والبشرية ، التاريخية والدينية .

وليس يكفى لهذا أن نرسم صورة مهما تكن مفصلة لتوزيع وانتشار الإسلام والمسلمين ، إذ لابد بعدها من نظرة كلية أو أحادية تختزل أبعادها وتكثف ملامحها فى قانون مكانى أو شبه قانون ، خفيف الحمل فى الذاكرة مثلما هو سهل التطبيق فى التفاصيل

(١) G. Bardet, L'Urbanisme, Coll. Que Sais-Je?, 1947..

والجزئيات . لابد باختصار من العثور على مفتاح عام -passepart out للعالم الإسلامى يضع أيدينا على دهاليزه ويفتح لنا مغاليقه .

والعالم الإسلامى ـ بداهة ـ ليس منطقة حضارية بالمفهوم الأنثروبولوجى إلا فى معنى ضيق جداً على أكثر تقدير ؛ ولهذا فليس فى نظرية المنطقة الحضارية Kulturkreislehre هذا المفتاح المنشود . غير أن ذلك لا يمنع أن من الممكن أن نعالج العالم الإسلامى كله على غرار إقليم من أقاليم الجغرافيا الحضارية أو الإيكولوجيا البشرية ، أو على نحو ما نعالج أقاليم المدن فى جغرافية المدن أو علم اجتماع المدن ، أعنى كإقليم عقدى nodal كما يسمى [١] ، له قلب وله أطراف ، تتراوح داخله وبينهما الظاهرة المعنية فى درجة تبلورها ومدى كثافتها ونسب حدوثها .

والشىء المهم والجدير بالالتفات فى مثل هذه الدراسات أنه ما دامت الظاهرة قد نشأت وانبثقت فى مركز بؤرى محدد هو القلب ، ثم انتشرت حوله بعيداً أو قريباً ، فمن المنطقى أن تتراتب تلك الملامح والمقاييس ترتيباً منتظماً ، تدريجياً ، تنازلياً ، حتى الأطراف . وهذا التراتب التدريجى يعطينا ما يعرف بالانحدارات الإيكولوجية gradients . وبديهى أن تأخذ هذه الانحدارات شكلا

---

(١) P. James & C. Jones (eds.), American Geography. Inventory & Prospect, 1954, pp. 36-7.

حلقياً تتتابع فيه من القلب إلى الأطراف حلقات متحدة المركز متزايدة الأقطار ، كحلقات الماء تلقى فيه بحجر .

ويديهى كذلك أن الظاهرة المعنية إذا انتشرت من القلب إلى الأطراف على محاور انتخابية محددة ، أكثر منها انتشاراً عالمياً أو غطائياً شاملاً ، فلا مفر من أن يتراكب على هذا النمط الحلقى القاعدى نمط متشعع من المركز ، بحيث تصبح المحصلة النهائية أقرب إلى النظام الحلقى المشع radio-concentric وأشبه فى نسيجها ببيت العنكبوت ، وتتحول الانحدارات المختلفة من نمط حلقى فقط إلى نمط القطاعات الحلقية (١) .

هذا الهيكل النظرى العام الذى نلقاه فى كثير من الظاهرات الاجتماعية والمركبات الحضارية ، وبخاصة داخل وحول المدن، يمكن أن نجده فى أساسياته وتفصيلاته فى العالم الإسلامى، ويمكن فى يسر أن نتبناه مفتاحاً لنظرة أو نظرية عامة فى مورفولوجيته . فلما كان الإسلام قد نشأ فى نقطة معينة ثم انتشر منها فى جميع الجهات إلى أقصى أبعاد العالم القديم ، ولكن على محاور انتخابية وفى خطوط مقاومة دنيا بعينها ، فإن هنا بوضوح

---

(١) E. Bergel, Urban Sociology, McGraw Hill, 1955; G. Ericksen, Urban Behavior, N. Y., 1954; R.E. Dickinson, City Region & Regionalism, Lond., 1947..

قلباً وأطرافاً تتحلق بينها عناصر الإسلام وملامحه بالتدريج الطبيعي في انحدارات يمكن قياسها وعلى محاور وفي قطاعات يمكن تحديدها .

فأما القطاعات فيمكن تحديدها - استاتيكياً - من واقع توزيع وتوقيع الإسلام الراهن ، بالإضافة - ديناميكياً - إلى خطوط ومحاور حركته في تاريخ انتشاره وزحفه . وأما الانحدارات فيمكن التعرف عليها بالحدوث النسبي لعدد من العناصر المختلفة التي تؤلف «مفاتيح» المركب الإسلامي الكامل كما تتبلور وتتكثف كالحزمة في قلب العالم الإسلامي نفسه ، وأعني به العالم العربي الذي هو ينبوع الإسلام ونافورته تاريخياً وجغرافياً . فإذا ما أتيح لنا تحديد هذه المحاور وتلك الانحدارات ، تخلقت لدينا شبكة ملتحمة من القطاعات والحلقات أشبه في أصولها وفي هيئتها بقطاع في جذوع الأشجار الضخمة تتوالى فيه طبقات النمو السنوي للحاء كحلقات واضحة المعالم تتعامد متشععة عليها عروق الألياف أو خيوط النسيج الضام .

غير أننا لا ينبغي أن ننتظر من الإسلام هيكلا مورفولوجياً يحقق هذا النمط النظري تحقيقاً صارماً مثالياً بطبيعة الحال . فمن ناحية يجنح قلب العالم الإسلامي التاريخي إلى أن يقع في غربه أكثر منه في وسطه الجغرافي ، كما أن الإسلام امتد على

محاوره الشرقية ـ الغربية بقوة وانطلاقة أعظم وأرحب منه على محاوره الشمالية ـ الجنوبية . وفى النتيجة فإن الإطار الخارجى العام للعالم الإسلامى أدنى إلى الشكل البيضاوى منه إلى الدائرة المنتظمة ، بل إلى البيضاوى المبتور أو القطع الناقص منه إلى نصف الدائرة . ومن ناحية أخرى فإن محاور تمدد وتشعع الإسلام ليست متصلة بالضرورة تاريخياً ولا هى مطردة جغرافيا ، فكثيراً ما تتقطع فى بعض مراحل أو تتوقف بفعل الفواصل المائية ، وخاصة المحيط الهندى الذى يحتل مساحة كبيرة من وسط العالم الإسلامى . غير أنه بعد كل هذه التحفظات تظل الحقيقة قائمة من أن هيكل الإسلام يشخص بسهولة خطوط وملامح النظرية الحلقية ـ المشعة . ولا يتبقى لنا قبل التطبيق إلا أن نعرض بإيجاز ولكن بغير إخلال لأسس تصنيف شبكة المحاور والحلقات .

محاور إشعاع الإسلام

وتعنينا منها هنا المحاور الأسيّة الأساسية ، ومن المفهوم بعد ذلك أن لكل منها محاور فرعية ثانوية وثالثة تملأ الفراغات البينية وتسد الثغرات الجانبية . كما أن لكل منها أكثر من بؤرة انتشار أو محطة توصيل وضخ خارج الجزيرة العربية ذاتها . فبوجه عام

غطى دور عرب الجزيرة المباشر منطقة العالم العربى فى حدودها الحالية تقريباً ، وبعدها سلموا المشعل فى الغالب الأعم إلى بؤرات ثانوية تولت دفعه إلى آفاق مكانية أبعد . وقد تتعدد هذه البؤرات الثانوية على الطريق ، حتى لتتخذ الحركة فى مجموعها ميكانيكية أشبه بسباق التتابع .

ثمة من هذه المحاور ثمانية تتشعع كتروس العجلة ، وتتفق إلى مدى بعيد مع التوزيع الفعلى لكتل المسلمين الرئيسية فى العالم القديم . وبعض هذه المحاور خدم أكثر من قارة ، وعلى هذا الأســاس نجد منها ٤ محاور تختص بآســيا ، ٣ بإفريقيا ، ٢ بأوربـــــا .



شكل (٣) محاور زحف وإشعاع الاسلام

فالمحور الأول هو المحور النيلى الذى بدأ بمصر ومنها انطلق . فبعد قرنين أو ثلاثة من الهجرة كانت مصر فى مجموعها قد تحولت إلى الإسلام ، وبعد وقفة ليست بالقصيرة أمام النوبة استطالت أحيانا إلى القرن ١٤ اندفع السهم فى السودان النيلى على محور ذى ثلاث شعب يميناً وقلباً ويساراً ، بحيث كان الإسلام قد غطى كل السودان الشمالى فى غضون العصور الوسطى . وإذا كان المد قد توقف جنوباً عند بحر العرب ، فقد استدار مع الشعبة اليسرى نحو الغرب إلى سودان السفانا حتى منطقة بحيرة تشاد ، ليغلق ـ مع المحور الثانى ـ دائرة كاملة من حركة الإسلام التاريخية تتحلق بوضوح حول الصحراء الكبرى وتتبع بأمانة سواحلها وشواطئها .

فهذا المحور الأخير هو الذى انشعب عن الأول فى مصر ، وانطلق غرباً على طول ساحل البحر المتوسط ليغطى كل شمال إفريقيا بالإسلام فى غضون القرن العاشر ، هذا عدا شعبة منه عبرت البحر المتوسط إلى إسبانيا وصقلية ، إلى أن استدار جنوباً مع المحيط الأطلسى على حواف الصحراء الكبرى (القرن ١٠ ـ ١٢) واصلا إلى سفانا السودان الغربى ابتداء من القرن ١١ ـ ١٣ ، ثم متمما دورته عكس عقارب الساعة على طول «شارع» السفانا الرئيسى ليلتقى فى النهاية بصنوه النيلى عند بحيرة تشاد حوالى القرن ١٣ .

وقد استمر استكمال إسلام هذا القطاع حتى القرن ١٦ . وقد خرجت من المحور فروع ثانوية عديدة قطعت الصحراء بالطول والعرض ، ولكن بالطول أساساً مع طرق القوافل ونقط الواحات ، حتى غطت وجه الصحراء الكبرى بإسلام غطائى لا ثغرة فيه ، وإن كانت بعض الرقع المتطوحة السحيقة الموقع والعزلة قد تأخر إسلامه حتى القرن الماضى ، كواحة الكفرة التى استمدت اسمها من هذه الحقيقة التاريخية . كذلك خرجت من المحور روافد عديدة إلى غابة السودان الغربى مازالت تتقدم فيها حتى اليوم [١] .

المحور الثالث ـ وهو الثالث أيضاً والأخير فى إسلام إفريقيا ـ هو محور شرق إفريقيا ابتداء من القرن الإفريقى ـ بل السودان ـ حتى الرأس . ومركز التصدير هنا هو الجنوب العربى البحرى أساساً . فقد عبر عرب الجنوب البحر إلى شرق السودان وانساحوا فيه منذ صدر الإسلام ، وإلى القرن الإفريقى حيث بثوا الإسلام فى شرق الحبشة والصومالات منذ القرن ١٠ ، ثم إلى ساحل الزنج والبنادر دلفوا طوال القرون التالية ، ومنه جنوباً على طول الساحل حتى الزمبيزى ومدغشقر وأرخبيلها . ولم يتقدم

(١) Thomas W. Arnold, The Preaching of Islam, Lond., 1935..

راجع أيضاً : حسن إبراهيم حسن ، إنتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٥٨ ـ ١٦٦ .

المحور جنوباً بعد هذا إلا حديثاً في القرن الماضي على أيدى الهنود المسلمين المهاجرين إلى جنوب إفريقيا ، حيث وصلوا به إلى الرأس(١) .

ومع الهلال الخصيب ـ الشام ـ والعراق ـ الذى تمّ إسلامه فى القرون الثلاثة الأولى من العصر الإسلامي ، ينفتح الطريق إلى المحور الرابع الذى حمل الدعوة ليرتقى بها سقف هضبة إيران الطبيعية برمتها (القرن ٧ ـ ٨) حتى وصل بها على حوائطها الشرقية إلى ممر خيبر (القرن ١٠) . وتلك الفتحة الطبيعية التاريخية الحاسمة تعد بمثابة ترموبيل الهند ، فلم يكن ـ كالقدر ـ مفرّ من أن ينزل معها الإسلام كاسحاً ومغطياً سهول الهند الشمالية ، السند والجانج حتى خليج بنغال شرقاً ومشارف هضبة الدكن جنوباً ، وتم ذلك حتى القرن ١٣ . والمحور فى مجموعه محور مركز مكثف لم يكد يترك ثغرة على الطريق ، ولكنه من الناحية الأخرى لم يرسل فى نهاياته فروعاً ثانوية منكورة سواء شرقاً إلى الهند الصينية أو شمالا إلى التبت ، فهنا وهناك تتعقد التضاريس بشدة أو تتعامد «نواتها» على اتجاه المحور أو تتحول البيئة الطبيعية إلى مناطق طرد بشرى محقق .

---

(١) Pierre Rondot, L'Islam et les Musulmans d'Aujourd'hui, Paris, 1960, t. II, pp. 32 et seq.

ومن أواسط المحور السابق فى إيران كبؤرة ثانوية ، يبدأ المحور الخامس إلى سهول التركستان المترامية شرق بحر قزوين (الخزر حينذاك) ، ليرسم قوساً عظيما عكس عقارب الساعة يلف السهوب لفاً ويطوى ما وراء النهرين ، منتهياً شمال البحر وغربه إلى الفولجا وتخوم البحر الأسود . تلك الانطلاقة هى فى واقع الأمر التى جعلت من وسط آسيا مشتلا من مشاتل الإسلام المبكرة والرائعة التى ارتبطت وثيقاً بحضارة المشرق العربى فى أوج عصرها الإسلامى . وقد وصل الإسلام إلى ماوراء النهرين واستقر فى القرن ٨ ـ ١٠ ، ولكنه لم يكتمل نهائياً إلا حتى القرن ١٣ . وإذا كان هذا المحور هو ثانى محاور انتشار الإسلام فى آسيا ، إلا أنه باستدارته غرباً أصبح أيضاً محوراً من محاور دخوله إلى أوربا .

ومن العقدة السابقة التى خرج منها محور التركستان ، خرج المحور الصينى . والواقع أن حوالى «عقدة البامير» الطبيعية ثمة عقدة إسلامية تاريخية حقيقية خرجت منها المحاور الثلاثة إلى الهند والصين والتركستان ، عدا محوراً رابعاً غرباً إلى تركيا . فمن القرن ١٣ بصفة جدية ـ وقبله بكثير فى الحقيقة بصورة عابرة ـ بدأ الإسلام مع التجار العرب والفرس ، ومع الجنود أيضاً ، يصعد ذرى قلب آسيا الجبلية الهضبية فى طريقه إلى عالم الصين . وإذا كان هذا المحور يرتبط جملة بالتركستان الصينية (حوض سينكيانج)

فقد انشعب تفصيلا إلى شعبتين تحفان بهامشيه : شمالا حيث الممرات الطبيعية الرئيسية خاصة ممر زونجاريا ؛ وجنوباً حيث عقود الواحات النظيمة خاصة طورفان ، وحيث طرق التجارة التقليدية التاريخية لا سيما «طريق الحرير» (١) .

ثم تعود الشعبتان فتلتحمان في النهاية لتدخلا الصين فى شمالها الغربى فى القرن ١٢ تقريباً ، ومنها يبدأ مركز توزيع ثانوى على شكل زاوية قائمة : شرقا إلى شمال الصين ، وجنوباً إلى جنوبها الغربى . ومن الشعبة الأولى تسرب الإسلام قليلا إلى منشوريا ، ومن الجنوبية انساب قليلا كذلك إلى أقصى شمال الهند الصينية فى بورما . ويمكن أن يؤرخ لانتشار الإسلام الحقيقى فى الصين بين القرنين ١٣ ـ ١٦ ، وحتى بعدها ظل بصفة ثانوية .

لا يبقى لنا الآن على اليابس إلا محور واحد وأخير هو المحور التركي ، الذى بدأ من عقدة وسط آسيا بصفة عامة ، وأخذ مساراً عكسياً مضاداً لمسار المحور الإيرانى الهندى ، فاتجه غرباً عبر إيران إلى الأناضول حيث تم إسلامها منذ القرن ١٣ ، وبعدها قفز إلى البر الأوربى لينقل الإسلام إلى البلقان حتى الدانوب ما بين القرنين ١٤ ، ١٧ . وإذا كان هذا المحور أسيوياً فى أصله فهو

(1) S.A.S. Huzayyin, Arabia & the Far East, Cairo, 1942, PP. 266-269.

أوربى بأثره ، بل هو أهم المحاور الثلاثة التى غزا الإسلام عليها أوربا وكان أشدها توغلاً فيها .

ثمة ثامناً وأخيراً محور بحرى يترك اليابس إلى المحيط ليقفز بالإسلام قفزة واسعة عبر المحيط الهندى إلى عالم الجزر وأشباه الجزر فى جنوب شرق آسيا . جنوب الجزيرة العربية ، مرة أخرى ، هو بؤرة التوزيع . فمن هذه البيئة الصحراوية الجبلية الطاردة الملاّحة ، خرج بحارة وتجار العرب والإسلام على الطريق المائى التاريخى ، طريق البهار كما قد نسميه ، حيث تركوا خميرته فى جنوب الهند وسيلون (القرن ٨) كمرحلة على الطريق ، ولكن دون أن يتوغل فى الأولى بما يكفى ليقابل محور إسلام الهند الشمالى ، ثم فى الملايو وإندونسيا كنهاية المطاف حيث استقر الإسلام بقوة ونشاط منذ القرن ١٣ ، وبعامة من القرن ١٢ ـ ١٥ [١] .

غير أن ملتقى الملايو وإندونيسيا كان بدوره بؤرة توزيع ثانوية ، خرج منها الإسلام مع أبنائها ، وهم أيضاً أهل بحر وتجارة ، ليتشعع كأصابع اليد إلى جنوب الهند الصينية والفلبين ، فدخل الأولى فى تاريخ متأخر نسبياً ، والثانية فى القرن ١٤ . كذلك وصل الإشعاع إلى ساحل الصين الجنوبى ، أولا على أيدى التجار العرب

---

(١) W. Gordon East, Geography Behind History, Lond., 1948, pp. 180 ff.

أنفسهم منذ وقت مبكر ، ثم على أيدى التجار الملاويين فى العصور الوسطى . ولكن هذا اللسان ظل ثانوياً جداً بحيث لا يمكن أن نتكلم إلا عن مدخل واحد للإسلام إلى الصين هو المحور البرى ، بينما ـ للمقارنة ـ تمتاز الهند نسبياً بمدخلين : براً فى الشمال وبحراً فى الجنوب .

أسس تصنيف الانحدارات الحلقية

لننتقل الآن إلى الأبعاد والانحدارات الدائرية فى توزيع الإسلام، كيما نحلل الأسس التى يمكن تبنيها فى التمييز بين حلقاته المختلفة التى تترى من قلبه حتى أطرافه . من هذه يمكن أن نحصر خمسة عناصر أساسية هي على الترتيب : عمر الإسلام ، كثافته ، نوعيته ، نسبة العرب ، نسبة العربية . وإذا كان العنصران الأخيران مشتقين أصلا من القلب التاريخى للعالم الإسلامى وهو العالم العربى ، فليس المقصود هنا قياس «معامل العروبة» ، كما قد نقول ، فى أنحاء العالم الإسلامى ، وأبعد منه يقينا أن نفرض أو نفترض هيراركية وطباقية داخله . المقصود فقط قياس عنصر أو بعد يتباين جغرافياً ما بين أجزاء العالم الإسلامى بصورة تزيد ملامحها ومعالمها المحلية وضوحاً وتبلوراً .

فأما عمر الإسلام فنعنى به مدى القدم أو الحداثة ، أى تاريخ دخول أو وصول الإسلام فى كل منطقة . وبطبيعة الحال فإن القاعدة العامة هى الحداثة المطردة كلما بعدنا عن القلب واقتربنا من الأطراف ، بحيث يمكن أن نميز زمنيا وبصورة عامة بين «الإسلام القديم» قرب القلب وبين «الإسلام الحديث» قرب الأطراف [1] . ولكن العلاقة بعد هذا لا يمكن أن تكون مطردة بصرامة وبهذه السهولة والآلية الصماء ، فهى علاقة معقدة تتحدد بتفاعل طرفين لا طرف واحد : القوة والمقاومة : قوة اندفاع الإسلام ، ومقاومة الظروف الطبيعية والملابسات التاريخية . ولسنا نستطيع لهذا أن نقول - مثلا - إن الإسلام كان يقطع كذا ميلا فى كل قرن . ولكن تظل القاعدة العامة سليمة فى جوهرها كما تدل التواريخ الفعلية لدخول أو انتشار الإسلام التى عرضنا لها فى دراسة محاور إشعاعه وتوسعه .

هناك بعد هذا من أسس التباين فى العالم الإسلامى كثافة الإسلام الحالية ، أى نسبة حدوثه إن أغلبية وإن أقلية . ويمكن فى هذا أن نقول - مع لوش - إن كثافة الإسلام أو قوته النسبية تقل بالتدريج ، ولكن ليس بصفة مطردة بصرامة دائماً بطبيعة الحال ،

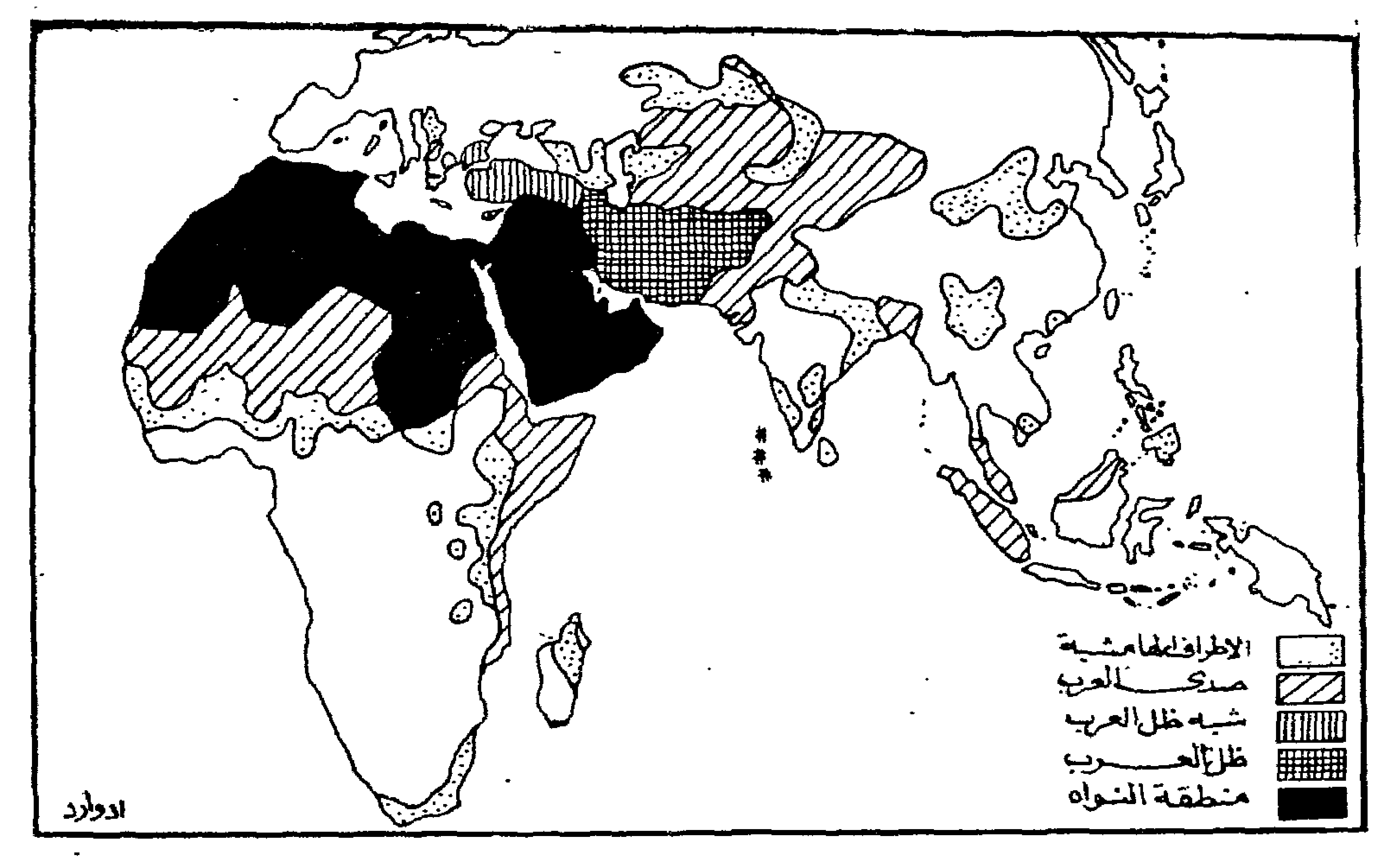
---

(١) Rondot, op. cit., t. II, P. 185..

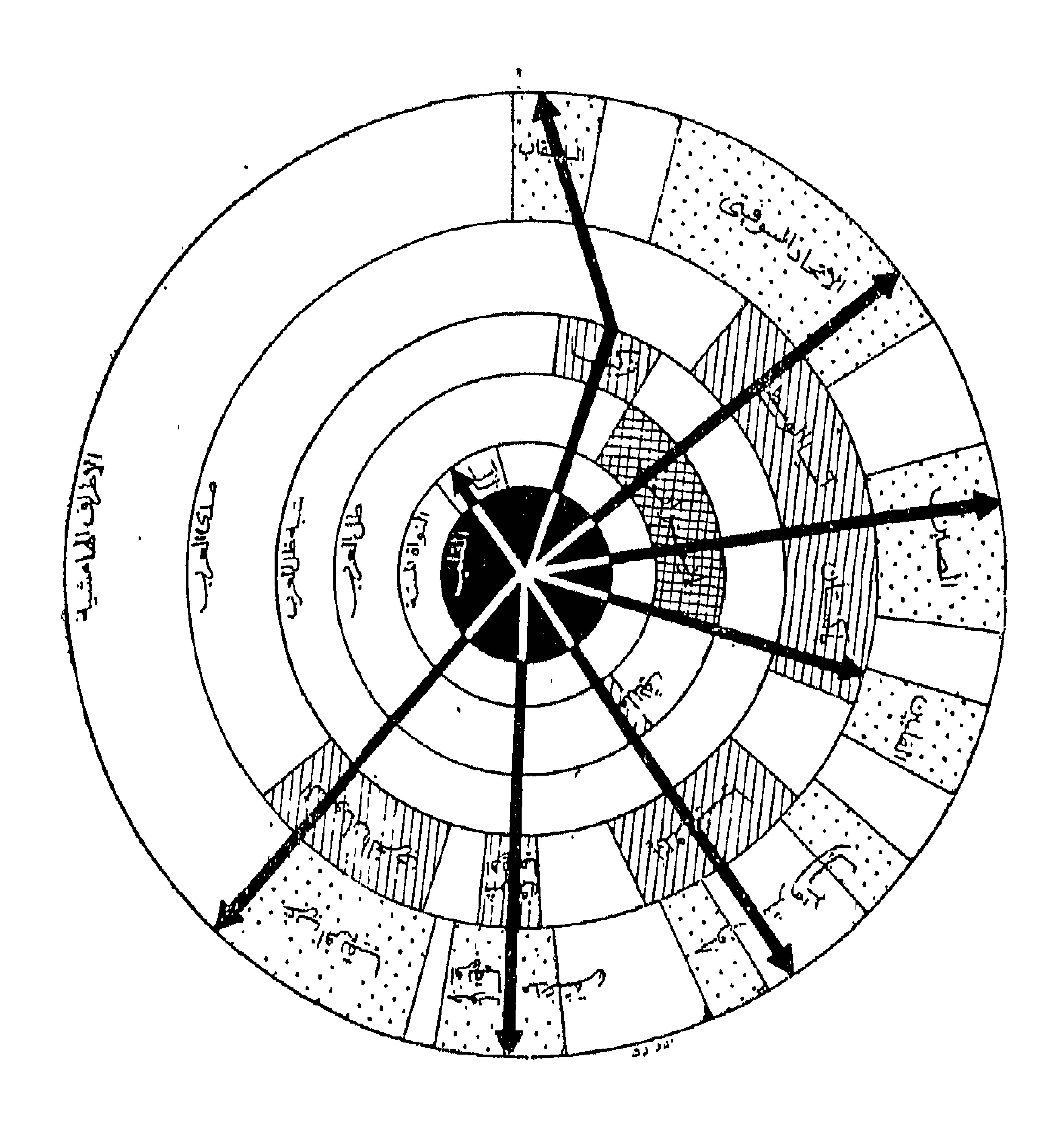
كلما بعدنا عن كعبة الإسلام ، إلى حد ما مثلما تفعل الكاثوليكية فى أوربا كلما بعدت عن روما (١) . وهكذا نجد أن الإسلام يتحول من أغلبيات مطلقة أو ساحقة حوالى القلب ، إلى أقليات كبيرة ثم إلى أقليات ضئيلة فى نويات متقطعة مغروسة فى وسط أغلبيات غير إسلامية وذلك على نهايات وأطراف العالم الإسلامى . وكثيراً ما تجنح هذه النويات إلى أن تأخذ طبيعة مدنية أكثر منها ريفية . وعلى العكس من هذا القلب ، فهو وإن كان لا يخلو من أقليات ضعيفة من الأديان الأخرى ، إلا أنها تبدو كجيوب صغيرة منعزلة متباعدة ، كما تميل بدورها غالبا إلى أن تستقطب فى المدن أكثر منها فى الريف العريض .

---

(١) August Losch, Economics of Location(trans.), New Havan, 1954, p. 213..



(شكل٤) أقاليم العالم الاسلامي الجغرافي هناك ٥ درجات من اجتماع وتكاثف عناصر المركب الإسلامي. قارن هذا التوزيع الفعلي بالهيكل النظري المقابل



(شكل ٥) ـ الهيكل النظرى التجريدى لمورفولوجية العالم الإسلامى النظام حلقى مشع يتحول إلى قطاعات حلقية . قارن بخريطة التوزيع الفعلى المقابلة .

الأساس الثالث يمكن أن يكون نوعية الإسلام ، بمعنى درجة نقاوته وقوامته ، أو تخليطه وتحريفه ، كما يعنى هذا أيضاً اتجاه حركته إن توسعاً وانتشاراً ، جموداً وثباتاً ، أو تراجعاً وتناقصاً . وهنا أيضاً نجد أن الحركة من القلب إلى الأطراف هى انحدار من الموجب إلى السالب بصفة عامة . فالأشكال النقية المتطورة المتماسكة من الإسلام أكمل ما تكون فى القلب وقربه ، بينما تزداد الابتعادات والتحريفات وتتداخله الشوائب كلما اقتربنا من الأطراف نظراً لبعدها المكانى وحداثة دخولها فى الدين زمنياً . كذلك فإن الأطراف وحدها هى التى تخبر نبضاً شديداً فى مصير الإسلام إما بالتوسع أو بالانكماش .

أساس رابع يمكن أن نجده فى نسبه حدوث العرب حملة الدين وسدنته الأصلاء وسندته بالضرورة التاريخية . حقاً إن عملية نشر الإسلام لم تقتصر على العرب منذ البداية ، وإنما كانت أقرب كما رأينا إلى سباق التتابع ، فيها سلّم العرب المشعل بعد مدى معين إلى عناصر أخرى قامت بدفعه إلى آماد أبعد ، إلى أن سلمته بدورها إلى من بعدها ، وهكذا . ومع ذلك فالملاحظ أن حملة الإسلام من العرب وصلوا فى مراحل مختلفة إلى أبعد آفاق الإسلام ، وإن يكن بنسب تقل باطراد كلما بعدنا عن القلب . من هنا نجد اليوم جاليات عربية مبثوثة كالجزر فى تضاعيف العناصر الإسلامية

الأخرى ، أو على الأقل قد تركت طابعها واضحاً إذا كانت قد ذابت جنسياً وانصهرت فى خضمّها .

والعربية ـ اللغة أعنى ـ عنصر أكثر ارتباطا وأشد التصاقاً بالإسلام من العرب أنفسهم . فكلغة القرآن ، تكاد العربية مع الإسلام أن تكوّن مجمّعاً لا انفصام له كجلمود الأسمنت conglom-erate . فالعربية خارج العالم العربى ضرورة إسلامية إلى حد ما ، إن لم تظهر على نطاق جماهيرى فى لغة العبادة فعلى نطاق العلم الدينى تظهر ؛ وإن لم تنتشر مفرداتها فى اللغات الإسلامية الأخرى بدرجة أو بأخرى ، فقد تستأثر بشكل الكتابة . فهى إذن فى أغلب الحالات اللغة الدينية liurgical بين جمهرة المسلمين ، وفى أضعف الحالات اللغة المشتركة lingua franca بين مثقفى الإسلام . ومن هنا نجد دولا إسلامية استعارت شكل الكتابة العربية أو ألفاظاً من اللغة العربية أو كليهما معاً . ويمكن لهذا كله أن يكون أساساً آخر فى تصنيف قطاعات وأقاليم العالم الإسلامى . وكما ينتظر ، فإن نسب حدوثه تقل من القلب إلى الأطراف باطراد يكاد يمكن أن نحدد انحداراته إحصائياً .

تلك إذن هى العناصر الأساسية المشتركة ، ولكن المتغيرة تغيرا منطقياً ، داخل العالم الإسلامى . فإذا نحن طبقنا هذه الأسس الخمسة كمركب يحدد لنا المعالم الدقيقة ـ التضاريس البشرية ـ

للعالم الإسلامى ، لأمكننا أن نتعرف على حلقات ست متتابعة من الداخل إلى الخارج ، ولو أن أحداً منها باستثناء النواة يندر أن يكون دائرياً مكتملا ، بل يغلب أن يقتصر على قطاع أو أكثر هنا وهناك ، وذلك بحسب محاور انتشار وحدوث الإسلام نفسه .

إنها - هذه الحلقات أو القطاعات الحلقية - هى الأقاليم الطبيعية والبشرية والتاريخية فى العالم الإسلامى . ويمكن أن نحدد تسميتها بمدى اكتمال ذلك المركب من الأسس فيها ، أو بمعنى آخر غير مباشر بمدى الأثر العربى فيها . فمن «القلب أو منطقة النواة»، وهى العالم العربى ، ننتقل تباعاً إلى «ظل العرب» إلى «شبه الظل» إلى «صدى العرب» وأخيراً إلى «أطراف الإسلام» القصوى . وفى الجزء التالى نثير مناقشتنا بالتفصيل حول خصائص كل من هذه الأقاليم أو الحلقات فى ضوء النظرية العامة التى قدمنا .

والفكرة الأساسية التى تقوم عليها هذه الأقاليم هى ببساطة أن نصيبها من اجتماع هذه الأسس الخمسة يقل بالتدريج كلما ابتعدنا عن القلب واقتربنا من الأطراف . ففى منطقة القلب تجتمع كلها على أعلى مستوياتها ، فنجد أطول تاريخ للإسلام وأعلى كثافة أو نوعية ، فضلا عن أعلى نسبة للعرب والعربية . وفى منطقة الظل نجد الإسلام كثيفاً متطوراً كذلك ، ولكن تاريخه أحدث قليلا ، كما يختفى العرب إلا كجاليات ضئيلة ، ولكن تكثر مؤثرات اللغة العربية

سواء فى شكل الكتابة أو فى ألفاظ اللغة بنسبة كبيرة . وفى منطقة شبه الظل يزداد تاريخ دخول الإسلام حداثة ويختفى شكل الكتابة العربية . أما فى منطقة الصدى فإن تاريخ الإسلام أحدث وأحدث ، كما تختفى مؤثرات العربية كلية سواء من شكل أو ألفاظ . حتى إذا ما وصلنا إلى أطراف الإسلام وجدنا الإسلام نفسه أقلية عددية وحديث العهد للغاية ، كما يختفى الأثر العربى تماماً جنساً أو لغة .

الحلقة الأولى : منطقة القلب والنواة

لئن كان الإسلام قد انبثق من الحجاز كنواة نووية ، فإنه سرعان ما حول العالم العربى برمته إلى نواة له كبرى وإلى قلب نابض وبؤرة مشعة بكل ما فى ذلك من معنى ، ولم يلبث أن تحول العالم العربى إلى بلاد العرب الكبرى Greater Arabia ، بمثل ما تحولت جزيرة العرب نفسها إلى دار الإسلام بعامة وقبلة المسلمين جميعاً . وينبغى أن نميز هنا بين الفتح والإسلام والتعريب ـ على هذا الترتيب .

فأما الفتح فكان موجة مدية كاسحة نادرة المثال فى التاريخ جميعاً . ففى غضون القرن ٨ ، ولما يكن قد مضى قرن على مولد

الإسلام ، كان عرب الجزيرة قد غطوا رقعة العالم العربى من محيطه إلى خليجه . ولا شك أن توسط موقع الجزيرة العربية من ناحية ـ والله أعلم حيث يضع رسالته ـ وطبيعة العرب الرعاة الرحل كعنصر حركى للغاية mobile شديد السيولة كرمال الصحراء نفسها من ناحية أخرى ، إلى جانب التجانس النسبى الكبير فى البيئة الطبيعية الصحراوية بين الموطن والمهجر مما كفل وحدة الوسط والوسيط ، الرمال والجمال ، لاشك أنها جميعاً مما يفسر هذا الزحف التاريخى والبطولى .

ورغم أن عملية التحول إلى الإسلام بدأت مع الفتح إلا أنها كانت نسبياً أثقل خطى بطبيعة الحال . على أنه فى غضون قرنين أو ثلاثة كان الإسلام قد أزاغ بالفعل وإلى مدى بعيد كل الغطاءات الدينية الأسبق التى ، على العكس منها خارج منطقة القلب ، كانت توحيدية فى معظمها ، وكادت العقائد غير السماوية تكون قد انقرضت منها من قبل طويلا . وإذا كانت هناك جيوب قد صمدت طويلا وتأخر إسلامها بعض الشىء ، فهى محلية ، قليلة ، ومتطرفة أساساً ، كجزيرة النوبة وواحة الكفرة ، ولكنها لم تلبث أن استسلمت أو أسلمت فى أخريات العصور الوسطى .

ومن هنا فالقاعدة العامة ، أولا ، هى أن الإسلام ها هنا إسلام قديم جداً بل أقدم ما فى العالم الإسلامى ، وهو أمر منطقى فى

منطقة القلب والنواة . وثانياً ، فإن نسبة الإسلام هنا بعامة من أعلى ما فى العالم الإسلامى ، وإن كانت هناك أجزاء منه تقل فى ذلك عن أجزاء خارجه واليوم لا تزيد الأقليات المتبقية على جيوب مسيحية أساساً توجد فى المشرق فى قلاع الشام الجبلية أو فى صعيد مصر العميق ، وعلى أسافين أشد ضآلة من اليهودية توجد فى المغرب العربى ، والكل لا يعدو معاً بضعة ملايين معدودة .

أما عن التعريب فقد كان بدوره وبطبيعته أبطأ وأثقل خطوة من عملية الإسلام ، لأن تغيير القلب أسرع من تغيير اللسان ، ومن ثم تطلب قروناً عدة أخرى حتى صرعت العربية شتيت اللغات السابقة سامية وحامية وغير ذلك . ولكن هنا أيضاً تخلفت جيوب وجزر لغوية، اعتصمت غالباً بمناطق العزلة والالتجاء فى الأطراف والهوامش القصية أو الجبال والجزر والواحات المتطوحة ، كالأكراد فى أقصى الشرق والبربر فى أقصى الغرب . وكما أن الإسلام لم يزل يكسب حتى يومنا هذا بعض عناصر الأقليات الدينية المختلفة، فإن العربية أيضاً لا تزال مشتبكة فى صراع أخير وناجح ومحتوم المصير مع الأقليات اللغوية التى هى من قبل وبلا استثناء مزدوجة اللسان تجمع بين لسانها والعربية كمرحلة انتقالية نحو التعريب المطلق .

غير أن هذا لا يعطى سنداً أى سند للتخريجات السقيمة التى

يطلقها البعض أحياناً من أن العربية بهذا ليست إلا لغة مشتركة lingua franca فى العالم العربى ، وإن كان من الصحيح أن أغلب العالم العربى هم لغوياً من المستعربين لا من العرب أصلا . بل من تلك الأقليات اللغوية من لعب دوراً خطيراً فى تاريخ الإسلام ، ففى المغرب كان البربر من أكبر حملة ونشرة الدين شمالا فى الأندلس وجنوباً فى الصحراء والسودان ، وفى الشرق كان للأكراد ـ تذكر صلاح الدين ـ شرف الدفاع عن الإسلام ضد المغول .

هذا ويمكن بوجه عام أن نقول إن نسبة الإسلام فى العالم العربى أعلى من نسبة العروبة ، فبينما لا تزيد الأقليات الدينية على ٣,٥ ـ ٤ ملايين تقريباً ، تصل الأقليات اللغوية إلى نحو ٨,٥ ـ ٩ ملايين (هذه الأرقام لا تشمل جنوب السودان) . كذلك فإذا كانت الأقليات الدينية أبرز وجوداً ووزناً فى المشرق العربى من الأقليات اللغوية ، فإن العكس صحيح فى المغرب العربى حيث الإسلام عالمى تقريباً بينما تتحدد الأقليات فى الناحية اللغوية .

ويبقى بعد هذا الجانب الجنسى أو العرقى . الثابت علمياً أن أغلبية سكان العالم العربى هم من أصل أنثروبولوجى متشابه أو متقارب جداً ، على الأقل فى الأبعاد التأريخية السحيقة ، أى فى الأصول العليا الأولى ؛ وما الفروق التالية إلا من فعل التخصص الإقليمى والتوطن المحلى . فهم أبناء عمومة عريضة باعدت بينهم الجغرافيا والتاريخ بالتدريج ، إلى أن كان المد العربى الإسلامى .

هنا ، ومن قلب الجزيرة (وهى تاريخياً خزان بشرى مثالى) ، وبفعل الصحراء الطاردة (وهى كما قيل «ولودة») ، تدفّق العرب وتواترت بطونهم وقبائلهم وجيوشهم طوال العصر الإسلامى بأعداد كبيرة وفعالة متلاحقة أكثر مما يتصور الكثيرون ، تدفقت لتنساح وتستقر فى كل أقطار المنطقة ، حتى انتهت إلى التزاوج والمصاهرة مع أبنائها الأصليين ، وأصبح التعريب إلى حد ما جنسياً مثلما كان لغوياً . وسواء قلنا تعريباً بالدم ، أو امتصاصاً للعرب فى دماء الأقطار المفتوحة ، فالنتيجة واحدة بحكم وحدة الأصل والجنس منذ البداية . إنه زواج أقارب ـ بعيدين ربما ـ فى التحليل الأخير .

كذلك فقد امتاز العصر العربى الإسلامى فى المنطقة ـ بسيولته البشرية وحركته البدوية ـ بهجرات وموجات سكانية متبادلة ومتقاطعة ومتداخلة بين أقاليم المنطقة كلها مشرقها ومغربها ، مما جعل العالم العربى أشبه بدوار كبير للعرب ، ومما ضاعف من عملية «التجنيس» العرقى التى أعطاها العرب الدفعة الأولى . والعملية كلها بذلك أشبه شىء بعملية «خض» أعادت تقليب سكان القلب جميعاً لتصهرهم من جديد فى بوتقة جنسية واحدة . وليس معنى هذا أن التعريب أو التخليط عرقياً عملية مطلقة تشمل كل خلايا الجسم الكبير ؛ معناه فقط أن من الصعب جداً الفصل الدقيق علمياً بين الطرفين . والصورة النهائية بعامة هى أن العالم العربى قد أصبح

نسبياً من أكثر مناطق العالم الإسلامى تجانساً فى العرق ، بمثل ما أنه أشدها تداخلا بين فكرتى العروبة والإسلام .

وتأسيساً على ذلك كله ، فإن نوعية الإسلام فى العالم العربى تصل إلى قمة تفاوتها وقوامتها ، فليس هناك تحريفات عقائدية أو رواسب من أى نوع . إن العالم العربى قلب وقلعة للإسلام معاً . وهو بحكم اللغة والتاريخ الوصى الشرعى والطبيعى على العقيدة وإليه آلت بالضرورة وظيفة الحفاظ عليها وخدمتها . العالم العربى بالضرورة «مدرسة» الإسلام الكبيرة، «ومعهد دينى» ضخم للعالم الإسلامى جميعاً. ولا طبقية ولا عنصرية فى هذا، فما نعنى بالقطع أن العرب سادة الإسلام، وإنما نعنى فقط أنهم سدنته .

ومن هنا لم يكن مفر من أن تكتسب المنطقة منذ البداية وزناً خاصاً وهيبة تاريخية وربما سياسية، وأن تمثل شخصية مشعة فى كل العالم الإسلامى، ولكن ذلك أيضاً مسئولية خطيرة تستدعى وعياً وعملا جادا دائبا. ولعل أوضح مجال لهذه المسئولية الخطيرة أن تكون الحلقات الهامشية القصوى من العالم الإسلامى، تلك التى مازال الإسلام فيها كما وكيفا فى حاجة إلى دفع وحضانة. ولعل السياسة الحالية التى يتبعها العالم العربى، خاصة مصر الثورة، فى نشاطات الدعوى التبشيرية فى آسيا وإفريقيا تؤشر بالفعل فى هذا الاتجاه .

ولكن العالم العربى من الناحية الأخرى، لا يخلو، ولم يكن بُدّ من ألا يخلو، من فرق إسلامية عديدة تراكمت عبر العصر الإسلامى أو بالأحرى تجرثمت فى بداياته، ولكنها تحجرت فى نهاياته. فكمهد العقيدة، لم يكن مفر من أن تتحول المنطقة إلى خلية عارمة بالفكر الدينى وإلى معمل تجارب مذهبية، غذتها أو غزتها السياسة ومصالح الحكم أو نعرات الشعوبية، ولكن هذه العوامل الأخيرة لم تلبث أن فقدت سياقها التاريخى فى الوقت الذى تجمدت تلك حتى آلت إلينا إرثا يثير المشاكل مثلما يثير التساؤل. غير أن النقطة الهامة ألا نبالغ ـ مع الاستعمار [١] ومستشرقيه ـ فى تضخيم هذه الفرق والمذاهب.

فإذا نحن وضعناها فى حجمها الطبيعى فلن تزيد عددياً عن أقلية ضئيلة للغاية قوامها بضعة ملايين (٥-٦، ربما، من أكثر من مائة مليون). وإذا ماردد‌ناها إلى مواطنها فلن تعدو أن تكون فلولا ميكروسكوبية ممزقة لجأت إلى مناطق العزلة الجبلية والأطراف الهامشية. كذاك نجد الشيعة الاسماعيلية والعلوية والمتاولة والدروز فى الشام، والاثنا عشرية فى جنوب العراق، والزيدية فى جبال اليمن. وكذاك نجد الإباضية بثوراً علي هوامش العالم العربى في عمان وفى جزر ساحل تونس وبعض واحات جنوب الجزائر. وفضلا

(1) W.B. Fisher, The Middle East, Lond.,1950, PP. 108. 112..

عن ذلك كله، فليس صحيحاً البتة ما يصوره الاستعمار من أن هذه الفرق هى «أقليات» دينية وأنها تمثل طائفية دينية بالمعنى السياسى المفهوم، فهى جزء لا يتجزأ من المحيط الإسلامى ولاء ونشاطاً، جهاداًواجتهادا (١) .

الحلقة الثانية : النواة الميتة

ويمكن أن تعد جزءاً من الحلقة الأولى، غير أنها لم يعد لها وجود، وربما دعوناها لهذا بالنواة الميتة. وبها نعنى امتداد العالم العربى فى العصور الوسطى عبر البحر المتوسط إلى أسبانيا وصقلية. فقد كان الجزء الأكبر من أيبريا، باستثناء القلاع الجبلية فى الشمال، أو بتحديد أدق، أيبريا فى حدود خط زراعة الزيتون كما يقرر الإدريسى فى ملاحظة ثاقبة (٢) ، جزءاً لا يتجزأ من العالم العربى ومركزاً من ألمع مراكز الإسلام والعروبة. كان المغرب الأوربى أو المغرب الثانى كما قالت العرب .

---

(1) Rondot, t. I., PP. 176 - 184, P. Birot & J. Dresch, La Mediterranée et le Moyen-Orient, t. II, Paris, 1956, PP 300-303.
(2) W.Gordon East, An Historical Geography of Europe, Lond. 1950, P. 202..

ورغم أن الأساس القاعدى فى السكان هنا كان إسبانياً، إلا أن الهجرة أضافت عنصراً عربياً وبربرياً متعرباً كبير الوزن، كما أن التعريب قطع شوطا بعيداً بين الوطنيين أنفسهم، وتحولت الأندلس إلى بوتقة حقيقية للاختلاط الجنسى حتى نشأت منهم فئات مختلطة متنوعة كالموريسكيين والمدجنين والمستعربين Mozarabe والمور Morerias وغيرهم، بينما سجل الإسلام انتشاراً أوسع وأوسع. ويقدر البعض أن أسبانيا الإسلامية ضمت فى وقت ما نحواً من ٣٠ مليوناً ، المسلمون منهم نسبة ليست بالصغيرة (١) .

غير أن هذا الوجود الإسلامى - العربى زال كله فى النهاية بعد أن ظل يتراجع فى خط متأرجح على عدة مراحل تمثل توازنات الصراع وفترات المد والجزر بين الإسلام والمسيحية فى حرب الاسترداد Reconquista . وفى يوم وليلة كان «الخروج» العربى حيث طرد ملايين من المسلمين ـ عدا من قتل - عادوا إلى شمال إفريقيا (الأندلسى)، وأصبحت الأندلس فردوس العرب المفقود .

غير أن الأثر الإسلامى العربى فى إسبانيا لا يمحى سواء فى اللاندسكيب الطبيعي والحضارى أو فى الدم أو على اللسان. فعدا الأثر الجنسى الذى يبدو بوضوح فى وجوه سكان الجنوب بل وتقاليدهم حتى اليوم، وعدا الآلاف العربية من أسماء الأماكن

(1) Philip Hitti, The Arabs, Lond., 1948..

والمواقع الجغرافية الراهنة، تضم الإسبانية إلى يومنا هذا نسبة ضخمة من الكلمات العربية، يقدرها البعض بنحو ٦ آلاف كلمة، أو ما يعادل ١٢.٧٪ من مجموع القاموس الإسباني المعاصر. ويمكننا أن ندرك أهمية هذه التأثيرات العربية الإسلامية إذا تذكرنا أن الإسبانية قدر لها بعد ذلك أن تنتشر انتشاراً ضخماً فى أمريكا اللاتينية .

الحلقة الثالثة : ظل العرب

وننتقل بعد هذا إلى الحلقة الثالثة، وهى أشد نطاقات الإسلام التصاقاً بالنواة العربية وأبعدها تداخلا فى تاريخها وتأثراً بها. وتمثل إيران وأفغانستان هذه الحلقة اليوم، ولكنها كانت حتى الأمس القريب تتسع لتشمل تركيا الأناضولية، التى تنزلق اليوم إلى الحلقة الرابعة : وقد دخل الإسلام هنا منذ وقت مبكر، فى القرنين ٧ و ٨ الميلادى، حيث قضى على الديانات الوثنية المحلية القديمة من مجوسية وعبدة نار وزرادشتية ومانيكية ونسطورية، وحيث انتظم السواد الأعظم من السكان بل وإلى درجة تزيد اليوم على ماتعرفه أغلب الدول العربية. غير أن الشعوبية، التى لعبت هنا دوراً خطيراً ومزمنا بين الموالى على أساس النعرات التاريخية والحضارية وربما

العنصرية السابقة، قد خلقت منذ وقت مبكر نوعاً من الصراع ربما كان من ثمرته ظهور أو توطيد الاتجاهات الشيعية بقوة. وتعد إيران اليوم المركز الرئيسى للشيعة الاثنا عشرية فى العالم الإسلامى .

وكما قلنا : فإن التفاعل الحضارى بين النواة العربية وبين العالم الفارسى وصل إلى مدى بعيد جداً انعكس، من بين ماانعكس، على اللغة. فقد تقدم التعريب بخطوات مثيرة في فارس حتى أوشكت العربية أن تقهر الفارسية الآرية، وأن تحل محلها كما فعلت من قبل بالآرامية فى الهلال الخصيب والقبطية فى مصر والبربرية فى المغرب إلخ. وبها ساهم كثير من الفرس فى التراث الإسلامى العربى الكبير. ولو قد تم هذا لكانت إيران اليوم عربية وجزءاً من العالم العربى. غير أنه لم يقدر للعربية، ـ بسبب فترات الضعف السياسى التى تلت ـ أن تصل إلى هذا المدى.

ولكن العربية بالمقابل، تركت فى فارسية اليوم نحواً من ٦٠٪ من مفردات الدراسات الإسلامية، وحوالى ٣٠٪ من مفردات اللغة العادية بعامة [(١)] . وفضلا عن هذا فإن الكتابة الفارسية استعارت الشكل العربى منذ البداية. ولا نرانا لهذا كله مغالين إذا قلنا إن إيران وأفغان بهذا بلاد «ثلث عربية»، وتقع بهذا فى الإسلام على أقرب درجات النسب مع النواة العربية، ويصح لنا إذن أن نصفها بجدارة «بظل العرب» .

---

(١) أحمد شلبى، «اللغة العربية فى آسيا وإفريقيا»، المجلة، يونيو ١٩٦٦، ص ٧٤.

يضاف إلى هذا وذاك أيضاً الالتحام الجنسى ففى دولة إيران الحالية شريحة من العروبة الأصيلة لا تقل عن ثلاثة ملايين فى منطقة عربستان - لاحظ الاسم - والتى قلبتها البهلوية إلى خوزستان. كما أن الأجزاء الجبلية من شمال إيران والمتاخمة للعراق الأعلى كانت تعرف طوال العصور الوسطى «بالعراق العجمى»، تأكيداً للطابع العربى الشديد الذى دمغها بالاحتكاك والتفاعل. وبالمقابل، فقد جذبت عواصم الشيعية والعتبات المقدسة فى كربلاء والنجف بضع عشرات من الآلاف من الإيرانيين - ٥٢,٥ ألف فى ١٩٥٣ [١] مقيمة بصفة دائمة أو متجددة، حتى لتوصف هاتان المدينتان المقدستان بأنهما أسافين من الفرس فى جسم العراق [٢]. بل لقد وصل الأثر الدموى العربى بعيداً حتى بلوخستان، حيث يقال إن هناك اليوم ٣ ملايين عربى تتركز كالجزيرة زرعت جرثومتها منذ فجر الإسلام والدعوة .

وينبغى ألا ننسى أن نضيف إلى هذه الحلقة أرخبيل جزر الملديف المرجانية (نيبة المهل عند ابن بطوطة) فى جنوب غرب الهند، والتى تؤلف اليوم دولة سياسية مستقلة وعضواً فى الأمم المتحدة، وإن لم تزد سكاناً عن المائة ألف. فهذه الجزر تقع من منحنى التعريب فى العالم الإسلامى على نفس النقطة التى تقع

---

(١) عزة النص، أحوال السكان فى العالم العربى، القاهرة ١٩٥٦، ص ٣٩ .

(٢) P. P. Deifontaines, Géographie et Réligion, Paris, 1948 311..

عليها إيران. فقد دخل الإسلام هنا منذ وقت مبكر جداً في القرن ٨ على أيدى تجار الجنوب العربي، الذين استقروا بها ثم ذابوا وانصهروا جنسياً ولغوياً بعد أن حولوا كل الأهالي بلا استثناء إلى الإسلام، وبعد أن أعطوا اللغة الوطنية شكل الكتابة العربية إلى جانب نسبة هامة من الألفاظ والمفردات .

الحلقة الرابعة : شبه ظل العرب

هذه طفرة حديثة في مورفولوجية العالم الإسلامي، محدودة الرقعة مثلما هي طارئة وشاذة. ولم تكن أصلاً تعدو قطاعاً من الحلقة الثالثة السابقة. تركيا - وحدها - هي هذه الحلقة. ولقد تأخرت تركيا كثيراً عن إيران في دخول الإسلام حتى القرن ١١ - ١٣ في الواقع، ولكنها أخذت الإسلام السنى بحماس ربما وصل أحياناً إلى حد التعصب، ثم حكمت العرب وجزءاً كبيراً من الإسلام واحتكرت الخلافة لمدة طويلة، بل إنها اليوم أعلى في نسبة الإسلام من أي دولة عربية، بما في ذلك بعض دول الجزيرة العربية ربما .

وقد أدخلها هذا كله في تفاعل، ولكن أيضاً في صراع، عميق جداً مع العروبة، خرجت منه الأخيرة مهزومة سياسياً منتصرة حضارياً وثقافياً. فبينما لم تكد التركية تؤثر في العالم العربي في

أى مجال، تغلغلت العربية فى اللغة التركية على نحو مافعلت فى الفارسية، وإلى نفس المدى تقريباً. فمن ناحية استعارت التركية، التى لم تكن مكتوبة، الشكل العربى فى الكتابة، ومن ناحية منحت العربية التركية الثلث أو أكثر من مجموع قاموسها المعاصر كما يقدر الإحصائيون من الفيلولوجيين. كذلك تم تبادل المؤثرات الجنسية بدرجة أو بأخرى لاسيما على تخوم العروبة فى الشام. ففى تعداد ١٩٢٧ قدر عدد العرب فى تركيا بنحو ١٣٤ ألفاً، وهذا بالطبع لا يشمل بقية العرب فى لواء الاسكندرونة الذى ضمته تركيا فيما بعد (١)

وعلى هذا فإن تركيا ـ هى الأخرى – كادت أن تكون «ثلث عربية» فى حين ما ، وإذا تذكرنا النفوذ السياسى للعثمانية فى أوربا البلقانية، أمكننا أن ندرك مغزى ومدى هذا التعريب الجزئى. غير أن تركيا الحديثة ـ الكمالية ـ وقد اعترتها ـ كإيران ـ النزعة الشوفينية الحادة، فضلا عن عقدة «الأوربة» هجرت الكتابة العربية فجأة إلى الشكل اللاتينى بمثل البساطة التى تبنتها بها من قبل (هل نقول رحل حضارة مثلما بدأوا رحل استبس ؟) . كذلك فقد عملت على «تطهير» اللغة من التراث العربى، بل كادت بعد أن فصلت الدين عن الدولة فصلا صارماً أن تصل فى وقت ما إلى تجميد الإسلام، إلى أن اكتفت فى النهاية «بتتريكه». ومن هنا فقد

(١) النص ، المرجع السابق .

نزلت تركيا فى درجة قرابتها فى العائلة الإسلامية خطوة إلى أسفل، وبعد أن كانت قطاعاً من ظل العرب تراجعت الى حلقة إن تكن قائمة بذاتها فإنها حلقة باهتة هى شبه الظل .

الحلقة الخامسة : صدى العرب

هنا يظل الإسلام الأغلبية المطلقة، فقد يصل إلى نسبة أعلى مما فى النواة العربية، ولكنه أيضاً قد يقل عن ذلك كثيراً. إلا أنه بوجه عام أحدث تاريخاً بدرجات متفاوته، ويمكن أن نعمم فنقول إنه متوسط العمر هنا. وأهم من هذا أن الأثر العربى من جنس أو لغة أو كتابة يصبح ضئيلا ورمزياً: إنه صدى بعيد على الأكثر. ومن الناحية الدينية يشتد التمسك بالإسلام، ولكنه لا يخلو من شوائب دخيلة أو شكليات بالية، إلى جانب أن الحلقة ككل مناطق الأطراف النائية تعد معقلا للأفكار العتيقة التى ربما عرفتها منطقة النواة فى حين ما، ولكنها نبذتها منذ وقت طويل ـ كذلك قد يتعرض الإسلام هنا لأخطار خارجية معينة .

والصفة الحلقية والنطاقية هنا واضحة تماماً، وإن بدأ التقطع الأرضى يظهر. فتبدأ الحلقة من بحر قزوين لتشمل وسط آسيا والتركستان، وتستمر لتضم الباكستان بشطريها، ثم تقفز المحيط لتنتظم الملايو وجزر إندونيسيا الرئيسية وتعود الحلقة إلى الظهور

فى إفريقيا على طول الساحل الشرقى ابتداء من إرتريا والصومال حتى تانزانيا. ثم بعد انفصال أرضى عريض، تستمر فى السودان الغربى وجنوبى الصحراء الكبرى حتى الأطلسى .

ففى وسط آسيا استقر الإسلام نهائياً وعلى وجه الاطلاق منذ حوالى القرن ١٣ . ووصوله هنا لم يتم على أيدى العرب بالدقة بقدر ماتم بواسطة إيران، ولا أثر عربى هنا فى لغة أو كتابة. وهنا يتعرض الإسلام للاحتكاك الآن مع الشيوعية، وهو من ثم لا يجد بيئة طبيعية بطبيعة الحال، إن لم يلق ظروفاً تعمل على تفكيكه وتنويبه désislamisation كما يقال. وعدا هذا فإنه يتعرض لخطر التناقص النسبى، وذلك عن طريق الهجرة الروسية إلى الجمهوريات السوفيتية مثل تاجيكستان وأزبكستان وتركمنستان وكازاكستان. وقد وصلت هذه الهجرة بالفعل إلى درجة تهدد أغلبية الإسلام العددية هنا. فكما رأينا فإن العناصر الروسية المهاجرة تتراوح اليوم ما بين ٢٠٪-٦٠٪ من مجموع سكان هذه الجمهوريات [١]. ولهذا فالخريطة التقليدية لكثافة الإسلام التى كانت تصور الموقف على أنه سيادة مطلقة تتعدل حثيثاً تحت ناظرينا، وإن يكن بطريقة سلمية هادئة. ولعل هذا القطاع من الحلقة هو وحده الذى ينفرد بهذه الظاهرة الهامشية الخطيرة .

(1) Rondot, t.I, pp. 297 ff. , t. II, pp. 179 ff, J.p. Cole, Geography of Current Affairs, pelican, 1963, p, 53..

أما فى الباكستان فالموقف مختلف كثيراً. فهاهنا وصل الإسلام مبكراً، واستقر منذ القرن ٩ - ١٠ تقريباً حتى القرن ١٣. وهو يكاد يكون الدين المطلق فى الشطر الغربى ولكنه - وإن ظل الأغلبية السائدة - ينخفض كثيراً فى الشطر الشرقى. ولقد كان الوعى الدينى هنا دائماً على أشده، بل ملتهباً فى بعض المراحل، وذلك بحكم الأخطار الهندوكية المحدقة. ومن هنا كان القطاع شديد التطلع والتلهف إلى قلب العالم الإسلامى. وفى هذا المقام تجد العربية دوراً هاماً لتعلبه.

فمنذ عهد «المغول الأكبر» فى القرن ١٥ - ١٧، تكونت هنا اللغة الأردية من خليط غريب من الهندوستانية والهندية والفارسية والتركية إلى جانب العربية، فكانت العربية أحد عناصر الأردية، بل هى العنصر الأهم فيها الآن. وإنه لهذا السبب أساساً تبنتها دولة الباكستان الحديثة كلغة رسمية لها وعدا هذا فإن العربية ظلت دائماً وتظل لغة العلوم والمؤلفات الدينية. وفضلا عن هذا وذاك فللعرب وللمتكلمين بالعربية وجود مذكور. ففى ١٩٢٤ قدر أن بالهند - الجزء الباكستانى اليوم بالطبع - نحواً من ٣٠٠ ألف منهم [١]، لا ندرى كم يبلغون الآن.

والقطاع بعد هذا شديد التمسك بالتراث الإسلامى وخلية

---

(١) Revue du monde Musulman, t.57, 1924, pp. 135.. 144..

للنشاط الديني بجمعياته ومدارسه وطرقه.. الخ، كما كان له الفضل ـ بحكم ارتباطاته الاستعمارية الغربية الطويلة ـ في نشر التراث الإسلامى باللغات الأجنبية (مدرسة جامع ووكنج Woking فى بريطانيا مثلا)، فى حين أن هذا الدور كان ألصق بالمستشرقين فى منطقة النواة العربية. غير أن هذا الحماس الديني والشعور الإسلامى الفياض يجنح أحياناً إلى بعض أفكار لم تعد مقبولة فى منطقة النواة كفكرة الدولة الإسلامية العالمية الموحدة التى لم تزل تعيش أو تعشش فى بعض أركان الباكستان. كذلك فإن هنا إحدى الحالات القليلة فى العالم الإسلامى المعاصر الذى سميت فيه الدولة رسمياً بالجمهورية الإسلامية ـ جمهورية الباكستان الإسلامية ـ ليصبح الدين أساس الدولة. غير أن الذى حدث أن الباكستان تخلت عن هذه التسمية أخيراً بعد تجربة شاقة .

أما فى الملايو وإندونيسيا فالإسلام يرجع إلى القرن ١٣ كنقطة ابتداء فعالة واستمر يطرد فى القرون الثلاثة التالية، حتى أصبح اليوم الأغلبية السائدة، واصلا إلى ٨٠٪ فى إندونيسيا، وإلى نسبة مثلها وربما أكثر منها فى الملايو إلى أن هوت به الهجرة الأجنبية أخيراً ـ على نحو ما فى وسط آسيا السوفييتية ـ إلى مالا يزيد على النصف إلا قليلا. ومن الملاحظات الهامة أن الإسلام، الذى

أزاغ البوذية والبراهمية وغيرهما هنا، ما زال فى بعض الجهات الهامة يعانى من رواسب وأدران وثنية استحيائية animism ويحتاج إلى كثير من التعميق والترشيد .

ولقد جاء دور العرب هنا مباشراً بفضل البحر، فإن تجار وبحارة الجنوب العربى، خاصة الحضارمة والعمانيين، ولكن أيضاً بعض العناصر الفارسية، هم حملة الإسلام إلى هنا، حيث كانت ملقا «ملقى» لهم جميعاً ـ ومن هنا الاسم فهو عربى الأصل. ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع العلاقة بين الجنوب العربى والأرخبيل. وحتى الوقت الحالى توجد جالية عربية مقيمة بصفة دائمة فى إندونيسيا بلغت فى ١٩٣٠ نحو ٧١ ألفاً تزيد اليوم لا شك كثيراً على المائة ألف (١) .

ولا يزال العرب يرسلون أبناءهم صغاراً إلى الوطن الأب لتعلم العربية ثم يعودون للوطن الثانى، كما ما زالوا يرسلون من أرباحهم إلى الأهل فى الوطن القديم، وبعضهم يعود فى أخريات أيامه ليموت فيه (٢) .

ولكن نفوذ العنصر العربى أبعد من مجرد ترك جالية غنية

---

(١) G.B. Cressey, Asia's Lands & Peoples, Mc Graw Hill, 1951., P. 527...

(٢) Royal Institute of International Affairs, The Middle East. A Political & Econ. Survey, O.U.P., 1958, P. 115..

محترمة، وإنما يمتد إلى اللغة. فمنذ البداية والعربية عنصر ثرى هام فى اللغة الملاوية التى هى لغة التجار والقبائل المشتركة فى كل الأرخبيل. وينعكس هذا الأثر حتى على بعض أسماء الأماكن ابتداء من «جوهور باهرو» (جوهرة البحر) «وكوتا بهارو» (كوت البحر) فى الملايو إلى «ميدان» فى سومطرة... الخ. كذلك كانت اللغات الهامة فى إندونيسيا مثل الجاوية والسونداوية تضم نسبة كبيرة من الألفاظ العربية. حتى إذا كان الاستقلال وقررت إندونيسيا البحث عن لغة رسمية موحدة، دار الاختيار فى وقت مابين الانجليزية والصينية والعربية، إلا أن الاختيار عاد فاستقر على الملاوية - التى تشمل عناصر عربية أصلا - معدلة ومطعمة بنحو ١٥٪ من مجموعها من الكلمات العربية تحت اسم اللغة الإندونيسية Bahasa Indonesia (١).

ونعبر المحيط الهندى لنلقى صدى العرب فى إفريقيا ينتشر فى قطاعين من هذه الحلقة. أولا على طول الساحل الشرقى ابتداء من جنوب إرتريا حتى تنزانيا. والإسلام هنا مبكر نسبياً بحكم الموقع الجغرافى. وهو يصل إلى ٩٩٪ فى الصومالات، ويقل عن ذلك - وإن ظل الأغلبية محلياً - فى بقية النطاق. والأثر العربى هنا

---

(1) G. A. Fisher, "Southeast Asia: Balkans of the Orient?" (١) Geography, Nov. 1962, P. 364"

شلبى، المكان السابق، ص ٧٦

مباشر، فالعلاقات التاريخية – وما قبل التاريخية – بين الجنوب العربي «وساحل الزنج وساحل البنادر» قصة معروفة. وإذا كانت علاقة الملايو وإندونيسيا أقوى مع حضرموت واليمن، فإن العلاقة هنا هي مع عمان بوجه خاص، أى على التقاطع كما قد نقول، ربما لأن العلاقة الأولى تحكمها حركة واتجاهات الرياح الموسمية صيفاً وشتاء، بينما أن الثانية التي تتعارض مع هذه الرياح أكثر ارتباطاً بتتبع الساحل .

على أن المهم أن الأثر العربى يظل هو أبرز نتيجة وملمحا فى كل القطاع الإفريقى. بل إن هذا ليمتد هنا إلى الجانب الجنسى المباشر. فالصوماليون أنثروبولجيا حاميون فى الأصل داخلتهم دماء كثيرة من الجلا من الغرب ومن العرب من الشرق، وهم كالدناكيل فى إرتريا يدعون أصلا عربيا أساساً [(١)] . وهذا عدا خميرة من العرب الخلص. ففى الصومال الفرنسى، على سبيل المثال، حين كان مجموع السكان يقدر بنحو ٦٣ ألفاً فى ١٩٥٤، كان منهم ٦ آلاف عربى [(٢)] ولا شك أن الرقمين ارتفعا اليوم. ومثل هذا يصدق على بقية الصومالات .

ثم أيضا الأثر اللغوى. فاللغة الصومالية لا تخلو من تطعيم

---

(١) G.S. Coon, Races of Europe, N. Y., 1939, P. 447..

(٢) اعتمدنا فى الأرقام الإحصائية عن العرب فى كل وحدات شرق إفريقيا على طبعات مختلفة من Statesman's Year-Book

عربى ينكر، فضلا عن أن العربية منتشرة انتشاراً بعيداً للغاية بين المثقفين والمتدينين الصوماليين. وليس يقل أهمية اتجاه دولة الصومال مجددا إلى التفكير فى تبنى الشكل العربى - ضد اللاتينى - فى كتابة اللغة الصومالية التى لا تزال غير مكتوبة. بل إن الصومال تتطلع بشدة إلى النواة العربية وتهفو إليها معنويا وترتبط بها ماديا، حتى لقد طالبت بالانضمام إلى الجامعة العربية!.. والواقع أن وجهة الصومال نحو الإسلامية والعروبة بشدة غير عادية هى - كوجهة الباكستان إزاء المحيط الهندوكى - نتيجة الضغوط السياسية والحيوية التى تتعرض لها كجزيرة ضئيلة الحجم والقوة بين أطماع إثيوبيا التوسعية التقليدية من ناحية ومشكلاتها على الحدود مع كينيا من ناحية أخرى .

وخارج الصومال يظل الأثر العربى قوياً فى ساحل كينيا وتانزانيا، حيث يبدو أثر الدم العربى واضحاً فى سكان زنجبار والسواحل، وحيث ظلت الدولة العربية التى أنشأها آل البوسعيد العمانيون فى زنجبار منذ القرن الماضى حتى السنوات الأخيرة فقط، بل لقد حدث أن أصبحت هذه الدولة تحكم عمان من مقرها الإفريقى لفترة طويلة. وما زال العنصر العربى هنا يمثل أقلية هامة من آثار الهجرة المباشرة، بل لعلها من أهم الأقليات العربية فى إفريقيا غير العربية. ولا أرقام حديثة لدينا، ولكن الأرقام المتاحة -

على قدمها تؤكد أهميتهم التى لا شك تتزايد بالنمو الطبيعى .

ففى كينيا عد من العرب ٢٤ ألفاً فى تعداد ١٩٤٨، قد يبلغون اليوم الخمسين ألفاً. وفي تنجانيقا عام ١٩٥٧، عد من العرب ١٩,١٠٠ شخص. وإذا كان العرب لايزيدون على ١٥٠٠ نسمة فقط فى أوغندة ١٩٤٨، فقد سجلت جزيرة زنجبار - المركز الرئيسى للأثر العربى فى كل النطاق- ٤٥ ألف عربى من مجموع كلى قدره ٢٦٤ ألفا، أى أقل قليلا من الخمس وذلك فى عام ١٩٤٨ أيضا لعلهم اليوم يناهزون المائة ألف. فالمجموع الكلى فى ذلك التاريخ المتقدم هو حوالى المائة ألف. ومعنى هذا أن فى شرق إفريقيا الساحلية ابتداء من الصومال حتى تانزانيا ماقد يقارب اليوم نحو المائتى ألف من العرب، وإن كان البعض يرتفع بالرقم فى وقت مبكر جداً هو ١٩٢٤ إلى ٥٠٠ ألف [(١)] (؟) .

وعدا هذا كله فإن الأثر العربى اللغوى هنا يشبه ماعرفت الملايو وإندونيسيا على نحو ما. فهنا لغة مشتركة من أهم لغات إفريقيا وأكثرها شيوعاً هى السواحيلية التى تتألف من خليط من اللغات الإفريقية والكلمات الأوربية ولكن أهم منها الكلمات العربية - لاحظ عربية الاسم نفسه. ولقد تبنت دولة تانزانيا السواحيلية كلغتها الرسمية مثلما فعلت إندونيسيا بالملاوية .

---

(١) Revue du Monde Musulman, op. cit .

القطاع الثانى من صدى العرب فى أفريقيا هو السودان الغربى من قلب الصحراء حتى حواف الغابة، مع نطاق السفانا كعموده الفقرى. وتاريخ دخول أو استقرار الإسلام، الذى أتى على أيدى التجار وشيوخ الطرق والمرابطين، يتراوح هنا مابين القرن ١١-١٢ الميلادى حتى القرن ١٤-١٥، بحسب القرب أو البعد أو الظروف التاريخية. وقد جاء سهم الإسلام هنا من النواة العربية، أى من الشمال، راسماً نصف دائرة عكس عقارب الساعة فى الغرب ونصف دائرة أخرى مع عقارب الساعة فى الشرق، حتى أغلقت الدائرة فى الوسط. وكثيرة جداً هى الدولة الإسلامية الوسيطة التى قامت وبادت أو تعاصرت وتعاقبت فى هذه المنطقة (١).

ولا تقل نسبة الإسلام فى أجزاء القطاع عن ٨٠-٩٠٪، والتمسك به شديد، ولو أن هنا وهناك فيما يقال بعض رواسب محلية من الاستحيائية والمعتقدات البدائية القديمة. ويعود الوجود العربى ليثبت نفسه مرة أخرى. ورغم أن حملة الإسلام هنا كان أغلبهم البربر، فإن الأثر العربى المباشر شارك بدور كبير. فالفولا، الذين كانوا من أنشط المسلمين هنا سياسياً وأوسعهم انتشاراً، يضمون نسبة هامة من الدم العربى. بل إن هناك جيوباً خالصة من العناصر

---

(1) Rondot, t. II, PP. 32 ff.

العربية مبعثرة فى تضاعيف القطاع قل أن نعرف بها. ولا نقصد بذلك هجرة ، على أهميتها ، الشوام من سوريين ولبنانيين حديثاً إلى غرب إفريقيا منذ أواخر القرن الماضى، والتى تقدر بنحو ٢٠ ألفا مركزة فى عواصم السنغال ومالى وغينيا، وإنما نقصد قبائل عربية ترجع إلى أيام الفتح والعصور الوسطى، مثل أولاد سليمان وقبائل شوا فى تشاد، والبرابيش فى مالى [١] . بل إن بعض المصادر قدرت عدد العرب والمتكلمين بالعربية فى أفريقيا الاستوائية الفرنسية القديمة ١٩٢٤ بعدد ضخم هو ٦٠٠ ألف [٢] .

الحلقة السادسة : الأطراف الهامشية

نحن هنا على نهايات العالم الإسلامى وتخوم دار الإسلام، أرض الهوامش والأطراف القصوى، وهى لاتزيد على إطار خارجى باهت يغلف الحلقات السابقة. وهو لهذا أكثر تقطعاً وتبعثراً وتشتيتاً فى جزر وجيوب سديمية متفاوتة الاتساع والامتداد ولكنها قليلة الوزن والثقل. والاختلاف الجوهرى عن الحلقة السابقة هو أننا هنا نترك الأغلبية الإسلامية المطلقة إلى أقلية محدودة، إن لم

---

(١) Nevill Barbour, Survey of North west Africa (The Maghrib), Lond., 1958..

(٢) Revue du Monde Musulman, etc.

تكن ضئيلة للغاية أحياناً . والإسلام بعد هذا حديث العهد فى أغلب قطاعات الحلقة، يرقى إلى مابعد العصور الوسطى أحيانا وإلى أواخر العصور الحديثة نفسها أحياناً أخرى. وهو كذلك مرتبط بالهجرة الحديثة بأشكالها وملابساتها الخاصة بصورة أو بأخرى. ثم إنه هنا، أكثر منه فى أى حلقة أخرى، يتعرض لأخطر الضغوط والاحتمالات، فى الوقت الذى تقل فيه قدرته على الصمود والحركة بحكم ضآلته من ناحية ونوعيته غير المتطورة بالضرورة من ناحية أخرى. ولا أثر هنا بطبيعة الحال لنبض العرب وجوداً أو تأثيراً، عنصراً أو لغة، فيما عدا حالات خاصة مفهومة .

قد يمكن أن نبدأ الحلقة بالعناصر الإسلامية المهاجرة العاملة فى فرنسا من المغرب الكبير خاصة الجزائر، وكذلك العناصر العربية المنبثة فى يومنا هذا فى وسط أوربا، غير أنه من الخير لنا أن نهملها جميعاً بحسبانها هجرات مؤقتة عابرة وليست إسلاماً مقيما موضعياً حقيقياً. ومن ثم نبدأ بإسلام البلقان بفصوصه المتعددة، ثم الشريط الشمالى الأقصى من الإسلام فى الاتحاد السوفييتى حيث يشتد تضاؤله وذوبانه فى كتلة السكان الروسية وتتضاعف آثار هجرتهم. وبعد انقطاعة شاسعة، تلتئم فى الحلقة جزر الإسلام الصينى المتعددة والتى لاتؤلف حتى محلياً أغلبية فى أى نقطة من نقاطها والتى تتعرض لمثل الظروف التى تتعرض لها مثيلاتها فى الاتحاد السوفييتى .

وكما قلنا فلا محل للأثر العربى هنا فى أى صورة، ولكن يقال إن مسلمى الصين من شعب الخوى Khoi هم من أصل عربى، ولكنا لاندرى مدى هذا القول من الصحة (١) . ومهما يكن، فأبرز حقيقة عن القطاع الشمالى بأسره من هذه الحلقة، ابتداء من البلقان حتى الصين، تعرضه حالياً للوجود الشيوعى بما يعنى ذلك بالضرورة من علاقات تفاعل أو غير ذلك. ثم تستمر دورتنا لتنتظم حلقة الأطراف جيوب الإسلام المنتثرة فى الهند الصينية ثم الفلبين «والجزر الخارجية» من إندونيسيا. ويعود للحلقة بعض وزنها فى جنوب الهند حيث تتعدد جزر الأقليات المسلمة .

حتى إذا عبرنا المحيط دخلت مدغشقر - التى تستمد اسمها من تحريف تاريخى لمقديشيو - وأرخبيل جزر مضيق موزمبيق كالقمر (كومورو) وألدابرا وروينيون الخ.. فى هذا النطاق، كما يدخله الظهير المباشر لشريط الساحل الشرقى حتى البحيرات العظمى إلى الداخل وحتى الرأس إلى الجنوب، وأخيرا ينضم إلى الحلقة نهايات الإسلام فى غرب إفريقيا على حواف الغابة وبين تضاعيفها مقتربة من الساحل فى نقط ونائية عنه فى أخرى. وأبرز مايجمع كل هذه الجبهة الجنوبية من الحلقة سواء فى آسيا أو فى أفريقيا

---

(١) مصطفى الأمير، «الأقليات القومية فى الصين الشعبية»، المحاضرات العامة، الجمعية الجغرافية المصرية، ١٩٥٨، ص٥٧ .

تخلط الإسلام ببعض العناصر والعقائد البدائية القديمة بدرجة أو بأخرى، ولو أنه ليس من الصحيح مايثيره البعض من تساؤل عما إذا كان الإسلام فى بعض قطاعاته الجنوبية ليس إلا استحياء متأثراً بالاسلام أكثر منه إسلاما تشوبه رواسب استحيائية، أى ليس إلا قشرة ورقة أكثر منه عموداً فقرياً وهيكلا عظمياً (١) .

هذا ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الحلقة الهامشية القصوى من الإسلام فى العالم القديم، هالة كالزغب أشد تخلخلا وسديمية تؤلف الغلاف الشفاف الخارجى الأقصى أو الهوامش والأطراف الخارجية. هذه الهالة التى يمكن أن نعدها إما حلقة مستقلة أو حلقة تكميلية، والتى يمكن أن نميزها عن الأطراف «الداخلية» السابقة بأنها الأطراف «الخارجية»، هى الإسلام فى القارات الجديدة استراليا والأمريكتين التى تتحلق جغرافيا حول العالم القديم .

ولعل أهم حقيقة فى هذه الهالة أن الهجرة هى العامل الأول فى الوجود الإسلامى بها، والإسلام هنا خلايا انشطارية انفصلت عن نوايا أم فى العالم القديم. وهى بهذا ظاهرة طارئة وحديثة العهد للغاية لا ترقى إلى أبعد من القرن الماضى، بل إن جسمها الرئيسى لا يعدو القرن الحالى . وإذا كان المصدر الأساسى فى حالة

---

(١) Rondot, t. I, P. 186..

الأمريكتين هو الشام فى الدرجة الأولى، فإنه الهند (القطاع الباكستانى حالياً) فى حالة استراليا. ومن الطريف أن الإسلام دخل استراليا أول مادخل كقوافل إبل مطلوبة بالضرورة لعبور الصحارى فى عصر ماقبل السكة الحديدية [1] ، عودا على بدء الأيام الأولى فى تاريخه العام ! .

غير أن الإسلام هناك وفى الأمريكتين أصبح الآن مدنياً أساساً فى طابعه العام. وهو فى النهاية يرتبط فى توزيعه بتوزيع كثافة السكان العامة بصفة إجمالية. غير أن الحقيقة التى تتبقى هى الضآلة الشديدة فى حجم الإسلام ووزنه فى القارات الجديدة جميعاً، فهو لا يزيد على عشرات قليلة من الآلاف فى استراليا، أما فى الأمريكتين فإذا كان العرب بضع مئات من الآلاف فليس كل المهاجرين العرب مسلمين، وإذا كان الإسلام قد أخذ ينتشر أخيراً ومحلياً خاصة بين بعض الزنوج - «المسلمين السود» كما يعرفون الآن فى الولايات المتحدة - فإن المجموع العام لم يزل محدوداً. وإذا كان الإسلام فى حلقة الأطراف الداخلية السابقة يعيش فى فراغ أو شبه فراغ دينى بين الإلحادية فى قطاعاتها الشمالية والوثنية فى قطاعاتها الجنوبية، فهو هنا يعيش فى وسط لا يتعرض فيه إلى ضغوط عقائدية أو رواسب بدائية بقدر مايتعرض لخطر الذوبان أو الذبول البطىء .

(١) شلبى ، السابق .

الفصل الثالث

« خريطة الإسلام السياسية »

مازال الدين رغم كل شيء بعداً من أبعاد السياسة وعنصراً في مركب القومية، قد لا يكون البعد المحوري أو العنصر الجوهر الآن بعد إذ تحركت بؤرة السياسة في العصر الحديث بعيداً عن الدين. ولكن لا مفر للباحث السياسي منه، ولا يكاد يخلو مرجع في الجغرافيا السياسية أو العلوم السياسية من فصل عن العلاقة بين السياسة والدين. فلا معدى إذن عن الاعتراف به كقوة بارزة أو مستترة تظل موحية مؤثرة بدرجة أو بأخرى في الحياة السياسة، إن لم يكن في العالم ككل ففي العالم الإسلامي على وجه التخصيص. غير أن السؤال الذي يبحث الآن عن إجابة هو: ماالذي تبقى للدين في السياسة أو في السياسة من الدين ؟ إلى أي حد، وماهو الحد الأمثل ؟

ولعل خير منهج علمي تقترب به من المشكلة هو أن نجري مسحاً موضوعياً شاملا للعالم الإسلامي، في واقع حاضره، من زاوية السياسة والحكم، فنحدد الأثقال النسبية للاسلام كضاغط أو كضابط في كيان الدولة، ونتعرف على دوره في الوجود السياسي المفعم في هذا المحيط الكبير. متى وأين يكون الإسلام أغلبية أو أقلية سياسية؟ كم دولة إسلامية في العالم وكم دولة أقليات إسلامية؟ ما مشكلات السياسة والأمة هنا وهناك؟ في علامة استفهام واحدة، ما كثافة الإسلام السياسية ؟ عن هذه الأسئلة والاستفسارات وغيرها هذا الفصل .

فى عالم اليوم القديم أكثر من ٦٧ دولة يوجد فيها المسلمون بنسبة أو بأخرى قد تبدأ من ١٪ وتنتهى إلى أى شىء حتى ٩٩٪ ، وهذا يعادل أكثر من نصف دول العالم. من هذه الدول ٥ فى أوربا ، ٢٣ فى آسيا، ٣٩ فى إفريقيا ، كذلك لا تكاد تخلو دولة فى العالم الجديد من إسلام المهجر والمهجريين أو التحول والمتحولين، وإن ظل هذا دائماً رشاشاً متطايراً محدوداً. غير أنه لابد من تحليل وتصنيف تلك الحالات على أساس الوزن النسبى للاسلام فيها، وهنا نجد ثلاث طبقات: دول إسلامية يمثل فيها الإسلام الأغلبية المطلقة، ودول نصف إسلامية يتعادل فيها مع العقائد الأخرى، ودول الأقليات الإسلامية. وفى كل حالة من هذه الحالات يكون للاسلام مشاكله ووضعياته السياسية المعينة .

الدول الإسلامية

فمن الدول الإسلامية ٢٩ دولة، واحدة منها فى أوربا (ألبانيا) والبقية موزعة بالتساوى بين آسيا وإفريقيا. وهى فى مجموعها تفوز بالأغلبية العظمى من المسلمين (نحو ٤٠٠ مليون). وفى هذه الدول قل أن يخلو الأمر من أقليات دينية، وأقل منه أن تكون هذه أقليات ضعيفة. فنادرة هى الدول الإسلامية التى يصل فيها

الإسلام إلى نسبته فى الجزيرة العربية (٩٩.١٪) أو الصومال (٩٩٪) أو تركيا (٩٨.٩). والأغلب أن تؤلف الأقليات ٥-١٠٪ من مجموع السكان كما فى بعض الدول العربية مثل مصر والعراق، ولكنها قد تصل إلى ربع السكان كما فى سودان النيل وكما فى الباكستان الدولة الإسلامية النشأة، أو قد تقترب من الثلث كما فى ألبانيا الدولة الإسلامية الوحيدة فى أوربا .

فى العالم العربى

والإسلام فى هذه المجموعة هو تلقائياً «الدين القومى»، سواء نص على ذلك دستورياً كما فى مصر حيث الإسلام الدين الرسمى للدولة، أو نص عليه جنباً إلى جنب مع ضمان حرية العقائد الأخرى كما فى العراق، أو لم ينص بطريقة حاسمة قاطعة كما فى سوريا حيث اكتفى باعتبار الإسلام المصدر الرئيسى للتشريع [١] على أن هذا وذاك فى الأعم الأغلب لا يجعل من الدولة دولة دينية، وذلك بحكم وجود الأقليات. فاعتبارات الوحدة الوطنية تفرض فى الحقيقة منح هذه الأقليات وزناً سياسياً أكبر مما يتناسب مع وزنها العددى.

(١) Pierre Rondot, L'Islam et les Musulmans d'Aujourd' hui, Paris, 1958, t. I, P. 48..

وقد ينعكس هذا أحيانا من ناحية الشكل على دستور الدولة.

ويضغط المستشرقون بإلحاح فى هذا الصدد على ما حدث على سبيل المثال فى الجمهورية العربية المتحدة أثناء الوحدة السورية المصرية حين جاء دستور الوحدة خالياً من النص على أن الإسلام دين الدولة الرسمى، وهو ماكان يرد دائماً فى الدستور المصرى، أو على أن يكون رئيس الدولة مسلماً، وهو ما كان يرد دائماً فى الدستور السورى. وبالمثل فلقد أسقطت تونس الجمهورية النص على الإسلام كدين الدولة من دستورها. هذا ويلاحظ أن الاستعمار من جانبه لا يكف عن أن يصور أن النص على دين الدولة الرسمى إنما يعنى تحويل الأقليات الدينية إلى «مواطنين من الدرجة الثانية»، ويشيع أن هذا ضد مبدأ المساواة الديموقراطية أمام القانون [1]. وهذا إدعاء - أو دعاية؟ - يقصد به مباشرة استثارة الأقليات والصراع الطائفى وتمزيق الوحدة الوطنية.

وإذا كانت المشكلة الطائفية تبدو قديمة فى العالم العربى، فإنها لم تنفصل فى أى مرحلة من مراحلها عن الاستعمار: هو الذى غذاها إن لم يكن خلقها، وهو الذى اتخذ منها أداة سياسية يدعم بها وجوده. وهل ننسى، بين قوسين، أن الصليبية - حتى الصليبية

---

(١) Rondot, V. II, 1960, PP. 160 - 167 ..

- تذرعت بحماية الشيعة من السنيين (كذا!)، فضلا بطبيعة الحال عن زعمها حماية المسيحيين من اضطهاد السلاجقة في الأراضي المقدسة ؟ (١) على أن من الغريب، باستثناء هذه الطلائع المبكرة، أن الأقليات الدينية في العالم العربي لم تكن مشكلة في عصر الدين وسيطرته في العصور الوسطى، فإن التسامح والتعايش الديني كان يكفل «للذميين» مواطنة كاملة حرة. وما بدأت المشكلة إلا على يد الاستعمار الديني التركي والاستعمار السياسي الأوربي من بعده - الأول ولدها بغبائه السياسي، والثاني ألهبها بخداعه السياسي .

فمن المعروف والثابت أن الاستعمار التركي، لكي يضرب عناصر الدولة المتنافرة بعضها ببعض فيضمن بقاءه، وضع عامداً متعمداً «نظام الملة» الذي يحدد إطار الحكم على أساس الدين، وخلق بذلك وعياً دينيا بالذات، وبذر أول بذور الطائفية. وفضلا عن هذا فإنه هو الاستعمار التركي، بتعصبه الضيق الأفق واضطهاده للشيعة، الذي زرع الأشواك بين الفرق الإسلامية نفسها . وفيما بعد، ومع تداعي الدولة، زاد اضطهادها وتعصبها، فزادت الطائفية عمقاً وخطرا. وفي ظل هذا الاضطهاد من ناحية والعجز من ناحية أخرى، فتح الباب على مصراعيه لتدخل القوى الأوربية بحجة حماية الأقليات المسيحية في الدولة العثمانية، فأخذت كل واحدة منها

---

(١) W.B. Fisher, The Middle East, Lond., 1960

تدعى حق رعاية الطائفة التى تناظرها، وتفرض لها على الرجل المريض استقلالا ذاتياً جعل منها أحياناً دولة داخل الدولة وكاد يخرج بولائها إلى خارج الحدود. فكانت فرنسا ـ الابنة الكبرى للكنيسة – الحامية التقليدية للكاثوليك، بينما دخلت الروسيا منذ القرن الثامن عشر كحامية للأرثوذكس .

ثم يأتى الاستعمار الأوربى بنفسه ليستغل الطائفية بلا مواربة وكسياسة مرسومة تلغم التركيب السياسى وتحول الأقليات الدينية ـ كما عبر البعض – إلى قنابل سياسية موقوتة.. فاحتضن الأقليات وعمل على خلق شعور بكيان خاص لها متورم منتفخ، وفتح الباب للتبشر والإرساليات والمدارس الدينية.. الخ، كما سهل استيراد أقليات أخرى دينية غريبة ليضاعف من التخطيط والتنافر الداخلى.

من هذه الأقليات المجلوبة الأرمن والأشوريون النساطرة فى المشرق العربى، «وطفيليات الاستعمار» من مالطيين وقبارصة ويونانيين ويهود.. الخ، هذا بطبيعة الحال عدا الطفيليات الكبرى من جاليات دول الاستعمار نفسها. وكان طبيعياً ألا ترحب بهذا الدول العربية لأن حشدها، من زاوية واحدة فقط ضمن زوايا أخرى، كان من شأنه أن يخل بالميزان الدينى والقوى السياسية ويفاقم مشكلة الأقليات(١) .

(١) المرجع السابق – ص ١٧٠ وما بعدها .

في إطار هذا المخطط الكبير، وجدنا الاستعمار الفرنسي يحتضن المارونية مقابل الاستعمار البريطاني الذي احتضن الدروز. وفي سوريا حاولت فرنسا سياسة التمزيق الداخلي على أساس الأقليات والطوائف، فنجدها تقسم سوريا أولا إلى أربع «دول»: العلويين (شيعة)، والدروز، ودمشق، وحلب، هذا عدا الاسكندرونة وعدا لبنان الذي وسعوه من «لبنان الصغير» إلى «لبنان الكبير» بتخطيط روعي فيه حشد أكبـــر أقلية مسيحية ممكنة في رقعة واحدة . وفي مصر، حتى منذ الحملة الفرنسية، حاول الاستعمار خلق مقابلة مكذوبة زائفة بين «فلاحين وأقباط». وفي جنوب السودان كان التبشير الاستعماري سلاحاً خطيراً أريد به منذ البداية تعميق الهوة بين الجنوب والشمال وصولا في النهاية إلى فصل سياسي بينهما كامل ومبيت. غير أن الوعي الوطني كان دائماً يهزم الاستعمار ويفوت عليه أغراضه، فما انصهرت الوحدة الوطنية بين الطوائف في مصر مثلا إلا على نار الثورات الشعبية المتتالية ضد الاستعمار، وظل الأقباط أبداً كتلة رصيفة رصينة من صميم جسم الأمة. وفي الشام فشلت كل مناوراته للبلقنة السياسية على الأساس الطائفي في سوريا .

ليس هذا فحسب كل ما حاول الاستعمار، بل إنه حيث لم يجد طائفية متعددة الأديان حاول أن يخلق ويفتعل طائفية وهمية داخل الدين الواحد! وفى هذا السبيل كان يلح بإصرار سافر على الفرق والفروق المذهبية داخل الإسلام ويروج لها على أنها ظاهرة طائفية، وهو ادعاء مرفوض علمياً مثلما هو دينياً. ففى العراق كانت السياسة البريطانية التقليدية تدور محورياً حول تضخيم خلاف مصطنع بين سنية الشمال وشيعية الجنوب حتى يستقطب الحياة اليومية فى صراع مذهبى مختلق ويستقطب الشعب بعيداً عن الوحدة الوطنية .

كذلك ما أكثر ما كان يكتب منظرو الاستعمار بأن النظام السياسى فى العراق ليس إلا قاعدة من الشيعة تحكمها وتتحكم فيها قمة من السنة ! (١) بل إلى أبعد من هذا ذهب الاستعمار: فقد كانت خطته القائدة هى أن يعزل العراق عن الوطن العربى كلية على أساس ربطه بإيران التى، بدورها، ظل الاستعمار يردد خطأ ومغالطة أنها شيعية أولا وإسلامية ثانياً (كذا!) (٢) وواضح أن هذه السياسة المزدوجة كانت تستهدف معاً وفى نفس الوقت تدمير الوحدة القومية للعرب، وبنفس الدرجة تدمير الوحدة الدينية للمسلمين!

---

(١) J. Beaufeu - Ganjer, L'Economie du Moyen - Orient, Paris, 1954, P. 96...

(٢) روندو . جـ ٢ ص ١٢٦ .

هذا فى العراق، أما فى سوريا منذ الاستقلال فلم تخل انقلاباتها العسكرية المتواترة ـ وجميعها تقف أصابع الاستعمار الجديد من ورائه ـ لم تخل من لعبة السنة والشيعة بصورة ما من الصور، علنية أو مستترة. وحتى فى اليمن الإمامى، كانت سياسة الرجعية الحاكمة هى مضاربة الزيود الشيعيين فى الهضبة بالشوافع السنيين فى السهول، وإذكاء الصراعات بينهم لتضمن هى طغيانها وحكمها المطلق الحفرى المتحجر. بل وحتى فى مراكش حيث لا طائفية ولا مذاهب، عمد الاستعمار الفرنسى بين الأقلية اللغوية البربرية إلى إحلال القانون البربرى محل الشريعة الإسلامية وذلك فى صورة «الظهير» البربرى الشهير .

تلك جميعاً أدلة وأمثلة حاسمة على مدى ما وصل إليه الاستعمار الأجنبى فى تطويع، أو بالأحرى تحريف، الدين لأغراضه السياسية. ومن الواضح أن المصل المضاد كان دائماً وسيظل أبداً هو الوعى الوطنى والقومى. وإذا كان الاستعمار يحاول الآن – ومنذ انبثقت حركة القومية العربية المعاصرة – إشاعة المعارضة لها بين الأقليات الدينية (وغير الدينية فى هذا الصدد)، والتلويح لها بخطر الإغراق والابتلاع فى الأغلبية، ويعمل على تجييشها فى صفوف الانفصالية، فإن لنا نحن أن نتذكر أن تلك الأقليات بالذات، وفى

سوريا بالدقة، كانت هى الرائدة الأولى منذ أوائل هذا القرن فى رفع لواء القومية العربية ودفع حركتها. الوعى بالوحدة القومية وحده إذن، والبعد القومي الذى يمكن أن يحتوى البعد الدينى دون أن يتعارض معه أو يقصر دونه أو يضيق به، ذلك هو الرد الصحيح على كل استغلال للدين للتخريب السياسى سواء من قبل الاستعمار الدخيل أو الرجعية الداخلية .

إندونيسيا ، تركيا ، الباكستان

لنترك العالم العربى الآن، ولننتقل إلى العالم الأسيوى حيث ثلاثية من الدول الإسلامية تقف فى سلم تصاعدى من حيث دور الدين فى وجودها السياسى، وكل واحدة منها تستحق وقفة خاصة. من أقصى الشرق، فى دولة الجزر إندونيسيا، نبدأ. فهنا حيث يبلغ السكان الآن كما رأينا نحو ١٢٠ مليوناً، ويسجل الإسلام زهاء ٨٠٪ بمجموع قد يتعدى عدد المسلمين فى الباكستان مما قد يمنح الدولة مكان الصدارة فى العالم الإسلامى، هنا لا مفر من أن يلعب الإسلام دوراً محسوساً فى السياسة. فمنذ الاستقلال كانت إندونيسيا تذخر بالتشكيلات والجماعات والأحزاب الإسلامية التى

يصفها الغربيون عادة بالتطرف من مثل جمعية دار الإسلام وعلماء الإسلام والحزب الإسلامي.

ومنذ الاستقلال أيضاً فإن هذه العناصر كانت تضغط بقوة وباستمرار من أجل تحويل الدولة إلى ثيوقراطية جذرية. ولكن القيادة السياسية وقتئذ - سوكارنو - ظلت تؤكد أن تغليب الأيديولوجية الإسلامية المطلقة على التوجيه السياسي أدعى إلى التفكك الوطني منه إلى التماسك والوحدة الوطنية، واكتفت بأن تضمنها الأيديولوجية المركبة التى اتخذتها شعاراً لها وبوصلة وهى خماسية البانتشاسيلا المشهورة Pantjasila [1] وقد كثف سوكارنو على المستوى التطبيقى فيما يبدو هذه الخماسية إلى ثلاثية الجديدة فيما بعد وهى الناسا كوم: كجبهة موحدة تجمع بين القومية والإسلام والشيوعية رغم ما بين أطرافها من تناقضات جوهرية متبادلة .

ودور الجماعات الإسلامية فى الانقلابات الأخيرة والغليان السياسى الذى عاشته إندونيسيا منذ بضع سنين، إنما هو مسألة أحداث جارية ووقائع يومية لاتحتاج إلى دليل، وبه كانت تأخذ موقفاً مستقلا فيما يبدو عن كل من الشيوعية والعسكرية. وليس من السهل دائماً أن نحدد الموقع السياسى للاسلام كقوة فى كيان

(١) المرجع السابق . ص ١٦- ٢٣ .

إندونيسيا، ولكنه بصفة عامة مثل أساساً ثقلا مضاداً ومكافئا للقوى العلمانية والإلحادية على حد سواء .

من إندونيسيا يمكن أن نتتبع وضع الإسلام السياسى فى الدولة صعداً إلى أقصى درجات تطرفه فى حالتين بعينهما هما تركيا والباكستان، فهما بحق طرفا نقيض. فالأولى تخلت رسميا عن الإسلام كدين الدولة بعد أن كانت دولة دينية أصلا بل مركز «الخلافة» الإسلامية ذاتها، والثانية لم تقم أصلا إلا على أساس دينى بحت، فكانت الدولة الدينية نشأة وإلى حين ما دستوراً .

فأما عن تركيا، فالحقيقة أنها ماظهرت على مسرح السياسة العالمية منذ فجر العثمانية إلا على دعوة الإسلام، وإلا بعد أن قفزت على خلافة الإسلام قفزاً وربما اغتصاباً. وهى لم تجد مبرر وجودها بعد ذلك فى مراحل ضعفها إلا فى دعوى الإسلام والدفاع عنه، بل وصلت فى أخريات أيامها إلى أن تبتز الدين لحساب السياسة وتستغل الإسلام - فى صورة الجامعة الإسلامية - لتضمن بقاءها السياسى، بل عمدت أحياناً فى النهاية إلى أن توهم الغرب ـ الذى كان أحياناً يتصور أن الخلافة هى بابوية الإسلام - بأن الباب العالى هو فى حقيقته البابا العالى وذلك حتى تكتسب هيبة دينية تدفع عنها أخطاره العسكرية .

غير أن تركيا انقلبت بعنف وعصبية من النقيض إلى النقيض

حين وجدت أن الدين لم يعد سلاحاً سياسياً مؤثراً فى يدها أو يحقق لها وجودها الإمبراطورى الزائل. فكانت الكمالية كما يقدر البعض ثورة على الدين ـ الدين السياسى على الأقل ـ بقدر ما كانت ثورة من أجل الوطن. ذلك أن الدولة الجديدة انسلخت رسمياً عن الدين مثلما فصلت المدرسة عن المسجد والقانون عن الشريعة، وأصبحت دولة علمانية، الإسلام فيها دين شخصى أو خصوصى، بل إن هذا حاولت الكمالية «تتريكه» هو الآخر فى الدولة الوطنية الجديدة .

على أن هذا جميعاً لم ينجح فيما يبدو فى أن يزعزع الإسلام كعقيدة، خاصة فى الريف، وهناك فى السنوات الأخيرة شواهد حتى على نوع من العودة التدريجية الخفيفة إليه [1] . ومع ذلك فإن دور الإسلام فى توجيه السيـاسة الخارجية لتركيا الحديثة قد تضاءل واهتز بحيث وصلت هذه فى يوم ما إلى حد مجافاة إن لم يكن معاداة بعض الدول العربية، وفى نفس الوقت إلى حد الاعتراف بدولة الصهيونية فى إسرائيل. وإذا كان من أسف أن هذا الاعتراف مازال قائماً للآن، فإن من حسن الحظ أن تركيا قد بدأت خطاً سياسياً جديداً تجاه الصراع العربى ـ الإسرائيلى،

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٥ – ١٧٨ .

اقتربت به من العرب خطوات بقدر ما ابتعدت عن العدو الذى قلصت معه علاقاتها التجارية بدرجة محسوسة .

أما الباكستان فإنها إذا كانت ـ فى معنى ـ تذكر بتركيا إذ ظهرت مثلها بعملية طرح، بالانشطار عن وحدة سياسية أكبر كانت قائمة، فهذا تشابه ثانوى، أهم منه هذا التناقض الجذرى الذى يتلخص فى أن الواحدة تقلصت وتحولت من دولة دينية إلى دولة علمانية والأخرى انسلخت من وحدة سياسية مدنية إلى وحدة سياسية قوامها وأساسها الدين. فالباكستان ـ التى يجمع اسمها بين رموز المقاطعات الإسلامية فى الهند القديمة، والذى يعنى أرض الأطهار ـ هى التجسيد السياسى لفكرة وفلسفة إقبال الدينية ودعوته إلى كيان سياسى مستقل لمسلمى الهند رداً على الأخطار الخطيرة التى يتعرضون لها كأقلية فى محيط هندوكى مخالف فى الجنس والعرق إلى حد ما، متباين فى اللغة والتاريخ إلى حد آخر، ومتنافر فى العقيدة والثقافة إلى أقصى حد «هم يعبدون البقرة ونحن نذبحها!».

من هنا جاء خلق (أو انفصال، كيف نحدد؟) الباكستان ملحمة دموية مؤسفة، ولم تطف إلى كيانها إلا على بحر من الدماء، ولم تنتزع استقلالها إلا فى وجه مقاومة الاستعمار المغادر والأغلبية المقيمة. ولقد صحبت عملية الولادة الجراحية هذه انتقالية سكانية

ضخمة من الهجرة المزدوجة انتظمت ١٧ مليوناً ما بين الدولتين الجديدتين دون أن تحقق - فى النهاية تجانساً معقولا بلا أقليات لأى من الجانبين. فى زال فى الباكستان أكثر من ٢٥ مليوناً من غير المسلمين يناهزون خمس مجموع السكان، بينما أن بالهند نحو ٥٥ - ٦٠ مليوناً من المسلمين إن لم يزيدوا على عشر سكانها فهم يعادلون نصف مسلمى الباكستان تقريباً .

كل شئ إذن يشى بالصبغة الدينية للباكستان أصولا ونشأة وكياناً. ولذا كان من الطبيعى أن تتسمى منذ البداية باسم جمهورية الباكستان «الاسلامية»، وكان أول أهدافها الوطنية تطبيق الإسلام فى كل مجالات الدولة والحياة الرسمية واليومية للأمة، كما كانت تنخر بقوى وجماعات الضغط الدينية، بعضها عنيف متلاطم، يعمق الإيديولوجية الإسلامية وأحياناً يجمدها. بل أبعد من هذا كله كانت الباكستان تتطلع فى النهاية إلى هدف ليس أقل من خلق الدولة الإسلامية العالمية التى تطوى الإسلام العالمى طياً («لقد أتت باكستان، ويجب أن تأتى إسلامستان» !). ومع ذلك قد انتهت المحاولة بعد تجارب عديدة شاقة إلى النكوص وتخلت الدولة أخيراً عن صفة «الإسلامية» فى اسمها، ولو أنها تظل تحتفظ بالنص على أن يكون دستور الدولة من « وحى إسلامى »[(١)] .

ولعل من المفيد هنا أن نلاحظ الفارق السياسى بين إسلام الهند

(١) رونفو. ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٦٠ ، ج ٢ ص ١٦٧ .

وإسلام الصين. فالمسلمون فى الصين ليسوا تماماً مختلفين جنسياً فى جملتهم كأقلية عن كتلة الشعوب الصينية العريضة، ثم إنهم بوجه عام لم يكونوا انفصاليين فى معظم مراحل تاريخهم بها لذلك السبب، وربما أيضاً لقلتهم على الإطلاق والنسبة. أما فى الهند فالسواد الأعظم من المسلمين ينحدر من أصول هندو آرية لا يشترك معهم فيها من الهندوس إلا قطاع صغير. وهم كأقلية ضخمة الحجم ليست ضئيلة النسبة كانوا يشعرون دائماً بذاتية خاصة ويحتضنون ميولا واتجاهات انفصالية، بل لقد حققوا لأنفسهم بالفعل استقلالهم السياسى منذ بابرو أكبر حين أسسوا فى القرن السادس عشر دولة المغول الأكبر فى شمال الهند، وسيطروا على جزء كبير من جنوبها إلى أن قضى عليها الاستعمار البريطانى. وفى هذا المعنى قد يجوز أن تعد دولة الباكستان إحياء أو نظيراً فى شكل عصرى جديد لدولة المغول الأكبر، وربما صح أن نقول إن الخيط الذى ألقاه بابرو أكبر قد التقطه فى النهاية إقبال وجناح .

غير أن نقطة الضعف الكبرى فى الدولة الجديدة هى بلا شك انشطارها - نتيجة أو ضحية للصدفة التاريخية فى التوزيع الجغرافى للاسلام - إلى شطرين يفصل بينهما فاصل أرضى عمقه ١٠٠٠ ميل كاملة من التراب الهندى، ولا بديل عنه طريقاً للاتصال سوى طريق البحر حول سيلون - قل كما لو تركت طريق السويس إلى طريق الرأس. والباكستان الشرقية بالذات، فضلا

عن هذا، تكاد تكون إسفيناً فى جسم الهند أكثر منها جيباً على ضلوعها. والباكستان بهذا هى الدولة الوحيدة فى العالم الإسلامى، بل فى العالم كله باستثناء دول الأرخبيلات الجزرية والولايات المتحدة، التى تتألف من جزيرتين أرضيتين منفصلتين تماماً. والدولة الإسلامية هنا تظل تحت رحمة الهند، ليس فقط بالانحدار الجيوبولتيكى الرهيب (١:٥، أو ٥٥٠ مليوناً:١٣٥ مليوناً) بل وبالتركيب السياسى المزق أيضاً.

وفضلا عن هذا فإن لذلك الانشطار الغائر نتائجه العميقة على تماسك ووحدة الدولة، فهو يباعد مابين الشطرين ويجمد الفروق ويخلق الحساسيات والموازنات بينهما، لا سيما أنهما مختلفان عن بعضهما البعض فى كل شىء تقريباً ماعدا الدين. فالباكستان الشرقية، بعكس الغربية، تعانى من شدة اكتظاظ السكان ومن إفراط السكان، ومستوى المعيشة بها أشد انخفاضاً. والواقع أن الباكستان الشرقية أقرب موقعاً وبيئة وحضارة إلى الشرق الأقصى، فى حين تصنف الباكستان الغربية أحياناً فى الشرق الأوسط الذى تقترب كثيراً من مناخه الحضارى والثقافى العام. وإنه لمن حسن حظ الباكستان حقاً تقارب شطريها نسبياً فى الأصل الجنسى - وإلا لكانت الهوة أعمق [١].

ومع ذلك فإن الباكستانيين الغربيين يشيرون إلى الشرقيين

(١) J.P. Cole, Geography of world Affairs, Pelican, 1963., P.186.

عادة باسم «البنغاليين»، والواقع أن هؤلاء الأخيرين يبدون بعضاً من التشابه الجنسي مع عناصر الهنود السائدة .

لكل هذه الأسباب كانت العلاقة الحرجة بين جناحي الدولة أشبه سياسياً بعملية «شد الحبل». فإذا كان الباكستان الغربية هي منشأ الدولة ومركز الحكم بفضل سيادة الإسلام عليها سيادة شبه مطلقة، فإن الباكستان الشرقية إن تكن أقل في نسبة وعدد المسلمين فهي ترى نفسها تتفوق اليوم سكاناً في مجموعها، كما تدرك أنها اقتصادياً الأكثر إنتاجاً ومساهمة في كيان وميزانية الدولة، ولكنها مع ذلك تشعر بأنها تعامل «كالأقارب الفقراء» في عائلة الدولة .

وفي النتيجة، فلقد ظهرت في الفترة الأخيرة بعض اتجاهات تدعو إلى «تقدير "federalisation" الدولة، أي تحويلها إلى كيان فيدرالي، وأخطر منها اتجاهات تدعو إلى الانفصال السياسي التام، وهو أمر خطير لأنه يلقي ظلالا ويثير تساؤلات على صميم كيان الدولة باعتبارها دولة دينية النشأة. وهذه الاتجاهات، التي يمكن أن تخل بالتوازن الحرج الراهن بين الباكستان والهند، لا تقلق الأولى فحسب بل فيما يبدو تقلق الثانية معها للغرابة والدهشة، ذلك أن مثلها لو تحقق يمكن أن يفتح الباكستان الشرقية خاصة للنفوذ الصيني الضخم مما يمكن أن يخل بدوره بالتوازن الأشد حرجاً بين الصين والهند .

لكن المشكلة العاجلة والماثلة التي تواجه الباكستان وتوتر كل

حياتها الداخلية بل وتحكم كل سياستها وتوجيهاتها الخارجية إنما هى مشكلة كشمير (وجامّو). وهى ابتداء مشكلة دينية صرف، تدور حول رغبة الباكستان وتصميمها على ضم عدة ملايين ـ نحو سبعة ـ من المسلمين أخطأهم التقسيم بصدفة قانونية. هذا فضلا عن أن كشيمر تضم المنابع العليا، أى المفاتيح الهيدرولوجية، لكل مشاريع الرى الحيوية فى الباكستان الغربية، وهى دولة رى فى جفاف، كما تضم مفاتيحها الاستراتيجية التى يمكن أن تهددها عسكرياً.

وتبدأ المشكلة مع قرار تقسيم الهند، فإن نظام الاستقلال الذى وضعه الاستعمار ترك لحكام الولايات حق الاختيار بين الانضمام إلى الهند أو إلى الباكستان، مما أدى بكشمير المسلمة التى يحكمها هندوكى (عكس ماعرفت حيدر أباد فى الجنوب) إلى أن تئول إلى الهند. فكشمير هندية قانوناً وشكلا، ولكن باكستان تراها باكستانية حقيقة وموضوعاً، وهى تطالب بإصرار بضمها. أما رغبة كشمير نفسها ـ الشعب أعني ـ فواضحة كل الوضوح: مع باكستان الأم. فكشمير فى تقدير الباكستان أرض سليبة، وهى بالنسبة إلى الهند أرض منشقة terra irredenta ومن ثمّ فقد تعددت الاضطرابات والثورات والاضطهادات داخل كشمير كما تعددت الصدامات والصراعات بين الدولتين، حتى كانت الحرب غير المعلنة الأخيرة ١٩٦٥. وما زالت المشكلة بركاناً متفجراً بالقوة وإن بدا خامداً من حين لآخر.

وليس يعنينا هاهنا أن نتخذ موقفاً، حتى وإن يكن على أساس العلم، ولكنا نشير باقتضاب إلى رأى جغرافى بريطانى يقول فيه عن كشمير «إن سكانها مسلمون بصفة غالبة، ولهذا السبب ينبغى أن تنتمى إلى الباكستان» (١) . والواقع أن مشكلة كشمير لا تهدد السلام العالمى فحسب، ولكنها الآن تحكم إلى حد كبير السياسة الخارجية لكل من الدولتين المتنازعتين. فهى أساساً التى جذبت الباكستان بدرجة أو بأخرى من الفلك المطلق للمعسكر الغربى لتتقارب من الصين الشعبية العدو الأول حالياً لكل من الهند وذلك المعسكر، وفى نفس الوقت بدأت الهند فيما يبدو للبعض تتحرك من الفلك المطلق لعدم الانحياز لتتقارب بقدر ما مع الغرب وبقية الشرق.

حركـــة التطـــور

بعد هذه الرحلة بين الدول الإسلامية المعاصرة يجوز لنا أن نتساءل : أليس هناك إذن دولة أو دولة دينية بمعنى الكلمة فى عالم الإسلام اليوم ؟ من أسف أن النظم السياسية القليلة التى تتخذ من الإسلام بالفعل أساساً للحكم والسلطة ليست إلا ثيوقراطيات رجعية متخلّفة متحجرة تمثل ربما أسوأ دعاية ممكنة لفكرة الدولة الدينية الإسلامية . وبعض هذه الدول الثيوقراطية تدهورت من أسف إلى

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

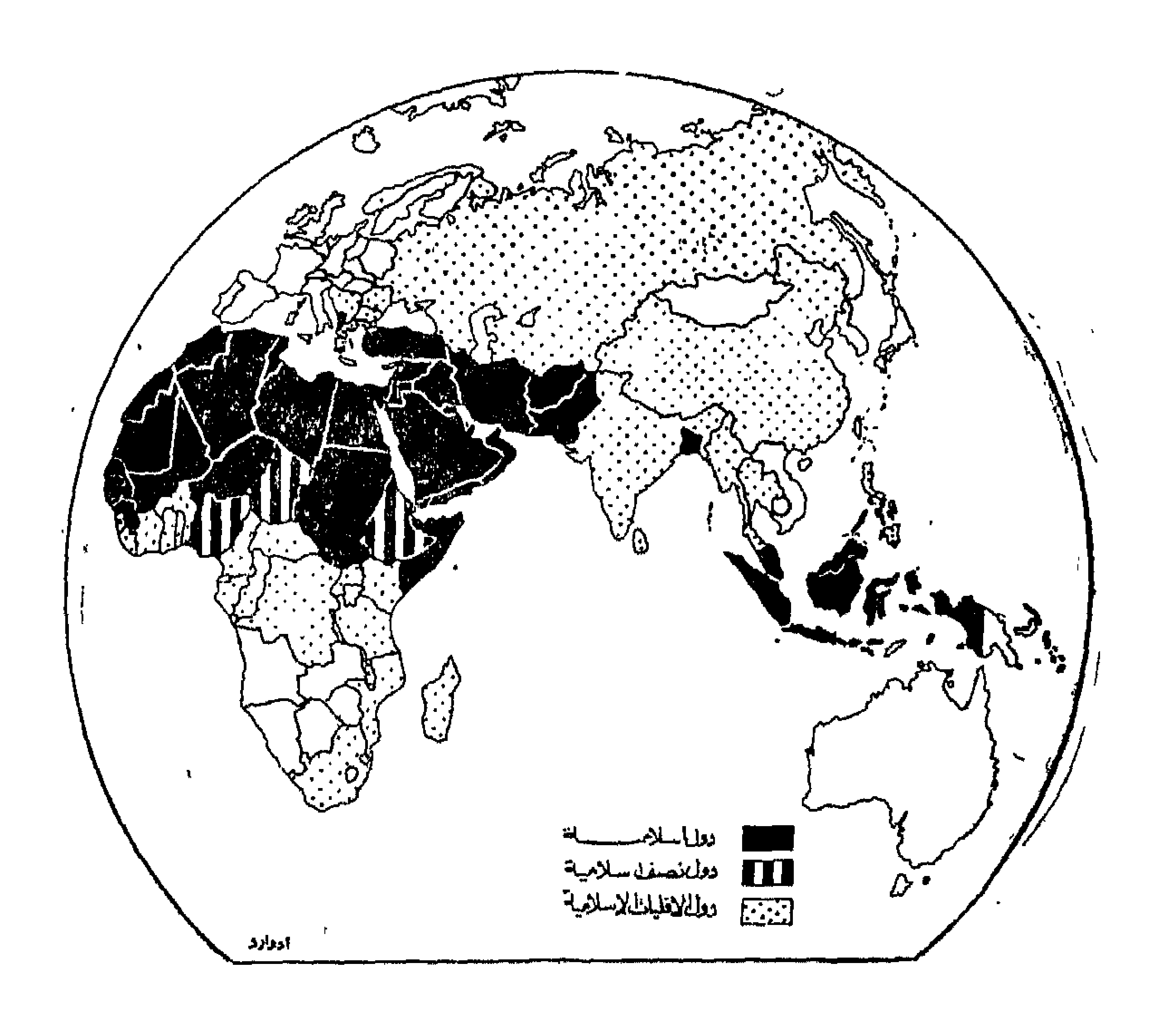
أدوات للقهر السياسى وتكريس التخلف والجمود، وإلى قوى سلفية تسعى إلى العودة إلى الماضى وتعادى التطور باسم الدين. ولعل الإمامة فى يمن ماقبل الثورة أن تكون المثل أو بالأصح الأمثولة، بينما ثمة كانت مرحلة أقل تخلفاً وانغلاقاً نسبياً فى ليبيا ما قبل الثورة .

على أن الملاحظ من الناحية الأخرى ، كما فى هاتين الحالتين بالفعل، أن تلك الأنظمة نفسها، بما تخلق من مناخ سياسى وحضارى واجتماعى يدفع إلى الانفجار بعد الغليان، كانت من أكثر الدول عرضة لمد الثورية الكاسح والمعاصر فى العالم الثالث، الذى يتهدد بقيتها الآن بالقوة أو بقوة. ومن ناحية أخرى، فإن هناك بين الدول شبه الدينية مرحلة أكثر علمانية نجدها باطراد فى كل من الأردن ودولة المغرب .

وعدا هذا فثمة دولة جديدة تسمى نفسها «بالإسلامية» هى جمهورية موريتانيا، غير أن هذا حفزت إليه اعتبارات سياسية أكثر منها دينية فى الحقيقة ونعنى بها الرد على ادعاءات الدوائر الحاكمة فى دولة المغرب المتاخمة التى تتخذ مسحة دينية موروثة، ولم تكن تخفى أطماعها التوسعية فى موريتانيا . ومن حسن التوفيق أن هذا الصراع السياسى بين الدولتين المسلمتين الشقيقتين الجارتين قد صفى أخيراً حيث اعترفت المغرب

بموريتانيا دولة مستقلة ذات سيادة وتخلّت عن ادعاءاتها السياسية فيها ومحاصرتها الدبلوماسية لها .

وتبقى فى النهاية حقيقة هامة كما هى عامة عن الدول الدينية الإسلامية. فالملاحظ أن أغلب هذه الحالات هو النتج النهائى للدويلات المحلية التى بدأها فى القرن الماضى شيوخ الطرق فى قوقعات الصحراء بدعوى الدفاع عن الإسلام ضد الأخطار الاستعمارية والتى أصبحت بعد ذلك ورغم ذلك دولا من صنع الاستعمار وخاضعة له وأدوات تابعة كل التبعية. والملاحظ أيضاً أنها تتحول بالتدريج عن الشكل الدينى إلى المحتوى العلمانى باطراد، وأنها بذلك فى سبيلها التمهيدى إلى الانقراض، دليلا على أنها لا تصلح للبقاء فى حضارة النصف الثانى من القرن العشرين. وقد لايدل هذا بالضرورة على عجز فكرة الدولة الدينية من حيث هى، بقدر مايدل على تحريف أصحابها لها وفشلهم فى تطبيقها .



شكل (٦) خريطة الإسلام السياسية - التقسيم الثلاثى مبنى على أساس كثافة الإســــلام ، أى نسبة الإســــلام فى كل دولة

الدول نصف الإسلامية

فإذا ما انتقلنا إلى الدول نصف الإسلامية ـ النمط اللبنانى إذا شئت ـ وجدنا قلّة معدودة لا تزيد على الأربع : لبنان كالنموذج الكلاسيكى، ثم إثيوبيا ونيجيريا وتشاد فى إفريقيا على «خط الاستواء البشرى» منها بين الشمال والجنوب. والأوليان من دول السهل والجبل، والأخريان من دول الصحراء والغابة، أى أن هناك ثنائية طبيعية تميزها جميعاً إلى جانب الثنائية الدينية، وهى علاقة جديرة بالانتباه .

ورغم الفروق العديدة التى تميز بين هذه الدول المتباعدة، فثمة تجمع بينها عدة ملامح جوهرية لا تخطئها العين فى التركيب السياسى، تتواتر وتتكرر فى تنويعات قد تكون أحياناً ثانوية ولكنها لا يمكن إلا أن تجعل منها جميعاً عائلة سياسية واحدة. وليس ثمة شك أن الضابط الأساسى خلف هذا التشابه العائلى إنما هو التركيب الدينى بتوازنه الدقيق .

الملامح المشتركة

ففيها جميعاً تتقارب كفتا الميزان، ميزان الأديان، بدقة مقلقة، أو فى شد حبل متوتر. وليس من الصدفة بالتأكيد أن مجرد تعداد السكان فى أكثر من حالة منها قضية سياسية حلت إما بعدم التعداد أحياناً (لبنان) أو تخلفاً (إثيوبيا) وإما بتعداد – معركة (نيجيريا) ! وحيث تتنوع التضاريس كما فى لبنان وإثيوبيا فالسهول للاسلام وللمسيحية الجبال، وإلا فهو الشمال للاسلام والجنوب لسواه (تشاد ونيجيريا) .

ولا ينتهى التناظر عند هذا الحد، بل يمتد إلى الشكل السياسى أيضاً .

فالانفصالية المعلنة، أو على الأقل الصراع السياسى السافر، سمة شبه مشتركة عرفها لبنان الصغير قبل الكبير، وعاشتها نيجيريا الاتحادية بعنف، وتتفجر أحياناً ـ وهى المكبوتة ـ فى إثيوبيا التى كانت اتحادية وبالقوة لم تعد. إنها باختصار دول الثنائية الدينية، دول «ميزان الرعب الطائفى» كما وصفت، وهى لذلك «جنة» المؤامرات الاستعمارية كما أثبتت التجربة. ولقد قيل عن بعضها بحق إنها عربة يجرها جوادان كل يشد فى اتجاه مضاد..

ولنفصل. فى لبنان ظل التعداد بانتظام موضع أخذ ورد وشكوك من الجانبين، وفى غياب الدقة الوثيقة يدّعى كل من الطرفين أنه يمثل الأغلبية الآن: المسلمون على أساس معدل المواليد الأعلى تقليدياً، والمسيحيون على أساس أن هجرتهم إلى المهجر قد توقفت منذ وقت بعيد. وتقدر بعض المصادر أن نسبة الإسلام فى لبنان اليوم ٥٧٪ أما فى أثيوبيا فليس ثمة تعداد حتى الآن، وتقدير حجم السكان الكلى، فضلا عن نسبة الإسلام، أمر متروك للتخمين البحت، ومفتوح لكل التأويلات والإيحاءات، ولكن التقدير السائد هو التصنيف. ومثل هذا يثبته التعداد بالفعل لإرتريا (المسلمون نصف مجموع السكان البالغ ١,٥ مليون) .

أما فى نيجيريا فقد كانت نسبة الإسلام كما رأينا تقدر بصفة عامة بنحو ٤٦٪ أيام الاستعمار (تعداد ١٩٥٣) [١]، ولكن مع الاستقلال وازدياد حدة الصراع الداخلى القائم على أسس قبلية ودينية، أصبح للعدد والنسبة وزن سياسى جديد. وقد انعكس هذا على أول تعداد لنيجيريا المستقلة (١٩٦٢) حيث تحول إلى أزمة سياسية خطيرة كان لها دوىّ عالمى واسع وارتبطت بالاضطرابات

(١) W. H. Lewis, Islam and Nationalism in Africa, in : Arab Middle East & Moslem Africa, ed. T. Kerekes, Lond., ١٩٦١ , ٤ PP. 72-4..

والعمل البوليسى بل وإراقة الدماء ! وخرجت نتيجة التعداد وهى موضع شك الجميع سواء من حيث نسب الديانات المختلفة أو من حيث مجموع السكان العام (٥٥,٥ مليون نسمة) الذى تورّم برغبة كل طائفة فى تضخيم عددها. ولهذا فمن الأسلم ربما الاعتماد على نسب الديانات المختلفة فى أقاليم نيجيريا بحسب تعداد ١٩٥٣، وكانت كالآتى فى المائة :

الإقليم	مسلمون	مسيحيون	آخرون
الشمالى	٦٩,٣	٣,١	٢٧,٦
الشرقى	٠,٣	٥٠,٠	٤٩,٧
الغربى	٣٢,٣	٣٦,٢	٣١,٥
الفيدرالى	٤١,٨	٥٥,٠	٣,٢
نيجيريا	٤٤,٣	٢١,٩	٣٣,٨

هكذا نرى أن مجرد تحديد نسب الأديان فى الدول نصف الإسلامية هو أول وأبسط عرض من أعراض التوتر الداخلى الكامن والعميق. ولكن الجوانب المادية والاقتصادية فالسياسة عرض أخطر. وهنا مرة أخرى تتكرر أغلب الملامح بين هذه الدول إلى حد يؤكد فيها صفة النمط والنوع المشترك. فحيث تتنوع التضاريس كما فى لبنان وإثيوبيا، فالسهول يسودها الإسلام (اسلامبحرى فى إثيوبيا) والجبال معاقل المسيحية (الجبل فى لبنان)، وإلا فهو الشمال للاسلام والجنوب لما عداه (تشاد ونيجيريا). وهذه التوزيعات والارتباطات طبيعية من حيث إن الجبال فى الحالة الأولى كانت أصلا مناطق التجاء وقلاع حماية للعناصر المستضعفة المغلوبة، ومن حيث إن الشمال، فى الحالة الثانية، كان مصدر زحف الإسلام وتقدمه. ولكن الغريب أن التوازن الاقتصادى والسياسى بعد هذا يبدى شذوذاً خاصاً، يكاد يكون قلباً تاماً للمنطق الطبيعى والقانون الجغرافى .

ففى الدولتين المضرستين ترجح كفة الجبال ـ فى الماضى بدرجة أقوى، ولكن حتى الآن بدرجة ملحوظة ـ ترجح فى الثروة الاقتصادية ومستوى الدخل والمعيشة ودرجة التطور الحضارى والتعليم، وبالتالى تتركز السلطة والقوة السياسية فيها . ففى لبنان ـ حيث يعبر عن الاقتصاد الزراعى بصيغة طائفية أحياناً فيقال: إن

التفاح مارونى والبرتقال مسلم (!) ـ يقوم النظام السياسى كله وتوزيع القوى فيه، كما يحدده بوعى وعن عمد الميثاق الوطنى، ليس على أساسَ الطائفية المباشرة فحسب، وإنما على أساس أن اليد العليا هى بوجه عام للجانب المسيحى (١) . أما فى إثيوبيا فالنظام الامبراطورى مسيحى بلا مواربة ولا توسط فى وجهته ومسحته وسياسته؛ وبعامة ، فإن وضع المسلمين فى إثيوبيا لم يكن مريحاً فى أى وقت .

أما فى تشاد ونيجيريا، فالملاحظ أن الجنوب هو الأكثر تطوراً ورقيا، مادياً وحضارياً وثقافياً، أما الشمال الإسلامى فأكثر تخلفاً وجموداً نوعا ما، ومن ثم فإن السلطة السياسية تجنح تلقائياً إلى أن تتركز فى الجنوب : فإذا قدم الجنوب مثلا الحكام وكبار الإداريين والموظفين، قدم الشمال الكتبة وصغار العاملين، وإذا قدم الجنوب ضباط الجيش وقادته، قدم الشمال الجنود والرتب الدنيا .. الخ. وهذا قلب تام للقاعدة العامة المألوفة من أن الإسلام فى إفريقيا السوداء هو الذى رفع مستوى حضارة ومعيشة أتباعه بالنسبة إلى العناصر الأخرى وثنية أو غير ذلك .

غير أن الذى يفسر ذلك إنما هو الموقع الجغرافى وسياسة

---

(١) Royal Institute of Interuational Affairs, The Middle East, Lond. 1958, PP. 452-460.

الاستعمار. فقد دخل الاستعمار هنا من السواحل، من الجنوب، وركز نشاطه التبشيرى بجانب نشاطه الاقتصادى والتنمية الحضارية فى الجنوب دون الشمال القصى، فكان أن تخلّف الشمال مادياً وثقافياً وظل على ماكان عليه بينما انتقل الجنوب نقله حضارية واسعة. ومن هنا ارتبط الإسلام الشمالى بالفقر والتخلف، وأصبحت اليد العليا سياسياً للجنوب غير المسلم [1] . وفى النتيجة فإن الإسلام فى كل الدول نصف الإسلامية يصبح هو الطرف الأضعف فى التوازن الوطنى .

ولا ينتهى التناظر بين هذه الدول عند هذا الحد، فمثل هذه الأوضاع حبلى بطبيعتها بالنتائج السياسية الخطيرة التى تتداعى بدورها فى تناظر تلقائى بعيد المغزى. ففى كل هذه الدول تصطرع الاتجاهات السياسية المتنافرة على أساس طائفى لا جدال فيه للأسف، وتتجمد الأحزاب السياسية على قوالب طائفية واضحة التبلور. فالانفصالية المعلنة أو على الأقل الصراع السياسى السافر سمة مشتركة. وإذا بدت هذه الدول شكلا وقانوناً دولا علمانية، فإن أغلبها فى حقيقته دول دينية فى أكثر من معنى، بل وبأكثر مما تبدو بعض الدول الثيوقراطية رسمياً خارج أو داخل العالم الإسلامى !

---

(١) جمال حمدان، إفريقيا الجديدة. دراسة فى الجغرافيا السياسية، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٧٧ .

مسح إقليمي

ففى لبنان ما زال التاريخ يتذكر بمرارة صدام ١٨٦٠ الذى باد فيه بضعة ألوف من المسيحيين وكذلك من المسلمين، والذى تمخض عن تدخل الدول الأوربية ـ فرنسا خاصة ـ لتفرض حمايتها على الأقلية المسيحية ولتنتزع لها من الدولة العثمانية وضعاً خاصاً كان هو بلا ريب أساس انفصالية «الكيان» اللبنانى فيما بعد. وحتى الآن يحتفظ لبنان «بوضع خاص» بين الدول العربية انتهى به إلى حالة من التحفظ السياسى تقريباً أو قل التحييد السلبى نوعاً الذى سلبه قدراً من فاعليته وتأثيره .

وعلى سبيل المثال فإن النصف المسلم، الذى كثيراً ما طالبت مناطق عديدة منه بالانفصال عن دولة لبنان قبل ومنذ الاستقلال، يطالب أحياناً بالوحدة مع سـوريا ويؤيد الوحدة العربية الكبرى، فى حين أن النصف الآخـر يعارضها بعامة ويصر على كيان التجزئة والانفصال. والأحـزاب والتكتلات السـياسية جميعاً

ليســت إلا انعكاساً مباشــراً للتكوين الطائفى وتعبيــراً حــاداً عنه (١) .

وبين هذا وذاك نفذ الاستعمار والنفوذ العربى إلى لبنان ليجعل منه بحق سويسرا العرب سياسياً، بمثل ما جعلته الجغرافيا سويسرا الشرق الأوسط طبيعياً. فلبنان ـ باعتبار طغيان العاصمة على كيانه العمرانى وحياته المادية ـ ليس «دولة مدينة» فحسب، وإنما هو أبعد من هذا «مدينة مفتوحة» أى أن كل الوجود الاجتماعى والمادى، البشرى والاقتصادى للبنان فى الداخل، وكل سياسته وتوجيهه فى الخارج عربى وعالمى، هو فى التحليل الأخير وظيفة للطائفية بطريقة أو بأخرى. من هنا جميعا صح أن نقول إنه إن يكن خير مافى لبنان أنه بالتحديد سويسرا الشرق الأوسط طبيعياً، فلعل أخطر مافيه أنه بالدقة سويسرا العرب سياسياً..

على أن هذه إن تكن هى الصورة التقليدية للجغرافيا السياسية الداخلية للبنان، فإن هناك الآن مؤشرات واعدة بتغيرات هامة وطيبة. فمن ناحية بدأ يتضح للكثيرين أن الطائفية نتيجة بقدر ماهى سبب، كبش فداء مثلما هى حد الموسى: ذلك أنها أيضا ستار للمصالح الطبقية الموروثة والمكتسبة وذريعة لتكريس علاقات الإنتاج الراهنة. ومن ناحية أخرى فهناك التطور الحضارى المذهل

(١) R. I. I. A. The Middle East, loc. cit.

الفوّار الذى حققه لبنان فى العقود الأخيرة، والأجيال الجديدة التى نشأت فى هذا المناخ العلماني المتقدم. وأخيراً فثمة الخطر الصهيونى المحدق. كل هذه العوامل مجتمعة هى من مذيبات الطائفية عموماً، وقد بدأت بالفعل تكسر من حدة العامل الطائفى وتدفع به بالتدرج بعيداً نوعاً عن موقع الصدارة المطلقة. وعلى أية حال، فالمؤكد أن الطائفية ـ التى هى كقاعدة عامة ظاهرة تمت إلى الماضى ـ لم تعد تلعب فى كيان لبنان المعاصر دورها التقليدى القديم، وقد لاتكتمل دورة القرن إلا وهى عنصر ثانوى أو جانبى. وبمقدار ماتتراجع الطائفية، سيتقدم لبنان إلى دوره الطبيعى والطليعى فى العالم العربى .

من سويسرا الشرق الأوسط تتقدم إلى سويسرا إفريقيا، إثيوبيا التى ينضح تاريخها الحديث هى الأخرى بالاضطهادات الدينية التى كان ضحيتها المسلمون. وبالفعل يسجل التاريخ القريب عدداً من المذابح المعروفة، وفى الوقت الحالى لا يعدم الإسلام فى إثيوبيا بعض اتجاهات انفصالية ولكنها خافتة مكتومة، بينما هو فى إرتريا انفصالى علنا irredentist خاصة بعد أن حول الحكم الإثيوبى الدولة من اتحاد إلى وحدة بقوة السلاح ورغم قرارات الأمم المتحدة التى فرضت الاتحاد أصلا. وهناك حركات سياسية

مستمرة حتى الآن تعارض الوجود الإثيوبى وتعده احتلالا لااتحاداً، وتتطلع بلهفة إلى فضه [1] .

أما فى تشاد فالشمال المسلم أهدافه السياسية هى المحافظة على التقاليد الإسلامية فى التعليم والشئون الاجتماعية.. الخ، وتخفيف الارتباط بفرنسا وزيادة الارتباط بالدول الإسلامية المجاورة فى الشمال. أما الجنوب الوثنى ـ المسيحى فيريدها علمانية فى التعليم والتطور الاجتماعى، كما أنه بشدة ضد أى اتحاد مع أو اتجاه سياسى نحو، كتلة الدول الإسلامية المحيطة [2] وفى السنوات الأخيرة توترت علاقات تشاد مع جارتيها العربيتين الإسلاميتين ليبيا والسودان، وتعددت حوادث الحدود كما تعقدت تيارت اللاجئين السياسيين المتبادلة. ولكن هناك الآن لحسن الحظ محاولات جادة لتصفية هذه المشكلات وتسويتها. على أن هذا التضارب السياسى فى تشاد هين أمره ويتضاءل كثيراً إذا ماقورن بنيجيريا آخر وأضخم الدول نصف الإسلامية .

فهنا فى نيجيريا طالب الشمال المسلم فى آخر أيام الاستعمار بالاستقلال منفصلا عن الجنوب الوثنى ـ المسيحى، ولكن بلا جدوى، ففرض النظام الفيدرالى كحل وسط. ولكن ظلت نيجيريا

---

(١) حمدان. أفريقيا الجديدة، ص ٢٧٨ .

(٢) Lewis, op. cit. PP. 72. 3..

المفككة تعانى من الصراعات والاضطرابات الداخلية التى جعلت وزنها السياسى فى المجتمع الإفريقى ضئيلا لا يتناسب البتة مع حجمها كأكبر دول القارة سكاناً، وجعلتها معقلا أخيراً ومضموناً للنفوذ الاستعمارى القديم. وقد ظل الشمال يعد الاتحاد «استعماراً جنوبياً» ويصر على الانفصال التام مؤكداً أن نيجيريا ليست دولة واحدة بل عدة دول مختلفة متناقضة كما أعلن مراراً باليوا .

وقد وصل الصراع إلى منتهاه فى انقلاب عسكرى وانقلاب عسكرى مضاد تعاقباً فى غضون شهور من عام ١٩٦٦، وحمل كل منهما من بين ملامحه ملمحا دينياً لا يقبل الشك: الأول قام به الإقليم الشرقى وانتظم مذبحة للزعماء المسلمين وفرض الوحدة بالقوة بدل الاتحاد، والثانى رد به الإقليم الشمالى ونسخ معه انقلاب الشرق وانتظم هجرة ضخمة راجعة للشرقيين المغتربين (٣٠٠ ألف) من الشمال إلى الجنوب، كما أعاد النظام الفيدرالى، واقترن بحديث عن الانفصال التام بين أقاليم الدولة المركبة .

وقد وصل الصراع إلى قمته فى المرحلة الثالثة والأخيرة حين فجر الإقليم الشرقى قضية الانفصال بصورة دموية كاملة. ففى أواخر الستينات أعلن الانفصاليون من الأيبو فى الإقليم قيام دولة مستقلة أطلقوا عليها جمهورية بيافرا. وهنا اشتعلت الحرب الأهلية

التى استمرت عامين أو ثلاثة وكلفت نيجيريا من الأرواح ماقدر بنصف المليون، أو المليون فضلا عن الخسائر المادية والشلل الاقتصادى والدمار.. الخ. ولقد كانت قوى الاستعمار التقليدية بالإضافة الى الصهيونية الإسرائيلية من وراء الانفصال بالسلاح والتأييد السافر. غير أن الحكومة المركزية صمدت حتى تغلبت وسحق الانفصال الذى لو نجح لكان سابقة خطيرة فى القارة ماكانت لتعدم سلسلة من ردود الأفعال المشابهة . بل على العكس ، خرجت الوحدة النيجيرية من التجربة وهى أقوى، إذ ألغى التقسيم الإقليمى الرباعى القديم الذى بلور الاختلافات والخلافات ، وحل محله أكثر من عشرة من الوحدات الإدارية المتوسطة الحجم المتنوعة التركيب .

وعند هذا الحد لا بد من سؤال ختامى : هل حقاً كان الصراع السياسى فى نيجيريا، على نحو ما صور أحياناً مبارزة دينية مثلما هى قبلية بين الشمال والجنوب؟ مثل هذا التحليل ليس سليما، والواقع أنه مغالطة من وضع دعايات القوى الاستعمارية. فمن المحقق ابتداء أن الصراع لم يكن قبلياً صرفا، لأن الأيبو مثلا لم يكونوا رغم اغلبيتهم المحلية إلا قبيلة واحدة من عديد من القبائل فى الإقليم الشرقى القديم. ومن الثابت كذلك أن العامل الدينى لم

يكن إلا عاملا ثانويا فى الصراع، ولكنه كالعادة كان قناعاً مناسباً لأى مصالح أخرى. وأهم هذه المصالح هنا كانت المصالح الاقتصادية ممثلة فى الثروة البترولية الكبيرة التى انبثقت حديثاً فى أرض الإقليم الشرقى، والتى كانت تستغلها الاحتكارات الاستعمارية ومن أجلها وحدها غذت الانفصالية ووقفت وراءها .

دول الأقليات الإسلامية

تبقى الآن دول الأقليات الإسلامية التى تؤلف أكثر من نصف دول العالم الإسلامى عدداً وإن ضمت نسبة محدودة من قوة المسلمين. فيها تتراوح نسبة الإسلام بين الأقليات الكبيرة والأقليات الصغيرة، بين الثلث كما فى بعض دول غرب إفريقيا، والثمن كما فى يوغوسلافيا، والعشر كما فى الهند وبلغاريا، أو نصف ذلك فى الصين، وجزء من المائة أو دون ذلك فى بعض الحالات. وفى مثل هذه الظروف لا يمكن أن تكون للاسلام تطلعات سياسية فعالة، ولا يملك على الأكثر إلا رغبة انفصالية مكبوتة لا أمل فى تحقيقها، بينما يتعرض بسهولة للضغوط والكبت بالقوة من جانب الدولة. غير أنه فى أغلب الأحوال انتزع لنفسه مكانة اقتصادية مرموقة أكثر

من أن تتناسب مع حجمه، وفرض لنفسه وضعاً اجتماعياً محترما.
بيد أنه على كل حال يظل فى وضع غير مريح بعامة. وهو فى بعض الدول الإلحادية كما فى الجبهة الأوراسية يحارب أولا يشجع كجزء من السياسة العامة ضد الأديان. وربما هدده هذا فى المدى الطويل بأن يغرق فى بحر الايديولوجيات. وهو فى بعض الدول الناشئة فى الجبهة الإفريقية لا يحارب انتشاراً، ولكنه لا يحبذ كقوة سياسية عاملة مؤثرة أو غير ذلك.

الدول الأفروأسيوية

ولنفصل. دول الأقليات الإسلامية بإفريقيا، وأغلبها فى غرب القارة وشرقها، هى حالياً الوحدات التى يزحف فيها الإسلام بقوة والتى يرجح له فيها أكبر توسع خلال العقود القادمة. والإسلام يتركز هنا عادة فى الشمال من الدولة فى غرب إفريقيا، وفى الشرق منها فى شرقها. وعلى نسبة وقوة عدد المسلمين يتوقف دورهم السياسى إلى حد بعيد. ففى الكاميرون، من أبرز حالات الأقليات الكبيرة، تصل نسبة الإسلام إلى الثلث، ولكن الشمال المسلم هو الطرف الحاكم وذلك ـ كما كان فى نيجيريا ـ بفضل خلافات الجنوب القبلية.

وللاسلام فى شرق إفريقيا وزن سياسى خاص بسبب تركزه النسبى فى دائرة زنجبار على طول ساحل كينيا وتانزانيا. فعلى الجانب الشمالى لكينيا مسلمو «الصومال الكينى» الذين طالبوا ويطالبون بالانفصال عن كينيا لينضموا إلى «الصومال الكبير». على أنه إذا كانت هذه حركة قومية قبل أن تكون دينية بحته فإن العنصر الدينى أوضح فى حركة انفصال القطاع الجنوبى من ساحل كينيا حيث يتركز المسلمون من أصل عربى وفارسى . فهاهنا قامت قبل الاستقلال دعوة إلى إنشاء دولة مستقلة جديدة ـ مافانباو كما دعوها ـ تتركز حول ممبسة، والمقول أن الاستعمار البريطانى المغادر كان يقف خلف هذه النزعة الانفصالية ضماناً لمصالحه الاقتصادية والاستراتيجية، ولكن الحركة لم تنجح حتى فى فرض النظام الاتحادى وذابت فى كينيا المستقلة الموحدة، ومن الناحية الأخرى، فإن زنجبار المسلمة تماماً والتى كانت وحدة منفصلة قد اندمجت مع تنجانيقا فى دولة تانزانيا . (١) .

ويبدو من هذه التجارب الحديثة المعاصرة أن دور الإسلام السياسى فى دول الأقليات الإسلامية يصعب على الأرجح أن يكون الانفصال فى كيـان مسـتقل . وفى المقابل يبـدو أنه لا ينبغـى أن

---

(١) حمدان، أفريقيا الجديدة، ص ٢٧٧ - ٢٨٠ .

يكون دور الأكتفاء والقطيعة، وإنما دور المبشر والطليعة، بمعنى أن تكون الأقلية الإسلامية نواة وخميرة لنشر الدين وكسب بقية المواطنين إليه.

أما حيث تتضاءل الأقليات الإسلامية أكثر وأكثر، لا سيما إذا تشتتت جغرافياً بلد التركيز، فلا محل للكلام عن حركات أو اتجاهات انفصالية، وإن لعبت دوراً سياسياً هاماً. غير أنها هنا قد تصطدم بالدولة الوطنية، وربما تعرضت لعملها البوليسى. ففى غانا لم تشجع الحكومة وجود حزب مسلم فظل نشاطه مشلولاً. وفى قبرص حيث يمثل الإسلام أقلية دينية وقومية معاً ولا يزيد على خمس السكان، تشتد الحركة الانفصالية مطالبة إما بتقسيم الجزيرة أو تقديرها أو الانضمام إلى تركيا الأم، ولكن بقدر عنف الحركة بقدر عنف المقاومة من جانب الدولة الجديدة .

وفى جنوب شرق آسيا عدة أمثلة دالة ومشابهة. ففى الفلبين لم يشترك المسلمون فى ثورة هو كبالاهاب المعروفة Houkhalahap ولكن روح «الجهاد» غذت فيهم حركة انشقاق محلية فى ١٩٠٤ قابلتها الحكومة بكثير من العمليات العسكرية، وليس البوليسية فحسب. وفى ماليزيا، ثمرة ونواة دعوة «الملايو الكبرى "Greater Malaya" يقدر أنه لا مفر للمسلمين المتكتلين جغرافيا فى أقصى جنوب تايلاند على حدود الملايو من أن يتطلعوا يوماً ما إلى

الانفصال عن تبعيتهم الراهـــنة لينضموا إلى الوطــن الأب المســلم[1] .

أما فى الهند فثمة موقف معقّد أو متشابك إلى أقصى حد، ويمثل خميرة الصراع السياسى الذى وصل أخيراً إلى حد الحرب غير المعلنة بين الهند والباكستان. ففى جنوب الهند لا مفر للأقليات الإسلامية، على ضخامتها المطلقة، من الضياع فى الكيان السياسى للهند، ليس فقط لضآلتها النسبية ولكن أساساً لتمزقها وتشتتها فى المحيط الهندوكى الذى يتخللها ويخلخلها إلى أبعد مدى. وقصارى تطلعات الإسلام هنا أن يكون خشبة القفز أو موطىء القدم فى عملية التبشير والانتشار. أما فى الشمال بعامة حيث يتحول الإسلام إلى أقليات كبيرة مركزة فالوضع مختلف، وهو مختلف جذرياً فى الشمال الغربى خاصة حيث يصبح الإسلام فى كشمير هو الغالبية الساحقة على نحو ما وضحنا قبلا .

فى العالم الشيوعى

ماذا عن الإسلام فى العالم الشيوعى ؟ كيف تبدو تجربته السياسية التى لا يمكن إلا أن تكون خطيرة مفعمة على أقل تقدير؟ نبدأ بالاتحاد السوفييتى [2] . منذ حطم قياصرة آل رومانوف فى

---

(١) رونلو . جـ ٢ ص ٢٦ ، ٢٩ .

(٢) رونلو . جـ ١ ص ٢٩٦ - ٣٢٠، جـ ٢ ص ١٧٩ - ١٨٣ .

النصف الثانى من القرن التاسع عشر الدول والإمارات والخانات الإسلامية المتعددة التى كانت، على النمط الوسيط المتخلف، ترصع وسط آسيا حتى القوقاز ومشارف الفولجا، أصبح الإسلام أقلية صغيرة فى الروسيا، وتعرض بانتظام لمطاردات واضطهادات وتحقير القيصرية، التى لم تكن حضارياً واجتماعياً بأرقى كثيراً من تلك الإمارات نفسها، كما تعرض لحملات تبشيرية عنيفة نجحت أحياناً كما يقال فى تحويل بعض من التتار والترك المسلمين إلى المسيحية وإن عادت هذه العناصر جميعاً بعد ذلك إلى الإسلام (؟) ومن الواضح أن الإسلام الروسى كان يرى نفسه مختلفاً جذرياً، جنسياً وقومياً ودينياً، عن القيصرية، ولم تنقطع محاولات الاستقلال كما لم تتوقف حملات القمع والإرهاب: كما لخص لينين نفسه الموقف جميعاً، كانت الامبراطورية «سجناً كبيراً للأمم».. (١)

ومع الاتحاد السوفييتى يبدأ موقف جديد معقد ودقيق. فرأى الإيديولوجية الشيوعية فى الأديان جميعاً معروف، والتنافر بينهما مفهوم. ومن المعروف كذلك أن عملية تشريك المجتمع وتشييعه لم تتم هنا بسهولة أو بغير عنف وضحايا. ومع ذلك فقد تركت حرية العقيدة رسمياً، وإن تعرض الإسلام مع غيره من الأديان لحملات

(١) J. Gregory, Lanb of thc Sovicts, Pelican, 1946, PP. 47-8.

الدعاية المضادة التى لا تنقطع والتى يطلق عليها البعض فى الغرب ـ وخزاً ـ campaignology فضلا عن أن مناخ الحياة الشيوعية اليومية كان عاملا معاكساً للممارسة الإسلامية .

وفى النتيجة بدا ـ فى رأى المستشرقين والمراقبين الغربيين الذى لا مرجع لنا سواهم بالضرورة، والذين قد لا تخلو نظرتهم من تلون خاص بالضرورة أيضاً ـ بدا كما لو أن الإسلام يتعرض لعملية تصفية désislamisation أو على الأقل إلى عملية تعقيم وتكلس. ويرى البعض أنه ظل موجوداً وإنما موقوفاً كما قد نقول، بمعنى أنه لم يعد يعيش إلا بين الشيوخ والأجيال المنطوية، وفى صورة بدائية وحياة غير نشطة بعد إذ انعزل الإسلام السوفييتى عن العالم الإسلامى الكبير فى صندوق مغلق .

على أن هناك من الناحية الأخرى إجماعاً بين المراقبين على أن الإسلام يمر فى السنوات الأخيرة ـ بعد مرحلة سبات طويلة ـ بمرحلة صمود بل ربما إحياء، وذلك كرد فعل طبيعى للضغوط العقائدية المضادة، لاسيما مع انصباب الهجرة الروسية (السلافية) التى وصلت إلى أبعاد خطيرة وتؤذن بتحويل الأهالى إلى أقليات، وأقليات متضائلة باطراد، فى صميم أوطانهم المحلية التاريخية. وهذا جدول يرسم صورة بليغة لتطور الهجرة الروسية إلى وسط آسيا السوفييتى وأثرها الإثنولوجى على تركيب السكان فالأديان .

المنطقة	عدد السكان ١٩٥٩(١)	الروس ٪ ١٩٢٦	الروس ٪ ١٩٥٩(٢)
كازاكستان	٩.٣٠١.٠٠٠	٢٠	٤٣
أوزبكستان	٨.١١٣.٠٠٠	٦	١٤
تركمانستان	١.٥٢٠.٠٠٠	٨	١٧
تاجيكستان	١.٩٨٢.٠٠٠	١	١٣
قيرغيزيا	٢.٦٣.٠٠٠	١٢	٣٠
أذربيجان	٣.٧٠٠.٠٠٠	١٠	١٤
أرمينيا	١.٧٦٨.٠٠٠	٢	٣
جورجيا	٤.٠٤٩.٠٠٠	٤	١١

تدفق الهجرة الروسية إذن تيار حقيقى وقوى ولا سبيل إلى التقليل منه، ويرى فيه البعض ـ إن خطأ أو صواباً ـ خطة بعيدة المدى «لترويس "russification" وسط آسيا. وسيلاحظ بوجه عام أن أعلى نسب للروس هى فى أكبر الجمهوريات سكاناً، التى هى

(١) World Almanac, 1962, P 381..

(٢) كـــول، ص ٥٣ .

أيضا أكثرها شمالية. وإذا كان الارتباط الأخير مفهوماً بحكم الموقع الجغرافى بالنسبة إلى مصدر الهجرة ، فإن الارتباط الأول يضاعف من الوزن الحقيقى لحجم الهجرة . ومهما يكن ، فإذا كانت تلك الهجرة قد خفضت من نسبة الإسلام فى المنطقة ووضعت حداً لسيادته العددية شبه المطلقة ، فإن رد الفعل أتى فى صورة المقاومة الدينية .

وتتناسب هذه المقاومة بالفعل تناسباً طردياً مع نسبة تلك الهجرة . ومعها يتجاور الطرفان تجاوراً ميكانيكياً دون انصهار كيماوى ، ويظل الزواج داخلياً ونظم الحياة العائلية متباينة ، وإن كانت الأقليات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى قد أصبحت تمثل قطاعاً من أكثر قطاعات الإسلام العالمى تقدماً وتطوراً فى العلوم والتكنولوجيا الحديثة . والمحصلة العامة للموقف كما يرى البعض أن هناك نوعاً من الشعور «بالقومية الإسلامية nationalisme musul- man فى الاتحاد رغم كل جهود الدولة والنظام والحزب .

أما عن الشكل السياسى ، فقد تصور بعض زعماء المسلمين فى بداية الثورة البلشفية أن يكون دور الإسلام السوفييتى هو حلقة الوصل بين الثورة الشيوعية وبين ثورات التحرير فى العالم الإسلامى أو فى العالم الأسيوى ، وعلى هذا الأساس حاول إنشاء جمهورية إسلامية هى جمهورية الإيدل – أورال Idel- Oural كنواة

غير أن الثورة رفضت المشروع خشية أن يفلت زمام الإسلام السوفييتي منها في سبيل أحلام خارجية ، ووأدت الحركة في مهدها .

ومن الناحية الأخرى ، فلقد طبق الاتحاد سياسته اللينينية الخاصة بالقوميات والأقليات وهي «الديمقراطية الإثنولوجية» أو «القومية الموجهة» التي تقوم على الاعتراف بالقوميات والشعوب المختلفة وتحديد وحدات سياسية لها داخل الاتحاد قائمة لا على التاريخ أو الجغرافيا أو الاقتصاد وإنما أساساً وفي الدرجة الأولى على الشعوب والأمم ، وتتمتع بدرجة من الحكم الذاتي وفي هذه الحدود يشجع الفولكلور الشعبي ويمجد ، وكذلك الأبطال الوطنيون، ولكن - وهذا هو المهم - مع الابتعاد أساساً عن ذكريات الإقطاع والتراث الإسلامي ومثل الجامعة الإسلامية .

وعلى هذه الأسس نال الإسلام ٦ «جمهوريات اشتراكية سوفييتية فيدرالية .fed. soc. sov. rep» ، وهي في التصنيف السياسي السوفييتي تلك التي تحوي أمماً متجانسة تامة . هذه الجمهوريات هي كازاكستان ، تركمانستان ، تاجيكستان ، أوزبكستان ، قيرغيزيا . ثم تأتي بعد هذا ٩ جمهوريات مستقلة ذاتيا .autonomous rep وهي التي تتألف من سكان أكثر اختلاطاً وتنافراً بحيث تضم داخل الجمهوريات الفيدرالية، وفيها يؤلف

المسلمون أغلبية أو نسبة هامة. من هذه الجمهوريات باشكيريا وداغستان. ويضاف فى النهاية ٤ أقاليم مستقلة ذاتياً autono-mous regions وهى توابع مضمومة كسابقتها، وتجمع جيوباً صغيرة من الأغلبيات الإسلامية المحلية، ومن أمثلتها اقليم الشركس فى القوقاز.

أما على المستوى القومى فقد تطوّر وضع المسلمين السوفييت فى عدة مراحل متقلبة. ففى أثناء الحرب العالمية الثانية اتهم المسلمون التتار فى القرم والمسلمون التشتشن والإنجوش والكاراتشى والبلكار من أبناء الفولجا وشمال القوقاز، اتهموا - هكذا يخبرنا الكتاب الغربيون - بالتعاون مع المحور أثناء الغزو الألمانى، وفى ١٩٤٦ نقلوا بالجملة إلى وسط آسيا وبعثروا فيها، ولكنهم عادوا فى الخمسينات فسمحوا لهم بالعودة إلى أوطانهم الأصلية.

ومن الناحية الأخرى فقد كان للتقارب السياسى بين العالم العربى التقدمى والاتحاد السوفييتى فى السنوات الأخيرة أثر كبير وإيجابى على وضع المسلمين السوفييت وعلى مدى حريتهم الدينية بما فى ذلك الحج وزيادة اتصالهم بالعالم الإسلامى فى الخارج، وإن أوله بعض أعداء الجانبين بمناورة وواجهة من قبل السياسة السوفييتية لكسب العرب وصداقتهم. والواقع أن الإسلام فى

الاتحاد السوفييتى يعيش اليوم فى مناخ سياسى واجتماعى متفتح متجاوب، كما يلعب دور حلقة وصل وثيقة فى العلاقات الجيدة والمتطورة بين الاتحاد والعالم العربى .

ويبدى الإسلام فى الصين ـ نهاية مطافنا فى هذا المسح ـ مشابهات عديدة فى جوانبه السياسية مع الإسلام السوفييتى، سواء فى الماضى أو فى الحاضر. فقد كان وضع المسلمين فى الصين مرضياً بصفة تقليدية ويعاملون معاملة طيبة، إلى أن بدأت المتاعب فى القرن الماضى لاعتدادهم بأنفسهم من ناحية كما يقال، ولاستجابتهم للفوران الإسلامى الذى اجتاح العالم فى وجه المد الاستعمارى الذى شهده ذلك القرن من ناحية ثانية. فبدأت الدولة تسحب منهم امتيازاتهم وتضطهدهم، واشتعلت بينهم الثورات التى امتدت فى تقطع من الخمسينات حتى السبعينات سواء فى التركستان (سينكيانج) أو فى يونّان .

وفى وقت ما بدا كما لو أن هاتين المنطقتين قد استقلتا فعلياً عن الدولة، وبدا للمراقبين فى الغرب كما لو أن الثوار فى المنطقتين على وشك الاتحاد وإقامة دولة إسلامية مستقلة دائمة فى غرب الصين، إن لم يكن حقاً على وشك اجتياح الامبراطورية نفسها! (١)

(١) Lothrop Stoddard, The New World of Islam, N.Y., .1921 PP. 61-2, 73..

غير أن هناك من يرى فى تلك الثورات مجرد انقلاب على سوء حكم المانشو والاضطهاد الدينى الامبراطورى، دون رغبة حقيقية فى الانفصال السياسى، وأن المسلمين فى الصين ـ وهم بعامة من نفس العنصر الصينى جنسياً ـ لم يكونوا فى يوم ما انفصاليين حقاً (١).

ومهما يكن من أمر ، فالذى حدث بعد سنوات من الحروب المريرة أن استطاعت الدولة إخضاع الحركة ، ولكن بعد أن تكبد المسلمون خسائر جسيمة فى الأرواح حتى هبط عددهم بعد الثورة - التى تعرف بمجموعها فى تاريخ ثورات الصين «بالثورة الإسلامية "Mohammeden Rebellion" بحيث ظل إلى العشرينات من القرن الحالى لايزيد على العشرة ملايين كما ترجح تقديرات المرحلة . وظلت السياسة الصينية تعامل المسلمين ـ شأن كل الأقليات فيها ـ معاملة ازدراء وتعالٍ واضطهاد وتصفهم بالبرابرة .

ومع الجمهورية تبدأ صفحة جديدة. فقد لعب المسلمون دوراً هاماً فى تحرير الوطن حتى استحقوا من صن يات صن قوله «لن ينسى الصينيون قط المساعدة التى قدمها مواطنوهم المسلمون فى سبيل النظام والحرية». على أن الوضع عاد من أسف فانقلب رأساً

---

(١) S. A.S. Huzayyin, Arabia & The Far East, Cairo, 1942., P. 269..

على عقب في ظل حكومة الكومنتانج الرجعية التى عادت إلى احتقار الأقليات خاصة المسلمين. وبدأت سلسلة من الاضطهادات والمذابح قتل فيها أكثر من ٢٠ ألفاً من المسلمين فى ١٩٢٨ وحرق عدد مماثل من منازلهم في كانسو وفي هوتشو، كما تكررت المذابح بين ٣٩ ـ ١٩٤١ بضحايا قدرت بعشرات الآلاف فى كل المقاطعات خاصة سينكيانج (١) .

ومرة أخرى يتعدل الموقف مع الشيوعية، التى تبنت سياسة كسياسة الاتحاد السوفييتى فى الاعتراف بالقوميات والأقليات واحترامها ومنحها الحكم الذاتى داخل نطاق الدولة. ولئن كنا لانعرف حالياً بالتفصيل مدى التفاعل السياسى الراهن بين نظام الشيوعية الصينية والإسلام، فمما لاشك فيه أنه تفاعل إيجابى بناء ومتعاطف. كما أن من المحقق هنا أيضاً أن للصداقة النامية بين تقدمية العالم العربى والصين الشعبية أثرا على الوضع السياسى للإسلام الصينى .

---

(١) مصطفى الأمير. «الأقليات القومية فى الصين الشعبية»، المحاضرات العامة، الجمعية الجغرافية ١٩٥٨، ص ٥١ ـ ٥٢ .

الفصل الرابع

«نظرية الوحدة الإسلامية»

الوحدة والتنوع فى العالم الإسلامى

ليس جديداً أن يتخذ الدين قناعاً للسياسة وستاراً، ولا كان الإسلام يوماً ما استثناء لهذه القاعدة. فالتاريخ حافل سجله بالحركات والمناورات السياسية التى تقنعت بالدين وتخفت تحت رايته وبنوده. ويكفى أن نذكر الصليبيات مثلاً، فما كانت إلا استعماراً مادياً اقتصادياً تنكّر تحت شعار الصليب. وقد لا يخلو الاستعمار الأوربى الحديث من هذه الصبغة بدرجة أو بأخرى. وتاريخ أوربا نفسها، لا سيما منه الوسيط، ينضح بل يطفح بالحركات والأدوار السياسية التى امتزجت بالدين أو تلبست به .

والإسلام فى تاريخه المفعم يذخر هو الآخر بمثل هذه الظاهرة. وصحيح أن الإسلام لا يعرف هيراركية كهنوتية أو وساطة بابوية أو وصاية رجال الدين، ولكن تاريخه من الناحية الأخرى لم يخل من قدر من تداخل بين الدين والدولة بصورة ما، بحيث عانى كثيراً من استغلال الدين لخدمة السياسة أو تغطية أغراضها. ومن المعروف،

على سبيل المثال، أن أغلب الفرق الدينية والشيع والطوائف التى تكاثرت فجأة فى صدر الإسلام وما بعده مابدأت أصلا إلا كتحزبات وتحيزات سياسية وكصراعات على السلطة والحكم. ولكن بينما فقدت هذه الاعتبارات السياسية معناها وقيمتها بتغير السياق التاريخى إلى أن زالت تماماً، فإن العصبيات الدينية التى اصطنعتها وافتعلتها افتعالا تبقّت مترسبة عبر الأجيال وتجمدت مع الزمان حتى آلت إلينا كإرث غير مفهوم وغير منطقى، يثير التساؤل مثلما يثير المشاكل .

وفى العصر الحديث ظل الدين أداة ميسورة للسياسة، تستغله القوة لتشريع وجودها غير الشرعى مرة، أو لتبرير مظالمها وابتزازاتها مرة أخرى. فمنذ البداية، استغل الاستعمار الدينى التركى الخلافة مطية وواجهة للشرعية، وباسم الدين نجح فى فرض استعماره الغاشم على المسلمين، وعلى أساس الدين ونظام الملة الذى ابتدعه لم ينجح إلا فى أن يفاقم مشكلة الطائفية ويبلورها فى العالم العربى حتى صارت إلى ما نعرف اليوم (١) .

ولا يقل عن ذلك خطراً، وهو غير منفصل عنه تماماً فى جوهره، تيار قديم يتجدد ويتردد بين الحين والحين فى صور وأشكال، ولا نقول أقنعة، مختلفة. والإشارة هنا هى إلى دعوى الوحدة الإسلامية

---

(١) W. B Fisher, The Middle East, Lond., 1950, P 105..

أو الدعوة إلى توحيد العالم الإسلامى سياسياً. وتأتى هذه الدعوة أحياناً من خارج العالم الإسلامى نفسه، بما فى ذلك ضمناً من ليسوا أصدقاءه، وأحياناً أخرى تخرج من داخله. وقد تأخذ شكل فكرة الجامعة الإسلامية: كما قدمتها مثلا الدولة العثمانية فى أخريات أيامها، أو قد تأخذ شكل الدعوة إلى حلف إسلامى: كما تواتر فى بعض السنوات الأخيرة، وفيما بين الاثنين قد تأخذ شكل أحلاف دفاعية إقليمية عسكرية تغطى قطاعاً أو آخر من الدول الإسلامية: وذلك كما عرفت ولاتزال منطقة الشرق الأوسط خاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ومن البديهى أن الدين ـ كل الدين ـ موطن حساسيات دقيقة وحماسات مرهفة، لها جميعاً ظلالها وانعكاساتها التى يمكن أن يستغلها أصحاب المصالح وصناع السياسة لأغراضهم المباشرة أو البعيدة. ولا شك أن كثيراً من هذه الدعوات السياسية التى تدور أو تستدير حول الدين تعتمد إلى حد كبير على استغلال هذه الحساسيات، فضلا عن غياب المعرفة العلمية الكافية بين الكثيرين. وبالفعل، فما زال البعض ممن يأخذهم الحماس الدينى الطيب يتصورون مثل تلك الدعوات أملا ممكناً، دعك من كونه مشروعاً. وهذا أمر يثير موضوع العلاقة بين الدين والسياسة برمته، ويجعل من المفيد والضرورى تقديم دراسة علمية منهجية متكاملة فى هذا

الصدد .

ولعل المدخل المنطقى إلى المناقشة هو أن ننظر بتركيز فى قضية الوحدة والتنوع فى العالم الإسلامى، لما لها من أهمية حين يفكر البعض فى مشروعات التوحيد أو التحالف السياسى داخل هذا المحيط الكبير. والسؤال هو : فيما عدا الوحدة الدينية المؤكدة، هل يمثل العالم الإسلامى وحدة طبيعية أو بشرية؟ لقد حاول البعض أن يربط الإسلام بالجفاف والصحارى، ولكن الحقيقة أبعد ماتكون عن هذا، فالإسلام يترامى حتى خط الاستواء عبر بيئات طبيعية شديدة التفاوت: من الغابة الاستوائية إلى المدارية، ومن السفانا الإفريقية إلى الاستبس الأسيوى، ومن أدغال الهند (الإسلام الموسمى) إلى الفلد الإفريقى. فهو إذن يتوزع فى المناطق الحارة والمعتدلة والباردة على السواء، كما ينتشر فى الصحارى الجافة والأعشاب المطيرة والغابات الكثيفة بلا استثناء .

وبالمثل نجد «الإسلام البحرى» على السواحل، كما نجده فى صميم القارات من الداخل. بل إن السواد الأعظم من المسلمين أقرب إلى التركز على القطاعات الساحلية والبحرية، رغم مايبدو من قارية شكلية فى الخريطة التقليدية لتوزيع الإسلام. والإسلام كذلك يغطى السهول المستوية المنخفضة فى إفريقيا الشمالية، ولكنه

يطغى بنفس القوة والسهولة على المرتفعات والجبال الوعرة فى آسيا غربها والوسط. ولقد رأينا فعلا أن لنا أن نتحدث عن «إسلام معلق» بحق فى قمم أطلس الشماء وجبال آسام وجاوة . بل إن الإسلام يكاد يحتوى ـ من بين مايحتوى من مرتفعات ـ هضبة البامير التى تسمى «سقف العالم» .

وننتقل من النواحى الطبيعية إلى الجانب البشرى لنجد نفس التنوع داخل العالم الإسلامى. فالإسلام ينتظم من الأجناس والسلالات، ومن اللغات والقوميات، ماقد يجعله متحفاً بشرياً أو نمطاً كالموزايكو. فمن سلالة البحر المتوسط القوقازية غربا، إلى الأجناس الزنجية جنوباً، إلى العناصر السمراء الدرافيدية والملاوية والبابوان جنوبا بشرق، إلى العالم المغولى شرقا.. الخ. ومن القوميات العربية والتركية والإيرانية إلى القوميات الطورانية فى وسط آسيا، إلى الملاوية والإندونيسية فى جنوبها.. الخ. وكل من هذه أو بعضها قابل للقسمة إلى مزيد من التفريعات والتصانيف .

ولنلخص. برغم وحدة الدين السارية، فإن العالم الإسلامى ليس وحدة حتى حضارياً وإن تكررت فى بعض أركانه بعض من ملامح الحياة العامة. إنه ليس منطقة حضارية بالمعنى الأنثروبولوجى إلا فى معنى ضيق جداً ربما. وأقل من ذلك كثيراً يعد وحدة بشرية أو

طبيعية. فالتنوع لا الوحدة هو القاعدة لا الاستثناء، والقاسم المشترك الأعظم فيه قاسم مشترك أصغر فى الحقيقة .

وعلينا أن نذكر هذا لنعرف طبيعة هذا العالم الإسلامى الذى يراد له تجمع أو تحالف أو غير ذلك من المسميات. ومن الملاحظ أنه باستثناء العالم العربى، لا نعرف فى الاستعمال الجغرافى الدارج وحدة يطلق عليها اسم «العالم» سوى العالم الإسلامى، دليلا على مافيه من تفاوت وتباين، بل وتنافر وخلاسية فى أبعاده غير الدينية. إن العالم الإسلامى باختصار قطاع عرضى كامل من العالم القديم أو نموذج مصغر (ماكيت) له .

تاريخ الإسلام الجيوبولتيكى

على أساس من هذا الانتهاء الأخير، أى دور سياسى يمكن أن يكون ملائماً للاسلام فى محيطه ؟ إلى أى مدى يمكن أن يكون الإسلام ـ موضوعيا ـ قوة إيجابية مؤثرة بذاتها فى العمل السياسى الدولى والعالمى، وماحدوده فيه وإمكانياته؟ هذا هو السؤال . والتجربة التاريخية وحدها ، كأمر واقع وكواقع معاش، هى مفتاح الإجابة، فمنها يمكن أن نتعرف على الأدوار التى فشلت أو خرجت عن أغراضها ، وتلك التى قدر لها النجاح. ويعنينا دائماً أن نتمثل بصفة خاصة الشكل الجغرافى والأبعاد المكانية للدولة الإسلامية كما كانت أو كما أريد لها. ولن نذهب بعيداً فى التاريخ الأكثر قدماً ، يكفى أن نحدد بعض علامات الطريق الدالة أو الموحية فى العصور الوسطى، ثم نركز عدستنا على العصر الحديث .

والعصور الوسطى هى عصر الدين بامتياز، سواء فى ذلك الشرق أو الغرب. ولكن الخلافة، التى كانت تجسد وحدة العالم الإسلامى مركزياً فى العصر البطولى للاسلام إبان الدولة العربية الإسلامية، كانت قد بدأت تتفكك وتتعدد. وانقسم العالم الإسلامى إلى عدد قل أو كثر، سريع التغير كالكليدوسكوب، من الدول

المنفصلة المستقلة، وأحياناً هوت هذه إلى زحمة مربكة كرقعة الشطرنج من الدويلات والإمارات والأتابكيات، حتى فقد العالم الإسلامى وحدته السياسية الأولى. ولعل جزءا من السبب فى هذا التفتيت أن نطاق العقيدة كان قد اتسع كثيراً عما كان عليه فى صدر الإسلام، ولم يعد تلك الكتلة الأرضية المتصلة المندمجة بعد أن قفز عبر حدود الصحارى هنا وعبر البحار هناك .

غير أن الاتجاهات الجاذبة المركزية لم تلبث أن فرضت نفسها مع الأخطار الخارجية. فقد جاءت الصليبيات، رغم دوافعها الكامنة كاستعمار اقتصادى خبىء، جاءت تحت شعار الصليب وقناع الدين، فأخذ رد الفعل صورة دينية من ثم، وتلخص الصراع فى مبارزة ملحمية ومصيرية بين الإسلام والمسيحية. ومع ذلك، وعدا الوحدة العاطفية الإسلامية الشاملة والمتأججة، فإن العدسة اللامة المجمعة التى شرعها الإسلام فى وجه الشعاع الساقط لم تتجاوز حدود مصر والشام تقريباً من الناحية السياسية، ربما لأن الخطر المباشر تركز حولهما، وظلت بقية العالم الإسلامى خارج مظلة الوحدة السياسية. ويكاد الموقف من فعل ورد فعل يكرر نفسه مع طوفان الوثنية المغولية .

غير أنه يتبقى بعد ذلك الدرس السياسى الكامن: إن الخطر الخارجى كان منذ البداية هو المحرك الأكبر لدعوة الوحدة

الإسلامية. ولعل خير من يرمز إلى هذا ويلخصه ابن تيمية فى القرن الرابع عشر (ومن بعده تلميذه ابن قيم الجوزية)، فهو عند جمهرة الفقهاء المحدثين أول دعاة الوحدة الإسلامية. وهو فى هذا صدى لعصره عصر تفكك وتمزق الدول الإسلامية وعصر الأخطار الخارجية المحدقة. غير أنه بواقعية ملحوظة لم يدع إلى دولة إسلامية عالمية موحدة، وإنما إلى شىء أشبه ـ فى تقدير المحدثين ـ «باتحاد كونفيدرالى» يجمع العالم الإسلامى جميعاً [(١)] . ولكن من الواضح أن شيئا من ذلك لم يتحقق .

ولقد أتى على الإسلام بعد ذلك حين من الدهر لم تكن الخلافة فيه شيئاً مذكوراً، مجرد شكلية اسمية أفرغت من محتواها الأصيل كوعاء للوحدة الإسلامية. وفى وهج ذكريات الصليبيات استطاع الأتراك العثمانيون أن يستعمروها ويستثمروها لكى تشرع دينياً سيطرتهم الجديدة فى العالم الإسلامى، وهنا ملاحظتان بالغتا الأهمية. الأولى ، أن العثمانية لم تشمل على اتساعها إلا قطاعاً فى غرب العالم الإسلامى، أما إلى الشرق من جبال زاجروس فى إيران فقد تعددت الدول وأجزاء الدول الإسلامية المستقلة. وثانياً ليس صحيحا أن الخلافة العثمانية أعادت جوهر الوحدة الإسلامية،

(١) محمود كامل . عروبتنا ، القاهرة ، ١٩٦٤ ص ٩١ ـ ٩٢ .

ففيها لم يكن «المؤمنون أخوة» عند أمير المؤمنين فى أى معنى، وإنما الصحيح أن العثمانية «استعمار دينى» تخفى وراء وحدة الدين ولكنه جعل من أقاليم الدولة توابع ومستعمرات حقيقية للمتروبول .

وكما استثمرت العثمانية الخلافة فى بدايتها لتفرض نفسها، فإنها ستجندها فى النهاية لتمنع انهيارها. فمرة أخرى يتعرض العالم الإسلامى برمته للخطر الخارجى فى صورة أعتى مما عرف فى أى وقت مضى. فلقد عادت أوربا فى العصور الحديثة مزودة بحضارة وقوة جديدة لتطوق العالم الإسلامى من خلف ومن قدام، من البحر والبر، وذلك مع بداية عصر الاستعمار الحديث وبوجه خاص بعد الانقلاب الصناعى. وبعكس الصليبيات، لم يعد هذا تلاقى الأكفاء أو الأنداد، وإنما كان الإسلام متخلفاً متكلساً فى حضيضه الحضارى والسياسى. وبدأ العالم الإسلامى يتهاوى ركناً بعد ركن ويتداعى بصورة كاسفة .

وقد بدأ الغزو الاستعمارى من الباب الخلفى للاسلام، لأنه كان الأشد عجزاً وضعفاً. فسقطت جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) فى القرن السابع عشر، وضاعت الهند مابين القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكذلك الملايو. ومع القرن التاسع عشر جاء دور الباب الأمامى للاسلام فى العالم العربى، فسقطت الجزائر وتونس ومصر والسودان. وفى نفس الوقت كانت الروسيا القيصرية تتوغل فى

إسلام الاستبس جميعاً حتى القوقاز وتخوم إيران. ومن الجنوب كانت دول أوربا الغربية تكتسح الإسلام الإفريقى فى «تكالبها» المشهور. ومع دورة القرن وحتى الحرب الأولى جاء دور المشرق العربى، فضاعت ليبيا ومراكش والشام والعراق. ومالم يقع للاستعمار من العالم الإسلامى خضع لضغوطه ونفوذه. بينما تقلص الإسلام فى البلقان حتى كاد ينحسر عنه تماماً .

ومن كشف الخسائر هذا يتضح أن العالم الإسلامى جميعاً قد سقط تحت طرقات الاستعمار فيما عدا اليمن وقلب الجزيرة العربية، لا لأنه مهد الإسلام بقدر ما كان لفقره.. وكذلك تستثنى هضبتا إيران والأناضول ولو أنهما لم تنجوا من مناطق النفوذ والتقسيم. ومن هنا فقد كان التحدى تحدى حياة أو موت بالنسبة للاسلام، وأعاد إلى الأذهان ذكرى الصليبيات. ولم يحاول الاستعمار الأوربى من جانبه أن ينكر هذا ابتداء من اللنبى فى القدس حين أعلن أنه «الآن انتهت الحروب الصليبية»، إلى جورو فى دمشق حين أطلق شماتته المعروفة: «لقد عدنا ياصلاح الدين» .

أمن الغريب إذن أن تلتهب الحماسة الدينية حتى تصبح النبرة الإسلامية ودعوة وحدة المؤمنين هى الشعار المضطرم فى طول العالم الإسلامى وعرضه؟ أليس منطقياً أن يتخندق الإسلام المثخن بالجراح فى حمى الدين، وأن يتخذ العمل السياسى من أجل

الكفاح التحررى شكلا دينياً ؟ ـ لاسيما أن الإسلام نفسه كعقيدة تعرض حينذاك لحملات لا مثيل لها من التشهير والقذف من جانب المستشرقين وغير المستشرقين . إنها الصليبيات الجديدة، بل أشد هولا وخطراً، ولم يكن غير الإسلام ـ بديهياً ـ خط الدفاع الأخير والوحيد (١) .

وكما فى الصليبيات، بل إلى مدى أبعد، ليس صدفة تاريخية أو سياسية بالقطع أن يتحول العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر، ولكن بالأخص فى القرن التاسع عشر، إلى خلية عارمة تنخر بالحركات الدينية والتيارات والدوامات السياسية، تضع الضغط والتأكيد جميعاً على الوحدة الإسلامية الكبرى أساساً، وتتخذ بوصلتها ماضى الإسلام البطولى (السلفية). ويمكن أن نحدد فى هذا المد المضاد تيارين جوهريين واضحين بما فيه الكفاية: واحد فى العمل الدينى ـ السياسى، وآخر فى الفكر الدينى ـ السياسى.

الصحراء، شيوخ الطرق، الجهاد: هذا فى أساسياته هو هيكل العمل الدينى ـ السياسى. فالظاهرة المثيرة التى تسترعى النظر فى تلك الفترة أن العالم الإسلامى امتلأ فجأة بحركات إصلاحية تحريرية رصعت وجه الصحراء وتعاصرت أو تعاقبت دون ماسابق

---

(١) L. Stoddard, The New World of Islam, N.Y., 1921..pp 45 ff

ترتيب أو إعداد، ولكنها اندلعت كالعدوى الصحية. وإن ظلت كالدوامات المحلية المنفصلة. على يد رجال الدين من مرابطين ودراويش وشيوخ «وملاه»، في مدارس وزوايا وخلوات، يبدأ كل منها في مشتل صحراوي بعيداً عن يد الاستعمار، ثم لا تلبث أن تخرج من مشاتلها إلى المعمور وتتعدى تعاليمها إلى الكفاح المسلح لتحرير الإسلام والمسلمين .

تلك السلسلة، التي تبلورت حتى أصبحت نمطاً محدداً في الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي الجديد، تبدأ بالوهابية في صحراء نجد، وتمتد مع السنوسية في صحاري شمال إفريقيا، لتنتهي بالمهدية في سفانا السودان. وكان لبعضها دوى ضخم في أقصى العالم الإسلامي، كإشعاعات الوهابية في الهند وأفغان [١]

وكما تجمع بين هذه الحركات ظروف النشأة والملامح العامة، تجمع بينها دورة حياتها ـ والموت. فكل منها يبدأ محلياً ويؤسس «دولة» بسيطة، ولكنها تستهدف أحلاماً طموحة لا تقل في النهاية عن توحيد العالم الإسلامي بأسره في كل سياسي واحد موجه ضد الاستعمار الأوربي. بيد أنها جميعاً تنتهي في التحليل الأخير إلى ثيوقراطيات متواضعة، مجرد إمارات أسرية وراثية يتحول بها

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥ ـ ٣٠ أنظر ايضا :

L. Stoddard, The Rising Tide of Colour.

شيوخ الطرق إلى ملوك الصحراء ، تتقوقع فى انفصالية وطنية ضيقة وتتحجر على نظمها وأنماطها الاجتماعية والحضارية لتصبح معاقل الرجعية العاتية فى العالم الإسلامى، كل أولئك فى تحالف مطلق مع الاستعمار الذى قامت أصلا لتتصدى له !

ولذا فإن حركات العمل الدينى ـ السياسى لم تفشل فقط، وإنما هزمت صميم أغراضها بنفسها وناقضت هدفها الأولى وهو الوحدة الإسلامية حتى نقضته تماما . وهى كذلك ولذلك بدأت من وحدة مكانية مفرطة الضيق، وتطلعت إلى وحدة مفرطة الاتساع، ولكنها عادت على أعقابها إلى وحدة مفرطة الضيق والمحلية .

وشىء قريب من هذا يمكن أن يقال عن خط الفكر الدينى ـ السياسى الذى سار موازياً لخط العمل الدينى ـ السياسى. فكرد فعل للانتكاسة الكبرى التى ألمت بالعالم الإسلامى، اندفع الفكر الدينى ـ السياسى نحو مُثُل الوحدة الإسلامية الكبرى. وعلى رأس هذا التيار كان الأفغانى الذى يمكن ـ فى معنى ـ أن يقال إنه التقط الخيط الذى تركه ابن تيمية منذ قرون سبعة. وكما اشترك مع ابن تيمية تلميذه ابن قيم، شارك الأفغانى تلميذه محمد عبده .

ولقد كان جوهر الدعوة من أجل التحرر الإسلامى هو الوحدة الإسلامية الشاملة فى امبراطورية إسلامية تحت خلافة واحدة. فالأفغانى رائد فكرة الجامعة الإسلامية Pan-Islamism بلا شك

وداعيتها الأكبر والأكثر نشاطاً. ويرى البعض أن الدعوة ترادف اتحاداً فيدراليا من النمط الألمانى على مستوى العالم الإسلامى كله. وعلى هذا الأساس دافعت هذه المدرسة عن الخلافة العثمانية، أو هى على الأقل لم ترفضها (١) .

ومن هنا التقطت تركيا (السلطان عبد الحميد) الدعوة لتستولى عليها وتدعم بها كيانها الذى أوشك على الانهيار، ولكن عبثا. فمن ناحية بدأ عجز العثمانية عن الدفاع عن الإسلام بصورة مخزية، وظل الاستعمار يتخاطف أقطاره منها واحداً بعد آخر. ومن ناحية أخرى استشرى استبداد العنصرية التركية فى ولاياتها إلى حد الدموية. وفى النتيجة بدأ الشعور والوعى «القومى» يتحرك بين عناصر دولة الخلافة ليُغلب ويَسود على الشعور والوعى «الدينى». لقد بدأت جراثيم القومية، وبدأ عصر القومية فى الشرق الإسلامى يصارع عصر الدين الذى أزمن وخضرم فيه طويلا حتى نهايات القرن التاسع عشر .

ولعل العامل الجذرى فى تحريك القومية أو إدخالها هو نمو البورجوازية المطرد وتحطم الإقطاع التقليدى فى تلك الفترة كنتيجة للتطورات الاقتصادية العميقة التى ترتبت على الاحتكاك والارتباط بالاقتصاديات والأسواق والاستثمارات الأوربية. وقد بدأ هذا

---

(١) Rondot, t. I, PP. 238 - 241..

التطور فى تركيا نفسها وكان نسبياً أنضج مايكون فيها، بينما كان يتقدم على استحياء فى المشرق العربى [1] . وبعد مرحلة عابرة جداً تحالفت فيها البورجوازية التركية النامية مع البورجوازية العربية الناشئة ضد الإقطاع العثمانى، لم يلبث أن تصادما وتأكد إصرار البورجوازية التركية على السيطرة والتسيد على أساس العنصر والحكم (الاتحاد والترقى). فكان رد الفعل هو تأكيد القومية العربية بدورها، ومن هنا بدأ الافتراق .

وقد ساعدت معجلات ثانوية على هذا الاختمار التاريخى، منها بوجه عام الاحتكاك العريض بالغرب الذى كان موصلا جيداً لفكرة القومية، ومنها بوجه خاص أثر المسيحيين فى الشرق العربى، فقد كانوا أسبق تعرفاً على مبدأ القومية الوارد كنتيجة لاتصالهم بالارساليات التبشيرية الأوربية، كما كانوا أشد إحساساً بالاضطهاد التركى مما وجههم إلى البحث عن العروبة كبديل عن الإسلام. وفيما بعد، أثناء الحرب الكبرى الأولى، كان وعد الغرب للعرب بالتحرر من الاستعمار التركى فى مقابل ثورة عربية ضده، واحداً من عوامل الاختزال العنيقة فى التحول نهائياً من الإسلامية إلى العروبة، ومن الدين إلى القومية .

ولكن نقطة الانكسار من الدين إلى القومية لم تأت بسرعة أو

---

(١) Stoddard, New World of Islam, ch. V.

فجأة، بل كانت مرحلة مترددة حرجة واستطالت من أواخر القرن التاسع عشر إلى فترة الحرب الأولى. والسبب الأساسى فى هذا أن التناقض والارتطام بين الدين والقومية، وقد جاء بطبيعته فى العالم العربى ـ النصف القومى الآخر من الامبراطورية العثمانية ـ فقد جاء فى أكثر منطقة من العالم الإسلامى يتداخل ويختلط فيها الدين والقومية. فإذا كانت أسس العروبة أكثر تركيباً وتعقيداً من الإسلام، فإن الإسلام عنصر أساسى فيها .

وقد سبب هذا التداخل بعضاً من الحيرة والاضطراب بين بعض العرب ـ المقهورين ـ وغير العرب كمسلمى الهند ـ المضطهدين ـ ولم يتصوروا الانتقاض على دولة الخلافة الإسلامية. وهذا هو الهامش الضيق الذى حاولت تركيا أن تتشبث به، والذى حاولت الجامعة الإسلامية أن توسعه .

من هنا نجد الانتقال من دعوة الجامعة الإسلامية إلى دعوة القومية العربية يمر بمراحل تدريجية، وبحلول وسطى، قبل أن يتم الافتراق نهائياً. فقد امتلأ العالم العربى حينذاك بالتيارات والأحزاب والجمعيات السرية والعلنية، كما تفجر بالنشاطات المضطرمة والثورات والتمردات التى تمثل هذه المراحل والحلول. ولعل الكواكبى يمثل مرحلة مبكرة منها، فهو قد طالب بالخلافة للعرب دون الترك، ولكنه لم يرفض وحدة الإسلام. ولعله بذلك وقف

فى منتصف الطريق بين الجامعة الإسلامية والوحدة العربية، أو كان من رواد الوحدة العربية [١] .

ومرحلة أخرى تمثلها الجمعيات التى طالبت بالمساواة بين الترك والعرب فى الدولة ومنح الأقاليم العربية الحكم الذاتى . فثمة كان حزب «اللامركزية الإدارية» داعية الحكم المحلى فى داخل نطاق السيادة العثمانية. وثمة كانت «الجمعية القحطانية» ـ واسمها يؤكد القومية العربية فى جذورها الأولى ـ التى دعت إلى تحويل العثمانية إلى دولة ثنائية Dual Empire بين الترك والعرب على غرار امبراطورية النمسا ـ المجر Ausgleich [٢] .

وحين رفضت تركيا كل هذه الحلول بحد السيف، وبات واضحاً أن سيادة العنصرية التركية أساس شرطى للعثمانية، واندلعت سياسة التتريك والعثمنة بلا هوادة حتى وصلت إلى حد المجازر وحمامات الدم (جمال باشا)، كان المنعطف الحاد النهائى، وولدت القومية العربية لافى رحم الجامعة الإسلامية وإنما على جثتها. وكرد فعل طبيعى بعد الأمر الواقع وضياع الامبراطورية مع الحرب، اتجه الأتراك بدورهم كلية ونهائياً إلى القومية واضطروا إلى التخلى عن فكرة الدولة الإسلامية والخلافة التى لم تمت بذلك وإنما

---

(١) G. Antonius, the Arab Awakening, Lond., 1955 PP.97-8.
(٢) Stoddard, loc. cit., Hans Kohn, Nationalism in the Near East, N. Y., 1929, PP. 270 et seq.

دفنت، فإنها كانت قد ماتت ميتة طبيعية بالفعل منذ أول مرة تعددت فيها في العصور الوسطى إن لم يكن منذ ورثت لأول مرة .

وبهذا تكون الجامعة الإسلامية الدينية الفضفاضة قد تمزقت وانشعبت لتعطى مكانها لجامعتين قوميتين: الجامعة العربية Pan-Arabism ، والجامعة الطورانية Pan-Turanisam الأولى تدعو إلى دولة واحدة تضم القومية العربية، والثانية إلى دولة واحدة تضم القومية الطورانية. لقد تحللت الوحدة الدينية الإسلامية إلى عواملها الأولية وهى الوحدات القومية.

غير أن هذه سرعان ماتحللت هى الأخرى إلى عواملها الأولية وهى الوطنيات الضيقة، وكان الاستعمار عامل القسمة دائماً. فأما الجامعة الطورانية فقد وجدت كل عناصرها الشرقية من تركمان وترك وتتار فى وسط آسيا منفصلة عن الاتراك فى آسيا الصغرى ببرزخ أرضى عريض، وواقعة تحت سيادات سياسية مختلفة تمتد من إيران إلى الاتحاد السوفييتى. فاضطرت القومية الطورانية إلى أن تتقلص ـ مع الكمالية ـ إلى الوطنية «الأناضولية» الضيقة. وإنها لهوة سحيقة تلك التى قطعتها تركيا لا من الامبراطورية إلى الأناضولية فحسب بل ومن الخلافة إلى دولة علمانية غير دينية، حتى ليكاد الأمر يكون انفصالا شبكياً كاملا بين الدين والدولة (1) .

وأما الجامعة العربية فقد سقطت فى يد الاستعمار الغربى الذى غرر بها فى خدعة الثورة العربية ثم غدر بها بعد الحرب، فقسمها إلى رقعة شطرنج من الدول المنفصلة التى تابعت الكفاح من أجل التحرر على أساس وطنيات ضيقة كذلك. وهاهى أخيراً جداً فقط تتطلع، عوداً على بدء وفى حركة عكسية، إلى الوسط الأمثل، إلى وحدتها القومية .

مرة أخرى إذن : من الإفراط فى الاتساع إلى الإفراط فى الضيق دون أن تمر بالوسط الأمثل، من الإفراط إلى التفريط دون أن تمر بالاعتدال ، من الاسلامية الى الوطنية دون أن تمر بالقومية، إلى هذا جاء تطور أبعاد الوحدة السياسية فى العالم الإسلامى. وبعد أن كان الدين يكاد يطمس أو يبتلع بالتداخل معالم القومية أو يفرقها فى إطاره، سنصل إلى حد يعتقد البعض أن الدين ليس مقوماً أساسياً من مقومات القومية. وبعد أن ظلت الخلافة تجسيداً شبه مقدس للاسلام، سنصل إلى آراء تنكر أصلا أن الخلافة شرط فى الإسـلام. لقد اكتمل الانتقال من عـصر الجامعـة الدينية إلـى عصر الجامعة القومية .

---

(١) Rondot, t. I, pp. 279 - 286..

قضـيـة الوحـــدة

تلك هى القصة المفعمة للاسلام الحديث كقوة ـ دولة وكبعد سياسى: سلسلة من التجارب المريرة التى فشلت فى النهاية كأساس للكيانات السياسية للعالم الإسلامى. وصميم السؤال هو: لماذا فشلت، وعلام يدل فشلها؟ ببساطة لأنها ضد الجغرافيا وضد القومية ـ ضد الطبيعة باختصار. فلقد كانت الدولة الإسلامية الكبرى إذا تركت وحدها تتفكك من الناحية الدستورية تلقائياً ومن الداخل، أما إذا ووجهت بخطر خارجى فلم يكن هذا الخطر يجمعها حقيقة من الناحية القانونية. وعلى أية حال، فإن الجامعة الإسلامية باستثناء صدر الإسلام لم تضم العالم الإسلامى برمته قط، وذلك لفرط اتساعه البحت. إنها ضد الجغرافيا .

وفى العصر الحديث، فإنها كانت مبدأ يوتوبيا خيالياً وغير عملى، ففى الوقت الذى كان الاستعمار الغربى يتقاسم كل أجزاء العالم الإسلامى أين موضع الوحدة الإسلامية أى موضع؟ وقبل الاستعمار الأوربى، فإنها لم تكن فى الواقع وفى تقدير الكثرة من المؤمنين إلا استعماراً دينياً من الداخل. إنها ضد القومية .

وهذا بالدقة هو الحكم الذى يجب أن نصدره على العودة التى تبديها هذه الفكرة الدينية ـ السياسية، مبعثرة هنا وهناك، هذه الأيام. فمن الغريب أن فكرة الوحدة الإسلامية سياسياً لم تزل تعشش فى بعض الأركان حتى يومنا هذا. فقد كانت دائماً تجد لها بيئة صالحة بين مسلمى الهند قبل التقسيم وفى الباكستان بعده، وذلك نتيجة خطر الاضطهاد الهندوسى. ومن هنا كانت الباكستان مشتلا ومصدراً لكل النظريات الحديثة والدعوات المعاصرة فى الإسلامية، كما تتمثل فى المودودى مثلا، وكما تتجمع تحت شعار «اسلامستان». ولهذه الإيديولوجية بعض صدى فى إندونيسيا حيث تأخذ شعار «دار الإسلام»، كما اقتبستها بعض الجماعات المسلمة الإرهابية فى العالم العربى خاصة مصر مؤخراً .

ولما كانت هذه الدعاوى تعتمد على الغموض والحماس العاطفى فلا بد لنا هنا من مناقشة علمية تحليلية لنرى إلى أى مدى يمكنها أن تصمد. ونبدأ بالدعوى نفسها، يمكن أن نلخصها كالآتى(١) الإســـــلام ـ كنقطة ابتداء ـ « دين ودولة »، ولا يكفى أن تتحول كل دولة إسلامية إلى «دولة قرآنية» ـ هكذا يعبّرون ـ وإنمــا لا بد من توحيد كل الدول الإسلامية فى دولة إسلامية عالمية «أحادية» لها

---

(١) Rondot, L. t. pp. 255-260.

مركز سلطة واحد. فوطن المسلم هو العالم الإسلامي كله، ومواطنوه هم «المؤمنون» جميعاً، والدولة الإسلامية دولة ليس أساسها العنصر والجنس أو القومية أو الوطن، وإنما هي دولة «أيديولوجية» أساسها العقيدة الدينية. وإذا كان الاتجاه العالمي الحديث هو إلى الدول الأيديولوجية، فهذا يصدق إذن ـ كما يقولون على الدولة الإسلامية. ومن هذا المنطق جميعاً تنتهي الدعوى من الناحية العملية إلى نتيجتين غريبتين: أولا أن الإسلامية ضد القومية، وثانيا أن الدولة الإسلامية دولة غير إقليمية Non-territorial أي غير جغرافية ..

والمناقشة العلمية الموضوعية وحدها هي الحكم في مثل هذه الدعوى العريضة. فأولا، وبغض النظر عن الطبيعة الخلاسية الشاذة لمثل هذه الدولة في الأجناس واللغات والثقافات والبيئات، وبغض النظر عن الأبعاد المسافية السحيقة والساحقة معاً على نحو ما بينا في عرضنا لجغرافية العالم الإسلامي، إذا كان ذلك كذلك، فمن الذي يقوم بتوحيد الدولة الإسلامية الأحادية الكوزموبوليتانية ؟

إن كان الأقوى ـ سياسياً ومادياً ـ كما فعل الأتراك، فما عسى يكون هذا سوى الاستعمار التقليدي بحذافيره ؟ ولكن لما كانت القوة متغيرة في مصايرها، فهذه دعوة إلى الصراع المسلح الدوري المستمر داخل الدولة. وإن كان الأجدر ـ دينياً ـ هو أداة التوحيد كما طالب العرب حيناً بالخلافة ، فهذه طبقية دينية تترجم إلى

عنصرية جامدة إلى الأبد وتنتهى إلى صراع جنسي بين شعوب الأمة أى إلى صراعات بين القوميات المختلفة . إن هذه الدولة لكى تنشأ ولكى تستمر لابد أن تكون دموية أساساً ، دولة الحروب الأهلية بانتظام – نقيض معنى الإسلام مباشرة .

ثانياً ، إذا أمكن جدلا توحيد الدول الإسلامية – دول الأغلبية الإسلامية – فى هذه الدولة الفرضية ، فماذا عن دول الأقليات الإسلامية ، وهى التى كما رأينا تزيد عدداً على نصف الدول التى تضم مسلمين وتحوى نسبة هامة منهم ؟ ليس من المعقول أن نطالب بضمها وأكثريتها من ديانات مفارقة . فهل نتركهم «المسلمين فى المنفى» ؟ وماذا عن المسلمين فى فنلنده مثلا – مئات ربما – أو فى أمريكا الجنوبية ؟ إن مبدأ الضم إذا أختير قد يصل بنا إلى جمع العالم كله فى هذه الدولة .

وهذا فى الواقع هو المأزق الذى تخرج منه النظرية بالنهاية الشاذة من أن الدولة غير إقليمية أو جغرافية ، أى لاقاعدة أرضية محددة لها ولا حدود . إنها إذن دولة تجريدية معلقة فى فراغ ، وعهدنا أن أبسط مبادىء نظرية الدولة هى الأرض أولا والأرض أخيراً . أو هى لها قلب وليس لها أطراف ، فإنها إذن الحروب الخارجية الدائمة مع الجيران ...

ثالثاً ، إذا افترضنا إمكانية مثل هذه الدولة الدينية الموحدة ،

فإنها تصبح دولة - كتلة من حجم دينوصورى خطير. وبقانون الفعل ورد الفعل، ستجد الدول الأخرى المهددة نفسها مرغمة على التكتل للبقاء، أو متناقضة معها بحكم الايديولوجية. فالتناقض مع الايديولوجيات الدينية الأخرى يعنى المسيحية أساساً، ويفتح من جديد باب الحروب المقدسة والصراعات الصليبية. أما مع الايديولوجيات غير الدينية فالتناقض مع الشيوعية أساساً. إن فى غاب الايديولوجيات إذن دينوصورات أضخم وأقوى، وإذا رجح التناقض بينها معاً وبين دولتنا الوهمية على التناقض بين كل منها، فقد أصبحت هذه بين شقى رحى وفكى كماشة. أى أنها بنفسها تهزم أغراضها فى القوة التى قامت من أجلها .

رابعاً، إن منطق الدولة الإسلامية العالمية لايتفق بالنظرية والفرض مع مبدأ عالمية الإسلام. فالإسلام أصلا دعوة عالمية، وإذا كان قد تحدد تاريخياً بمنطقة جغرافية معينة، فهو من حيث المبدأ يستهدف العالم كله. فإذا فرضنا جدلا هذا الفرض، فهل حقاً يجوز التفكير واقعياً فى دولة العالم الأحادية ؟

خامساً، يمكن أن يكون لمثل منطق الدولة الدينية العالمية نتيجة سياسية خطيرة، من حيث إنه قد يشرع كيان إسرائيل الغاصبة: فهاهنا دولة دينية تريد أن تجمع اليهودية فى حدودها، ولاجدوى من الاعتراض حينذاك بأن الوضع هنا اغتصاب لوطن وليس تاريخياً،

فمثل عدونا الانتهازى الملفق كفيل بأن يأخذ من عنده منطق القوة والأمر الواقع، ويأخذ من النظرية منطق الدولة الدينية الأحادية .

الانتهاء الموضوعى بوضوح هو أن فكرة الجامعة أو الدولة الإسلامية العالمية غير ممكنة عملياً، غير معقولة نظرياً، وغير صحيحة علمياً. ولقد قلنا إنها ضد الجغرافيا، وضد القومية، ضد الطبيعة باختصار، ونخشى الآن أن نضيف : وضد الدين نفسه. إن الجامعة الإسلامية الموحدة يوتوبيا دينية، وردة سياسية، وحركة سلفية رجعية، ورجعة تاريخية نكوصية، تريد أن تضع عقارب الساعة إلى الوراء، ولا تتعايش مع روح العصر ومناخ النصف الثانى من القرن العشرين. وتبقى القومية هى المبدأ السياسى الأمثل والممكن والوحيد. وهنا يصبح السؤال الذى يفرض نفسه ويبحث عن الإجابة هو على الفور: ماهى إذن العلاقة الطبيعية، السوية والعضوية، بين الدين والقومية؟ كيف يتعايشان، وكيف ينبغى أن يستقر كل منهما فى إطار الآخر ؟

الدين والقوميـــة

إن نظرة سريعة إلى خريطة العالم الإسلامى تكفى لكى توضح أنها أقلية معدودة للغاية تلك الدول التى يمكن أن تعد اليوم دولا دينية، وأن الدين وإن ظل فى الصورة فليس له بعد من دور إلا فى الصف الثانى أو على الهامش السياسى، لا نقول دوراً سلبياً، ولكن تكميلى. أما مركز البؤرة من الحياة السياسية المعاصرة فى السواد الأعظم من دول العالم الإسلامى فتحتله بغير منازعة فكرة القومية. إنها نكاد نقول «الدين العلمانى» فى العصر الحديث، تمييزاً لها عن الدين الروحى بالمعنى المألوف. فهل تتعارض القومية والدين، هل تتناقض العروبة والإسلام، كما قد يبدو على السطح أو للسطحيين ؟

إن المتأمل فى واقع خريطة الإسلام السياسية واجد بغير عناء أن «الوطنية»، بمعنى المحلية أو الإقليمية الضيقة، هى أساس تقسيم وحدات الدول فيها فعليا، وأن هذا الأساس الضيق الذى تجمع الأغلبية على رفضه أو عدم صلاحيته وعلى أنه أصلا وغالباً من صنع الاستعمار الأجنبى، قد حوّل العالم الإسلامى إلى بلقان كبرى من مقياس فوق - قارى. إن الوطنية، بهذا المعنى الذى حددت، أساس سياسى قزمى يتطرف نحو التفريط .

غير أن هناك من الناحية الأخرى كما رأينا من يتطرف فى الاتجاه المضاد نحو الإفراط الشديد، يريد أن يجعل الدين أساس الوحدة السياسية فى العالم الإسلامى بمعنى ألا تنتهى دولة فيه وتبدأ أخرى إلا حين وحيث تنتهى حدود العالم الإسلامى نفسه . بتعبير آخر يريدون أن تضم العالم الإسلامى جميعاً دولة واحدة، وألا تتعدد فيه الدول سواء على أساس التقسيم الوطنى الراهن أو أى أساس سواه ـ وليس سواه فى الحقيقة إلا القومية. تلك الوحدة تأخذ عندهم أشكالا متعددة، فهى أحياناً دولة الإسلام الأحادية العالمية، وأحياناً الجامعة الإسلامية ، وأحياناً أخرى الحلف الإسلامى.

وعلى التو يبدو كيف أنهم يخلقون تناقضاً وتصادماً بين القومية والدين ويصورونهما كقطبين متنافرين. بل إنهم فى الواقع يحولون الدين إلى قومية بمعنى ما أو بطريقة ما، فهم يتكلمون بالفعل عن «القومية الإسلامية»، وتخصيصاً من هذا التعميم، فإنهم فى العالم العربى أحياناً ما يهاجمون مبدأ القومية العربية بوسائل شتى. فهل صحيح هو هذا المنطق علمياً ؟ أحقاً ترتطم القومية بالدين بعامة، والعروبة بالإسلام بخاصة ؟

الشىء المحقق علمياً أن الدين عنصر، ولكن القومية مركّب، وتلك نقطة البدء لأى فهم صحيح للعلاقة بينهما : فالقومية تتألف من عدة عناصر، الدين لاشك أحدها، وإن حاول البعض أن يستبعده منها

كلية. ومن ثم فالقومية فكرة أكثر تعقيداً وتركيباً من الدين، وبالتالى فهى أوسع منه وأشمل. وليس من تناقض أو تعارض بينهما إذن، ثمة فقط تداخل وتشابك، تداخل وتشابك الجزء مع الكل والخاص مع العام. والجزء هنا ـ وليس العكس ـ هو الدين والكل هو القومية، الخاص هو الإسلام والعام هو العروبة .

وفى النتيجة، فإن القومية العربية تشمل الإسلام وتحتويه، ولكنه لا يمتصها أو يجبها، بل إنه يغذيها ويدعمها: «إنما المؤمنون أخوة»، وكذلك نفس الوقت «جعلناكم شعوباً وقبائل». فوحدة الدين مستوى، ووحدة القومية مستوى آخر، ومن هنا فلا ارتطام بينهما: الأخيرة وحدة دستورية، ولكن الأولى ليست كذلك بالضرورة: تلك وحدة مصير وكيان وسياسة وتلك وحدة عمل وأخوة وتضامن. وترتيباً على هذا يمكن أن نقول إن الإسلام يمنح القومية العربية لونها الخارجى وربما وجه بوصلتها فى العالم السياسى، وقد يكون بل هو بالفعل مادة لاحمة، أسمنت القومية العربية كما قد نقول [1]، ولكنه بالتأكيد ليس خامتها ومادتها الغفل .

ونصل من هذا جميعاً إلى أن تعبير «قومية إسلامية» مغالطة فكرية لأنه ليس إلا نقيض النقيض. أما العالم الإسلامى فهو

---

(١) W.R.Polk, Generations, Classes & Politics, in : Kerekes, op. cit., P. 111..

بواقعه وبلا نقاش يضم عشرات القوميات المكتملة والمتمايزة بالمعنى العلمى الدقيق للقومية. والنظرية السياسية الأصولية فى الفقه الإسلامى لا تحتم قط وحدة «الإمامة» ـ يعنى وحدة النظام والإطار السياسى ـ فى دار الإسلام، بل رخصت منذ وقت مبكر جداً فى تاريخ الإسلام بجواز تعددها إذا اتسعت رقعة المسلمين أو «فصل بينهم ماء» أو حتى فى القطر الواحد الكبير... الخ [1] . فكيف بالعالم الإسلامى اليوم وهو فى جملته أضخم من قارة وفى توزيعه أضخم من أن تحتويه قارات ثلاث؟ التعدد إذن ضرورة حتمية ومنطقية، وهى شرعية إلى ذلك .

وإذا كان أساس التقسيم ـ أى التعدد ـ لا يمكن أن يكون الوطنيات الضيقة المرفوضة الحالية، فليس يبقى من أساس علمى لتقسيم العالم الإسلامى سياسياً سوى القومية الرشيدة، دون ماشبهة من تعارض بين الدين والقومية. ويصبح النمط العلمى والشرعى معاً للعالم الإسلامى هو مجموعة من الدول القومية المكتملة، المنفصلة دستورياً المتعاونة روحياً، تستقر فى محيطه ترصع جسمه وتغطى وجهه بلا حرج أو عنت. ولعل القومية العربية هى حالياً أبرز وأنضج هذه الوحدات التى ينبغى أن تأخذ مكانها

---

(١) محمود كامل. القانون الدولى العربى، بيروت، ١٩٦٥، ص٤٩ ـ ٥٤ .

فى خريطة العالم الإسلامى السياسية بلا تأخير. ومن هنا، وليس من هناك، فالقومية وحدها، دون انفصال عن الدين أو معارضة له، هى كلمة الدليل وعلامة المستقبل watchword ، وليست «مبدأ مستورداً» أو مجرد كلمة عالقة catchword من كلمات العصر السارية .

مرة أخرى وأخيرة إذن، لاتناقض بين الدين والقومية، وإنما يبدو التناقض ظاهريا حين يوضعان ـ خطأ ـ على مستوى واحد من التعقيد والتركيب، أو حين يغلب الأول على الثانى ـ وهو أشد خطأ ـ كما يفعل دعاة الجامعة الإسلامية ومايجرى مجراها من الدعاوى. فالذى يتناقض مع الإسلام ليس القومية وإنما هو الجامعة الإسلامية. ومن المفارقات المثيرة أن هؤلاء الدعاة لا يفطنون إلى نتائج دعاواهم وإلى أين تنتهى بهم. ذلك أنهم ينتهون إلى موقف من القومية يشبه تماماً موقف الشيوعية التى يتنافرون معها فى كل شىء آخر... فالشيوعية أيضا تنكر القومية وتستنكرها، وإذا كانت الجامعة الإسلامية لا ترى إلا وحدة الدين، فالشيوعية لا ترى إلا وحدة الطبقة. ومن السخرية حقاً بعد ذلك أن الشيوعية ـ بغض النظر عن منطقها العام ـ لا ترى فى فكرة الجامعة الإسلامية إلا فكرة طبقية رجعية خاضعة للاستعمار وضد التطور والتقدم.... [١]

(١) رونى – جـ ١ ص ٢١٦ .

دور الإسلام السياسي

يجوز لنا الآن، وقد وصلنا إلى نهاية المطاف في هذا البحث التقريري الموضوعي، أن نتساءل عن الدرس التطبيقي العملي الهادف، تخطيطياً ومستقبلياً، الذي يمكن أن يحمله لنا. فلقد أتيح لنا أن نرى المستحيل والممكن والواقع في العالم الإسلامي، ومن ثم فنحن في موضع يسمح لنا بأن نسعى إلى التعرف على الواجب الذي ينبغي علينا، بعبارة أخرى، أن نركز بؤرة عدستنا على محاولة في التخطيط السياسي، نحدد بها امكانيات العمل السياسي في العالم الإسلامي، أي الدور السياسي للاسلام، وذلك في أبعاده الطبيعية بغير مبالغة أو تقليل، وكذلك بغير تغرير أو تبرير.

ونقول تغريراً أو تبريراً، لأن من الحقائق الغريبة بل المذهلة أن أكثر من أراد أن «يوظف» الإسلام سياسياً هو الامبريالية والاستعمار، الاستعمار الغربي الذي جثم طويلا على صدر العالم

---

(١) روندو، ج ١ ص ٢١٦ .

الاسلامى وجسمه ولم يزل يحاصره ويعاديه للآن. ولا يعنى هذا بطبيعة الحال إلا استغلاله وتسخيره لأغراضه الإمبريالية العليا واستراتيجيته الكوكبية العدوانية. من هنا كان علينا أن نفرق فى دور الإسلام السياسى بين الدور الدخيل والأصيل، وأن نحلل الأول لتعريته وكشفه قبل أن نصل إلى الدور الأصيل والصحى المنشود .

دور دخيل

فعن الأول، نستطيع باطمئنان أن نطلق على الفترة من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم فى الشرق الأوسط «فترة صناعة الأحلاف» ففى غضون عشرين عاماً قدمت أو نفذت ستة مشاريع أحلاف متعاقبة، إما كأحلاف دفاعية عسكرية أو كأحلاف دينية سياسية. وكان مهندس هذه الأحلاف هو المعسكر الغربى، وعلى رأسه الولايات المتحدة ومعها بريطانيا، وصدرها إلى دول إسلامية مختلفة تمتد وتتفاوت من الباكستان شرقا إلى المغرب على المحيط الأطلسى غرباً ..

وقد كان من أول وأبرز هذه المشروعات مشروع ظهر على مسرح السياسة العالمية فى الأربعينات المتأخرة والخمسينات الباكرة،

لإنشاء تجمع أو حلف أو جامعة إسلامية ، يتلخص هدفه كما قدموه في الوقوف «كحلف مقدس» في وجه الشيوعية «ليدافع عن الإسلام ويواجه خطر الإلحاد» (كذا) . ويبدأ منطق المشروع كما رسموه من موقع العالم الإسلامى الجغرافى والإيديولوجى فى عالم ما بعد الحرب. فبالموقع الجغرافى، توضح الخريطة السياسية حقيقة هامة، وهى أن أطول حدود مشتركة مباشرة للاتحاد السوفييتى هى مع دول إسلامية ، ابتداء على الأقل من الباكستان وأفغانستان عبر إيران حتى تركيا. هذا فضلا عن أن جسم العالم الإسلامى الأساسى فى مجموعه بعد هذا ظهير ضخم للكتلة الشيوعية .

أما أيديولوجيا فقد كان التبرير أو الترويج يدور حول وحدة الأديان السماوية ضد الإلحادية اللادينية، وأن العالم الإسلامى يمكن وينبغى أن يجمع قواه مع العالم المسيحى «الحر» فى جبهة واحدة ضد العالم الشيوعى. وفى هذا السبيل شهدت تلك الفترة حركات فكرية ومؤتمرات دعائية ولقاءات لاهوتية، عديدة بدرجة لافتة للنظر، تضرب على نغمة التقارب بين الإسلام والمسيحية، وعلى وحدة الرسالات السماوية ... الخ .

نظرية المشروع إذن أنه يمكن للعالم الإسلامى إذا تكتل أن يكون «قوة ثالثة» أو «كتلة ثالثة»، هى بطبيعتها «كتلة حاجزية» بين

الشرق والغرب [1] أما الصيغة الرسمية للتجمع المقترح، فقد تراوحت بين «جامعة دول إسلامية» حينا و «جامعة شعوب إسلامية» حيناً آخر، بين «حلف دفاعي» حيناً «واتحاد للدول الإسلامية» حينا آخر .

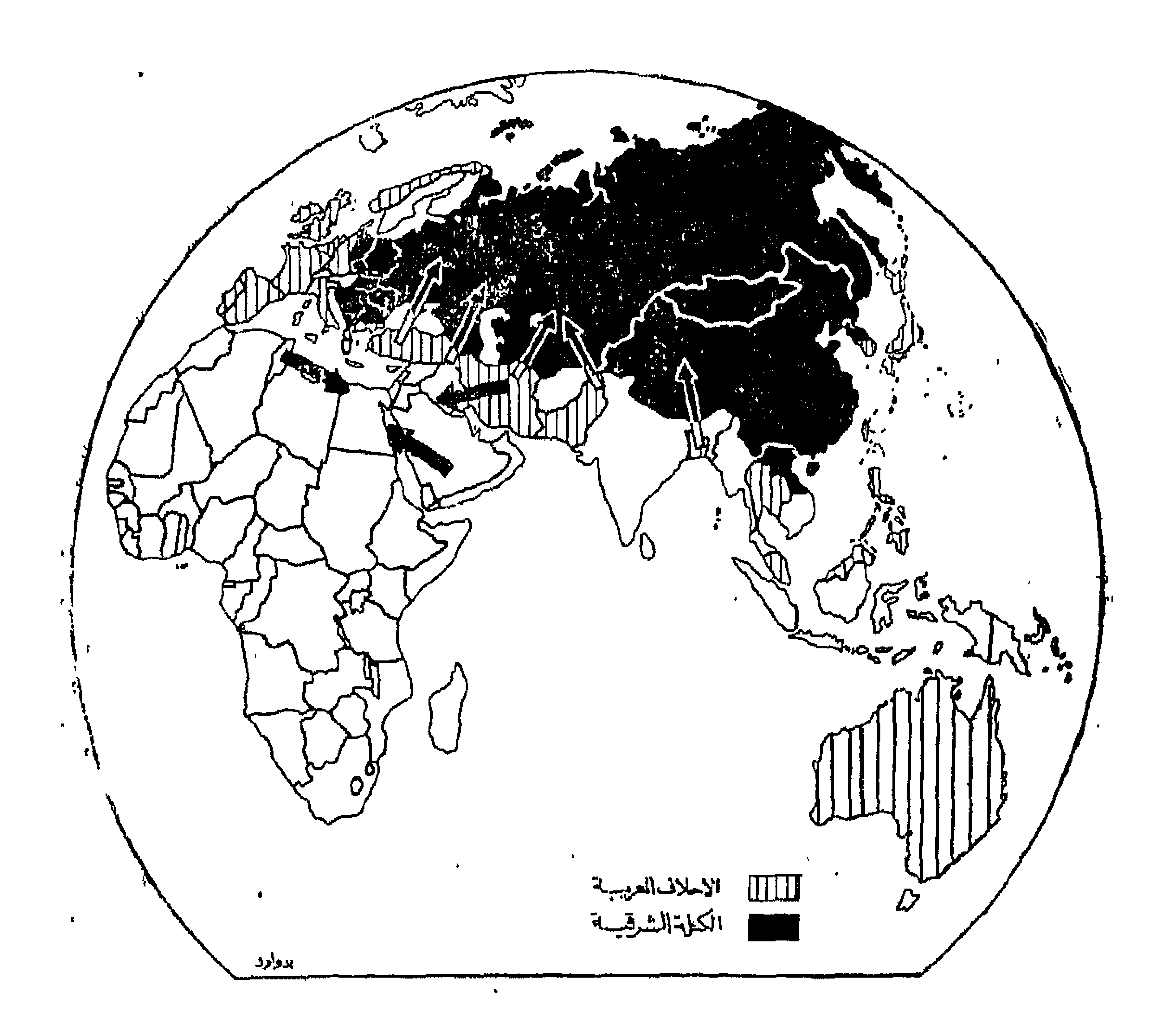
وإذا نحن حللنا جوهر الحلف على ضوء هذه الحقائق، فسنجد أنه أساساً وفى الدرجة الأولى جزء لا يتجزأ من استراتيجية الغرب لفترة مابعد الحرب الثانية، أعنى استراتيجية «الإحاطة والتطويق» المشهورة التى تهدف إلى حصار الكتلة الشرقية عامة والاتحاد السوفييتى خاصة بسلسلة متصلة الحلقات من الأحلاف السياسية والعسكرية تبدأ من النرويج حتى اليابان. والحلف بهذا موجه «إلى الخارج» ، أعنى أنه يكتل العالم الإسلامى ككل لينظر ككل إلى خارج حدوده، وبالتحديد نحو تخومه الشمالية. وبعبارة أخرى، ورغم المخاطرة بالتكرار ينبغى أن نصر على أن الحلف كان تعبيراً عن استراتيجية عالم الكتلتين وانعكاساً لمنطق الاستقطاب الثنائى .

والحلف بهذا ليس حلفاً دينياً رغم الاسم، ولكنه حلف سياسى عسكرى عدوانى فى جوهره. أما الشعار الدينى فغلالة لا تخفى تسخيره للأغراض السياسية. نقطة أخرى لن تخفى على التحليل، أن الحلف ، بمنطق معكوس، كان يقوم مع تلك الدول التى استعمرت الإسلام طويلا وتقليديا والتى كانت لا تزال تستعمر أغلب أقطاره،

---

(١) روندو، ج ١ ص ٢١ ، ٢٢ .

بينما يوجه ضد قوى لا تاريخ استعمارى واضح أو قوى لها فى العالم الإسلامى. أى أنه يتحالف مع عدو استعمارى جاثم بالفعل ضد خطر مفروض بالوهم، بل ضد قوة عالمية عظمى أثبتت بالفعل والواقع أنها أكبر صديق وسند للعالم العربى المسلم ضد الاستعمار والصهيونية، وكذلك للعالم الثالث المتحرر من الاستعمار والذى يقع العالم الإسلامى برمته فى محيطه .



شكل (٧) العالم الاسلامى فى استراتيجية الاستقطاب الثنائى . مشروعات الاحلاف الدفاعية التى حاول الغرب منذ الحرب الثانية فرضها على قطاعات من العالم الاسلامى كجزء من محـــاولته تطـــويق الكتلة الشــــرقية . الاســـهم تبين اتجـــاهات الضغـــوط .

وثمة نقطة أخرى وأخيرة وهى أن من الواضح أن الاستعمار الغربى الذى طالما حمل على الإسلام وشهر به وسخر منه ، أراد الآن أن يسخره لحسابه الخاص فى صراعه العالمى الجديد . وعلى سبيل المثال ، فلقد كان مبدأ «الجهاد» فى الإسلام يفسر دائماً ويهاجم فى الغرب على أنه دعوة إلى أحلاف مقدسة وحروب دينية ، وعلى أنه دعوة عدوانية دموية تعصبية [١] . ومن المؤكد أن الغرب لم يكن ليستحثه أو يستحييه الآن ، لولا أنه كان يتصوره أداة له ولأغراضه .

وطبيعى بعد إذ تكشفت حقيقة مثل هذا الحلف أن يموت بالسكتة القلبية ، فما كان لنبت طفيلى ظهر شيطانياً إلا أن يختفى فجأة كالأشباح . من هنا اتجهت الاستراتيجية الغربية إلى بدائل له سياسية وعسكرية تخلو من القناع الدينى ، ولكنها – موضوعياً – استمرار له بصورة أو بأخرى . ولعل أولها هو «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط» ـ الميدو MEDO ـ التى تمتد من تركيا حتى الباكستان ومن مصر حتى إيران . وقد قدم الغرب بنفسه هذا المشروع ، وقدمه لكل من العرب وإسرائيل (!) ، فكانت تلك الخطوة القاتلة التى وأدت المشروع فى مهده [٢] .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٠ وما بعدها .

(٢) Halford L. Hoskins, The Middle East. Problem Area in World Politics, N. Y., 1954..

ومن هذه التجربة الحرجة بدأ الغرب يعدل تكتيكه : «الغزو من الداخل» بدلا من أن يفرض الحلف بنفسه من الخارج ، والتمويه بمواجهة إسرائيل بدلا من المشاركة معها . ومن هنا كان حلف بغداد الذى دعت إليه – شكلياً – دول من منطقة الشرق الأوسط للدفاع والأمن المشترك ، وروجت له – تضليلا – على أساس أنه دفاع وحماية ضد إسرائيل والخطر الصهيونى . وقد تألف الحلف من باكستان وإيران والعراق وتركيا ، و«انضمت» إليه بريطانيا وأمريكا . وقد كانت الضغوط لحشد الدول العربية فى حظيرة الحلف ملحمة تاريخية فاشلة . وبقى الحلف يقتصر فى الشرق الأوسط على كتلة أرضية متصلة تمثل جناحاً شرقياً من العالم الإسلامي ، ولكنها باشتراك العراق تمزق العالم العربى فى جناحه الشرقى .

غير أن الحلف فى نطاقه الضيق الذى انتهى إليه فقد فاعليته سريعاً ، وبدأ البحث عن وريث له وهو على قيد الحياة . وكان هذا الوريث هو مشروع أيزنهاور الذى قدم لملء «الفراغ» الذى قيل إنه نشأ فى الشرق الأوسط بعد انهيار بريطانيا فى معركة السويس وخروجها من المنطقة . فراغ أم تفريغ ؟ – هكذا يكون التساؤل الحقيقى . فلقد كان الهدف الأصيل هو فرض الوصاية على المنطقة وتجريدها من قواها الذاتية ووضعها فى مناطق النفوذ

الغربية ، لا بل الأمريكية بالذات ، فإن مشروع أيزنهاور لم يكن إلا وريثاً أمريكياً لحلف بغداد البريطاني ، عملية إدالة من بريطانيا المتنحية إلى أمريكا الكاسحة .

بيد أن التاريخ عاد يكرر نفسه ، ليدفن الوريث والموروث معاً وفى وقت واحد تقريباً : الأول فى تربة العراق حيث أصبح حلف بغداد بلا بغداد ، وتحول إلى اسم على غير مسمى ، والثانى على أرض الوطن العربى العريض . أى أن مد القومية العربية هو الذى كسح المشروعين . فعاد حلف بغداد على أعقابه ليتسمى بالحلف المركزى ، الذى لم يلبث بالتدريج أن دخل فى حالة من «التجميد العميق» كما قيل ، وفقد بالتدريج وزنه وفاعليته وأصبح حفرية سياسية مفرغة .

تلك المشروعات جميعاً يجمع بينها كما هو واضح قاسم مشترك أصغر أو أعظم يكشف جوهرها الاستعمارى . فهى جميعاً أحلاف سياسية وليست دينية وإن تسترت بالدين . وهى جميعاً تحاول أن تجيّش العالم الإسلامى لا لحسابه ولكن على حسابه : مع العالم الإستعمارى : ضد العالم الشيوعى : وعلى الحياد من الصهيونية الإسرائيلية (!) . ومن هذه الزاوية ، فلا مبالغة فيما قيل حينا من أن الدور السياسى للإسلام كما يقدمه له الاستعمار هو «وصفة للانتحار السياسى» ..

وأخيراً ، فإن الخطة القائدة فى تلك المشاريع هى نقل التأكيد والثقل من على إطار القومية المتبلور - القومية العربية - إلى إطار أوسع فضفاض هو الإطار الدينى - الايديولوجية الإسلامية - بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية . وهذا ما ينقلنا إلى دور الإسلام السياسى الصحى والصحيح ، دوره لحساب العالم الإسلامى لا ضده .

الدور الأصيل

توحيد الدين ، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين ، لتذويب الفروق والفرق الحفرية التى ورثها عن ماض فقد الآن سياقه الزمنى ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات ؛ التبادل الثقافى والفكرى العام والمزيد من التنسيق الاقتصادى والترابط والتبادل التجارى ؛ التضامن السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة وعلى رأسها بالقطع فلسطين المحتلة : تلك جميعاً هى المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سياسياً .

إنها فى كلمة «وحدة عمل» لا «وحدة كيان». بل يمكن أن نضيف: وحدة مصير، إلا أنها ليست دستورية. فى كلمة أخرى: وحدة فكرية لا دستورية . أو هى كما قال عبد الناصر فى دوائره الثلاث «دائرة

إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ..» . فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصير، والإفريقية وحدة جوار ، فالإسلامية وحدة عقيدة .

ويعنى هذا أن العمل السياسى والنشاطات الدولية الإسلامية التى تخضع حالياً لتوجيهات منفصلة ومشتتة وربما متعارضة ، ينبغى أن تتحول من نمط الطرد المركزى إلى قوى الجذب المركزى ، لابد - يعنى - من تنسيقها فى استراتيجية عظمى واحدة ، الإسلام بوصلتها التى تسترشد بها فى عالم القوى الذى يهدد الكل بصراعاته وتوازناته ، بضغوطه وتكتلاته ، وأيضاً باستقطاباته وتفككاته .

هذا التعريف الوظيفى لوحدة العالم الإسلامى السياسية قد يراه البعض حداً أدنى ، ونراه حداً أمثل . بل إننا لنخشى أن جهود الدول الإسلامية واستعداداتها الفعلية تقصر كثيراً دون برنامج العمل الإيجابى الذى ينتظمه حتى ليكاد يبدو على بداهته برنامجاً طموحاً أكثر مما ينبغى . إن هذا البرنامج هو المحك والمقياس الحقيقى لنظرية وحدة العالم الإسلامى مثلما هو محيطها ومجالها .

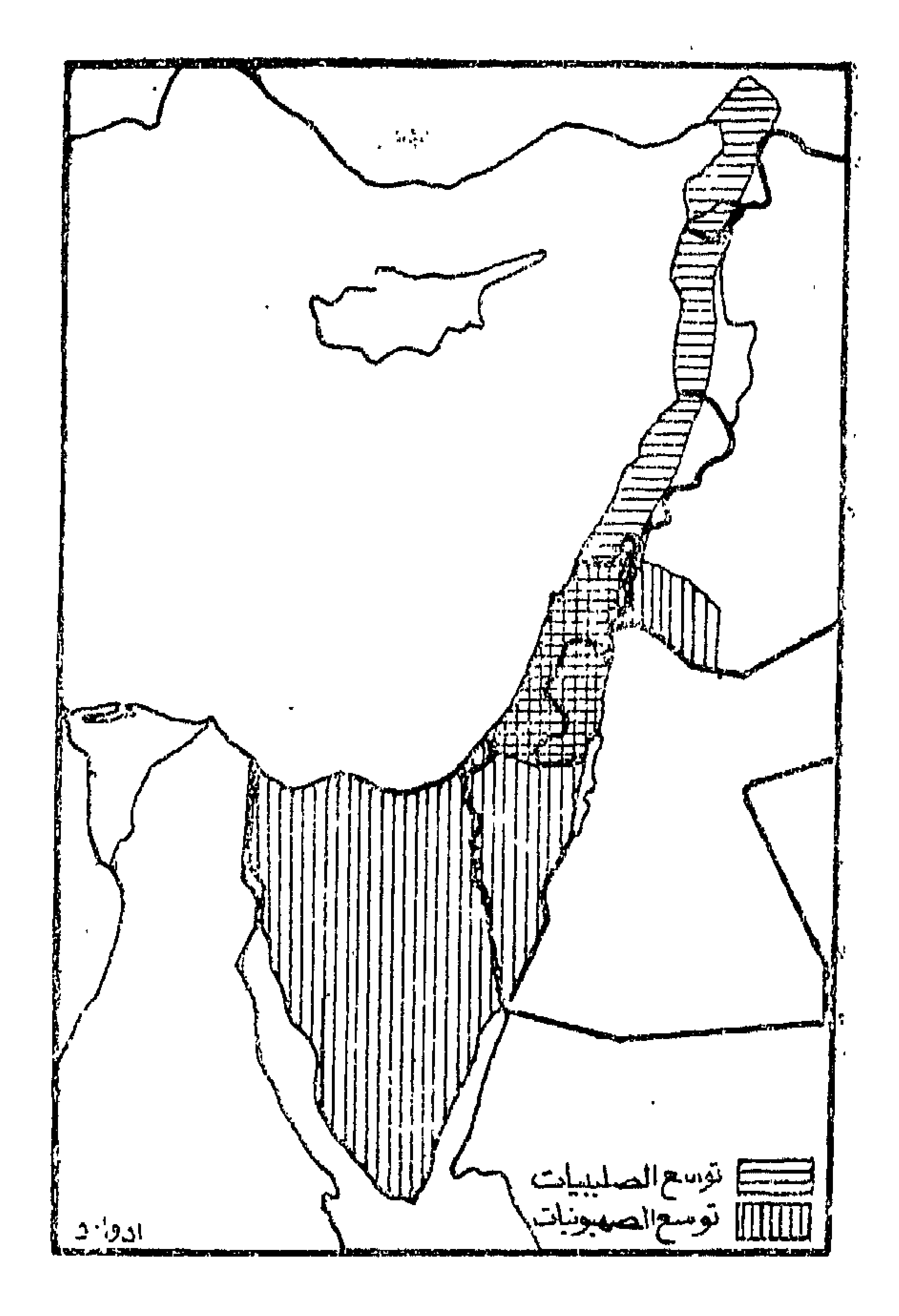
ومهما يكن من أمر ، فإنه يستدعى من الدول الإسلامية الحد الأقصى من التعبئة الشاملة المكثفة لكل طاقاتها ومواردها

وإمكانياتها ، حتى يحتفظ العالم الإسلامى بمكانته العالمية وهيبته فى السياسة الدولية ، بل نكاد نقول حق الحياة والبقاء فى العالم المعاصر . ولا يصدق هذا كما يصدق على أخطر بنود هذا البرنامج وأكثرها مصيرية وهى قضية فلسطين ، التى تحتاج لهذا إلى وقفة خاصة .

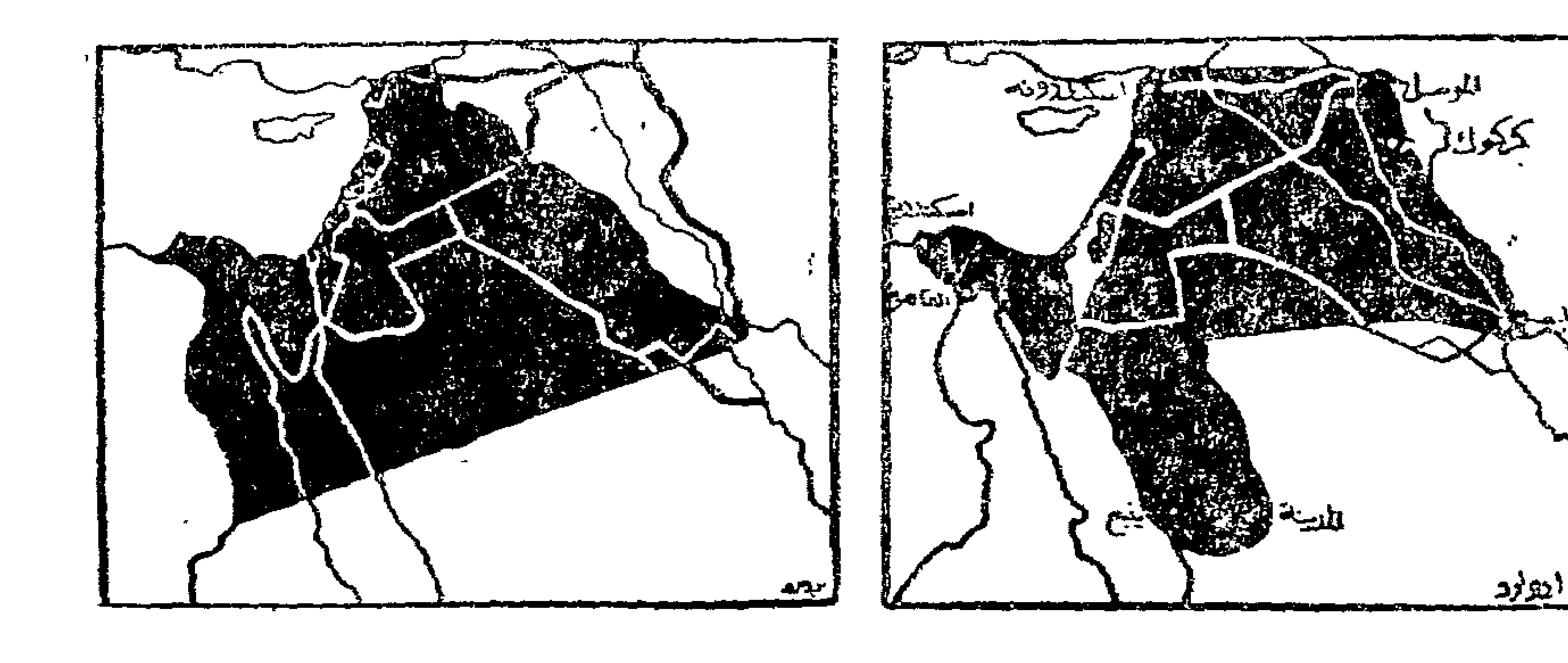
إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامى ، لا جغرافيا فحسب، بل ودينياً أولاً وقبل كل شىء . إن يكن العالم العربى هو قلب العالم الإسلامى روحياً وموقعاً ، فإن فلسطين - كمصر فى هذا الصدد - هى أرض الزاوية من العالم الإسلامى طبيعياً . وبالفعل فإنها تقع فى صرة العالم الإسلامى تتوسطه ما بين الصين شرقاً والأطلسى غرباً وما بين وسط آسيا شمالاً وجنوب إفريقيا جنوباً . بل لقد كانت القدس هى مركز العالم كله فى «خرائط العجلة» الكنسية التى اصطنعتها العصور الوسطى .

غير أن فلسطين إلى ذلك ، وأكثر من مصر هذه المرة ، جزء حميم من صميم أرض الرسالة فى الإسلام . إن مهد الإسلام يمتد كمحور طولى بين الحجاز وفلسطين ، وكل من هذين القطبين ، الشمالى والجنوبى ، هو بحق عاصمة الإسلام دينياً . إن مكانة فلسطين فى العالم الإسلامى تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية فى أنها من منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضاً وديناً .

والكارثة التى تعرضت لها فلسطين على يد الصهيونية الإسرائيلية هى سابقة ليس لها مثيل قط فى تاريخ العالم الحديث ، لا العالم الإسلامى ولا العالم الثالث . إنها ليست استعماراً قديماً أو جديداً فحسب ، ليست حتى استعماراً استيطانياً أو عنصرياً وحسب ، ولكنها كذلك وقبل ذلك استعمار إبادى إحلالى صرف . إن المد الاستعمارى الذى تعرض له العالم الإسلامى برمته فى القرن التاسع عشر ، والذى كان جزءاً من موجة «الاستعمار المدارى» ، تعاصرت معه أولى محاولات الصهيونية العالمية التى ركبت بالفعل نهايات موجته عملا على تحقيق حلمها فى الدولة اليهودية أو بالأصح دولة اليهود . ومنذ تلك البداية والصهيونية العالمية جزء لا يتجزأ عضوياً من الإمبريالية العالمية ، وقد استمرت بعدها وهى أعلى مراحل الاستعمار فى العالم العربى ، وهى الآن أعلى مراحل الإمبريالية العالمية . إنها قطعة من الاستعمار الأوربى عبر البحار ، والصهيونية بكل بساطة هى السرقة .



شكل (٨) مقارنة بين الخطر الصليبى والصهيونى على قلب العالم الاسلامى



شكل (٩) تفسيران صهيونيان لحلم «اسرائيل الكبرى» المريض من النيل إلى الفرات الأول يشمل كل العراق ونصف مصر والثانى نصف العراق وكل مصر ولكن الاثنين على حد سواء يشملان نصف المشرق العربى وكل العالم الاسلامى ..

وإذا كانت اسرائيل في بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المدارى فى القرن التاسع عشر ، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات وخصائص استعمار المعتدلات الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ . ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخيا ، ولكن إسرائيل تمثل آخر موجة من الاستعمار الاستيطانى فى العالم كله . ومع ذلك فإنها تتميز عن جميع نماذج الاستعمار الاستيطانى بما يجعلها حالة فريدة شاذة تجمع بين أسوأ ما فيها ثم تضيف إليه الأسوأ منه .

هى مثلا كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدراً بشعاً من إبادة الجنس. وهى كذلك كجنوب إفريقيا تعرف قدراً محققاً من العزل العنصرى. وهى كالجميع استعمار أوربى أبيض، غزوة غرباء أجانب من وراء البحار لا علاقة لهم جنسياً أو تاريخيا بالبلاد، وإن زعمت إسرائيل العكس تماما . ولكنها تختلف عن الجميع بعد ذلك من حيث إنها طردت كل السكان الأصليين خارج وطنهم تماماً ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها . إن إسرائيل بهذا كله أعلى ـ أعنى أدنى ـ مراحل الاستعمار الاستيطانى، وهى الاستيطان بالاستئصال والإحلال والاجتثاث والإبادة (١) .

---

(١) جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٧ ، ١٧٦ .

غير أن الصهيونية إلى ذلك استعمار دينى طائفى بحت ، ودولة إسرائيل دولة دينية يهودية تهويدية متعصبة تقوم على حشد وتجميع اليهود ، واليهود فقط ، فى «جيتو» سياسى واحد أكبر . وهى إذا كانت تفرض ذلك بقانون الغاب ومنطق القوة الرجعية الغاشمة فى القرن العشرين ، فإنها أيضاً تعيد إلى الحياة فلسفة الدولة الدينية التى تعد من حفريات العصور الوسطى بل عصور القبلية المتحجرة القديمة والتى لا يعرفها أو يعترف بها القرن العشرون . إسرائيل تأتى ، بتعبير مباشر ، «كغزوة مقدسة» : إنها تفرض من طرف واحد «حربا دينية» ليس الطرف الآخر مسئولا عنها أو عن إثارتها أو طبيعتها ، وتبعث بذلك شبهة صليبيات جديدة فى العالم الإسلامى الذى لم يعرف سوف التسامح الدينى تقليديا .

بل إن الصهيونيات أسوأ من صليبيات جديدة ، فما كانت الصليبيات فى العصور الوسطى إلا استعماراً استغلاليا فقط تخفى وراء الصليب . أما الصهيونيات التى تتخفى وراء النجمة السداسية فاستعمار استيطانى استهدف اقتلاع وتصفية الشعب الأصلى تصفية جسدية ويعمل على تهويد الأرض وتغيير طبيعتها ومعالمها إلى الأبد . وبالمقارنة ، فإنها تجمع بين أسوأ ما فى الصليبيات وشر ما فى المغوليات الوثنية من تخريب وبربرية والتى

كان طوفانها المدمر أكبر خطر تعرض له العالم الإسلامى فى العصور الوسطى .

وعند هذا الحد لابد أن نستدرك فنقول إن من المسلم به أنه ليس من مصلحة قضيتنا الفلسطينية أن نصورها أو نحولها إلى حرب دينية مقدسة أو إلى صراع أو جهاد بين الإسلام واليهودية . إن المناخ السياسى والرأى العام فى عالمنا المعاصر لا يحبذ أو يشجع مثل هذا الخط الذى ينتمى إلى الماضى ويثير كثيراً من الحساسيات المعقدة والعقد المركبة ذات الظلال التى قد تتجاوز أطراف الصراع المباشرة . ويكفى العالم ويكفينا أن الصراع قضية استعمار إمبريالى من جانب ، وتحرير وطنى من الجانب الآخر . وهذا إطار قومى تقدمى إنسانى بما فيه الكفاية ، يضع القضية فى صفوف حركة التحرير الوطنى العالمية ، ويضع فى صفها كل قوى الوطنية والحرية والتقدم فى العالم .

غير أن هذا لا يغير أو يقلل مع ذلك من الحقيقة الواقعة ، والتى لا حيلة لنا فيها ، وهى أن العدو الإسرائيلى الصهيونى يأتينا سافراً كدعوى طائفية دينية ، رجعية كما هى مكذوبة ، وأنه هو وحده ، ولسنا نحن ، الذى يفرض بذلك لونها الدينى المعلن إلى

---

(١) ريندر . ج ١ ص ٣١٦ .

جانب لونها العنصرى والاستعمارى المحقق . وبهذا كله فإن الصهيونية ، التى خلقت أكذوبة «ضد – السامية» الخادعة ، تأتينا وهى فى الحقيقة وتحت الجلد وحتى النخاع «ضد – الإسلامية» .

فضلا عن هذا ، فإن الخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب ، فما هو إلا الخطر الواقع وإن هى إلا «إسرائيل الصغرى» . أما الخطر الكامن بل المعلن ، حلم «إسرائيل الكبرى» ، «الامبراطورية الصهيونية الثالثة» (هل نقول «الرايخ الصهيونى الثالث» ؟) ، فيمتد من النيل إلى الفرات شرقا بغرب ، ومن الاسكندرونة حتى المدينة شمالا بجنوب . إنها – هذا وهمهم – «أرض إسرائيل Erets Israel » . وهذا وذاك يعنى نصف المشرق العربى بالتقريب ، ويضم كل أرض الإسلام المقدسة بل وكل دائرة الرسالات ، ويرادف قلب العالم العربى ، وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى .

التهديد إذن لا يقتصر على العالم العربى وحده ، وإنما يمتد إلى العالم الإسلامى أيضا وضمنا . وليس المسجد الأقصى وحرقه إلا رمزاً ومؤشراً لما ينتظر العالم الإسلامى جميعاً . ومن هذه الزاوية ، فإن الصهيونيات اليوم هى بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحد يواجهه العالم الإسلامى المعاصر، تماما كما يواجهه العالم العربى: أكبر من صليبيات العصور الوسطى، وأكبر من كل موجة الاستعمار

الأوربى الحديث التى غطته فى القرن التاسع عشر والذى لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الاستراتيجية أو الاستغلالية . إن الاستعمار التوسعى الأخطبوطى الصهيونى إن يكن سرطان العالم العربى ، فهو جذام العالم الإسلامى فى الوقت نفسه .

إن فلسطين - نحن نخلص ونلخص - هى اليوم وعاء الوحدة الإسلامية السياسية مثلما هى مقياسها ومحكها الحق والحقيقى . وإذا كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية ، فهى وحدة العمل السياسى ، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنقاذ فلسطين للعروبة والإسلام . وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعو إلى «قومية المعركة» ، فإن من واجب العالم الإسلامى كما يرى كثيرون أن يتنادى إلى «إسلامية المعركة» . ولا يعنى هذا تعارضاً بين الشعارين أو استبدال هذا الهدف بذاك ، بل إنهما ليتكاملان تكامل الجزء والكل والخاص مع العام .

لا ولا هو يعنى كذلك بالضرورة استنفار العالم الإسلامى إلى «الجهاد» أو الدعوة إلى «حرب مقدسة» ، ولكنه على الأقل يعنى أن يشارك فى مقاطعة العدو المشترك الدخيل الغاصب ومحاصرته سياسياً واقتصادياً ، وهو أضعف الإيمان . وليس من المتصور على الإطلاق - كمجرد مثال - أن تعترف دولة إسلامية بكيان العدو بأى

شكل من أشكال الاعتراف أو أن تتعامل معه ديبلوماسيا أو تتبادل تجارياً . على أن هذه التفاصيل وأمثالها متروكة للتخطيط السياسى إذا اتفق على المبدأ . ولكن يبقى المبدأ نفسه صحيحاً بلا حدود، وهو أن تحرير فلسطين «هو» وحدة العالم الإسلامى السياسية ، وأن وحدة العالم الإسلامى السياسية إنما «هى» فلسطين .

دراسة تحليلية
بقلم : د . عمر الفاروق

● من أشد ما أثار الأسى.. من بعد رحيله، ما أثير عن احتمال فقدان مخطوطة له.. عن جغرافية العالم الإسلامى، استغرقه اعدادها سنواته الأخيرة، بمثابة الجزء الموسع.. من وجيز سبق اصداره.. قبل أكثر من عشرين عاما، تحت عنوان «العالم الإسلامى المعاصر» (١٩٧٢)، أشار فيه بين سطوره.. إلى مشروعه بشأن توسيعه.. مؤكدا بذلك منهاجه فى بعض مؤلفاته، هذه التى يصدرها متدرجة.. تولد صغيرة.. وتنمو على مراحل، خاصة ما يتصل منها بدوائره الثلاث الأثيرة.. مصر.. العالم العربى.. والعالم الإسلامى، وهى ماتكون فى مجموعها.. رؤيته الحضارية العامة، غير أن الوقت لم يسعفه لاتمام مشروعه المتكامل، والآن وشخصية مصر.. فى صورتها الموسعة.. بين أيدينا، فإن لنا أن نأسى لغيابه.. ونشعر بافتقاد فكره الشامل، كما نأسف لضياع أى مخطوطة تخصه.. ظنا كان ضياعها أو حقيقة .

● ويضاعف الأسى.. أن العالم الإسلامى قد أمسى قضية محورية فى خريطة العالم الجديدة، ليس فقط باعتبارات الجغرافية السياسية والاقتصادية القديمة، وإنما أيضا باعتباره فى حالة سيولة تعيد تشكيله، تبدى ظواهرها غير ما تبطنه من قوى حبيسة، معاقة بفعل ضغوط عديدة، منطوية على احتمالاتها الدفينة، وبينما المكتبة العربية تكاد تخلو من مرجع عنه يعتد به.. أو دورية علمية تتابع تغيراته، لا تتوقف عنه الكتابات الأجنبية.. بهدف التعرف على كل تفصيلة، بل ويضع له بعضها استراتيجياته.. الدانية والبعيدة، وذلك باعتباره منطقة واحدة.. بأبعاد مديدة، وكمثال على ذلك.. ما أورده نيكسون عنه فى كتابه «الفرصة السانحة "Seize the moment" الذى صدر له أخيرا (١٩٩٢)، حيث يشير اليه بقوله (.. ويحذر بعض المراقبين من أن الاسلام.. سوف

يصبح قوة جيوبوليتكية متطرفة، وأنه مع التزايد السكاني والامكانات المادية المتاحة، سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة ص ١٣٥)، ويقرر مطمئنا (.. إن هذا الكابوس المخيف لن يتحقق.. فإن المسلمين من الكثرة والاختلاف بشكل لا يسمح لهم بأن يكونوا كتلة واحدة ص ١٣٥)، ويوجه إلـى دولـته النصيحـة (.. وعلينا أن نرسم سياسة طويلة المدى.. تؤدى إلى توجيه العالم الإسلامي الوجهة الصحيحة ص ١٣٨)، وهكذا يرسم الآخر.. وهكذا يحدد هو الوجهة الصحيحة، فمن يفسر المسافة بين واقع العالم الإسلامي وامكاناته؟ هذه هى الدعوة المتجددة المطروحة، أمام كل مفكر عربى واسلامى.. ليسهم فيها بإجابته أو يعاود اسهامه، حبذا لو نشدت فى مجموعها التكامل كرؤية عامة.. فقد تشبع التاريخ والواقع بالتضاد المطلق وصراعاته.

وإذا كان الوقت لم يسعفه لتقديم إجابته الموسعة.. فقد خلف رؤية متكاملة.. بالغة القيمة فى وجيزه، حيث تتضمن صفحاته القليلة نظريتين فى فصلين من فصوله، يمهد لكل منهما بفصل تحليلى، وهذه الفصول الأربعة هى جملة كتابه، وتأتى نظريته الأولى تحت عنوان «نظرية عامة فى مورفولوجية العالم الإسلامى» أما الثانية فعنوانها «نظرية الوحـدة الإسـلامية» والحقيقة أن نظريتيه مترابطتان تماما، حيث الأولى المورفولوجية.. للشكل التوزيعى للعالم الاسلامى.. والثانية لمضمون التشكيلات.. فى ظلالها العديدة، غير أن قيمة نظريته بوجهيها.. تتجلى فى قابليتها للتوظيف السياسى، متسـربلة - بفيض من النفعيـة والجدارة.

هذا عن قيمة الكتاب.. أما عن هُويته.. فإنه ينسبه إلى جغرافية الأديان بصفة خاصة، وبالتالى فإن الجغرافية البشرية.تمثل إطاره بصفة عامة، ويؤكد مضمون كتابه نسبه إلى الجغرافية السياسية للأديان

تحديدا، يؤكد ذلك ماذكره عن فصليــه الثــالث والرابــع (.. بأنهما دراسة فى الجغرافية السياســية للعالم الاســلامى ، وينتمى الفصلان الأول والثانى.. لذات الوشيجة .

ويشير فى مجال تدليله.. على أن للجغرافية اهتماما تقليديا بالأديان.. إلى العمل الموسوعى الكبير، «الجغرافية والدين Géographia et Réligion لبيير ديفونتين، وغيره من جغرافيي الغرب، والواقع أن تراث الجغرافية العربية يدل على اهتمام مبكر بهذا المجال، وقد أشار «كراتشكوفسكى» إلى ذلك.. فى كتابه الضخم (تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين هاشم ١٩٥٧) بل وينكر أن المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافية تقتصر على وصف (.. دار الاسلام وحدها) وللاستزادة يمكن الرجوع للفصل السابع من الكتاب المذكور، وقد تكون المقارنة مفيدة.. بين بعض تصورات هذه المدرسة.. وبين رؤية حمدان، ومما يلفت.. استخدام نيكسون لتعبير دار الاسلام.. فى كتابه السابق الاشاره اليه (.. إن نظرة الاسلام للعالم تقسمه إلى قسمين «دار الاسلام» و «دار الحرب»، حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وعلى الغرب أن يتحد.. ليواجه هذا الخطر الداهم بسياســة واحـدة، (ص ١٣٥ من كتاب الفرصة السانحة)، وهكذا يُستخرج من باطن التاريخ.. مايُصطنع كدليل.. على التوجه العام للاسلام، وتوظيف ذلك فى وضع السياسات، بما يؤكد أهمية المقارنة هذه المرة.. بين نيكسون وحمدان، خاصة مع مايجرى فى البوسنة بمقياس مصغر مكثف الآن.. من استثمار «الدين» فى فصم العرى التاريخية داخل الشعب الواحد.. وبينه وبين غيره من الشعوب، بما قد يضيف لجغرافية الأديان زاوية نفعية، تتحدد فى الكشف عن هذه الطبقة المتكلسة.. داخل طيات التاريخ الثقافى للشعوب، والتى تنذر إذا لم تصف بالتفجر أو التفجير .

ويرجع اختيار منهج «تحليل المضمون» فى تقديم هذا الكتاب.. إلى وزنه الفكرى.. رغم حجمه الصغير، حيث تكفى قواعده الفكرية لعمارة سامقة.. وليس لكتاب من أربعة طوابق.. أقصد فصول، والمرجع أن هذه نيته.. فضلا عن كونها.. طريقته فى التفكير والتأليف، ومن ثم فالتبسيط بمثابة الهدف الأساسى من هذا التقديم.. وإن طال، وربما يتحقق ذلك بهذا التقسيم :

أولا : التوزيع القاعدى للاسلام .

ثانيا : مورفولوجية العالم الإسلامى .

ثالثا : الكثافة السياسية للاسلام .

رابعا : الوحدة الاسلامية .

ويتسق التقسيم مع العناوين الرئيسية للكتاب، غير أنه سيكون هناك اهتمام خاص بتحليل الفروض الأساسية فى نظريتيه، وتحديد الارتباطات التى توحد بينهما، وابراز فيض النفعية المقترن بالتطبيق .

أولا : التوزيع القاعدى للاسلام :

يستهل فصله الأول.. بالسؤال الجغرافى القاعدى «أين؟» واجابته . «التوزيع الجغرافى للعالم الاسلامى»، وتتحدد قيمته فى (.. أنه وحده يمدنا بالمادة الأولية الضرورية لكل بناء يتلو) .

أى أنه لا يهدف إلى مجرد التوزيع، بل يريده أساسا لبناء يعلوه، فما كنه هذا البناء ؟ إنه ببساطة «نظام التوزيع».. أى تشكيلاته فى المكان: كما تظهر فى خريطة الاسلام وقد اصطلح على تسمية (النظام + التشكيلات) بمورفولوجية التوزيع، وبذا يمهد بإجابة هذا السؤال.. لنظريته الأولى.. هذه التى يستحيل وضعها.. دون هذا التمهيد، ويقتضى ذلك أن لايأتى التوزيع وصفيا كالشائع.. أى بمجرد تحديد المواقع

والأماكن والأبعاد، بل بتوظيف تفصيلاته أولا بأول.. بما يطوعها للتنظير، وذلك بشرط عدم توجيه النتائج أو الاعتساف، وقد تحقق له ذلك.. وإن شاب تسمياته ـ كما سيأتى ـ بعض التداخل والغموض .

ويخضع تحليله لتوزيع الاسلام لفرضية (أن لكل ظاهرة حضارية ـ مهما عظمت ـ قدرة معينة على الانتشار المكانى) ، وهذه القدرة هى محصلة قواها الدافعة.. ومقاومة القوى المغايرة أو المضادة، وتتجسد مكانيا فى شكل دوائر منداحة من نقطة مركزية.. متلاشية فى اتجاه الهوامش، وتتبدى تاريخيا كمنحنى صاعد.. بحكم القوى المواتية.. التى تصل بها إلى نقطة الأوج، وهى فى حالة الاسلام مرحلة الفتوح.. وماأعقبها من رسوخ الدولة.. ينحدر بعدها بحكم ما يبطئه أو يعيقه .. من الثقافات المحلية والقوى المناوئة، فضلاً عن عوامل القصور الذاتى، الناتجة عن تنائى المسافات من القلب، وتخلخل الرصيد السكانى، عدا عوامل الوهن التاريخى، وليست الصورة التوزيعية الراهنة للعالم الإسلامى، سوى المحصلة الأخيرة لهذه العملية.. بشقيها المكانى والزمانى، وسيعود لتطبيق هذه الفرضية ـ كما سيأتى ـ فى نظريته الثانية.. عند مناقشة العلاقة بين الدين والدولة الحديثة.. وتحديد دور الاسلام السياسى .

وقد خضعت هذه العملية لمنهجية أخرى.. فى كتابه (استراتيجية الاستعمار والتحرير).. صغير الحجم ثقيل الوزن أيضا.. قد يفيد الرجوع له (ص ٢٦–٥٥) .. لتبين بعض فروضه الأخرى.. التى يقيم عليها تحليلاته، وخاصة ما يتصل منها بانتشار الدولة العربية الاسلامية.. كقوة برية أساسا، وما أفضى إليه صراعها.. مع قوى البحر الأوربية.. وقوى البر الآسيوية.. من تآكل أطرافها.. فى فترات ضعفها.. وانفصال الهوامش، بما يمكن أن يثرى هذا الفصل عند القراءة .

وتعكس عناوين هذا الفصل التوزيعى.. هدفه المعلن فى توظيفه.. لبناء نظريته العامة، حيث لا تستغرقه تفصيلات التوزيع البسيطة، وربما يفسر ذلك قلة خرائطه ولايبررها.. حيث من شأن الخريطة أن تسعفه وتعوضه عن السرد اللغوى، ومن هنا تشعر به قلقا.. من اتساع المسافة بين اطلالاته الفوقية.. ومايتطلبه فهمها من التفصيلات أو الخرائط، ومن ثم يقدم عن ذلك أسفه (.. وفى دراسة كهذه.. تعتمد على الحقائق الدقيقة، نصطدم من أسف بعدم كفاية الأرقام الوثيقة أو الحديثة،)، وتكمن وراء أسفه دعوة... لأن تستكمل هيئة قادرة مشروعه .

ولعل من أبرز ماتابعه فى هذا الفصل.. مايتصل بتقدير الحجم السكانى للمسلمين فى العالم (١٥٪ الآن، ٢٠٪ قبل نهاية القرن توقعا)، وتفصيل عالمية الاسلام من حيث التوزيع (الربع الاسلامى)، والقطبية الدينية الثنائية فى العالم.. بين الاسلام والمسيحية، مع تبادل الترتيب بين العصرين والوسيط، ثم مناقشته الموضوعية لهذا السؤال المركب (... هل ينزلق الاسلام جغرافيا.. من مستوى حضارى أعلى.. إلى آخر أدنى ؟ ..) ، وإذا كان قد أورده من باب تسجيل مايردده ناقدو الاسلام، فإن إجابته بمثابة دعوة لمناقشة أوسع .. لتفسير أسباب التراجع (القسرية غالبا)، وأسباب التقبل (الطوعى غالبا).. بين سكان العالم الفقير .

وتتمثل خلاصة هذا الفصل التوزيعى.فى هذه الصورة المورفولوجية.. (ص٢٢) التى التقطها للعالم الاسلامى، وتتلخص معالمها فيما اسماه «هلال الاسلام».. وهى تسمية موفقة معنى وايحاء ومبنى، يحدد بها الاطار الأرضى.. أو يابس العالم الاسلامى جغرافيا، يكمله بحرا «محيط الاسلام» أو المحيط الهندى، وهما (هلال الاسلام + محيط الاسلام)، بمثابة دعامتى نظريته المورفولوجية فى الفصل الثانى من

كتابه، وإذا كانت هذه الصورة تتفق فى أساسياتها وبعض تسمياتها .. مع هذه التي أوردها ماكيندر Mackinder فى نظريته عن قلب الأرض قبله، إلا أن إضافته تتجلى في تطويعها وتطبيقها فى غير مجالها، ومن هنا .. فإن بناءه لمورفولوجية العالم الاسلامى التوزيعية التفصيلية (القلب +الحلقات + الأجنحة + الهوامش) لا تظهر غريبة عن طبيعته.. إلا قليلا، تنطبق على الاناضول وايران وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية، وبدرجة أقل فى مصر ومعظم شمالى افريقية ، وكذا فى الهند وأقواس الأرخبيلات الأندونيسية والفلبينية، أما فى اليمن كوحدة خاصة.. فالقلب الهضبى ليس ميتا.. وفيه تنقلب المعادلة، وتبقي رؤيته على جدارتها بنسبة كبيرة .

ثانيا : مورفولوجية العالم الاسلامى

وإذا كانت إجابة السؤال الأول «التوزيعى القاعدى» عنده.. بمثابة نظرة.. بطول الفصل الأول كله، فإنه يخصص الفصل الثانى لنظريته عن مورفولوجية العالم الاسلامى.. وهى أيضا عنوانه، ويستهله بهذا التساؤل (.. هل يمكن أن نضع نظرية عامة عاملة، تجمع شتات العالم الاسلامى فى توزيعه الكوكبى، وتستقطب تفاصيله فى معادلة إقليمية محددة ؟)، هو إذن يطمح إلى نظرية عامة.. بشروط محددة:

★ أن تكون فى مورفولوجية العالم الاسلامى .

★ أن تكون عاملة .

★ أن تخلص إلى معادلة إقليمية تلخصه .

وقبل البحث عن هدف كل شرط منها، وكذا عن أهداف النظرية بعامة، ربما يكون مفيدا توضيح ما استخدمه من مصطلحات (مورفولوجية + عاملة + معادلة إقليمية).. قد تكون خافية أو مختلطة الدلالة، وتتفق

المعاجم على أن مصطلح morphology يعنى دراسة الشكل Study of the form ، سواء فى ذلك الظاهرات الطبيعية أو الحيوية أو البشرية.. أو حتى الكلمات (اوكسفورد، ص ٢٨٦)، ويتفق ذلك مع عناصر نظريته.. بشكل شبه تام، ومن هنا ضرورة استنادها إلى خريطة توزيعية.. قدمها له الفصل الأول من كتابه .

وتعنى النظرية العاملة.. تجاوزها المستوى النظرى البحت.. وقابليتها للتطبيق فى مجالات معينة وقد وجد بغيته فيما يعرف بالنظـــام الحلقـــى المشـــع Radio-Concentric.. الواسـع الاستخدام فى جغرافية المدن التطبيقية، ومن ثم فقد نقله من مجاله.. ووظفه فى تفسير مورفولوجية العالم الاسلامى، هذه التى تتابع تشكيلاتها فى حلقات منداحة من قلبها.. (بديل المدينة فى المجال الأصلى)، وبذا وجد مفتاحه Passe partout الذى يفتح به مغاليقه.. على حد تعبيره ، ونأى بنظريتـه أن تكـون أحـاديـة.. تنتهى به إلى هذه المقـولة البسـيطـة (.. الاسلام دين الصحراء..) مثلا ، أو أن تكون تقليدية مثل هذه التى تستند إلى فروض المنطقة الحضارية Kulturkreislehre .. فضلا عن كونها لاتناسـب طبيـعة العالم الاسلامى.. المتعدد الثقافات والشعوب.. بحكم ترامى أطرافه، وبهذا النظام الحلقى.. يتوصل إلى معادلته الاقليمية الأساسية.. كما سبق وكما سيأتى، كما يرسخ فى نظريته لبنتها الأولى .

هى اللبنة الأولى وهى القاعدة، حيث هى قد مكنته من وضع فروضه، ومن بناء العناصر الأخرى من نظريته فوقها، ومن التحليل التاريخى والجغرافى.. المتسق مع أسسها، أما فروضه.. فمن أهمها :

★ يؤدى الانبثاق من مركز ـ إلى الترتيب المنتظم التنازلى للظاهرة gradients فى اتجاه هوامشه .

★ يتخذ هذا الترتيب الشكل الحلقى Radio-Concentric التتابعى .

★ يتعدل الشكل الحلقى البحت.. إلى نمط القطاعات الحلقية.. حالة حدوث الانتشار على محاور انتخابية محددة .

وعلى الفور يطبق فروضه.. فتضىء الخريطة العالمية لتوزيع الاسلام بدلالاتها (القلب + الهوامش + محاور الانتشار).. ويسلس فهمها واستيعابها من نظرة واحدة، فالعالم العربى قلبها، وبقية العالم الإسلامى هوامشها، أما المحاور فيوضحها شكل ٣ ، لكنه لا يدع قاعدته وفروضه دون نقدها (.. غير أننا لا ينبغى أن ننتظر من الاسلام هيكلا مورفولوجيا.. يحقق هذا النمط النظرى تحقيقا صارما مثاليا بطبيعة الحال، ويعدد بعد ذلك بعض ظواهر الشذوذ فى التشكيل، دون أن يخل ذلك إلا نادراً بأساسياتها .

وقبل أن يسمى الحلقات.. يحدد أسس تمييزها (عمر الاسلام، كثافته، نوعيته، نسبة العرب والعروبة) ، وبها تتضح تماما علاقة التتابع بين حلقة وأخرى ، من النواة إلى الهوامش، وهكذا يسميها (شكل ٥) .

الأولى : منطقة القلب والنواة .

الثانية : النواة الميتة.

الثالثة : ظل العرب.

الرابعة : شبه ظل العرب.

الخامسة : صدى العرب.

السادسة : الأطراف الهامشية .

ويعرفها بأنها ببساطة (.. الأقاليم الطبيعية والبشرية والتاريخية فى

العالم الاسلامى)، ورغم وضوح التسميات بشكل عام، إلا أن تقارب المعنى بين بعضها، يثير قدرا من الالتباس، فضلا عن كونها تسميات لغوية فى الأساس، وليست الألفاظ مايعبر عن الانحدار.. بل الأرقام، ولكن هذا التشدد المنهجي.. إن جاز في البحوث.. فقد يتجاوز عنه في الكتب وبعض المؤلفات .

ويطهر أساسه الأخير (العروبة) من شبهة التحيز.. باعتباره موضوعيا يميز بين العرب وغير العرب.. داخل العالم الإسلامى ، والواقع أن التميز على هذا الأساس قديم فى التراث الجغرافى الإسلامى فقد كان التمييز على الأساس الدينى بين دار الاسلام وغيرها، وعلى الأساس اللغوى داخل العالم الاسلامى، ويتضمن كتاب كراتشكوفسكى المذكور.. مايدل على ذلك فى معظم فصوله .

وحين يفصّل فى خصائص كل حلقة تبعا لأسسه.. فإن الحلقة الثانية (النواة الميتة) تختفى من تفصيله، حيث لم يعد لها وجود ضمن العالم الاسلامى (اسبانيا، صقلية) والأحرى بها أن تسمى بالحلقة التاريخية.. مثلا.. وتحذف تماما من بين حلقاته .

وربما يكون مفيدا.. الاشارة الى ما اتخذته الجغرافية العربية الاسلامية.. لها من أسس أخرى لتصنيف العالم الاسلامى ، هذه التى يذكر كراتشكوفسكى منها مايلى فى كتابه :

★ الأساس الفلكى .

★ الأساس الادارى والخراج .

★ الممالك والمسالك .

★ الفضائل والمثالب .

★ أسس أخرى عديدة .

ويتفق بعضها مع ما اتبعه حمدان فى تقسيمه، غير أن المجال قد لايسمح بالتوسع فى ذلك، كما قد يكون مفيدا مرة ثانية.. الرجوع إلى كتابه «استراتيجية الاستعمار والتحرير (ص ٢٦-٥٥)، خاصة فيها يتصل بديناميات نمو الدولة الاســلامية العربية فيما يحيطها من يــابس، وتفسير تناميها فى دوائر متلاحقة، تضاف إلى غيرها من تفسيراته .

وقد اسهمت العربية مع الاسلام فى تجنيس الدائرة الأولى، يصبح الاسلام بعدها عامل التجنيس المنفرد.. تدريجيا ثم تماما، بما يتسم به من قدرة انتشارية واسعة، وهى وان ترامت بها أبعاده.. إلا أنها خلفت وراء ها جيوبا .. محلية ومغلقة أحيانا.. فى مناطق العزلة بخاصة، كما أدى تناقص رصيده البشرى فى نواته.. إلى تناقص كثافته فى مناطق الفتوح مع تباعده.. واختلاطه بعقائدها وثقافاتها، وغلبتها خاصة فى اللغة، كما تنازعته فيما بعد مذاهبه، التى غذتها شعوبية هوامشه وجيوب العزلة فى بنيته، ورغم ذوبانها النسبى فى ثقافته.. فقد بقى بعضها (الأكراد والبربر) ناتئا ، أدت وتؤدى إلى بعض من أهم مشكلاته الراهنة، خاصة بعدما عاود الاستعمار غزوه.. الى قرب قلبه مؤثرا فى لسانه العربى خاصة «الجزائر».. أى فى أخصْ دوائره.. هذه التى تتدامج فيها اللغة مع الدين.. فى بنية واحدة، وليس مثل هذه دعوة منذرة.. بأن يقوم العالم العربى بدوره، فهو دوار العرب .. وهو مدرسة الاسلام «ومعهده الدينى» والعرب سدنة الاسلام.. وليسوا بسادته، وعليه فإن دورهم ليس تبشــيريا فقط فى اتجاه هوامشــه .. بل وثقافيا سياسيا تتعدد مجــالاته، كما سيأتى فى نظريتــه عن دور الاسلام السياسى .

وبالنسبة للحلقة الثانية (النواة الميتة،).. فقد خرجت من إطاره، ضمن حركة التراجع التى أعقبت سقوط الأندلس، وإن كانت ملامحه الكامنة باقية، والواقع أن حركة التراجع لاتزال سارية.. ليس فقط بما سبق رصده.. من تآكل اللسان العربى وتدهوره فى مناطق معينة، بل وأيضا بالمعنى المادى بدرجات متفاوتة، تمثل تركيا درجة منها.. وأشد منها فلسطين التى انتزعت من قلبه، وما يمكن تسميته بتآكل الهوامش جنوبى السودان خاصة، وهذه دعوة أخرى للعمل.. تضاف لسابقها .

أما الحلقة الثالثة (ظل العرب).. فتشمل إيران وأفغانستان.. بعد انزلاق تركيا للحلقة الرابعة، هى الحلقة الفارسية إذن.. التى أسهمت فى الحضارة الاسلامية بنسبة لايستهان بها، والتى كادت تصبح عربية كلية، وإن لم يبق منها سوى الحروف الأبجدية فيما تكتبه، وتمثل الشيعة الشائعة بين سكانها.. خط الاختلاف المذهبى.. بينها وبين النواة السنية غالبا، وهنا دعوة ثالثة للتوفيق المذهبى، وحتى لا يتحول خط الاختلاف إلى خط انكسار.. تستثمره القوى المضادة فى إضعافهما معا .

وتحتل تركيا وحدها الحلقة الرابعة (شبه ظل العرب) ، والتسمية هنا غامضة.. مختلطة الدلالة بسابقتها، ويمكن أن تضم لها.. مع الاشارة إلى وجه اختلافها، وهى أنها (.. عملت على تطهير اللغة من التراث العربى، بل كادت بعد أن فصلت الدين عن الدولة فصلا صارما.. أن تصل فى وقت ما إلى تجميد الاسلام، إلى أن اكتفت فى النهاية بتتريكه)، وهى ما يحددها نيكسون – كما سيأتى – نموذجه المفضل للعالم الاسلامى كله .

وتأتى تسمية الحلقة الخامسة (صدى العرب) أيضا غامضة الدلالة واللغة، وإن كانت حدود الحلقة ذاتها واضحة، هى ليست حدوده النهائية ومحيطه.. فلا تزال هناك حلقة سادسة، ولكنها الأكبر مساحة بينها، فهى تمتد من قزوين إلى اندونسيا ومن ارتيريا إلى الأطلسى، وهى الحلقة

التى تعرضت لتغيرات جذرية.. لم يدركها الكتاب حين تأليفه، هذه التى تتمثل فى عودة جمهوريات وسط آسيا المسلمة – إلى إطار العالم الاسلامى.. بعد سقوط الاتحاد السوفييتى بغتة، وتجسد مشكلة جيوبوليتيكية معقدة، وتظهر، مستهدفة من قوى متعددة، غير أن تطلعها لاستعادة هويتها الإسلامية ليس محل جدل، وربما تكون هذه هى الدعوة الرابعة.. التى تستلزم العمل، فهل تجد لها صدى عند العرب.. من صدى العرب؟

وأخيرا الحلقة السادسة (الأطراف الهامشية) ، وهى تتمثل على محيط دائرة العالم الاسلامى برمته (.. وهى لاتزيد على إطار خارجى باهت يغلف الحلقات السابقة)، وتتمثل أيضا فى الأقليات الضئيلة المبعثرة.. فى أوربا والعالم الجديد وجزر الباسيفيكى المبعثرة، وبها لأول مرة – قد يختلط الدين فى بعض أجزائها.. بأوشاب من الوثنية القديمة بها.

ويستهويه التصنيف التفصيلى.. فيكاد يضيف حلقة سابعة (.. هذا ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الحلقة الهامشية القصوى من الاسلام فى العالم القديم، هالة كالزغب أشد تخلخلا وسديمية، تؤلف الغلاف الشفاف الخارجى الأقصى، أو الأطراف الخارجية، هذه الهالة التى يمكن أن تعدها إما حلقة مستقلة أو حلقة تكميلية، والتى يمكن أن نميزها عن الأطراف الهامشية الداخلية السابقة.. بأنها الأطراف الخارجية) ، والواقع أن حذف بعض حلقاته.. قد يكون أجدى من الاضافة إليها، ويكفيه منها أربع ربما.. هى (النواة + الظل + شبه الظل + الهوامش).. كافية لاستيعاب تدرجات الظاهرة، ولكن استقامة وسلاسة الأسس.. قد مكنته من تفصيل قماشته باطمئنان وثقة، وتقديم حلقاته المتعددة ناضجة.. لواضعى الاستراتيجية.. وصناع القرار.. مادة

جاهزة.. فى كتاب غالى القيمة رخيص الثمن، وستكون هناك عودة لهذه النظرية (عن مورفولوجية العالم الاسلامى).. ثانية، وذلك لربطها بنظريته الواردة فى هذا الكتاب أيضا كما سبق (عن وحدة العالم الاسلامى) لتحديد القيمة النفعية لكل منهما ولكليهما .

ثالثا : الكثافة السياسية للاسلام

كما سبق.. فإنه يمهد بالفصل الثالث (خريطة الاسلام السياسية) .. لنظريته المرتقبة عن «وحدة العالم الاسلامى» ...، ويصف تحليلاته لهذه الخريطة بأنها قراءة مسحية لها، يحدد اتجاهاتها فى (.تصنيف دول العالم الاسلامى.. بحسب كثافاتها السياسية المختلفة، دولا اسلامية أو دول أقليات اسلامية، مع تحليل المشاكل السياسية المترتبة وتشخيص أعراضها) ، وبداية يجدر التنويه بهذا المصطلح المبتكر (الكثافة السياسية) الوارد فى المقتبس السابق.. والمستمر كأداة أساسية لتحليلاته.. فى بقية هذا الفصل وغيره، ليس فقط باعتبار أن نحت المصطلحات.. مهارة فكرية تميزه... ، وإنما أيضا لدلالته الوظيفية الفاعلة.. التى تكثف فى عبارة منحوتة واحدة.. ما يستغرق سطورا أو فقرات دونها، وبها تقاس صلابة العلم.. وبواسطتها يتم التفاهم بين المتخصصين فى مجاله، حيث هى لاتعنى سوى مفهوم اتفق على تحديده، ولاحاجة من بعد لشرحه والجدل حوله، ثم هى تنتقل بعد ذلك للمتلقين تبعا لشيوعها ، لتصبح أيضا لغة التداول بينهم.. دون أدنى ظلال مركبة .

وبهذا المصطلح يتوصل إلى التصنيف الثلاثى التالى للعالم الاسلام تبعاً لكثافة الاسلام بين دوله :

★ دول الأغلبية الاسلامية .

★ الدول نصف الاسلامية .

★ دول الأقليات الاسلامية .

ويتفق توزيع الفئة الأولى مع الحلقة الأولى فى نظريته المورفولوجية (العالم العربى)، مع وجود أمثلة منها (تركيا، ايران، باكستان، اندونيسيا).. ضمن الحلقتين الثالثة والرابعة، أما دول الفئتين الثانية والثالثة.. فتتوزع خارج القلب.. بداية من الحلقة الرابعة، وتتحدد محاور تحليلاته الأساسية.. حول :

★ العلاقة بين الدين والدولة .

★ العلاقة بين القومية والدين .

★ العلاقة بين الأغلبية والأقلية .

★ المشكلات الداخلية والخارجية .

وتتعدد القضايا المعقدة التى يثيرها ثم يناقشها، يبتدئها من أول سطر فى الفصل.. بقضية «العلاقة بين السياسة والدين» ، وهى علاقة قديمة.. طرحت فى التاريخ بشتى الصياغات، وأدت إلى عشرات الحروب فى كل البقاع، وبقدر ما تخفت السياسة فى مسوح الدين.. بقدر ما استخدم الدين ستاراً لامتشاق السلاح، ويصيغ القضية فى هذا السؤال (.. ما الذى تبقى للدين فى السياسة.. أو فى السياسة من الدين ؟ إلى أى حد.. وماهو الحد الأمثل) ويتخذ من العالم الاسلامى مجالا .. يستخلص منه إجابة السؤال، وسيلته إلى ذلك بعض المؤشرات.. من قبيل :

★ الاسلام كأغلبية أو أقلية .

★ الأوزان النسبية للاسلام كضابط فى كيان الدولة .

★ مشكلات السياسة والدين .

ويجمعها كلها تعبيره المبتكر (الكثافة السياسية للاسلام)، ويبدأ بحصر الدول التى يوجد بها الاسلام بأى وزن من السكان، فيجده متمثلا فى أكثر من نصف دول العالم.. وقت تأليفه الكتاب بطبيعة الحال، معظمها فى افريقيا (٣٩ دولة)، تليها آسيا(٢٣) ثم أوربا (٥ دول).. دون أن يغفل اسلام المهجر فى العالم الجديد، وتبعا لمؤشر الوزن النسبى للاسلام.. يقرر فى صياغة عامة (..فى كل حالة من الحالات يكون للاسلام مشاكله ووضعياته السياسـية المعيـنة ، ففى الدول ذات الأغلبية المسـلمة يصبح الاسلام تلقائيا «الدين القومى» ...، مع تفاوت درجة النص على ذلك فى دستور الدولة، وفيها تأخذ العلاقة اتجاه (من الأغلبية إلى الأقلية).. وتمسى القضية الأساسية هى تحقيق الوحدة الوطنية.. ومنع تحول الدولة إلى دولة دينية، والوقوف أمام اعتبار غير المسلمين « مواطنين من الدرجة الثانية» ، والتوفيق الدقيق بين مقتضيات الديموقراطية (المساواة التامة) وبين حقوق الأغلبية .

ويتطرق فى اشارات سريعة إلى مشكلات الطائفية الدينية فى العالم العربى ، ويرجعها إلى مرحلة الاستعمار تاريخيا.. بل وإلى الحروب الصليبية، يتتبعها إلى المرحلة العثمانية.. التى وضعت عامدة للتفرقة ماعرف بنظام الملة ، الذى أدى عند ضعفها.. إلى تدخل الدول الأوربية المسيحية لحماية أقلياتها، بل وضاعفت من نشاطها التبشيرى.. ومن أعداد ارسالياتها ومدارسها الدينية، مما أدى إلى مضاعفات متفاقمة بين الأقليات والأغلبية، تمثلت فى احتضان فرنسا للمارونية وإلى منح الدروز الرعاية البريطانية، ووصلت إلى أسوأ صورها.. بمشروعات تقسيم سوريا ولبنان.. على أسس طائفية، وإذا كانت «روح الوحدة الوطنية» .. قد قاومتها لبضعة عقود، إلا أن لبنان قد سقط فريسة لها فى الحرب الأخيرة الأهلية (لم يدركها الكتاب)، وهى تنخر الآن فى

السودان أيضا.. تفتت نقاط الالتحام بين شماله وجنوبه، ولم تعد فى مناطق أخرى من العالم العربى بين الأديان المختلفة وإنما بين المذاهب المختلفة فى الدين نفسه، وذلك بتضخيم الاختلافات الفقهية وتعميقها.. حتى يتعذر علاجها، ويتمثل ذلك بشكل خاص بين الشيعة والسنة.. فى العراق واليمن ولبنان.. وغيرها أيضا.

وترد فى كتاب نيكسون (الفرصة السانحة) اشارة لتصور الآخر لهذه الاختلافات.. لا بأس من ايرادها رغم بشاعتها (.. إن المتعامل مع العالم الاسلامى يشبه وضعه وضع الشخص الذى فى حفرة ضيقة، ومعه مجموعة من الثعابين السامة، تحمل فى سمها ايديولوجيات متصارعة، ص ١٣٩)، هذه هى الصورة فى ذهن الآخر.. هى عن العالم الاسلامى حقا.. ولكنها تنطبق على العالم العربى أيضا، فأين هذه الحفرة من رؤية حمدان قبل عشرين سنة منها.. حين يقرر بالنسبة للعالم العربى (..الوعى بالوحدة القومية وحده إذن.. ، والبعد القومى الذى يمكن أن يحتوى البعد الدينى، دون أن يتعارض معه أو يقصر دونه أو يضيق به، ذلك هو الرد الصحيح على كل استغلال للدين للتخريب السياسى، سواءً من قبل الاستعمار الدخيل.. أو الرجعية الداخلية، ص ٩٣)، والآن.. وبعد زوال الاستعمار الدخيل فى صورته المباشرة، فهل ثمة وسيلة لمواجهة الرجعية الداخلية غير الديموقراطية ؟، غير أنه مما يلفت فى مجال متابعة رؤية الآخر فى كتاب نيكسون المذكور.. انعدام الاشارة إلى القومية العربية كقوة يحسب حسابها.. فى طول الفصل المعنون « العالم الاسلامى »، وتأتى الاشارة إلى الدول العربية منفردة.. وباعتبار هويتها الاسلامية، ثم يقرر بشأنها جميعها عربية واسلامية (.. إن المسلمين من الكثرة والاختلاف.. بشكل لا يسمح لهم بأن يكونوا (كتلة واحدة ، ص ١٣٥)، وهكذا فإن ما حدده حمدان من ظواهر التمزق.. لايزال قائما، كما أن حلمه بالوحدة القومية لم يتحقق، عسى ألا يكون قد تبدد .

وبعد العالم العربى.. يتابع فى ذات الاطار (دول الأغلبية المسلمة).. تحليل العلاقة بين الدين والدولة فى اندونيسيا وتركيا والباكستان ، حيث لكل منها حالتها الخاصة.. التى تضيف لهذا الاطار ما يعمق من فهم هذه العلاقة، فإذا كانت تركيا قد تخلت رسميا عن الاسلام كدين للدولة، بينما قامت الباكستان على أساس دينى صرف، فإن اندونسيا قد جعلت الاسلام ضمن ايديولوجيتها التى اتخذتها شعارا لها (.. وهى خماسية البانتشاسيلا pantja sila التى اختصرت إلى ثلاثية تجمع بين القومية والاسلام والشيوعية، رغم ما بين أطرافهـا من تناقضات جوهرية متبادلة) ، ومع عدم تجاهل التغيرات التالية، فإن الدول الثلاث تعانى من اختلال العلاقة بين الدولة والدين بدرجات مختلفة، ومرة أخرى.. فإن الديموقراطية كفيلة بمعالجة الاختلال وتحقيق التوازن المنشود، ديموقراطية تستوعب جميع الاتجاهات، وتسمح لها بالحركة الطبيعية.. والتعبير عن مصالحها ومشاعرها معا .

ويشير نيكسون فى كتابه المذكور.. إلى الدول الثلاث ومعها مصر.. باعتبارها نقط ارتكاز السياسة الاسلامية لدولته (.. ولكى نقوم بدور فعال فى تطوير العالم الاسلامى، فعلينا ألا نرسم سياسة اسلامية.. تسرى على كل البلاد الاسلامية، ولكن علينا أن نحدد نقط ارتكازنا التى تؤكد وجودنا ... ، وهناك أربع دول شركاء منطقيون فى هذه السياسة هى.. تركيا وباكستان ومصر واندونيسيا ، محددا أهمية ودور كل منها، يجمع بينها أنها من دول الأغلبية الاسلامية تبعا لتصنيف حمدان، وهى خاصية ضرورية للقيام بدور رئيسى فى سياسة اسلامية.. شاملة، فلماذا يقوم بها الآخر نيابة عنها ؟، ولماذا يعتبرها (نقط ارتكازنا التى تؤكد وجودنا..) ، ولماذا لاتكون نقط ارتكاز العالم الاسلامى – مع غيرها – التى تؤكد وجوده وحده ؟

الدول نصف الاسلامية :

إذا كانت المشكلة الأساسية فى دول الأغلبية المسلمة، تتحدد فى صياغة العلاقة بين الدولة والدين.. على أساس من الديموقراطية الحقة.. سواء فيما يتصل بنظم الحكم أو الاقليات، فإنها فى الدول نصف الاسلامية، تتمثل فى ثنائية الدين، وما يمتد بينهما من توتر مشحون موروث، يجمعها كلها تحت ما يسميه النمط اللبنانى.. الذى يضم معه اثيوبيا ونيجيريا وتشاد، وتتلخص سماتها فى صورة توزيع الأديان داخل كل دولة.. حيث يسود نوع من تقسيم المناطق بتداخل محدود، وبالجذور التاريخية للصراع، وغالبا فإن النار تسرى تحت الرماد، وباستناد السلام حالة وجوده إلى توازن هش.. أو الى انتصار مرحلى لطرف.. أو هدنة لاســترداد الانفــاس ، إن كل دولة منها باختصار (.. عربة يجرها جوادان.. كل يشد فى اتجاه مضاد) .

دول الأقليات الاسلامية

وتأتى الفئة الثالثة من تصنيفه «لكثافة الاسلام» .. تحت عنوان دول الأقليات الاسلامية (.. وتؤلف أكثر من نصف دول العالم الاسلامى) ، وتتصف أوضاعها كما يلى بعامة :

★ لا توجد بينها تطلعات سياسية فعالة .

★ قد توجد رغبة انفصالية مكبوتة .

★ تتعرض للضغوط والكبت بقوة من جانب الدولة .

★ غالبا ما تنتزع لنفسها مكانة اقتصادية تفوق حجمها .

ورغم تنبهه الدائم لوضع الأقليات المسلمة فى الاتحاد السوفييتى القديم فإن ما كتبه بشأنها قد تجاوزته المتغيرات، سواء كتحليلات أو كتوقعات (ومن كان يتوقع سقوط الاتحاد السوفييتى، وانفراط عقده

الكبير ؟) ويبقى منهجه صالحا لأن يؤسس قاعدة لدراسة شاملة عن الموضوع، حيث يعالجه فى هذه الخطوات أو المرحل.. التى تتضمن زواياه وتطوراته :

★ مرحلة مابعد القيصرية .

★ مرحلة القيصرية .

★ مرحلة الاتحاد السوفييتى .

ويضاف إليها مرحلة «ما بعد الاتحاد السوفييتى» .. الذى سقط بعد صدورالاسلام بنحو عشرين عاما، ويقتضى ذلك – فى إطار مشروع «جغرافية العالم الاسلامى» الكبير، حشد كل ما يمكن من القدرات، تستند إلى مكتبة كاملة عن الموضوع، وإلى دراسات ميدانية مكثفة.. فيما يعرف الآن بجمهوريات وسط آسيا الاسلامية، عسى تجد هذه الدعوة صداها القريب .

ورغم ماجرفته الأحداث، فلا يخلو ماورد من بصيرة تشعر بأدق التغيرات.. رغم ما بدا من تعرض الاسلام لعملية تصفية desislami saiom.. فإنه يمر فى السنوات الأخيرة بمرحلة صمود.. بل ربما احياء، وذلك كرد فعل طبيعى للضغوط العقائدية المضادة، لاسيما مع انصباب الهجرة الروسية السلافية، التى وصلت إلى أبعاد خطيرة، وتؤذن بتحويل الأهالى إلى أقليات ، ويذكر نيكسون فى كتابه المذكور.. ما يؤكد هذا الصمود (.. لقد قاوم العالم الاسلامى الشيوعية.. بأقوى مما قاومها العالم الغربى، ص ١٦٢)، ويدلل حمدان على تأثير الهجرة المذكورة بجدول هام .. ينبه فيه إلى تأثير التهجير فى خلخلة كثافة الاسلام.. ولكن من يسمع لتنبيهات العلماء، وقبلها من يعمل بما تشعر به بصائرهم المتصلة بعقولهم.. قبل فوات الأوان .

رابعا : الوحدة الإسلامية :

يأتى الفصل الرابع تحت عنوان «نظرية الوحدة الاسلامية»، وهى فى لبها نظرية تكاملية.. يستكمل بها رؤيته الحضارية الشاملة فى دوائرها الثلاث، فبعد مصر (الوطن) والعالم العربى (القومية).. يتصاعد بها فى سلاسة صلبة إلى إطارها العام (الاسلام)، ويهتم فى هذا الفصل بوجه خاص.. بتحديد المجال الوظيفى لكل من القومية والدين، وتطهير الحدود بينهما من التداخل والالتباس، وذلك بعد أن قام بمثل ذلك.. بين الوطن والقومية.. فى كتاب شخصية مصر الكبير (جـ١، ص ٢٠-٢٥)، وبهذا التوحيد الفكرى بينها!، يعلو بها فوق هذه الثنائيات المتضاربة بين الوطنية والقومية.. وبينهما وبين الاسلام، هذه التى شغلت كثيرين غيره.. بالاختيار من بينها.. وتأكيد استحالة الجمع بينها بابراز الاختلاف، بينما هى متكاملة من الأساس.. أو قابلة لأن تكون ، وماالفصل بينها.. إلا تجاوب مع نظريات من خارجها.. عن الوطن وكالقومية والدين، مزقت تكامليتها الجغرافية والتاريخية فى العالم الاسلامى.. بما يحقق أهداف الآخرين.. العامدة عمدا إلى هذا التمزيق، إن لب نظريته.. ينفى أى سبب حقيقى.. يمنع تكامل الدوائر الثلاث، إلا أن تكون نظم الحكم.. والمصلحة الضيقة.. والنظرة الأحادية.. التى لاترى سوى اتجاه واحد.. من الميراث الثقافى القديم والحديث ، وبذا يتناقض أيها مع تكاملية الأرض والتاريخ .

وقبل أن يوضح رؤيته «للوحدة الاسلامية».. فإنه يسعى إلى اثبات الوظيفة الخاصة لكل من الوطن والقومية والدين، وإلى نفى التناقض بين القومية والدين بوجه خاص، والتدليل على تكاملية الدوائر الثلاث.. كميراث تاريخى جغرافى، وكأساس لمستقبل متفاعل وفعال، وقد اتخذ سبيله لتحقيق ذلك.. تحت مايلى من العناوين، بمثابة وحدات منهجية.. توضح آراءه.. قبل تجميعها فى منظور :

★ الوحدة والتنوع فى العالم الاسلامى .

★ تاريخ الاسلام الجيوبوليتيكى .

★ قضية الوحدة .

★ الدين والقومية .

★ دور الاسلام السياسى .

وبداية.. يعد فرض «الوحدة والتنوع.. Varaity within unity من الفروض الأساسية فى علم الجغرافية بعامة، يوظفه هنا للكشف عن التباين الاقليمى.. داخل عالم الاسلامى المترامى، وذلك فى ضوء أن الاقليم لا يعنى التشابه.. وإنما التنوع فى إطار من الوحدة المكانية الوظيفية.. تتجلى مع الترابط والتفاعل والتكامل، غير أن تطبيقه لهذه الفرضية.. لا يقتصر على مجالها المكانى، بل يضيف إليه التاريخ والشعوب والثقافة، وذلك بهدف اثبات أن «الاسلام».. بمثابة الوحدة القاعدية للعالم الاسلامى، وأن اختلافات الأرض والثقافة والمذاهب.. إنما تعود إلى ترامى أطرافه، وبذا يدمج بين هذه اللبنة الأولى فى نظريته عن وحدة العالم الاسلامى، وبين نظريته المورفولوجية كما سبقت الاشارة.. وكما سيأتى تفصيلا .

وهكذا فإن مايعنيه بالوحدة هو الدين أما التنوع فيتصل بالتوزيع المكانى والمذاهب والثقافة، فالأصل أن الدين قد ظهر واحدا وفى مكان واحد، ثم وزعته حركة الفتوح بين المناطق، وتعددت مذاهبه مع حركة التاريخ.. وتنوع الثقافات وتلون السياسة، ومن يراجع خريطة الاسلام.. سوف يكتشف كم هى متباينة الأقاليم.. متعددة المستويات والظواهر، تتراوح مابين الجبال والهضاب والصحراوات والسهول والسواحل ، ومابين الموسميات والمتوسطات والمناطق الجافة ، فهل أفضت هذه

الاختلافات إلى نفى وحدته الدينية الأصيلة؟.. والاجابة.. إنها لم تجاوز كونها نتيجة للتباين المكانى الطبيعى، تتمثل فى موطنه الأصلى أيضا.. أى فى شبه الجزيرة، ولا تقتصر عليه وحده.. بل تميز أيضا غيره من الديانات ذات الانتشار الواسع، وبقدر ما تدل على قدرته الانتشارية.. بقدر ما أكسبته تنوعا وثراء.. بحكم تعدد بيئاته، وهى وإن أسفرت عن سلبياتها بعد ذلك.. فإن ذلك يعود إلى أسباب أخرى عديدة، يذكر منها (.. صحيح أن الاسلام لا يعرف هيدراكية كهنوتية.. لكن تاريخه لم يخل من تداخل بين الدين والدولة) ، وبهذه الاشارة السريعة.. يضع يده على ما سيتابعه بعد ذلك، ويبقى السؤال عن كيفية استثمار التنوع الطبيعى.. لحساب الوحدة الدينية الأصيلة .

أما عن التنوع الثقافى فى العالم الاسلامى.. فإنه عنده شأن الاختلافات الجغرافية، محصلة تعدد شعوبه فى عالمه المترامى، فهذا العالم الذى يضم العرب والفرس والأتراك والأفارقه وغيرهم، يستحيل أن تكون وحدته انثروبولوجية بالمعنى الثقافى ، غير أن مايهدد وحدته الدينية حقا.. إنما يتمثل فى تعدد المذاهب، هذه التى يفسرها سياسيا (.. إن أغلب الفرق الدينية التى تكاثرت فجأة فى صدر الاسلام وما بعده.. مابدأت أصلا إلا كتحزبات سياسية، وكصراعات على السلطة والحكم..)، ويضيف فى عبارات دالة (.. ولكن بينما فقدت هذه الاعتبارات معناها وقيمتها.. بتغير السياق التاريخى.. إلى أن زالت تماما، فإن العصبيات الدينية التى اصطنعتها، تبقت مترسبة عبر الأجيال، وتجمدت مع الزمن، حتى آلت الينــا كإرث غير مفهوم وغير منطقى، يثير ألتســاؤل مثلما يثير المشاكل) ، ويتابع تقيحات الطائفية الدينية خلال العصرين العثمــانى والاستعمارى.. ويراها مســــتمرة حتى العصــــر الحديث ،

وينصح (.. من المفيد والضرورى تقديم دراسة علمية منهجية متكاملة فى هذا الصدد) ، وينتهى من فرضية الوحدة والتنوع.. بأهمية توظيف التنوع لحساب الوحدة، بمثابة اللبنة الثانية فى نظريته.. باعتبار أن الأولى تتمثل فى وحدة الدين .

وتبقى المشكلة عنده محددة فى هذا السؤال «هل يمكن لهذه الوحدة الدينية.. أن تقيم كيانا سياسيا مركزيا موحدا.. كما يقدر منظرو الاسلام السياسى ؟

وهذا سؤال معقد بطبيعة الحال، يسترشد فى إجابته عنه بنظريته المورفولوجية وبالتاريخ والسياسة والدين، حيث تدل مراجعته الحلقات.. على تجاوز الاسلام لما يتضمنه تتابعها بالضرورة من اختلافات، ومن ثم يسميها (الاتجاهات الجاذبة المركزية) ، كما يدل تناقص كثافة الإسلام.. من حلقة إلى أخرى بداية من النواة (اتجاهات المقاومة).. على أن ثمة قوى مضادة.. توازن قدرته على الانتشار، يتصل بعضها بالمسافة والمساحة واختلاف الثقافات، ويخص بعضها رصيده السكانى فى النواة، فضلا عن فعالية الدولة المركزية.. وقدرتها الذاتية على ادارة هذا العالم المترامى الأطراف، وهذا مايعنيه بالمعادلة الأقليمية لانتشار الاسلام ، ورغم أن حضارة الاسلام وثقافته.. قد بقيت وتعمقت.. واستمرت وحدة الدين، إلا أن دولته السياسية قد تراجعت لحساب الدولة الوطنية والقوميات، وهكذا بينما صمد الدين لأعتى الاختبارات.. فقد سقطت دولة الدين، بما يشير إلى وظيفية أخرى.. تستثمر بها خاصيتا الوحدة والاستمرار فى الدين،،، وليست الدولة وحدها وسيلة هذا التوظيف .

وينتقل إلى التاريخ.. فيجد أنه (يتضمن سلسلة من التجارب المريرة.. التى فشلت فى النهاية.. كأساس للكيانات السياسية للعالم الإسلامى) ،

وفى التاريخ الحديث.. انبثقت من جديد فكرة اسلامستان «فى باكستان»، ترددت أصداؤها فى اندونيسيا التى رفعت شعار «دار الاسلام»، غير أن الفكرة والشعار وغيرهما.. قد وظفت من جانب القوى العالمية المهيمنة.. فى تأسيس الأحلاف، أى أنها قد استثمرتها سياسيا (.. وسخرتها لحسابها الخاص)، ثم صدرتها إلى بقية الدول الاسلامية، مستثمرة اختلاف المذاهب، واختلاف درجة التشدد فى التفسير، بما يعلل انتشــار (.. الجماعات المسلمة الارهابية فى العالم العربى، خاصة مصر مؤخرا).

أما من ناحية «الدين» فإن النظرية السياسية الأصولية فى الفقه الاسلامى، لم تحتم قط وحدة.. «الامامة»، يعنى وحدة النظام والاطار السياسى فى دار الاسلام)، ولعل خير مايدل على ذلك.. ابن تيمية فى القرن الرابع عشر.. ومن بعده تلميذه ابن قيم جوزية (فهو عند جمهرة الفقهاء المحدثين أول دعاة الوحدة الاسلامية، غير أنه بواقعية ملحوظة.. لم يدع إلى دولة اسلامية عالمية موحدة، وإنما إلى شىء ـ أشبه فى تقدير المحدثين ـ باتحاد كونفيدرالى يجمع العالم الاسلامى جميعا، ولكن من الواضح أن شيئا من ذلك لم يتحقق)، وبذا يقرر أن الدور الأصيل يتمثل فى (.. توحيد الدين، بمعنى توحيد عقيدة الاسلام لا المسلمين، وتعميق روح الاسلام)، ومن بعد.. توظيف تنوع الموارد والثقافات لحساب العالم الاسلامى الكبير، وسيعود لتأكيد هذا الدور بشىء من التفصيل.. بعد قليل، باعتباره من أساسيات نظريته، فبعد وحدة الدين.. يأتى السؤال عن الدور، وبعد تحليل التنويع.. يأتى السؤال عن التوظيف.

والآن .. ماذا يعنى فى نظريته، عنوانها التفصيلى الثانى «تاريخ الاسلام الجيوبوليتيكى ؟».

مثل مقولة «الوحدة والتنوع».. فإن لمصطلح «جيوبوليتيكا» دلالته الجغرافية الخاصة، تتصل أساسا بالأساليب السياسية والممارسات، ولكنه يطهره هنا مما علق به من شوائب.. نتيجة استخدامه من قبل القوى الاستعمارية.. فى تطويع حقائق الجغرافية الثابتة.. لخدمة أغراض السياسة المتغيرة، وهى عادة تقهر الحقائق لحساب المطامع، وتوظفها لتبرير القوة والهيمنة.. بل والتوسع على حساب الآخر والتهامه، ومن هنا أهمية التأكيد على ماسبق ذكره.. من تطهير معنى المصطلح، والعودة به لمعناه اللغوى حرفيا.. كما يدل عليه تكونه (Geo-Politic)، وجعله مرادفا للجغرافية السياسية .Political-Geog وهذا مايعنيه حمدان، مختلفا بذلك ـ بالمناسبة وعلى سبيل المثال ـ مع كتاب نيسكون المذكور (الفرصة السانحة).. الذى يمكن اعتباره نموذجا للكتابات «الجيوبوليتيكة المضمون».. بالمعنى القديم الشائع حتى الآن .

ولأن العنوان يتضمن أيضا كلمة «تاريخ».. فقد التزم منهجيا بتقسيم موضوعه إلى مراحل تاريخية:. كما يلى، بعد تمهيد قصير عن أثر التاريخ عامة فى شكل ومضمون الحضارات، وفى تشكيل مورفولوجيتها الجغرافية.. كما تتحدد فى المكان :

★ العصر الوسيط .

★ الدولة العثمانية .

★ عصر الاستعمار .

★ المرحلة القومية .

والمرجح أنه كان سيضيف إليها أخرى (المرحلة المعاصرة).. لو أعاد تأليف كتابه فى «تاريخ لاحق (١٩٧٢)، أو ربما أضافها فى مخطوطته المفقودة.. ظنا أو حقيقة، بل إنه يمكن القول بأنه قد ضمّن بعض عناصرها فى الفصل الأخير.. من الجزء الرابع من كتاب «شخصية

مصر» (ص ٦٣١-٦٦١)، وفى غيره أيضا من فصول نفس الجزء، وعدد من فصول جزئه الثانى، صفحات مبثوثة داخل موضوعات هذا المتن الكبير .

وربما يكون مفيدا لو استعان القارىء بكتابه (استراتيجية الاستعمار والتحرير، الفصلان الثانى ص ٢٦-٥٥، والثالث ص ٥٦-٩٨) عند مطالعة هذا الجزء من نظريته، ليس فقط للارتباط الوثيق بينها موضوعا .. وإنما أيضا للتعمق فى جوانب ودوائر فكره التنظيرى، فمهما أوردنا ـ كما سيأتى ـ من اقتباسات دالة.. فلن تعوض عن متابعته فيما ذكر.. وربما فى مؤلفاته جميعا .

والعصور الوسطى عنده هى (.. عصر الدين بامتياز) ، تجسدت بها وحدة الدولة المركزية للعالم الاسلامى، يذكر عنها فى كتابه «استراتيجية الاستعمار والتحرير» (.. لم تسبقها من قبل دولة فى الامتداد والرقعة، ولم تلحقها من بعد إلا امبراطوريات العصر الحديث وحدها، بل هى فى نظر ماكيندر.. الامبراطورية العالمية World Empire الأولى فى التاريخ، ص ٢٦).. ويتابعها فى تحليلات موحية بعد ذلك فى كتابه. غير أنه مع ضعف قلبها الجاذب.. انفصلت هوامشها تباعا، وبذا يمسك بطرف خيط هام فى نظريته ـ يتمثل فى العلاقة بين القلب والهوامش، هذه التى تعود ايجابية مع الحروب الصليبية وطوفان المغولية حتى تكاد توحد من جديد بين قلب وهوامش العالم الاسلامى، ورغم توهج العصر المملوكى بعامة ـ فقد أفرغت الخلافة من شحنتها كقطب جاذب، ومع ذلك اتخذت منها الدولة العثمانية.. ستارا يسبغ الشرعية على سيطرتها على هذا العالم بعد ذلك، ووجهة نظره فيها (أنها استعمار دينى.. جعلت من أقاليمها مجرد توابع، ص ١٣١) ، ولم تجد معها الخلافة فتيلا.. حين دهمها العصر الاستعمارى .

ومن الهوامش أيضا زحف الاستعمار إلى العالم الاسلامى، وتآكل

تدريجيا من شرقه وشماله.. ثم من غربه وجنوبه (ص ١٣١-١٣٢)، بذات وتيرة الصليبيات الوسيطة، بما أيقظ من قلبه حركات الاحياء الديني.. متسربلة بالتحرر السياسى .. فى شبه الجزيرة.(الوهابية) والسودان (المهدية) وليبيا (السنوسية) ومصر الأزهر.. وصحراء الجزائر، يبددها ضعف تواصلها.. وتقوقعها داخل ثويقراطيات محلية (ص ١٣٤)، سرعان ماتتهاوى.. إن لم تتحالف مع الاستعمار ذاته، وإن أبرزت فكرة الجامعة الاسلامية Pan-Islamic التى قدمهــا الأفغانى، وترادف (.. اتحادا فيدراليا من النمط الألماني.. على مستوى العالم الاسلامى ، ص١٣٤)، وقد أفضى ضعف الدولة العثمانية عن الدفاع عنها رغم تبنيها.. إلى بزوغ الوعى القومى العروبى.. كصيغة مضادة طامحة لمواجهة المد الاستعمارى، خاصة بعد سقوط الدولة العثمانية ذاتها.. وتحلل الخلافة .

لقد تضمن السياق السابق اشارات إلى بداية العصر الاستعمارى، ومن يطالع الفصل الثالث من كتابه المذكور «استراتيجية الاستعمار والتحرير».. سوف يحظى بتفصيلات دقيقة عنها وما يتلوها. ورغم سقوط الدولة العثمانية فى سياق المد الاستعمارى العاتى، إلا أنه لايغفل تقدير قوتها (.. هذه قوة لايستهان بها، ولها مقومات يجب أن يحسب لها حساب، ص ٥٣ من الكتاب المذكور)، محذرا من وقوع القلب العربى الاسلامى مرة أخرى تحت سيطرة الهوامش، وهذا تحذير له مايبرره فى الوقت الحاضر (ايران بصفة خاصة)، وبه يحفظ لنظريته اتساقها.. فى وجهيها المورفولوجى والموضوعى، حيث العالم العربى بها قلب العالم الاسلامى ونواته وحلقته الأولى.. وبه يتحقق للاسلام أعلى كثافة، ومن ثم فإن تطهير الحدود بين القومية والاسلامية.. يجب أن تنال فائق العناية .

وقبل الاستمرار معه فى إجابته عن سؤاله «هل القومية بنت العصر الاستعمارى.. ومن نتاج فكرة الغازى ؟ ، ربما يكون مفيدا .. الاشارة إلى

انعدام وجود أى مقولة عن «القومية العربية» فى كتاب «نيكسون» المذكور، سوى للدقة مجرد اشارة اليها باعتبارها تخبطا.. وهذه كلماته (.. لقد تمكن العالم الاسلامى من تحرير نفسه من الاستعمار فى الخمسينات والستينات، وبعد ذلك اندفع وهو مغمض العينين.. فى اتجاه عدم الانحياز، واتحاد العرب، وسياسة رد الفعل، وسوف يعاود البحث فى التسعينات، ومابعدها، عن مكانه اللائق بين دول العالم، وعلى الولايات المتحدة أن تساعده في أن يجد طريقه (ص ١٣٩، الفرصة السانحة) هو إذن لايذكر القومية العربية صراحة (اتحاد العرب)، وهو يندفع إلى هذا الاتجاه (مغمض العينين)، وأن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تهديه وتنير طريقه.. ليس وحده.. وإنما لكل العالم الاسلامى، وبالطبع فإن طريقه ليس بحال مااندفع اليه بعماء على حد تعبيره، ومرة ثانية استسمح القارىء فى اشارة اليه.. عسى لاتضجره أو تصرفه عن متابعة موضوعه، وعذرى أنها تتصل بها.. وتوضح رأى الآخر المهيمن.. بعد عشرين عاما من طرح حمدان لسؤاله، وهذه هى الاشارة (.. العالم الاسلامى متقلب وغير مستقر، ولكن من الأهمية بمكان.. أن قوى التقدم والرجعية والأصولية تتصارع فيه، لكى تحظى بتأييد الشعوب التى يبلغ تعدادها مايزيد على ٨٥٠ مليون نسمة، هل سيتبع العالم الاسلامى نموذج تركيا فى انحيازها نحو الغرب والتحضر؟ أم سيتبع نموذج العراق؟ أم يتبع نموذج ايران ؟ إن الاجابة على هذه الأسئلة ستكون لها ردود فعل خطيرة فى العالم، وسوف تلعب السياستان الأمريكية والغربية مع المسلمين، دورا رئيسيا فى تحديد الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة، ص ٢٨، الفرصة السانحة)، هذه إذن نماذجه.. ومن الواضح أن النموذج التركى يروقه، ومن بين العرب يختار النموذج العراقى.. وهو يلعنه صراحة فى صفحات كتابه، وكذا الأمر بالنسبة للنموذج الايرانى، ولا وجود لنموذج القومية العربية بتاتا، عسى تكون الاشارة قد وصلت،

وخلاصتها أنه بينما يفضل التعامل مع العالم الاسلامى كوحدة.. فإنه يقدم إليه تركيا كنموذج.. وهى من تخلت عن الاسلام أصلا.. واتجهت نحو الغرب أساسا، وستكون هناك عودة لذلك.. وعذرا للإطالة .

وفى مناقشة خاطفة يطرح كما سبق سؤاله «هل القومية بنت العصر الاستعمارى.. ومن نتاج فكره الغازى ؟ ، وأحيل القارىء إليها ليقرأها باستفاضة، وتتلخص إجابته فى أن الثقافات المحلية قد أفرزت الشعوبية.. منذ وقت مبكر من التاريخ الاسلامى ، وفى العصر الحديث.. فإن (نقطة الانكسار من الدين إلى القومية.. لم تأت بسرعة أو فجأة، بل استطالت من أواخر القرن ١٩ إلي فترة الحرب العالمية الأولى ، قد غذتها الطبقية التركية القومية، وروتها المؤثرات الأوربية، وبلورها سقوط الخلافة العثمانية، وقادتها الأحزاب القومية فى العراق والشام.. والوطنية فى مصر وشمالى افريقيا، وانقسم العالم الاسلامى بين الجامعة العربية Pan-Arabian والجامعة الطورانية Pan-Turanian غير أنه لم تلبث.. أن تحللت (الوحدة الدينية إلى عواملها الأولية.. وهى الوطنية والوحدات القومية) .

وقد سبقت الاشارة.. إلى أنه لا يرى تناقضا بين الوطنية والقومية، حيث يقرر فى كتابه شخصية مصر (.. وقد خلق هذا كله فى العقل العربى.. أو اللاوعى العربى نوعا من الازدواجية والتضارب بين الوطنية والقومية، حيث لا ازدواجية ولا تناقض بالتأكيد.. وإنما ثنائية متكاملة أو قطبان لمتصل مدرج واحد Contionuum ، جـ ١ ص ٢٤)، وبذا يضع اللبنة الثالثة.. فى نظريته.. وتتمثل فى فصل الأدوار بين الوطن والقومية والاسلام، ثم العمل بعد ذلك على تكاملها، وعليه عند هذه النقطة الحرجة فى بنائه النظرى.. أن يحدد بالضبط والتفصيل دور الاسلام السياسى فى نظريته التى يسميها «نظرية الوحدة الاسلامية» .

وتأتى إجابته متسقة مع نظريته المورفولوجية.. مرة أخرى، وبخاصة معادلته الاقليمية الرئيسية عن (محصلة القوى)، فإذا كانت القدرة الانتشارية للاسلام.. قد توازنت مع القوى المضادة، بما أدى بها كمحصلة.. إلى خريطته الراهنة.. بحلقاتها المتمايزة تبعا لدرجة كثافة الاسلام فى كل حلقة، فإن دور الاسلام السياسى أيضا.. قد تحدد كمحصلة تاريخية.. لتغيرات العلاقة بينه من ناحية (القوة).. وبين القومية والدولة (المقاومة) من ناحية أخرى ، وبناءً على ذلك.. فإذا كانت جدارة الاسلام الحضارية قد صمدت.. فكيف يمكن توظيف ذلك لحساب العالم الاسلامى المعاصر.. بواقعية تستقطر جوهره.. لحساب دوله فى خريطته الراهنة؟ وكيف يمكن استثمار الوحدة الدينية.. لتحقيق أقصى مايمكن من التكاتف السياسى والثقافى والاقتصادى فى الساحة العالمية؟

غير أنه لا يكتفى بتحديد دور الاسلام السياسى.. كما يصيغه بوضوح (.. الوحدة الاسلامية وحدة عمل لا وحدة كيان، بل يمكن أن نضيف وحدة مصير.. إلا أنها ليست دستورية، وفى كلمة أخرى وحدة فكرية لا دستورية) ، بل يعود فيفصل فى مجالات دوره.. ولكنه يسوق قبلها مايفسر رأيه ، وفيما يلى تفسيره.. وتفصيل دوره :

★ إن الترامي الجغرافى الشاسع للاسلام.. وإن دل على قدرته الانتشارية.. فإنه بقى يعمل دائما ضد الدولة المركزية .

إن قيام الدولة الاسلامية على الأساس الدينى وحده.. يمكن أن يبرر قيام غيرها على أساس الديانات الأخرى، وبذا يعود العالم ساحة للصراعات والحروب الدينية، ساحة يصعب تصدر الاسلام لها.. بحكم الصورة المعاصرة لهرم القوى بها.. وتراتبها .

★ كما سبق فى تصنيف كثافة الاسلام فى مناطق انتشاره.. فإنها تتراوح بين الأغلبية والتنصيف والأقلية، فماذا تضم دولة الاسلام منها..

وماذا نترك؟ ، خاصة مع تداخل الكثافة.. بدرجة تقطع التواصل الأرضى اللازم للدولة، بما قد يؤدى الى انقسام دولة اسلامية موحدة فعلا.. مثل ما حدث فى باكستان مثلا، غير ما ينطوى عليه التداخل من مشكلات الأقليات الدينية .

★ انه لا تناقض بين الدين والقومية، فالأخيرة تؤطر واقعا معقدا.. وتكرسه دستوريا، يضم الدين فى إطاره الواسع.. العديد منها ومن شأن القيام بدوره فى التنسيق بينها فى استراتيجية عظمى واحدة (الإسلام بوصلتها التى تسترشد بها فى عالم القوى.. الذى يهدد الكل بصراعاته وتوازناته، بضغوطه وتكتلاته، وأيضا باستقطاباته وتفككاته) .

وبهذه الأسباب وغيرها.. يعقد صلحا فكريا بين القومية والدين، ويطهر الحدود بينهما من تحيز الاختيار الأحادى لأيهما، ويكشف عن مساحة التكامل بينهما والوفاق ، وهى المساحة التى تتشكل حولها نظرية عن «وحـــدة العالم الاسلامى الكبير» ، ولكن أين «القومية» من الساحة الآن ؟، إن هناك من يرى أنها قد انتهت ويكتفى «نيكسون» بوصفها بالجمود (الفرصة السانحة ص ١٥) ، ولكن علينا مثله أن (لانقلل من شأن الاحتمـالات المسـتقبلية مطلقـــا ، نفس الصفحة)، بل لعل الحاضر يشهد فعلا بوادر دورة جديدة لانتعاشها.. وعندئذ سوف تكون لكل كلمة كتبت عنها قيمتها.. خاصة فى اتجاه التوفيق بينها وبين الدين .

أما عن تفصيل دور الاســـلام.. فإنه يحددها فى هذه المجـالات (.. التبادل الثقافى والفكرى العام، المزيد من التنسيق الاقتصادى والتبادل التجارى، التضامن السياسي الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية، التعاون لتحرير فلسطين المحتلة، تلك جميعا هى المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الاسلامى سياسيا) ، وفى صياغة عملية يقرر (.. ويعنى هذا أن العمل السياسى والنشاطات

الدولية الاسلامية.. التى تخضع حاليا لتوجيهات منفصلة ومشتتة وربما متعارضة، ينبغى أن تتحول من نمط الطرد المركزى إلى قوى الجذب المركزى) ، وذلك بحكم حجم التحديات والمشكلات.. هذه التى يمكن تجميعها من سطوره وما بينها.. فى هذه المشكلات العشر المحورية فى العالم الاسلامى بإيجاز :

★ الصراع الداخلى بين الدول الإسلامية.. المتزايد مع الزمن .

★ الهبوط المستمر فى مستوى المعيشة.. نتيجة عدم التوازن بين الزيادة السكانية والتنمية .

★ ضعف قدرة الدولة على السيطرة على الأمن والاستقرار الداخلى .

★ نقص الموارد المائية فى بعض الدول، واحتمال نشوب الحرب بين الدول المشتركة فى موارد واحدة .

★ مشكلات الحدود الناتجة عن رسمها.. بواسطة قوى الاستعمار الأوربى فى الماضى .

★ مشكلات الأقليات الدينية والعرقية والثقافية.. الظاهرة والكامنة .

★ ديكتاتورية نظم الحكم القائمة فى معظم الدول .

★ التفكك السياسى لبعض الدول الإسلامية بعد استقلالها .

★ نزيف الاتفاق على التسليح، حيث تجمع بها أكبر كم من السلاح فى عالم الدول المتخلفة .

★ الانقسام السياسى، والتفتت الدينى المذهبى، بين السنة والشيعة خاصة .

وهناك بالتأكيد غيرها.. مما يضيق عن تفصيله المجال، وهو يعتبر أن مواجهة هذه التحديات والمشكلات.. تحقق التعريف الوظيفى لوحدة

العالم الاسلامى السياسية (.. هذا الذى قد يراه البعض حدا أدنى، ونراه حدا أمثل، بل إننا لنخشى أن جهود الدول الإسلامية واستعداداتها الفعلية، تقصر كثيرا دون برنامج العمل الايجابى الذى ينتظمه، حتى ليكاد يبدو على بداهته.. برنامجا طموحا أكثر مما ينبغى، بل إن هذا البرنامج هو المحل والمقياس الحقيقى لنظرية وحدة العالم الاسلامى، مثلما هو محيطها ومجالها) .

وبعد فهذا كتابه.. بمثابة شهادته على عصره، وإذا كان تحليل مضمونه قد طال - رغم صغر حجمه.. فما ذلك إلا لكونه ثقيل الوزن حقا، يقدمه كاتبه للقارىء باعتباره مدخلا.. ربما معتذرا بذلك عن صغر حجمه، ولكن وزنه يؤهله قاعدة راسخة لمشروع أكبر، ولعل مايرجح هذا الاحتمال.. قوله (.. ليس ثمة بين أيدينا فيما نعلم.. دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية «الراهنة لتوزيع الاسلام فى العالم، ولهذا فنحن مازلنا بحاجة إلى دراسة متكاملة ترسم جغرافية الاسلام من حيث هو غطاء روحى واسع الانتشار، بالغ الخطورة فى الحياة اليومية المعاصرة، المادية والثقافية، والاقتصادية والسياسية ، لقطاع كبير من البشرية، ومانزعم أن هذا البحث الذى نقدم الآن يمكن أن يسد هذه الثغرة تماما، ولكنا نحسب أنه يقدم أرضية عامة ونقطة ابتداء صالحة لمزيد من التعمق والتمحيص) ، بل إنه يكاد يشير إلى بعض ما ينبغى استكماله :

★ القصة التاريخية الجغرافية لانتشار العقيدة .

★ تحليل الجوانب السياسية والاجتماعية المنبثقة من الوجود الاسلامى .

★ نظرية شاملة تخضع العالم الاسلامى لفلسفة ايكولوجية أحادية.

وجميعها مما يدخل فى صميم اهتماماته وقدراته، تكاد تتشابه مع المحاور الفكرية والنظرية.. لكتابه الشامخ عن شخصية مصر، ومن بعد غيابه.. وصدقا أو ظننا ضياع مخطوطه، عسى يظهر من يتحمس لاتمام مشروعه، وأن يضيف إليه ماطرأ فى عقد السنين الأخير من متغيرات عميقة، ويترجم عمليا حماسه. .

أ. د عمر الفاروق السيد رجب

أستاذ الجغرافيا السياسية

جامعة عين شمس (يوليو ٩٣)

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٥٥٩٤ / ١٩٩٣
T . S . B . N
977 - O7 - O275 - 7

روايات الهلال تقدم

الطبالة الصغيرة

بقلم

جون لوكاريه

ترجمة

عبد الحميد فهمى الجمال

الرواية التى طبعت ١٢ مرة فى ٨ سنوات فقط باللغة الانجليزية ، وتفضح الاساليب الوحشية التى يمارسها رجال الموساد ضد رجال المقاومة الفلسطينية .

٤ أعداد فى عدد واحد

الثمن ٧٠٠ قرش

تصدر : ١٥ أغسطس ١٩٩٣

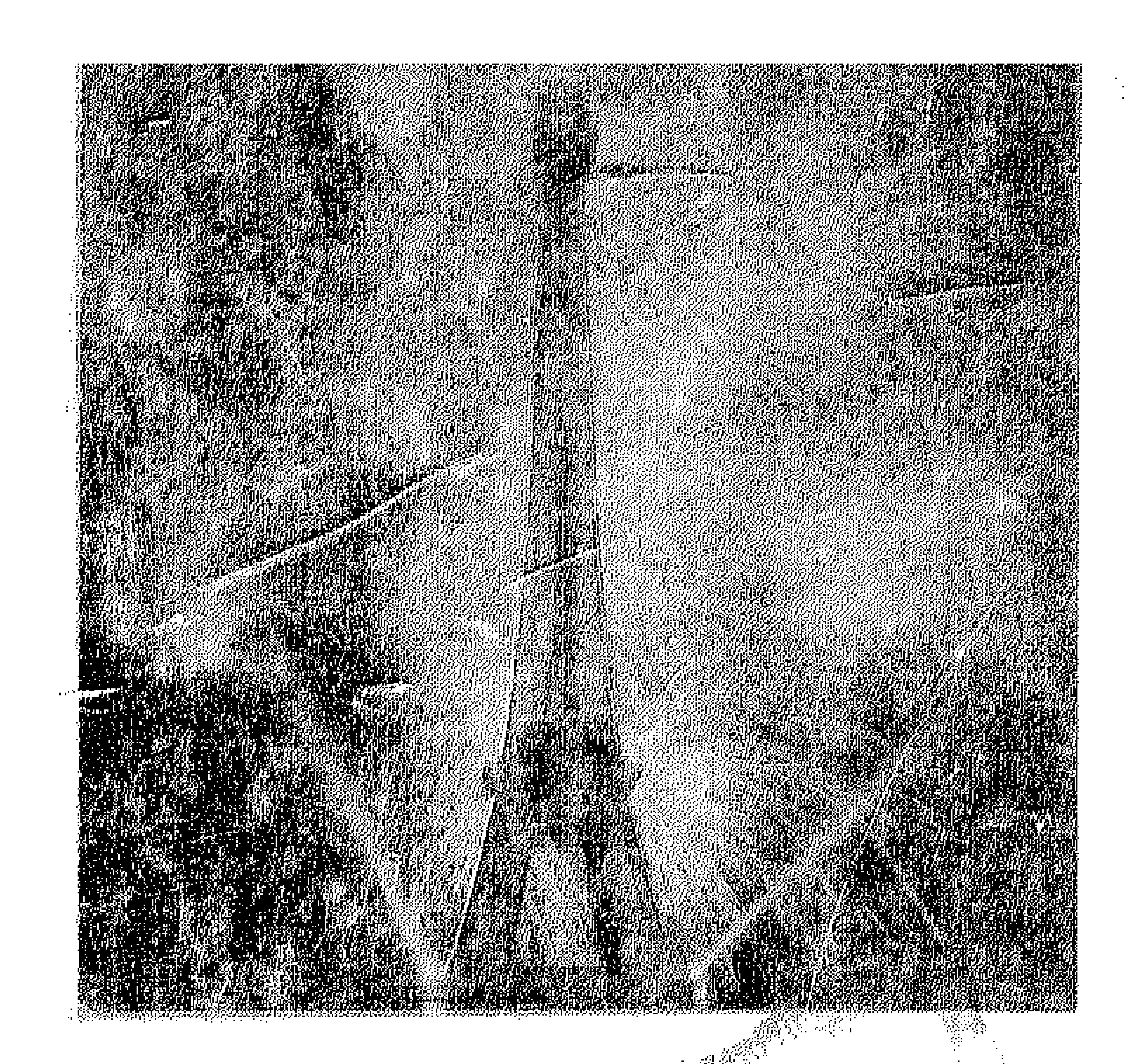
كتاب الهلال يقدم

حول العالم مع دبلوماسى مصرى

بقلم

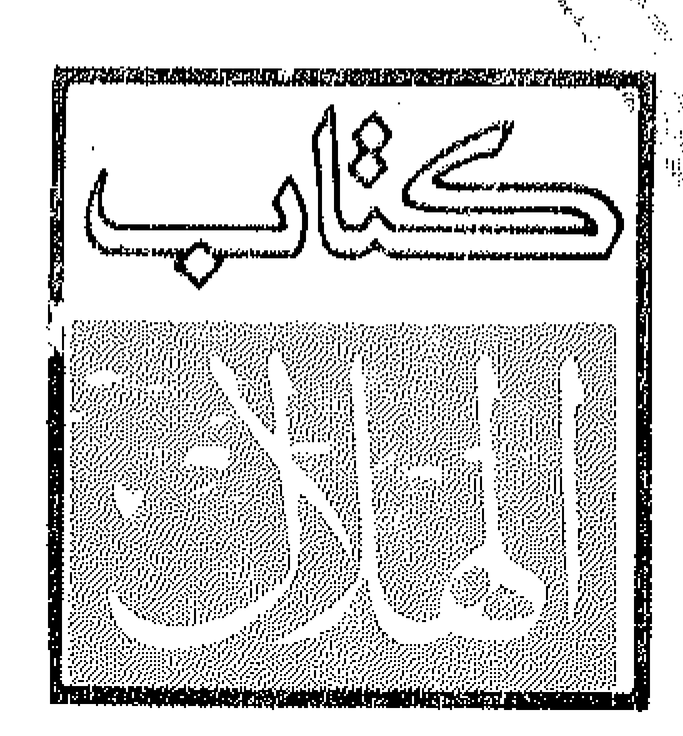
السفير : د. محمود سمير أحمد

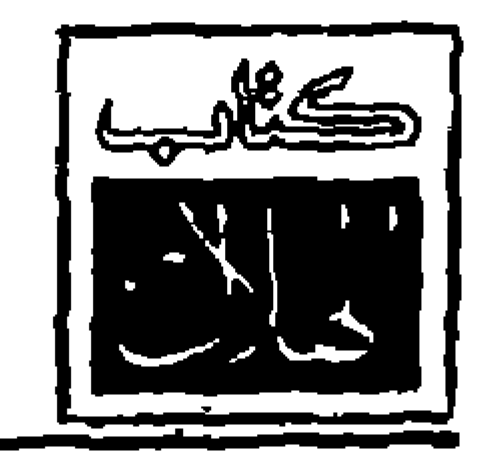
يصدر : ٥ سبتمبر سنة ١٩٩٣



حول العالم

د. محمود سمير أحمد





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No - 513 - SE - 1993 العدد ٥١٣ - ربيع أول - سبتمبر ١٩٩٣

FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٧٧٥٠ ليرة - الأردن ٢٧٥٠ فلسا - الكويت ١٤٠٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - تونس ٢٫٥ دينار - المغرب ٣٠ درهما - البحرين ١٫٢٠٠ دينار - الدوحة ١٢ ريالا - دبى / ابوظبى ١٢ درهما - مسقط ١٫٢٠٠ ريال - غزة ، الضفة ، القدس ٢ دولار - لندن ٢ جك .

حول العالم مع دبلوماسى مصرى

تأملات فى بعض الحضارات المعاصرة وفى سياسات بعض الدول

بقلم

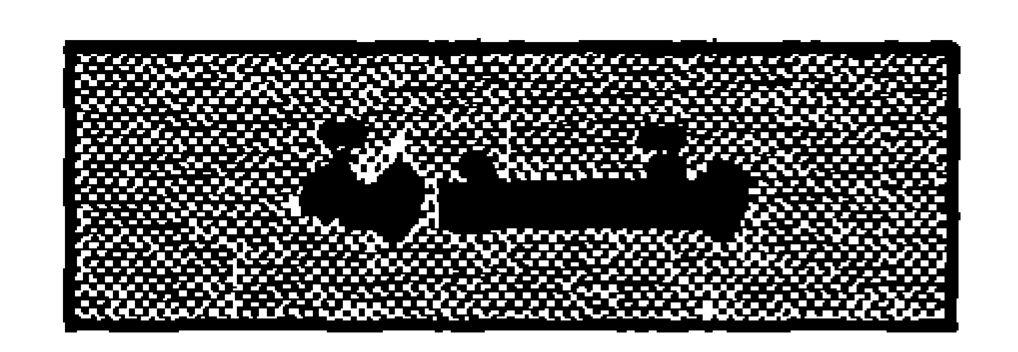
د. محمود سمير أحمد

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب



إذ تقدم دار الهلال هذا المؤلف للقارئ المصرى والعربى ، تعتقد بأمانة وموضوعية ، أنه عمل فريد فى بابه ، طموح فى مقصده ، غنى فى مادته ، طريف فى قراءته .

فهو فريد فى بابه لأنه ليس من قبيل أدب الرحلات وحسب ، أو أدب السياسة وحسب ، بل لقد جمع كلا النوعين فى مجلد واحد . ولِمَ لا ؟! وصاحب الكتاب من هواة الأدب وقد تخرج فى كلية الآداب إلاّ أن القدر ساقه بعد ذلك لينغمس فى مهنة الدبلوماسية وليقضى بها كل حياته العملية ! وليس هناك من فرصة أفضل لدراسة ووصف محاسن وخصائص بلاد الله الواسعة نيف وثلاثين بلدا - هى موضوع هذا المؤلف - زارها الكاتب ، خير من فرصة أديب انغمس فى مهنة الدبلوماسية فأتاحت له أجمل الفرص وأطولها عبر السنين لمشاهدة ووصف وتحليل خصائص البلدان المختلفة ، والتمعن فى عقد المقارنات المفيدة والطريفة بينها ، ولسرد تجارب الزائر إليها ، ولتسجيل انفعالات نفسه وخلجات فكره عند زيارتها .

وكما تتيح الخدمة فى السلك الدبلوماسى الظروف المثلى للزيارة والمشاهدة وإشباع رغبة المراقب دقيق الحس فى وصف وتقييم تلك المشاهدات ، فإن العمل الدبلوماسى ، مثله مثل العمل الصحفى ، يتيح امكانية كفاية مستلزمات وأسس الكتابة السياسية التحليلية المتمعنة ، أو ما يسمى بأدب السياسة .. وهو ما سوف يتضح للقارئ عند تصفحه لهذا المجلد .

وهذا المؤلف طموح فى غايته . فهو يستهدف فيما يهدف إليه تسلية القارئ ومتعته وثقافته السياحية العامة إذ يقوده فى رحلات فكرية سياحية رائعة ، تارة بالبحر وتارة بالطائرة أو السيارة ، عبر بلدان البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى وأوروبا الغربية والامريكتين وجنوب شرقى آسيا واستراليا ونيوزيلانده وهونولولو وجزر فيجى وأفريقيا .. إلاّ أنه لا يستهدف تسليته ومتعته وحسب بل يرى لزاما على الأديب والدبلوماسى أن يمزج المتعة السياحية بالثقافة السياسية وأن يشرك القارئ فى تفهم وتذوق تجارب الكاتب وانفعالاته سياحية وأدبية كانت أو سياسية ، وأن يتيح للقارئ نتيجة أو حصاد حياته وتجاربه فى ميدان السياسة الخارجية والعمل الدبلوماسى .. وعلاقات تلك الدول والشعوب بمصر وبالعالم الخارجى .. هذه الحصيلة الهامة التى جمعها الكاتب الأديب عبر ثمانية وثلاثين عاماً تنقل فيها بين سفارات مصر فى أربع عشرة

سفارة من أهم سفارات مصر فى الخارج من درجة ملحق إلى «سفير ممتاز» .. ومن خلال هذه الحصيلة وهذه التجارب يعقد الكاتب السياسى المقارنات والمفاضلات ويسرد التأملات والتحليلات ويسوق جمهرة من الملاحظات والمعلومات السياسية والاحصائية والسياحية فى مزيج شيق من أدب الرحلات وأدب السياسة وبتذوق واضح لكليهما ..

أما أن هذا الكتاب غنى فى مادته فيتضح ذلك من حقيقتين بارزتين .. فهو حصيلة اقامة الكاتب وزياراته ومشاهداته وتأملاته فى نيف وثلاثين دولة أو مدينة واتسمت كتاباته عنها بما لا يكتمل إلا فى نوعى الأدب مجتمعين ! أدب الرحلات وأدب السياسة .

وسوف يجد القارئ متعة فكرية فى تمعن مقارنات الكاتب بين تركيا واسبانيا وعلاقة كل منهما بالعرب والعروبة ، وبين مصر والمكسيك ، ومصر وبيرو Peru .. وفى تأمل ملاحظات المؤلف ومعلوماته الغزيرة عن الحياة فى الولايات المتحدة فى ثلاثة فصول طريفة قدر ما هى هامة ومفيدة . كما سوف يقف القارئ متأملا عند الفصلين الخاصين بسياسة الولايات المتحدة الداخلية ومدى تأثيرها على سياستها الخارجية ، وعلاقات مصر بالولايات المتحدة؛ كما أن الفصول الخاصة بتونس وكولومبيا والمكسيك وبريطانيا وإيطاليا من امتع ما كتب فى أدب الرحلات وأدب السياسة .

أما الفصلان الخاصان بدبلوماسية الأمم المتحدة ودبلوماسية نزع السلاح فقد قلّ أن يجد القارئ فى المكتبة العربية مثيلا لهما . وسوف يجد القارئ متعة في ملاحظات الكاتب السريعة النافذة عن هونولولو وطوكيو وهونج كونج وسنغافورة وبانكوك ومانيلا وعديد من عواصم أمريكا الجنوبية .. وقلَّ أن يجد القارئ المولع بالسياحة وأدب الرحلات هذا الكم وهذا العدد من الرحلات بين ضلفتى كتاب واحد .

لكنها تجربة أديب ودبلوماسى أمضى كل سنوات حياته ، من شاب يافع إلى مرحلة الكهولة وسن المعاش في الترحال والتجوال والمشاهدة والتأمل ثم الكتابة المدققة الفاحصة ..



تلميذ وطالب جامعى رحال

تقترن وظيفة «دبلوماسى» فى أذهان الغالبية منا بكثرة الأسفار والتنقل بين شتى بلاد العالم ، وهذا صحيح ولا شك ، وخاصة إذا كان الدبلوماسى دبلوماسيا محترفا كرّس حياته لمهنة الدبلوماسية منذ شبابه وبدء حياته العملية ، أى أنه لم يطرق الدبلوماسية مصادفة أو نقلا من وظائف أخرى ، كما هو الحال فى بعض الاحيان . فالدبلوماسية تتطلب قضاء سنوات طويلة خارج الوطن «الأم» قد تصل إلى عشر سنوات متصلة أحيانا ، مقابل قضاء سنتين أو ثلاث فى العاصمة «الأم» أو فى «المركز La Centrale» وقد أصبحت الأنظمة المعمول بها فى وزارة الخارجية المصرية منذ أواخر الستينات تقضى ببقاء الدبلوماسى المصرى مدة لا تزيد على أربع سنوات فى الخارج (قد تمتد إلى خمس سنوات أحياناً) ، لقاء سنتين فى القاهرة . وبحساب بسيط يمكن التوصل إلى النتيجة بأن

متوسط مدد بقاء الدبلوماسى المصرى خارج بلاده قد تصل إلى ٢٥ أو ٢٦ سنة مقابل ١٠ - ١٢ سنة يقضيها فى القاهرة بافتراض أن مدة خدمته ٣٧ سنة إذا ما التحق بالسلك الدبلوماسى فى سن الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، وظل به إلى أن يتقاعد فى سن الستين مثلما يقضى القانون . وبديهى أن تلك السنوات الطوال التى يمضيها الدبلوماسى خارج بلاده تتيح له فرصة العمل والعيش فى خمس أو ست عواصم أجنبية على مرات مختلفة ، ولمدة أربع سنوات متصل فى كل مرة فى المتوسط ، إلى جانب ما تتيح له من فرص زيارة بلدان كثيرة أخرى تحيط بمقر عمله أو تجاوره .

وأرانى أميل إلى الاعتقاد بأن اختيار المرء لمهنة مثل الدبلوماسية تقتضى دوام السفر والترحال ، وطول فترات البعد عن الوطن الأم قد تتفق مع مشارب وقدرات بعض الناس وحسب ، فى حين أن الكثرة الغالبة من الناس قد ترى فى ذلك - وعن حق - اغترابا وتغربا قاسيا على النفس بل وعلى الجسم ، من شأنه أن يضعف من صلات الود مع الأهل والأصدقاء والمعارف فى الوطن ، كما أن دوام السفر والتنقل بين مناطق وأجواء شديدة التباين يشكل عبئا وعناء جسمانيا حقيقيا ، هذا فضلا عما يسببه من قلق نفسى وقلقلة للزوجة إذا ما كانت تمارس هى أيضا مهنة أخرى متصلة بوطنها الأصلى ، تختلف فى طبيعتها ومتطلباتها عن عمل الزوج

الدبلوماسى . وفضلا أيضا عما تسببه تلك الحياة الدبلوماسية من قلق وقلقلة بالنسبة لتعليم أبناء أسرة الدبلوماسى لكثرة تنقلهم ما بين أنظمة دراسية متفاوتة وبين تعلم لغات مختلفة ..

ومن هنا فإن محترفى مهنة الدبلوماسية قد اختاروا حياة كرست كلها للسفر وعدم الاستقرار . فهم إذن لطبيعة عملهم ومتطلبات حياتهم ، وحسب أمزجتهم ، طائفة فريدة من «البدو المحدثين» ، طائفة جبلت على حب السفر والتنقل والترحال الدائم واستكشاف ما خفى عنهم من أنحاء العالم البعيدة والقريبة .. طائفة حظيت بحظ غير قليل من حب الاستطلاع وحب المغامرة ومن القدرة على سرعة التكيف مع الأجواء والمجتمعات المختلفة والعادات والأطعمة الغريبة ، وعلى تحمل مشقة الوحدة والعزلة أحيانا ، وأحيانا أخرى ضرورة مخالطة طوائف مختلفة تماما من الناس ذوى الأمزجة والمشارب المتباينة ..

وبديهى أن ذلك النمط من الحياة يختلف تماما عن مجرد قيام الفرد العادى بفسحة أو نزهة صيفية خارج الوطن يقضيها الإنسان غير الدبلوماسى وعائلته بعيدا عن مصر لفترة صيفية قد تصل إلى شهر أو اثنين ، يعودون بعدها لالتقاط خيط حياتهم الرتيبة دون ازعاج أو قلقلة أو تبديل ..

وقد بدأ حبى للاسفار والترحال قبل سن التاسعة بقليل حينما

اصطحبني والداى رحمهما الله فى رحلة صيفية سنة ١٩٣٥ إلى أوروبا .. كان السفر إلى أوروبا حينئذ يقتضى ركوب البحر من الاسكندرية فلم تكن قد بدأت «موضة» السفر بالطائرات بعد .. وكانت المعيشة في أوروبا سهلة رغدة وكان قضاء الصيف فى أوروبا في مقدور متوسطى الحال وعديد من الموظفين المصريين ناهيك بكبار القوم ، وكان أبى من هواة السفر إلى أوروبا مرة كل سنتين أو ثلاث للاستشفاء أو العمل أو تغيير الجو .. وقد ركبنا الباخرة الإيطالية "أوزونيا" (١) من الاسكندرية قاصدين إلى جنوا بإيطاليا ..

وقد سحرتنى الحياة على ظهر الباخرة . فمقصوراتها (كبائنها) متسعة ومريحة وكأنَّ الحياة على ظهر تلك السفينة فرح أو وليمة دائمة ، فالطعام والشراب الفاخر ومتعدد الألوان يفوق حاجة الإنسان .. ويعمد المشرفون على الباخرة إلى تشجيع المسافر على أن يتناول طعام الإفطار والغداء والعشاء بكل ما تشتهى نفسه . وما بين الإفطار والغداء يقدمون إلى المسافرين حساء ساخنا مع بعض الشطائر وذلك على ظهر الباخرة ، وما بين الغداء والعشاء يقدمون للمسافر الشاى والفطائر (الجاتوهات) فى صالونات الباخرة أو قاعات الموسيقى ، ثم هناك فرق الموسيقى تصدح أثناء الشاى

---

(١) Ausonia

وأثناء العشاء وبعده حينما تنقلب صالونات السفينة إلى « كازينو عائم» . وأما فترة بعد الشاى وقبل العشاء فهناك عرض سينمائى يومى . ناهيك عن أنواع الألعاب الرياضية والاجتماعية بما فى ذلك حمام للسباحة بحيث لا يمكن أن يضج المسافر أو يمل سواء أكان طفلا أو شابا يافعا أو كهلا ينشد الراحة .

والواقع أن «ركوب البحر» وبخاصة فى مثل هذه الظروف الفريدة متعة لا تعدلها متعة أخرى خاصة إذا ظل البحر هادئا . ولحسن الحظ كان البحر هادئا والجو صيفيا معتدلا خلال اليومين الأولين من الرحلة إلا عندما عبرت السفينة فى اليوم الثالث مضيق مسينا Messina (ما بين جزيرة صقلية الإيطالية وطرف الحذاء الإيطالى) فهناك البحر لجج مضطرب أغلب الأحيان وقد عانى منه كثرة المسافرين بعض الوقت فلزموا مقصوراتهم .. إلا أنى اكتشفت أنى امتلك قدرة خاصة على تحمل هياج البحر دون أن أشعر بما يشعر به غالبية المسافرين من غثيان أو دوار .. فرحت أجرى فرحا متنقلا ما بين صالونات السفينة وكأنى أعلن على الملأ اكتشافى لصفتى الجديدة «كملاح» بحكم المولد ! وقد قيل لى فيما بعد إن للأطفال قدرة على تحمل ثورة البحر لأن أكبادهم لم ينلها

واحد من أمراض الكبد التى تصيب الكبار بسبب كثرة ما يحشونه فى معداتهم . إلا أن تجاربي اللاحقة مع البحار الهائجة والمائجة بعد أن تقدمت بى السن أكدت صفتى كبحار أو ملاح لا يتأثر كثيرا باشتداد الموج . فما علىّ إلا أن أجارى حركة السفينة باهتزازاتها وأتمشى معها ولا أقاومها وبهذا أتفادى دوار البحر .. ومن هنا كثرت أسفارى بالبحر أثناء خدمتى الدبلوماسية .. كلما كان هناك سبيل للاختيار ما بين الباخرة والطائرة !

ومازالت ذاكرتى تحمل صورة أول منظر شاهدته فى أوروبا ، أى طرف الحذاء الإيطالى وكان ذلك ليلا .. أثناء مرور السفينة قرب بركان جزيرة سترومبولى الثائر والمنير ليلا بسبب ما تصاعد منه من حمم ولهب وأدخنة حين كانت السفينة تنساب فى المضيق على بعد أميال قليلة من البركان ..

وفى اليوم التالى كان أول ما طالعنا حينما اشرقت شمس الصباح كان ساحل إيطاليا الجنوبى الغربى بما يتخلله من خلجان وجبال خضراء حينا أو بنية داكنة اللون حينا آخر .. وكان هذا أول عهدى بمنظر الجبال أو التلال الخضراء التى تحف بشواطئ جبلية أو صخرية تنحدر من حولها الجبال فجأة إلى حافة الماء فى منظر أخاذ خلاب لا يقاوم . وظننت أن هذا المنظر أجمل وأروع ما وقعت عليه عيناى وقد أثر فىّ هذا المنظر تأثيرا مازال يلاحقنى إلى الآن

حتى بت أعتقد أن من يسكن فوق ربوة عالية تطل على البحر من عل يكون قد حقق أول أسس المتعة والسعادة !

وفى اليوم الرابع رست بنا السفينة فى ميناء جنوا أكبر موانىء إيطاليا .. ومنظر جنوا لمن يشاهده لأول مرة من البحر رائع اخاذ لا ينسى فالمدينة مبنية على عشرات من التلال الخضراء المرتفعة التى تنحدر رويدا رويدا نحو الشاطئ وقد اصطفت صفوف المنازل والعمارات بألوانها المتباينة التى تميل كلها إلى البياض أو الألوان الزاهية وبأسقفها الحمراء Les Toits Rouges فى صفوف متتالية على التلال إلى أن تنحدر نحو البحر . ومن السفينة يمكنك أن تشاهد أكثر من عشرين صفا متواليا من المنازل والعمارات ، الصف يعلو الصف التالى بدءا من مستوى الميناء إلى أعلى التلال .. والمدينة فوق هذا تضم عددا غفيرا من الكبارى الضخمة التى تشاهد من البحر والقائمة على أعمدة ضخمة والتى تحمل الطرق الموصلة ما بين التلال وما بين جميع أحياء المدينة .. وكان هذا أيضا من المناظر الأخاذة التى طبعت فى مخيلتى منذ ذلك الحين ..

ومن جنوا ركبنا القطار المتجه شمالا إلى ميلانو ومنطقة البحيرات الإيطالية وعبر جبال الألب الرائعة المناظر إلى ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا .. وكان مقصد والدى من الرحلة أصلا الاستشفاء فى كارلسباد فى تشيكوسلوفاكيا ويطلقون عليها حاليا اسم

كارلوفيفارى .. وقد نزلنا فى فندق البوب Pope الذى كان ومازال شهيرا كبيرا فخما ذا واجهة صفراء اللون أمامه حدائق فسيحة منمقة ووراءه تلال خضراء وغابات كثيفة كانت تفوح منها رائحة الخضرة الندية الزكية التى كانت جديدة علىّ مثلما كانت أغلب تجارب تلك الرحلة الشائقة ..

ومازلت اذكر أنى كنت أصحب والدى أحيانا إلى مركز الحمامات القريب من الفندق وشاهدت كيف كانوا يعالجون السمنة وأمراض الكبد والمعدة والمرارة وضغط الدم وغيرها والمتفرعة أحيانا كثيرا من تلك السمنة ، بشرب المياه المعدنية المتدفقة من النافورات فى تلك «الحمامات» Baden وكان الرجال والنساء يحمل كل منهم كوبا خاصا به طويلا ضيقا (مبططا) مثل حجم علبتى سجائر سويا وللكوب فم صغير ملتو (بزبوز) وكان على المريض أن يشرب من تلك المياه على الأقل ثلاثة أو أربعة أقداح يوميا ان لم يكن أكثر حسبما يرى الأطباء المعالجون الذين ينتمون إلى المركز .

ومازلت أحمل فى مخيلتى صورة هؤلاء الرجال والنساء .. كانوا جميعا يميلون إلى البدانة وقد حمل كل منهم «كرشا» منتفخا أمامه لم يستطع اخفاءه صديرى البذلة ولا كاتينة (سلسلة) الساعة الذهبية العريضة . وكانت نساء ذلك الجيل أيضا يملن إلى السمنة بصفة عامة .. ومازالت النساء الألمانيات وكثير من نساء وسط أوروبا إلى

يومنا هذا يملن إلى البدانة بالمثل .. وكن يلبسن قبعات الصباح كما جرت العادة فى ذلك الحين .. وكانت حمامات الطين الساخن فى مركز العلاج والمياه المعدنية والتدليك وسيلة القادرين لاصلاح ما أفسدته كثرة الطعام وقلة الحركة والرياضة . كما كانت محطات المياه المعدنية (Baden) فى كل أوروبا منتجعا اجتماعيا يؤمه علية القوم ومن أراد التشبه بهم أو الاختلاط معهم .. وباسم الاستشفاء أقامت أوروبا مراكز أو منتديات اجتماعية سياحية علاجية كثيرة لصالح اصحاب النقود الكثيرة وأوقات الفراغ والباحثين عن الأنيس أو الرفيق أو الصديق في الكازينوهات الملحقة بتلك المجتمعات .

كانت اقامتنا فى فندق البوب سهلة مريحة وإن كانت لا تقارن باقامتى على سطح الباخرة من حيث امكانيات التسلية لطفل صغير.. ولكنها تركت فيّ حتى اليوم عشق الخبز الأسود Schwarz Brod المصنوع من دقيق الشوفان Ryc الموجود فى أوروبا وأمريكا أى فى الأماكن الباردة . ولهذا الخبز مذاق طيب يميل إلى المزازة .. وقد اكتشفت أن أكله طيب جدا وبخاصة مع قليل من الزبد ومع مربب (مربة) المشمش .

ومن كارلسباد Karlsbad ركبنا القطار إلى برلين ثم فرانكفورت.. ومازلت أحمل فى ذاكرتي منظر شارع انتردن ليندن Unter den Linden الشهير فى برلين ولم يكن يقل شهرة عن

طريق الشانزليزيه فى باريس .. وكان فى ذلك الحين يعتبر قلب ألمانيا كلها ، بل قلب الشعوب الناطقة بالألمانية كلها ، جمالا وثقافة ومدنية وجاها .. وكان عن حق يعتبر واحدا من أفخم وارقى شوارع أوروبا بل العالم كله . لكنى أذكر أيضا أن الألمان كانوا يعملون فى أسفل أنتردن لندن وغيره من الشوارع فى قلب برلين فى منتصف الليل فى حفر انفاق قيل لنا حينئذ إنها انفاق لمترو برلين .. لكن يبدو أن هتلر كان وقتها قد بدأ استعداداته للحرب القادمة بعد سنوات أربع لا أكثر !!

كذلك مما استلفت نظرى وأنا حدث صغير شدة اقبال الألمان على العمل وحبهم الشديد للنظام وغيرتهم الوطنية الشهيرة بل تعصب كل منهم لولايته أو مدينته ، سأل والدى ذات مرة صبيا لم يتجاوز الثالثة عشرة يعمل فى خدمة أحد مصاعد الفندق فى انتردن لندن من أى مكان أتى من ألمانيا فأجابه الشاب بافتخار ومازالت كلماته ترن فى أذنى : Ich bin ein Berliner أنا واحد من أفراد برلين (أنا من برلين !) وقد ردد المرحوم الرئيس كيندى هذه الكلمات فى إحدى خطبه الحماسية عند زيارته لبرلين الغربية ! قبل توحيد الألمانيتين .

سرعان ما عوضنى الله خيرا عن مللى وضجرى فى كارلسباد وبرلين حينما ذهبنا إلى فرانكفورت ومنها نظم لنا والدى رحلة نهرية

جميلة على نهر الراين من ماينز إلى كوبلنز Mainz - Koblenz وكولون Köln وحتى منذ سنة ١٩٣٥ كانت هناك سفن كبيرة جميلة للنزهة على نهر الراين الذى يعتبر واحدا من أجمل أنهار العالم ، والسفن السياحية التى تجوب النهر قد تحمل كل واحدة منها أكثر من مائتى راكب . ويمكن الآن ركوبها لمسافات مختلفة قد تأخذك من بحر الشمال إلى البحر الأسود مرورا بنهر الراين فنهر الدانوب .. ولكن ذاكرتى تحمل ذكرى المسافة ما بين ماينز وكوبلنز ذهابا وإيابا، ومازالت مخيلتى تحمل صورة الركاب الألمان يسمرون ويتضاحكون ويغنون ويأكلون ويشربون البيرة ، والمنطقة غنية جدا بأنواع البيرة (الجعة) الألمانية الطيبة وبالانبذة البيضاء التى تشتهر بها منطقة راين لاند .

وقد عدت فيما بعد إلى ركوب مثل تلك السفينة فى سنوات لاحقة فى نفس المنطقة لكى أعيد إلى ذهنى صور ومناظر القصور والحصون التاريخية المقامة فوق التلال الخضراء التى تطل على نهر الراين فى هذه المنطقة . وما من شك أن نفس التجربة ونفس المناظر تعنى أشياء مختلفة تماما بالنسبة للحدث الصغير عنها بالنسبة للدبلوماسى الشاب . فان رحلتى الثانية على نفس نوع السفينة وعلى نفس النهر فى نفس البقعة كانت أغنى كثيرا بما حملته من تداعيات وصور وأفكار وذكريات وقراءات لاحقة لابد أن

يبرز فيها ويطغى عليها اسم واجنر Wagner وأوبرات وموسيقى واجنر واسماء سيجفريد وبارسيفال وتانهاوزر ودى فالكيرى ! وكذلك هتلر وبرخستجادن (عش النسر المقام فوق الجبال فى مناطق مشابهة)!

المهم ان رحلتى إلى أوروبا وأنا حدث صغير جعلتنى أحس مبكرا بلذة السفر ومعيشة البواخر والفنادق وألتهم جمال مدن أوروبا وحسن نظامها . وحدث لى ما يحدث عادة لمن فى هذه السن المبكرة حين يعودون من أمريكا أو أوروبا إلى مدنهم فى شتى أنحاء العالم الثالث فينالهم تأثير تلك «الصدمة الحضارية» ويسألون ذويهم بلهفة وقلق «متى ستتاح لنا فرصة العودة إلى أوروبا أو أمريكا مرة ثانية ؟» .. ولابد أن يعى الأهل هذا الدرس فإنهم حينما يصحبون أولادهم الصغار إلى أوروبا وأمريكا سواء للاقامة فترة من الزمن أو حتى للزيارة فهم إنما يشكلون تفكير واتجاهات خطط أولادهم للمستقبل حتى دون أن يشعر الأهل أو يشعر الأولاد ..

ولست أشك فى أن ذكرى رحلتى إلى أوروبا وأنا فى هذه السن المبكرة قد هيأتنى ذهنيا بل جذبتنى بشدة لحياة السلك الدبلوماسى ولكثرة الاسفار والترحال . فانى اذكر جيدا أنى ومازلت فى مراحل الدراسة الثانوية كنت ألهو - كما يحدث لنا كلنا كثيرا - أثناء أحلام اليقظة الجميلة ، برسم وتخطيط دوائر ومربعات وصور وأسماء

بالقلم الرصاص ، كانت تنتهى فى كثير من الأحيان بتوقيعى لاسمى وقد سبقه لقب « السفير» وأحيانا مع تخصيص صفة «سفير مصر لدى بلاط سان جيمس (فى بريطانيا)» .. وكان منصب سفير مصر فى لندن فى تلك السنوات (أى قبل الخمسينات) هو أكثر ما يصبو إليه رجل السلك الدبلوماسى فقد كانت لندن عاصمة العالم قبل أن تزاحمها فيه واشنطن ، ولم تبدأ أهمية واشنطن سياسيا وعالميا إلا بعد الحرب العالمية الثانية ..

وبدأت فكرة الالتحاق بالسلك الدبلوماسى تختمر وتتأصل فى نفسى حتى استقر بى الرأى نهائيا على ذلك حتى قبل التحاقى بالجامعة . وكان دخول السلك الدبلوماسى فى تلك الأيام يستلزم – عادة – التخرج فى احدى كليتين ، الحقوق أو التجارة كما جرت العادة فهاتان الكليتان تدرسان المواد التى ستكون موضوع اختبار الدخول الذى تشترطه لوائح وزارة الخارجية ، إلا أنى فضلت الالتحاق بكلية الآداب قسم الأدب الانجليزى تشبها بأستاذى المرحوم دكتور رشاد رشدى الذى كان لى حظ التتلمذ على يديه فى مراحل دراستى الثانوية فى مدرسة مصر الجديدة الثانوية حيث كان رشاد رشدى يدرس اللغة الانجليزية بعد عودته من بعثته فى بريطانيا . وكان يعامل تلاميذه بطريقة جديدة تماما ومختلفة عما اعتاده التلاميذ المصريون من اساتذتهم . أى أنه كان يطبق علينا

ما رآه وعايشه في اكستر بانجلترا فكان يدعونا إلى حفلات شاى في منزله في الزيتون وكان يسمعنا موسيقاه ويقرأ علينا مقتطفات من الأدب الانجليزى وكان يقرضنا كتبا من مكتبته الخاصة وكان كل هذا جديدا علينا وعلى مصر . وقد تأثرت بشخصيته واستاذيته إلى درجة أن قررت أن احتذى حذوه وأدرس الأدب الانجليزى تشبها برشاد رشدى من ناحية ولما اظهرته استاذيته فيّ من استعداد فطرى لتعلم اللغات الاجنبية .. وهذا مثال حى لمدى امكانيات تأثير الاساتذة على طلبتهم إن حسنا أو سيئا ، ان حبا أو بغضا .

وقد ساعدنى الحظ على تنفيذ أحلام يقظتى كلها كما رسمتها فقد التحقت بكلية الآداب قسم الأدب الانجليزى بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) سنة ١٩٤٣ وتخرجت فيها في يوليو ١٩٤٧ .

وكانت جائزة تخرجى في سن الحادية والعشرين هى قبول والدى لإيفادى في رحلة جامعية نظمتها كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول للاساتذة والطلبة في صيف ١٩٤٧ إلى أسبانيا . وكانت هذه «القشة التى قصمت ظهر البعير» على رأى المثل ، أو القطرة التى جعلت الكوب يفيض بما فيه من ماء . فقد كان تأثير هذه الرحلة حاسما في انهاء أى تردد بشأن تقريرى اختيار حياة السفر والترحال . كما كان لها أثر لا ينمحى - حتى اليوم - في اجتذابى إلى حب اسبانيا والشعب الاسبانى واللغة الاسبانية والموسيقى

الاسبانية سواء أكانت فلامنكو أو ثارثويلا (١) أو كلاسيكية طالما كانت موسيقى اسبانية تقليدية ، حبا مازال يملأ جوانحى حتى هذه الساعة وقد غلب على حبى لأى ثقافة أجنبية أخرى لمدة طويلة لاحقة.. هل كان هذا تأثير السن فحسب عملا بالمثل الشائع «التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ؟» أم هو خليط من هذا ومن تأثرى بعظمة ما خلّده العرب من ثقافة وحضارة وآثار بالغة الجمال والرقة فى اسبانيا وبخاصة فى الأندلس وبافتخار الأسبان بانتسابهم إلى أمجاد هذه الحضارة الأندلسية العربية التى ورثوها عن العرب فى بلادهم ؟

وبديهى أن ادراكى وتفهمى للمسات ولمعانى الجمال والابداع فى زيارتى الثانية لاوروبا لا يعادله تأثرى بزيارتى الأولى لها مع والدى، سوى أن زيارتى الأولى كانت أول ما تفتحت عليه عيناى من هذه الدنيا الجديدة الفاتنة ، المنظمة والنظيفة والجميلة ، أما زيارتى لأسبانيا فقد حققت تعميق إحساسى بروعة وجمال الطبيعة وبعظمة الخالق وابداع وتفنن الإنسان . فالطبيعة فى اسبانيا متنوعة متجددة ورائعة الجمال ، وما خلّفه الإنسان - العربى والأسبانى

---

(١) الموسيقى الفلامنكو هى التى تصحب الرقص الأسبانى التقليدى الشهير أما الثارثويلا فهى موسيقى اوبريتات يصحبها الغناء المسرحى وأصل الكلمة يرجع إلى «الثرثرجة» بالعربية !!

Flamenco - Zarzuela

بها، من آيات الجمال والإبداع اثار شهيتى إلى الاستزادة من هذه المتعة الذهنية والحسية الجديدة التى تفتحت أمام ناظرى وأمام مخيلتى .

بعد أن حملتنا السفينة المصرية إلى ميناء مرسيليا بفرنسا ركبنا قطارا فرنسيا صوب الحدود الاسبانية ووصلنا مدينة ناربون الفرنسية فى المساء . ولم تكن مقصدنا ولم يكن لها مكان فى رحلتنا سوى أنها معبر وملتقى خطوط السكك الحديدية المتجهة من مرسيليا غربا ومن باريس وليون جنوبا صوب الحدود الاسبانية . إلا أننا تذكرنا أن ناربون قريبة جدا من بواتيير [1] التى وصلتها جيوش العرب فى محاولتهم الزحف شمالا من اسبانيا . وفى بواتيير صدهم شارلمان وأوقف المد العربى . ولم يصل قطار باريس إلى ناربون إلا بعد منتصف الليل بوقت ليس بقصير امضيناه فى السمر والمرح فى محطة القطار . ولما كنا فى رحلة جامعية فكان طبيعيا أن نستقل القطار فى عربات الدرجة الثانية ودون عربات نوم بطبيعة الحال . لكن الشباب وفرحة اللقاء مع الاخوان والتطلع إلى بهجة الرحلة المستقبلة كان كفيلا بتمتعنا التام بمقاعد الدرجة الثانية بل والثالثة إذا لزم الأمر . وهو قطار فرنسى على أى حال أى أنه جمع ما بين الراحة والنظافة والاناقة فى غير تبرج .

ولما كان الصباح طالع عيوننا منظر من أجمل مناظر الدنيا دون

---

(١) Poitiers

منازع . فقد كان القطار يجتاز بنا قمم جبال البيرينيز (أى البرانس كما اسماها العرب لان قممها الكثيرة المدببة تشبه رؤوسا تغطيها البرانس التى كانت شائعة بين أهل المغرب والأندلس) . وكنا نعلو واحدة من تلك القمم التى تشرف من علٍ بل من ارتفاع شاهق على شريط الساحل الفرنسى الاسبانى لمسافة عشرات الكيلو مترات شمالا وجنوبا وعلى اديم البحر الأبيض صافى الزرقة رائع الجمال وهو يداعب شاطئ اسبانيا الشمالى الشرقى الذى تحف به التلال والربا الخضراء المكسوة بالغابات ذات الخضرة الداكنة . واجتاز القطار القمم التى تشرف على مدينة سيربير Cerbére آخر مدن فرنسا والتى تواجه مدينة بوربو Porbou الأسبانية وهبط بنا رويدا رويدا إلى تلك المدينة التى هى أول مدينة يقابلها المسافر فى اسبانيا إذا ما دخلها من ذلك الشريط الفرنسى الساحلى .

وقد ذكّرنى ذلك المنظر الرائع فوق قمم البيرينيز بوصف أمير الشعراء أحمد شوقى للطبيعة فى مناسبة شديدة الشبه وهو يجتاز جبال التيرول فى النمسا جالسا فى القطار هو الآخر

حين قال :

تلك الطبيـــعة قف بنا يا ســارى
حـتى أريك بديع صـنع البـارى
الأرض حـولك والســماء انفضـتا
لروائـــــع الآيـــــات والآثـــــار

كشف الغطاء عن التيرول فاشرقت

منـــه الطبيعـة غير ذات ســـتار

شبهــتها بلقيس فـــوق ســـريرها

فى نضـــرة ومـعـــالم وجـــوارى

أو بابــن داود وواســـع ملـــكه

ومعـــالم للـــعـز فيــــه كبـــار

من شــك فيــه فنظرة فى صــنعه

تمحـــو اثيـم الشــــك والانــكار

وهناك فى بوربو كان فى انتظارنا وفد يضم البعثة الاسبانية التى كلفت باستقبال الجامعيين المصريين Los Universitarios Egipcios ومرافقتنا طوال أيام الزيارة في أسبانيا والتى كان مقررا لها ثلاثة أسابيع . وكانت بعثة الاستقبال تضم اثنين من شباب دبلوماسى اسبانيا واحد منهم على الأقل كان يتكلم العربية أذكر ان اسمه كان سنيور البرتو باسكوال وقد تابعت نشاطه بعد ذلك وعلمت انه وصل إلى رتبة سفير اسبانيا فى عدة عواصم منها الرباط وجاكارتا . وإلى جانبه كان يوجد أيضا ثلاثة من الطلبة الأسبان فى جامعتى مدريد وبرشلونة «والمتبحرين» فى دراسات اللغة العربية والآداب العربية فضلا عن عدد من موظفى الجمارك

الذين سهلوا مرور امتعتنا ونقلها إلى حافلة (أوتوبيس) اسبانية خصصت لرحلتنا وظلت معنا إلى نهاية المطاف مع سائقها الاسبانى .

ومازلت اذكر بحنين وشوق واحدا من طلبة جامعة برشلونة الذى ظل مرافقا لنا طول الرحلة وكان يدرس اللغة العربية وآدابها فى تلك الجامعة وكان اسمه رامون فوستى دى آرا وقدم نفسه إلينا على أن اسمه المختار هو رامون «النجار» (كذا .. بالعربية) . ويبدو أن كل طالب اسبانى كان يدرس العربية كان يشجع على أن يختار كنية (اسم كناية) عربية - مثلما كانت عادة العرب قديما - فاختار هو كنية النجار ! وكم كانت دهشته عندما علم أننا نحن المصريين لم نكن نتمثل بمثل العرب القدامى فى اختيار الكنية ! لكنه كان شابا رقيقا وديعا وسهل المعشر وكان يتيم الأب ويقيم مع والدته فى برشلونة أى أنه كان من مقاطعة كاتالونيا (قطالونية) ولهجتها أو قل لغة أهلها تخالف كثيرا لغة كاستيل El Castillano لغة أهل مدريد والأندلس ، اللغة الرسمية لاسبانيا كلها . لكنه كان يتكلم الفرنسية أيضا وقليلا من الانجليزية .

بيد أن الجميع سرعان ما أدركوا أن إجادة المصريين للحديث بالانجليزية أو الفرنسية تفوق كثيرا إجادة اصدقائنا الاسبان للغة العربية مهما كانوا متقدمين فى دراستها . فكانت أحاديثنا المشتركة مع مضيفينا الأسبان تدور إما بالانجليزية التى يفضلها

غالبية المصريين أو بالفرنسية وفقا لدرجة اجادة المصريين أو الأسبان لهذه اللغة أو تلك .. وكنت خريجا لكلية الآداب ، ومتخصصا فى الانجليزية .. كما كنت أحسن التحدث بالفرنسية التى كانت تدرس فى ذلك الحين ولمدة السنوات الأربع فى كلية الآداب حتى فى قسم اللغة الانجليزية .. وكانت دراسة اللغات فى مصر فى تلك الأيام محل الاهتمام الجدى وكانت تتم على أيدى مدرسين من ابناء اللغة الاجنبية ذاتها .. ومن هنا فقد توثقت بى العلاقات سريعا مع الجامعيين الاسبان ودارت بيننا احاديث طويلة وطريفة طوال أمسيات الرحلة ..

وكان معنا ضمن الاساتذة المرافقين أو المشرفين على الرحلة الاساتذة والدكاترة (رحم الله من توفى منهم رحمة واسعة) الشرقاوى رئيس قسم الجغرافيا بكلية الآداب ، وخلف الله استاذ اللغة العربية بالكلية ، الاستاذ الدكتور أمين الخولى وزوجته عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» ، والدكتور أحمد جيرة ، طبيب الأسنان بالجامعة ، والأستاذ عبد الخالق مسجل كلية الآداب فى ذلك الحين . وكما نعلم كلنا فقد سبق للدكتور الخولى أن أمضى عدة سنوات فى إيطاليا وكان يجيد الحديث بالإيطالية ومن ثم كان يستمع إلى الأسبانية ثم يجيب عنها بالإيطالية ويخطب بها أيضا فى المناسبات الرسمية فقد كانت لغته الأجنبية الأولى كما كانت مفهومة للأسبان إلى حد ما ..

ومن هنا ظهر هناك نوع من اللبس والفكاهة بسبب اختلاف اللغتين الاسبانية والإيطالية فكان اسمنا وفقا للإيطاليين Egizziani أى المصريين وتنطق بالإيطالية اجيتسيانى لكن وفقا للنطق الأسبانى كان الأسبان ينطقون نفس الكلمة بالخاء بدلا من تعطيش الجيم أى «اخبتيانى» وكانوا ينطقون كلمة مصر Egipto اخيبتو وكنا نحن «الاخبتيانى» وكان هذا مثارا لكثير من ضحك وفكاهة المصريين بسبب وقع الكلمتين على اسماعنا .

أما المرحوم دكتور جيرة فكان يكتب اسمه بالحروف اللاتينية هكذا Gira وقد أدى ذلك إلى أن ينطق الاسبان اسمه حسب عادتهم هكذا دكتور «خيرا» .. ورغم محاولاته فى البداية اصلاح ما افسدته الألف باء الاسبانية فقد ظل اسمه إلى نهاية الرحلة «خيرا» وكان رحمه الله خفيف الظل حسن المعشر فكان هو نفسه أول من شارك الأسبان فى «جر شكله» بترديد كلمة خيرا على اسماعه . كما كان رحمه الله قائد المجموعة المصرية كلها فى تلقيننا وقيادتنا فى الأغانى الجماعية الترفيهية الخفيفة .

ولم نمكث فى پوربو فسرعان ما نظمنا أساتذتنا المشرفون على الرحلة داخل الحافلة : الزميلات الطالبات الجامعيات فى الصفوف الأولى ثم الاساتذة الذين احتلوا الصفوف التالية لهن ، ثم بقية «المهرجين» أى الطلبة المصريين والاسبان ومعنا مضيفونا من الوفد

الاسباني . وسرعان ما جمعتنا روح الألفة وحماسة الشباب وفرحة لقاء الأصدقاء الجدد والتطلع بلهفة إلى رحلة سعيدة فى احاديث ونكات وضحكات ولهو برئ ظل معنا طوال أيام وليالى الرحلة (فكثيرا ما كانت تسير بنا الحافلة من مدينة لأخرى اثناء الليل) إلا فى السويعات التى يكون قد انهكنا فيها التعب وكثرة الكلام والضحك وغلبنا النعاس داخل الحافلة .

وأمضينا ليلتنا الأولى فى مدينة فيجيراس الصغيرة Figueras القريبة من پوربو والواقعة فى الطريق إلى برشلونة ثم ثاراجوثا ثم قلعة أيوب Calat ayub ثم مدريد .

وقد أعجبنا نحن المصريين كثيرا بنظافة واناقة هذه المدينة الصغيرة فيجيراس بل قل إنها قرية كبيرة .. اعجبنا إيما اعجاب بنظافة شوارعها المسفلته كلها وبحوانيتها الأنيقة وبالنظافة برغم بساطة الفندق الذى نزلنا فيه .. ولا شك أن زملائى من المصريين تمنوا مثلما تمنيت أن نرى اليوم الذى تصبح فيه قرى مصر بنفس مستوى النظافة والأناقة البسيطة .. لكنا وجدنا بعد ذلك انها كانت سمات مشتركة مع كل القرى أو المدن الصغيرة فى أوروبا الغربية كلها ..

وفى فيجيراس وجدت فى أحد المحال الصغيرة قميصا سماوى اللون به مربعات صغيرة بيضاء اعجبنى كثيرا لونه وسعره الرخيص

وملمسه فقد ظننته حريرا ولعله كان حريرا صناعيا وكان هذا أول عهدنا بالحرائر الصناعية . وصرت اختال به ثم سرعان ما ضممت إليه فى مدريد جاكتة «سبور» صيفية دون ياقة وبها صف من الأزرار الأمامية يطلق عليها الأسبان Una Americana (١) .

وسارت بنا الحافلة . وقد دهشنا نحن المصريين لما اكتشفناه لأول مرة بشأن طريقة معيشة الأسبان فى فصل الصيف . فقد كانت الحافلة تطوى بنا المسافات الطويلة ما بين المدن والقرى ليلا ، وكثر دخولنا وخروجنا من قرى ومدن صغيرة فى منتصف الليل أى بعد الثانية صباحا ، هذا ما حدث لنا عندما دخلنا مدينة قلعة أيوب Calat ayub فقد هالنا ما وجدناه من استمرار جميع مظاهر الحياة والنشاط وكثرة الأنوار فى هذه المدينة الصغيرة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .. جميع المقاهى والمطاعم مزدحمة على آخرها . النساء والأطفال يتنزهون فى الشوارع وكأنهم فى عز الظهيرة .. وعجبنا لأمر هذا الشعب الأسبانى .. ثم اكتشفنا شيئا آخر .. فالحياة والنشاط الاقتصادى يبدآن حوالى التاسعة صباحا ويستمران إلى الواحدة أو الواحدة والنصف ظهرا .. ثم تعطل كل الحركة تماما حتى الرابعة أو الخامسة مساء حين تستأنف ولا تنتهى حتى الساعات المتأخرة من الليل أى أن الأسبان وبخاصة فى

---

(١) يطلق الأسبان كلمة امير كان على الجاكتات .

النصف الجنوبى من اسبانيا ومناطق أخرى حيث تشتد الحرارة صيفا يعيشون أغلب حياتهم ليلا .. ويتناولون طعام الغداء فى الثانية أو الثانية والنصف ظهرا ثم يمارسون «رياضة» النوم بعد الغداء (القيلولة) La Siesta لعدة ساعات حين تخلو الطرقات تماما من الحركة ومظاهر النشاط ، ثم حين تغرب الشمس يهرعون للخارج ، لتناول بعض المشروبات والمرطبات فى المقاهى أو الكازينوهات ابتداء من السابعة مساء ، ساعة الفيرموث La Hora del Ver-muth أما العشاء فلا يمكن التفكير فيه قبل العاشرة مساء أو حتى الحادية عشرة مساء . وإذا ما ذهب اجنبى إلى أحد المطاعم قبل العاشرة مساء لخيل إليه أنه فى عطلة أو أنه مقفل . اما قبل العشاء فهناك ظاهرة اسبانية أخرى تصحب «ساعة الفيرموث» واسمها Las Tapas أى تناول بعض المشهيات أو قل اشبه شىء «بالمزات» وبخاصة نتاج البحر كالسردين الصغير المشوى أو الجمبرى أو القواقع البحرية وخلافه مع بعض النبيذ الذى تشتهر به اسبانيا أو بعض المشروبات الكحولية الأخرى . ولا يخلو شارع فى مدينة اسبانية من مقهى أو حانة تحمل كلمات Tapas أو Bocadillos (مزات) وهو ما يتناوله الأسبان وقوفا حول البار اثناء تبادل الاحاديث أو الفكاهة بأصوات تكاد تقارب ارتفاع اصوات المصريين !

أما الرياضتان الوطنيتان المحببتان للاسبان فهما الخاى ألاى Jai Alai أو Fronto'n وأصلها فى شمال اسبانيا أى منطقة الباسك وهى لعبة كرة سريعة جدا أقرب إلى الاسكواش لكن المضرب يلبس في اليد ولا يزيد كثيرا على حجم الكف . أما فى بقية أنحاء أسبانيا «فالرياضة» الشعبية الأولى مازالت مشاهدة مصارعة الثيران تليها مباريات كرة القدم .. أما مصارعة الثيران فلها أهلها وطقوسها وتقاليدها القديمة وموسيقاها الخاصة واحتفالاتها الخاصة .. وهى رياضة (ان امكن ان نسميها بذلك) تقوم على شجاعة المصارع ورباطة جأشه وخفة حركته وطريقة ادائه التى يجب أن تتميز بالكبرياء والخيلاء إلى جانب الشجاعة وخفة الحركة . وكانت ومازالت أهم وسيلة لكسر الحواجز الاجتماعية وتسلق درجات المجتمع سريعا إلى الثراء والطبقات العليا لمن ولدوا أصلا أسفل الدرك . فالاسبان يقدسون ابطال مصارعة الثيران ، ورياضة مصارعة الثيران تختلف فى اسبانيا عنها فى البرتغال (رغم أن كليهما ظل حوالى سبعمائة سنة تحت الحكم العربى) ففى البرتغال لا تنتهى المصارعة بقتل الثيران مثلما يحدث فى اسبانيا.. كذلك فى اسبانيا يحتفلون بعيد القديس فيرمين San Fermin فى مدينة بامبلونا فى منطقة الباسك بتخريج فئات جديدة من الثيران الصالحة للمصارعة باطلاقها دفعة واحدة فى شوارع المدينة فتعدو

الثيران وراء الشبان والشابات الذين يجرون أمام الثيران ويحفزونها على متابعتهم أو مطاردتهم فى شوارع المدينة . كل ذلك والهرج والمرج والضحك والفكاهة على أفواه العدائين والمشاهدين لا يقطعها إلا تمكن ثور هائج وسريع من اللحاق بأحد العدائين وطرحه أرضا وغرس قرونه الحادة فى جسده . وفى سنة ١٩٨٨ قتلت الثيران فى احتفالات بامبلونا اثنين من هؤلاء الشبان وجرحت عددا آخر .

لما وصلنا مدريد عاصمة اسبانيا احتفت بنا وزارتا الخارجية والسياحة الاسبانيتان حفاوة كبيرة حقا فقد كان وفد الجامعيين المصريين أول وفد جامعى مصرى يزور اسبانيا بل لعلنا كنا من أوائل الوفود الأجنبية التى زارت اسبانيا بعد الحرب . فقد كانت أسبانيا فى أوائل حكم الجنرال فرانكو دولة فاشية محافظة وشبه مغلقة أو شبه معزولة عن العالم الغربى والشرقى على حد سواء . فقد كان نظام فرانكو غير محبب إلى الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين إذ قام بعد حرب أهلية طاحنة ٣٦ - ١٩٣٩ على اكتاف وبمساعدة هتلر وموسولينى إبان تلك الحرب الأهلية حتى تمكن فرانكو من هزيمة الجمهوريين الاشتراكيين الاسبان الذين كان يساعدهم السوفييت .. ناهيك عن أن فرانكو كان قد رفض الانضمام إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية وظل على الحياد وإن كان حياده متسما بالتعاطف الواضح مع هتلر وموسولينى

اللذين ساعداه فى الحرب الأهلية الاسبانية .. ومن هنا كان ترحيب السلطات الأسبانية بتوسيع وتعميق اتصالاتها مع العالم العربى حديث الاستقلال بعد الحرب .. فهو عالم جديد فتى وإن كان عالما محافظا هو الآخر ومن ثم كان معقدا كثيرا من الآمال . زد على ذلك ما لمسناه حقا من تعاطف الشعب الأسبانى مع العرب ومن اعجابهم واعترافهم بفضل الحضارة العربية على تطوير وتنشيط الحضارة الأسبانية [1] . وقد سمعنا فى رحلتنا هذه كثيرا من الأسبان يفخرون بانحدارهم من أصول عربية عاشت فى الأندلس كما سمعنا منهم أن عدد الكلمات العربية أو المشتقة من العربية التى مازالت تستعمل فى اللغة الأسبانية قد لا يقل عن عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف كلمة وتوجد معاجم أسبانية كثيرة مخصصة لدراسة الكلمات المشتقة من العربية فى اللغة الأسبانية .

وقد استضافنا الأسبان فى أغلب المدن الكبيرة التى زرناها فى المدن الجامعية لتلك المدن وكنا نتناول وجباتنا فى المطاعم الجامعية،

---

(١) بعد هزيمة جيوش الدول العربية سنة ١٩٦٧ ورفض العرب السلام والمفاوضات والاعتراف باسرائيل وقف مندوب اسبانيا فى الأمم المتحدة فى خطبة عصماء فأشاد بفضل الحضارة العربية على العالم الغربى ونادى دول العالم بتفهم موقف العرب من اسرائيل وحليفاتها من الدول الغربية قائلا : إن أى حل للمشكلة يجب أن يأخذ فى اعتباره أمجاد العرب وتاريخهم وطريقة تفكيرهم وكبرياءهم الجريحة وإحساسهم بالظلم وحاجتهم للعدالة ..

وان كانت هذه مغلقة صيفا بسبب العطلة الصيفية كما حدث فعلا فقد ظلت مفتوحة خصيصا من أجلنا ومن أجل خدمتنا واطعامنا . والحق ان كل شيء كان محببا إلى النفس فيما عدا أن بعضنا لم يقدر أن يستسيغ ما جرى عليه الأسبان من طهى كثير من ألوان الطعام "كالاومليت" واللحوم والأرز والخضراوات بزيت الزيتون الذى تشتهر اسبانيا بانتاجه بكثرة ووفرة عظيمة . فهو يترك - إذا ما استعمل فى الطهى - طعما معينا ورائحة نفاذة فى اجواء المطاعم لم نعتدها نحن فى مصر . ومازالت كثير من الأماكن الريفية فى اسبانيا تجرى على استعمال زيت الزيتون فى طهى الطعام لاعتدال سعره نسبيا ووفقا للذوق الاسبانى الذى اعتاده تماما . إلا أن المطاعم والفنادق الكبرى حاليا اقلعت عن تلك العادة وبدأت منذ زمن فى طهى الأطعمة بالسمن الصناعى وذلك تماشيا مع ذوق السائحين الاجانب بعد القفزة الهائلة التى قفزتها السياحة فى اسبانيا منذ حقبتين أو أكثر . وفى سنة ١٩٨٧ استقبلت اسبانيا خمسة وخمسين مليون سائح اجنبى فى حين أن الشعب الاسبانى بأكمله لم يتجاوز تسعة وثلاثين مليونا !

ويجمع الأسبان على أن لهذه الظاهرة الهامة فوائدها الاقتصادية بل والسياسية وان كانت لها مضارها الاجتماعية الواضحة . فقد كان لتكرار زيارة واقامة ملايين من السائحين من

أهل اسكندناوة والمانيا وبريطانيا وفرنسا وهكذا تأثير أى تأثير على تغيير عادات واخلاق الشعب الاسبانى الذى اشتهر اصلا بالميل إلى التدين والمحافظة .

أما فى بقية المدن التى قمنا بزيارتها أو المبيت فيها فكان مبيتنا فى فنادق صغيرة متواضعة ونظيفة وكان مأكلنا فى مطاعم كان لنا حق اختيار الوجبات فيها كل حسب ذوقه وفى كثير من الاحيان كان مبيتنا داخل الحافلة نفسها وهى تطوى بنا الطريق الطويل من مدينة لأخرى فالمسافات فى أسبانيا ما بين شمالها وجنوبها وشرقها وغربها شاسعة حقا .. ولم تكن الطرق السريعة المزدوجة قد عرفت بعد فى كل أوروبا ناهيك باسبانيا ..

بعد وصولنا إلى مدريد كما سبقت الاشارة اقامت لنا السلطات الأسبانية حفلا لاستقبال البعثة الجامعية المصرية دعت إليه لفيفا من رجال الخارجية الاسبانية واساتذة الجامعات والمستشرقين ورجال «المفوضية» المصرية فى مدريد (فقد كانت مازالت مفوضية لم ترفع إلى سفارة بعد وكان يرأسها قائم بالأعمال بدرجة سكرتير أول) وكان القائم بالأعمال فى المفوضية حينئذ (المرحوم السفير) الأستاذ محمد عبد الشافى اللبان (رحمه الله وكان من أقدم وألمع رجال السلك الدبلوماسى المصرى) وكان يعاون سيادته ملحق

دبلوماسى شاب هو (المرحوم) الاستاذ عبد المنعم الطحاوى (أصبح سفيرا فيما بعد) .. كانت فرحة الاسبان بنا واضحة وتعادل فرحتنا بهم وبكرم ضيافتهم وحسن وفادتهم .. كما كانت فرحة رجال مفوضيتنا بنا كبيرة فإن المصريين الذين كانوا يسافرون للخارج أو يزورون اسبانيا سنة ١٩٤٧ كانوا قليلين جدا .

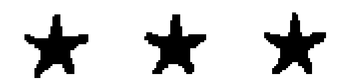
ومن هنا أقام لنا القائم بالأعمال المصرى أيضا حفل استقبال ردا على احتفاء الأسبان بنا ودار الحديث بينى وبين المرحوم الأخ عبد المنعم الطحاوى ملحق السفارة الذى رافق البعثة أيضا فى جزء من تجوالها . سألنى ذات مرة اما وقد تخرجت فى الجامعة فما هى خططك للمستقبل ؟! واجبته بالطبع انى أميل كثيرا إلى التقدم لامتحان مسابقة وزارة الخارجية الذى تعقده كل سنة لاختيار الملحقين الجدد . وأذكر جيدا اجابته حرفيا فقد قال لى «لا يكفى أن تتكلم الانجليزية أو الفرنسية كاحد أبنائها لكن يجب أن تنجح فى الامتحان التحريرى فى كافة المواد الأخرى ثم الامتحان الشفوى وألا تنسى أيضا أن يكون لديك الواسطة» .. وقد شكرت له نصيحته التى افادتنى فى شحذ همتى فى استذكار المواد الجديدة بالنسبة لى والاستعداد للاختبارين التحريرى والشفوى ..

فى اثناء الاحتفالات التى كان مضيفونا الأسبان يقيمونها لنا فى شتى العواصم التى زرناها كان بعض الأسبان يتبادلون لعب

البيانو أوالقيثارة La Guitarra أو الغناء وأداء بعض الأغانى الشعبية الشائعة كمجموعة.. ومع الأسف فقد تكرر مشهد طالما لمسته فيما بعد كثيرا طيلة كل حياتي الدبلوماسية فلم يكن وفدنا الجامعى إلى اسبانيا يضم من يمكنه العزف على أى آلة موسيقية سوى الزميل المرحوم الفنان حمادة عبد الوهاب التليفزيونى الشهير الراحل فكان رحمه الله مجندا وموكلا نيابة عنا فى تلبية أى دعوة فنية فكان يحسن لعب البيانو والغناء باللغات الأجنبية ايضا.. أما الأغانى المصرية الجماعية فلم تكن معروفة لجماعتنا ولم نكن سنة ٤٧ نعلم الكثير على أى حال وأعتقد أنه ينقصنا فى المدارس والجامعات المصرية حتى اليوم اعداد شبابنا لمواجهة هذه المواقف الفنية وبخاصة فى الأوساط الأجنبية التى تستدعى سرعة وسهولة الاستجابة لدعوة أداء الأغانى المصرية الجماعية سواء الحماسية أو الشعبية الخفيفة التى يحسن وقعها على الأذن الأجنبية والتى اعتادت الايقاع السريع وليس الآهات ! .

أما زملاؤنا الأسـبان المرافقون لنا فى الحافلة فسرعان مالقنونا أغنية أسبانية جماعية كانت شائعة وقتئذ صرنا نرددها معهم فى كل مناسبة بايقاعهـا السريع وهى :

لسوف اعطيك ..	yo te daré
لسوف اعطيك أيتها الفتـــاة الجميلة ..	Te Dare` Nirna Hermosa,
لسوف اعطيك شيئا ..	Te Daré una cosa,
شيئا أنا الوحيد الذى أعرفه .. ألا وهو القهوة !	una cosa que yo solo sé Cofé



كانت أسبانيا كما اسلفت قد خرجت من الحرب الأهلية ١٩٣٦ – ١٩٣٩ منهكة مثخنة بالجراح المادية والنفسية وكانت لهذا السبب تعتبر شديدة التأخر نسـبيا عن فرنسـا وانجـلترا . ويرغم ذلك فقد كانت ومازالت غنية حقا بمناظرها الطبيعية الخلابة المتفاوتة فضلا عن مدنها وقراها التاريخية التى تحوى روائع الفن المعمارى على مختلف العصور ومنها الجسور الموصلة للمياه التى بناها الرومان فى أسبانيا . Aquaductos

(مثال ذلك فى مدينة سيجوفيا) والآثار العربية، والفترة الانتقالية ما بين الفن العربى والمسيحى art mazarcbe ثم عصور النهضة المسيحية المتعددة من القوطية Gothic حتى الروكوكو Roc-cocco. وأضف إلى ذلك كثرة القلاع والحصون والقصور، ثم الكنائس والكاتدرائيات والمتاحف ولعل أغلبنا من شباب الطلبة

المصريين كان يرى كل ذلك لأول مرة ولا شك، فكنا نقبل على الاستمتاع بمشاهدة هذه الروائع اقبال الجائع النهم على مائدة طعام حافلة شهية! ولم يبخل مضيفونا علينا فاعدوا لنا وجبات سياحية دسمة تضمنت زيارة أهم متــــاحف ومعالم مدينة مــــدريد مثل متحف البــــراد و El bra do الشهير وهو حافل بمجموعات رائعة من الرسوم الزيتية لمشاهير وكبار رسامى أوروبا وطبيعى أن المتحف يضم أكبر مجموعات لمشاهير الرسامين الأسبان انفسهم : جويا وفيلاسكيث والجريكو وهكذا ..

ومدينة مدريد لها تاريخها الحافل القديم فقد كانت عاصمة الامبراطورية الأسبانية المترامية الاطراف ولكنها أصيبت باضرار بالغة أثناء الحرب الأهلية الأسبانية لكن أعيد ترميمها وتعد اليوم واحدة من أفخم وانبل عواصم العالم ومن اقربها شبها بباريس فشوارعها فسيحة وتحليها مجموعة من التماثيل والأنصبة التذكارية الفخمة يأتى على رأسها ميدان Los Cibeles الذى يتوسط طريق الكاستيليانا Castelliana الشهير الذى يماثل الشانزليزية فى باريس . وكلمة Clibeles تعنى ماترمز اليه الكلمة العربية «السبيل» أى توفير مياه الشرب لعابرى السبيل . والنصب الأسبانى يقوم على أساس مجموعة من النافورات التى ربما كانت أصلا توفر مياه الشرب لعابرى السبيل. كذلك فان مدريد تضم مجموعة من الحدائق

العامة الواسعة على غرار Le Bois de Bologne في باريس أيضا وأهمها في مدريد El Parque del Retiro حديقة المنتجع .

وبعد مدريد أو بالأحرى من مدريد زرنا بعض الأماكن الأثرية المهمة حولها ومنها El Valle de los Callodos [1] وهو نصب فخم نحت من الجبل الأصم لتخليد ذكرى قتلى الحرب الأهلية الذين «سقطوا» إلى جانب الجنرال فرانكو.. ثم مئات الأفدنة التي تحتلها مدافن الشهداء الذين سقطوا Callidos في ساحة الشرف .

وبعد ذلك زرنا مدينة الاسكوريال El Eacosial وهي مصيف جبلي يقع على هضبة مرتفعة تبعد ثلاثين أو أربعين كيلو مترا شمال غربي مدريد بها قصر ملكي ومكتبة ومتحف من أكبر وأغنى مكتبات ومتاحف اسبانيا ومن أجلها أيضا. وكان ينتقل إليها بعض ملوك أسبانيا صيفا فرارا من حرارة مدريد (قد تصل الحرارة في مدريد صيفا إلى ٣٥ - ٤٠ درجة مئوية أما شتاء مدريد فقارس أيضا وتهبط الحرارة إلى مادون الصفر) .

ومازالت كثير من عائلات مدريد الثرية القديمة تملك منازل صيفية في الاسكوريال تنتقل إليها لتمضية بعض الصيف أو حتى تسكنها طوال العام هربا من ازدحام مدريد وحرارتها الشديدة

---

(١) ترجمتها الحرفية وادي الذين سقطوا .

صيفا وأذكر جيدا أن جولتنا في الاسكوريال تضمنت جولة على الاقدام في حدائق الاسكوريال الفسيحة المنمقة .. وقد لفت نظرنا نحن شباب المصريين جمال فتيات الاسكوريال بالذات جمالا تفوقن به على ما دونهن من فتيات اسبانيا .. وليس صحيحا طبعا أن كل فتيات اسبانيا جميلات لكن فتيات الاسكوريال كن يمثلن مجموعات من أرقى وانبل بيوتات اسبانيا القديمة وخرجن جماعات كثيرة للنزهة وسط الحدائق وقد لاحظ أحدنا ولفت نظرنا إلى كثرة عدد الفتيات ذوات العيون البنفسجية اللون "التى هى وسط ما بين اللونين الأزرق والأخضر" والبشرة الناصعة البياض والشعر الأسود الفاحم الناعم .

والواقع أن الشعب الاسبانى مثله مثل غالبية الشعوب مزيج من عدة أجناس وشعوب وتجد الشقراوات بكثرة مثلا فى شمال اسبانيا وشمالها الشرقى وتغلب السمرة على سكان جنوب اسبانيا وجنوبها الشرقى حيث كثر اختلاط الاسبان بالعرب. وهذه الصفة ليست مقصورة على الأسبان فان كثيرا من الشعوب الأخرى – مثل مصر وفرنسا – تحوى عناصر عرقية متفاوته .

وتمتاز أسبانيا – مثل غيرها من البلاد الأوروبية الراقية – بكثرة عدد الحدائق العامة الفسيحة المنمقة ولعل الأسبان ورثوا حب وفن غرس الحدائق عن أجدادهم من العرب الذين أدخلوا إلى أسبانيا

زراعات كثيرة لم تكن معروفة أصلا بأسبانيا، فضلا عن فنون الرى والصرف والمساقى والساقية بل وطواحين الهواء. فمدريد يزينها El Parque del Retiro كما اسلفنا وفى وسطه بحيرة صناعية واسعة حولها اكشاك الموسيقى ويؤم هذه الحديقة أعداد كبيرة من الأسبان للنزهة أو الخلوة بعيدا عن ضوضاء المدينة. وكل مدينة كبيرة أخرى فى أسبانيا لا بد أن تضم حديقة عامة أو أكثر إلى جانب تقليد أسبانى أصيل آخر هو La Plaza Major أى الميدان الكبير أو الأكبر وغالبا ما كان يقع وسط المدينة ويعتبر مركز نشاطها.. لكن إلى جنوب شرقى مدريد وعلى مسافة حوالى ستين كيلو مترا توجد مدينة أرانخويس Aranjuez وبها قصر ملكى جميل ذو حدائق غاية فى الجمال والإبداع التنظيمى وقد خلدها الموسيقار الأسبانى خواكين رودريجو Roderigo في مقطوعته الموسيقية كونسيرتو دى ارانخويس التى تصف شعور الزائر حين يزور القصر والحدائق المحيطة به ..

كذلك فى مدينة غرناطة Granada إحدى درر الفن العربى فى الأندلس بل وفى كل العالم توجد حدائق قصر الحمراء La Alhambra التى بناها وخلفها العرب والقصر وحدائقه آية فى إبداع الفن والتصميم الهندسى العربى الرائع الذى يعكس تعطش

العرب للمياه ومدى حبهم لها واهتمامهم باستغلال وجودها أجمل استغلال فى شكل سلسلة متصلة من مساقط المياه والنافورات والمساقى، وقد احتفظ الأسبان بهذا القصر وحدائقه فى أجمل صورة، ويشيد المرشدون الأسبان الذين يرافقون السائحين إلى هذه التحفه الفنية الرائعة بفضل الحضارة العربية وتأثيرها على أسبانيا.. وقد خلد الموسيقار الأسبانى دى فايا De Falla جمال حدائق قصر الحمراء بغرناطة فى مقطوعة شهيرة هى «ليالى فى حدائق اسبانيا» : Noches en los jardines dc Espana

ومن مدريد بدأت رحلتنا الجامعية زيارتها للأندلس فاتجهنا جنوبا إلى مدينة طليطلة Toledo التاريخية وتبعد عن مدريد سبعين كيلو مترا فى اتجاه الأندلس ، وهى مدينة قديمة جدا على هضبة مرتفعة تشرف على أخاديد وسهول منخفضة وتعتبر المدينة شديدة التحصين وقد خلف العرب بها قصرا حصينا مازال الأسبان يسمونه El Alcazar أى القصر ويعتبر تحفة معمارية هندسية عربية ، والمدينة كلها تذكرك بما كانت عليه مدن أسبانيا والأندلس (بل وأوروبا قديما) من شوارع وأزقة ضيقة ، وفى أسبانيا أو بالذات فى جنوبها حيث تشتد الحرارة صيفا (٤٠ درجة مئوية فى قرطبة وغرناطة وأشبيلية) درج العرب على تخطيط مدنهم على أساس من الطرق والأزقة الضيقة التى تقلل من فرص دخول

الشمس إليها ومن ثم تستمتع بالظل الوافر والأنسمة الطرية . أما المنازل المطلة على تلك الأزقة فجدرانها من «الحجارة البيضاء أو الصفراء مرتفعة شاهقة وشديدة السمك حتى تعزل الحرارة بالمثل . وأبوابها مرتفعة من الخشب السميك أو من المعادن الثقيلة وكانها / أبواب للحصون وإذا ما فتحت أمامك هذه الأبواب وجدت نفسك توا فى حديقة داخلية Un Patio تحيط بها الأسوار والجدران المرتفعة التى تعزلها عن الناظرين من الخارج ، وتتوسطها نافورة أو نافورات وبها تكعيبات العنب وأشجار الفاكهة والظل الظليل .

كانت هذه الهندسة المعمارية تعكس ولاشك أخلاق العرب وأمزجتهم وحرصهم على خصوصياتهم وقد ورثها الأسبان عن العرب (إلى أن بدأت رياح التغيير الأخيرة تنقل أسبانيا إلى السوق الأوروبية المشتركة) وكلما ارتفع قدر صاحب الدار اجتماعيا زادت مساحة حديقته الداخلية وزاد حجم أو عدد النافورات وكذلك ارتفاع الجدران حول الدار وزادت فخامة الأبواب الخشبية الثقيلة المحلاة بالمعادن .

ويجدر بى الوقوف هنا هنيهة لأذكر القارئ بأن جانبا كبيرا جدا من جمال وسحر المدن أو القرى التاريخية القديمة التى تعود إلى العصور الوسطى سواء فى أسبانيا أو غيرها من بلدان أوروبا إنما يعود إلى توافر عنصرين هامين هما النظافة التامة والصيانة

المتجددة التى تظهر وتؤكد جمال وسحر العنصر الثانى ألا وهو مدى اهتمام فنانى ومهندسى العصور الوسطى بالتفاصيل الصغيرة فى كل شيء كما تظهر الشخصية المتميزة المصاحبة للإبداع الهندسى والفنى الجمالى المتوافر فى كل ما شيدوه من منازل وشرفات وأبواب وجدران وحصون وقلاع وكل صغيرة أو كبيرة من الكاتدرائيات والكنائس والقصور التى شيدت منذ العصور الوسطى حتى عصر النهضة .

نعود إلى طليطلة فأذكر أنها تشتهر حتى اليوم بصناعة لون معين من المصاغ والتحف الصغيرة الذى يسمى El Arte de Tole-do أو El Arte Damasquino أى الفن «الدمشقى» : أى انه باعتراف الأسبان أنفسهم هو فن موروث عن العرب ، عن صناع دمشق واساسه طلاء القطعة من المصاغ أو التحفة الصغيرة بطلاء من اللون الأسود الحالك Esmalte ثم يحفر وتضاف فوقه خيوط الذهب أو الخيوط المذهبة (عيار ٢٤ قيراطاً) فى الأشكال والصور المرادة وبهذا الشكل تخرج طليطلة سنويا آلاف الاطنان من المصاغ (اساور - اقراط - أزار قمصان) فضلا عن التحف الصغيرة والصور وخلافه .

هذا وقد أقام الاسبان فى طليطلة إلى جانب القصر سالف الذكر Alcazar بعد أن انتهى حكم العرب للمدينة أقام الأسبان

كاتدرائية ضخمة تخليدا لانتصارهم وتحريرهم لطليطلة وقد لعبت الكاتدرائية والقصر فى طليطلة دورا بطوليا هاما فى الحرب الأهلية الأسبانية ٣٦ - ١٩٣٩ بسبب شدة تحصين الموقع الذى اختاره العرب . ومازال مئات الألوف من السائحين الأسبان أو الأجانب يؤمون طليطلة فى رحلات ليوم واحد من مدريد أو فى طريقهم البرى تجاه الأندلس . وفى كثير من مدن اسبانيا وبخاصة فى الجنوب نجد أن أهم معالم المدينة تنقسم إلى قسمين رئيسيين : قسم يخلد ويذكِّر بآثار وأمجاد العرب فى اسبانيا ، وقسم آخر يذكِّر ويخلد انتصار المسيحيين على العرب واستردادهم السيطرة على بلادهم !!

وبهذه المناسبة فإن الأسبان ومن بعدهم بقية الأوروبيين - كانوا يطلقون كلمة Moros على العرب فى أسبانيا نسبة إلى موطن عرب أسبانيا الأصلى فى Morocco أى المغرب وربما كانت كلمة More-no الأسبانية التى تعنى «أسمر» مشتقة أيضا من Moros أى العرب السمر . كذلك فالشىء بالشىء يذكر .. بعد أن اشتد ساعد الدولة الأسبانية وبعد أن اقامت امبراطوريتها فى امريكا اللاتينية والفلبين (وقد حكم الأسبان الفلبين ثلاثمائة سنة إلى أن استولت عليها الولايات المتحدة سنة ١٨٩٨) اطلق الاسبان لقب Moros على مسلمى الفلبين أيضا .. وكأنَّ Moros فى نظر الأسبان كانت تعنى

المسلمين بافتراض أن كل العرب فى اسبانيا كانوا مسلمين وكانوا من السمر أيضا وإلى يومنا هذا يعرف سكان الفلبين المسلمون حتى بين بقية الفلبينيين باسم Moros ، أما فى جمهورية بيرو فى أمريكا الجنوبية فيوجد "القديس الأسمر" El Santo Moreno فى محاولة لاجتذاب قلوب الشعب أو الشعوب الملونة (من هنود حمر وعـــرب) إلى هذا القديس الذى يظهر تمثاله ووجهه يميل إلى السواد ..

أما الآثار الإسلامية فى اسبانيا والتى تركها العرب فتنقسم إلى قسمين أو ثلاثة أقسام صغيرة ، القسم الأول يطلقون عليه Sti-lo Arabe أو Stilo Andaluz ويمثل اصالة الفن العربى والخطوط العربية الأصيلة ، والقسم الثانى يطلقون عليه Stilo Mozarabe أى الشبيه بالعربى ويعنون بذلك أنه اختلط إلى حد ما بالفن الأسبانى ولم يعد اسلوبا عربيا أصيلا مثلما كان ، والقسم الثالث يمثل فترة انتقالية من الفن العربى إلى الفن المسيحى وبدء القرون الوسطى المؤدية إلى عصر النهضة Rennaissance وقد بدأ الفن المسيحى بسيطا متأثرا بالفن القوطى gothic الذى يتميز بالخشونة Ous-terity والبساطة والخطوط المستقيمة وغياب الزركشة ، ثم غلب عليه تأثر المسيحيين (والاسبان) رويدا رويدا بالثروة الطارئة وبحبوحة العيش فزالت تلك البساطة وبدأ يحل محلها التعقيد والخطوط المستديرة أو المنبعجة ثم كثر استعمال الألوان الزاهية واستعمال

الزركشة من ذهب أو خطوط مذهبه استعمالا فجاً يعكس قلة الذوق مع شدة الثروة أحيانا وهو ما يسمى بالفن الباروكى Baroque وأسوأ منه الـ Rococco .

وفى كثير من كاتدرائيات اسبانيا يجد المرء كميات هائلة من الذهب والفضة أو قشرة الذهب وعديد الألوان . ويغلب طابع فنى الباروك أو الروكوكو على كثير من الكنائس والكاتدرائيات ولا يفوتنى أن أذكر أنه فى واحدة من الكنائس قرب مدينة قادش Cadiz جنوب غرب الأندلس يوجد تمثال جميل جداً للعذراء وهى تبكى .. أما دموعها فمن الماس الخالص ..

وأخيرا وصلنا قرطبة Cordoba وكانت فى بعض العصور عاصمة الدولة العربية الأندلسية وكانت منارة للعلوم والفنون باسبانيا بل وكل أوروبا وبها جامعة ومكتبة لعلهما كانتا أعظم مثيلاتهما فى أوروبا فى تلك العصور وبها بنى أيضا ارحب جامع فى العالم قاطبة يضم عددا من العمد الرخامية ذات الألوان المتعددة من رخام أبيض إلى أسود إلى الرخام ذى الحمرة الخفيفة أو الخضرة الخفيفة وهكذا يبلغ عددها فيما اذكر اكثر من ألف وخمسمائة عمود رخامى تحمل أسقف الجامع الذى يتسع لحوالى خمسة آلاف من المصلين ويدلل على فترة المجد والقوة والثراء وفتوة الإسلام فى أسبانيا من القرن الثامن حتى قرابة نهاية القرن الخامس عشر

حين زالت آخر دويلة إسلامية فى غرناطة سنة ١٤٩٢ ميلادية وبعدها حول الأسبان الجامع إلى كاتدرائية ثم عادوا أخيرا فاعادوه جامعا وأثرا تاريخيا مهما يحافظون عليه مثلما كان . ويؤمه مئات ألاف السياح الأسبان والأجانب ليستمعوا إلى شرح المرشدين السياحيين الأسبان الذين لا ينكرون شرح أمجاد العرب وتاريخهم الحافل فى أسبانيا . ومن قرطبة التى كانت منارة للعلوم والفنون والحضارة انتقل مثلها الطيب بعد ذلك إلى شمال اسبانيا (جامعتا سالامانكا وبورجوس وغيرهما) ومنها إلى جامعات فرنسا وانجلترا .

وحينما كنا نزور قرطبة أقام لنا مضيفونا الأسبان حفل تعارف مع بعض الجامعيين المستشرقين من الأسبان وأذكر منهم سيدة أو فتاة شقراء زرقاء العينين قدمت نفسها إلينا باسم باكيتا Paquita وسرعان ما اجتهد عدد من الطلبة المصريين "الأذكياء" فى محاولة لتأصيل هذا الإسم إلى أصله العربى وأصروا على أن أصله بالعربية كان "بخيته" ! وقد دهشت باكيتا وفرحت بهذا الاكتشاف التاريخى وقالت إن بعض أهلها يرجح أن أصلهم عربى من عرب الأندلس .. لكن الواقع أن Paquita هو تأنيث Paco وقد علمت فيما بعد فى زياراتى المتكررة اللاحقة لاسبانيا أن الأسبان يطلقون هذا الاسم Paco تدليلا لكل من يحمل اسم فرانسيسكو Francisco من الرجال .

وقرطبة لا تبعد كثيرا عن مدينة اشبيلية Sevilla عاصمة الأندلس حاليا . أما الأخيرة فوصفها الكثيرون بانها قلب الأندلس وتمثل روحه اجمل تمثيل . وتضم اشبيلية تحفة من اروع ما خلفه العرب من تحف فنية وهندسية وهى برج La Giralda "لاخيرالدا" وهذا البرج يمثل جمال التصور الخلاق والابداع الفنى التشكيلى ولست ادرى ايهما اكبر أهو اعتزاز الاسبان اليوم بهذه التحفة الفنية الرائعة التى ورثوها عن العرب أم اعتزازنا نحن ابناء العروبة بهذه الحضارة التى اورثت العالم مثل هذا العمل الفنى الجميل .. مدينة اشبيلية من اجمل مدن جنوب اسبانيا واخفها ظلا ويزيدها بهاء وتخليدا هذا الصرح العربى الرائع .. والبرج ارتفاعه مثل ارتفاع أى مئذنة طويلة .. وقد كان اصلا يؤدى عمله كمئذنة وقد بنى ما بين ١١٨٤ و١١٩٦ ميلادية لكنه يختلف عما عداه من مآذن من حيث انه اوسع قاعدة ولأنه مربع الشكل وليس مستديرا ناهيك عما يزينه من نقوش عربية غاية فى جمال التصور وابداع الفن التنفيذى . ويصفه المسيحيون بانه "جوهرة الفن العربى الأندلسى".. وهناك خلاف حول أصل كلمة «لا خيرالدا» : البعض يعتقد أنها إنما تشير إلى صدى كلمات المؤذن "لا إله غير الله" وقد حرفتها الاذن الاعجمية الاسبانية إلى لا خيرالدا : والبعض الآخر يراها مشتقة من "خير الله" أو "خير الدين" .. وقد يكون هذا اسم صاحب أو المسئول عن بناء المئذنة .

ثم وصلت بنا الحافلة إلى غرناطة Granada تحفة أخرى من تحف الإبداع الجمالى والفنى العربى وآخر معقل من حصون تلك الدولة العربية الأندلسية التى سقطت سنة ١٤٩٢م .

والفارق بين غرناطة واشبيلية أن الأخيرة تقع فى سهل منبسط قريبة من الساحل الجنوبى الغربى لاسبانيا فى حين تقع غرناطة على مشارف سلسلة الجبال وهضبة مرتفعة تعطى خلفية جبلية وجمالية رائعة لغرناطة وتتيح لسكانها فرصة الهروب إليها صيفا فرارا من حرارة الأندلس الشديدة كما تعلوها الثلوج فى فصل الشتاء .. واكثر من هذا أن الهضبة المنحدرة المتدرجة الارتفاع اتاحت للمعماريين العرب فرصة استغلالها اجمل استغلال فى تصور وتنفيذ مساقط مياه حدائق قصرى الحمراء La Alhambra وإلى جانبه قصر الخنراليفى Generalife الشهيرين وقد خلد جمالها الموسيقى الأسبانى دى فايل De Falla فى تحفته الفنية ليلة فى حدائق اسبانيا Noches en los Jardines de Espana . أما قصر الحمراء ، فقد كان قصرا للملوك الأغالبة . ويصعب أن يجد المرء الكلمات المناسبة لوصف مدى روعته ووقعه على نفس المشاهدين وخاصة من العرب .. ويحار المرء - إذا كان من ابناء العروبة مثلى ومثلك - ما بين شعورين متناقضين أمام هذا الصرح العظيم من الفن والروعة الهندسية .. شعور الفخر والاعتزاز أولا

بانتسابنا إلى هذه الحضارة وإلى هذه الأمة ذات الأمجاد والروائع الحضارية من ناحية ، ومن ناحية أخرى شعور الخيبة والأسى لما صار إليه حال أمتنا ولمدى خسارتنا .. ولا يملك العربى إلا أن يسأل نفسه ماذا لو كان العرب فى الأندلس قد فرضوا لغتهم ودينهم مثلما فعل الأسبان من بعدهم فى أسبانيا نفسها بل وفى أمريكا اللاتينية والفلبين ؟ اما كانت اسبانيا اليوم تتكلم كلها العربية بعد حكم العرب لها طوال ثمانمائة عام تماما مثلما يتكلم ثلاثمائة مليون نسمة اللغة الاسبانية فى أمريكا الجنوبية بعد حكم الأسبان لهم مجرد مائتى سنة ؟ لكنه تسامح الإسلام !!

نعود إلى قصر الحمراء .. سمى كذلك لأن لونه يميل فعلا إلى الحمرة غير القانية .. حمرة تشبه الخجل على خدّى العذراء الجميلة، ويزيد من جمال هذه الحمرة الوديعة قيامها وسط غابات وحدائق خضراء غنية بالخضرة ومن خلفها قمم الجبال الخضراء صيفا والمتوجة بالثلوج شتاء ، ومنها قمة ، مولاى حسين Mulassin المرتفعة (التى كانت مقرا صيفيا لأحد ملوك الأغالبة مولاى حسين) .

أما حدائق قصر الحمراء فتقوم على مشارف تلك الهضبة غير المستوية بل المنحدرة انحدارا ملحوظا سمح للمعماريين العرب أن يستغلوا هذا الميل فى تخطيط سلسلة من المساقى والنافورات

والممرات المائية المنحدرة مع انحدار الحديقة التدريجى بحيث لا يفوتك أن تسمع (وان ترى) انحدار المياه وخرير الماء وسط الحدائق الغنية ذات الحسن والبهاء وجمال التنسيق .

أما القصر من الداخل فقد غلب عليه تأثر الأغالبة بما تجمع لديهم من رغد وبحبوحة وحضارة وفيرة لعلها كانت بداية النهاية . فالنقوش كثيرة بل أكثر من اللازم ومحلاة كلها بقشرة أو ماء الذهب وقد سجلت على خلفية من جدران كستها الأقمشة الحريرية الملساء.. وان لم تخنى الذاكرة فقد كان اللون الغالب على كثير من الجدران هو اللونين الأخضر بدرجاته المتفاوتة أو الأحمر القانى . ويبدو لى أن قصر الحمراء يمثل تماما قمة ما بلغته حضارة العرب ورغد معيشتهم فى اسبانيا ، من رخاء واسترخاء ثم الطريق إلى الفناء .

ولعل الاغالبة احسوا بذلك فقد كانت أغلب نقوش قصر الحمراء لا تحمل إلا نذريرا وتذكارا واحدا يقول "لا غالب إلا الله .. لا غالب إلا الله" وذلك برغم كثرة عدد التماثيل التى تمثل الأسود ! (هناك فناء كامل مخصص للأسود) !!

وعلى بعد حوالى سبعين كيلو مترا من غرناطة فى اتجاه جنوبى شرقى صوب البحر الأبيض توجد قرية صغيرة اسمها Suspiro del Moro "جسر" تنهدات العربى" تذكارا لمرور "أبو عابدين" آخر

ملوك الأغالبة فى تلك البقعة شريدا مطرودا من مملكته .. فقد وقف يتنهد ويتأمل بحسرة ما كان يوما "عهد السرور والرياحين" للعرب فى اسبانيا (١) .

وفى غرناطة أيضا أخذنا مضيفونا الأسبان نهارا إلى زيارة كهوف الغجر Los Gitanos المنحوتة فى الجبال ، ويكثر عدد الغجر فى جنوب اسبانيا ويعيش كثير منهم على حافة المجتمع الأسبانى يجفلون عن الاندماج فيه أحيانا كثيرة ويتمنى المجتمع لو لم يكونوا هناك أو لو اختفوا بين غمضة عين وانتباهتها .

والغجر لهم مجتمعاتهم وعاداتهم ولغتهم الخاصة إلى جانب الاسبانية لكنهم حماة ، وحفظة الرقص الأسبانى التقليدى المعروف باسم Flamenco الذى يقال إن أصله عربى (ولا شك على أى حال أنه تأثر كثيرا برقص أهل شمال أفريقيا) ويتوارثه الغجر أبا عن

---

(١) عاش الوزير الشاعر الأندلسى ابن زيدون فى عهد الرخاء وذروة الحضارة والمجد العربى فى الأندلس «عهد السرور والرياحين» ويمثل شعره ومراسلاته مع محبوبته الأميرة ولادة بنت الملك المستكفى أحد ملوك الأندلس أقصى ما بلغه شعر العرب فى الأندلس من رقة وحضارة فمثال ذلك ما كتبه إلى ولّادة بنت المستكفى يقول :

اضحى التنائى بديلا عن تلاقينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا	شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا	يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
ليسم عهدكم عهد السرور فما	كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

جد والفتاة عن أمها أو خالتها وهكذا .. ويعلمون صغارهم هذا الرقص منذ أن يمكنهم الوقوف على أقدامهم . والواضح أن الغجر فى اسبانيا من أصل «شرقى» وهناك محاولات عديدة لتأصيلهم فالبعض يرى أنهم قدموا من شرق أوروبا أى منطقة البلقان وكثير منهم فعلاً يسمى نفسه Romanyi لكن البعض الآخر يقول انهم من مصر (الاسم الاغريقى لمصر هو Gypsos والغجر اسمهم Gyp-sies وربما اشتقت كلمة Egyptian من نفس الأصل .. أما البعض الآخر فيعتقد أنهم أصلاً من قبائل هندية «آرية» هاجرت عبر الشرق الأوسط واتخذت طريقين أحدهما يمر بشرق أوروبا والبلقان والآخر يمر بمصر وشمال افريقيا حتى استقر فى جنوب أوروبا الغربية (اسبانيا وجنوب فرنسا) .. وعلى أى حال فإن ظاهرة الغجر الذين يعيشون على هامش مجتمعات شرق أو غرب أوروبا تذكر المرء بالبدو الرحل الذين يعيشون على حافة بعض المجتمعات الأفريقية والأسيوية ويقاومون محاولات تلك المجتمعات لاستيعابهم فيها ..

لكن الواضح أن غجر جنوب اسبانيا يتميزون عن الأسبان عامة باشتداد سمرة بشرتهم وخشونة شعرهم أحيانا كثيرة وقصر قامتهم .. وبإجادتهم الشديدة للرقص والغناء حتى انه يخيل للمرء أنهم ولدوا راقصين ومغنين . ولأصواتهم – سواء الرجال منهم أو النساء – بحة خاصة تميز غناءهم الحزين الذى لا يكف عن النواح

على المجد الضائع أو الحب الضائع .. وقد أورث العرب هذا النوع من الغناء الحزين أيضا إلى البرتغاليين فى صورة ما يسمى اليوم الفادو Fado فى البرتغال . إلا أن الحقيقة تقتضى أن نذكر بان الفلامنكو فى اسبانيا يتضمن أيضا الكثير من الغناء الجماعى المرح مثل La jota والفكاهى أحيانا فى حلبات الـ Tablao Fla- menco .. المهم .. فى كهوف الغجر فى غرناطة جلسنا على أرائك خشبية فى صفين متقابلين وبين الصفين مسافة ثلاثة أو أربعة امتار كانت هى ساحة الرقص التى تبارى فيها الفتية والفتيات والأطفال ومن حولنا المغنون والمصفقون .. ومهنة المصفق فى حلبة الرقص الفلامنكو Tablao Flamenco منفصلة تماما لكن مكملة وملازمة للراقص والمغنى أو الراقصة أو المغنية ومهمة المصفق هى ضبط الإيقاع والسرعة بالتصفيق باليدين مصاحبة مع الموسيقى ومع حركة الراقصين . واشهر المصفقين فى اسبانيا اليوم يسمونه Ma- nitas de Plata أى ذا الكفين القصيتين ويتمتع بشهرة عالمية . والواقع ان الغناء الذى يصحب الرقص الفلامنكو يذكّر المرء بشكل قوى بالرقص والغناء العربى وبخاصة فى المغرب وشمال افريقيا ، مع التطوير والتحديث الذى هو نتيجة مرور الزمن واختلاف المكان والاختلاط وبقية المؤثرات الخارجية أو الذاتية .. ورغم كل ذلك أو نتيجة كل ذلك فما من عربى سمع أو شاهد هذين الحدثين أى

الرقص الفلامنكو والغناء المصاحب له إلا وتأثر به ومعه أبلغ تأثير بل الواقع - فى رأيى - أن كل الموسيقى الأسبانية التقليدية والشعبية الخالصة مثل الباسود وبليس Pasodobles التى تصاحب حفل مصارعة الثيران أو .. الموسيقى الأسبانية التصويرية التقليدية مثل موسيقى De Falla أو جرانادوس أو ألبنيز Albeniz أو خواكين رودريجو ، تتميز كلها بانها تحمل حديثا خاصا أو قل حنينا خاصا Nostalgia تتأثر به وتتفاعل معه الأذن والنفس العربية أكثر من تأثرها وتفاعلها مع أى موسيقى أجنبية أخرى . ولم لا ؟ وقد تأثرت الأذن والنفس الاسبانية نفسها بالتعايش قرابة ثمانمائة سنة متصلة فى ظل وفى كنف الحضارة والأمة العربية فى اسبانيا وقت ان كانتا فى قمة المجد وذروة الحضارة بالنسبة لكل العالم ، ووقت ان كان الغرب نفسه يتشبه بالعرب ويتتلمذ على أيدى اساتذة وفلاسفة وأطباء العرب ؟!

حتى مصارعة الثيران التى تعتبر اللعبة أو الهواية الشعبية المفضلة تقليديا وحتى اليوم فى اسبانيا قد يكون فى الأغلب أصلها عربى بالمثل ! ويقال فى اسبانيا : إن أحد سادة العرب كان يتفقد إحدى مزارعه والتى كانت تحوى عددا كبيرا من الثيران التى يكثر وجودها فى اسبانيا ، حينما هاجمه ثور كبير هائج . ولم يكن السيد العربى يملك في يده سلاحا أو عصا يدافع بها عن نفسه كما لم

يكن هناك ملجأ أو مهرب قريب فما كان منه إلا أن خلع عباءته التى كان يتشح بها وأخذ يحاور بها الثور الهائج ويداوره إلى أن تعب الأخير من فشل محاولته النيل من الرجل فمل وكلّ وقفل عائدا من حيث أتى .. وكان يشهد هذه المحاورة والمداورة ما بين العربى وعباءته والثور الهائج عدد من الاتباع الاسبان والعرب فما لبثوا أن صاحوا وهللوا لبراعة محاولة السيد العربى ونجاحه فى شل حركة الثور هاتفين الله ! الله ! Ole' - Ole' وإلى اليوم يحيى الأسبان فى حلبات المصارعة يحيون المصارع البارع مرددين نفس العبارة Ole' كما أن من كلماتهم المحببة والتى يتكرر سماعها كثيرا فى اليوم الواحد Ojala' أى ان شاء الله ! أما فى البرتغال فيقولون Osala' وتنطق أوشالا أى إن شاء الله أيضا .

بعد أن انتهت زيارتنا للأندلس قفلنا عائدين صوب الشمال صوب برشلونة ومنها شمالا إلى بورت بو وسيربير ثم مرسيليا ومنها أخذنا الباخرة المصرية مرة أخرى إلى الاسكندرية .

ومن الأندلس إلى برشلونة تجتاز السيارة عددا من الشواطئ أو المناطق السهلة الساحلية ذات الرمال البيضاء الناعمة فمن الأندلس يتوالى ساحل الشمس Costa del Sol ثم الساحل الأبيض La Costa Blanca ثم ساحل الزهور La Costa del Azahar ثم الساحل الذهبى Costa Dorada أما شمال برشلونة حتى الحدود

الفرنسية فهو الساحل الجبلى الوعر La Costa Brava ولكل من هذه الشواطئ ميزته وصفاته المختلفة ، فمنها الجبلى الوعر ومنها الرملى الناصع البياض ومنها ذو المياه الخليجية الهادئة ومنها ما هو بحر هائج مفتوح ، لكنها كلها تمتاز بالجمال وبوجود الخلفية الخضراء والظل الوفير خلف الشاطئ مباشرة . ولهذا فإن شواطئ اسبانيا الدافئة من أهم اسباب نجاح السياحة فيها ، وفى اجتذاب خمسة وخمسين مليون سائح إلى اسبانيا عام ١٩٨٧ وبديهى أن قرب اسبانيا إلى غرب أوروبا قد اتاح لها فرصة اجتذاب السائحين اصحاب السيارات إليها وهم يشكلون أكبر نسبة من السائحين فى غرب أوروبا وذلك لرخص تكلفة الاصطياف بالسيارة عن نفقات الطائرات نسبيا ، وبخاصة فى ظل استمرار ارتفاع اسعار البترول وبالتالى أسعار الطائرات .

وقد تركتُ أسبانيا وذكرى موسيقاها ورقصها وغنائها ومتاحفها وآثارها ومدنها وقراها وسواحلها لا تبرح مخيلتى .. أما قصر الحمراء ، وقصر الخنراليفى وبرج لاخيرالدا فلابد من العودة لزيارتها وملء العين منها مرة بل مرات !

وقد سنحت لى فرص كثيرة بعد ذلك لزيارة اسبانيا مرات ومرات عديدة وجبت اركانها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .. فمازالت شدة انجذابى لاسبانيا باقية رغم تعرفى بعد ذلك على كثير من أجمل

بلاد العالم وأغناها ثروة وتاريخا . ولعلى أردت إلى جانب ذلك العودة إلى رؤية مواطن الجمال فى اسبانيا بصحبة زوجتى وقد تسنى لنا بعد ذلك زيارتها من مداخل كثيرة .. مرات بالطائرة توا إلى مدريد أو برشلونة ومرات بالسيارة من منطقة سيربير وبورث بو ومرة بالسيارة من طنجة (من المغرب) إلى جبل طارق وإلى ساحل الشمس المعروف قرب ماربيلا وتوريمولينوس وملقا حيث تتركز سياحة العرب فى اسبانيا حاليا .. وهكذا .. وقد جبنا اسبانيا بالسيارة فزرنا بلاد الباسك والساحل الأخضر La Costa Verde حول منطقة سان سباستيان وهى المنطقة الساحلية الشمالية المطلة على خليج بسكاى شديدة الشبه بانجلترا واسكتلندا طبيعة ومناخا ، وكانت سان سباستيان العاصمة الصيفية تنتقل إليها الحكومة صيفا إلا أن اشتداد حركة ايتا ETA العنيفة المطالبة باستقلال الباسك عن اسبانيا جعلت من جزيرة مايوركا وعاصمتها بالما المقر الصيفى بدلا من سان سباستيان .. ومايوركا من أجمل جزر البحر الأبيض وأصبحت مركز جذب شديد للسياح الأجانب بما فيها من المصايف والسواحل المختلفة التى تتيح إرضاء جميع الأذواق وجميع المستويات الاجتماعية . كذلك زرنا الأندلس وبخاصة غرناطة واشبيلية وقادش وجبل طارق ، كما زرنا الساحل الذهبى وساحل الزهور ومنطقة أليكانتى والمرسية وفالنسيا وبرشلونة فضلا عن

زيارتنا لجزيرة إبيبثا Ibiza القريبة من مايوركا (وابيبثا كانت اصلا بالعربية اليابسة) .. بل وزرنا جزر الكنارى Islas Canarias فى المحيط الأطلسى أمام شاطئ موريتانيا وهى - أى الكنارى - جزر اسبانية بالمثل .. ومناخها ربيع دائم طول العام أى انها مشتى ومصيف على حد سواء ..

وحصيلة زياراتنا العديدة إلى اسبانيا واقامتنا بها فترات طويلة ان اسبانيا أكثر من «شعب واحد» . فأهلها يتكلمون فعلا أكثر من لغة (ولا أقصد أكثر من لكنة لكن لغة) فهناك من اللغات الكاستيليانو (وتسود فى منطقة مدريد والأندلس) والجاييجو Gallego بمنطقة جالسيا والباسك فى المنطقة الشمالية ، والكاتالان حول برشلونة فى منطقة كاتالونيا ، والفاليتسيانو فى فالنسيا ، والمايوركين فى مايوركا .. وهى تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافا يجعل أهل الكاستيليانو (منطقة مدريد) فى موضع عدم الفهم للمايوركين أو الكاتالاك . ناهيك بالباسك الذى ليس من أصل لاتينى بالمرة . أما الأجنبى الذى يتعلم اللغة الاسبانية الرسمية (الكاستيليانو) فيصعب عليه فهم اللغات الأخرى سالفة الذكر خاصة إذا اقتصر على سماعها دون قراءتها ..

ومناطقها تختلف اختلافا بينا الواحدة عن الأخرى (الباسك بارد جدا شتاء وبارد ممطر صيفا ، أما الجو فى الأندلس فهو

شديد الحرارة صيفا ومعتدل مشمس شتاء ، أما منطقة مدريد فشديدة الحرارة صيفا وشديدة البرودة شتاء ، أما برشلونة وجزر مايوركا وما حولها فمعتدلة (جو بحر أبيض صيفا شتاء) . وأما مدريد العاصمة ، عاصمة كاستيل وأسبانيا كلها فتتميز بالفخامة والعراقة والرصانة ، ميادينها كبيرة فخمة تزينها التماثيل الفنية وشوارعها فسيحة ضخمة ، وبها احياء قديمة تاريخية ومبان وآثار تاريخية ، كما بها احياء حديثة سكنية رائعة الجمال ، ولعلها اقرب مدن أوروبا أو من اقرب مدن أوروبا شبها بباريس ، أما برشلونة عاصمة كاتالونيا La Ciudad Condal فهى عاصمة اسبانيا الثانية ، عاصمة الصناعة والمال وهى مدينة تاريخية هى الأخرى لكن لها طعما مختلفا ، طعما «بحريا» وهناك منافسة تاريخية بين مدريد وبرشلونة زادتها مواقف المدينتين المتناقضة اثناء الحرب الاهلية وهى من اسباب تمسك برشلونة ومنطقة كاتالونيا حاليا بتعليم اللغة الكاتالان لأولاد المدارس إلى جانب لغة كاستيل .. كما انها كانت من أسباب تمسك كاتالونيا بنيل استقلالها الادارى عن مدريد العاصمة فى كل امورها عدا السياسة الخارجية والشئون الاقتصادية الخارجية وامور الدفاع .. ومن ثم ادى ذلك إلى مفاوضات طويلة اثمرت نيل كاتالونيا تحقيق آمالها وظفرها بإنشاء برلمانها وحكومتها الداخلية الخاصة والتى تتولى تصريف كل

امورها مستقلة عن مدريد فيما عدا ما سلف ذكره .. ولكن سرعان ما أدى ذلك إلى منح مدريد منطقة الأندلس ثم منطقة جاليسيا ثم منطقة الباسك نفس المعاملة درءا لخطر مطالبتها بما هو أكبر وأعظم مثلما يصر مناضلو حركة الباسك المتطرفون ETA على المطالبة بالاستقلال التام عن اسبانيا حتى بعد نوال منطقة الباسك نفس المعاملة مثل كاتالونيا والأندلس وجاليسيا إلخ .. ومن آثار ما حدث أن أصبحت هناك سبع عشرة منطقة مستقلة استقلالا داخليا ذاتيا فى اسبانيا حاليا وأصبحت كل منطقة من المناطق سالفة الذكر تشجع تأكيد شخصيتها وثقافتها وهويتها الذاتية ومنها تعليم لغاتها فى المدارس إلى جانب الكاستيليانو ، اللغة الأسبانية الرسمية .. وهذا من أسباب حيرة ودهشة الأجنبى الذى درس الأسبانية وامضى سنين عدة فى تعلمها قبل ذهابه لاسبانيا لممارسة أو تجربة ما درسه على الطبيعة فلن يفهم شيئا من اللغات الكاتالات أو المايوركين أو الجاليجو أو الباسك وان كان كل الأسبان تقريبا يتعين عليهم أن يدرسوا الكاستيليانو إلى جانب لغاتهم المحلية !!

لكن اسبانيا بالنسبة إلى الأجنبى هى الكاستيليانو.. هى مدريد والاندلس.. وبخاصة الاندلس.. ذلك القلب النابض بالحرارة والدفء والعاطفة الاسبانية التقليدية المشبوبة وموطن الرقص والغناء الاسبانى الأصيل وذلك الجزء من أسبانيا الذى يعود بالمرء (أو على

الأقل يعود بالعربى منا) إلى ذكرى حضارة وأمجاد حضارة عاشت وازدهرت باسبانيا طوال ثمانمائه عام وكانت فيها أسبانيا العربية منارة أوروبا الغربية ومشعل حضارتها ..

ومع ذلك فما من مرة زرنا فيها أسبانيا الا ووجدنا فيها من التغيرات التى طرأت التى غيرت الكثير من وجه اسبانيا التقليدى. فقد كانت فترة حكم الجنرال فرانكو رغم ديكتاتوريته فترة راحة واستقرار لازمة لإعادة بناء مادمرته الحرب الأهلية الضارية وذلك من أجل اللحاق بركب تقدم اوروبا الغربية.. لكن يأخذ عليه الكثيرون من خصومه انه ألغى النظام الجمهورى الاشتراكى الذى حكم اسبانيا منذ عزل الملك الفونسو الثالث عشر فى أوائل الثلاثينات وفرض النظام الملكى الفاشى من جديد.. ومع هذا فإن العدالة تقضى بالاعتراف انه بنهاية حكم فرانكو ويتولى الملك خوان كارلوس سلطاته الحقيقية خلعت اسبانيا عن نفسها ثوبها الفاشى وبدأت تتقمص شخصية دولة اوروبية غربية ديمقراطية حديثة تشبها بفرنسا وانجلترا والمانيا الغربية وايطاليا.. وقد قاد الملك خوان كارلوس قافلة هذا التقدم التدريجى نحو الديمقراطية الكاملة بحكمة ورزانة وثبات ولكن بصبر وعزيمة أكيدة حتى وصل الأمر فى أسبانيا حاليا إلى عودة اليسار الاشتراكى الديموقراطى إلى تولى الحكم وتشكيل الوزارة فى ظل الملكية الدستورية بعد أن كان اليسار

الاشتراكى (فضلا عن اليسار الشيوعى) أعدى أعداء فرانكو فى الحرب الأهلية .. أما اليسار الشيوعى فى أسبانيا فقد أصبح فى ظل روح الديموقراطية الحقيقية السائدة غير ذى موضوع إلى حد كبير.. وأصبح الحوار السياسى أو الصراع السياسى فى أسبانيا يدور ما بين اليسار الاشتراكى الديموقراطى واليمين المعتدل والوسط . أما مايؤسف له حقا فهو استمرار العنف والارهاب وبخاصة فى منطقة الباسك على يد تلك الحركة شديدة التطرف ETA المطالبة بالانفصال عن أسبانيا .

أما من حيث نواحى الحياة الثقافية والاجتماعية فقد أدى غزو السائحين الأجانب لأسبانيا (٥٥ مليون سائح ١٩٨٧) سنة تلو الأخرى إلى مزيد من الرخاء والازدهار لكن على حساب إحداث تغيير فى عادات واخلاق أهل المدن والريف الأسبانى إلى حد كبير.. ففى السنوات من ١٩٥٠ - ١٩٦٠ أى أثناء زياراتى الأولى لأسبانيا كان المجتمع الأسبانى مجتمعا محافظا متدينا بل شديد التدين والمحافظة بمقارنته ببقية مجتمعات أوروبا الغربية.. كان الاحتشام والتدين من صفات السيدات والفتيات فى زيهن وطريقة حياتهن. ولم يكن مسموحا للفتيات من العائلات الطيبة بالخروج وحدهن مع اصدقائهن من الرجال أو حتى مع الخطيب El Novio الا بحضور طرف ثالث كمرافق ورقيب Chaperon ، أما الآن فقد

زالت جميع الفوارق مابين الفتاة الاسبانية وزميلتها الفرنسية أو الايطالية أو الالمانية وفى عهد فرانكو كانت الرقابة تمنع نشر وتداول المجلات أو الأفلام «الخليعة» فقد كان فرانكو - وبصفة خاصة مدام فرانكو - من المؤمنين بالتدين والاحتشام والمحافظة. وبزوال عهد فرانكو سقطت ايضا الرقابة وماكانت تمثله الرقابة من حاجز أو ساتر. هل هذا نتيجة كثرة تدفق (السائحين) الاسكنديناويين والالمان أم نتيجة رد فعل طبيعى للكبت أو الانغلاق أولكليهما ؟

أما من حيث النواحى الاجتماعية والثقافية والفنية فالأغانى والموسيقى الاسبانية الشعبية أو التقليدية الأصيلة التى كانت تميز الفن الاسبانى باتت لاتسمع - أو تكاد لا تسمع - الا فى حفلات مصارعة الثيران أو المناسبات الخاصة أو الأماكن المتخصصة مثل كازينوهات الرقص الفلامنكو Tablao Flamenco مثل Las) Torres Bermejas- أو Chinitas فى مدريد) فى حين باتت الأغانى الامريكية أو الشبيهة بالامريكية مثل الروك آند رول أو موسيقى الشباب La Musica le la juventud هى كل مايسمع من الراديو والتليفزيون وإذا كان اختيار الموسيقى أو الأغانى الخاصة بشعب ماهو حق ذلك الشعب وحده وليس حقا للأجانب إلا انى اعترف أن الجيل الحاضر فى أسبانيا قد ظلم بلاده إذ ان التشبه

بالأمريكيين أو البريطانيين فى موسيقاهم أو رقصهم الحديث لم يضف شيئا لأصحاب الحضارة والفن الاسبانى الأكثر عراقة والأكبر تأثيرا أو دواما.. ناهيك بالبلوجينز وبالتشبه بالشباب الأمريكى فى كل شىء..

لكنى أسامح الجيل الجديد فى أسبانيا بل أعجب به واتفق معه فى محاكاته للامريكيين والفرنسيين والبريطانيين فى قفزتهم الهائلة نحو التقدم الاقتصادى والعلمى والفنى. فقد قفز الاسبان فى هذا الميدان حقا قفزات رائعة وواضحة وأصبحت الطرق وأساليب الانشاءات والمدن الحديثة ونواحى العلوم والفنون الحديثة تضارع مثيلاتها فى بقية دول أوروبا الغربية. كذلك ارتفع دخل الفرد الاسبانى كثيرا وأضاف دخول اسبانيا السوق الأوروبية المشتركة إلى حياة الاسبان اليومية الكثير من أسباب النعمة والراحة والرخاء والمتعة.. لكن مستوى الأسعار فى اسبانيا فى ازدياد مستمر هو الآخر بحيث أصبحت أو تكاد تكون فى نفس مستوى أسعار فرنسا وإيطاليا ولم تعد اسبانيا مقصد السائحين الهاربين من غلاء أسعار فرنسا وبريطانيا وإنما مقصد الباحثين عن الشمس والبلاجات الرائعة.. وعما بقى فى أسبانيا من طعم ومذاق اسبانى خاص .

وشعورى أن الجيل الجديد فى اسبانيا فى سعيه وراء التخلص من المقولة القديمة من أن أوروبا تبدأ أو تنتهى عند جبال البرانس

(كذا..) أى عند حدود فرنسا الجنوبية، يتطلع بلهفة إلى تأكيد تشبهه بالفرنسيين أو الايطاليين والألمان فى كل شىء.. وربما كان الثمن الذى كان يجب أن يدفعه هذا الجيل من الأسبان هو التضحية بشىء من شخصيته الاسبانية التقليدية القديمة : من ثقافته وموسيقاه واغانيه ورقصه بل وطريقة حياته، وذلك كله فى مقابل ارتفاع مستوى معيشة غالبية الاسبان بما يكاد يلحق بمستوى معيشة فرنسا وايطاليا..

أما أنا ، فحالى مثل حال كل عاشق أو محب يرى فى معشوقته نفس الوجه الذى احبه فى صباه وفى صباها.. ومازلت اعشق اسبانيا التى عرفتها وزرتها لأول مرة فى السنين الخوالى.. وهذا حقى أيضا .. أليس كذلك ؟!

وعدنا إلى مصر أنا وزملائى الجامعيين فى أواخر اغسطس ١٩٤٧ . ولم أشأ أن أظل دون عمل انتظارا لانعقاد امتحان مسابقة وزارة الخارجية. فتقدمت لامتحان عقده مديرو شركة مصر للطيران (وكان بين ممتحنى الأساتذة جمال قطبى ورأفت وأديب..) وقيل لى إنى اجتزت الامتحان وسألنى الممتحنون عن نواياى وآمالى المستقبلية وكنت صريحا ربما أكثر من اللازم (وهذا عهدى وطبيعتى التى لم تتغلب عليها الدبلوماسية للآن !) فاخبرتهم بأنى أنوى التقدم لامتحان مسابقة وزارة الخارجية بعد شهور وإذا اجتزته

فسأقبل وظيفة ملحق فى السلك الدبلوماسى، وقد فوجئوا بقولى هذا ولم يكن أمامهم إلا أن يخيرونى مابين التعهد بالاستمرار معهم فى شركة مصر للطيران أو الاعتذار توا عن قبول عرضهم الى.. ومن ثم فقد شكرتهم واعتذرت إليهم عما سببته لهم من تعب وازعاج.. وهكذا لم يتم التحاقى بشركة مصر للطيران.. ولست ألومهم على موقفهم البتة فقد كان موقفهم طبيعيا وكريما ..

لكنى قبلت وظيفة مؤقتة ومناسبة حصلت عليها فى إحدى كبريات شركات عبود باشا واخذت استعد لاجتياز المسابقة بوزارة الخارجية وكلمات الأخ الصديق المرحوم الاستاذ عبد المنعم الطحاوى ترن فى اذنى، ومع تركيزى بصفة خاصة على اتقان المواد الجديدة بالنسبة الى والتى لم أكن قد درستها فى كلية الأداب مثل القانون الدولى والاقتصاد السياسى الدولى. فقرأت فيهما كتبا عديدة واستسفتها كثيرا.. اما التاريخ السياسى والجغرافيا واللغتان الانجليزية والفرنسية أى بقية مواد امتحان المسابقة فقد كانت دراساتى الجامعية تؤهلنى لها أجمل تأهيل.. كذلك داومت على الاطلاع خلال تلك المدة على الصحف والمجلات الاجنبية.. وتقدمت لامتحان المسابقة الذى عقد فى اكتوبر أو نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، ثم دعيت لاجتياز الاختبار الشفوى بوزارة الخارجية، ثم ظهرت نتيجة امتحان المسابقة فإذا بى أول الدفعة التى قبلت وكان

عددها ثمانية عشر ملحقا دبلوماسيا من مجموع المتقدمين البالغ أربعمائة تقريبا..

وهكذا بدأ الحلم يتحقق! ولن أنكر فضل والدى رحمة الله عليه فقد ورثت عنه حب السفر والتجوال والاستمتاع بسماع الموسيقى العالمية الكلاسيكية وكذلك نشأت فى منزل اعتاد سماع اللغة الانجليزية التى كان والدى يجيدها ايضا ورغم هذا فإنى الوحيد بين اخوتى الرجال الثلاثة الذى اختار تخصيص كل حياته للسفر والتنقل المستمر والمعيشة فى الخارج ..

أى حياة السلك الدبلوماسى ..

ولست أشك فى أن رحلتى إلى أوروبا صيف ١٩٣٥ ثم رحلتى إلى أسبانيا صيف ١٩٤٧ كان لهما اثرهما القوى فى اعدادى نفسيا وذهنيا لهذه الحياة، بكل مافيها من لذة ومشقة وفى حسم اختيارى وحفز همتى لتحقيق بقية الحلم ورؤية بقية العالم !

الفصل الثانى

مصرى على ضفاف البوسفور

تسلمت عملى، كملحق دبلوماسى فى وزارة الخارجية، فى أول مايو ١٩٤٨ وألحقت بالادارة السياسية، قسم أوروبا الغربية (وقد تحول هذا القسم بعد ذلك إلى إدارة أوروبا الغربية). وقرب أواخر عام ١٩٤٨ ظهرت حركة دبلوماسية للتنقلات وعينت ملحقا فى «المفوضية الملكية المصرية فى انقرة» عاصمة تركيا . ورغم انى كنت أول دفعتى ورشحت فعلا للعمل فى سفارة مصر فى لندن الاّ أن زميلا آخر أوتى من «الحظ» ما جعله ينال منصب لندن بدلا منى. ومع ذلك فقد كنت سعيدا بالتعيين فى أنقرة ومتطلعا إلى استكشاف بلاد السلاطين العثمانيين، وبلاد الاجداد (وإن لم يكن أجدادى أنا بالضرورة ولكن أجداد كثيرين من المصريين) .

وبدأت استعداداتى للالتحاق بعملى الجديد فى أنقرة فقمت بتفصيل عدد لا بأس به من الحلل (البدل) الثقيلة إذ إن شتاء أنقرة

قارس البرودة وتهطل الثلوج فيها بغزارة وتنزل الحرارة إلى مادون الصفر بكثير ، وأصرت والدتى على شرائى لعدد من الملابس الداخلية (الفانلات) الصوفية والجوارب الصوفية وكذلك «كوفية» صوف وطبعًا وقبل كل شيء معطف صوف ثقيل ، هذا إلى جانب ما قمت بتفصيله أيضا - كالتقاليد المتبعة فى وزارة الخارجية فى ذلك الحين - من بدلة بونجور «ردنجوت» (جاكتة صوف سوداء بذيل تلبس على بنطلون أسود به أقلام رماديه وصديرى أسود وكرافته رمادى) وتلبس فى احتفالات الصباح الرسمية وتسمى بالبونجور وبدلة فراك (وهى بدلة صوف سوداء أيضا ذات جاكتة بذيل يصل إلى منتصف الساقين ويلبس عليها صديرى أبيض وقميص أبيض ذو صدر منشى لامع وكرافتة بابيون بيضاء أى كرافتة بومباغ بيضاء ويطلق عليها الغربيون اليوم White Tie أو Tails وبالفرنسية Tenue de Soirée ويلبس فى الاحتفالات المسائية الرسمية أو فى تقديم أوراق اعتماد السفراء . كذلك قمت بتفصيل بدلة سموكنج (جاكتة سوداء قصيرة وبنطلون أسود من نفس القماش ، لكن قلابات الجاكتة من قماش لامع ويلبس عليها كرافتة بابيون (بومباغ) أسود ويطلق عليها Black tie أو سموكنج ، وتلبس فى حفلات العشاء الأقل رسمية .. وهذه عدة أو متاع رجال السلك الدبلوماسى الذى لابد منه فى حياتهم الرسمية والعادية وبخاصة فى عواصم العالم الغربى ، أما دبلوماسيو الدول الأفريقية أو الأسيوية

التى لها لباس رسمى وطنى فان هذا الزى الوطنى يغنى فى كل المناسبات عن تلك الملابس الرسمية . ومنذ ثورة يوليو ١٩٥٢ لم تعد تقاليد وزارة الخارجية المصرية تأبه كثيرا أو تتمسك بالأزياء الرسمية الغربية سالفة الذكر .

وبعد انتهائى من هذه الاستعدادات الكبرى لمجابهة ثلوج أنقرة وحياة السلك الدبلوماسى فى العواصم الغربية إذا بى أفاجأ بالوزارة تطلب منى أن أتوجه لمقابلة (المرحوم) محمد على علويه باشا . وكان قد عين لتوه كأول سفير لمصر فى باكستان التى كانت بالكاد قد اعلنت استقلالها ، ورغم انى توجست خيفة فقد بادرت بالطبع إلى مقابلته فقد كان رحمه الله شخصية يتشرف مثلى بمقابلتها . وقد رحب بى وأخبرنى انه عين سفيرا لمصر فى باكستان ولما كانت ثقافته فرنسية فقد طلب من الوزارة أن ترشح له ملحقا شابا يجيد الانجليزية (لغة باكستان السائدة الرسمية فى المعاملات مع الخارج) يكون بمثابة سكرتيره ومساعده الخاص وتكون مهمته الترجمة من وإلى الانجليزية مع محدثى علويه باشا وان الوزارة قد قامت بترشيح اسمى له .

ورغم شعورى بالفخر والزهو لهذه الثقة ورغم انجذابى الشديد لشخصية علويه باشا وتواضعه ووداعته إلا أننى وجدت نفسى أعتذر عن قبول تغيير وجهتى من تركيا إلى باكستان بعد أن قطعت

كل مراحل الاعدادات وانفقت ما انفقت من وقت وجهد ومال على الملابس الشتوية الثقيلة والرسمية التى لن استعملها فى باكستان ، وكان هذا أهم الأسباب الحقيقية لاعتذارى . بيد أنه كانت هناك أسباب أخرى نفسية منها عراقة تركيا ومكانتها الدولية القديمة ومكانتها بالنسبة لتاريخ مصر وقرب تركيا الجغرافى والحضارى إلى مصر وإلى الغرب ، وأخيرا وليس آخرا فقد كنت أعلم بترشيحى السابق لسفارة مصر في لندن وما حدث من تغيير الترشيح إلى أنقرة ، ودار فى بالى أنه يكفى زحزحتى من لندن إلى أنقره رغم أني كنت أول دفعتي ، لكن من لندن إلى كراتشي فقد كانت المسافة أكثر مما استطعت قبوله خاصة أن الثانى فى دفعتى عين فى سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة والثالث أو الرابع فى واشنطن ولست أدرى من فى باريس وهكذا . وقد قبل علويه باشا رحمه الله اعتذارى بروح طيبه وتفهم ومن ثم فلم يبق أمامى سوى تنفيذ نقلى إلى أنقرة .

كانت انظمة وزارة الخارجية فى ذلك العهد تسمح لنا بتنفيذ النقل تاركة لنا اختيار وسيلة السفر سواء بالباخرة أو بالطائرة بشرط ألا يتعدى التنفيذ حدود المدة التى تستلزمها الوسيلة التى يقع عليها الاختيار أى دون تلكؤ فى الطريق .. وقد أخذت طبعا السفر بحرا من الاسكندرية إلى استانبول على الباخرة المصرية محمد على الكبير التابعة لشركة البوستة الخديوية .. وكان الوقت

نوفمبر ١٩٤٨ فلم يكن موسم الأنواء الشتوية قد بدأ بعد وكانت الرحلة البحرية تغرى بان تكون ممتعة كما كانت معى أمتعة كثيرة أى أكثر مما ترحب بنقله شركات الطيران .

كانت هذه أول مرة أبتعد فيها عن مصر وحيدا دون رفيق .. فقد كنت أعزب لم أتزوج بعد . وكان يتنازعنى شعوران : الألم لفراق الأهل والخلاّن ولمدة طويلة لم أكن أدرى مداها ، وكذلك رهبة الغربة والوحدة من ناحية ، ومن ناحية أخرى شعور التطلع إلى الجديد المبهر وحياة الاستقلال عن والدىّ ، من جانب آخر . ويقينى أن الابتعاد عن الوطن – وبخاصة بالباخرة – يولد من العاطفة وألم الفراق والحنين ، أكثر من أى شىء آخر ، وأكثر من تجربة السفر والابتعاد عن الوطن بالطائرة ، فإن رؤية الشاطئ المصرى ومدينة الاسكندرية يبتعدان ثم يتضاءلان رويدا رويدا إلى أن يختفيا تماما من الأفق لتمس النفس ولتولّد من الحنين الفورى أكثر من تجربة السفر بالطائرة والتى تقطع الصلة الحسية بمصر فى لحظة حاسمة واحدة .. كمبضع الجراح .

لكن .. سرعان ما تبتلع بهجة الحياة الاجتماعية على ظهر الباخرة كل هذه المشاعر فى مهدها وسرعان ما يستغرق المسافر فى الاستمتاع بنسيم البحر وجوه المنشط ورياضة المشى المستمر حول سطح الباخرة ، ثم التعرف على بقية المسافرين وضباط

الباخرة وطبيبها ، والمسئول عن الحياة الرياضية والاجتماعية على ظهرها .. ناهيك عن الاستمتاع بالوجبات الشهية التى كانت تشتهر بها مطاعم السفن عادة ، إذ كانت تتبارى شركات البواخر فى إرضاء واجتذاب المسافرين بتلبية جميع ما تشتهى نفوسهم من طعام وشراب فاخر .. والمعروف أن هواء البحر المنعش يشحذ شهية المسافرين .

كانت تجربة السفر بالبواخر اجمل التجارب التى يمكن أن يمر بها الإنسان . وكان السفر بحرا فى متناول يد متوسطى الحال ناهيك عن الاغنياء وكبار القوم .. لكنها اصبحت ، مثلها مثل الكثير من عالم اليوم ، احدى التجارب التى عفى عليها الزمن إذ تضافرت تكاليف الحياة وارتفاع نفقات زيوت الوقود وصيانة البواخر ومرتبات رجال السفن ، ونفقات استمرار هذه الحياة الرغدة على ظهر البواخر ، واصبحت فوق ما تستطيع أن تتحمله اغلب الشركات الملاحية وميزانيات المسافرين انفسهم . ومن هنا انخفض عدد السفن (سفن الركاب) التى يمكن أن يستقلها المسافر عبر موانىء البحر الأبيض مثلا إلى أقل من الثلث ، واقتصر العدد الباقى منها حاليا على بعض ناقلات السيارات (العبّارات Ferries) . لكن مازالت هناك بعض الشركات الملاحية «السياحية» المتخصصة فى تنظيم رحلات سياحية ترفيهية : Cruises أو Organized Tours حول بعض

موانىء البحر الأبيض أو البحر الأسود أو البحر الكاريبى وهكذا .. لكن بأثمان باهظة لا يتحملها إلا قلة ضئيلة من اصحاب الملايين والموسرين .

وقد رست الباخرة فى ميناء بيروت ووقفنا بها ليلة كاملة من أجل تفريغ وتحميل بعض البضائع .. وكان زميلى الاستاذ عزيز حمزة (السفير السابق حاليا) ملحقا بسفارتنا فى بيروت وقد استقبلنى اجمل استقبال وكان غير متزوج مثلى - واصر على استضافتى فى منزله بدلا من مبيتى على ظهر الباخرة . وقد وافق المسئولون بالباخرة فأمضيت مع صديقى ليلة بهيجة وأرانى معالم المدينة وما حولها وقد اعجبت بها ايما اعجاب ولم اكن قد رأيتها من قبل . وفى الصباح أعد لى صديقى إفطارا شهيا (فول مدمس بالطريقة البيروتية) . وأمضينا وقتا سعيدا سويا استعدنا فيه ذكرياتنا المشتركة اثناء العمل فى ديوان الوزارة إلى أن استأنفت الباخرة رحلتها الى استانبول ولم أكن أعلم حينئذ انى سوف أعود عاجلا إلى بيروت فى السنة التالية فى زيارة لوالدى اللذين اصطافا فى «سوق الغرب» بجبل لبنان فقد اضطررت إلى زيارة أبى فى سرير مرضه فى سوق الغرب للاطمئنان على صحته فقد أصيب بذبحه صدرية أثناء اصطيافه بلبنان. فاطمأننت عليه ثم عدت الى استانبول واذا بى أفاجأ بعد عودتى لا ستانبول باسبوع واحد

بوفاة والدى فى لبنان نتيجة لجلطة قلبية ولم أكن الى جانبه وإلى جانب والدتى حينما وافته المنية. وهذه من مخاطر العمل بالسلك الدبلوماسى ولن تجد دبلوماسيا واحدا الا شكا لك من تكرار هذه الظاهرة المؤسفة وهى أمر لابد منه لمن اختار حياة التفرغ للمعيشة فى الخارج .

نعود إلى الباخرة محمد على الكبير وقد اجتازت مضيق الدردنيل المؤدى من بحر ايجه (ذلك الجزء من البحر الأبيض) الى بحر مرمرة المقفل - والدردنيل هو ممر ضيق بين شاطئين جبليين وقد استعدت ذكريات قراءاتى عن محاولات الحلفاء الفاشلة فى الحرب العالمية الأولى انزال قواتهم فى جاليبولى على شواطىء الدردنيل حيث لقوا مقاومة عنيفة وناجحة من الاتراك الذين اهلكوا حوالى خمسة عشر ألفا من جنود الحلفاء (اغلبهم من الاستراليين وجنود المستعمرات والدومنيون البريطانية) واجبروهم على الانسحاب. لكنى لم أعجب لذلك فالشاطىء جبلى حصين وقد عرف عن الاتراك شدة المراس والاستماتة فى القتال خاصة انهم كانوا يذودون عن بلادهم ضد محاولات الحلفاء اقتطاع جزء من تركيا وإعطائه لليونان المستقلة حديثا عن الدولة العثمانية ..

ثم وقفت على ظهر مقدمة الباخرة ذات صباح أرقب عبورنا نهاية بحر مرمرة استعدادا للوصول الى مشارف البوسفور مرورا

بالجزر adalar الخضراء الثلاث الجميلة الواقعة قرب نهاية بحر مرمرة واكبر هذه الجزر وابعدها عن استانبول بيوك أدا (الجزيرة الكبيرة) وتليها هايبلى أدا (الجزيرة الشبيهة بالمنخل أو المنخال).. ثم تليها اصغرها واقربها الى استانبول، وكانت قد جرت عادة كبار الاتراك العثمانيين على قضاء بعض الصيف فى الجزر هربا من حرارة استانبول وابتغاء للهدوء والراحة وبعض الجمال.. ومن ثم فان اليونانيين كانوا يطلقون على هـذه الجزر اسـم جزر الامراء Principu برينكيبو.. وبالجزر منازل غاية فى الجمال وسط غابات الأشجار القديمة الباسقة ، ولم يكن يسمح للسيارات بدخول الجزر اكتفاء بالعربات التى تجرها الخيول .. وبالجزيرتين الكبيرتين مدن أو قرى مأهولة ومطاعم طيبة (ما زال عدد منها يقدم طيبات البحار على الطريقة اليونانية مثل الأسماك المشوية والمحلاة بزيت الزيتون والليمون) ، وقد كانت الرحلة من استانبول إلى بيوك أدا تستغرق ساعتين إلا قليلا بالمعديات الكثيرة التى تشتهر بها استانبول وهى من أجمل معالم استانبول السياحية ومن أجمل ذكريات زياراتى اللاحقة إلى استانبول والجزر صيفا .

ثم تبدو استانبول أخيراً فى الأفق .. وتتميز استانبول عن أى مدينة أخرى فى العالم بأنها مدينة كبيرة عريقة تجمع ما بين القديم والحديث لكنها بنيت على شاطئ البوسفور ، الأسيوى والأوروبى ..

والبوسفور شريط مائى عرضه بضعة كيلو مترات (ما بين ٢ و ٤) وطوله أكثر من عشرين أو ثلاثين كيلو مترا يصل ما بين بحر مرمرة والبحر الأسود وتقع نصف استانبول على شاطئ البوسفور الأسيوى والنصف الآخر على شاطئ البوسفور الأوروبى وتقع منازل المدينة وجوامعها بدءا من الشريط الساحلى وترتفع متدرجة رويدا رويدا مع التلال الخضراء التى تحف بشاطئ البوسفور ذات اليمين وذات اليسار . وتتلألأ القصور البيضاء والجوامع والمآذن وسط زرقة مياه البوسفور المتدفقة الداكنة وخضرة التلال المحيطة .

وأول ما يطالعك عند تقدم الباخرة استعداداً للرسو فى ميناء استانبول جهة اليسار أى على الجانب الأوروبى أول ما يطالعك هو القرن الذهبى The Golden Horn وهو فرع من البوسفور (تماما مثل الزائدة الدودية) يتجه شمالا وغربا نحو اليسار ، وتقع على ضفتيه استانبول القديمة بما حوت من جوامع ومآذن وقصور بعضها تحتله سفارات بعض الدول العظمى ذات التاريخ القديم مع الامبراطورية العثمانية ، ويشرف أيضا على القرن الذهبى هضبة شامخة تطل على مشارف استانبول والبوسفور ونهاية بحر مرمرة وعلى رأس تلك الهضبة قصر رحيب ذو قباب بيضاء أو صفراء مستديرة تعود بالذاكرة إلى قباب آسيا وآسيا الصغرى وهذا صحيح فقد كان قصر توب كابو Top Kapu أى قصـــــر باب

المدفع [1] من أوائل القصور التى اقامها العثمانيون بعد فتح استانبول سنة ١٤٥٣ ميلادية وظل مقراً لاقامة السلاطين فى أوائل حكمهم وهو الآن متحف شهير يضم كثيراً من آثار الحضارة العثمانية فى أوائل عهدها قبل أن تتناولها يد الثراء والنعمة والمدنية عندما اتسعت الامبراطورية لتشمل بلاداً قديمة ذات نعمة وحضارة مثل مصر والشام وبلاد البلقان ، وإلى جانب قصر توب كابو يوجد أهم آثار القسطنطينية Constantinople وهو الاسم البيزنطى نسبة إلى الامبراطور كونستانتين أهم اباطرة الامبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية الا وهو أيا صوفيا أو سانت صوفى وهى أهم كاتدرائية فى الامبراطورية البيزنطية ، ويقال : إنه فى سانت صوفى وما حولها وقف أهالى القسطنطينية المسيحيون وقد احاط بهم العثمانيون من كل جانب منذ ثلاثة شهور وقطعوا عنهم امدادات المياه والطعام وقف أهالى القسطنطينية يصلون ويبتهلون ويتساءلون متى ينزل عليهم الملاك الذى سيحميهم ويدفع عنهم شر العثمانيين "الكفرة" ؟! واختلف أهل بيزنطة فيما بينهم مدة طويلة ألهتهم عن محاربة العثمانيين ومراقبة تحركاتهم حول هذا السؤال .. هل سيكون هذا الملاك ذكراً أم أنثى ؟ ..

---

(١) توب يعنى مدفع ومنها كلمة طوبجى أى مدفعجى . أما Kap فيعنى باب أو بوابة .

ومن هنا جاء تعبير "مناقشة بيزنطية" أى دون فائدة وغير ذات موضوع ! إلى أن نجح العثمانيون فى الالتفاف حول المدينة واقتحامها وسقطت بين أيديهم ثمرة ناضجة فغيروا اسمها من القسطنطينية إلى اسلام بول . Islam bol أى مدينة الاسلام الوفير أو "الاسلام فى وفرة وخير" وحرفت فيما بعد إلى استانبول لكن مازال كثير من الناس الذين ينتسبون إلى هذه المدينة يسمون أنفسهم "الاسلامبولى" وليس الاستانبولى . أما العثمانيون وقد دانت لهم عاصمة الامبراطورية البيزنطية ثم الامبراطورية بأسرها فقد أصبحوا – وهم فى عنفوان وحماس اسلامهم – يطلقون اسم "كافر" على كل من ليس بمسلم من أهالى بيزنطة .. لكنهم ينطقونها Kavur إلى اليوم . أما المسيحيون أو اليهود من أهل بيزنطة أو استانبول الذين اختاروا بسبب أو آخر ان يغيروا ديانتهم الأصلية إلى الإسلام فقد اسماهم الاتراك Dönme الدونمة أى الملتفون أو المغيرون (أى المرتدون عن دينهم) لأن فعل Dönmek معناه يدير أو يلف وجاء منها كلمة Döner Kebab أى الذى يطهو بادارته باستمرار فوق النار المشتعلة !

كانت هذ الذكريات وأمثالها كثيرة تدور بمخيلتى بسرعة والباخرة تقترب من رصيف ميناء استانبول وكلما تكرر عبورى بالمعديات أمام هذه البقعة فيما بعد .. وقد بدت عن قرب معالم الضفة الغربية

أى الأوروبية من المدينة وبدت الجوامع بمآذنها وجدرانها البيضاء الشامخة بدت غريبة أول الأمر وغير مألوفة وسط هذه المدينة وهذه الطبوغرافية التى تبدو أوروبية الطابع فى مناظرها الطبيعية فيما عدا كثرة الجوامع كثرة ملحوظة وفيما عدا وجود عدد كبير من "الحمالين" (الشيالين) الاناضوليين الفقراء .. وقد اسميت استانبول مدينة الألف مئذنة فى وقت من الاوقات وان كنت اظن أن الرقم مبالغ فيه كثيرا . وأهم جوامع استانبول الجامع الأزرق – السليمانية – وجامع السلطان الفاتح .. وكلها جوامع تتميز بالذوق الفنى الرفيع وأبهة التحف والرياش الداخلية ولكن أيضا ببياض لونها من الخارج . وزيارة الجوامع التاريخية من أهم معالم استانبول السياحية تماما مثل زيارة أياصوفيا وتوب كابو وقصر ضولمة بهجة وقصر يلدز .

فقبل أن تقف الباخرة تماما أمام رصيف الميناء قد تواتيك الفرصة لتقع عيناك على قصر رائع أبيض اللون كالمرمر يزيده بياضا وبريقا دكانة زرقة مياه البوسفور التى يطل عليها قصر «ضولمة بهجة» وكان مقر آخر السلاطين العثمانيين .. وضولمة كما نعلم معناها محشو لكن بهجة معناها بالتركية "حديقة" أى القصر ذو الحديقة المحشوة (حشوا) Dolma Bahce . ولهذا قصة طريفة فقد قرر السلطان الانتقال إلى هذا القصر الجديد لمناسبة

اجتماعية هامة فى موعد قريب ولم تكن الحديقة قد زرعت بعد فأمر بنقل الاشجار كاملة النمو إليها وزرعها زرعا أى حشوها فى الحديقة !

جاء رسو الباخرة أما مبنى كبير قاتم اللون ، رأيت الكلمات Gümrük مكتوبة اعلاه فخمنت انها تعنى الجمرك وكان هذا صحيحا .. كان فى استقبالى عبد الرحمن جون آيدن Gün Aydin واسمه يعنى صباح الخير بالتركية الحديثة . وهو قواس [1] Kawas (حارس - ساعى) القنصلية المصرية العامة فى استانبول وكان شخصا رقيقا مهذبا وجهه شديد البياض وعيناه شديدتا الزرقة الصافية وشعره اشقر ناعم ففهمت انه كان ينتمى إلى طائفة الشراكسة .. أما الاتراك الاناضوليون فتغلب عليهم السمرة وكثير منهم يحمل تقاطيع اسيوية أو منغولية .. ولهذا يخطئ كثيرا - كما تبينت فيما بعد - من يظن أن كل الاتراك مثل جون آيدن فالعكس صحيح .. وكان جون آيدن لحسن الحظ يتكلم بعض العربية حيث كان يعمل فى قنصليتنا منذ سنوات طويلة .. وكان هذا لازما إذ لم اكن اعرف التركية بعد . وقد اصطحبنى جون آيدن إلى القنصلية .

---

(١) كان حراس القنصليات الأجنبية يسيرون إلى جانب العربات المقلة للقنصل حاملين القوس والنشاب كمظهر من مظاهر قوة وعزة دولة القنصل الأجنبى . ومن هنا جاءت كلمة «قواس Kawas»

المصرية حيث احتفى بى زمــلائى الأعزاء نائب القنصل عثمان ارناءوط وســكرتير القنصلية المرحوم عز العرب أمين (اصبحا سفيرين فيما بعد) كما تناولت الغداء مع القنصل العام ..

وفى المساء أخذنى جون آيدن عبر البوسفور فى احدى العبّارات (المعديات) الكثيرة التى تعمل باستمرار مثل خطوط الترام، بين الاحياء المزدحمة والمتناثرة على ضفتى البوسفور شرقا وغربا .. فإذا بنا فى محطة القطار الرسمية بمدينة استانبول والتى تصلها بالعاصمة انقرة وبقية المدن فى آسيا الصغرى وكان اسمها محطة (حيدر باشا) وقد ركبت القطار ذا عربات النوم إلى انقرة العاصمة وتبعد عن استانبول قرابة ٤٥٠ كيلو مترا وسط هضبة آسيا الصغرى شديدة الوعورة والغنية بالجبال الشاهقة والوديان والانهار والغابات الخضراء .. وكان القطار وعربات نومه كأحسن ما تمنيت ووصلت انقره فى الصباح التالى ..

وقد قدرت لى فيما بعد العودة لزيارة استانبول بل ولقضاء فترتى صيف فيها فقد كان كثير من السفارات تنتقل إلى استانبول صيفا كما جرت العادة حينئذ كما ان كثيرا من السفارات التابعة للدول التى كانت لها علاقات تاريخية قوية مع تركيا تملك مقارا صيفية دائمة فى استانبول (مثل روسيا وبريطانيا وفرنسا وهكذا) . وكانت مصر تملك فعلا مثل هذا المقر الصيفى فى استانبول وهو

قصر Bebek وهو اسم الحى ويقع على ضفة البوسفور الغربية الأوروبية وكان القصر اصلا ملكا "لوالدة باشا أى والدة الخديو واصبح ملكا للدولة المصرية وقررت الافادة منه فوضعته تحت تصرف السيد السفير فى انقرة . (وهو حاليا مقر القنصلية العامة فى استانبول ويقيم القنصل العام فى جزء منه أيضا) .

أما قصر بيبك هذا فيقع فى حى بيبك القديم فى وسط الساحل الأوروبى لاستانبول وللقصر ما يشرف على أربعين أو خمسين حجرة وعدة أجنحة وكان الدور الأرضى منه يستعمل من أجل صالونات الاستقبال وحجرة المائدة الرسمية ومكاتب السفير وكبار مساعديه .

أما الدور الثانى ففيه السكن الصيفى للسفير وعائلته .. وقد تفضل السفير رحمه الله وكان السيد/ أمين فؤاد المناسترلى (بك) فسمح للدبلوماسيين من اعضاء السفارة بسكنى بقية غرف الاجنحة الأخرى فى الدور الثانى ومن هنا سنحت لى فرصة الاستمتاع بالمصيف فى استانبول ..

ومن أوائل الاشياء التى اشتقت إلى فعلها وقت فراغى عندما عدت لاستانبول صيفا كان الاستمتاع بالاستحمام فى مياه البوسفور حيث كان قصر بيبك يطل مباشرة على البوسفور وله مرسى خاص يمكن منه النزول إلى المياه ، لكنى بعد أن سبحت عدة أمتار قنعت من الغنيمة بالاياب فقد كانت مياه البوسفور شديدة

البرودة والسرعة بفعل التيارات المائية الباردة الواردة من البحر الاسود على بعد عدة كيلو مترات شمالا - كما كان البوسفور عميقا ليس به مكان للوقوف ووجدت فيما بعد أن أهل استانبول ينعمون بحمامات البحر الأكثر أمنا ودفئا فى بحر مرمرة وبه عدة بلاجات طبية منها فلوريا قرب مطار استانبول المطل على بحر مرمرة فى حى Yesil Köy أى الحى الاخضر أو المرسى الأخضر لكن هذا لم يقلل من جمال البوسفور ، وسحر مناظره ومن لذة ركوب المعديات الكبيرة التى تصل احياء استانبول الأسيوية والأوروبية بعضها بالبعض الآخر .. ويستعملها الاستانبوليون والسائحون للنزهة عبر البوسفور أو كوسيلة لقضاء مهامهم وأعمالهم . أما الآن وبدءاً من أواخر السبعينات فقد اقام الاتراك جسرا (كوبرى) معلقا حديثا ضخما يصل لأول مرة ما بين استانبول الاسيوية واستانبول الاوروبية لعبور السيارات والمشاة .. وقد نجحت هذه التجربة فتبعوه بآخر .. بل ان استانبول بسبيل أن تبنى حاليا جسرها المعلق الثالث عبر البوسفور .. ويمكن للسفن العملاقة عابرة المحيطات المرور تحت الكوبريين تماما مثل كوبرى جولدن جيت قرب سان فرانسيسكو أو كوبرى فيرازانو فى نيويورك أو مثل كوبرى لشبونة عاصمة البرتغال ..

واستانبول مدينة عريقة فى القدم وعرفت منذ أيام الاغريق

والرومان لكن اخذت طابعها الاسلامى منذ الفتح العثمانى سنة ١٤٥٣ لكثرة ما جمعته من جوامع ومآذن بل وبازارات (اسواق شرقية) قديمة اهمها السوق المغطاة Kapali Cerce (كيالى تشرشه) والسوق المصرية Misir Cercesi (ميصير تشرشسى) والملاصقة للأولى .

وللمصريين فى بناء استانبول دور أهم بكثير من مجرد تسمية جزء من سوق استانبول القديمة على اسمهم . فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر سنة ١٥١٦ استقدم من القاهرة إلى استانبول الفا (١٠٠٠) من أمهر الصناع والفنانين والبنائين المصريين لمساعدته على بناء وتجميل استانبول وذلك لما رآه شخصيا من روعة العمارة ومن ابداع الفنانين المصريين فى بناء وتجميل الجوامع والمآذن والقصور التى رآها فى مصر . ومن ثم فقد خلّف هؤلاء المصريون – كما سجل التاريخ – اكثر من اثر واكثر من قسم فى سوق استانبول المغطاة . وهناك تشابه كبير لا تنكره العين بين عديد من جوامع ومآذن مصر وامثالها فى استانبول. والواقع الذى يشهد به التاريخ كما يشهد به الحاضر سواء بسواء ان الاتراك عندما فتحوا الشام ومصر وايران ويوغوسلافيا واليونان وبلغاريا كانوا حقا غزاة اقوياء لكنهم كانوا رعاة وبدوا رحلاً جاء وا حـــديثا من مرعاهم ووطنهم الأصلى فى

سهوب اواسط آسيا لكنهم كانوا أقل ثقافة وحضارة وعراقة من كثير من البلاد التى فتحوها بحد السيف وبالفروسية ومن ثم اخذ الاتراك أو استعاروا الكثير من هذه الاقطار كالاف من مهرة الصناع والفنانين وكأصناف عديدة من المأكل والملبس وطرق العيش والتحدث وكالاف الكلمات الفارسية والعربية التي تعبر عن معان حضارية وثقافية لم يكن يعرفها الاتراك بعد ومن ثم لم يكن لها مرادفات فى اللغة الطورانية أو التركية القديمة ..

ورغم أن اتاتورك قاد حملة عاتية منذ ١٩٢٣ لتخليص تركيا من قيود وصلات تاريخها الطويل ولفتح الطريق أمام تركيا أخرى حديثة (أوروبية إن أمكن بدلا من شرقية) ورغم أنه قاد المحاولات لقطع صلات تركيا العاطفية والروحية بالشعوب العربية والتخلص من الكلمات العربية فى اللغة التركية ، فمازالت تركيا يغلب عليها طابع الدولة أو الأمة الشرقية رغم ارتداء أهل المدن بأمر اتاتورك للزى الأوروبى ورغم تحويل الكتابة من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية ..

ومازالت تربط الاتراك بالأمة الإسلامية والعربية روابط الدم والدين وجذور الحضارة ومازالت آلاف الكلمات العربية تسمع على

لسان الاتراك وان لم يجيدوا نطقها وان استعملوها فى معان مخالفة بعض الشىء لمعناها الأصلى بالعربية ..

نعود إلى استانبول ، والسوق المغطاة . والأخيرة اقرب شىء إلى خان الخليلى بالقاهرة أو سوق الحميدية فى دمشق سوى أن السوق المغطاة أكثر اتساعا ونظافة وتنظيما وبها عدد لا يعد ولا يحصى من الحوانيت والأزقة بل والاحياء المتخصصة فى الملابس أو الجلود أو الفضيات والتحف أو المصاغ أو المأكولات وهكذا .

ولا يمانع أصحاب الحوانيت فى هذ السوق وغيرها فى المساومة بل قد يخفضون لك السعر أحيانا إذا ما قبلت السعر الذى طلبوه دون نقاش .. والاتراك عموما عرفوا بالأمانة وحسن المعاملة . وفى السوق المغطاة وعلى مدخل السوق المصرية كان يوجد أحد مطعمى «عبد الله افندى» الشهيرين فى استانبول ، أما الآخر ففى جادة (شارع) الاستقلال Istiklal Caddesi فى حى تقسيم Taksim مركز استانبول الحديثة .

ومائدة الطعام التركية حافلة بما لذ وطاب . فسادة العثمانيين كانوا ينعمون بلذة الحياة وعشقوا الأكل الطيب والمعيشة الرغدة ، أما المائدة التركية فقد اتسعت بقدر اتساع الفتوحات ثم اخذت من كل بستان زهرة ، وكانت هذه البساتين التى اخضعوها كثيرة فى آسيا والعالم العربى وافريقيا وشرق أوروبا .. ثم فاضت المائدة

التركية بعد ذلك بخيراتها وعمت سوريا ولبنان ومصر التى أخذت عنها كثيرا من اطباق الطعام التركية الشهية . ومع ذلك فقد تختلف طريقة طهو الاتراك انفسهم لهذه الأطباق بعض الشيء عن الطريقة التى ألفها المصريون أو الشوام وقد تفوقها دقة وطرافة .. ومن أشهر هذه الأطباق التركية الضولة الكاذبة يالانچى Yalanci Dol-ma (تطهى بالزيت وبدون لحم داخلها لكنها تحشى بالصنوبر والزبيب) ومحشو الفلفل الأخضر Biber Dolmasi وورق العنب Ya-prak Sarma ومحشو القرع Kabak Dolmasi ومحشـــو الكرنب Lahna وهكذا ، إلى جانب طبق الكباب أو الكفتة العائمة على بحر من فتة الزبادى والزبدة الساخنتين Yogörtlu Kebab وأنواع الأرز بالزبيب والصنوبر Dawod Pasa Pilav وطبق صدور الفراخ (نسائر) المغطاة بصلصته اساسها مسحوق الجوز الشركسية Cerkes Tavuk ونسائر الفراخ داخل المحلبية .. Tavuk Göksu وأنواع الكفتة بالبقسماط (كفتة "ورك الهانم" Kadin Budu Köfte وهكذا .. هذا إلى جانب الحلويات التركية الشهية المتقنة الصنع كالكنافة المحشوة بالفستق Tel Kadoyif والبقلاوة .. كذلك من اشهر الأطباق الباذنجان المسمى امام بايلضى وهو معروف فى مصر Imam Bayildi أى الامام (القاضى) اغمى عليه (من فرط الاستمتاع بهذا الطبق) .

ومن لا يلتفت إلى وجوب الحذر فى تناوله لكل هذه المشهيات فسرعان ما يجد أن وزنه قد افلت من يده وهو ما حدث لى أول سنة عشتها فى تركيا إذ لم اكن قد تزوجت بعد وكان معظم تناولى للوجبات فى المطاعم ومن ثم لم استطع العودة إلى وزنى الأصلى قبل ذهابى إلى تركيا إلا بعد سنين طويلة من ضبط النفس والحذر .

أما الانبذة التركية فجيدة ويسمون النبيذ الأحمر Kirmizi Sera-bi الشراب القرمزى والأبيض Beyaz Serabi الشراب الأبيض أما البيرة الغامقة (مثل بيرة اسوان فى مصر) فاسمها Siyah Bira سياخ بيره .

هذا وإلى جانب النزهات البحرية الكثيرة المتوافرة فى استانبول وما حولها عبر البوسفور أو فى بحر مرمرة إلى الجزر الثلاث سالفة الذكر أو إلى مدينة يالوفا Yalova وأمثالها على بحر مرمرة وإلى البلاجات الكثيرة فإن الغابات المحيطة باستانبول الأوروبية تمتد بك حتى حدود بلغاريا واليونان القريبة . وقرب استانبول توجد مساقط مياه معدنية فى الجبال المحيطة اشتهرت بكفاءتها فى مساعدة عملية هضم الأطعمة التركية الشهية ومنها ، ما أسماه الاتراك Tas delen (طاش دیلین) أى التى تذيب الحجر فإن كلمة Tas معناها

حجر ومن هنا فإن اسم «دمرداش» كان يعنى الحجر الحديدى (Demir أى حديد) .

كذلك فإن الوصول من استانبول القديمة حول القرن الذهبى إلى سواحل البوسفور الشمالية حيث امتدت المدينة الجديدة ، وحيث توجد أحياء حديثة جميلة مطلة على سواحل البوسفور مثل استنيا وصارى ير Sare Yer وترابيا تتميز كلها بوجود الفنادق الحديثة والمطاعم الصيفية فى الهواء الطلق التى تقدم اطايب وخيرات البحر المتوافرة بكثرة كالاسماك والجمبرى والاستاكوزا ، يعتبر فى حد ذاته نزهة رائعة . وللوصول من وسط استانبول إلى اطرافها الشمالية الحديثة يمكن اختيار احد طريقين برين الطريق الجبلى أى العلوى من فوق التلال الخضراء وتعلمت سريعا أن اطلب من سائقى التاكسى فى هذا الحالة اخذ الطريق العلوى Yukariden أو على العكس من ذلك الطريق السفلى ashadan من على ساحل البوسفور بدءاً بحى الأرناءوط Arnaout Köy وحى القاضى Kadi Köy ثم الحى الأوسط Orta Köy ، وعبورا ببيك وهكذا .. أما إذا كان لديك متسع من الوقت وتفضل ركوب البحر فيمكن اخذ احدى المعديات قرب كوبرى غلطة Galata Koprusu فى وسط المدينة القديمة وحيث موقف المعديات وحيث يكثر عدد الحمالين Hamal إلى أحد الاحياء شمالا قرب نهاية البوسـفور مثل صارى يد أو ترابيا

أو استتنيا وهو ما يتيح للناظر نزهة بحرية وجمالية فريدة ما بين الشاطئين الاسيوى والاوروبى ملتقى القارتين عبورا بقصر ضولة بهجة وقلعة محمد الثانى Yeni Hisar – حصار معناها قلعة وينى جديد – ثم بعدد كبير من الاحياء والمنازل والقصور الغفيرة المطلة على البوسفور والتى تعود بالذاكرة إلى مجد الامبراطورية العثمانية التليد . وبين كل حى من هذه الاحياء المطلة على البحر Köy (Quai) سلسلة لا تنقطع من الغابات الكثيفة الخضراء . ولا تكاد تنقطع حركة هذه العبارات (المعديات) على مياه البوسفور وبعضها يرسو مرة فى الجانب الأوروبى ثم مرة أخرى فى مقابل ذلك على الجانب الآسيوى وهكذا . وبعضها الآخر يكتفى بالرسو على جانب دون آخر أحيانا .

أما حركة الملاحة الدولية للسفن الكبيرة التى تجتاز البوسفور من البحر الأبيض إلى البحر الأسود أو العكس فتشمل بعض سفن الركاب المتجهة إلى موانىء رومانيا أو بلغاريا أو شبه جزيرة القرم فيما كان يسمى الاتحاد السوفييتى ، أو بعض سفن البترول أو حتى بعض السفن الحربية التركية أو الروسية أو الأمريكية (نظمت اتفاقيات السلام بعد الحرب العالمية الأولى المرور البحرى الدولى الآمن عبر مضايق البوسفور Innocent Passage زمن السلام وضمنت حرية الملاحة فى البوسفور تحت اشراف تركيا الدولة

صاحبة السيادة على المضايق وهو ما يجعل منظر البوسفور فريدا ومسليا إلى جانب العنصر الجمالى الذى لاشك فيه ..

ومياه البوسفور عميقة جدا وباردة جدا خاصة أن البوسفور تكون نتيجة لزلزال أرضى شديد كسر القشرة الأرضية مكونا هذا الأخدود العميق الغور والذى فرق ما بين ما نسميه حاليا آسيا وأوربا فى هذا الموضع . وتركيا كما تعلم مازالت إلى اليوم منطقة زلازل وبخاصة فى آسيا الصغرى أى الشق الشرقى من الجمهورية ومن هنا فإن التاريخ يروى أن بعض السلاطين ومن حولهم كانوا يتخلصون من اعدائهم أو ممن يخرج عن حظوتهم من الحريم أو الاغوات بالقذف وسط البوسفور ليلقوا حتفهم غرقا حيث تجرفهم تيارات مياه البوسفور بعيدا .

وصيف استانبول جميل معتدل وأقل حرارة من صيف انقرة فالأخيرة جوها قارى إذ تقع وسط هضبة الاناضول أما استانبول فبحرية ويقلل من برد شتائها وقيظ صيفها وقوعها كلها على بحر مرمرة والبوسفور .. وليالى الصيف فى استانبول تهب عليها نسمات بحرية منعشة يستمتع بها أهل استانبول بارتياد الكازينوهات فى الحدائق يستمعون إلى الموسيقى التركية القديمة (مثال ذلك فى حديقة التل Tepe Bahce حيث كانت تغنى «صفية» إحدى مشاهير المغنيات التركيات وأمثالها) .. أو يشهدون عروض

الأوبرا أو الغناء الغربى الحديث فى مسرح الهواء المفتوح Acik Hava Teatrusu في حي تقسيم ..

حدث في صيف سنة ١٩٥٠ ان ركبنا انا وزوجتى وبعض الزملاء الدبلوماسيين المصريين وزوجاتهم إحدى المعديات من استانبول قاصدين بيوك ادا أو الجزيرة الكبيرة فى بحر مرمرة وكان يوما من أيام رمضان القائظة وتستغرق الرحلة حوالى الساعتين ودارت الاحاديث البهيجة بيننا فى مرح وحبور باللغة المصرية بطبيعة الحال فى حين كان بعض السيدات من بيننا يتناولن بعض الشطائر أو المرطبات ... وإذا برجلين تركيين يرتديان بيريه (قبعة) Beret فوق رأسيهما يقتربان منا ويسألان واحدا منا كان يجيد التركية «هل انتم عرب ؟» فأجابه بالايجاب فعاد يسأله هل أنتم مسلمون ؟ فأجابه بالايجاب أيضا فعاد يسأله» ولماذا إذن لا تصومون فى رمضان ! نحن اتراك مسلمون وصائمون (فعل يصوم Uruc Tutmck (أوروتش الصيام) وقد اعتذر إليهم زميلنا قائلا : إنه هو واغلبيتنا صائمون اما من افطر منا فقد فعل ذلك لاسباب صحية والدين الحنيف يُسر لا عسر ..

هذا ومن الطريف أن رجال الدين فى تركيا وقد حرم عليهم منذ عهد اتاتورك ارتداء زى المشايخ التقليدى اصبحوا يرتدون البذلة الأوربية ومن فوقها يرتدون القبعة التقليدية البيريه بدلا من العمامة .. Berct

والواقع انه لا يكتمل الحديث عن تركيا دون التعرض لموقفها من العرب ومن الاسلام بشيء من الايجاز . فبعد أن غزا السلطان سليم الأول مصر سنة ١٥١٦ ميلادية انتقلت الخلافة من القاهرة حيث كانت إلى استانبول حيث ولّى السلطان العثمانى نفسه اميرا للمؤمنين وظل الأمر هكذا حتى سنة ١٩٢٣ وكان الاتراك يعتبرون العرب جزءا لا ينفصل عن «دار الإسلام» ورئيسها أمير المؤمنين أى الخليفة فى استانبول وكان العرب بحكم كونهم مسلمين يدينون بالولاء والطاعة لأولى الأمر منكم . ولم يكن لشعور الوطنية الضيقة محل من الاعراب فى ذلك الوقت وحتى اوائل القرن العشرين .. لكن بدأ العرب يتململون تحت وطأة حكم الاتراك مع أول بشائر شعور الوطنية فى اوائل القرن العشرين .. وقد شجع دخول تركيا الحرب العالمية الأولى فى صف المانيا ضد بريطانيا وفرنسا شجع العرب الذين كانوا تحت حكم البريطانيين الذين تسللوا إلى مصر وفلسطين على رفع راية الوطنية والمطالبة بالاستقلال وشجعهم فى ذلك الأمر لورانس - والمخابرات البريطانية والفرنسية .. إلى أن قام العرب فى سوريا وفلسطين بثورتهم الشهيرة سنة ١٩١٦ ضد الحكم التركى وإلى أن حلت الهزيمة بتركيا مع ألمانيا .. ولم ينس الأتراك حتى اليوم انضمام العرب إلى بريطانيا وثورتهم ضد تركيا أثناء الحرب مطالبين بالاستقلال . ولكن كان جزاء العرب أن حنث

البريطانيون والفرنسيون بوعودهم لمنحهم الاستقلال . ولما قامت ثورة تركيا الفتاة ضد السلطان ونجح اتاتورك فى خلع آخر السلاطين وإعلان الجمهورية فى تركيا وإنهاء الخلافة كان هذا إيذانا ببدء ثورة شاملة فى تركيا ثورة اجتماعية ودينية وسياسية - ارادت ان تقطع تماما صلتها بالماضى برمته بما حواه من سلاطين وخلافة وعلاقات مع العرب ومع اللغة العربية كما ارادت التخلص من القيود التى فرضها الدين على الدولة والمجتمع بإعلان قيام علمانية حديثه ليست لها علاقة ما بالدين .. فأنهى اتاتورك الخلافة ونقل العاصمة من استانبول إلى انقرة وبدأ حملة إصلاحية لتحديث تركيا فمنع كتابة اللغة التركية بالحروف العربية واستبدلها بالحروف اللاتينية وبدأ حملة عاتية لتخليص اللغة التركية من أكبر عدد ممكن من الكلمات العربية حتى وإن استبدلها بكلمات فرنسية أو غربية ان لم يوجد لها مرادف باللغة الطورانية (أصل التركية القديمة) وإلى جانب إعلان قيام الدولة العلمانية حاول انهاء كل تأثير ممكن للمشايخ ورجال الدين فمنع تزييهم بالزى التقليدى لرجال الدين الإسلامى وجعلهم كما جعل كل الاتراك يتزيون بالقبعة والزى الغربى (مما جعل المتدينين ورجال الدين يضطرون إلى لبس البيريه Beret بدلا من العمامة) ، وباختصار حاول اتاتورك جعل تركيا دولة اوروبية بدلا من شرقية لكى تستطيع مسايرة.تقدم الدول الغربية العظمى

ومواجهة تفوقها على الامبراطورية العثمانية . ولاشك فى أن ستين عاما من تطبيق هذه السياسة الاتاتوركية قد تركت آثارها على الجيل الجديد من الاتراك .. ورغم وقوع كثيرين من الاتراك اذن تحت تأثير هذه الموجة العارمة موجة اتهام العرب بالخيانة أو الاشتراك فى هزيمة تركيا اثناء الحرب واضعاف تأثير الدين والتشبه بالغرب .. إلا أنى وجدت فى تركيا معينا لا ينضب من التدين والتمسك بشعائر الإسلام وبخاصة فى الريف التركى وبقية المدن الصغيرة بخلاف استانبول وانقرة وأزمير . كما أن هناك معينا وفيرا من الود والصداقة للعرب بحكم صلة الدين والارحام والعادات والتقاليد المشتركة التى مازالت باقية إلى حد كبير وبخاصة بعيدا عن كبريات المدن التركية .. ورغم المحاولات الرسمية على مدى ستين عاما متصلة للتخلص من الكلمات العربية فى اللغة التركية فمازالت هناك - رغم هذا - الاف الكلمات العربية التى تستعمل يوميا فى احاديث الاتراك وتملأ صفحات الجرائد والمجلات سواء أفطنوا أم لم يفطنوا إلى أصلها العربى . يكفى أن الشعار الذى اختاره اتاتورك بنفسه ومازال إلى يومنا هذا يزين صدر جامعة انقرة يقول :

"حياة آن حقيقى مرشد علم سر Hayata En Hakiki Mürsid Elimidir العلم هو المرشد الحقيقى فى هذه الحياة (وكل كلمة من كلمات اتاتورك هذه من اللغة العربية) .

ومازال التمسك بالتقاليد الشرقية وبشعائر الدين والروح المحافظة من التيارات القومية ذات التأثير الفعال فى السياسة التركية الداخلية ويتبناها حزب من أقوى الاحزاب التركية ومن اقوى التيارات السياسية المسيطرة على الدولة وذلك بعكس حزب أو تيار آخر - يتمتع بحماية القوات المسلحة - يتجه شطر الغرب والتشبه بالشعوب الأوروبية الغربية ، وقد استطاع هذا التيار الأخير الاستئثار بالحكم سنين طويلة بفضل مساندة القوات المسلحة التى مازال شغلها الشاغل - تاريخيا وتقليديا - الحذر والخشية من روسيا سواء القيصرية أو الشيوعية ، وقد استطاع هذا التيار جعل تركيا عضوا فى حلف الأطلسى الغربى وحليفا قويا للولايات المتحدة اشتركت بقوات تركية فى الحرب الكورية ١٩٥٠ وها هى ذى تركيا أيضا تطالب بالانضمام إلى المجموعة الأوروبية الغربية ، وبدخول السوق الأوروبية المشتركة كعضو كامل أى أوروبى ..

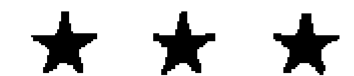
وكل من هذين التيارين السابقين يتنازع قيادة تركيا ضد الاتجاه الثالث والأكثر ضعفا وهو التيار اليسارى (الماركسى) فالاتراك عموما وتقليديا يعتبرون انفسهم اعداء لروسيا ولكل ما هو روسى الأصل .

والخلاصة إذن انه رغم حملة اتاتورك ومن خلفوه فى الرياسة من زعماء الجيش لقطع صلات تركيا بالماضى إلاّ أن الريف التركى

مازال يمثل قلب تركيا ومازال شديد التمسك بالدين وربما بشيء من التعصب الذى يعكس الجهل بروح الإسلام الحقيقية المتسامحة السمحة .. ومن هنا فإن المساجد حتى فى استانبول التى تمثل أقصى ما بلغته محاولات التشبه بالغرب فى تركيا – تكون مكتظة بل شديدة الزحام أيام الجمع وأثناء المواسم الدينية وكذلك اثناء صلاة التراويح فى رمضان .. بل إن الاتراك بسبب حداثة تحولهم إلى الدين الإسلامى وبسبب جهلهم بلغة القرآن قد يغالون بعض الشيء من مظاهر التمسك بالإسلام ويبدو ذلك في تعصب الريفى التركى ضد غير المسلمين حتى أنه ليلقبهم بالكافر Gavur حتى الآن ، كما تبدو روح المغالاة أيضا فى مدى طول صلاة التراويح التى قد تمتد إلى منتصف الليل داخل المساجد !!

واذكر هنا واقعة طريفة .. فقد امتد سهر بعض المصريين المقيمين فى استانبول خارج منازلهم فى ليالى رمضان .. وكلما سألتهم زوجاتهم عن سبب تأخيرهم خارج المنزل فى منتصف الليل اجابوا : كنا نصلى صلاة التراويح في المسجد .. وأخيرا صممت بعض الزوجات على استصحاب الازواج الى المسجد لاداء صلاة التراويح سويا .. وفعلا ذهبن معهم وامتدت صلاة التراويح حتى منتصف الليل أمام اعين الزوجات .. وبعد ذلك لم تعد الزوجات

يطالبن باستصحاب ازواجهن ولا إلى سؤالهم اين كانوا فى ليالى رمضان .



لننتقل الآن إلى انقرة "ANKARA" التى وصلتها فى نوفمبر ١٩٤٨ فى اليوم التالى لوصولى إلى تركيا . كانت أنقرة قبل تولى اتاتورك السلطة ١٩٢٣ قرية صغيرة قديمة تقع على ربوة عالية سوداء وسط هضبة الاناضول .. واختارها اتاتورك (أبو الاتراك باللغة التركية القديمة وكان اسمه الاصلى مصطفى كمال وكنيته اتاتورك) بعد خروج تركيا مهزومة من الحرب العالمية الأولى اختارها كعاصمة لتركيا الحديثة تأكيدا لمعنى بداية عصر جديد يختلف تماما عن عصر السلاطين العثمانيين البائد ، وتأكيدا لمعنى فتح وبدء الاهتمام بالريف الاناضولى ، وتحسباً للمستقبل ضد احتمالات أى غزو اجنبى فانقرة حصينة وسط الهضبة الاناضولية وتبعد عن كل حدود تركيا فى حين كانت استانبول على مشارف بلغاريا واليونان على ضفاف البوسفور .. وعند وصولى إلى انقرة كانت مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على مائتى ألف تمتد من سفوح انقرة القديمة فى اتجاه الغرب والجنوب الغربى إلى السهول الممتدة الواسعة .. ولم يكن بها شيء من مباهج استانبول الطبيعية ولا العمرانية أو الاجتماعية وكانت السفارات الاجنبية فى انقرة تمثل

اغلب النشاط الاجتماعي ولكن كان الدبلوماسيون الاجانب يتفكهون بتسمية انقره En - Kara والكلمة معناها بالتركية الاشد سوادا لان كارا تعنى اسود والاضافة En تمثل الـ Superlative أى الأكثر . كما كانوا يسمونها "بمعسكر اعتقال الدبلوماسيين" وكانوا يتطلعون للخلاص أو الفكاك منها كلما سنحت الفرصة بقضاء الصيف أو عطلة نهاية الاسبوع في استانبول . أما من لم تسنح له فرصة الفكاك السريع فكان يعزى نفسه بوداع المسافرين أو المنقولين من زملائه فى محطة القطار أو فى مطار أنقرة متمنيا اليوم الذى يأتى فيه الزملاء لوداعه هو أيضا ..

بعد وصولى بقليل إلى انقرة اتاحت لى انقره فرصة الابتهاج بمشاهدة منظر هطول الثلج ذات صباح لأول مرة ذلك الشتاء .. ومنظر هطول الثلج لمن يشاهده لأول مرة يثير الدهشة والبهجة فى النفس عندما تتحول الدنيا إلى كمية هائلة من القطن الأبيض تتساقط فى كل اتجاه تراه العين : ومازلت اذكر كلمات موظفى الفندق الذى كنت أقيم فيه وهم يشاهدون رد فعلى لهطول الثلج قائلين Birinci Defa Kar Yagiyor والكلمتان الأوليان معروفتان للناطقين بالعربية برنچى أى الأول ودفعه أى مرة .. أما كلمة قار Kar فتعنى الثلج وأصلها بالعربية القر أى البرد الشديد وكلمة يغيور Yagiyor أى يسقط أو يهطل وكانت أول جملة تعلمتها بالتركية :

لكن كان شتاء انقرة شديد البرودة وتصل درجات الحرارة الى ٣٠ درجة تحت الصفر المئوى احيانا. والمشي على الثلج يستلزم نوعا معينا من الأحذية الثقيلة والتى لا ينفذ منها الماء الى القدمين، وكذلك يستلزم حرصا وحذرا خاصة إذا كان الثلج قد جمد واصبح كالزجاج أو الكريستال الأبيض بدلا من القطن الأبيض، واضطررت الى شراء Galoches جالوشي من المطاط، (او الكاوتشوك) الأسود تلبس فوق الحذاء لمنع التزحلق وتسرب المياه الى داخل الأحذية ويرتديها الناس في البلاد التي يكثر فيها هطول الأمطار والثلوج. وكانت الملابس الشتوية التى تزودت بها من القاهرة شديدة النفع لى حقا فى هذه الشهور. وظل الثلج مجمدا على الأرصفة واركان الشوارع شهور الشتاء ولم يبدأ فى الذوبان الا مع مطلع الربيع حينما بدأ نزول الأمطار بدلا من الثلوج وبدأت أيضا تهب ريح اللودوس Lodos الجنوبية الدافئة .

كان طبيعيا أن أولف مع ملحقين شابين مثلى احدهما عراقى والآخر باكستانى، مجموعة صغيرة دبلوماسية شابة فكنا نخرج سويا فى الأمسية أو فى عطلات نهاية الأسبوع. كان اغلب نشاطنا الاجتماعى ينصب على حضور الاستقبالات الرسمية الدبلوماسية فى السفارات التى كانت – فى مدينة صغيرة مقفولة كانقرة فى ذلك العهد – تتبارى فى إقامتها . فقد كانت وسيلة رجال الدبلوماسية

الوحيدة للتسلية ولجمع الأنباء وتبادل الآراء وإقامة الاتصالات مع المسئولين الاتراك ورجالات المجتمع. كانت انقرة صغيرة والملاهى قليلة ولا تتعدى ثلاثة أو أربعة مطاعم وحلبة سباق الخيل يوم الأحد وعدداً من دور السينما فكانت السفارات تدعو كبار المسئولين الاتراك الذين كانوا يلبون هذه الدعوات مسرورين راضين هم الآخرون، كما كانت السفارات تدعو الدبلوماسيين الأجانب كبارا وصغارا وذلك عكس ما يحدث في العواصم الكبرى اذ لا يدعى فيها صغار الدبلوماسيين إلى غالبية المناسبات. وكانت حياة ثلاثتنا، العراقي والباكستاني وأنا - لاتعدو الغداء احيانا فى مطعم «بابا كاربيج» Baba Karpec وكان يملكه روسى ابيض هاجر الى تركيا هربا من الثورة البلشفية وكان مطعمه قبلة الدبلوماسيين وكبار الاتراك لحفاوته واهتمامه الشخصي بزبائنه وبمستوى الخدمة والطعام الجيد أما العشاء فكان أحيانا قليلة فى مطعم انيق على انغام الموسيقى الراقصة اسمه بافيون سورايا Soraya Pavilla-nu صاحبه روسى ابيض آخر اسمه سيرجى واسمى نفسه سورايا اما فى أيام الأحاد فكنا نخرج للنزهة وممارسة رياضة السير لمسافات طويلة فكنا نصعد طريق تشانقايا وهو طريق واسع أنيق تحفه السفارات من الجانبين ويصعد هضبة تشانقايا إلى أعلاها حيث يوجد قصر رئاسة الجمهورية التركية،. وقريبا من القمة

ينحرف الطريق يمينا الى حي جديد اسمه كافاكليديرى ولعله يعنى شجر الصفصاف وبه مطعم شـهير بتورتة الجـوز اسمه مطعم guven وكانت هاتان الهضبتان من الارتفاع عن المدينة بحيث يجمد الثلج على ارضها كثيرا فكان الاتراك والأجانب يمارسون رياضة التزحلق على الجليد إما فى كافا كليديرى هذه وإما قريبا من انقرة على سفوح جبل التفاح Elma Dag وكانت انقرة الحديثة تمتد من اسفل القرية القديمة أعلى الهضبة فى اتجاه غربى جنوبى إلى حيث تمتد سهول فسيحة نمت فيها احياء جديدة مثل المنازل ذات الحدائق بهجة (حديقة) لى ايفلر (منازل) Bahcele Eveler بهجيلى ايفلار وكانت تقع فى اطراف المدينة ومن بعدها عزبة اتاتورك مباشرة Ceflik وحديقة الحيوانات الصغيرة.. وكانت من النزهات القليلة حول أنقرة .. اما الآن فاصبحت فى وسط المدينة! اما انقرة الحديثة ذاتها فكان يقطعها طولا شريان واحد طويل متسـع هـو بوليفـار اتاتورك Ataturk Bulvari يبدأ من ميدان اولوس Ulus أى الأمة أو الشعب قرب السوق القديمة المسماة صمام بازارى (سوق القش) ويتجه بولڤار اتاتورك غربا وجنوبا مجتازا كل المدينة الجديدة إلى طرفها الآخر وينتهى فى حى الـوزارات Bakan lekler حيـث يـبدأ صـعوده الى أعلـى طـريق

تشانقايا . ويقطع بولفار اتاتورك شريانان هامان احدهما يؤدى الى حلبة سباق الخيل ومحطة قطار انقرة مرورا بفندق انقرة بالاس وكان أكبر الفنادق وافخمها، والآخر من وسط المدينة فى حى الهلال الأحمر Kizil Ag ويتجه الى حى المنازل ذات الحدائق وعزبة اتاتورك وحديقة الحيوانات .. اما بولفار اتاتورك فهو عصب الحياة فى انقرة وعليه تقع أهم المبانى والأحياء، بدءا من ميدان ألوس (الشعب) ومطعم بابا كاريچ والبنك المركزى، الى الحديقة العامة حديقة الشباب Genslik Park ذات البحيرة الصناعية والتماثيل مرورا بدار أوبرا أنقرة ووزارة الخارجية التركية وكانت قديما تسمى باسم Khariceye Nizaretiنظارة الخارجية ولكن بعد موجة التخلص من الكلمات العربية وجدوا مرادفات طورانية لها فأصبحت Desisleri Bakanlikثم مرورا بحى الهلال الأحمر السكنى وعليه يقع ايضا نادى (ضباط) الجيش Urdu Eviوجامعة انقرة وعليها كلمات اتاتورك الشهيرة (حياتا إن حقيقى مرشد علم در: العلم هو المرشد الحقيقى فى الحياة) ..

ولم تكن أعلى العمارات السكنية فى انقرة تعلو أكثر من أربعة ادوار، فى حين كانت أغلب المنازل السكنية على هيئة فيلات و «بانجالو» أو عمارات صغيرة من دورين فقط.. لكن كانت كلها تتميز بحسن التدفئة بالنسبة لشدة البرودة شتاء ..

وإذ أنكر هذه الأسماء مازال رنين أصوات المنادين وسائقي التاكسي في أذني وبخاصة تاكسيات الجملة Dolmus (ضولموش: التي لا تبدأ التجول إلا بعد أن تمتلىء بالركاب مثل الضولمة) وهم ينادون معلنين اتجاه تاكسياتهم اما في اتجاه ميدان اولوس ! Ulus Ulus! أو في الاتجاه العكس إلى الوزارات .Bakanlik, Bakanlik

وكثيرا ماكنت استقل هذه التاكسيات الضولموش مع صديقي الكبير المرحوم علي شرف الدين مترجم السفارة (المصرى) والذى عاش في تركيا كل حياته العملية إلى أن وافته المنية في أنقرة وإليه أدين بكثير من الفضل في تلقيني أول دروس في التركية وفي مصاحبتي الى مطعم طوران التركي على الغداء أحيانا للتعرف على ألوان الطعام التركية .. كنا نركب سويا سيارات الضولموش لتوفرها بكثرة كما كانت سبيلي إلى زيادة التعرف باخلاق الاتراك – أما عندما كنا نستقل تاكسيا وحدنا فكان المرحوم علي شرف الدين يردد دائما لسائقي التاكسي -Hadi Yavrum Turan lukanta sime, Lutfel!

هيا ياابني الى لوكاندة طوران، لطفا (من فضلك) فكان علي شرف الدين يكبرني بحوالي ثلاثين عاما أو يزيد.. وإلى جانب ماتعلمته منه من كلمات وجمل تركية كانت معلوماته عن المجتمع التركي والسياسة التركية بحراً ومعينا لا ينفد..

وكان عملي في السفارة كثير التفرع وقد شمل سكرتارية السيد السفير وأعمال الرمز وتقارير صحفية إلى جانب المسئولية عن حسابات السفارة وشئونها الادارية والكتابة على الآلة العربية لبعض التقارير السرية.. ولم أكن بمستطيع القيام بها كلها دون معونة على شرف الدين في شئون الحسابات والشئون المالية خاصة .

كان الملحق العراقي والملحق الباكستاني وأنا نحضر احيانا سباق الخيل أيام الأحاد، وكانت هناك مقصورة خاصة بالدبلوماسيين مع كبار رجال الدولة الاتراك وكان الدبلوماسيون يقبلون على الذهاب من أجل تبادل بعض الانباء أو التعليقات والاجتماع بكبار الاتراك أو لمجرد التسلية البريئة في بلد قليلة المباهج الأخرى أما من راهن على حصان وخسر الرهان فكانت ادارة السباق تعمد إلى الترفيه عنه وحفز همته باذاعة اغنية بعينها تتقاذفها الميكروفونات المكبرة وكانت الأغنية تقول لمن خسر الرهان «هناك احتمال آخر !» Bir Ihtimal Daha var

كنت شابا يافعا في الثالثة والعشرين من عمري فسرعان ما مللت هذه الحياة.. ولعلي أشكر انقرة إذ جعلتني احزم امري وأقرر سرعة الزواج فقفلت راجعا الى مصر في أجازة قصيرة بعد سنة من وصولي إلى أنقرة حيث تمت خطوبتي الى زوجتي الحالية ثم عدت الى مصر بعد شهور قليلة لاتمام نصف ديني وعدنا سويا الى

استانبول فانقرة بالطائرة هذه المرة وذلك في مارس ١٩٥٠ – وكانت الطائرة التركية الصغيرة من مطار استانبول الى مطار انقرة تنتفض من شدة الرياح انتفاض الريشة الخفيفة في مهب الريح العاتية لكن زوجتى وان كانت صغيرة الا أنها كانت ومازالت شجاعة قوية واشهد لها بالفضل فقد ظلت منذ ذلك الحين نعم الصديق والرفيق ونعم العون طيلة مدة خدمتى الدبلوماسية أى لنوفمبر ١٩٨٦ حتى كتابة هذه السطور. وهناك قول مأثور يردده الدبلوماسيون ومؤرخو الدبلوماسية بمعنى أن أفضل دبلوماسى هو المتزوج لكن دون أولاد.. وقد أراد الله لنا أن نظل فى زمرة افضل الدبلوماسيين!!

وفى جمرك مطار استانبول وقفت زوجتى تنتظر اجراءات الجمرك.. وفى حين كان موظف الجمرك ينادى قائلا «بايان محمود – بايان محمود» لم نلتفت إلى أنه كان يوجه الكلام إلى زوجتى (بايان: سيدة أى السيدة حرم السيد/ محمود/ (سمير احمد) لم نلتفت إلى أنه يحادثنا الا بعد أن اعاد الكرة عدة مرات !!

واللغة التركية الحديثة تطلق لقب Bay [1] باى أى السيد على الذكور و Bayan أى السيدة على الاناث ومازال الاتراك يوجهون

---

(١) كان ملك تونس يلقب بالباى ولعل هذا كان من تاثير الاتراك فقد وصلوا إلى تونس والجزائر!

الكلام الى الرجال رغم ذلك بإضافة كلمة بيه مثل Zeki Bey من باب التأدب رغم إلغاء الألقاب أما لقبPasa باشا ويكتبونه هكذا فى التركية الحديثة فلا يستعمل حاليا والغى تماما لكن الجميع يلقبون ببيه Bey تأدبا حتى البواب كنا نناديه باسم Zeki Beyلكن إذا ارادوا فى احاديثهم اظهار المزيد من الاحترام لأحد فلا بد من تسميته باسم Bey Effendi بالنسبة للذكور وباسم هانم افندى للاناث . Hanim Effendi††

وهكذا فقد كانت الطاهية الجديدة التى استقدمتها بعد وصول زوجتى لانقرة كانت تسمى باسم هاجر هانم (مع تعطيش الجيم) Hacir Hanem لكن كـانت هى تنــادى زوجتى قائله Hanem Effendiمن باب المزيد من الاحترام ..

كثيرا ما كنت اخرج أنا وزوجتى للنزهة على الأقدام فى شارع بولفار اتاتورك فى حى الهلال الأحمر سالف الذكر وكان محط المجتمع التركى الذى كان يخرج للنزهة فى الأمسية الصيفية أو بعد ظهر أيام الشتاء المشمسة قليلة البرد. وكان افتتاح دار سينما جديدة كبيرة مدار حديث المجتمع لمدة طويلة وكانوا يلقبونها باسم Buyuk sinema لسينما الكبيرة.. دهشنا كثيرا زوجتى وأنا عندما وجدنا بعض السيدات التركيات العابرات – دون أى معرفة سابقة – يحدقن كثيرا فى عينى زوجتى ويتهامسن فيما بينهن بصوت مسموع لنا تماما قائلين Misirla «مصرية !! وهكذا يبدو أن

الاتراك لهم أو لهن القدرة على التعرف على المصريات من عيونهن !
وقد تكرر ذلك كثيرا اثناء اقامتنا اللاحقة فى انقرة واستانبول
فهنيئا لبنات النيل !

كان وصول زوجتى الى تركيا مما سهّل علىّ كثيرا توثيق الصلات الاجتماعية مع العائلات الدبلوماسية فكنا نخرج أيام الأحاد معهم إلى القناطر المقامة على بحيرة صناعية شرق انقرة تمدها بمياه الشرب. أو الى عزبة اتاتورك وأحيانا قليلة إلى سباق الخيل. وقد توثقت حينئذ علاقتنا مع سفارات سوريا والسعودية والعراق وباكستان بل وفرنسا وبولنده وغيرها. وقد عرفت زوجتى بين سيدات السفارة الفرنسية فى انقرة باسم «صغيرة السفارة المصرية» La Petite de l'ambassade d' Egypt لصغر سنها وحجمها وقصر مدة زواجها !

وذات مرة ذهبنا مع البعض لمشاهدة أوبرا لموزارت : زواج فيجاور فى أوبرا انقرة ولكن وجدناها كلها مترجمة إلى اللغة التركية مع استبقاء الألحان طبعا كما هى . وكان غريبا على الأذن أن تسمع الغناء التركى .

فيجاور هنا Figaro Burada فيجاور هناك Figaro urada هناك ! بدلا من النص الأصلى بالايطالية وظلت هذه الواقعة محل تفكه بعض الدبلوماسيين مدة طويلة لكننى شخصيا لست ألوم

الاتراك لمحاولة إعادة كل شيء إلى أصله التركي أو الطوراني القديم إذا كان هذا يرضي شـخصيتهم وكبريـاءهم.

لكني أعود فأردد انه مازال هناك الآلاف من الكلمات العربية في التركية الحديثة رغم مرور ستين عاما على بدء حملة اتاتورك سالفة الذكر. وإن كان الاتراك يستعملون كثيرا من الكلمات العربية في معان مخالفة لمعناها الأصلي مثال ذلك Dikkat دقة بمعنى «انتبه ! انتبه ! وكلمة تمييز Temiz بمعنى نظيف وكلمة فوق العادة بمعنى عظيم جدا وكلمة رجاء ادريم أي اتمنى أو ارجو،. وكلمة بهجة بمعنى حديقة، وكلمة حصار بمعنى قلعة وهكذا .

لم تمتد إقامتنا في تركيا بعد زواجي ، ففي نهاية صيف ١٩٥٠ فوجئت بتعييني ملحقا في سفارة مصر في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية وهكذا أمضت زوجتي جزءا من شتاء ١٩٥٠ معي في انقرة ثم صيف ١٩٥٠ في استانبول حيث استأجرنا شقة مفروشة لمدة الصيف في جي تقسيم أمام فندق Park† oteli في شارع أياس باشا Eyas pasa† – ومن ثم تأهبنا للرحيل إلى القاهرة حيث انتدبتني الوزارة لمهمة رسمية مدة شهرين قبل التحاقي بعملي الجديد في واشنطن . وما من شك أن فرحتنا كانت كبيرة بالنقل إلى واشنطن سنة ١٩٥٠ فمن الواضح أنها كانت تمثل بالنسبة إليّ مركزا أكثر أهمية من أنقرة سياسيا وفنيا ..

والولايات المتحدة كانت ومازالت قوة جذب شديدة للسائح والدبلوماسى على حد سواء .

وقد أتيحت لى فى صيف ١٩٦٤ فرصة العودة لزيارة أنقرة زيارة عابرة فى اثناء تأديتى لمهمة رسمية للوزارة وكم كانت فرحتى شديدة بالعودة إلى رؤية مواطن اقدامى القديمة الشابة ورغم احساسى وبقية الدبلوماسيين بالضيق لصغر حجم انقرة سنة ١٩٤٨ - ١٩٥٠ وقلة أسباب اللهو أو الترفيه بها فقد كنت سعيدا برؤيتها عام ١٩٦٤، وإذا بها الآن عاصمة كبيرة ممتدة تعدادها فاق المليون نسمة وقامت بها العمارات والمصانع وامتد العمران غربا وجنوبا حتى أصبحت حدود المدينة القديمة فى وسط العاصمة. كذلك وجدت تركيا وقد قطعت شوطا بل اشواطا كثيرة نحو التصنيع واصبحت تنتج كثيرا من الصناعات الثقيلة والاستهلاكية الراقية. ومازالت تركيا من الدول التى تتميز بجذب السائحين الأجانب واشتدت قوة جذبها بفضل حسن التنظيم ودقة أساليب الإدارة ورخص أسعارها عن أسعار البلاد الأوروبية مع توافر الشواطىء الجميلة وعدد كبير من الآثار التاريخية والإغريقية والرومانية والإسلامية والمسيحية، وان ننسى لاننسى تفوق صناعات الملابس والجلود والفضة والكريستال ورخص أسعارها كذلك جودة الأطعمة ونظافة الفنادق والمطاعم ووفرة خيرات واطايب البحار خاصة فى

استانبول.. وأخيرا وليس أخرا فإن تركيا حليف كبير للولايات المتحدة والدول الغربية وعضو فى حلف الأطلسى (الناتو) كما أنها تتصل جغرافيا اتصالا مباشرا بشرق أوروبا مما يتيح للسائحين الاوروبيين فرصة زيارتها بالسيارات.. وهو مايفعله ايضا أكثر من ٤ ملايين تركى يعملون فى المانيا وبقية دول اوروبا الغربية ويزورون بلادهم سنويا فى اجازاتهم السنوية قادمين بسياراتهم عبر شرق اوروبا ..

★ ★ ★

وقبل أن اختتم ذكرياتى عن تركيا أرى من الطريف أن أنكر للقارىء انه طالما راودتنى اثناء اقامتى فى تركيا - فكرة عقد المقارنة ما بين تركيا واسبانيا بسبب علاقتهما القديمة والمتصلة بالعالم العربى.. انى أرى نتيجة هذه المقارنة من الطرافة بل.من الأهمية بما يكفى لاقناعى بعرضها على القارئ!

فجغرافية كل من البلدين متشابهة : كتلة قارية شديدة الاتساع، شديدة الوعورة الجبلية ويكادان يقعان على خط عرض واحد مما يجعل مناخهما متشابها الى حد كبير وكذلك محاصيلهما ومنتجاتهما الزراعية.. وهما لهذا يتميزان بشتاء شديد البرودة وبصيف طويل حار داخل هذه الكتلة القارية ووسطها حيث تقع عاصمة كل منهما.. وجغرافيا أيضا أرى أن وضعهما من الطرافة والشبه بمكان. فتركيا

تقع شمال شرقى البحر الأبيض وأسبانيا تقع فى شماله الغربى وتركيا تتحكم فى المضايق والمدخلين الى البوسفور والبحر الأبيض للقادم من البحر الأسود، وأسبانيا تتحكم فى مدخل البحر الأبيض للقادم من المحيط الأطلسى (مضيق جبل طارق) .

وأما تاريخيا فقد وقع الشعبان التركمانى (أصل الاتراك فى وسط آسيا) والأسبان تحت الحكم العربى فى ظل الامبراطورية العربية الى ان تحللت وتفككت، فدارت الدائرة ووقعت أقطار من الأمة العربية بعد ذلك تحت حكم الاتراك فى ظل الامبراطورية العثمانية واجزاء من الأمة العربية والاسلامية تحت حكم الأسبان (فى المغرب والساقية الحمراء وموريتانيا).. وقد استعار الاتراك والأسبان آلاف الكلمات العربية فى لغتهم كما تأثر كل منهما أيضا بالحضارة العربية التى كانت أكثر سموا وتقدما .. وحتى بعد أن زالت سيطرة الامبراطورية العربية واضمحل نفوذها السياسى ظل تأثيرها الحضارى منتشرا عن طريق نفوذ الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الاسبانية فقد ظل كل منهما لمدة طويلة يمثل آخر معاقل وحصون الحضارة والثقافة العربية والإسلامية على حدود أوروبا الجنوبية الشرقية (حدود تركيا مع أوروبا) وحدود أوروبا الجنوبية الغربية (حدود اسبانيا مع فرنسا) ومن هاتين المنطقتين تشربت مدن أوروبا وجامعاتها بحصيلة حضارة وثقافة وعلوم

الامبراطورية العربية الإسلامية . ومازالت تركيا واسبانيا تمثلان آخر معاقل أو حصون امتداد الحضارة العربية والإسلامية على حدود أوروبا للآن ..

ولا يقف التشابه وأوجه المفارقات عند هذا الحد . فبعد أن استعاد الأسبان الكاثوليك مملكتهم واسقطوا آخر معاقل الدولة العربية فى أسبانيا أى فى غرناطة سنة ١٤٩٣ اقاموا محاكم التفتيش Inquisition Courts واضطهدوا المسلمين واليهود فى اسبانيا وخيروهم ما بين التحول إلى الكاثوليكية أو الهلاك حرقا على يد محاكم التفتيش أو الهرب إلى شمال افريقيا .. وقد تحول فعلا كثير من المسلمين واليهود فى اسبانيا إلى الكاثوليكية

وهم إلى يومنا هذا اسلاف كثيرين من الاسبان الكاثوليك الحاليين .. وفى مقابل ذلك ، فإن الاتراك الذين اخذوا الاسلام عن العرب ضمن ما اخذوا اظهروا هم الآخرون ألوانا من التعصب الدينى والقومى تمثلت فى مذابح الأرمن أحيانا وفى معاملتهم للأرمن والمسيحيين بصفة عامة .. كما خيروا المسيحيين واليهود فى امبراطوريتهم ما بين التحول عن دينهم الأصلى إلى الإسلام (ومن فعل ذلك ظل الاتراك يسمونهم المتحولين أو المتغيرين أو المرتدين عن دينهم "الدونمه" (Dönme) أو تحمل الكثير من ألوان التفرقة ومازال الاتراك ليومنا هذا يلقبون من ليس بمسلم Qavur أى كافر !

ومع ذلك نجد أن الاسبان الكاثوليك اليوم هم الذين يعترفون ويشيدون بفضل الحضارة والثقافة العربية والإسلامية على اسبانيا .. فى حين يجحد الاتراك المسلمون فضل الحضارة والثقافة العربية فى تحولهم (اى الاتراك) من رعاة اسيويين وغزاة رحل إلى ما صاروا إليه من ثراء ونعمة وحضارة فى استانبول .. وفى حين يؤلف الاسبان المعاجم والقواميس الحاوية للكلمات الاسبانية التى من أصل عربى ، لا تجد شبيها لذلك أو محاولة من هذا القبيل بين الاتراك اليوم .. وفى حين رفضت اسبانيا (واليونان) الاعتراف باسرائيل منذ انشائها سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٨٦ (وفعلت اسبانيا ذلك سنة ١٩٨٦ مضطرة بسبب اصرار دول السوق الأوروبية على ذلك قبل السماح بقبول عضوية اسبانيا) كانت تركيا من اوائل الدول التى اعترفت باسرائيل منذ اقامتها . وفى حين قبلت تركيا الاشتراك فى لجنة المصالحة والتوفيق ما بين العرب واسرائيل سنة ١٩٤٩ تحت ظل الأمم المتحدة ، كان مندوب اسبانيا فى الأم المتحدة سنة ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة أكبر المدافعين عن موقف الدول العربية فقد ألقى فى الأمم المتحدة خطبة بليغة مؤثرة وشرح فيها امجاد الأمة العربية وفضلها على الحضارة الغربية ومدى تمسك العرب بعزتهم وكرامتهم وأنه لهذا يجب على العالم أن يفهم مواقف الدول العربية من اسرائيل وأن يقدر دواعيها وأن يعمل على ازالة أسبابها !!

لابد أن الفارق الزمنى الطويل ما بين نهاية "الاحتكاك أو المواجهة" بين العرب واسبانيا سنة ١٤٩٣ ميلادية وبين "الثورة العربية" فى سوريا وفلسطين سنة ١٩١٦ للمطالبة بالاستقلال عن تركيا كان له تأثيره على تهدئة شعور الاسبان نحو العرب واعطاء الاسبان المنظور Perspective الصحيح والهادئ تجاه الأمة العربية ، فى حين أن شعور الاتراك - ومازال حيا لدى الكثيرين - تجاه الثورة العربية وتقلص نفوذ تركيا على الدول العربية منذ الحرب العالمية الأولى مازال بعيدا عن الوصول إلى ذلك المنظور الهادئ والصحيح تجاه العرب ..

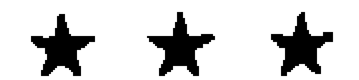
فقد ظهرت سياسة تركيا منذ ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٨ قليلة التأثر بأسباب ودواعى مواقف الدول العربية من اسرائيل والولايات المتحدة ورفض الدول العربية سياسة الاحلاف الغربية الدفاعية ، عكس ما فعلته تركيا من المبادرة بالاعتراف باسرائيل فور هزيمة العرب سنة ٤٨ ثم اشتراكها بقوات تركية إلى جانب القوات الأمريكية فى الحرب الكورية سنة ٥٠ ثم دخولها حليفة مع واشنطن وايران فى شتى مشروعات الولايات المتحدة العسكرية فى الشرق الأوسط "لاحتواء النفوذ الروسى" .. والتاريخ يجب أن يذكر المرء أن أهم دواعى قيام الوحدة - متعجلة وغير تامة النضج - ما بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ كان تحرش تركيا بسوريا وتحريك جيوشها على

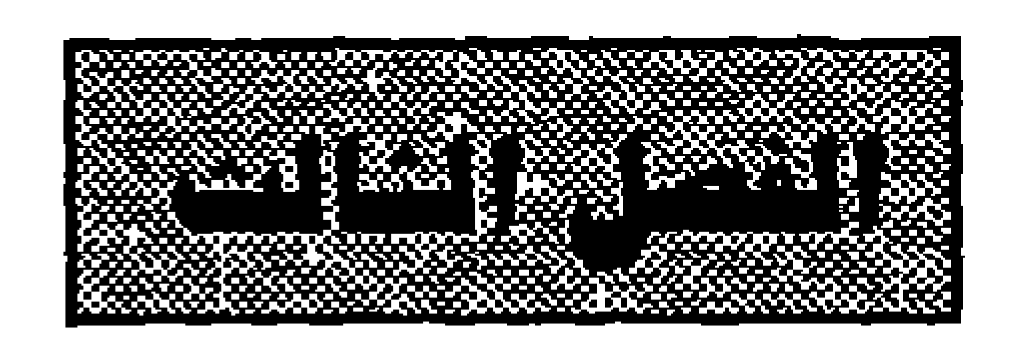
حدودها (وقد سبق لتركيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أن اقتطعت لواء الاسكندرونة عن سوريا دون رضاء الاخيرة واسمته ولاية هاتاى حاليا) مما دفع بالساسة والعسكريين السوريين إلى الالحاح على المرحوم الرئيس عبد الناصر باعلان قيام الوحدة فورا .. ومنذ ذلك الحين زادت حدة العلاقات بين مصر عبد الناصر وتركيا .. ولم تتحسن هذه العلاقات إلا منذ سنوات قليلة بدءا من الثمانينات بعد بدء المرحوم الرئيس السادات لسياسة التقارب مع الولايات المتحدة ثم توطدت العلاقات بين مصر وتركيا بعد تبادل زيارات الرئيس حسنى مبارك ورئيس جمهورية تركيا ومن قبلها زيارة رئيس وزراء تركيا لمصر ردا على زيارة رئيس وزراء مصر لانقرة ..

حقا ان كلا من تركيا واسبانيا شديد الرغبة والحرص على الاندماج الكلى والتام فى مجتمع أوروبا الغربية ومؤسساتها الدفاعية والاقتصادية والاجتماعية وبالاختصار التشبه تماما بدول اوروبا الغربية واليوبان فيها .. لكن لابد من تركيز الضوء على اكبر حقيقة فى سياسة تركيا الخارجية عبر التاريخ وهى العداء لروسيا والخوف من سيطرتها أو امتداد نفوذها .. وكل خطر آخر فيما عدا ذلك بالنسبة لتركيا له مرتبة ثانوية ومن ثم فان سياسة تركيا العربية عكست اهتمامها الأول سالف الذكر ومحاولاتها المستمرة لارضاء امريكا وخاصة منذ ازدياد قوة ونفوذ الاتحاد السوفييتى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ..

حقيقة أخرى هامة .. ألا وهى انه مع زوال تأثير الانفصال الدموى العنيف الذى حدث سنة ١٤٩٣ ما بين اسبانيا الكاثوليكية والأمة العربية ، مع زوال تأثير هذه الصدمة Trauma على مر القرون لم يعد هناك ما يثقل كاهل العلاقات الاسبانية العربية فى التاريخ الحديث ، اللهم إلا ربما احتفاظ اسبانيا إلى اليوم بجيبين Enclaves هما مدينتا سوته Ceuta ومليله Melilla فى شمال المغرب كمدينتين اسبانيتين تسكنهما اغلبية اسبانية (مائة ألف نسمة) مع اقلية مغربية ، هى بقايا "الريف الاسبانى" وامبراطورية اسبانيا القديمة فى موريتانيا والساقية الحمراء والصحراء الاسبانية وهى الامبراطورية التى سارعت اسبانيا بالتخلى عنها بمجرد ان احست برياح التغيير ورياح الاستقلال تهب فوق أفريقيا فكانت من اوائل الدول الغربية التى تمشت مع التاريخ ولم تحاول وقف تقدمه أو اعاقته . ورغم استمرار مشكلتى سوته ومليلة فان كلا من اسبانيا والمغرب حريص على استمرار علاقات الصداقة والتعاون والسلام فيما بينهما حتى ان المغاربة فى سعيهم لتعلم اللغات الاجنبية يضعون اللغة الاسبانية فى المقام الثانى بعد الفرنسية مباشرة وكثير من المغاربة يتكلم الاسبانية كاحد ابنائها ويقضون اجازاتهم فى اسبانيا التى لا يفصلها عن

المغرب والعالم العربى سوى مضيق جبل طارق (٣٠ كيلو مترا) والذى لا تنقطع فيه حركة العبارات Ferries التى تصل ما بين طنجة فى شمال المغرب ومدينة الجزيرة Algeciras فى اسبانيا فى أقل من ساعة ونصف ..





بين العالم القديم .. والعالم الجديد
رحلة واحدة وعشرون يوما فوق البحر

ما ان انهيت مهمتى فى ديوان الوزارة حتى بدأنا استعداداتنا للسفر إلى واشنطن . كان السفر من القاهرة إلى أمريكا بالطائرة سنة ١٩٥١ مهمة شاقة تستغرق حوالى ٢٤ ساعة طيرانا ففضلنا الذهاب بطريق البحر خاصة بالنسبة لكثرة عدد حقائبنا وأمتعتنا فى السفرة الأولى . ولحسن الحظ كانت هناك سنة ١٩٥١ شركة بواخر أمريكية اسمها "الآسات الأربعة Four Aces تسيّرَ هذه البواخر الأربع على خط يربط مباشرة بين موانىء البحر الأبيض ومنها الاسكندرية وما بين بوستون ونيويورك . وكانت هذه الآسات الأربعة تحمل اسماء متشابهة : اكسكوردا - اكستر - أكسكامبيون - اكسكاليير وكانت تعمل اثناء الحرب العالمية الثانية كناقلات للجنود والعتاد الحربى ثم جددت وتحولت بعد الحرب إلى نقل

الركاب والبضائع . لم تكن من البواخر الضخمة المسماة بالملكات The Queens مثل كوين ماري وكوين اليزابث ونورماندى الشهيرة ، لكنها كانت متوسطة الحجم تتمتع بسمعة طيبة كبواخر ثابتة مريحة تقاوم اهتزازات البحر العنيفة . وكانت مقصورتنا على الاكسكوردا نظيفة مريحة دون مغالاة فى الأناقة فالأمريكيون حسبما كنت أعلم قوم عمليون تعنيهم النظافة والكفاءة أكثر من الأناقة والتبرج .. هكذا كنت أظن على الأقل .. لكن ما رأيته بعد ذلك من اناقة وتبرج السيارات الأمريكية بالنسبة للسيارات الأوروبية واليابانية كذب ظنى ..

وفى الأيام والسنوات القليلة التالية للحرب الثانية كانت الولايات المتحدة شديدة التدقيق فى منح تأشيرات الدخول إليها ، حتى التأشيرات الدبلوماسية ، فكانت تستلزم من طلاب التأشيرات تقديم شهادات طبية بالخلو من الرمد والأمراض الصدرية !! كانت الولايات المتحدة بعد الحرب مباشرة فى بداية علاقتها الحديثة مع العالم القديم ، فكانت لا تعلم عنه الكثير .. كما كانت تخشى انتقال الأوبئة إليها من ذلك العالم القديم المجهول .. أما الآن ، فقد لاحظت فى سفرياتى الكثيرة اللاحقة إلى الولايات المتحدة انها لم تعد تتطلب من طالبى الدخول إليها تقديم تلك الشهادات الطبية .. بل لقد دارت الدائرة دورة كاملة وأصبح العالم القديم ، المحافظ أو

المتأخر هو الذى يخشى انتقال أمراض المدنية الحديثة الفتاكة ومنها مرض نقص المناعة Aids إليه من العالم الجديد ! وعلى رأسه أمريكا !!

وهكذا بدأنا رحلتنا اذن من الاسكندرية إلى نيويورك على الباخرة اكسكوردا Exchorda فى مارس ١٩٥١ .. وهكذا بدأنا ، زوجتى وأنا ، رحلة العمر سويا ، رحلة التنقل ما بين اركان العالم المختلفة ، تلك الرحلة التى سوف تأخذنا إلى نهاية عام ١٩٨٦ فى الخدمة الدبلوماسية العاملة ثم ما بقى من العمر بقوة الدفع وبحكم ما اعتدناه طوال العمر من لذة السفر والتنقل .. ولدفع شعور الملل الذى ينتاب الدبلوماسى إذا ما بقينا فى مكان واحد لفترة طويلة ..

ولما كانت تلك البواخر الأمريكية تعمل فى نقل الركاب والبضائع سويا فقد كانت تتوقف بنا بعد الاسكندرية فى كل من بيريه (اثينا) ثم مسينا (صقلية) ثم نابولى وليجهورن ثم جنوا فى ايطاليا ثم مرسيليا فى فرنسا ، ثم برشلونة فى اسبانيا ثم جبل طارق ثم بوستون فنيويورك !! وقدروا لنا ان الرحلة سوف تستغرق ما بين الثمانية عشر إلى العشرين يوما .. لم نمانع فى ذلك بالطبع بل رحبنا بفرصة التعرف على بعض ما لم نكن نعرفه من مدن العالم القديم قبل التعرف على العالم الجديد .. وكان كل أملنا أن يترفق بنا البحر فى فصل الشتاء هذا ، وان يكون عبور المحيط الأطلسى

في شهر مارس أى فى عز موسم الأنواء والاعاصير غير قاس ، وكانت هذه أول مرة نركب فيها المحيط الأطلسى وفى عز الشتاء فكنا متخوفين .

فى مطلع اليوم الثالث من بدء رحلتنا من الاسكندرية بدت لنا معالم ميناء بيريه ومدينة اثينا من بعد وبخاصة أن جزءا من اثينا مقام على تلال مرتفعة يشرف عليها معبد الاكروبوليس الشهير ، وكانت هذه أول تجاربنا فى الرحلات الجماعية التى تنظمها السفن بالاتفاق مع شركات السياحة لنزهة الركاب فى الموانىء التى ترسو فيها السفن .. ومن ثم اشتركنا فى الرحلة التى نظمتها شركة اميركان اكسبريس الامريكية لركاب الاكسكوردا لنقلنا من بيريه إلى اثينا مقابل مبلغ معين من الدولارات برفقة مرشد لكل حافلة مهمته شرح معالم وآثار اثينا .. كان هذا أول عهدنا بتذوق طعم اليونان . كانت الرحلة من بيريه إلى اثينا قرابة عشرين كيلو مترا .. وكان انطباعنا لأول وهلة عن ذلك الجزء من اليونان انها أقل خضرة من ايطاليا وفرنسا بل حتى من ضواحى استانبول .. وكانت بيريه عبارة عن ميناء صغير غير مكتمل النمو .. أما اثينا فقد كانت تحمل الكثير مما يذكر المصريين بالأسكندرية قبل أن يغادرها سكانها اليونانيون والايطاليون . وقد تضمنت جولتنا فى اثينا التوقف فى معبد الاكروبوليس الشهير والذى يعتبر واحدا من اعظم الاثار العالمية ويطل على اثينا من ربوة رملية صخرية ارتفاعها قد

يقرب من المائة متر تقريبا .. كما توقفنا فى متحف اثينا الشهير الذى يضم اكبر مجموعة من الاثار الاغريقية بطبيعة الحال وكمية لا بأس بها من الاثار الرومانية أيضا بحكم الفتح الرومانى لليونان .. وبعض الآثار المصرية القديمة أيضا ..

وقد قدر لنا أنا وزوجتى العودة إلى زيارة بيريه واثينا وما حولهما فى منتصف السبعينات . وقد لاحظنا التقدم الحضارى السريع الذى حققته اليونان منذ زيارتنا الأولى .. اصبحت بيريه مدينة كبيرة وميناء حديثا متقدما . أما اثينا وضواحيها فقد نالها الكثير من مظاهر الرخاء المادى والرعاية السياحية .. لكن مازالت تحمل بالنسبة للمصريين طعما خاصا يذكرنا بالاسكندرية ايام عزها وبالعلاقات الوطيدة التاريخية والانسانية والحضارية ما بين المصريين واليونانيين .. مازلت تجد فى اثينا السميد أو السميسط الفاخر المستدير ذا السمسم ، فضلا عن افضل انواع الحلاوة الطحينية. والجبن الرومى الكشكفال والبسطرمة وأنواع الفاكهة الجافة المحببة إلى المصريين فضلا عن القهوة الشرقية والحلويات الشرقية واطباق المطبخ التركى أو الشرقى . ومازال الكثير من اليونانيين يستديرون إليك فجأة فى الشارع إذا ما استمعوا إليك تتكلم العربية ويحادثونك بلهجة مصرية يونانية معروفة لنا جميعا ..

لكن من أجمل ما يمكن للمرء زيارته فى اليونان هو الجزر الصغيرة اليونانية الكثيرة المتناثرة ما بين اليونان وقبرص وتركيا ..

فهى قطع من اللؤلؤ الأبيض السابحة فى بحار زرقاء شديدة الزرقة.. كل منازلها بيضاء بل شديدة البياض (يعاد طلاؤها كل عام بالجير الأبيض) ذات نوافذ (خشبية) زرقاء أو صفراء فاتحة اللون تعلو ربا خضراء مرتفعة تطل على البحر الأبيض .. جمالها ينحصر فى الطبيعة الهادئة المريحة والتى لم تغيرها أو تطمسها يد الحضارة أو المدنية السريعة الهوجاء بعد وان كانت رياح التغيير قادمة .. ومازلت تجد المقاهى الغاصة باليونانيين والسياح يرشفون القهوة (اليونانى وليس التركى فأهل اليونان يغضبون كثيرا إذا اسميتها قهوة تركى) أو الأوزو أو الرتسينا فى استرخاء أو يلعبون الطاولة وتجاهل تام لمضى الوقت .. فالوقت قد نسى أو تناسى جزر اليونان أو بالاحرى أن أهل الجزر اليونانية تناسوا الوقت ولا يحفلون به وإنما يجيدون فن الاستمتاع والاسترخاء والرقص والغناء. ومن منا لا يذكر زوربا اليونانى ؟! ويمتاز الشعب اليونانى بصفة عامة بأنه شعب محب للحياة .. وارتياد المقاهى المفتوحة من وسائله للاسترخاء والاستمتاع ويمكن للقاصد اثينا أن يسعده الحظ بمرور سفينته قريبا من احدى تلك الجزر .. كما ان هناك معديات أو سفناً يونانية كثيرة تنظم رحلات سياحية من بيريه إلى بعض الجزر اليونانية القريبة والعودة إلى اثينا فى نهاية النهار .. لكن واحدة من اجمل تلك الجزر تبعد عن اليونان كثيرا بل هى قريبة جدا إلى تركيا واقصد بها جزيرة رودس Rodes .. وبها آثار قديمة من عهد الصليبيين وبلاجات دافئة رائعة ..

وقدر لنا ذات مرة اجتياز قناة كورينث بباخرة سياحية وكانت من أجمل الرحلات السياحية حقا .. فإن قناة كورينث أكثر ضيقا من قناة السويس وتحف بها جبال صخرية عالية تتيح منظرا فريدا أخاذا ..

بعد التوقف ٢٤ ساعة فى بيريه استأنفنا رحلتنا إلى مسينا فى صقلية .. ومن هناك نظمت الباخرة الاكسكوردا رحلة إلى بالبرمو عاصمة صقلية وأخرى إلى تاورمينا . وتاورمينا هذه يصعب وصفها فهى تركيبة فريدة وصعبة Complex تتضمن البحر والبلاجات وميناء صغيراً ثم الجبل ويعلوها كلها مدينة صغيرة مقامة فوق هامة الجبل وفى أعلى المدينة «توجد تركيبة سياحية أخرى قل ان يوجد مثلها ومنها من أجمل فنادق إيطاليا مقام فى دير قديم Monas-tery عبارة عن قصر تاريخى قديم تحول إلى دير ثم إلى فندق فاخر والمنظر سواء أعلى الجبل أو فى أسفله رائع ولا ينسى فهو باكمله يقع فى حضن بركان Etna أو على عتبته تماما .

وبركان إيتنا الأشم يعلو تاورمينا بهامته الضخمة الداكنة ويكاد المرء لضخامته يحس انه يلمسه إذا مد يده تجاهه رغم بعده الفعلى لكن لحسن الحظ فإن بركان إيتنا حتى اثناء ثوراته ابعد من ان يؤثر على تاورمينا ومسينا لكنه جزء لا يتجزأ من هذه الصورة

الزيتية الشاعرية الخلابة التى عمادها بركان ايتنا ومن تحته جبل تاورمينا ومن تحتهما شاطئ مسينا السياحى الجميل .

أما مدينة باليرمو عاصمة صقلية فمدينة كبيرة وتجمع ما بين القديم والحديث.. لكن أهم مايميزها بل أهم ما يميز صقلية بصفة عامة انها غنية بآثارها التى تشهد بتاريخ حافل وسلسلة طويلة من الاختلاط والامتزاج مع الغزاة والمستوطنين من اغريقيين شيدوا المعابد والهياكل اليونانية القديمة (منطقة أجر يجنتو agrigento أهم آثار ومستوطنات يونانية قديمة خارج اليونان) وفينيقيين وكارتاجنيين وعرب.. نعم فان العرب حكموا صقلية واستمرت دولتهم بها نيفا وثلاثمائة عام واقاموا المساجد والمآذن والحمامات وعمروا المزارع وحسنوا طرق الزراعة والرى وادخلوا انواعا جديدة من النباتات والمأكولات واعطوا اسماء عربية لمدن وقرى مازالت باقية حتى اليوم.. حتى أن اهم كاتدراتية قديمة فى باليرمو مقامه فوق اساس واصول جامع باليرمو القديم.. ومازالت الرسومات والأعمدة العربية تشهد بعظمة وروعة البناء العربى واصالة الفن العربى ثم نجد أن الكاتدراتية قد اضافت الى الأصول والأساسات العربية طوابق متتالية تنتمى الى عصور أخرى للفاتحين من نورمانديين الى الأسبان وهكذا. وتشهد سحن بعض الصقليين ذوى الوجوه السمراء والقامات القصيرة (وبهذه المناسبة فان جوهر الصقلى القائد

العربى الشهير من مواليد صقلية) بأنهم احفاد الاغريق والعرب والقرطاجنيين كما تشهد بأن منهم ايضا احفاد النورمانديين والألمان بما يتميزون به من بياض الوجه وزرقة العيون واحمرار الشعر ..

لكن مثلما يقال عن اسبانيا أن اوروبا تبدأ أو تنتهى عند جبال البرانس، يقال فى ايطاليا بالمثل - وبخاصة مابين أهل شمال ايطاليا - ان حدود اوروبا تنتهى جنوبى روما وأن افريقيا تبدأ ايضا هناك . اى أن أهل شمال ايطاليا يعتبرون أن صقلية باكملها تقع فى افريقيا وهى أقرب الى عادات وحضارة افريقيا منها الى عادات وحضارة شمال ايطاليا ..

بعد هذا توقفت الباخرة فى نابولى والتى يعتبرها الكثيرون عاصمة جنوب ايطاليا ومن أهم معالمها خليج نابولى الشهير بجماله وسحره وباتساعه اذ تحوطه من جهات ثلاث مدينة نابولى التى تشرف على الخليج من فوق تلال وربا خضراء بارعة الجمال وقديما قال الرومان «زر نابولى ثم مت See Naples and die أى يجب على المرء زيارة نابولى قبل أن يتوفاه الله !

أما أهم معالمها السياحية فهى أوبرا سان كارلو وايهاء Castel-lo del' Ouvo على الساحل وهو اشبه بطابية قايتباى تقريبا، وهى أى نابولى مدينة شهدت الكثير من مظاهر العز القديم فقد

كانت كما قلنا عاصمة مملكة نابولى وشهدت ابهة وارستقراطية عظيمة كذلك فان نابولى مشهورة بمصانع الخزف الشهيرة باسم كابو دي مونتى Capo di monti المقامة فى أعلى الجبل وهناك متحف بنفس الاسم يطل على المدينة من أعلى الجبل ويضم اجمل قطع الخزف التى انتجت فى عهد نابليون. ومع ذلك فان نابولى بها احياء فقيرة مزدحمة تذكر المرء بمدن العالم الثالث «المدن الشرقية على حد سواء»

وقد نظمت الاميركان اكسبريس رحلة اشتركنا فيها ايضا الى ساحل أمالفى الشهير بجماله وسحره الاخاذ، جنوب نابولى ويقع مابين خليج ساليرنو وخليج نابولى مرورا بقريتى سورينتو ثم بأمالفى وبوزيتانو السياحيتين التاريخيتين. ويضم هذا الساحل سلسلة من المصايف والبلاجات الجميلة تطل عليها كلها سلسلة من التلال والربا الخضراء التى تعلو مدن وقرى تاريخية من القرون الوسطى. وهو مايجعل هذا الساحل يخالف الى حد كبير ساحل رابالو وسانتامارجريتا القريب من جنوا وهو مايسمى بالريفيرا الايطالية وكثير من الايطاليين والسياح الأجانب يزورون ساحل أمالفى Costa Amalfitama لقضاء شهر العسل أو جزء من الشتاء إذ يتميز مناخ جنوب ايطاليا فى هذه المنطقة بالدفء شتاء والحرارة صيفا أى أنه اكثر دفئا من الريفيرا الايطالية قرب جنوا وأقل امطارا وأكثر قدما وتاريخا ..

كذلك إلى جانب نابولى تقع مدينة بومبى الرومانية التاريخية الشهيرة التى راحت ضحية فوران بركان فيزوفيو Vesuvio القريب من بومبى وذلك عدة سنوات قبل الميلاد.. وقد غطتها اللافا البركانية المشتعلة فاحالتها وجميع سكانها إلى تماثيل من الحجارة الصلدة. وبهذا اصبحت مدينة بومبى - وسكانها متحفا ومزارا للسياح يجدون فيها صورة كاملة لمدينة رومانية قديمة بمنازلها وحماماتها وحدائقها ويسكانها وقد تحولوا الى تماثيل حجرية صلدة اذ دهمتهم اللافا البركانية وقت أن كانوا نياما فى منازلهم.. ويقول الايطاليون المتدينون ان ثورة بركان فيزوفيو ووقوع سكان بومبى فريسة اللافا كانا عقابا لاهل بومبى بسبب كثرة فسقهم ومجونهم.. وهناك حجرات فى بعض منازل بومبى لا يسمح للسيدات من السائحين وانما للرجال منهم فقط بزيارتها فقد علت جدرانها صور ونحوت شديدة الصراحة والاباحية تصور كيفية معيشة أهل بومبى وأنواع اللهو التى انغمسوا فيها !! La Dolce Vita من قديم الأزل!!

بعد ذلك توقفنا فى ميناء لجهورن Legorno ويقع جنوب ميناء جنوا وهو ميناء تجارى لا يماثل جنوا أو نابولى جمالا وإنما يقع قريبا من مدينة بيزا السياحية التاريخية والتى تشتهر ببرج بيزا المائل نتيجة الزلازل - وقد بنى فى القرن ١٧ تقريبا ويمكن الصعود

الى اعلاه وهو فى الواقع تحفة فنية من القرون الوسطى وإن كان لا يماثل برج لاخيرالدا العربى فى اشبيلية جمالا واتقانا ومن العجب ان برج بيزا لم يقع بعد رغم شدة ميله الواضح نتيجة لأحد الزلازل ورغم انه يزداد ميلا عدة سنتيمترات سنة بعد أخرى ..

وبعد فترة توقف قصيرة أخرى فى جنوا انتقلت الباخرة الى ميناء مرسيليا الفرنسى أكبر موانيء البحر الأبيض والمدينة الثالثة بعد باريس وليون.. وأهل مرسيليا أقرب إلى أهل ساحل البحر الأبيض الجنوبى منهم إلى أهل شمال فرنسا شكلا وخلقا حتى انهم يتكلمون الفرنسية بلكنة جنوبية (صعيدية إن صح هذا التعبير) وهم شديدو التعصب والعصبية ومزاجهم حامى. والمعلوم أن السلام الوطنى الفرنسى يلقب بالمارسييز نسبة الى مرسيليا حيث إن لفيفا من أهلها زحف الى باريس اثناء الثورة الفرنسية ليبعث مزيدا من الحماس فى حماة الثورة وكان يتغنى بنشيد شديد الحماس اصبح رمزا للثورة الفرنسية وللدولة الفرنسية حتى الآن وهو المارسييز. ومدينة مرسيليا بها الكثير مما يستوقف الزائر وينال اعجابه من ميادين وشوارع فسيحة وانيقة من أهمها طريق الكانابيير (الكورنيش) ومبان رحيبة فخمة ويسكنها مائة ألف من المغاربة والجزائريين والتونسيين.. لكن بها أحياء تذكر ايضا بمدن العالم الثالث.. وبهذه المناسبة فان مرسيليا تذكرنى دائما بقصة الكونت

دى مونت كريستو فقد بدأت حوادث القصة فى مرسيليا اصلا وكان الكونت دى مونت كريستو حبيسا فى سجن قلعة ايف Chateau d'Iff فى جزيرة تبعد عدة أميال عن مرسيليا ..

وبعد هذا توقفنا فى برشلونة عاصمة مقاطعة قطالونية الاسبانية وتعتبر المدينة الثانية فى اسبانيا بعد مدريد - وقد كان هناك منذ القدم نوع من المنافسة بين المدينتين لكن برشلونة مازالت قلب المنطقة الصناعية فى اسبانيا ومازالت القائدة فى عالم التجارة الخارجية والصناعية والسياحة رغم أن مدريد هى العاصمة.. ومن أهم معالم برشلونة كاتدرائيتها الفذة ولم أر مثيلا لها فى كل سفرياتى فهى تجمع مابين الفن القوطى وغرابة الاخراج بحيث تبدو أنها مقتطعة أو منحوتة فى صخر الجبل. كما من أهم معالمها تمثال كولون (كولومبوس) حيث ابحر من ميناء برشلونة لاستكشاف أمريكا إحدى المرات. فضلا عن القرية الاسبانية Pueblo Espag-nol المقامة فوق أحد التلال العالمية التى تشرف على المدينة وبها معرض دائم للصناعات اليدوية الاسبانية. كذلك فإن حلبة المصارعة للثيران فى برشلونة لها تاريخ حافل قديم.. ومن معالم برشلونة الحديثة المترو تحت الأرض لكن من أجمل معالمها طريق الرمل Las Ramblas (المؤدى من ميدان قطالونية فى وسط المدينة الى ساحل البحر: الى الرمل Ramblas وهو حى الفنانين اى بمثابة La Rive

gauche فى باريس ومن ثم فهو محط اهل برشلونة ايام اجازاتهم أو بعد الظهر للتمشية والرياضة ومقابلة الاصحاب وبه مجموعة كبيرة من مطاعم الاسماك ونتاج البحر التى تشتهر بها برشلونة بصفة خاصة - هذا وطريق الرمل Ramblas يجتاز بك المدينة القديمة الى ميناء برشلونة . لكن اذا أردت الاستمتاع بمناظر برشلونه الحديثة ومبانيها وحوانيتها الحديثة فخذ Paseo de yracia والطريق الدياجونال El Diagonal المؤدى الى المدينة الحديثة وضواحيها الأحدث.. وكان هذا الطريق يسمى بطريق فرانسيسكو فرانكو مثلما كانت تسمى أهم الطرق فى مدن اسبانيا قديما. لكن مدينة برشلونة قررت تغيير الاسم إلى Diagonal بعد وفاة فرانكو.. فقد كانت برشلونة من أشد المدن تحمسا للجمهورية والاشتراكية اثناء الحرب الأهلية فى حين قاد فرانكو الملكيين الى النصر..

واخيرا كان جبل طارق آخر مدينة توقفت بها الباخرة قبل ولوج المحيط الاطلسى.. وجبل طارق جبل ضخم اشم يقع جنوب اسبانيا ينحدر من ناحيته الغربية فجأة الى حافة البحر الأبيض فى منظر درامى اخاذ ويطل على المضيق الذى يفصل البحر الأبيض عن المحيط الأطلسى وكذا يفصل اوروبا عن افريقيا وعرضه عشرة اميال (ستة عشر كيلو مترا).. وقد استولت بريطانيا على جبل طارق سنة ١٧٠٤ ومازال تحت سيادتها رغم مطالبة اسبانيا

باستعادته لكن يرفض سكان جبل طارق وهم خليط من المالطيين والاسبان والهنود وسكان المستعمرات البريطانية السابقة يرفضون الانتقال الى سيطرة اسبانيا ويفضلون البقاء فى الوضع الراهن الذى يكفل لهم استمرار الاستمتاع بميزات المنطقة الجمركية الحرة وبقية الحريات التى ضمنتها لهم سياسة بريطانيا وتستغل بريطانيا هذه الرغبة كذريعة لعدم التنازل عن جبل طارق طالما ظل اهله يفضلون البقاء تحت السيادة البريطانية.. وليس هناك الكثير الذى يجذب السائح الى جبل طارق سوى ميزات منطقة التجارة الحرة فقد اصبحت مدينة جبل طارق معبرا لجميع انواع البضاعة رخيصة الثمن التى لاتحصل عليها ضرائب جمركية، وسوى المنظر الاخاذ عبر مضيق جبل طارق من أعلى المدينة المقامة فوق الجبل والتى تضمن كفايتها من مياه الشرب بتخزين مياه الأمطار فى خزانات اقيمت اسفل الجبل إذ تنحدر حافته الشرقية تدريجيا نحو أسبانيا ..

لكن لجبل طارق اهمية استراتيجية فذة تظهر واضحة للزائر فهو يتحكم تماما فى مدخل البحر الأبيض المتوسط الغربى ومن يملك ذلك الجبل يملك التحكم فى المضيق وهو مافعلته بريطانيا منذ سنة ١٧٠٤ عندما بدأت التخطيط لتوسيع رقعة امبراطوريتها .. فبعد جبل طارق استولت على مالطة سنة ١٨٠٠ - ١٨١٥ ثم على قبرص سنة ١٨٧٨ ثم على مصر سنة ١٨٨٢ .. وذلك لضمان بقاء المدخل

الشرقي للبحر الأبيض (قناة السويس) فى يد بريطانيا الى جانب المدخل الغربى (جبل طارق) اما القواعد الوسطى مثل مالطة وقبرص مابين المدخلين فتكفل حماية خطوط مواصلات الامبراطورية البريطانية عبر البحر الأبيض ثم عدن (كانت فى يد بريطانيا) ثم الهند فاستراليا ..

هذا ولا يفوتنى أن اردد ماسمعناه من المرشد السياحى فى جبل طارق فقد ذكر أن بريطانيا تحمي وجود عشرات من القردة الضخمة Baboons التي تعيش على سفوح وداخل كهوف جبل طارق وتمنع صيدها أو إبادتها لأن هناك اسطورة مؤداها ان السيادة البريطانية على جبل طارق سوف تظل طالما بقيت القردة تعيش فى جبل طارق !

ويبدو أن منظر جبل طارق الآخاذ يشجع وجود الاساطير حوله منذ القديم فان الاغريق والرومان كانوا يؤمنون باسطورة مؤداها ان هرقل هو الذى مزّق وفرق مابين الجبلين اللذين يحفان بمضيق (جبل طارق حاليا) وكانوا يسمونهما بعمودى هرقل، فمزقهما مكونا هذا المضيق الذى يفصل حاليا مابين اوروبا وافريقيا فقد كانا ملتصقين الى أن مزقهما هرقل وفتح بذلك الطريق المؤدى من المحيط الاطلسى الى داخل البحر الأبيض ..

وأخيرا فان الزائر العربى لجبل طارق لابد أن تنتابه بعض الأفكار التى يثيرها فى مخيلته اسم ومشهد جبل طارق هو الآخر . ولابد من ان يستنزل الرحمة على هذا القائد العظيم الذى اعطى اسمه لهذه القلعة الحصينة وضرب مثلا لمن سيخلفه من القادة فى الشجاعة وفن القيادة عندما احرق سفنه التى عبر بها من المغرب إلى ذلك الجبل وهذه ليست اسطورة بل حقيقة .. وقال لجنوده البحر وراءكم والعدو أمامكم . أى إما النصر أو دونه الاستشهاد .. فكان النصر .. وكانت دولة العرب العظيمة فى اسبانيا على مدى ثمانية قرون من الزمان .

وما ان عبرت الباخرة مضيق جبل طارق ما بين عمودى هرقل متجهة غربا إلا واحسسنا أننا تركنا وراءنا العالم القديم وولجنا عالما جديدا لم تطأه اقدامنا بعد .. وتحسبنا لما سوف نناله على يد هذا المحيط الأطلسى الذى يشتد هياجه فى اشهر الشتاء .. ورأينا الأمواج فعلا وقد خيل إلينا أنها اكبر واعلى كثيرا من أمواج البحر الأبيض . بلغ ارتفاعها احيانا أكثر من عشرة امتار بل وخمسة عشر مترا ولم يترفق بنا الأطلسى فعلا فأوى الكثير من المسافرين إلى مقصوراتهم لا يستطيعون حراكا على ظهر المركب ولا يهمهم ان يفوتوا وجبة أو اثنتين من وجبات الطعام .. وبرغم حداثة السفينة ومتانتها وثباتها إلا أن أمواج الأطلسى العاتية كانت تتلاطمها

وتهزها هزا وتقذف بمقدمتها إلى أعلى ثم تهبط بها فجأة متسببة فى فرقعة كبيرة فوق سطح الماء .. حتى لقد خيل إلينا أحيانا أن الباخرة سوف تنشطر شطرين بسبب هذه الفرقعة الشديدة !

كان النادل (الجرسون) المكلف بخدمة مائدتنا فى حجرة الطعام امريكيا تعدى الستين ان لم يكن الخامسة والستين وكان اسمه مستر بايرا .. وكان بشوشا رقيقا وكان يحنو كأب على زوجتى وحاول جهده اغراءها بشتى ألوان الطعام لكنها كانت فاقدة الشهية بسبب هياج المحيط . كذلك كان هذا أول عهدنا بالطعام الامريكى .. ولم نستسغ أول الأمر طريقة الأمريكيين فى مزج الطعام الحلو بالمالح مثل «سلاطة والدورف» أو شطائر الديك الرومى بصلصة كرانبرى الشبيهة بالمربب وهكذا .. ولكن مستر بايرا ظل يقنعنا بتجربة ألوان الطعام الامريكى حتى اعتدنا بعضها أو ألفناه وان لم نكن أحببناه .. واقتصر اختيار زوجتى غالبا على شطائر الديك الرومى (دون مربب) كما اقتصر اختيارى على اطباق البوفتيك Steaks الأمريكى .

وكان عبور الأطلسى فى شهر مارس تجربة صعبة حقا وكانت السفينة تسير ببطء وتفقد الكثير من الوقت فى محاولة لتلافى ملاقاة الأمواج والأنواء وجها لوجه بالاتجاه فى اتجاه عرضى أحيانا .. وأمضينا تسعة أيام كاملة فى عبور الأطلسى ، أى اننا

أمضينا ٢٤ يوما كاملة على ظهر السفينة منذ أن غادرت الاسكندرية منها اسبوعان مرا كالحلم الجميل بين موانىء البحر الأبيض ثم الباقي تحت رحمة أمواج الأطلسى حتى وصلنا إلى أول ميناء ومدينة أمريكية وطأتها اقدامنا وكانت بوستون عاصمة ولاية ماسا تشوستس وتقع ٢٤٠ ميلا شمال نيويورك .. وكان على السفينة أن تصل إلى نيويورك فى اليوم التالى وصادف ان كان يوم السبت .. والمعلوم أن البنوك والمصالح الحكومية في أمريكا تقفل أبوابها أيام السبت والأحد ، ولما كانت السفينة قد توقفت بنا فى كل موانىء البحر الأبيض التى سبق ذكرها وكنا قد اشتركنا فى رحلات الأميركان اكسبريس السياحية فى هذه المدن جميعها نظير مبلغ معين فى كل ميناء فقد وجدت نفسى فى حاجة ماسة إلى التزود بمزيد من الدولارات الاضافية لمواجهة مصاريف الوصول إلى نيويورك والسفر إلى واشنطن ، وكنا قد حولنا مبلغا من الدولارات من القاهرة إلى احد البنوك فى نيويورك .. لكن ليس إلى بوستون التى لم تكن فى الحسبان ، فما الحيلة إذن وسوف نصل إلى نيويورك متأخرين أربعة أيام كاملة عن موعدنا الأصلى لنجد البنوك مغلقة ؟!

ما ان رست السفينة فى ميناء بوستون إلا وأخذنا زوجتى وأنا سيارة أجرة (تاكسى) وطلبنا إلى السائق أن يوصلنا إلى أكبر

البنوك في بوسطن .. فأخذنا إلى بنك اسمه First National على ما أتذكر .. وولجنا بابه .. ودهشنا كثيرا لفخامة ووجاهة البنك فكان خلافا لما اعتدنا رؤيته من البنوك فيما سبق .. ودهشنا أكثر لاناقة وشدة حسن السكرتيرات الشقراوات اللاتى رأيناهن يجلسن إلى مكاتبهن واقتربت من واحدة منهن لأسألها إن كانت تستطيع مساعدتنا فاحالتنى إلى سكرتيرة أو موظفة أخرى لا تقل حسنا وبهاء وقد جلست إلى مكتبها الفخم . شرحت لها المأزق الذى وجدنا فيه وسألتها إن كان بنكها يستطيع عمل شيء لمساعدتنا .. فاقترحت أن تتصل تليفونيا بالبنك الذى حولنا إليه حسابنا فى نيويورك بعد التأكد من شخصيتنا طبعا .. وطلبت منا أن نمهلها ربع ساعة جلسنا فيها نتأمل جمال المكان وبهاء وحسن العاملات فيه وقد اتفقنا فى الرأى زوجتى وأنا اننا نشهد أكبر مجموعة من الفتيات الفاتنات فى مكان واحد .. وبعد حوالى ربع ساعة فقط كانت قد اتمت الاتصال ببنك نيويورك وأخذت موافقته ، بضمان بنكها وجواز سفرى والوثائق التى احملها على تسليمنا المبلغ الذى طلبناه خصما على حسابى فى البنك الآخر فى نيويورك ، علما بانه سواء أكان بنك بوسطن أو بنك نيويورك فايهما لم يكن قد رآنى من قبل .

كان هذا أول عهدى بكفاءة النظام الأمريكى وتخطيه للروتين ..

وكان درسا لى لن أنساه ما حييت .. وكأنّ القدر قد أعد لنا أفضل مدخل وأحسن تعريف بأمريكا وطريقـة معيشتها فى أقل وقت ممكن ..

وفى نفس الوقت أعد لى القدر تجربة امريكية أخرى لعلهًا كانت لازمة هى الأخرى لزيادة تعارفنا بامريكا .. فقد اردت مكالمة زميلى المرحوم الاستاذ محمد رياض فى نيويورك لابلغه بموعد وصولنا الجديد .. فذهبنا إلى أحد الفنادق حيث توجد بعض التليفونات العامة فطلبتُ موظفة السنترال وابلغتها رقم مكتبنا لدى الأمم المتحدة فى نيويورك والذى اردت الاتصال به فمضت تسألنى ؟ What is the exchange عدة مرات دون أن أفهم مقصدها .. فكان هذا أول عهدى بطريقة الامريكيين فى ترقيم تليفوناتهم ففى ذلك العهد لم يكن الرقم كله عبارة عن أرقام مثلما هو الوضع حاليا بل كان الرقم يتكون من ثلاثة حروف أبجدية إلى جانب أربعة أرقام وكانوا يسمون الحروف الابجدية Exchange ويبدو أنى كنت قد اعطيتها الارقام دون الحروف وكانت الحروف التى تسبق الأرقام LAK فاستمر سوء التفاهم إلى أن ناديتُ نادلا (جرسونا) ليتفاهم مع السنترال واريته ورقة مكتوبا عليها رقم التليفون فإذا به يقول لها بالانجليزية المكسرة والتى لا تعرف النحو والصرف There is a

لكنه استطاع أن يعرف guy here who don't speak English!! مقصدها وان يبلغها الأرقام مع الحروف هذه المرة !

لكنى اصبت فى كرامتى واحترت فى أمرى ، أهكذا تستقبلنى الولايات المتحدة ؟! أهكذا يسخر من انجليزيتى انا هذا الافاق الذى يقتل اللغة الانجليزية الجميلة كل مرة يفتح فيها فمه وأنا «أستاذ» اللغة الانجليزية ؟!

حقا إن الاجنبى لابد ان يدفع ثمن غربته لكنى تعلمت بعد هذا الدرس كيفية تكوين ارقام التليفونات فى أمريكا وطريقة تلقيها كما تعلمت كيف يتكلم جرسونات بوستون اللغة الامريكية أو تذكرت قول برنارد شو الشهير إن البريطانيين والأمريكيين شعبان تفرق بينهما لغة واحدة ! ورغم أنى عشت فى امريكا بعد ذلك – على عدة مرات – حوالى اثنتى عشرة سنة فى حياتى الدبلوماسية إلا أنى قاومت اغراء تكلم اللغة باللهجة الامريكية .. وظللت محتفظا بلهجتى «البريطانية» الاصل .. ربما عنداً فى ذلك الجرسون .. جرسون بوستون !

وأخيراً وصلت باخرتنا إلى نيويورك متأخرة اربعة أيام كاملة وكان دخولنا ميناء نيويورك ذات صباح مما سمح لنا بمشاهدة تمثال الحرية الشهير وكوبرى فرازانو المعلق شديد الاتساع والمعديات التى تعبر من مانهاتان إلى جزيرة ستاتن القريبة ،

واخيرا وليس آخرا منظر ناطحات السحاب في جزيرة مانهاتان وكأنها غابة من الاشجار الباسقة المصنوعة من الخرسانة المسلحة.. هو منظر فريد فى بابه دون ادنى شك فإن نيويورك مدينة عظيمة وان كان البعض لا يجدها جميلة جمال باريس أو روما أو مدريد لكنها تفرض نفسها على الزائر بحكم قوتها وجبروتها وعظمة وروعة منشآتها التى تشعر الإنسان بضآلته وتفرض احترامها عليه وان لم يكن شيئا من الرهبة بالمثل - وذلك بغض النظر عما إذا احبها الزائر أو لم يحبها ..

ورست الباخرة فى ميناء هوبوكين Hoboken على مدخل نهر الهدسون فى نيوجيرسي المواجهة تماما لمانهاتان عبر نهر الهدسون. كان هذا أول عهدنا بامريكا والعالم الجديد .. وكنت قد اتصلت اذن بصديقى وزميلى المرحوم الاستاذ محمد رياض (وزير الدولة للشئون الخارجية فيما بعد) وكان يعمل سكرتيرا ثالثا فى البعثة المصرية لدى الأمم المتحدة أبلغه بموعد وصول الباخرة الجديد .. وكان محمد رياض رحمه الله فى انتظارنا بالميناء . وحملنا امتعتنا فى سيارة تاكسى كبيرة إلى مانهاتان (قلب نيويورك) ..

ولما كان موعد قطارنا الذى سوف نستقله إلى واشنطن بعد ذلك بساعتين أو ثلاث فقد اقترح علينا أن يأخذنا فى جولة لمشاهدة

أعلى مباني نيويورك حينئذ Empire State Building وكان بها مقر وفدنا للأمم المتحدة لرؤية المدينة من ارتفاع ستين طابقا .. وفعلنا ذلك فعلا وكان المنظر اخاذا رائعا جدا .. وامضينا وقتا سعيدا سويا .. ولما انهينا جولتنا ركبنا سيارة أجرة أخرى إلى محطة بنسلفانيا لنستقل القطار إلى واشنطن .. وكان الوقت وقت خروج الموظفين واكتظت الشوارع بعدد من السيارات لم نر مثيله من قبل حتى لقد خيل إليّ أن المشى كان اجدر بنا من ركوب السيارة . فلما وصلنا إلى محطة القطار اضطررنا إلى الجرى لنلحق به قبل موعد قيامه بدقيقتين . ووصلنا ثلاثتنا إلى رصيف القطار لاهثين متعبين لنجد القطار وقد بدأ يتحرك فعلا .. وسألنا أحد موظفى المحطة الواقفين على الرصيف متلهفين عما إذا كان ذلك القطار الذى يتحرك هو الذاهب إلى واشنطن .. وبدلا من أن يجيب على سؤالنا التفت هو إلى زميل له وهو يشير إلى زوجتى قائلا متضاحكا : أليست جميلة حقا ؟! Ain't she pretty ?

وكان هذا درسا جديدا آخر فى اسلوب مزاح الامريكيين والواقع أنهم أبعد ما يكونون عن جدية وتحفظ البريطانيين !!

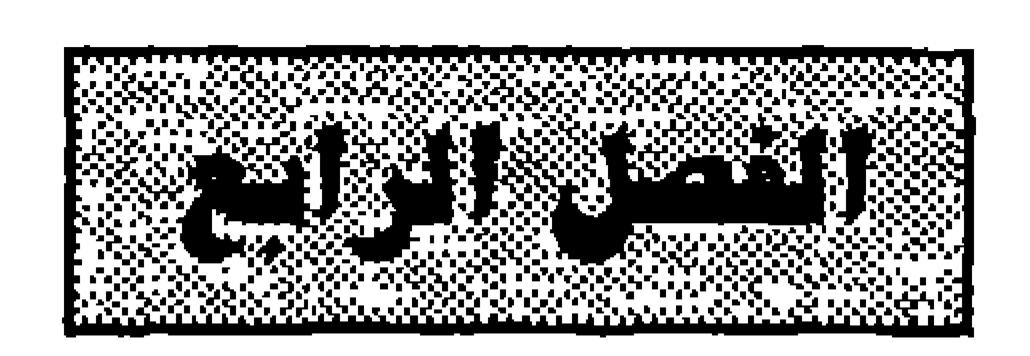
كان موعد قيام القطار التالى بعد ساعتين امضيناهما زوجتى وأنا فى المحطة هذه المرة رافضين عرض محمد رياض الكريم باصطحابنا إلى مكان آخر .. ورجوناه ان يكتفى بذلك القدر من

التعب وان ينصرف إلى عمله وان يتكرم بالاتصال بالزميل الاستاذ صلاح الدين حسن (السفير ووكيل الخارجية فيما بعد) سكرتير السفارة بواشنطن لاخباره بتأخير موعد وصولنا لانه كان سينتظرنا في محطة قطار واشنطن ..

وكان ركوب القطار إلى واشنطن تجربة جديدة هى الأخرى ويبدو أن كل شيء في امريكا يعتبر جديدا من نوعه بمقارنته بالعالم القديم .. لان قطارات امريكا تختلف عن قطارات العالم القديم .. فهناك موظفو القطارات وعدد كبير منهم من الزنوج في امريكا ينادون باعلى صوتهم ! All aboard "الجميع يركبون" قبل أن ينفخوا في صفارتهم ايذانا لسائق القطار بالتحرك .. اما قطارات امريكا فقد لاحظنا فورا انها اكثر اتساعا (عرضا) من قطارات مصر أو أوروبا . والدرجة الأولى (بولمان) بها الكراسى فوتيلات واسعة وثيرة .. تدور حول نفسها على محور ثابت . والقطار يعطى الانطباع بالثقل والثبات وهو قليل الاهتزاز سريع الحركة دون ضوضاء شديدة .. كان ذلك سنة ١٩٥١ كما اسلفت ولم تكن الأمور قد حسمت نهائيا في صالح إلغاء كافة ألوان التفرقة العنصرية في امريكا .. وكان كل ركاب الدرجة الأولى من البيض ، كما كان أغلب خدم القطار والحمالين من الزنوج .. وكانت هذه الظاهرة أيضا ما استوقفنا أول وصولنا إلى واشنطن فجميع الحمالين من الزنوج .

وجرت عادة الأمريكيين البيض على مناداة الرجل الحمّال الزنجي بكلمة Boy أى يا ولد !

بعد أربع ساعات كاملة وصلنا واشنطن .. وكان الزميل صلاح حسن في انتظارنا فى محطة القطار واخذنا فى سيارته واوصلنا إلى فندق عائلى قريب من سفارتنا فى ماساتشوستس افينو فى شمال غرب مدينة واشنطن اعتاد زملاؤنا النزول فيه وكان اسمه The Fairfax Hotel وهكذا بدأنا حياتنا الجديدة فى العالم الجديد .



«الولايات المتحدة الأمريكية : بلد العجائب والمتناقضات»

(١) أمريكا : بلد العجائب :

تحتل الولايات المتحدة الامريكية وسط قارة أمريكا الشمالية ، يحدها شمالا كندا ويحدها جنوبا المكسيك . كما يحدها شرقا المحيط الأطلسى وغربا المحيط الهادى . ويصعب تصور حجم الولايات المتحدة دون مقارنتها بغيرها من القارات والدول .. فهى تمتد من خط عرض ٣٠ شمال خط الاستواء إلى خط عرض ٥٠ وهى مسافة تقرب من خط عرض القاهرة إلى خط عرض لندن وبرلين .. حوالى ٣٠٠٠ كيلو متر ولو وضعت الولايات المتحدة على خريطة افريقيا مثلا لغطت المسافة من شرقى سيناء إلى أقصى غرب المغرب أو السنغال على المحيط الأطلسى !! حوالى ٤٥٠٠ كيلو .. هذا الاتساع الكبير ، هذه الضخامة ، هى من أهم ما يميز امريكا والامريكيين وكل شيء أمريكى ..

وسوف تجد الضخامة الصفة المميزة لحجم الولايات المتحدة ، وللمسافات التى تفصل ما بين مدنها (من نيويورك إلى واشنطن العاصمة المسافة ٣٥٠ كيلو مترا ومن نيويورك إلى بوستون ٣٠٠ كيلو متر .. من نيويورك إلى فلوريدا ١٦٠٠ ومن نيويورك إلى سان فرنسيسكو على الساحل الغربي ٥٠٠٠ كيلو متر وهكذا) .

كذلك هى أهم ما يميز انتاجها وثرواتها : فهى الأولى فى العالم فى انتاج الفحم والبترول والصلب والقوى الكهربائية والنحاس والقطن والخشب وغيرها .. كما أنها الأولى فى العالم من حيث حجم الناتج القومى السنوى العام (٤٥٠٠ بليون دولار على الأقل : فرنسا ٩٠٠ بليون وإيطاليا ٣٥٠ بليوناً) وهى بلا نزاع أيضا الأولى فى العالم من حيث حجم استهلاك الشعب للأطعمة والبضائع الاستهلاكية والسلع المعمرة وغير المعمرة . وهى الأولى فى العالم من حيث عدد المليونيرات والبليونيرات واصحاب الثروات الضخمة والقصور . والأولى فى العالم من حيث عدد الطرق السريعة واتساعها وطولها بالاميال ، ومن حيث عدد السيارات والتليفزيونات والثلاجات والتليفونات (٨١ مليون تليفون سنة ٦٧) . وكبر الحجم أيضا هو الصفة المميزة لحجم السيارات الامريكية بمقارنتها بالسيارات الأوروبية أو اليابانية .. وامريكا هى الأولى فى العالم من حيث عدد المدن الكبرى التى يزيد عدد سكانها على الثلاثة أو الخمسة ملايين نسمة بالمقارنة إلى عدد السكان .. ومن أهم تلك

المدن الضخمة نيويورك ١٠ - ١٢ مليونا - شيكاجو ١٠ ملايين - لوس أنجلوس ١٠ ملايين - فيلادلفيا - بولتيمور - واشنطن - دترويت - سان فرنسيسكو - بوستن نيواورليامز - دالاس - هيوستون - بتسبرج .

ولماذا نذهب بعيدا ؟ اليست الأولى فى العالم أيضا من حيث حجم الإنسان الأمريكى وحجم طبق البوفتيك Steak الذى يأكله والسندويتشات الضخمة التى يلتهمها . وحجم الآيس كريم وكميات اللبن والكوكاكولا التى يستهلكها يومياً ؟! ومن حيث حجم عدد كوبات المارثينى أو كوبات الويسكى التى يشربها يومياً ؟ ومن حيث كمية اللادن أو اللبان الأمريكى المستهلك يوميا ؟ وكمية جوارب النساء التى تنتج وتستهلك فى عام ؟ (يقدر عدد ازواج الجوارب النايلون التى تنتج سنويا بأكثر من ٤ بلايين و ٢ بليون زوج أحذية نسائى سنويا) .

وما من زائر أجنبى زار الولايات المتحدة إلا وراعه حجم الصحف اليومية (لا أقصد عددها وحسب لكن حجم كل صحيفة .. وبخاصة حجم وثقل صحف يوم الأحد) .. وطبعا فإن استهلاك الولايات المتحدة لورق الصحف والورق بصفة عامة هو أكبر معدل في العالم ولا يوجد بلد فى الدنيا يدانيها فى هذا المضمار ..

كذلك عدد دور السينما والمسارح وعدد الأفلام الامريكية المنتجة

سنويا والتى تغزو العالم بأكمله وعدد محطات التليفزيون ومحطات الراديو وعدد ساعات إرسالها أو بثها : لو سألت أمريكيا من مدينة نيويورك كم عدد محطات التليفزيون فى مدينته لحار فى اجابته فإنها أكثر من أن تعد أو تحصى وذلك لكثرة المحطات الأهلية كثرة محيرة حقا .. والمنافسة بين محطات التليفزيون والراديو منافسة رهيبة لا يوجد مثلها فى أى بلد أخر .

إذن فأهم صفة مميزة للولايات المتحدة وشعبها هى فى الكم والحجم والامكانيات المهولة الجبارة ..

والشعب الأمريكى يبلغ حاليا حوالى ٢٥٠ مليونا من البشر وهو ليس بأكبر الشعوب عددا إذ إن الصين والهند والاتحاد السوفييتى تفوقه من حيث عدد سكانها لكنه يأتى فى المرتبة الرابعة بعدها ..

وأهم ما يميزه فى هذا المضمار ، أنه يتكون من مجموعات متباينة من شعوب أوروبية يغلب عليها العنصر الانجلوسكسونى أى البريطانى والايرلندى الناطق بالانجليزية ومن شعوب Nordic نرديه وجرمانية وبلقانية وسلافيه ولاتينية وشعوب أسيوية وافريقية (الزنوج الامريكيون) .. وبصفة عامة فإن الرجل الأبيض فى أمريكا يمثل حوالى ١٨٠ – ١٩٠ مليون نسمة ، فى حين أن زنوج أمريكا قد يصل عددهم إلى ٥٠ مليونا .. وقد نزحت الأصول البريطانية إلى الولايات المتحدة بدءا من القرن السابع عشر وتكاثرت واعطت

للولايات لغتها وطابعها العام المميز الانجلوسكسونى ، ثم تبعتها هجرات الآخرين ، لكنها أن انصهرت بعض الشىء إلى الآن فلم تتم بعد عملية الانصهار التام [١] فى بوتقة الولايات المتحدة والتى لم تكد تبلغ من العمر ثلاثمائة عام . ومن هنا فإن الزائر للولايات المتحدة قد يجد صعوبة فى فهم اللكنة الأمريكية بادئ ذى بدء لاختلافها عن الانجليزية وفى هذا قال الكاتب الانجليزى الشهير برناردشو حسبما أتذكر جملته الشهيرة : «ان البريطانيين والأمريكيين شعبان (من أصل واحد) تفرق بينهما اللغة الانجليزية» لكن الزائر سوف يدهش أكثر عندما يقابل امريكيين ملكوا الجنسية الامريكية منذ المولد لكنهم يكادون لا يتكلمون الانجليزية أو بصعوبة كبيرة وبلهجة أجنبية تجعل فهمهم عسيرا . وأهل «بروكلين» فى نيويورك ومعظمهم من يهود شرق أوروبا يشتهر عنهم أنهم يتكلمون الامريكية بلكنة شرق أوروبية واضحة مختلطة باللغة اليدية Yiddesh مما يجعل المرء يظن أنهم اجانب يتكلمون الانجليزية .

والشعب الأمريكى فى مجموعه ينعم بمستوى معيشة مرتفع لكنه ليس الأكثر ارتفاعا إذ يفوقه السويد وسويسرا بل والكويت [٢] وبروناى من حيث متوسط دخل الفرد .. لكن دخل الامريكى فى

---

(١) هناك جيوب Enclaves يغلب على سكانها تركز جنسى السويديين أو البولنديين أو الالمان أو الأيرلنديين .. ورغم محاولة الجميع تعلم الانجليزية إلا أنه يبقى ان هذه الجيوب مازالت تغلب عليها اللغات الأصلية والصفات والعادات القديمة ..

(٢) اقصد الكويت قبل ٢ أغسطس ١٩٩٠ طبعاً .

المتوسط خمسة عشر ألاف دولار في العام أو أكثر قليلا .. و٩٧٪ من الشعب الامريكي متعلم أي أن الأمية لا تتعدى ثلاثة في المائة بمعنى أن حوالى ٦ – ٧ ملايين أمريكي لم يدخلوا داخل مدرسة قط ولم يتعلموا القراءة والكتابة بعد .

ومن أهم ما يميز الحياة الامريكية طابع «اللارسمية» Informality أو التلقائية والحرية أو الانطلاق أو احترام الحريات وقلة التمسك بالبروتوكول أو الرسميات أو بالروتين الجامد . ولعل أهم أسباب ذلك حداثة المجتمع الأمريكي بمقارنته بمجتمعات أوروبا والعالم القديم . وتاريخ وطريقة نشأة هذا الشعب الأمريكي اليافع وطريقة توسعه عبر الولايات المتحدة نحو الغرب في وجه الصعاب الجمة التي اكتنفت التوسع غربا وضروريات التغلب على «الهنود الحمر» والعصابات وقطاع الطريق والمجرمين ، ونوعية الحياة الريفية أو الجبلية الخشنة أو الخلوية الصعبة وهو ما يعبر عنه بـ Fiontiers Society† والتي مازالت تطفو إلى السطح أحيانا كل ذلك من أهم أسباب وصفات طريقة الحياة الأمريكية (١) :

كما أن من الصفات الأمريكية أيضا ميوعة الفوارق بين الطبقات العليا والمتوسطة والدنيا وسهولة الانتقال من طبقة إلى طبقة أعلى

(١) لكن يشتهر الامريكيون بصفة عامة بالكرم الشديد وبانهم يفتحون قلوبهم وبيوتهم للغريب بسرعة بمجرد التعارف .. وان دل هذا على الكرم والمودة والسماحة فهو أيضا دليل على تمتع الامريكي العادى بدرجة عالية من بحبوحة العيش فهو لا يحسب حساب «اللقمة» ، ولا يعد دراهمه» مثل بعض الشعوب الأخرى الأقل ثراء وبحبوحة ..

لمن ملك المال (ومن ثَمّ الشهرة والنفوذ) بغض النظر عن الأصل العائلى.. فالعبرة أو الفيصل أو المحك فى المجتمع الأمريكى ليس قدم العائلات أو اصالتها وإنما اليُسر المادى أولا وقوة النفوذ والشهرة ثانيا وثالثا.. وعلى أى حال فالمجتمع الأمريكى كله مجتمع مهاجرين. حتى أقدم العائلات وأكثرها أصالة (الذين وفدوا على الباخرة الماى فلاور May flower فى القرن السابع عشر وهى كبريات عائلات نيو انجلاند) انما وفدوا هم أيضا كمهاجرين معدمين مفلسين هاربين من الفقر ومن الاضطهاد.. وإن أمكن لهم التباهى والتفاخر على غيرهم من الأمريكيين الآن فانما بفضل الثروات التى أمكن لهم جمعها.. فالمال مازال هو أذن المحك الأول والفيصل النهائى.. وقد عبر كثير من الكتاب عن ذلك بما أسموه «مادية الشعب الأمريكى †ÆMaterialism

أما تلك الصفة الأمريكية والغالية أى عدم التمسك بالروتين والبروتوكول والرسميات فلها فوائدها ولاشك كما أن لها مضارها ايضا اذا ما جاوزت الحد وهو ما يحدث احيانا. فمن محاسنها سهولة التعامل فى مجال المصارف (البنوك) والأعمال التجارية. وقد سردت فى فصل متقدم كيف أمكن لى أن اقبض مبالغ محترمة من بنك فى بوستون أول يوم وصولى إلى أمريكا فى حين أن حسابى لم يكن مودعا فى ذلك البنك وإنما فى بنك أخر وفى مدينة أخرى !!

ولم تستغرق العملية أكثر من نصف ساعة !! وكذلك فانه يسهل على أى أمريكى غير عاطل أن يحصل على قرض من أحد البنوك فى وقت قصير وبسهولة نسبية. كما أن من تلك المحاسن أيضا تسهيل اقامة الصداقات وتبادل المنافع وعدم التقيد بالملابس الرسمية أو التقليدية باستمرار.. وهكذا ..

أما بعض المساوىء التى يصعب على الزائر من العالم القديم أن يتقبلها - على الأقل فى بادىء الأمر - فقد تتمثل فى عادة أمريكية شائعة هى وضع الرجلين والقدمين (والحذائين طبعا) على المكتب - فى مكان العمل - فى وجه الزائر أو المتحدث الآخر دون أن يخطر ببال الأمريكى صاحب الحذائين وصاحب المكتب أن هذا الوضع قد يؤذى شعور الزائر أو المتحدث الآخر الذى قد يفسر ذلك على أنه علامة استهزاء أو احتقار ؟ .

كذلك يميل الأمريكيون الى سرعة رفع التكليف مع الغريب بسرعة فائقة بحيث ينادونه من اسمه مجردا بمجرد التعارف وبحيث تكون علامات الإعزاز ورفع التكليف عندهم هى تكرار «خبط الصديق على ظهره» كمظهر من مظاهر المودة Back- Slapping ولن تجد انجليزيا أو فرنسيا يفعل ذلك.. فانها عادة أمريكية خالصة.. لكن لاشك فى أن الأمريكى أكثر «ألفة» من البريطانى أو الفرنسى .

لكن أهل العالم القديم بصفة عامة يدهشون لكيفية تطبيق هذه الصفة الأمريكية أى عدم التقيد بالمراسم أو التقاليد، والانطلاق والاستمتاع المطلق بالحرية الفردية، كيفية تطبيقها فى المنزل الأمريكى وبصفة خاصة على تربية الاطفال الامريكيين.. فهى قد تبلغ الفوضى التامة عندما تجد الطفل الأمريكى ينال حريته المطلقة فى الخروج والدخول أو الأكل من عدمه ونوع الطعام والاستذكار من عدمه وسماع الموسيقى الصاخبة بأعلى الأصوات التى تزعج أهل المنزل كله أو فى كيفية حديث الطفل الأمريكى مع والده أو والدته . كذلك تطبيق تلك الصفة الامريكية على الفتية والفتيات فى طور المراهقة فان منتهى الحرية ومنتهى الانطلاق وعدم التقيد بالتقاليد الموروثة قد أديا الى غياب الاشراف العائلى وضعف الروابط العائلية وإلى انتشار استعمال الشباب والنشء للمخدرات وانتشار مرض الايدز والاطفال غير الشرعيين لامهات لم يكن يبلغن الخامسة عشرة من العمر وهكذا ..

لكن من محاسن المجتمع الأمريكى، مجتمع الرفاهية affluent society السهولة التى يقبل بها الأمريكى (أو يتقبل بها ايضا) تغيير عمله من وزارة الى أخرى، ومن شركة إلى أخرى أو من مهنة إلى مهنة أخرى.. لقد انتشرت هذه العادة أو هذا الأسلوب فى المجتمع الامريكى بحيث لايجد الأمريكى العادى فيها غضاضة أو

غرابة بل إن أكثر الامريكيين لابد من أن يكونوا قد مروا بهذه التجربة على الأقل مرة واحدة فى حياتهم العملية – والأغرب من ذلك السهولة التى يجد بها الأمريكى الوسيلة للعثور على عمل أخر أو مهنة أخرى بسبب ضخامة سوق العمل وقدرته على الاستيعاب.. لكن تلك هى روح المغامرة والإقدام التى ميزت الأمريكيين الأول الذين بنو اعظمة الولايات المتحدة وتقدمها ومازالت تميز أغلب الامريكيين فى عالم اليوم أيضا.. وإليها يرجع الفضل فى شدة ديناميكية المجتمع الأمريكى وسرعة تقدمه .

ومع ذلك فاعتقد أن لها جانبا أخر لم نعتده نحن أهل العالم القديم.. ذلك هو قوة وصعوبة «المنافسة» الشديدة القائمة بين الشركات والمصارف وجميع أوجه النشاط التجارى أو الصناعى الخاص.. حتى أن بقاء الموظف فى موقعه واحتمال ترقيته من عدمه رهين بمبلغ انتاجه وبمدى تميزه فى عمله.. وقد يرتفع موظف صغير الى أعلى الدرجات بسرعة فائقة اذا أثبت جرأة وكفاءة وقدرة على قيادة ذلك الموقع.. لكن الجانب الآخر لهذه العملة هو أن المديرين أنفسهم Executives معرضون للرفت السريع أو الاستغناء عن خدماتهم إذا تكرر منهم التقصير أو أظهروا عدم المقدرة على القيادة السليمة.. والمعيار هو مدى الربح أو الخسارة التى تحققها الشركة أو الصناعة فى سنتين متتاليتين.. ومن هنا فإن الموظفين

ينتابهم دائما شعور عدم الاطمئنان وعدم الثقة والخوف من المستقبل، ومن احتمال عدم عثورهم على وظائف اخرى بعد أن يتجاوزوا السن المناسبة لبدء عمل جديد وكل ذلك مدعاة لايجاد نوع من أشد المنافسة وأكثرها ضراوة بين الزملاء فى العمل الواحد، كما بين الشركات والمصالح ويسمونها Cut-throat competition لأنها تصل إلى حد «ذبح» المتنافسين بعضهم البعض الآخر فى سبيل ضمان الترقى والاستمرار فى الموقع ...

وتتميز الولايات المتحدة بوفرة انتاجها من كل شىء، المأكل والملبس، والسلع الاستهلاكية المعمرة منها وغير المعمرة على حد سواء وفرة سببها اتساع السوق وثراؤه وقدرته الانتاجية الفائقة، وفرة تتيح أن تصل هذه السلع الى المستهلك الأمريكى العادى (وليس الثرى وحده) وبأسعار أقل من أسعار مثيلاتها فى أوروبا الغربية بل وفى دول العالم الثالث !!

لكن السلع التى تلمسها يد «وسيط الخدمات» لابد من أن يرتفع سعرها بمقدار ما يناله هذا الوسيط من مكافأة أو مرتب أو ربح.. مثل ذلك الفارق الكبير بين سعر المأكولات الخام المشتراة من الأسواق الـ Supermarkets وبين ســـــعر الوجبات فى المطاعم.. واقصد من وراء ذلك القول بأن سعر المأكولات الخام فى أمريكا أرخص منها نسبيا عن بلاد أوروبا وفى كثير من بلاد العالم الثالث.

ومن صفات بل ومن مزايا المجتمع الأمريكي وطريقة المعيشة الأمريكية ظاهرة شدة «الاعتماد على النفس».. وتتخذ هذه الظاهرة صورا مختلفة مثل عدم اعتماد العائلة الأمريكية العادية وعدم اعتماد المرأة الامريكية (ست البيت) على أى خدم فى منزلها اذ تقوم هى يشاركها زوجها (وأولادها احيانا) بالواجبات المنزلية .

كما تشجع الأسرة الأمريكية أولادها منذ الصغر على الاعتماد على النفس بعدم منح الاطفال «مصروف جيب» تلقائى وإنما نظير أداء الطفل أو الفتى أو الفتاة لبعض الأعمال المنزلية أو تشجيعهم على العمل خارج المنزل فى توزيع الصحف اليومية أو اللبن ومأأشبه فعلى الطفل أو الحدث أن يعتاد أن يكسب مصروف جيبه منذ الصغر.. ومن ثم تجد الأسرة الأمريكية تشارك بعضها بعض فى الطهو وغسل الأوانى والسيارة وتهذيب الحديقة والعناية بها.. واعتقد أنها ميزة كبرى.. تعوض إلى حد كبير الوجه المقابل للعملة وهو ماسبق الاشارة اليه من ظاهرة تفكك الأسرة وزيادة الحرية التى يتمتع بها الطفل أو الحدث الأمريكى وإن كانت هى نفسها سببا فى انفصال الفتى أو الفتاة عن الأسرة مبكرا بسبب عادة الاعتماد على النفس !! وبديهى - مما سبقت الاشارة اليه - أن المليونيرات فى أمريكا وحدهم هم الذين يستطيعون تحمل مرتبات الخدم أو الطهاة أو الحدائقية.. فاليد العاملة غالية الثمن .

ولا بد من التنويه بقوة الرأى العام الأمريكى ومدى تأثيره على

السياسة وطريقة الحكم، وكذلك بدور المرأة الأمريكية ومدى قوتها داخل هذا الرأى العام الأمريكى والمجتمع الأمريكى ..

لو سألت أمريكيا متعلما «من المهيمن على سياسة الولايات المتحدة؟ لأجابك على الفور «الشعب».. فالأمريكى شديد الايمان بديموقراطية الولايات المتحدة ويتفوق بطريقة الحياة ونظام الحكم فى أمريكا (١) .. فاذا ما سألته «ومادور الحكومة اذن ؟ ومادور رئيس الجمهورية والكونجرس ؟ لقال لك معززا اجابته الأولى «وان الحكومة والرئيس والكونجرس إنما يمثلون إرادة الشعب ويحكمون باذنه ومشيئته وأن استمرار بقائهم من عدمه رهن بارضاء الشعب » فإذا ما بدأت تستوضح من صديقك الأمريكى الدور الذى تلعبه جماعات التأثير وأصحاب المصالح الخاصة فى تسيير دفة الحكم لاجابك الأمريكى بأنه ربما لا يمكن اغفال دور ونشاط جماعات التأثير وأصحاب المصالح الخاصة حقا، لكن سلطة هذه المنظمات والأقليات إنما تقوم غالبا على أساس قوتها وقدرتها على التأثير على الشعب وتوجيهه وكسب عطفه وتأييده لطلباتها ولمصالحها، ومن ثمّ قدرتها على الضغط على الحكومة والكونجرس والرئاسة الأمريكية لتأييد هذه المصالح مستعملة قوة تأثيرها على الشعب.. فالشعب الأمريكى

---

(١) من الكتب المفيدة حول طريقة الحياة الأمريكية واخلاق الامريكيين كتاب تأليف :
Henry S. Commerager
وكتابا جون جنثر ‡‡ John gunther داخل الولايات المتحدة » مجلدان .

فى رأى الأمريكيين، بطريق مباشر أو غير مباشر هو المرجع الأول والأخير، وهو الهدف الذى تستهدفه جميع المؤسسات السياسية الشرعية وغير الشرعية ومنها جماعات التأثير.. ومنها طبعا رئاسة الجمهورية والكونجرس .. ومن مظاهر قوة الرأى العام الأمريكى أن رجال السياسة، أعضاء الكونجرس ورئيس الجمهورية وغيرهم، يحاولون دائما ضمان تأييد الشعب الأمريكى لهم عن طريق مخاطبته على الراديو والتليفزيون ووسائل الاعلام الأخرى. كذلك تحاول جميع المؤسسات التجارية والاقتصادية والصناعية والسياسية الحصول على تأييد الشعب لطلباتها ومصالحها بمخاطبته عن طريق وسائل الاعلام بالمثل.. وكان هذا سببا قويا ولاشك بل لعله السبب الأول فى قوة ونفوذ وسائل الاعلام فى أمريكا (كما فى البلاد الديموقراطية الأخرى) قوة لاتقارن بقوتها فى أوروبا الغربية والعالم الثالث .

أما إذا أردنا التعميم، وحاولنا تسمية أهم طائفة واحدة بعينها لها السيطرة والحظوة والنفوذ داخل المجتمع الأمريكى فهذه الطائفة هى النساء الأمريكيات !! وكثيرا مايسمع الغريب فى أمريكا أن المرأة الأمريكية هى التى تحكم الولايات المتحدة.. وهذا القول فيه شىء كبير من الصحة، فهى متعلمة ولها حق الانتخاب، بل إن عدد الناخبات فى أمريكا أكثر كثيرا من عدد الناخبين، فالمرأة الأمريكية

تعمّر أكثر من زوجها (متوسط عمر المرأة ٨٠ - ٨٢ فى حين أن متوسط عمر الرجل ٧٤).. وللمرأة الأمريكية قوة شرائية ضخمة فهى تنفق سنويا على شراء المجوهرات والساعات ماقد يبلغ ضعف ميزانية الحكومة المصرية.. كما أن تفرغ المرأة الأمريكية لأعمالها المنزلية دون مساعدة من الخدم هو السبب فى وجود أكثر من خمسين مليون مكنسة كهربائية فى المنزل الأمريكى وأكثر من خمسين مليون راديو وثمانين مليون جهاز تليفون ..

والمرأة الأمريكية مسئولة عن انفاق النقود المتداولة فى السوق الأمريكية.. فهى إما تكسب جزءا كبيرا منها بعرق جبينها - إذا كانت امرأة عاملة - وهو كثير الشيوع - أو تنال الجزء الباقى من زوجها الذى جرت عادته على تسليم الزوجة أغلب المرتب أول كل شهر.. والاحصاءات الأمريكية، تؤكد أن المرأة الأمريكية هى التى تملك أغلب نسبة من الأسهم والسندات الأمريكية، إما عن طريق شرائها مباشرة أو عن طريق وراثتها من الزوج فالمرأة تعيش أكثر من زوجها عادة.. وترثه ....

ولما كانت المرأة الأمريكية تتميز بشدة الوعى السياسى . ولما كانت هناك جماعات نسائية منظمة فى كل مدينة أو قرية فان مشروعات القوانين التى تضمن تأييد المنظمات النسائية تكون لها أكثر من فرصة فى النجاح .

وتتحكم المرأة الأمريكية فى نسبة المواليد، وهى وراء كل حركة لتحسين مستوى المنازل ورفع مستوى التعليم والصحة.. ونسبة كبيرة من المدرسين فى المدارس الصغيرة والأولية من النساء. بل إن النساء أصبحن يشكلن ١١٪ احد عشر فى المائه من عدد القوات المسلحة الأمريكية[١] .

وأغلب الاعلانات فى أمريكا موجهة إلى المرأة الأمريكية. ولاشك فى أن الاهتمام العظيم الذى توليه الصناعة الأمريكية إلى جمال مظهر منتجاتها يرجع إلى محاولة إرضاء أنواق النساء.. ويقول بائعو السيارات الأمريكية مثلا : إن التحسينات الأخيرة التى قفزت بجمال السيارة الأمريكية من حيث تعدد الألوان فى السيارة الواحدة واستعمال أحدث الألوان الجديدة وروعة «التنجيد» جاءت لارضاء المرأة الأمريكية.. كما أن المستحدثات الجديدة لتسهيل القيادة مثل أجهزة نقل السرعة الاتوماتيكية وتسهيل دوران عجلة القيادة وتكييف الهواء.. الخ جاءت لارضاء السيدات ولضمان اقبالهن على شراء السيارات الامريكية.. فان نسبة قائدى السيارات من النساء فى الولايات المتحدة هى أكبر نسبة فى العالم !

كذلك فان صناعة ملابس النساء وهى من أقدم وأكبر الصناعات

---

(١) فى أخر احصاءات سنة ١٩٩٠ تبين أن عدد المجندات الأمريكيات فى القوات المسلحة الأمريكية بلغ ٢٢٥ ألف مجندة (مائتان وخمسة وعشرون الف مجندة) وهى نسبة تبلغ ١١٪ من العدد الاجمالى .

الأمريكية قاطبة، قد نشأت بناء على تفضيل المرأة الأمريكية شراء ملابسها جاهزة الصنع.. كذلك تكوّن النساء نسبة كبيرة جدا من رواد السينما وقراء الكتب والمجلات، ولا يمكن أن نغفل الدور الذى لعبته المرأة الأمريكية فى تحريم صناعة وبيع الخمور فى أمريكا حول مطلع القرن العشرين حتى سنة ١٩٣٠ وكان سببها عدم رضاء المرأة الأمريكية وثورتها على شدة إقبال الأمريكى على شرب الخمر ومدى تأثير ذلك على الحياة المنزلية الأمريكية وعلى تربية الأطفال والنشء.

وقد عبر كتاب كثيرون عن هذه الظواهر الأمريكية بقولهم : إن المجتمع الأمريكى مجتمع Matriarchal تسيطر عليه المرأة [1].

(ب) أمريكا : بلد المتناقضات :

كما أنها بلد العجائب والمعجزات فإنها أيضا بلد المتناقضات ففى وسط كل مظاهر الغنى والثراء فى مدينة عظيمة ثرية مثل نيويورك تجد الكثير من الأحياء الفقيرة المتداعية القذرة والمهملة Slums.

ورغم أن مدينة نيويورك يسمونها The Big Apple التفاحة الكبيرة الشهية فإن نصفها «معطب» (عطب).. والغريب فى أمر

(١) اقرأ . america in Perspective 8
لمؤلفه †††Henry S. Commager

نيويورك أن احياء ها الفقيرة تختلط باحيائها الثرية وليست منفصلة تماما عنها بل إنها تتداخل فيما بينها اللهم فيما عدا حى الزنوج التقليدى هارليم فهو منفصل ..

كذلك وسط ثراء الولايات المتحدة الفادح وتفوقها على كل العالم فاحصاءات أمريكا ذاتها تقول : إن ٤٠٪ من الشعب دون مستوى الفقرBelow the poverty Line وأن ٣٠٪ من منازل أمريكا ليس بها «بانيو» أو«دوش» و ٢٥٪ منها غير مزودة بدورة مياه بتاتا (١) .

وواضح أن الزنوج الأمريكيين هم الذين يستوعبون الجانب الأكبر من هذه النسب.. ورغم التقدم الكبير الذى حققوه فى ميدان الحقوق السياسية والحريات والتعليم، إلا أنه مازال أغلب فقراء أمريكا ينتمون إلى الجنس الأسود. وبرغم ذلك فمنهم الكثير من المتعلمين النابهين المثقفين والبارزين فى المجتمع الأمريكى عامة ..

إلا أن من صفات الأمريكى الأسود انه بمجرد أن يحقق شيئا من الثراء فإنه يسرع إلى شراء وقيادة سيارة أمريكية من أحسن الماركات واغلاها: كاديلاك فارهة مثلا.. ولن يكون أمريكيا أسود الا

---

(١) اقرا †Inside USA بقلمه †john Gunther
وهو يقع فى مجلدين . وقد ذكرت الصحف الأمريكية فى سبتمبر ١٩٩٠ أن حد الفقر Poverty lineبامريكا حاليا هو الف دولار شهريا لعائلة من ثلاثة افراد وان ٣٠٪ من الامريكيين يعيشون دون حد الفقر !!

إذا قادها وفى فمه سيجار طويل ينفث دخانه ! فهذه من علامات الغنى ورمز المركز الاجتماعى Status Sympol ومن هنا فان سائقى التاكسى البيض فى نيويورك مثلا.. يتقاسمون هذه الصفة معهم اثناء قيادتهم لتاكسياتهم !!

ورغم ثراء المجتمع الأمريكى إلا أن الزائر للولايات المتحدة سوف يدهش لرؤية عديد من الشحاذين المفترشين للأرصفة أو الذين يجوبون الطرقات مادين يدهم طلبا للإحسان. وسوف تجد بعضهم من الشباب الذين اعتادوا حياة الكسل والبطالة وان كان الكثيرون منهم من المتقدمين فى العمر فإن برامج المساعدات الاجتماعية للمتقدمين فى السن أو العاطلين أقل اتســاعا وشمولا من أمثالها فى بعض بلاد أوروبا الغربية المتقدمة فى ميدان الخدمات الاجتماعية .

ورغم تقدم الأبحاث الطبية العلمية وتألق أسماء كثير من أطباء وجراحى الولايات المتحدة إلا أن نفقات العلاج باهظة التكاليف.. والتأمينات الصحية الخاصة لدى الشركات المعنية أصبحت كذلك باهظة التكاليف بسبب مغالاة نقابات الأطباء فى تقدير أتعاب الأطباء لمواجهة احتمالات مقاضاة الأطباء ومطالبتهم بالتعويضات الفادحة فى حالات ارتكاب الخطأ فى التشخيص أو العلاج Mal-practicc وقد كثرت جدا حالات مقاضاة الأطباء فى أمريكا، وأصبحت مصدراً لربح البعض .

ورغم مجتمع الرفاهية الأمريكى فإن السعى وراء السعادة والاستمتاع بها The pursuit of Happiness هذا السعى المنشود وراءها مازال أملا لم يتحقق بعد على نطاق واسع.. فإن الدستور الأمريكى يضع «السعى وراء السعادة» من أهداف المجتمع الامريكى التى يكفلها الدستور - كما أنه من حقوق الانسان الأمريكى. والواقع أن الانسان الامريكى العادى ينشد السعادة طبعا ويسعى لتحقيقها سعيا حثيثا يتمثل فى جده ونشاطه وكثرة ساعات عمله لكن يؤخذ عليه أنه يقضى كل وقته أو أغلب وقته فى هذا السعى المنشود لجمع المال بحيث لا يترك لنفسه بعد ذلك فسحة من الوقت ليقف هنيهة ليستمتع بنتيجة ماحققه فى عمله وبثمرة جده واجتهاده كما يفعل الايطاليون وكثير من الفرنسيين مثلا. وكثير من علماء الاجتماع الامريكيين يشكون من هذه الظاهرة (١) .. ويعزون اليها بعض السبب فى نفور واغتراب بعض الشباب الأمريكى عن مجتمعهم Their Alienation وفى نقمتهم على سياسة بلدهم وعلى بعض اتجاهات سياساتها.. وقد زادت ظاهرة اشتراك الولايات المتحدة فى حرب فيتنام والقذف بمئات الآلاف من شباب أمريكا إلى اتون تلك الحرب الطاحنة فى غابات اسيا - لاهداف لم يفهمها

---

(١) American in Perspective »
للكاتب Henry Commager

الشباب الأمريكى - زادت من اتساع رقعة شعور العزلة والنفور والاغتراب عن المجتمع Alienation وزادت من نقمة الشباب على مجتمع الرفاهية وتحديهم له وخروجهم على هذا المجتمع فى واحدة من إحدى صور شتى منها :

الالتجاء الى المخدرات Drugs على نطاق واسع جدا أو إلى اغراق احزانهم فى الخمر أو ايجاد تنفس لشعورهم المكبوت بالغضب واليأس فى نـــواح مختلفة من العنـــف.. السطو المسلح أى Muggings أو الجماعات الارهـــابية أو مسلك «العصبجيـــة Hooliganism كـــل ذلك فى مجـتمع الســـعادة والرفـــاهية !) .

ورغم كرم الامريكى العادى واستعداده لفتح داره وقلبه للاغراب والأجانب بسرعة أكثر من أمثاله فى أوروبا - ورغم طيبة قلب الرجل الأمريكى بصفة عامة إلا أن مدن أمريكا الكبرى - كما هو متوقع - قاسية القلب.. تجد فيها كثيراً من مظاهر العنف التى تبرز الى السطح بسرعة - Excitability إذا ماالحتك الغريب حتى عن غير قصد بأحد من الامريكيين.. كما سوف يحزنك أن ترى الناس تسير فى طريقها ولا تعير أى اهتمام (Apathy) لعجوز أو سيدة نالها

الاغمـــــاء فى الطريق العام أو فى المتـــرو مثلا .. فسقطت أعياء أو جوعا .

كما أنه إذا حاولت استيقاف أحد المارة من الامريكيين فى أحد الشوارع بالمدن الكبرى مثلا لتسأله ليدلك على الطريق فأغلب الظن أنه لن يتوقف فى مسيرته بل سوف يسرع الخطى بعيدا عنك خوفا من أن تكون بسبيل محاولة للسطو المسلح عليه ؟ الى هذا الحد وصل الخوف Fear بالامريكيين من الاعتداءات والسطو المسلح فى المدن الامريكية Muggings حتى بات الامريكيون يتفـــادون السير ليـــلا فى الامــــاكن غير المطروقة ، ولا يحملون معهم إلا احـــــدى البطاقـــات الائتمانية Credit Cards أو عشرة أو خمســة عشر دولارا فقط .. حتى إذا ما وقعوا ضحيـــــة الســـــطو المسلح لم يحاولوا المقاومة ولم يفقدوا الكثير فى الآونة ذاتها .

هناك نوع أخر من الجرائم هى «الجريمة المنظمة Organized crime عن طريق العصابات المسماة [1] Crime Syndicates التى تفرض الاتاوات على العمال والمتاجر الصغيرة «لحمايتهم»

---

(١) اقرا Inside U.S.A by john gienther

والتى تعيش فى ظل تحالفها مع بعض رجال السياسة المحليين وفى ظل حماية هؤلاء الساسة لهم نظير الرشاوى الشهرية أو السنوية التى تدفعها لهم المنظمات ..

وقد اثبتت تحريات وتحقيقات رجال ولجان الكونجرس الامريكى فى عديد من المناسبات تغلغل العصابات فى نيويورك لعمال ونقابات الشحن والموانىء . ومن أشهر هذه التحقيقات ماكتشفته لجنة السناتور كيفوفر سنة ١٩٥١ من أن عمدة نيويورك وليام اتواير (الذى صار بعد ذلك سفيرا لأمريكا فى المكسيك) استغل عموديته لنيويورك ليجمع ثروة طائلة من الرشاوى التى تقاضاها من نقابات عمال المدينة ونقابات الجريمة المنظمة.. حتى أن لجنة كيفوفر هذه وجهت نقداً علنيا الى العمدة اتواير لانه «تسبب مباشرة وغير مباشرة فى نمو الجريمة المنظمة والاحتيال والعصابات فى نيويورك وانه هو وموظفيه لم يتخذوا اجراءات حازمة ضد اصحاب نوادى القمار السرية وغرز الحشيش ومجرمى الموانىء وعمال الأرصفة والقتلة والسفاحين »[1] .

ومازالت الجريمة المنظمة فى أمريكا تسيطر على بعض المدن الكبيرة والصغيرة تلتف حول نوادى القمار وأوكار البغاء وماأشبه، حتى وإن قل انتشارها ونفوذها عن ذى قبل .

(١) وماباالنا بعمدة مدينة «واشنطن سنة ١٩٩٠ الذى قبض عليه وادين لثبوت حيازته واستعماله للمخدرات وتستره على عصابات المخدرات التى زودته بها ..

لكن من شأن انتشار الجريمة المنظمة واسبابها ودواعيها أن قل اقبال بعض الرجال الطيبين على الزج بأنفسهم فى السياسة وبخاصة فى حكومات الولايات والمدن.. ومن هنا فان مستوى الكثير من رجال السياسة المحلية (فى حكومات الولايات والمدن) يتسم بالانحطاط Mediocrity أى أنه لم يبلغ المستوى السياسى والقيادى الرفيع الذى تبوأته الولايات المتحدة كقائد للعالم الحر.. ومازال أغلب العمد ورجال الضبط وبعض حكام الولايات ضيقى الأفق محدودى التفكير لم ينالوا قسطا وافيا من الثقافة أو التعليم. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن أغلبهم من الطبقة الدنيا أو الطبقة المتوسطة الدنيا ويشتغلون بالسياسة لربحها المادى (١)، كما يرجع إلى هروب وعزوف طائفة المثقفين المحترمين عن العمل بالسياسة لسوء سمعتها .

كذلك فان سببا هاما فى هبوط مستوى رجال السياسة المحليين يرجع إلى ظاهرة انتشار الروح الريفية المنعزلة Provincialism – فى أواسط أمريكا وريفها القصى .. فان اتساع رقعة الولايات المتحدة اتساعا رهيبا – وشعور أهلها بالطمأنينة والحماية فى ظل هذه العزلة وهذا الانعزال عن العالم – واستغناء ها عن الاعتماد على الخارج ماديا واقتصاديا قد أدت الى انتشار شعور العزلة -Pro

(١) John geenther : Inside U.S.A

Provincia lism والاقليمية أو الانغلاق Insularity وبخاصة فى تلك المناطق البعيدة عن الساحل الشرقى ومنطقة كاليفورنيا وهما المنطقتان المعرضتان أكثر من غيرهما للعالم الخارجى .. وقد انتشرت هذه الصفات فى ريف أمريكا رغم كثرة الجامعات والمعاهد العلمية ووسائل الاعلام.. فالامريكى العادى لايتتبع مجريات العلاقات الدولية بل يقصر اهتمامه على الأمور الاقليمية الضيقة.. فالعالم الآخر بعيد عن اهتمامه تماما..

كذلك فمن الظواهر المحيرة مدى التباين مابين التخصص الشديد فى فرع من فروع العلم أو الثقافة والتبحر فيه، too much specialization مع ضيق الافق والجهل فى الوقت نفسه بمجريات الأمور العالمية أو غيرها من القضايا المهمة أو المعلومات العامة General knowledge

فالتعليم الأمريكى يشجع حقا على التبحر فى فرع من فروع العلم بحيث يصير الأمريكى حجـة فيه لكنه قـادر فى الوقت نفسـه على اغفـال أو إهمال التثقف بالمعلومـات العامة General Knowledge أى أن.. التعليم الأمريكى فى مجموعه يشجع التخصص الشديد ربما على حساب المعلومات العامة الاقل اهمية فى نظر البعض فى أمريكا.

ولعل السبب الأكبر فى هذه الظاهرة - مرة أخرى - هو أن

الولايات المتحدة عالم مستقل منفصل عن العالم كله، عالم يجعل الفرد الامريكي يحسب أنه يعيش في غنى عن الاعتماد على العالم القديم أو متابعة أحواله واموره. والواقع أن تجارة الولايات المتحدة مع العالم الخارجي لا تتجاوز قيمتها ٥٪ خمسة في المائه من حركة التجارة الأمريكية ..

ومع هذا ورغم تبوء الولايات المتحدة لمركز القيادة والصدارة العالمية منذ الحرب العالمية الثانية الا أن ظروف الحرب وماتلاها من انجذاب الولايات المتحدة إلى مشاغل وأمور العالم القديم وماصحبه من تشجيع حركة السياحة الأمريكية الى أوروبا والاحساس بانكماش حجم المسافات، كل ذلك قد أدى أخيرا إلى إعادة تعريف الامريكيين باصولهم الأوروبية أو أصول آبائهم أو أجدادهم في أوروبا.. وصحب ذلك ايضا اكتشاف الامريكيين لمدى قدم واصالة وعراقة الحضارة والثقافة الأوروبية بل وربما تفوقها على «طريقة الحياة الأمريكية» التى لم يتح لها النضج الكافي بعد لكي تقارن نفسها بحضارة وثقافة أوروبا.. ومن هنا شعور« مركب النقص الأمريكي» أمام الحضـــارة الأوروبية القديمة وبخاصة حضارة انجلترا ولغة انجلترا.. رغم تفوق امريكا عليها ماديا وتكنولوجيا.. وحسب !.

ج - دبلوماسي مصرى فى واشنطن ١٩٥١ - ١٩٥٦ :

تقع مدينة واشنطن فى منطقة فيدرالية ما بين ولايتى ماريلاند وفرجينيا «يسمونها منطقة كولومبيا» District of colombia وتبعد عن نيويورك ٢٢٠ ميلا جنوبى نيويورك (حوالى ٣٥٠ كيلو مترا) ولكنها تبعد عن البحر (المحيط الاطلسى - خليج تشيسابيك) حوالى ٧٠ - ٨٠ كيلو مترا . لكنها تقع على نهر البوتوماك وهو يكوّن حدها الجنوبى الذى يفصل بينها وبين ولاية فرجينيا .. ومع ذلك فقد امتدت واشنطن الكبرى لتصل بعض أحيائها (Suburbs الضواحى) شمالا عبر حدود ولاية ماريلاند وبعضها الآخر جنوباً عبر ولاية فرجينيا .. والاتجاه الغالب فى كل مدن أمريكا الكبرى حاليا هو التوسع السكانى فى الضواحى Suburbia بعيدا عن الضوضاء والازدحام فى المدن وسعيا وراء الهدوء والطمأنينة والأمان أيضا ..

وعند وصولنا إلى واشنطن فى مارس سنة ١٩٥١ كان سبعون أو ثمانون فى المائة من سكانها من السود .. ومازالت هذه النسبة قائمة حاليا بل تأكد بلوغها الثمانين فى المائة على الأقل .. وكانت واشنطن فى هذا تماثل مدن «الجنوب» الأخرى حيث كانت نسبة السود أعلى كثيرا عنها فى المدن الشمالية .. وآية ذلك أن حركة نقل الزنوج من أفريقيا إلى الولايات المتحدة (ظاهرة الرق) كانت تستهدف تشغيلهم فى المقام الأول فى حقول القطن والقصب فى

الولايات الجنوبية وليس فى الولايات الشمالية .. ومن هنا أيضا كانت الولايات الشمالية هى المدافعة عن مبدأ إلغاء الرق وتحرير العبيد في حين كانت الولايات الجنوبية هى المعارضة لتحرير العبيد مما أدى إلى قيام الحرب الأهلية (١٨٦٠) بين الشماليين The Yan-kees والجنوب والتى انتهت بانتصار الشمال وبتحرير العبيد ..

ورغم تحرير العبيد منذ نهاية الحرب الأهلية الأمريكية فقد كانت واشنطن فى ذلك العهد (١٩٥١ - ١٩٥٦) مدينة "جنوبية الطابع" .. بمعنى أن مسكن السود كان مقصورا على أحياء معينة فى وسط المدينة وفى شرقها .. وليس فى شمالها أو غربها مثلا حيث كان السكن مقصورا على الطبقات العليا من الجنس الأبيض .. ولم يكن الزنوج راغبين (ولا قادرين ماديا) على تعدى تلك المناطق إلى السكن فى أحياء الرجل الأبيض .. كما لم يكن يسمح لهم بدخول افضل المطاعم والفنادق والمنتديات الليلية.. وانما كانوا قد بدأوا دخول دور السينما فى الاحياء التجارية فى وسط المدينة. وبمعنى أخر فقد كان هناك فى واشنطن مجتمعان منفصلان وغير متداخلين، واحد للجنس الابيض وآخر للزنوج.. ولم نكن نرى الزنوج في واشنطن إلا عند مرور سيارتنا بالاحياء المكتظة بهم والواقعة مابين محطة سكة حديد واشنطن والحى الشمالى الغربى الـ N.W فى واشنطن.. حى الطبقات الراقية .

وقد تغير هذا الوضع الآن فى واشنطن وزادت ظاهرة الاختلاط عن ذى قبل وزاد انتشار سكنى الزنوج فى احياء كثيرة لم تكن احياؤهم من قبل.. مما دفع بالطبقات البيضاء الراقية الى الخروج من المدينة والى سكن الضواحى الجديدة فى ولاية ماريلاند شمالا، وفى ولاية فرجينيا جنوبا.. ومازالت هذه الضواحى مقصورة الى حد كبير على الرجل الأبيض..

والمعروف أن بدء انتشار انتقال الزنوج إلى حى أو أحياء بيضاء من شأنه بدء عملية خفض القيمة الايجارية فى مساكنها وخفض ثمن العقارات بالتالى.. لالشىء سوى أن مستوى معيشة الزنوج منخفض أو أقل ارتفاعا عن مثيله للرجل الأبيض.. كما أن أسلوب حياتهم وعاداتهم وطريقة معيشتهم تخالف كلها أساليب وامزجة الرجل الأبيض .

ورغم أن المحكمة العليا الفيدرالية قد أصدرت سلسلة من القوانين والأحكام [1] التى من شأنها إلغاء التفرقة العنصرية فى

---

(١) فى أوائل الخمسينات اصدرت هذه المحكمة حكما يقضى بعدم دستورية نظرية Seperate bict equal التى على أساسها قامت مؤسسات «خاصة للزنوج» بدعوى أنها متكافئة وإن كانت متفرقة عن مثيلاتها للبيض ومن هنا تم ادماج المدارس الخاصة بالزنوج مع مدارس البيض وتم نفس الشىء بالنسبة لسيارات نقل التلاميذ الزنوج وحدهم فادمجت مع سيارات نقل البيض .. وهكذا .

التعليم وتأكيد حقوق الإنسان الأمريكي بصفة عامة إلا أنه مازالت هناك تفرقة واقعية بين الجنسين الابيض والأسود - تفرقة غير قانونية - لاتستند إلى حكم الدستور أو القانون وإنما أساسها الفروق الواضحة بين مستويات المعيشة والتعليم والعادات والامزجة.. وبمعنى أخر فإن أهم أسسها هى الفروق الاقتصادية والاجتماعية.. فالفقر من أهم أسباب الجهل والأمراض، والمساوىء الاجتماعية مثل ادمان المخدرات والجرائم الخلقية ..

وواشنطن اليوم تأتى على رأس مدن الولايات المتحدة من حيث عدد الجرائم ونسبتها الى عدد السكان.. ولم تكن كذلك فى تلك السنوات الخوالى (١٩٥١ - ١٩٥٦) فقد كانت مدينة «جنوبية» هادئة وآمنة ووديعة.. ولم تكن تعرف بعد اخطار السير ليلا (أو حتى نهارا) فى الأماكن المنعزلة وأهمها خطر التعرض للسطو المسلح من أجل ثمن جرعة من المخدرات .

وموقع واشنطن الجغرافى أو الطبوغرافى يجعل مناخها شديد الحرارة والرطوبة فى فصل الصيف وأقل برودة عن نيويورك شتاء.. لكن الصيف والربيع والخريف هى الشهور المحببة الى الأمريكى العادى والذى اعتاد فيها جمع أفراد عائلته فى واحدة من سيارتيه (ربما الاستيشن واجون) أيام عطلات نهاية الأسبوع والخروج "Hit the Road" للنزهة فى واحدة من الأماكن الخلوية الجميلة العديدة

حول واشنطن فى اتجاه المحيط شرقا إلى خليج تشيزابيك ومدينة أنا بوليس حيث الاكاديمية البحرية، أو غربا إلى National Park Shenandoah ومغارات Lurray caverns وكلها لاتبعد أكثر من ٨٠ - ١٠٠ كم من العاصمة.. وإذا شاء النزهة قريبا من العاصمة ذاتها فهناك Mount vernon عزبة جورج واشنطن القريبة على نهر البوتوماك .. فضلا عن عديد من المتنزهات والحدائق العامة وأماكن الـ Picnic داخل العاصمة Rock Creek Park والمعالم التاريخية المقامة فى ميادينها وشوارعها وحدائقها Washington, Monument Jefferson Memorial Lincoln Memorial والأخيرة على شكل مسلة مصرية مرتفعة وهكذا..

فمدينة واشنطن مدينة جميلة حقا وهى حسنة التخطيط اذ وضع تخطيطها المهندس الفرنسى البارع Pierre L'Enfant واستوحى فى ذلك تخطيط مدينة باريس واتساع ميادينها وشوارعها وطريقة تفرع عديد من الشوارع من الميادين المستديرة Les Rond points.

وتقع أغلب سفارات الدول الأجنبية فى القطاع الشمالى والغربى North west من الحى الشمالى الغربى (شارع ماساتشوسيتش) وهو الحى الراقى وحى الأعمال فى واشنطن..

وتقع كل الدواوين الحكومية والبيت الأبيض حول وقرب طريق بنسلفانيا فى وسط ذلك الحى وان كان الكونجرس الأمريكى يقع بعيدا على Capitol Hill على وموقعه اقرب الى شرق واشنطن وجنوبيها .

وقد وفقنا فى العثور على شقة صغيرة مناسبة فى الحى الشمالى الغربى قريبا من شارع ماساتشوستيشى والذى تقع عليه أيضا السفارة المصرية .

ومن محاسن طريقة الحياة الأمريكية منذ ذلك الحين – والى الآن – سهولة الحصول على قرض من البنك الذى تتعامل معه وسهولة شراء أثاث منزل كامل بالتقسيط المريح وكذلك سهولة الحصول على قرض من البنك أو إحدى الشركات المتخصصة لشراء السيارة بالمثل.

وكانت واحدة من أولى رحلاتنا خارج واشنطن السفر إلى ساوث بند (ولاية انديانا) حيث مصانع سيارات «ستودبيكر» لتسلم سيارتنا الجديدة وقيادتها الى واشنطن (٨٠٠ كيلو متر) .

وفى طريق العودة مررنا على مدينة صغيرة يسبقها تل مرتفع.. ويفصل بين ذلك التل والمدينة منخفض كبير وممتد رأينا كل السيارات تنزله مسرعة ومندفعة بحكم الانحدار الشديد فى الطريق.. ويبدو أنه كانت هناك لافتات نصبت فى أماكن غير واضحة

وغير بارزة تحدد السرعة فى تلك الجهة بخمسة وثلاثين ميلا فى الساعة لم يلتفت اليها قائدو السيارات.. ولم التفت اليها أنا الآخر بحكم اندفاع كل السيارات امامى وخلفى وشدة انحدار الطريق واتساعه .

لكن كان هناك فى انتظارنا فى نهاية الانحدار وعلى أبواب المدينة فخ نصبه مسئولو الأمن والمرور فى تلك المدينة.. فاوقفوا جميع السيارات المسرعة وطلبوا من قائديها المثول أمام «قاضى المرور» الجالس على قارعة الطريق ومن حوله رجال الضبط والشرطة.. واصطف أمامى أكثر من عشرة من قائدى السيارات.. وكلما مثل أحدهم أمام القاضى أمره بدفع غرامة فورية قدرها ٢٥ دولاراً ! وكان مبلغا باهظا فى تلك الأيام الخوالى.. ولما كان دورى للمثول أمامه أخرجت له بطاقتى الدبلوماسية ولما عرف شخصيتى اعتذر عن ايقافى وعن تأخير سفرى وسمح لى بمعاودة السفر دون تحصيل الغرامة.. لكن كان قد تسبب فى تعطيل مسيرتنا على الأقل نصف ساعة كاملة. وقد افادنى هذ الدرس كثيرا اذ علمنى الالتفات الى علامات المرور وتفادى الوقوع فى أمثال ذلك الفخ.. وبعد سنوات من هذه الحادثة اخترعت الشركات الأمريكية جهازاً يضاف الى السيارة يكشف وجود أجهزة الرادار [١] فى الطرق السريعة

(١) Radar Detector

ويحذر اصحاب السيارات الى أمثال ذلك الفخ المنصوب حول أجهزة الرادار .

كانت تلك أياماً سعيدة هانئة لدبلوماسى مصرى شاب وزوجته وأن كانت حياة شاقة.. كانت مواعيد العمل بالسفارة من التاسعة صباحا الى الرابعة والنصف بعد الظهر. تتخللها ساعة واحدة للغداء.. ولما كنت أسكن قريبا من السفارة فقد كنت أعود للمنزل للغداء أغلب الأوقات.. فتناول الطعام فى المنزل كان ومازال ارخص كثيراً من تناول الوجبات فى المطاعم.. ولكن الأهم من ذلك هو محاولة كسر النهار الطويل الذى تقضيه الزوجة وحيدة منذ الصباح إلى المساء.. وهو وحده عبء ثقيل يضاف إلى أعبائها الأخرى فى تنظيف المنزل واعداد الطعام وكل الأعمال المنزلية الأخرى دون مساعدة من أحد. فأجرة الشغالة بالساعة فوق ماتتحمله ميزانية دبلوماسى صغير فى أمريكا ..

وبعد سنتين أو ثلاث سنوات من وصولنا إلى واشنطن واعتيادنا طريقة الحياة الأمريكية والعمل طوال النهار «قررت فى سبتمبر سنة ١٩٥٣ وشجعتنى زوجتى على ذلك - بدء الدراسة المسائية فى الجامعة الأمريكية بواشنطن [١] من أجل الحصول على الماجستير فى العلاقات الدولية.. فكنت أعود إلى المنزل فى الرابعة والنصف

---

(١) هى إحدى ست جامعات فى منطقة واشنطن .

للراحة بعض الوقت ثم للتوجه الى الجامعة لبدء الدراسة من السادسة مساء وحتى الثامنة أو التاسعة مرتين وأحيانا ثلاث مرات أسبوعيا .. وقد وفقنى الله الى نيل شهادة الماجستير فى صيف سنة ١٩٥٥ وكان موضوع رسالة الماجستير «العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٤٥ - ١٩٥٥» .

كانت الدراسة عبئا اضافيا فوق اعباء العمل في السفارة طوال النهار كما كانت عبئا ماديا لا يستهان به على دبلوماسي مبتدىء .

فعند وصولنا الى واشنطن فى مارس سنة ١٩٥١ كنت «ملحقا» بالسفارة وهى أدنى درجات السلم الدبلوماسى ثم رقيت الى سكرتير ثالث فنلت علاوة جعلتنا نتنفس الصعداء قليلا .. ولم تلبث فرحتنا أن تبددت .

فبعد قيام ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ وبالتحديد فى ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٥٢ تلقت السفارة تعليمات برقية من القاهرة مفادها أن الحكومة قررت تخفيض «مرتبات الدبلوماسيين والملاحق الفنيين التجاريين والزراعيين والثقافيين والطبيين» بنسبة ثلاثين فى المائة من المرتب الشهرى على أن تسرى المرتبات الجديدة المخفضة ابتداء من مرتب أول أكتوبر : أى أن الحكومة امهلتنا عشرة أيام فقط لكى ندبر فيها أحوالنا ونرتب أمورنا على أساس المرتبات المخفضة الجديدة ..

اجتمع اعضاء السفارة كلهم ليتشاوروا فيما بينهم.. واعدنا قراءة البرقية مرات ومرات.. وانتهينا الى أنه لا سبيل إلى محاولة اثناء القاهرة عن رأيها فيما يختص بمبدأ التخفيض أو تعديل نسبته أو تأجيل تطبيقه شهرا أو شهرين يتيحان لنا ترتيب أمورنا على مهل.. وكان معنا المرحوم السيد الدكتور محمد حسن الزيات حيث كان حينئذ مستشارا ثقافيا بالسفارة وعلمنا أنه سيضطر الى بيع سيارته ليتمكن من الوفاء بالتزاماته وسداد أقساط القرض الذى كان قد اشترى به أثاثه وسيارته وليتمكن من سداد مصروفات المدارس لأولاده .

ولاحظ بعض الحاضرين خلو برقية القاهرة من اشارة الى تطبيق التخفيض على «الملاحق العسكريين».. واقترح بعضهم أن تكون كلمة الملاحق الطبيين خطأ فى النص وأن المقصود هو الملاحق العسكريون.. لكن السيد الملحق العسكرى رفض هذه الفكرة وأعلن أنه بما أنه لم يرد اسمهم صراحة فى البرقية ولم يتلق أية تعليمات من وزارته بشأن التخفيض فسوف لا يتخذ أى اجراء فى هذا الشأن..

إلا أن مساعد الملحق العسكرى بالسفارة - وكان وقتئذ البكباشى محمد حافظ اسماعيل (مستشار الرئيس للأمن القومى فيما بعد) أعلن فى الاجتماع أنه لا يقبل أن يختلف وضعه عن

وضع زملائه بالسفارة وانه سوف يقتطع النسبة المقررة من راتبه ابتداء من أول اكتوبر (كما جاء فى البرقية وسوف ينحيها جانبا إلى أن تصل تعليمات وزارته .. وقد طبق علينا جميعا التخفيض المشار اليه.. وانخفض راتبى بمقدار الثلث ليصبح أقل من راتب سكرتير فى الأمريكية حيث إنى كنت مشرفا على قسم الصحافة بالسفارة وكانت سكرتيرتي الأمريكية من المتخصصات العارفات بشئون الصحافة والسكرتارية.. وأصبح راتبها يفوق راتبى الجديد..

ومن هنا فان قرار بدئى الدراسة من أجل نيل الماجستير – حتى بعد تخفيض المرتبات – كان يعنى تضحية مالية وضائقة اقتصادية فى المنزل.. ومع ذلك أقدمنا على هذا القرار وكانت مساعدة زوجتى لى فى اتخاذ القرار وتحمل نتائجه بل وفى اعداد الرسالة مساعدة قيمة حقا ..

كانت سفارتنا فى واشنطن من أهم سفاراتنا فى الخارج قاطبة. فقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية وقد توطدت وتأكدت مكانتها كزعيمة العالم الحر بلا منازع.. وكان سفيرنا فى واشنطن المرحوم الاستاذ/ محمد كامل عبد الرحيم من أقطاب الدبلوماسية المصرية، سفيراً محنكا ووكيلا سابقا لوزارة الخارجية وكان متزوجا من سيدة فاضلة ذات ثقافة عالية جدا ولا عجب فقد كانت كريمة المرحوم / محمد محمود باشا رئيس الوزراء الأسبق..

ومن ثم فان جميع أفراد السفارة كانوا مختارين اختيارا خاصا روعى فيه اختيار وجمع اكفأ العناصر واقدرها على أداء المهام الموكولة الى سفارتنا فى واشنطن منذ نهاية الحرب الثانية.. وكان على رأس تلك المهام اقناع الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى من أجل استعمال نفوذ وتأثير الولايات المتحدة للضغط على بريطانيا لقبول الجلاء التام والناجز عن مصر المستقلة.. ولا يقل أهمية عن المهمـــة الأولى تأتى المهمة الثانية وهى الدفـــاع عن حقوق الشعب الفلسطينى والزام اسرائيل باحترام حقه فى وطنه ..

ومن هنا فقد وجد فى سفارتنا بواشنطن فى تلك الفترة طاقم قلّ أن يوجد مثله تحت سقف واحد فى أى سفارة أو فى أى مكان آخر فى وقت واحد .

فقد تضمن طاقم السفارة الدبلوماسى السادة المرحوم محمد عوض القونى الوزير المفوض بالسفارة والرجل الثانى (تبوأ بعد ذلك مناصب سفير مصر فى موسكو وفى لندن ثم مندوبنا الدائم بالأمم المتحـدة ثم وزيرا للسياحة والمرحوم السيد محمد عبد الشافى اللبان مستشارا للسفارة (تبوأ بعد ذلك منصب وكيل وزارة

الخارجية وسفير مصر فى ســـويسرا) والســـادة أنور نيـــــازى مستشاراً للسفارة (وكيل وزارة التجارة فيما بعد) والمرحوم رشاد مراد مستشارا للسفارة (مدير مصلحة السياحة فيما بعد) أما طاقم الملاحق الفنيين فكان يشمل السيد / محمد حافظ اسماعيل ملحقا عسكريا مساعدا (كان هناك ملحق عسكرى وآخر جوى برتب كبيرة).

وكان طاقم الملاحق التجاريين يشمل الاستاذ/ عبد العزيز زايد كمستشار تجارى (رئيس مجلس ادارة بنك الاسكندرية فيما بعد) والاستاذ حسن عباس زكى كسكرتير تجارى (وزير الاقتصاد فيما بعد) .

أما المستشار الزراعى فكان الدكتور عبد الفتاح المرسى (وكيل وزارة الزراعة ومدير المكتب الإقليمى لمنظمة الأغذية والزراعة فى الشرق الأوسط وفيما بعد) .

أما المستشار الثقافى فقد كان المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات (وزير الخارجية فيما بعد ورئيس لجنة العلاقات العربية بمجلس الشعب سنة ١٩٩٠) ولما نقل الى وظيفة القائم بأعمال السفارة المصرية فى طهران عين محله كمستشار ثقافى الدكتور زكى نجيب محمود وهو غنى عن التعريف فهو واحد من أهم فلاسفة ومفكرى مصر .

أما المستشار العمالى فكان المرحوم د. عبد الرءوف أبـــو علم (وكيل وزارة العمل ومدير مكتب منظمة العمل الدولية بالشرق الأوسط فيما بعد) .

وكنت أنا مشرفا على قسم الصحافة والاعلام بالسفارة ردحا من الوقت.. ثم اثناء تولى الاساتذة انور نيازى ورشاد مراد رياسة المكتب كنت الذراع اليمنى لهما.. وبعد سنة ١٩٥٣ لما عين المرحوم الدكتور / احمد حسين (باشا) سفيرا لمصر فى واشنطن خلفا للمرحوم كامل عبد الرحيم جمع حوله فى قسم الصحافة بواشنطن طاقما شديد القوة والاحتراف مكونا من المرحوم الاستاذ جلال الدين الحمامصى مستشارا صحافيا يعاونه الاستاذ سمير سوقى وظللت معاوناً لهما فى قسم الصحافة فى واشنطن الى أن نقلت سكرتيرا ثانيا بسفارتنا فى تونس سنة ١٩٥٦ بناء على طلبى وباتفاق مع سفيرنا الجديد فى تونس المرحوم/ على كامل فهمى. وبوصول احمد حسين (باشا) على رأس سفارتنا فى واشنطن كان قد تحقق فعلا وبمساعدة الولايات المتحدة هدف جلاء انجلترا عن مصر بعد سنة ١٩٥٤ .

لكن بقى أمام أعضاء السفارة مهمتان «نيل مساعدات الولايات المتحدة الأمريكية عسكريا واقتصاديا (مشروع بناء السد العالى) والتأثير على اسرائيل من أجل احترام حقوق الشعب الفلسطينى .

وكانت مهمتى فى قسم الصحافة بواشنطن تقتضى منى إلقاء المحاضرات والاجتماع مع رجال الصحافة الامريكية ورجال الخارجية لاقناع الجمهور الأمريكى والمختصين بوجهات النظر المصرية ..

ومن محاسن الجمهور الأمريكى فى المدن الكبرى والولايات «المفتوحة» على العالم الخارجى إذ إن بعضها مغلق منعزل لا يهتم بالخارج كثيرا) إنه حسن التنظيم يتمتع بوجود منظمات فنية أو فئوية أو دينية تهتم كثيرا بتنظيم المحاضرات والندوات واللقاءات التى تنير الطريق أمام اعضائها فى المسائل التى تهم تلك المنظمات .

ومن هنا كانت تنهال على سفارتنا - وغيرها من السفارات بطبيعة الحال - الدعوات لإلقاء المحاضرات أمام الأندية الطلابية والنسائية والدينية (مسيحية أو يهودية) والجامعات والكليات وفروع المجلس الأمريكى للشـــئون الخـارجية Council on Foreign Offaiss وهو واسع الانتشار فى أغلب انحاء الولايات المتحدة .

وكان عملى يقتضى منى قبول دعوتين أو ثلاث لإلقاء المحاضرات فى الأسبوع الواحد .. بعضها فى واشنطن ولكن الكثير منها فى المدن الأخرى وشتى الولايات. وكان هذا من محاسن عملى بقسم الصحافة فى واشنطن اذ أتاح لى رؤية نصف الولايات

المتحدة على الأقل ودراسة أحوال أهلها والتعرف الحقيقى على تلك القارة وهو مالم يكن متاحا بالمرة لو لم أعمل فى تلك المهمة.. وإذا مارجعت الى خريطة للولايات المتحدة لوجدت انى زرت (مدن) وولايات نيوانجلاند الست وكل الساحل الشرقى حتى فلوريدا جنوبا فضلا عن بنسلفانيا واوهايووكنتكى والاباما ولويزيانا وتكساس وفرجينيا وغرب فرجينيا واللينوى.. وكاليفورنيا فى غرب الولايات المتحدة ..

حصيلة ضخمة لاى دبلوماسى عمل فى الولايات المتحدة تضاف الى حصيلتى عن طريق المحاضرات.. فقد ألقيت منها مالا يقل عن ثلاثمائة محاضرة فى الولايات المتحدة ابتداء من ١٩٥١ وحتى يوليو ١٩٥٦ ثم بعد ذلك حينما عملت فى نيويورك مرتين..

أما أول محاضرة عهد إلىّ بإلقائها فكانت فى نادى «يوم الأحد» Sunday Club فى إحدى كنائس مدينة واشنطن. وقد اعددت المحاضرة كتابة وقرأتها على الجمهور.. وحاولت جهدى الا أجعل قراءتى مملة للسامعين.. واجبت على اسئلتهم الكثيرة بعد المحاضرة.. ووجدت نفسى أكثر انطلاقا وبلاغة وتأثيرا على السامعين فى فترة الأسئلة والأجوبة التى تلت قراءتى للمحاضرة.. وهنا سطعت علىّ الحقيقة المجردة التى لم اتعلمها من احد الاساتذة وانما بحكم التجربة والخطأ.. إنه من الأفضل ألف مرة أن يرتجل

الخطيب محاضرته بدلا من قراءتها.. ولابأس، بل يستحسن أن تكون أمامه ورقة صغيرة تحوى أهم النقاط التى يود أن يتحدث فيها مرتبة ترتيبا منطقيا وسوف يكون تأثير المحاضرة المرتجلة أقوى وأشد كثيرا من المحاضرة المقروءة بشرط توافر عنصر اللغة السليمة طبعا ..

وبعد ذلك لم أقرأ محاضرة واحدة فى حياتى اللهم الا المحاضرات العلمية التى تحتاج إلى الاقتباس من بعض المراجع .

وكأننى بالولايات المتحدة وقد أصبحت استاذى فى فن المحاضرات فقد خرجت منها بتلك التجربة الفريدة التى أفادتنى وبقيت معى فى بقية حياتى الدبلوماسية وحتى الآن ..

ولم تقتصر رحلاتى واسفارى على مهمة القاء المحاضرات بل إن طريقة الحياة الأمريكية تعلم الأجانب محاكاة الأمريكيين فى كثرة السفر والتنقل.. وكما هو الحال فى أوروبا الغربية - وبالذات فى لندن - حيث يسكن كثير من الناس خارج العاصمة بمسافة ستين أو ثمانين كيلو مترا يقطعونها يوميا ذهابا وايابا الى مكان عملهم فى العاصمة، فان الامريكيين ايضا يقطعون نفس المسافات بل أطول منها فى التنقل اليومى - بالقطار أو بالسيارة - من الضواحى النائية إلى وسط المدينة حيث مقر عملهم ..

أما فى عطلات نهاية الأسبوع أو العطلات الصيفية فان قطع ٨٠٠ أو ٩٠٠ كيلو متر يوميا فى رحلة بعيدة أمر هين بالنسبة لقائدى السيارات فى أمريكا .. والطرق واسعة معبدة آمنة والسيارات قوية ومريحة.. ولايعبأ الأمريكى بطول الطريق..

وقد اعتدنا أن نفعل المثل.. وتعلمنا لذة السفر بالسيارة عبر آلاف الكيلومترات .. فمن واشنطن زرنا شلالات نياجرا وكويبك ومونتريال واوتاوا وتورنتو فى كندا، كما زرنا فلوريدا .. وكل رحلة من هاتين الرحلتين تعنى ثلاثة آلاف كيلومتر على الأقل.. وقد افادتنى هذه التجربة الأمريكية فيما بعد اذ شجعتنى على السفر بالسيارة من مدينة المكسيك الى نيويورك (خمسة آلاف كيلو متر ذهابا فقط بالسيارة.. ومن برانكيلا الى بوجوتا فى كولومبيا (١٥٠٠ كيلو متر) ومن ليما بيرو الى كوسكو (١٢٠٠ كيلو متر) ومن تونس الى القاهرة (٣٢٠٠ كيلو متر) وهكذا ..

كانت هذه السنوات التى قضيتها فى واشنطن من ١٩٥١ الى يوليو ١٩٥٦ من أمتع واشق السنوات ومن أكثر السنوات التي قضيتها فى السلك الدبلوماسى فائدة. فقد هيأت لى فرصة العمل والإفادة من تجارب سفارة نشطة هامة غنية بالخبرات وبالعمل المثمر الجاد وتحت رؤساء أو مع زملاء كانوا خيرة الزملاء وخيرة الرفقاء وصفوة المعلمين والناصحين.. كما جمعت أيضا مابين

تجربة الدراسة الجامعية فى المحيط العلمى الأمريكى والاعداد لشهادة الماجستير فى واشنطن وما بين مخالطة المجتمعات العلمية والفكرية الأمريكية اينما كانت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فى جميع أركان الولايات المتحدة.. وقد شجعتنى هذه التجارب فيما بعد على الدراسة من أجل نيل الدكتوراة فى جامعة كولومبيا فى نيويورك اثناء عملى كمتشار فى وفدنا الدائم لدى الأمم المتحدة فى نيويورك، وبعد ذلك على قبول منحة علمية «كزميل» فى مركز الشئون الدولية بجامعة هارفارد فى بوستون ..

كانت اذن سنوات اقامتى فى واشنطن سنوات تكوين Forma-tive years واعدادا لدبلوماسى شاب لما ينتظره من مهام كثيرة وشاقة فيما بعد.. وهى فرصة أود لو اتيحت لاغلب شباب سلكنا الدبلوماسى .

بقى أن أذكر تجربة طريفة من سلسلة التجارب الطريفة المفيدة التى مررت بها فى واشنطن .

فبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بقليل ، ولعل ذلك كان فى سبتمبر أو اكتوبر ١٩٥٢ لا أذكر على وجه اليقين، تلقيت فى منزلى مكالمة تليفونية من شخص لا أعرفه.. ذكر أنه سكرتير السفارة الاسرائيلية بواشنطن واسمه «الياهو بن حورين» وانه يكلمنى بأمر سفيره الذى يرجو أن أبلغ السيد/ القائم بأعمال السفارة المصرية

(وكان وقتئذ المستشار محمد عبد الشافى اللبان اذ كان السفير متغيبا) أن سفارة اسرائيل بواشنطن قد تلقت رسالة هامة من حكومة اسرائيل موجهة الى حكومة الثورة الجديدة فى مصر. ومضى بن حورين يقول إنه مكلف بالاتصال بى وأنه مستعد لمقابلتى فى المكان الذى احدده من أجل تلقى الرسالة ونقلها الى السيد القائم بأعمال سفارتنا بأمل ابلاغها للقاهرة ..

اجبته بأنى سوف أبلغ السيد/ القائم بأعمال السفارة فى صباح اليوم التالى وانه يمكنه معاودة الاتصال بى تليفونيا لأبلغه بالنتيجة ..

وقمت فعلا بعرض الموضوع على الاستاذ «المستشار» محمد عبد الشافى اللبان.. وبعد أن تشاور سيادته مع زملائه ومساعديه بالسفارة أبلغنى بموافقته على أن استقبل الياهو بن حورين فى شقتى الخاصة وأن اتلقى رسالة الحكومة الاسرائيلية ..

وقد زارنى فعلا فى اليوم التالى السيد / الياهو بن حورين.. كان هو أيضا فى مثل درجتى وفى مثل عمرى.. وكان شخصا دمثا مهذبا.. وقد نقل الى رسالة حكومة اسرائيل الى حكومة الثورة فى مصر.. وكانت رسالة شفوية وتتلخص فى أن اسرائيل ترى فى قيام حكومة الثورة فى مصر فرصة سانحة وطيبة لبدء صفحة جديدة من السلام والوئام مع مصر حيث إنه لاتوجد خلافات اصيلة

بينهما.. وان مصالح الطرفين الواقعية من شأنها دفعهما الى محادثات السلام.. وان اسرائيل مستعدة لبدء مباحثات السلام مع مصر على المستوى الذى تراه مصر وفى المكان والزمان اللذين تحددهما القاهرة وبالطريقة التى تفضلها مصر، سرا أم جهراً ..

وقد شكرته ووعدته بنقل الرسالة الى رئاستى فى السفارة .

وقد نقلت الرسالة بحذافيرها الى السيد القائم بالأعمال الذى ابلغ بها القاهرة بدوره. ولم تتلق سفارتنا من القاهرة أى رد أو تعقيب ...

تابعت بعد ذلك حياة السيد / الياهو بن حورين من على بعد.. وعرفت بعد سنين طويلة أنه تبوأ مركز سفير اسرائيل فى بون.. وكنت أنا ايضا قد بلغت درجة السفير وتوليت رياسة بعض السفارات ..

لكنا لم نعد ابدا لمعاودة الاتصال بعد زيارته لى فى منزلى ولم اره فى حياتى بعد ذلك ابدا ...

الفصل الخامس

هل من وسيلة لفهم السياسة الأمريكية ؟

(١) الولايات المتحدة جمهورية فيدرالية اتحادية من خمسين ولاية يرأسها رئيس جمهورية منتخب.. لكن الولاية هى «نواة» النظام السياسى فى الولايات المتحدة فهى ليست مجرد مديرية أو محافظة بالمعنى المصرى.. فحق المواطن الأمريكى فى الانتخاب مستمد من دستور ولايته وليس من الدستور الفيدرالى.. وهكذا لا يتمتع سكان مقاطعة كولومبيا (مركز العاصمة واشنطن) بحق الانتخاب فى مقاطعة كولومبيا لأنها ليست ولاية . كذلك فان رئيس الجمهورية لاتنتخبه الأمة أو الشعب لكن فى الحقيقة تنتخبه الولايات عن طريق مندوبين رسميين لكل ولاية فيما يسمى بالجمعية الانتخابية The Ele ctoral College ويمكن تماما لرئيس الجمهورية أن ينتخب بحكم نواله أغلبية اصوات الجمعية الانتخابية أى أصوات الولايات حتى إذا لم ينل أغلبية أصوات الشعب وقد حدث هذا فعلا من قبل .

ولكل ولاية برلمانها ودستورها وقوانينها الخاصة التى قد تخالف دساتير وانظمة الولايات الأخرى اختلافا لايستهان به.. وللولايات حق الاشراف والتصرف فى المدن التى تقع فيها صغرت أم كبرت هذه المدن.. وهكذا فان عاصمة ولاية نيويورك (مدينة البانى) تتحكم فى أجور مواصلات مدينة صناعية كبرى مثل نيويورك.. ورغم احتمال قيام أعمال مشتركة كثيرة مابين الولايات والحكومة الفيدرالية (الرى والطرق والكبارى.. الخ) إلا أن هذا لا يعنى الانتقاص أو الحط من نفوذ الولايات سياسيا واحتمالات تأثيرها على سياسة الحكومة الفيدرالية، فى الميادين الداخلية والخارجية .

ولكل ولاية حاكمها ونائب الحاكم والوزراء وكلهم بالانتخاب الفردى.. وقد ينتخب حاكم «ديمقراطى» ونائبه «جمهورى» وهكذا.. كما لكل ولاية مجلساها التشريعيان ..

(٢) أما رئيس الجمهورية فأساس قوته الشعبية العظيمة التى تحيط بانتخابه عادة وبمنصبه، وامكانيات توجهه الى الشعب مباشرة على الراديو والتليفزيون لكسب تأييده ضد منافسيه فى الحكم وهم الكونجرس ورجال السياسة فى الولايات أو حول الحكومة الفيدرالية.. كما أن رئيس الجمهورية بحكم رياسته للوزراء فى أمريكا (أى أنه لا يوجد منصب رئيس الوزراء فهو اختصاص رئيس الجمهورية ايضا وبحكم رياسته للسلطة التنفيذية يتمتع

بامكانيات هائلة فى ميدان توزيع الغنائم والاسلاب كالمناصب السياسية على انصاره ومؤيديه بعد توليه الرياسة.. ومن هذه المناصب التى يملك الرئيس توزيعها على اصدقائه ومؤيديه أغلب مناصب الحكومة الفيدرالية الرفيعة كوكلاء الوزارات والسفراء بل حتى وظيفة ناظر مكتب البريد (بامريكا أكثر من خمسين الفا منها) بل يملك الرئيس تعيين بعض القضاة (فالقضاة فى أمريكا نوعان: معين ومنتخب حسب اللون الحزبى) وفقا لدستور كل ولاية .

(٣) وقد راعى الأباء المؤسسون للحكومة الفيدرالية فى أمريكا أن تكون السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية منفصلة الواحدة عن الأخرى لكن أن تقوم كل منها بالإشراف على قطا ع أو قطاعات من أعمال الأخيرتين فيما يسمى بنظام «الضوابط والتوازن» Check s and Balances System.

لكن الواقع – كما ثبت عمليا – أن سلطة الكونجرس فى الضبط والرقابة على أعمال السلطة التنفيذية اقوى كثيرا من قوة السلطة التنفيذية فى الرقابة والضبط على السلطة التشريعية .. فلمجلس الشيوخ الأمريكى The Senate وحده حق الموافقة على المعاهدات مع الدول الأجنبية التى من حق الرئيس إبرامها لكنها لا تصبح نافذة الا بموافقة مجلس الشيوخ كما أن المجلس يقر المخصصات المالية والمساعدات الاقتصادية للدول الأجنبية وفقا لتوصيات الرئيس (وقد يرفضها المجلس أو يعدلها) كذلك للمجلس اقرار أو

ايقاف أو تعديل برنامج الحكومة الذى انتخبت على أساسة . ورغم أن للرئيس حق الاعتراض Veto على تشريعات الكونجرس لكن الكونجرس له حق التغلب على فيتو الرئيس بثلثى الأصوات بل إن له حق عزل الرئيس بثلثى الأصوات Im peachwent وله حق محاكمة الوزراء وكبار موظفى الدولة ..

ومن هنا يلجأ بعض الرؤساء إلى تنفيذ نواحى سياساتهم الخارجية تحت ستار الكتمان لئلا يصطدموا باعتراض الكونجرس عليها .. (ظاهرة Irangate) ويؤكد كثير من كبار الكتاب الصحفيين الأمريكيين أن الرئيس روزفلت خطط لدفع اليابان دفعا لمهاجمة بيرل هاربور فى هونولولو حتى يثير الرأى العام الأمريكى ضد اليابان (وكان الرأى العام ضد دخول الحرب حتى تلك اللحظة) وحتى يستطيع دخول الحرب فى صف انجلترا وفرنسا ضد المانيا واليابان (١) .. كذلك فان فضائح ووترجيت وإيران جيت جاء ت دليلا على انغماس رؤساء أمريكيين متعاقبين فى هذا النوع من التستر بالكتمان لتنفيذ مخططات معينة فى السياسة الخارجية والداخلية بعيدا عن رقابة الكونجرس . لكن هناك خطر الفضائح فى حالة اكتشافها بطبيعة الحال ..

(١) هذا ما أكده Rear, Ofmiral Robert The obold قائد البحرية الأمريكية فى بيرل هاربور وايدته صحف أمريكية كثيرة .

ولما كان إعلان الولايات المتحدة الحرب على دولة أخرى من اختصاص الكونجرس وحده فقد عمد رؤساء أمريكيون متعاقبون إلى شن حملات عسكرية ضد أعداء الولايات المتحدة دون اذن الكونجرس ودون الاضطرار لطلب إذنه لإعلان الحرب [1] .

كذلك جاء اعتراف الرئيس ترومان باسرائيل بعد ساعة واحدة من إعلان استقلالها دون موافقة الكونجرس بل ضد نصائح وزارة الخارجية الأمريكية المتعاقبة .

(٤) ولد النظام الحزبى سنة ١٧٩٣ بانشاء الحزبين الجمهورى والديمقراطى وهما أهم حزبين وهناك أحزاب أخرى قليلة الأهمية ..

والحزب الجمهورى حزب أصحاب الصناعة الضخمة ولهذا فهو أكثر محافظة ، فهو حزب الأغنياء الذين يتبنون سياسات تستهدف المحافظة على مصالح الطبقات الثرية ومصالح أصحاب الأعمال (ويرمز لهذا الحزب بالفيل) ويؤمن الحزب بمبادىء الرأسمالية الكلاسيكية Laissez-. Faire وبأقل قدر من التدخل الحكومى فى الاقتصاد .

---

(١) الغارة على طرابلس ومحاولة غزو كوبا فى خليج الخنازير ، بل وكل حرب فيتنام جاءت دون إعلان الحرب .. وأخيرا مغامرات أمريكا فى نيكاراجوا وبنما .

ولن ننسى لا تنسى دور حكومة الرئيس ليندون جونسون سنة ١٩٦٧ فى مساعدة إسرائيل وتسهيل مهمتها فى حرب الأيام الستة .. راجع كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «الانفجار سنة ١٩٦٧» .

أما الحزب الديموقراطى – ويرمز له بالبغل – فهو حزب الرجل الصغير وصغار المزارعين والأجناس المختلطة التى تشكل أغلب سكان المدن الكبرى . ويحتكر هذا الحزب ولايات الجنوب فى الولايات المتحدة . فى حين أن الحزب الجمهورى يحتكر ولايات نيوانجلان (شمال شرقى أمريكا) فيما عدا ولاية ماساتشوستش الديموقراطية، ويحتكر أيضا وسط الولايات المتحدة الانعزالى المغلق.

وهناك من يطلقون عليه الحزب الثالث أى حزب أصحاب الأصوات المستقلة من الناخبين الذين لا ينتمون إلى واحد من الحزبين الآخرين ويقررون فى آخر لحظة التصويت لمرشح هذا أوذاك .. ولا يقل عدد المستقلين عن $\frac{1}{3}$ أصوات الناخبين عادة ولهذا تنحو جهود كافة المرشحين من الحزبين الكبيرين إلى «مغازلة المستقلين» لنيل أصواتهم .

(٥) لم يشأ واضعو الدستور الأمريكى أن يجعلوا انتخاب رئيس الجمهورية متروكا للشعب أو للأحزاب وممثليها فى الكونجرس حتى يكون الرئيس مستقلا عن أيه ضغوط من هذه الناحية .. ومن ثم عمدوا إلى خلق أداة ثالثة لانتخاب الرئيس أسموها «الجمعية الانتخابية» تعينها الولايات وتتكون من عدد من الممثلين الموثوق من صلاحهم وعلمهم يوازى عدد نـواب وشيوخ كل ولاية فى

الكونجرس [1] . وتجتمع هذه الجمعية فى دار برلمان الولاية لانتخاب مرشح واحد من مرشحى الأحزاب للرياسة وقد سبق انتخاب رؤساء للجمهورية بسبب نوالهم غالبية أصوات «الجمعية الانتخابية» رغم عدم نوالهم غالبية أصوات الناخبين فى عموم الولايات المتحدة .

(٦) يتكون الكونجرس الأمريكى من مجلس الشيوخ وهو يضم شيخين عن كل ولاية من الولايات الخمسين ، ومجلس النواب الذى يوضع عدد ممثليه على أساس نسبة تعداد كل ولاية .. ومجلس الشيوخ أوسع نفوذا من مجلس النواب فلمجلس الشيوخ الإشراف الأقوى على السياسة الخارجية ، والتصديق على المعاهدات وإعلان الحرب ، والتصديق على ترشيح السفراء الأمريكيين للخارج والموافقة على برامج المساعدات الخارجية ، وحق محاكمة رئيس الجمهورية إذا وافق ثلث أعضاء المجلس وحق محاكمة كبار موظفى الدولة وتكليفهم بالحضور أمام الكونجرس للإدلاء بشهاداتهم ، وحق الإشراف على تنفيذ السلطة التنفيذية لدستور وقوانين وتشريعات

---

(١) لما كانت ولاية نيويورك التى تشمل مدينة نيويورك أكبر الولايات تعدادا فان لها أكبر عدد من الأصوات فى الجمعية الانتخابية وهو ما يعطيها نفوذا كبيرا فى انتخاب رئيس الجمهورية فلا ينتخب أحدهم رئيسا للجمهورية إلا إذا ضمن الأصوات الانتخابية لولاية نيويورك .. ويتحكم اليهود فى نسبة كبيرة من أصوات نيويورك كما هو معلوم ..

البلاد .. وحق الاطلاع على وثائق وملفات الدولة وملفات جميع الموظفين .. ومدة عضويته ست سنوات .

أما مجلس النواب فمدة عضويته سنتان فقط وله الاشراف الأوسع على المخصصات المالية وميزانية الدولة . كذلك فى حالة فشل أحد المرشحين لرياسة الجمهورية فى الحصول على العدد اللازم من الأصوات التشريعية (١) فان مجلس النواب – لا مجلس الشيوخ – هو الذى يختار رئيس الجمهورية من بين المرشحين .. إلى هذا الحد بلغ توزيع السلطات بين السلطات الثلاث ..

(٧) ولجان الكونجرس الأمريكى (شيوخا ونوابا) هى المؤثرة الأولى فى الكونجرس والمسيرة الحقيقية لاعماله .. اذ يحتم النظام البرلمانى الأمريكى أن تمر جميع مشروعات القوانين وقرارات المجلسين على اللجان المتخصصة الفنية أولا وهى التى تتخذ قرارا بشأنها : إما اقرار المشروع أو القرار وتقديمه إلى المجلس أو أن تدخل عليه التعديلات اللازمة أو أن ترفضه كلية ، أو قد تقرر تجميد المشروع كلية (تركه ليموت) فى اللجنة المختصة دون اتخاذها أى إجراء بشأنه ... وفى هذه الحالة لا توجد وسيلة لاحيائه أو إنقاذه.

كما أن هناك لجنة شديدة النفوذ اسمها لجنة اللوائح والأنظمة Rules Committee وهى اللجنة الإدارية المختصة التى تمر فيها –

---

(١) أى أصوات الولايات فى الجمعية الانتخابية

أولا – جميع المشروعات بقوانين لتضع ترتيبا معينا لعرضها على واحدة من اللجان الفنية المختصة بعد ذلك – ولها أن تقدم مشروعا على آخر أو تؤخر مشروعا ما شاء لها التأخير ..

وهناك ١٥ لجنة دائمة بمجلس الشيوخ و١٩ لجنة دائمة بمجلس النواب . وينتخب أعضاء تلك اللجان كلا من المجلسين مكتملين (الشيوخ والنواب) ويصبح أقدم أعضاء اللجنة الذى ينتمى إلى حزب الأغلبية أى الحزب الحاكم رئيسا للجنة أوتوماتيكيا .. ومن هنا فان رؤساء اللجان عادة ما يكونون من أكبر الأعضاء سنا وأقدمهم خدمة فى المجلس ويتمتعون بنفوذ كبير فى ميدان السياسة الأمريكية.

(٨) اما كيف يصوت اعضاء الكونجرس فهذه من أعقد الظواهر الامريكية السياسية.

فالمفروض أن يصوت أعضاء حزب الأغلبية فى صف رئيس الجمهورية فهو عادة ما يكون رئيس ذلك الحزب .. والمفروض أيضا أن يصوت أعضاء حزب الأقلية أى حزب المعارضة ضد سياسة الحزب الحاكم وضد سياسة رئيس الجمهورية (اللهم إلا فى المسائل التى لا تحتمل النزاع ضمانا للمصلحة العامة) .. لكن ليس هذا حتما النظام المتبع فى الكونجرس الأمريكى .. فهناك عدة عوامل تتحكم فى كيفية تصويت الأعضاء على المسائل العامة ، وأحيانا

كثيرة بخلاف اللون الحزبى ، وأحيانا كثيرة أيضا ضد المصلحة العامة ، وضد مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ...

(٩) فهناك احتمالات التصويت وفقا للتبعية لكتلة من « الكتل الاقتصادية» Economic Blors وتطلق على جماعة من أعضاء الكونجرس سواء فى الشيوخ أو النواب تجمعهم – خلافا لانتماءاتهم الحزبية – مصالح اقتصادية واحدة تجعلهم يصوتون بما يضمن مصالح اقتصادية معينة قد لا تتفق مع مصلحة حزبهم أو حتى مع مصلحة الدولة .. ومن هذه الكتل كتلة الزراعة – كتلة المصالح العمالية – كتلة الفضة .. مثال ذلك كتلة الفضة التى تضم ١٤ شيخا جمهوريا وديموقراطيا فى مجلس الشيوخ يمثلون ٧ ولايات غربية – بها مناجم الفضة – أهمها نيفادا التى بها حوالى ٣٠٠٠ منجم فضة .

ويمثل هؤلاء الأربعة عشر شيخا حوالى عشرة ملايين نسمة لكنهم يمثلون من الأصوات فى المجلس ما يعادل أصوات سبعة شيوخ آخرين قد يمثلون ستين أو سبعين مليونا ، لكن استطاعت كتلة الفضة بفضل مناوراتها وتآزرها سنة ١٩٤٦ (برفضها إقرار مشروع الميزانية) أن تضطر الكونجرس بأكمله أن يقر قانونا بحماية أسعار الفضة حماية صناعية (أى دعمها) حتى تستمر المناجم فى ولاياتهم فى العمل .. وذلك على حساب جمهور المستهلكين الأمريكيين فى كل الولايات المتحدة ..

كذلك هناك ظاهرة الفردية أو الانفرادية Indiridualism أو أيضا ظاهرة ضيق الأفق Provincialism ، وهى الظاهرة التى قد تدفع بشيخ أو نائب إلى الخروج على مواقف حزبه ، إما عن عقيدة استقلالية أو اقتناع بوجهة نظر خاصة أو عن جهل وعناد .. وهى ظاهرة منتشرة فى الكونجرس الأمريكى .. وإما بسبب الوقوع تحت تأثير جماعة من أصحاب المصالح الخاصة .. وهى أيضا ظاهرة منتشرة فى التصويت .

(١٠) الفرق والجماعات الحزبية : الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أنه على الرغم من وجود حزبين رئيسيين ممثلين فى الكونجرس إلا أنه – واقعياً – توجد خمسة أحزاب أو إن شئت الدقة خمس جماعات حزبية:

أ – الجمهوريون المعتدلون أو التقدميون الذين يدركون وجوب الاعتدال وعدم التمسك بالمبادىء «المحافظة» الشديدة وذلك تمشيا مع اتجاهات الرأى العام الأمريكى الحديثة .

ب – الجمهوريون الرجعيون المتمسكون بمبادىء الحزب التقليدية «المحافظة» .

جـ – الديموقراطيون «اليمينيون أو المعتدلون» وهم الذين يقابلون الفريق الأول أى الجمهوريين المعتدلين .

د – الديموقراطيون اليساريون أى المغالون فى تبنى المبادىء

الإصلاحية (الأقرب إلى الاشتراكية وإن كان هذا التعبير لا يرضى الأمريكيين اذ يخافون من لفظة الاشتراكية) .

هـ - فريق الديموقراطيين من الولايات الجنوبية فى أمريكا وهم يجمعون ما بين الرجعية أو المحافظة فى السياسة الداخلية (لكثرة عدد الزنوج فى الولايات الجنوبية) وما بين التقدمية والليبرالية والعالمية فى المسائل الخارجية .

وقد لاحظ المراقبون السياسيون الأمريكيون أنه فى ظل الحكم الديموقراطى (أى تولى الحزب الديموقراطى الأغلبية) تأخذ الفرقة الأخيرة (هـ) زمام القيادة داخل الكونجرس .. وذلك لأن رؤساء اللجان دائما يكونون أقدم أعضاء تلك اللجان .. وحيث إن الجنوب فى أمريكا ينتخب دائما الحزب الديموقراطى ولا يغير شخص ممثليه من الحزب الديموقراطى فهم يضمنون رياسة اللجان تحت أى نظام يتولى فيه الحزب الديموقراطى الحكم .. وهنا تسيطر الفرق الممثلة للولايات الجنوبية : تقدمية ليبرالية فى المسائل الخارجية شديدة المحافظة فى المسائل الداخلية .

أما فى ظل الحكم الجمهورى - فان القيادة غالبا ما تذهب إلى فريق الجمهوريين المتزمتين الرجعيين الذى يمثلون غالبا ولايات نيوانجلند - ما عدا ما ساتسوسيتش - والولايات الوسطى والذين بفضل أقدمياتهم أيضا فى اللجان يتولون رياستها .. ووسط الولايات المتحدة معروف برجعيته وتبنيه للمبادىء المحافظة ..

(١١) وفى رأى عدد من الخبراء السياسيين والبرلمانيين أن الخط الفاصل ما بين نفوذ السلطتين التنفيذية والتشريعية فى أمريكا عائم وغير مستقر .. وتتوقف ملامح هذا الخط وموقعه إلى حد كبير على قوة شخصية القائمين بالسلطتين فى أى زمن من الأزمان .. وعلى مدى رغبتهم فى التساهل وكذا على مهارة رئيس الجمهورية فى كسب تأييد وولاء رؤساء اللجان وزعماء الكونجرس ، وعلى مدى مهارته فى كسب تأييد الشعب له اذا ما حدث تصادم أو خلاف ما بينه وبين الكونجرس .

كذلك تتوقف النتيجة النهائية أو المحصلة النهائية فى عديد من القضايا المهمة - إلى جانب ما سبق - على مدى اهتمام جماعات التأثير وأصحاب المصالح بتأييد قضية معينة ، ودرجة تأييد الكونجرس لها أو على العكس موقف رئيس الجمهورية إذا كان مخالفا لرأى الكونجرس .

(١٢) جماعات التأثير : الجماعات ذات المصالح الخاصة والمشتغلون من وراء الكواليس

إن نظام اللجان التابعة للكونجرس ، وبها يكتب ويقرر مصير كل التشريعات الأمريكية ، يخضع إلى حد كبير لتهديد وإغراء جماعات التأثير [1] وذلك لأن هذه الجماعات لا يمكنها شراء جميع أفراد

---

(١) كلمة Lobbyists وتعنى بالإنجليزية العاملين داخل الأبهاء (جمع Lob by أى أبهاء الكونجرس وبمعنى آخر ممثلو أصحاب المصالح الذين يجتمعون مع أعضاء الكونجرس داخل ابهاء الكونجرس وكواليسه .

الكونجرس لكنها استطاعت فعلا شراء أفراد بعض اللجان الصغيرة بالكونجرس والاحتفاظ بسيطرة كاملة عليهم ..

«إن أصحاب الحكومة فى واشنطن هم أصحاب رءوس الأموال ورجال الصناعة الضخمة الذين بإمكانهم إملاء جميع التشريعات الهامة».

لست صاحب هذه الكلمات السابقة - وإن كنت أتفق مع مضمونها - وإنما صاحبها هو وودرو ويلسون أحد رؤساء الجمهورية الأمريكية وقد ظل يردد هذه الكلمات منذ ١٨٩٥ وحتى ١٩١٢ .. وقد أقر الرئيس هارى ترومان هو الآخر ما توصل إليه وودرو ويلسون من نتيجة فعزى إلى كبار رجال الصناعة تدمير قوانين تحديد الأسعار التى كانت قد أقرتها الحكومة أثناء الحرب العالمية الثانية لحماية المستهلك من استغلال رجال الصناعة .. لكن كيف تم ذلك ... عن طـــريق حملة عاتية قـــام بها اتحـــاد رجال الصنـــاعة للتأثير على رجـــال الكونجرس والمنظمات الطلابية والنسائية ، أنفق فيها الاتحاد ملايين الدولارات لكن تمكن بموجبها فى النهاية من إلغاء قوانين تحديد الأســعار التى استهدفت حماية المستهلك من استغلال أصحاب الأعمال والصناعات .

وما برحت جماعات التأثير تلعب إلى يومنا هذا دورا خطيرا فى

التأثير على المشرعين الأمريكيين لمصلحتها الخاصة .. وقد أفرد الشيخ (سناتور) بول دوجلاس كتابا خاصا عن هذه الظاهرة الأمريكية الخطيرة أسماه« النهب الكبير في واشنطن (سنة ١٩٥٠) Big Grab at Washington .

كذلك اعترف شيخ (سناتور) آخر هو سناتور لا فوليت بخطورة دور جماعات التأثير فقال «الكونجرس هو مركز الثقل السياسى فى نظام حكمنا الحالى لأنه إنما يعكس إرادة الشعب فى تكوين سياسة الدولة . لكن كثيرا ما يحدث أن تُمسخ أرادة الشعب ولا تصل إلى الكونجرس صحيحة بسبب تدخل أصحاب المصالح وذوى النفوذ والتأثير Lobbyists .. فيجد المشرعون انفسهم محاطين بأسراب من أصحاب المصالح يحاولون حماية شطر صغير من الاقتصاد أو تنمية مشروع محدود النفع .. وهكذا يجد المشرعون من الصعب عليهم أن يتبنوا إرادة الغالبية من الشعب أو أن يشرعوا بما يتمشى مع مصالحها » .

«وهؤلاء الوسطاء يحاولون تحويل رغبات طائفة قليلة من الشعب وأمانى الفرق التى يمثلونها إلى سياسة أهلية عن طريق إدخالها فى تشريعات الكونجرس عن طريق تغيير نظام الضرائب بما يلائم مصالحهم أو عن طريق إستعمال نفوذهم لانقاص أو

لإلغاء مخصصات وزارات أو هيئات لا يؤيدونها أو زيادة مخصصات المؤسسات التى تحقق مصالحهم» نهاية الاقتباس .

ويستعمل أصحاب المصالح الخاصة أحد طريقين للوصول إلى رجال الكونجرس للتأثير عليهم ، الطريق المباشر ، أو الطريق غير المباشر عن طريق «الجذور» Roots أى التأثير على ناخبى ودوائر رجال الكونجرس فى الولايات حثيما كانت ، أو عن طريق التأثير على أجهزة الإعلام المحلية أو الفيدرالية أو عن طريق بعض الصحف فى واشنطن نفسها والتى قد تؤدى دور جماعات تأثير هى الأخرى (١) ...

ومن أمثلة أهم جماعات التأثير والمصالح الخاصة كبرى شركات التأمين الأمريكية والجمعيات النسائية (التى تمكنت من تحريم صناعة وبيع الخمور من ١٩٠٠ – ١٩٣٠) وجمعية المحاربين القدماء والبناى بريث Bnai breth اليهودية ، ومن أمثلة الاتحادات والجماعات التى تعتبر واسعة النفوذ فى هذا الميدان بتعدد أعضائها اتحادات نقابات العمال ، واتحاد الغرف التجارية والجمعيات اليهودية والصهيونية الأمريكية (تمثل ٧–٨ ملايين نسمة فى أمريكا) والجمعيات النسائية .. واتحاد أصحاب الصناعات ... وجمعية البندقية أو المسدس Gun التى تمكنت عبر السنين من هزيمة كل محاولات منع حيازة الأسلحة النارية .

---

(١) نقلا عن الكاتب الصحفى الأمريكى A - j- hiebling

وقد شكل الكونجرس الأمريكي نفسه عدة لجان على مر الأجيال للتحقيق فى مدى انتشار نفوذ هذه الجماعات بين أفراده ، وكيفية ووسائل العلاج ، لكنها كلها أجمعت على أن جماعات التأثير وأصحاب المصالح وممثليهم في واشنطن قد أصبحوا جزءا من النظام السياسى الأمريكى لايمكن التخلص منه إلا بإلغاء الكونجرس لحق التظلم أو حق الالتماس Right of petition أى حق التوجه إلى رجال الكونجرس بآمال الشعب وأسباب شكواه .. لكن الكونجرس مازال مصرا على عدم إلغاء هذا الحق الذى يكفله (التعديل الأول) للدستور ..

وقد ذكرت لجنة بوكانون فى تقرير لها عن هذه الظاهرة : «إن القوة الاقتصادية لهى اساس متين من اسس صناعة التأثير .. وقد يكون حق التأثير على الكونجرس حقا مقدسا لكنه حق يستطيع بعض الأفراد (الأغنياء والأقوياء) استغلاله دون الآخرين ... فالمستهلك الواحد والشركة التى رأسمالها بليون دولار لهما نفس الحق أمام القانون . لكن هل المستهلك الواحد والشركة الضخمة سواء أمام واضعى القانون؟» .

(١٣) جماعات التأثير الأجنبية : أصحاب المصالح الأجنبية :

من أهمها فى أمريكا الجماعات التى تمثل بعض الحكومات الصديقة والثرية أو صاحبة النفوذ (البريطانية - الفرنسية -

اسرائيل .. الخ) والتى تحاول استمرار تمتعها بميزات معينة أو الحصول على مزيد منها ..

ويلزم القانون الأمريكى Foreign Agents Registration act

ويلزم المكاتب الأجنبية التى تمثل مصالح دول أجنبية بتسجيل اسمائها وأسماء القائمين عليها ومقدار ميزانياتها واوجه انفاقها على ماتصدره تلك المكاتب من نشرات ومطبوعات .

على أن الهيئات اليهودية أو الصهيونية الأمريكية (١) الجنسية التى تمثل فئات وجماعات مواطنين أمريكيين معفاة طبعا من تسجيل اسمائها بموجب القانون سالف الذكر، وذلك على الرغم من أن المكاتب (الأمريكية) الصهيونية تعمل لخدمة مصالح دولة أجنبية هى اسرائيل ..

بل على العكس من ذلك، فان دهاء المخططين اليهود والصهاينة الأمريكيين بلغ إلى حد أن وصفوا جهودهم وأعمالهم بأنها تستهدف أعمالاً خيرية انسانية» سواء داخل أمريكا أو فى اسرائيل ذاتها، وبهذا تستفيد تلك الجماعات من الاعفاءات الضريبية والمزايا التى يكفلها القانون الأمريكى للاعمال الخيرية ..

---

(١) عدد اليهود الأمريكيين يفوق عشرة ملايين لكنهم حسنوا التنظيم شديدى الثراء واسعو النفوذ فى دوائر الصحافة والسينما والتليفزيون والبنوك .

ويديهى أن نفوذ جماعات التأثير وأصحاب النفوذ لا يقتصر على الكونجرس والحكومة الأمريكية الفيدرالية فى واشنطن لكنه يتعداها الى الولايات أو عواصم الولايات الخمسين. وتسيطر هذه الجماعات على كثير من المجالس البرلمانية المحلية فى الولايات لأنها أضعف بكثير من الكونجرس الأمريكى فى واشنطن.. ويسهل على أصحاب المصالح الخاصة التأثير على النائب أو الشيخ المحلى فى كل ولاية لأنهم كلهم غير متفرغين لمهمتهم النيابية بل يشتغلون اصلا فى المهن المختلفة (المحاماة أو التجارة) وهم فى حاجة الى «زبائن» والى تشجيع الشركات الضخمة التى تملك أحيانا ولايات بأسرها وتسيطر تماما عليها وعلى سياستها وساستها...

بل ان كثيرا من الولايات تسمح - رسميا - بجلوس ممثلى Lobbyists جماعات التأثير والشركات الضخمة والهيئات سالفة الذكر المسجلة رسميا فى المجالس النيابية - تسمح بجلوسهم الى جانب الشيوخ والنواب داخل قاعات المجالس النيابية المحلية دون أن يكون لهؤلاء الممثلين التشريعيين (أى ممثلى جماعات التأثير..) حق التصويت ..

وهناك ١٧ ولاية فقط من الخمسين تتطلب من «الممثلين التشريعيين» أى ممثلى أصحاب المصالح والنفوذ أن يسجلوا أنفسهم ومبالغ انفاقهم واوجه صرفها.. أما البقية فلا تتطلب منها أى شىء من هذا القبيل ..

(١٤) لقد أسمينا عددا كبيرا من جمعيات التأثير وأصحاب المصالح والنفوذ ووسائل تأثيرها على رجال السياسة فى أمريكا بحيث يبدو أن تسيير دفة الحكم فى هذا البلد فى يد كل من يشاء وكل من يستطيع التأثير.. وتستغل جماعات التأثير المنظمة وأصحاب المصالح الضخمة قلة خبرة الشعب ورجل الشارع بالسياسة أو عدم نضج رجل الشارع من أجل توجيهه واستغلاله للتأثير بدوره على ممثليه فى الكونجرس من أجل الضغوط على الحكومة .

والمحقق اذن أن الطبقة المسيرة حقيقة للولايات المتحدة لن تتجاوز عدة آلاف وأن مصالحها لاتتفق بالضرورة مع مصالح الشعب والولايات المتحدة الأمريكية .

وأن العامل المشترك الوحيد بين جماعات أصحاب المصالح هو الغنى الطائل والذى يكفل النفوذ العريض.. ولقد كانت الولايات المتحدة فى الماضى ومازالت الى يومنا هذا والى حد بعيد - تسيرها الطبقة الثرية أى أصحاب رءوس الأموال أو الثروات الطائلة.. ولقد يضم هذا التعريف اتحادات العمال الواسعة الثراء والتى تضم عشرات الملايين من العمال، الى جانب اتحادات كبار رجال الصناعة والمال.. إنه المال الوفير أو الدولار الذى يقاس به النجاح فى الولايات المتحدة والذى يكفل السلطان والنفوذ.. وكثيرا

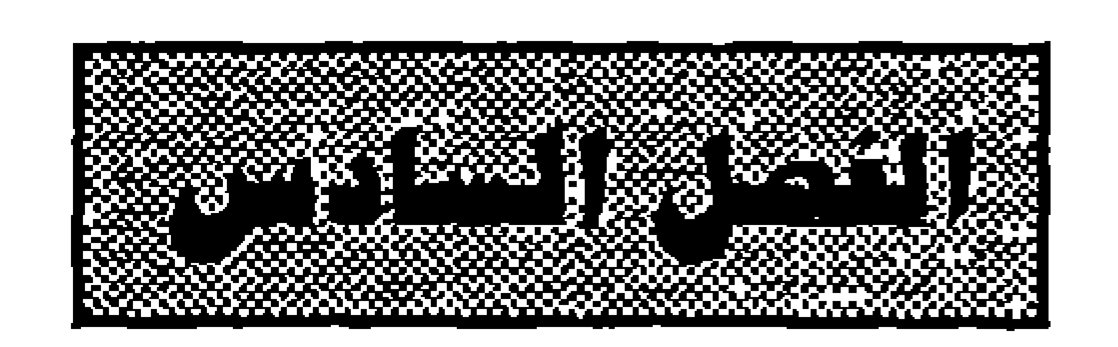
ماتعارضت مصالح هذه الجماعات فيما بينها وينعكس تعارضها وتخاصمها فى تفرق الأحزاب ومعاكسات الفرق الحزبية ممايؤدى الى ضياع الجهد والمال والى تضارب سياسات الولايات المتحدة .

(١٥) أما تأثير ذلك فى ميدان السياسة الخارجية فلا يمكن توقع استقرارها ونضجها وتمشيها مع مصالح الولايات المتحدة بصفة عامة مادامت السياسة الخارجية مرآة وانعكاسا للسياسة الداخلية وأحوال القائمين عليها .

ولما كان الخيط الفاصل بين سلطات رئيس الجمهورية والسلطة التنفيذية من جانب وبين الكونجرس الأمريكى من جانب آخر خيطاً غير مستقر ويخضع للشد والجذب كخيط معاوية وذلك بسبب نظام توزيع الاختصاصات والمسئوليات والضوابط والتوازن Checks and balanees sylstem فيما بين السلطتين فان جماعات التأثير وأصحاب المصالح الخاصة - داخلية كانت أو خارجية - استطاعت النفاذ ما بين السلطتين والتأثير على كلتيهما عن طريق ضرب الواحدة بالأخرى أحيانا وخلق أسباب المنافسة والمواجهة بينهما من أجل تحقيق بعض المصالح الخاصة .

وقد رأينا إلى أى حد تعقدت السياسة الداخلية وكيف أن عددا عديدا من العناصر والمؤثرات يتنازع هذه المؤسسات الدستورية ويؤثر عليها ويسيرها كيفما شاءت تلك المؤثـرات.. وتحت انظار وبموافقة الدستور والعرف والنظم المعمول بها فى أمريكا ..

ولهذا فكثيراً ماجاءت سياسات أمريكا الخارجية غير مستقرة وغير ناضجة وتعكس نتائج الحلول الوسط والتنازلات التى لابد منها بين السلطتين.. وقد يكون كل ذلك فى النهاية على عكس ماتمليه مصالح أمريكا الحقيقية وذلك ابتغاء كسب عدة أصوات داخلية أو تهدئة أصحاب نفوذ معينين .



العلاقات المصرية الأمريكية

كانت العلاقات المصرية الأمريكية حتى الحرب العالمية الثانية سطحية وهامشية. ولم تبدأ العلاقات بينهما فى اتخاذ صفة عميقة وجدية الا بعد أن تبوأت الولايات المتحدة مكانة الصدارة العالمية بعد انتهاء الحرب الثانية، وبدأت ترث تركات بريطانيا وفرنسا فى منطقة الشرق الأوسط.. وقد حاولت مصر بنجاح استعمال وساطة وتأثير الولايات المتحدة على بريطانيا حتى تم انسحاب الجيوش البريطانية من مصر ١٩٥٤ .

وإلى هنا كانت العلاقات بين القاهرة وواشنطن تبشر بالخير وبالنمو المطرد.

إلا أن السنتين من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٦ جاءتا بما لاتشتهى السفن.. وكان سبب تعكير صفو العلاقات سياسة جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة القاضية بتطويق الاتحاد

السوفييتى Policy of Containment ودعوته لمصر وغيرها من دول الشرق الأوسط للانضمام إلى واحد من الأحلاف الغربية العسكرية التى اقترحها دالاس لحصار الاتحاد السوفييتى مثل Cento أ و Medo أوNorthem Tier فى الوقت الذى كانت مصر فيه قد تخلصت من احتلال الجيوش البريطانية بالكاد ولم تلتقط انفاس الحرية بعد ..

ولم يكن بينها وبين الاتحاد السوفييتى مايحملها على الانضمام الى خصومه، بل كانت مصر ترى فى اسرائيل وليس فى روسيا مصدر الخطر عليها وعلى الدول العربية..

كما كانت مصر إحدى الدول الأربع التى أرست دعائم حركة الانحياز منذ باندونج فى أبريل سنة ١٩٥٥ ولم تر داعيا للانضمام الى أحد المعسكرين المتخاصمين. ثم جاء لقاء عبد الناصر بالزعيم الصينى تشوين لاى فى باندونج واعتراف مصر بالصين «الشيوعية» التى اعتبرتها واشنطن عدوة للولايات المتحدة منذ حرب كوريا .. وهو ماأثار ثائرة جون فوستر دالاس.. وزاد الموقف تعقيدا سلسلة من هجمات اسرائيل على قطاع غزة سنة ١٩٥٥ وقتلها للعديد من الضحايا المصريين . وجاء رفض امريكا امداد مصر بالسلاح اللازم للدفاع عن مصر ولمجابهة عدوان اسرائيل فدفع عبد الناصر لابرام اتفاقية السلاح التشيكوسلوفاكى ١٩٥٥..

وكانت هذه «القشة التى قصمت ظهر» جون فوستر دالاس ، فبادر الى سحب عرض الولايات المتحدة (والبنك الدولى) لتمويل مشروع السد العالى سنة ١٩٥٦ بطريقة مهينة مما أدى الى تأميم مصر لقنال السويس ثم للعدوان الثلاثى البريطانى الفرنسى الاسرائيل على مصر فى اكتوبر ٥٦ وانتهى بالفشل لدول العدوان الثلاثى بسبب قوة مركز مصر الدبلوماسى وتأييد العالم الثالث والاتحاد السوفييتى لمصر.. بل وانضمام الولايات المتحدة الى مجموعة الدول التى أدانت العدوان وعملت على تصفيته حيث إن بريطانيا وفرنسا لم تستشر واشنطن قبل اقدامها على العدوان .

وقد تركنا واشنطن الى تونس فى يوليو ١٩٥٦ والقدر يغلى على وشك الانفجار الذى حدث فعلا بعد وصولنا الى تونس بشهرين اثنين .

لكن نالت العلاقات المصرية الأمريكية صدمة شديدة بتمويل السوفييت للسد العالى وبدء فترة التعاون الوثيق بين القاهرة وموسكو.. ورأت واشنطن فى ذلك انكارا لجميلها بوقوفها ضد العدوان الثلاثى ..

ولم تقلل الوحدة بين مصر وسوريا سنة ٥٨ من غضب الولايات المتحدة بل زادته تأججا وزادت من حدة العلاقات وخاصة عندما ساءت العلاقات بين القاهرة وكل من عمان وبيروت وانقرة مما دعا

الولايات المتحدة إلى إنزال جنود البحرية فى لبنان سنة ٥٨ بناء على طلب الرئيس شارل حلو اللبنانى.. وزاد من غضب واشنطن على مصر تأييد القاهرة للثورة فى اليمن وتأييد مصر لجميع حركات التحرير بعد ذلك ..

ثم جاءت حرب الأيام الستة بين مصر واسرائيل سنة ١٩٦٧ (١) وحملت فى طياتها بذور زيادة تدهور العلاقات بين مصر وواشنطن عندما اتهمت القاهرة امريكا بالتواطؤ مع اسرائيل (٢) وقطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع واشنطن ..

ويسهل على المراقب الدبلوماسى الوصول إلى النتيجة أن كل تدهور صاحب تأزم العلاقات بين مصر وأمريكا انما جاء كصدى وانعكاس لأزمة من الأزمات بين مصر واسرائيل : سنة ١٩٥٥ بعد هجوم اسرائيل على غزة، سنة ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثى، سنة ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة .. وقد اتخذت واشنطن سنة ١٩٦٧ موقف تأييد عسكرى تلاه التأييد الدبلوماسى والسياسى الصريح لاسرائيل فى مجلس الأمن عند صياغة مشروع القرار ٢٤٢ فيما يخص انسحاب القوات الاسرائيلية من «أراض» بدلا من «الأراضى» العربية المحتلة .

---

(١) فى مذكرات القادة الاسرائيليين اعتراف بان واشنطن وتل أبيب باتتا تدبران هذا الفخ لعبد الناصر منذ تصفية آثار حرب ١٩٥٦ وحتى قراره بإغلاق المضايق راجع كتاب محمد حسنين هيكل سالف الذكر .

(٢) وضح تواطؤ واشنطن مع تل أبيب عند طرح القضية امام مجلس الأمن سنة٦٧–٦٨ وتأكد فى حرب ٧٣ باقامة جسر جوى امريكى لانزال الامدادات الى اسرائيل داخل سيناء ذاتها (راجع كتاب محمد حسنين هيكل سالف الذكر .

لكن الطبيعة الحقيقية والحجم الهائل للتحالف الأمريكى الاسرائيلى الاستراتيجى الجديد ظهر فى اوائل حرب سنة ١٩٧٣ حين باتت اسرائيل على شفا الهزيمة فأقامت الولايات المتحدة جسرا جويا مباشرا من أمريكا إلى سيناء وانزلت فى سيناء مئات الدبابات الأمريكية يقودها أمريكيون فضلا عن بقية المعدات لتعويض خسائر اسرائيل الفادحة فى الأيام الأولى للقتال ..

ومن هنا ثبتت لأول مرة حقيقة حجم التحالف الأمريكى الاسرائيلى العسكرى الاستراتيجى والدبلوماسى والاقتصادى والذى مازال مستمرا بل يقوى كل يوم ...

وقد اثمرت زيارات هنرى كيسنجر (وزير خارجية امريكا) المكوكية الى مصر ومقابلاته مع انور السادات اثمرت اقتناع السادات بعدم جدوى استمرار سبيل الحرب «ضد الولايات المتحدة» التى لم ولن تسمح بهزيمة اسرائيل» أو كما قال كيسنجر : «لن نسمح بهزيمة الاسلحة السوفييتية للاسلحة الأمريكية» ومن هنا اقتنع السادات بألا سبيل لاستعادة مصر لسيناء إلا عن طريق السلام فان مصر كانت قد استنفدت امكانياتها على القتال «وكان الاقتصاد المصرى فى مستوى «اقل من الصفر» على حد تعبير السادات.. وظل السادات يردد أن «الولايات المتحدة تملك ٩٠٪ من أوراق اللعبة» وأنها الشريك الكامل لمصر فى عملية السلام «وواقع

الأمر أنها كانت الشريك الكامل لاسرائيل فى حربى ٦٧ و٧٣ ثم بعد ذلك فى عملية السلام ..

وصحب سعى واشنطن لوقف الحرب ولتحقيق انسحاب القوات وتخفيف حدة المواجهة Disenagazment ازدياد حرارة العلاقات مابين نيكسون والسادات لدرجة أن نيكسون زار مصر حتى قبل استئناف العلاقات الدبلوماسية المقطوعـة بين القاهرة وواشنطن منذ ٦٧ ...

وآية ذلك أن السادات اكتشف – منذ تولى مسئولية الحكم – أنه لكى ينجز عبور قناال السويس ويحرك المسألة الراكدة من جديد، كان يحتاج الى تأييد ودعم الاتحاد السوفييتى عسكريا.. وقد كان.. إلا أن الشق الثانى من اكتشاف السادات جاء بعد معركة العبور وكان أنه لكى يستعيد سيناء بطريق السلم والمفاوضات فانه كان يحتاج إلى دعم وتأييد «الشريك الكامل» فى عملية السلام.. أى الولايات المتحدة الأمريكية بقدر ما تملك من نفوذ على اسرائيل ..

وقد قبل باطمئنان وعود الولايات المتحدة له بأنها سوف تبذل قصارى جهدها لتحقيق تسوية عادلة سليمة.. وقد بذل الرئيس كارتر فعلا قصارى جهد أى رئيس أمريكى «وهو محدود بسبب قوة جماعات التأثير الصهيونية على الكونجرس الأمريكى» من أجل تنفيذ وعده للسادات منذ كامب دافيد وحتى توقيع معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية فى البيت الأبيض فى أغسطس ١٩٧٩ .

وكان هذا نصرا عظيما للدبلوماسية الأمريكية طالما سعت وراء تحقيقه منذ سنة ١٩٤٨ دونما فائدة.. لكن يبدو أنه استنفد ايضا كل جهد وطاقة الولايات المتحدة.. وقد تبين أن طاقة جهد الولايات المتحدة فى التأثير على اسرائيل أقل مما كان يظن أو يأمل العرب.. ولكن بماذا اذن يمكننا تعليل ماحدث ؟! لماذا أدت حرب سنة ١٩٦٧ حرب الأيام الستة إلى قطع القاهرة للعلاقات بين مصر وواشنطن تحت شبهة او مظنة تواطؤ أمريكا مع اسرائيل فى حين أن مساعدة الولايات المتحدة العلانية لاسرائيل جهرا وبقدر حاسم فى حرب سيناء سنة ١٩٧٣ أدت إلى نتيجة عكسية ؟ وإلى تحسين العلاقات بين القاهرة وواشنطن ؟!

يبدو لكاتب هذه السطور أن تضافر بعض الاعتبارات السياسية والسيكولوجية والاستراتيجية والاقتصادية قد شجعت القاهرة وواشنطن على اتخاذ قرار مهم وحاسم باعادة النظر واعادة تقييم علاقاتهما فى الميادين سالفة الذكر وبدء صفحة جديدة من علاقاتهما على أساس «الحقائق المجردة» التى اكتشفها الطرفان حديثابشأن علاقاتهما ..

ومن هنا فقد اتفقت ارادتا الطرفين كما تلاقت خطوط تفكيرهما وادراكهما المتبادل .

فمن ناحية الولايات المتحدة واسرائيل نجد الآتى :

أ – قرار الولايات المتحدة بضمان استمرار تفوق اسرائيل فى ميدان الأسلحة التقليدية بأى ثمن – وذلك برغم أو بالأحرى بسبب امتلاك اسرائيل لعدة قنابل ذرية تكتيكية ووسائل ايصالها. فان تفوق اسرائيل فى الأسلحة التقليدية حسب التفكير الأمريكى – يغنيها عن استعمال قنابلها الذرية كملجأ أخير فى حالة ادراكها لقرب هزيمتها.. كما حدث فى الأسبوع الأول لحرب ١٩٧٣. وقد يفسر هذا مسارعة امريكا لامداد اسرائيل بالأسلحة التقليدية عن طريق «جسر جوى» نشط اثناء حرب ١٩٧٣ .

ب – إن أربعه حروب مصرية – اسرائيلية وبخاصة حرب ١٩٧٣ اثبتت أن طرفا من الطرفين قد يكسب معركة أو عدة معارك لكن يستحيل عليه كسب الحرب أو فرض الصلح الذى يتمناه ويحتاجه على الطرف الآخر .

ج – إن معارك الدبابات الطاحنة والحرب الالكترونية التى جرت سنة ١٩٧٣ اثبتت ازدياد خطورة نتائج أى حرب قادمة بين مصر واسرائيل من حيث درجة مخاطرها الشديدة ونتائجها الوخيمة وخسائر الطرفين البشرية المتوقعة الى الحد الذى قد لايحتمله احدهما أو كلاهما، وذلك دون أن تؤدى الحرب الى توفير الفرصة لحل نزاعهما .

د – كانت الولايات المتحدة واسرائيل على اقتناع تام طوال

السنوات والتجارب الماضية بانه فى حين لاتملك الدول العربية الأخرى شن الحرب ضد اسرئيل دون اشتراك مصر، فان مصر رغم ذلك قد تكون القائدة الى طريق السلام فى المستقبل مابين الدول العربية واسرائيل .

ومن ثم فان واشنطن والقدس كانت لديهما حوافز قوية بل شديدة القوة لفصل مصر بعيداً عن جبهة الحرب العربية.. ومن هنا وجد الرئيس الأمريكى كارتر ضروريا وممكنا أن يغلق الباب على نفسه وعلى السادات وبيجين فى كامب دافيد لمدة اسبوعين كاملين.. بعيدا عن المؤثرات الخارجية .. ومن هنا ايضا أمكن لواشنطن الوصول الى الاتفاق مع السادات .

هـ - واخيرا فقد ظهر رئيس مصرى (هو السادات) اتخذ قراره واعلنه حتى قبل بدء المفاوضات على رءوس الاشهاد بان حرب ١٩٧٣ سوف تكون «آخر الحروب التى تخوضها مصر ضد اسرائيل» فقد قرر أنه لن يحتاج الى اسلحة سوفييتية وإنما الى مساعدة امريكا السياسية والاقتصادية والى وزنها وثقلها الدبلوماسى ليزيل التراكمات التى خلفتها العهود الماضية. وكانت الولايات المتحدة فى انتظار مثل هذه الاشـــارة وعلى استعداد لأخــذ يده التى امتـــدت نحوها وان تقبل الدور الذى طلبه السادات منها ...

و - كذلك ظهر فى الأفق هذا الزعيم المصرى الذى أبدى من الدلائل ماأكد رغبته فى تصفية تجربة عبد الناصر «الاشتراكية» والتى كانت قد صاحبت مغامراته الخارجية وتركت مصر تنوء بعبء دين خارجى ثقيل وباحتلال اسرائيلى. جاثم فوق أرض سيناء منذ سنة ١٩٦٧ .. كانت هذه اذن فرصة الولايات المتحدة لكى تظهر للعالم اجمع أن أكبر الدول العربية كانت تود - وكانت تستطيع بمساعدة الولايات المتحدة - أن تنحرف من اليسار الى اليمين، ومن الوقوف على شفا حفرة الافلاس الى الاستقرار والطمأنينة، ومن معسكر الحرب إلى السلام عن طريق المفاوضات، كل ذلك بمساعدة واشنطن ..

أما من الناحية المقابلة فنجد العناصر والاعتبارات التالية :

أ - اقتناع السادات أن طاقة مصر على شن الحرب قد حققت أهدافها المحدودة بعبور القناة - وانه حان الآن دور الدبلوماسية المصرية لمحاولة تحقيق بقية الأهداف المصرية .

ومن أجل تحقيق تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط فان مصر كانت فى حاجة الى حسن نية وتأييد صديق اسرائيل الأكبر وحاميها ومانحها المساعدات والهبات والعتاد الحربى. وقد ردد السادات دائما أن الولايات المتحدة هى التى تملك تسعين فى المائة من أوراق اللعبة .

ب – كان السادات قد أعلن مبكرا، ربما مبكرا اكثر من اللازم ، أى حتى قبل كامب دافيد، أن حرب سنة ١٩٧٣ سوف تكون أخر حروب مصر ضد اسرائيل .. وكما تبين لاحقا فان هذا الاعلان وتوقيته قد اضعفا من مركز مصر التفاوضى فى كامب دافيد حيث اضطر السادات فى النهاية لقبول أقل كثيرا مما كان يأمل ...

جـ – كان السادات على اقتناع بأن استمرار اقتصاد الحرب أو «نزيف الحرب» يضر بالمجتمع المصرى وبنظامها السياسى وانه سوف يزيد من فرص انتشار الشيوعية أو الأفكار الثورية الهدامة بين الشعب المصرى وخاصة بين طبقاته المحرومة والفقيرة. ولم يكن السادات ولا الولايات المتحدة راغبين فى قبول هذا الخطر .

أما مساعدات الدول العربية لمصر فى الميدان الاقتصادى فلم تكن بالقدر الذى يخفف من ازدياد الفقر فى مصر ولم تكن فى تقدير السادات والمصريين تعويضا كافيا لتحمل مصر :أغلب أعباء الحروب ضد اسرائيل ...

ومن هنا فان اتفاقا تاريخيا – مؤقتا – بين مصالح وآمال «مصر السادات» و «امريكا كارتر» جعل كامب دافيد ممكنا وأدى الى توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل سنة ٧٩ تحت رعاية وكفالة كارتر .

وكان اتفاق كامب دافيد يحمل البصمات الشخصية لكارتر والسادات وبيجين وان لم يعكس حقائق الموقف فى مصر بنفس القدر.. أو حتي نيات اسرائيل الحقيقية....

وحدث بعد ذلك أن بيجين لم ينفذ التزاماته أو القليل الذى التزم به فى كامب دافيد، أما كارتر فقد فشل أو لم يستطع أن يجبره على ذلك وأن يختلف معه علانية بعد حصول بيجين على نصف جائزة نوبل للسلام وحصول كارتر على أغلى واعز انتصار دبلوماسى للسياسة الأمريكية .. أما السلام الشامل وأما الرخاء اللذان كانا معقد آمال الشعب المصرى فلم يتحققا هما الآخران .

وسرعان ماانتجت التطورات اللاحقة رد فعل عنيفا فى مصر.

فقد أدى عناد وتزمت بيجين - وعجز الولايات المتحدة عن زحزحة بيجين عن تزمته الى خيبة أمل شديدة فى قلب السادات الذى فقد الأمل فى امتداد السلام المصرى الاسرائيلى ليشمل الفلسطينيين وبقية الدول العربية.. بل فسّر بيجين اتفاقيات السلام تفسيرا مجحفا ومخلا بحقوق الفلسطينيين فى سيادتهم على أرضهم وفى تقرير مصيرهم تفسيراً غير متمش مع تفسير كارتر نفسه أو السادات.. كما أن انتهاك اسرائيل لحقوق الانسان العربى فى الاراضى المحتلة لم يعكس روح اتفاقيات السلام ولا نصوصها ... بل إن بيجين جرؤ على مهاجمة وتدمير المفاعل الذرى العراقى

فى اليوم التالى لاجتماعه مع السادات فى الاسماعيلية !! ثم جاء غزو اسرائيل للبنان ودورها فى مذابح الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا.. كل هذا كان بمثابة علامات استهزاء واحتقار موجهة من اسرائيل للسادات وكامب دافيد وللولايات المتحدة !! واصبح السادات رجلا مليئا بخيبة الأمل وقد اصابه القنوط والآسى وبخاصة عندما فتحت المعارضة المصرية نيرانها على كامب دافيد والسلام المصرى الاسرائيلى المبتسر وعلى السادات نفسه.. وبات الرأى العام المصرى غير متقبل هو الآخر لاتفاقية السلام مع اسرائيل بعد أن كان يعلق عليها آمالا كبارا فى السلام الشامل والرخاء المأمول ...

ولم يكن السادات ولا كارتر بمستطيعين التراجع عن مواقفهما من السلام .. كان كارتر قد نال اهم واسطع نجاحاته الدبلوماسية في كامب دافيد وكان تراجعه عنها من شانه تحطيم مستقبله ومستقبل حزبه سياسيا بل لقد بلغت الاستهانة بروح كامب دافيد وبغرض السلام الحقيقى بلغت بمستر بيجين مبلغا شجعه على التمسك بقطاع طابا المصرى وعلى الادعاء بملكية اسرائيل له .. وكانت المعركة الدبلوماسية والسياسية بين مصر واسرائيل حول طابا القشة التى قصمت ظهر الآمال المصرية التى قامت حول كامب دافيد . ومرة أخرى لم تستطع الولايات المتحدة الضغط على

اسرائيل للتنازل عن ادعاءاتها الكاذبة بشأن طابا. وكل ماستطاعت الدبلوماسية الأمريكية القيام به هو دور الوساطة من أجل قبول اسرائيل التحكيم وحسب.. وهو ماأكد عدم رغبة أمريكا أو عدم قدرتها على الامساك بزمام الموقف حينما تتعارض مصالحها مع سياسات اسرائيل وطموحاتها . هذا اذا افترضنا بوجود تعارض حقيقى فى سياستهما ..

وسرعان ما وجد الرئيس حسنى مبارك نفسه فى مواجهة دبلوماسية مع الرئيس ريجان رغم المحاولات الجدية من مصر لتجنب القطيعة مع واشنطن بسبب حادثة الباخرة أكيلى لاورو واختطاف السلاح الجوى الأمريكى لطائرة مصرية مدنية بركابها فى المجال الجوى الدولى واضطرارها للهبوط فى ايطاليا . ومن ثم فان علاقة الرئيس حسنى مبارك وريجان افتقدت الصداقة والدفء والثقة التى ميزت علاقات كارتر - السادات.. ورغم استمرار المساعدات الاقتصادية الأمريكية لمصر، فان عيون المصريين تفتحت على حقيقة أخرى ألا وهى أن اسرائيل بملايينها الثلاثة أو الأربعة من السكان تنال مرة ونصفا من أمريكا قدر المساعدات الأمريكية لمصر بسكانها الخمسة والخمسين مليونا.. فما وجه التفرقة إلا إذا كان السبب المنزلة الخاصة التى تتربع عليها اسرائيل فى قلب البيت الأبيض والكونجرس الأمريكى؟ وجماعات التأثير الأمريكية ؟!

لقد كادت علاقات مصر بواشنطن أن تنفصم فى مناسبة اختطاف الطائرة المصرية ومناسبات أخرى تبعتها فى عهد الرئيس السابق ريجان .

ومع ذلك ورغم البرودة التى أصابت تلك العلاقات حينا أو احيانا فيبدو أن هناك ارادة متبادلة فى القاهرة وواشنطن بعدم الوصول بهذه العلاقات مرة أخرى الى مرتبة القطيعة السافرة بل استحسان الوقوف بها على أدنى مستوى ممكن لتلافى الإساءة اليها كما حدث سنة ٥٦ ولتلافى القطيعة كما حدث سنة ١٩٦٧.. فالفارق هذه المرة هو الاتفاق الذى أبرمه السادات من أجل السلام ومن أجل جعل حرب ١٩٧٣ آخر حرب تدخلها مصر، وكذلك نمو التعاون السياسى والاقتصادى والدبلوماسى والعسكرى والاستراتيجى الجديد مابين القاهرة وواشنطن منذ أن تحول تسليح الجيش المصرى وتنظيمه من موسكو الى واشنطن فى عهد السادات.. وبعد أن احرقت مصر كباريها مع موسكو .

ومن هنا جهود الطرفين، رغم ما قد يصيب العلاقات من برود أو كدر مؤقت احيانا، من أجل تلافى القطيعة الدبلوماسية .. فمن جانب هناك حاجة مصر الاقتصادية الكبيرة الى استمرار تدفق المعونات الأمريكية بنفس معدلاتها المتفق عليها منذ كامب دافيد .. وهناك ايضا احتياج مصر المستمر لوزن الولايات المتحدة وثقلها

الدبلوماسى لاستمرار مساعى «السلام الاسرائيلى العربى» فى الشرق الأوسط (١) .. وهناك من جانب آخر احتياج واشنطن إلى استمرار التزام مصر بالسلام والى استمرار سياسة «حرب ١٩٧٣ هى آخر حرب مع اسرائيل» واستمرار سعى مصر وراء السلام العربى الاسرائيلى . فانه دون مساعى مصر فى هذا المضمار لا يبقى فى الحلبة العربية لاعب واحد آخر..

وأن حاجة الولايات المتحدة الى مصر المستقرة والمعتدلة والراضية والملتزمة بمسيرة السلام والسعى وراء السلام الشامل، الى مصر التى يجمعها مع الغرب علاقات صداقة وتعاون تعادل حاجة مصر الى مساعدات الولايات المتحدة الاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية للاجل المنظور ..

ويبدو لكاتب هذه السطور أن هذا الاحتياج المتبادل والذى باتت تدركه كل من العاصمتين حاليا هو الفارق مابين الآن وسنة ١٩٦٧ .

وهو قد يكون كافيا للتغلب على الازمات العابرة وغير الحادة...

ومع هذا فقد تحدث رغم هذا ظواهر «الصعود والهبوط» فى هذه العلاقات بين القاهرة وواشنطن خاصة ان الولايات المتحدة –

---

(١) لا يسع مصر سياسيا ولا دبلوماسيا ، عالميا أو عربيا ، أن تغلق ملف القضية الفلسطينية حتى فى مواجهة مرواغة وتعنت اسرائيل .

كما يتبين منذ ١٩٧٣ - تجمعها واسرائيل تحالفات استراتيجية قوية وعلاقات فريدة اقتصادية وسياسية ودبلوماسية غير قابلة للانفصام وغير قابلة - فى الوقت نفسه مع الأسف الشديد - لأن تستعملها واشنطن للضغط على تل أبيب .

بل العكس هو الصحيح فان تل أبيب باتت تستغل هذه العلاقات القوية والتحالفات الفريدة للضغط على واشنطن ولتسييرها وفق هواها فى أزمة الشرق الأوسط !! (١) وذلك منذ نهاية حرب سنة ١٩٦٧ ...

.. انظر الى تصريحات المسئولين الأمريكيين ذاتهم . إن واشنطن «لاتنوى الضغط على اسرائيل» - «إن واشنطن لا تملك سوى محاولة اقناع اسرائيل (٢) وكأن واشنطن هى الدولة الصغيرة التى تعيش على احسان تل أبيب وليس العكس !!

ثم انظر الى محاولات ضغط واشنطن على موسكو منذ سنوات عديدة للسماح بهجرة اليهود السوفييت الى الخارج فلما سمحت روسيا بذلك وفتحت أبوابها منذ ٨٨-١٩٨٩ أمام جميع اليهود بها للهجرة إذا بواشنطن تغلق أبوابها فى وجه اليهود السوفييت

---

(١) وصف الكثيرون هذه العلاقة بأنها «الذنب الذى يهز الكلب» وليس الكلب الذى يهز الذنب» !!

(٢) تصريحات ، المسئولين الأمريكيين كما جاءت فى الصحف الأمريكية ذاتها .

لدفعهم دفعا إلى الهجرة الى اسرائيل !! وكأن اسرئيل بحاجة الى جيش جديد حسن التدريب تام الاعداد من نصف مليون يهودى روسى لطرد بقية الفلسطينيين من الأراضى المحتلة !! ولتكوين اسرائيل الكبرى!! ولبدء حرب توسعية جديدة !!

ومن هنا فان «شهر العسل» فى العلاقات بين القاهرة وواشنطن، والذى صاحب كامب دافيد وابرام معاهدة السلام داخل البيت الابيض غاب الى غير رجعة.. لتخلفه «سنوات اليقظة» واعادة حساب الأمور حسابا «أكثر واقعية» يقوم على حقائق الموقف ..

ومن أهم هذه الحقائق – المؤسفة – أن هناك للولايات المتحدة فى اسرائل مصلحة أو مصالح تختلف فيها مع مصالح مصر والعرب.. هذه هى الحقيقة المُـرّة ..

كان اقصاء مصر عن المعسكر العربى فى عهد السادات كما كان انسحابها المؤقت من مركز قيادتها السابق فى حركة عدم الانحياز، وخلافها المؤقت بالمثل مع موسكو، كانت كلها «هدايا قيمة» لواشنطن نالت رضاءها واستحسانها، سواء أكان السادات قد قدمها طواعية الى واشنطن أم سقطت فى حجرها مصادفة ...

لكنها كلها لم تكن لتتفق مع آمال مصر ومصالحها ورغبات

شعبها أو حتى مع واقع الأمر.. وماكانت لتستمر طويلا.. رضيت الولايات المتحدة أم لم ترض ..

وفى مقابل ذلك التزام واشنطن التزاما قاطعا - كما بدا فى حرب سنة ٧٣ - باستمرار تفوق اسرائيل العسكرى على مصر وكل الدول العربية وبالتحالف السياسى والاستراتيجى ويتسامح واشنطن أو بخضوعها أمام مواقف اسرائيل المتشددة المتصلبة وغير الانسانية من القضية الفلسطينية، كلها ايضا لا ترضى مصر وشقيقاتها الدول العربية .

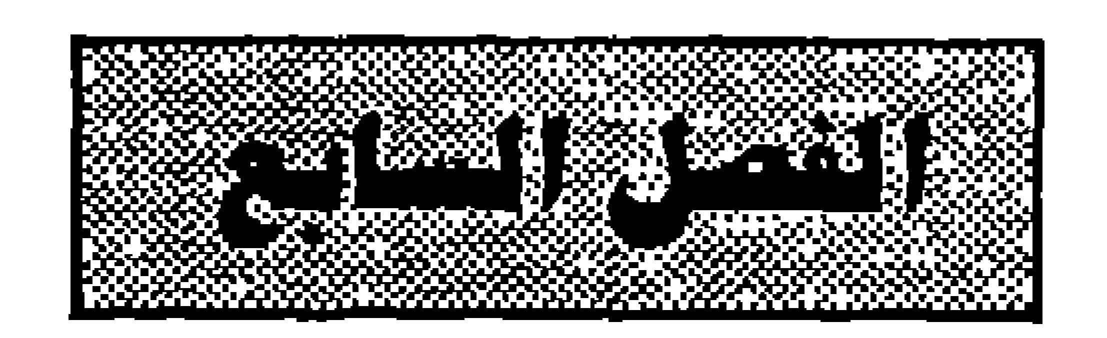
ومن هنا، وطالما بقيت القضية الفلسطينية وتفرعاتها من القضايا العربية الأخرى دون حل عادل دائم ومرض ، حل يأخذ فى الاعتبار - على الأقل - آمال الجناح المعتدل جناح الغالبية من الفلسطينيين والدول العربية المعتدلة، فان العلاقات المصرية الأمريكية ستظل تحت تأثير ظلال وغيوم تطورات الموقف فى الشرق الأوسط، صعودا أو هبوطا.. لكن الموقف فى الشرق الأوسط يبدو خاليا من امكانيات الصعود بشكله الحالى !! وليس أمامه سوى إمكانيات الهبوط من جديد!! طالما بقيت سياسات واشنطن وتل ابيب دون تغيير ...

لنأمل على الأقل الاّ يصل الموقف ما بين اسرائيل والشعب الفلسطينى والدول العربية الى الحد أو إلى الدرك الأسفل الذى قد

يضطر مصر أو يجرها جرا الى تغيير سياستها المسالمة أو الى قطع سبيل الحوار أو العلاقات الاعتيادية مع واشنطن .. (ومع الغرب بالتبعية)... وليكن هاديا ونبراسا للطرفين الادراك العاقل لاحتياجات الطرف الأخر وذلك من أجل محاولة تخفيف الصدمات المرتقبة بينهما .....

ولتدرك واشنطن أن معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية لم تكن الا بداية الطريق ولم تكن هدفا فى حد ذاتها .. وان النظر اليها كهدف نهائى ليعنى الحكم عليها وضدها، بالإهمال والنسيان أو بما هو أسوأ، وليعن الحكم على كل المنطقة بمزيد من البؤس والدمار كما أنه يلغى جميع الخطوات الايجابية الثمرة التى خطتها القاهرة فى تجاه واشنطن، والاخيرة نحو القاهرة ...

فهل ستملك واشنطن - يوما ما - أن «تقود» اسرائيل الى التوصل الى تسوية سلمية عادلة مع الشعب الفلسطينى تكون مفتاحا لعلاقات اكثر اعتيادية مع بقية الدول العربية المجاورة ؟ هذا هو التحدى الحقيقى أمام واشنطن وامام علاقاتها مع العالم العربى ...



تونس الخضــراء ...

غريب حقا هذا الانسان.. إذا ما اعتاد أكل أفخر الأطعمة فان نفسه تتوق أحيانا الى «الطرشى المخلل» أو سندوتش الطعمية (وأنا فى الواقع أحب هذين الاخيرين!) وإذا ما امتدت به الاقامة فى واشنطن عاصمة الولايات المتحدة لأكثر من خمس سنوات متصلة فان نفسه تتوق إلى الانتقال به الى عاصمة صغيرة فى دولة نامية فى شمال افريقيا لم تكد تنال الاستقلال مثل تونس سنة ١٩٥٦ .

أما لماذا تونس بالذات فقد كان السبب هو رئيسى المباشر فى سفارتنا فى واشنطن (المرحوم) الوزير المفوض على كامل فهمى.. فقد جمعت أواصر العمل المشترك فى واشنطن ما بين قلوبنا وكنت شديد الاعجاب بصفاته كدبلوماسى وزميل ورئيس من الطراز الأول ويبدو أن الاستلطاف كان متبادلا، فلما اختير سفيرا لمصر

فى تونس بمجرد استقلالها اقترح علىّ أن نعمل بها سويا.. فقبلت. ورغم إلحاح سفيرنا السابق فى واشنطن المرحوم. احمد حسين (باشا) علىّ بالبقاء فى واشنطن فقد فضلت التجديد والانتقال الى تونس. كانت قد مرت علىّ فى واشنطن سنوات خمس طويلة حافلة بكثرة العمل وبسرعته وبمشقة الحياة على الطريقة الأمريكية. كانت مواعيد العمل بالسفارة فى واشنطن من التاسعة صباحا وحتى الرابعة والنصف مساء – كما هو الحال فى أمريكا – لا يتخللها سوى ساعة واحدة للغداء السريع وكنت قد اضفت على نفسى جهدا ومشقة جديدين بالدراسة المسائية المركزة فى إحدى جامعات واشنطن من أجل الماجستير فى العلوم السياسية وحققت نجاحا سريعا فحصلت على الماجستير فى سنة ونصف من الدراسة.. لكن كان ذلك على حساب اعصابى ومزاجى.. اضف إلى ذلك طريقة الحياة الأمريكية نفسها حيث يقع كل ثقل الاعباء المنزلية على الزوجين دونما مساعدة خارجية. فلا يقدر أحد فى امريكا على استئجار خادم أو خادمة إلا الأثرياء.. لكنى كنت دبلوماسيا صغيرا واقتطعت من راتبى الصغير مصاريف الدراسة الجامعية ولم تكن بالقليلة.. وان ننسى فلا ننسى تأثير تكدر جو العلاقات المصرية الأمريكية وتكاثر السحب فوقها منذرة بأوخم العواقب.. وكان لهذا تأثيره على نفسى طبعا..

ثم انى كنت قد كونت صورة ذهنية لمدينة تونس «الخضراء»

المطلة على شاطىء البحر الأبيض الجنوبى فاجتذبتنى هذه الصورة. ووجدتها فرصة سانحة للتعرف على حضارة تونس العريقة.. نعم.. العريقة.. فقد درست فى الأدب اللاتينى (أدب الرومان القدماء) عندما كنت طالبا فى كلية الآداب درست انه قامت حضارة تاريخية مرموقة فى قرطاجنة ومقرها قرطاج من ضواحى مدينة تونس – وكانت حضارة قرطاجنة تنافس حضارة روما القديمة. بل لقد انزل كل من ملكى قرطاجنة أميلكار ومن بعده ابنه الشهير هانيبال هزائم كثيرة بجيوش الرومان فى صقلية واسبانيا بل وفى ايطاليا نفسها وإن لم يستطع هانيبال الاستيلاء على روما، وذلك فى حروب قرطاجنة الثلاث المعروفة باسم Punic wars التى قامت بين قرطاجنة وروما مابين ٢٦٤و١٤٦ ق..م، ومن ثم فان حضارة قرطاجنة التى كانت ندا لروما لابد أن تكون قد خلفت فى تونس آثارا حضارية وروحية (انسانية ومادية) تستحق المشاهدة والدراسة. ناهيك بان أصل القرطاجنيين كما هو معلوم يعود الى مهاجرين وفدوا اليها من صور وصيدا وبيروت (لبنان) واقاموا امبراطورية بحرية ذات شأن على مدى اربعة قرون، وحتى بعد أن دانت قرطاجنة لروما اقامت بها روما مركزاً لامبراطوريتها الأفريقية وخلفت فيها أثـــارا رومانية جديرة بالمشاهدة هى الأخرى .

كانت تونس – تاريخيا – معبرا عبره الفينيقيون واليونانيون ثم

الرومان.. وجدير بالذكر ان «كاتو» وغيره من كبار ساسة الرومان كان لا يختتم احدى خطبه أمام الشيوخ الرومانيين الا بعبارة «لابد من تدمير قرطاجنة» Cartago delenda est وهكذا دمر الرومان قرطاجنة في النهاية واحتلوا تونس لقرون طويلة، تشهد بها الآثار الرومانية الجميلة فى تونس ومنها التياترو الكوليزيوم العظيم فى مدينة «الجم El djem» جنوب تونس وهو من أفضل الآثار الرومانية التى مازالت محتفظة برونقها وشكلها القديم ..

وتونس اليوم دولة عمادها الزراعة.. والزراعة فيها عمادها المطر فليس بها انهار لكنها تتلقي نسبة كافية من الأمطار على مدار السنة ماعدا فصل الصيف الجاف القائظ. وتهب احيانا فى فصل الصيف رياح جنوبية حارة قادمة من الصحراء الافريقية الكبرى يسمونها « Sirocco السيروكو» ويسمونها «القبلى» فى ليبيا (والهارماتان فى غانا) ترفع درجة الحرارة فى مدينة تونس الساحلية الى مايقرب من الأربعين درجة مئوية، لكن فيما عدا أيام السيروكو فالجو بارد ممطر شتاء وحار جاف صيفا.. كذلك فان دولة تونس (وعاصمتها ايضا بنفس الأسم) تضم عدة مناطق مناخية ونباتية. وتقع مدينة تونس فى وسطها تقريبا على الساحل.. اما يسارها أو غربها فمنطقة ساحلية جبلية (مناخ بحر أبيض) غنية بالأمطار وبالغابات وباشجار الزيتون وتزداد الأمطار

كلما اتجهنا غربا تجاه جبال الاطلس الجزائرية.. أما إلى شرق وجنوب مدينة تونس فتقل الأمطار الشتوية تدريجيا ومعها الخضرة والغابات، وأن تكثر زراعة الموالح والزيتون والنخيل ثم تقل تدريجيا ومعها الخضرة والغابات ، إلى أن تلتقى بصحارى تونس، وصحارى ليبيا فى أقصى الجنوب الشرقى.. لكن سواحل تونس وماجاورها من أراض - بصفة عامة - خضراء يانعة وتمتد الخضرة لتصل إلى حافة الشاطىء وشواطىء تونس فى الجنوب والشرق رملية ناعمة شجعت على قيام حركة سياحية نشطة ومزدهرة عمادها السائحون من فرنسا والمانيا وايطاليا ونوادى «كلوب ميديترانية» الفرنسية .

والعمل فى سفارة صغيرة فى عاصمة صغيرة له طعم يخالف تماما العمل فى سفارة كبرى مثل سفارة واشنطن. فالدبلوماسى الصغير السن والحديث العهد بالمهنة له فرصة الظهور ومخالطة المجتمع أكثر كثيرا فى مدينة صغيرة عنها فى العواصم الكبرى - وكنت فى ذلك الحين سكرتيرا ثانيا ولم يتعد عمري ٣٢ سنة ، وكنت سأشغل منصب القنصل والمسئول عن الشئون الاقتصادية فى السفارة فى تونس .

وهكذا وصلنا - زوجتى وأنا - إلى تونس فى سبتمبر ١٩٥٦ بطريق البحر قادمين من نيويورك الى نابولى بايطاليا، ثم منها

بباخرة أخرى أصغر كثيرا إلى تونس على ظهر إحدى سفن شركة Tyrrancan نسبة الى اسم ذلك الجزء من البحر الذى يفصل مابين نابولى وتونس. والدخول الى ميناء تونس بطريق البحر يقتضى أولا عبور خليج تونس ثم ولوج بحيرة صغيرة مقفلة أوشبه مقفلة اسمها لا جوليت La goulette مياهها ضحلة قليلة الحركة تفوح منها رائحة الاعشاب البحرية والفضلات خاصة فى الصيف وتقطع السفن هذه البحيرة الضحلة عن طريق قناة عميقة شقت وسط البحيرة .

كان فى لقائنا على رصيف ميناء تونس بعض زملائى فى السفارة وعلى رأسهم مستشار السفارة والرجل الثانى بها (المرحوم السفير) يوسف الغمراوى. كان قد وصل تونس قبلنا بشهر منقولا من سفارتنا فى طرابلس ليبيا.. وكان هو وعائلته يرون فى مدينة تونس «باريس صغيرة» بمقارنتها بطرابلس كما كان يرى فى تونس الخضراء جنة يانعة بمقارنتها ايضا بصحارى ليبيا الممتدة المقفرة !

كانت سفارتنا قد افتتحت فى يوليو ١٩٥٦ كواحدة من السفارات الأجنبية الاثنتى عشرة [١] أى بمجرد استقلال تونس. وكانت مكاتب سفارتنا مازالت فى أحد فنادق وسط المدينة. وقد

---

(١) كان عدد السفارات سنة ١٩٥٦-١٩٥٧ اثنتى عشرة سفارة هى سفارات فرنسا - بريطانيا - امريكا - المانيا الغربية - ايطاليا - مصر - العراق - المغرب - ليبيا - اسبانيا - السودان والمملكة السعودية .

اقمنا فى نفس الفندق إلى حين عثورنا على السكن المناسب . وكان وسط مدينة تونس يتصف بما تتصف به مدن شمال افريقيا وقتئذ من وجود «حي عربى» أو القصبة ذات الشوارع أو الحوارى الضيقة - ولها نوع خاص من الرومانتيكية والجاذبية خاصة لنظافتها وقد ذكرتنى بفيلم كازابلانكا الشهير - وقد راعنى واعجبنى ان وجدت القصبة أو المدينة القديمة فى تونس تمتاز عن «مصر العتيقة» أو القاهرة الفاطمية بالنظافة التامة، وتبرز مدى اهتمام وعناية القائمين عليها بالمحافظة كاثر من الآثار التاريخية القيمة.. كان التوانسة قد ورثوا كل ذلك بالكاد من الفرنسيين. وفى قلب القصبة يوجد متحف تونس الشهير «الباردو» الذى يضم مجموعة رائعة من الموزايكو والفايانس تمثل صورا ومشاهد تعود الى عهد الرومان والعهود التالية على الحائط كما أن المدينة القديمة حافلة بمتاجر العاديات والسجاجيد التونسية ويسمونها «الزرابى» [1] من صوف الجمل أو الماعز زاهية الألوان، ومشهورة تاريخيا.. وان كانت أقرب إلى الكليم منها إلى السجاد العجمى أو التركي أو الباكستانى والهندى، ولكنها كليم أو «اكلمة» فاخرة حقا.. كذلك كانت وزارة الخارجية التونسية قد انتقت مقرا لها مبنى قديما تاريخيا فى المدينة القديمة.. وكان هذا سببا قويا للدبلوماسيين للتعرف على القصبة !

---

(١) كلمة عربية قديمة وردت فى القرآن .

أما الحى «الافرنجى» فكان يقيم به الفرنسيون وكبار التوانسة، ويمتد ليصل تونس بالضواحى الساحلية.. وكان الفارق كبيرا جدا مابين واشنطن وبقية مدن أمريكا وما بين مدينة تونس بطبيعة الحال. لكن هذا ما اخترناه لأنفسنا.. ولكل بلد صفاته وميزاته وأن اختلفت الموازين.. أما ضواحى مدينة تونس فكانت جميلة خلابة حقا وهى لتونس أشبه بحى الرمل لمدينة الاسكندرية وتمتد إلى يمين تونس الى مايسمى حلق الوادى وحمام الانف وما بعدها والى يسار تونس الى لاجوليت وسلامبو والمرسى وقرطاج واميلكار وسيدى بوسعيد وجمارت.. وكانت ضواحى تونس خضراء حقا يزيدها جمالا التلال الكثيرة الخضراء المحيطة بالضواحى تكسوها الأشجار وغابات الصنوبر أو الزيتون أو الموالح والنخيل أو غيرها من العشب الأخضر بسبب كثرة الأمطار فى الشتاء والربيع والخريف. وتطل هذه التلال ايضا على سلسلة متصلة من البلاجات (الشواطىء) الرملية العريضة. وقد بنى المستوطنون الفرنسيون ومن خالطهم من كبار التوانسة لانفسهم فيلات ومنازل حديثة ذات حدائق جميلة بامتداد الشواطىء، وكان يصل مدينة تونس بمنطقة «الرمل» الساحلية هذه خط مترو اطلقوا عليه الـ T.G.M أى تونس لاجوليت المرسى ..

وقد أثار جمال هذه التلال الخضراء المطلة على الشاطىء فى

نفسى ذكرى تسمية العرب لتونس بتونس الخضراء.. فانى اوافقهم على ماذهبوا اليه فقد كان منطقيا ومفهوما أن يطلق الفاتحون العرب الوافدون من الصحراء اسم «الخضراء» على هذه المناطق اليانعة التى طالعت اعينهم بعد أن اجتازوا صحارى مصر الغربية والصحراء الليبية الجرداء .. وكان هذا نفس احساس مستشار سفارتنا الوافد اليها من طرابلس !

وقد حققت حكومة بورقيبة نجاحا ملحوظا فى تشجيع الاستثمارات الألمانية والفرنسية فى صناعة السياحة والفنادق فى تونس اعتمادا على جمال الطبيعة والبلاجات، والاستقرار السياسى، مابين سنوات ٦٧-١٩٧٧ (١) مما قفز بالحركة السياحية فى تونس قفزات مدهشة سواء بالنسبة لعدد الفنادق على سواحل تونس الجميلة ومياهها الدافئة الرقراقة البلورية أو بالنسبة لعدد السياح الأجانب الذين بلغوا أكثر من مليون سائح سنويا (ربع سكان تونس) وتعنى هذه النسبة لمصر مايقارب من ١٣ مليون سائح سنويا! فى حين أن عدد السياح إلى مصر يتجاوز المليونين.. وكان عماد بورقيبة فى سياسته هذه التركيز على صورة تونس كصديقة للغرب (٢) ومحبة للسلام والأجانب.. ومما يذكر أن الزيتون والنخيل والموالح هى عماد الاقتصاد التونسى الأول.. إلى جانب السياحة .

---

(١) وهى السنوات التى صاحبت الكساد السياحى فى مصر بعد حرب سنة ١٩٦٧ .

(٢) "LA TUNESIE AMIE"

هذا وقد دعتنى وزارة الاقتصاد التونسية - باعتبارى المسئول عن المسائل الاقتصادية فى سفارتنا - مع نفر غير قليل من الدبلوماسيين الأجانب لزيارة أهم مراكز زراعة الزيتون وجمعه وتعليبه أو عصره واستخراج زيت الزيتون منه وذلك فى الجنوب التونسى.. وتستخدم تونس حاليا أساليب أكثر تحديثا عن الماضى فى هذه العملية نتيجة للخبرات الأجنبية التى اكتسبتها مما وصل بها إلى مركز الدولة الخامسة أو الرابعة بين دول البحر الأبيض فى تصدير الزيتون وزيوته بعد ايطاليا واسبانيا واليونان وتركيا ..

كذلك اشتركت فى رحلة أخرى تنظمها وزارة الاقتصاد التونسى للدبلوماسيين الأجانب لزيارة مصنع تعليب سمك التونة فى الشمال التونسى قرب العاصمة. وبرغم حداثة وطرافة هذه العملية فقد كان لابد من مشاهدة عملية تقطيع أوصال سمك التونة الضخم وتنظيفه.. وقد أثرت فى نفسى هذه العملية تأثيرا سيئا وامتنعت بل لم استطع رغم أنفى رؤية علبة تونة أو أكل التونة لمدة الشهور الستة التالية.. رغم حبى اصلا للتونة.. لكن يجدر بى أن اذكر للقارىء انى فى صدر شبابي كنت لا آكل اللحوم وأنفها الى سن السابعة عشرة تقريبا فلم اقرب اللحوم.. وان كنت اتناولها بحذر حاليا وبقدر ما، ومن ثم فان منظر اشلاء سمك التونة المبعثرة فى المصنع اعاد الى ذهنى عقدة الماضى من جديد ،

أما ما أحببته حقا فى تونس فكان ومازال البلح التونسى المجفف شديد الحلاوة حلو المذاق عظيم الفائدة والمسمى بدجلة [1] النور. وتصدر تونس منه كميات وافرة الى اوروبا خاصة ان صناعة تعليب دجلة النور اصبحت صناعة حديثة فاخرة مبهجة للعين وللمذاق ..

وأهل تونس خليط من اجناس البحر الأبيض المتوسط.. فقد استوطن تونس - بعد التوانسة الاصليين.. الفنيقيون واليونانيون والرومان والعرب والكريتليون (أهل كريت)، والاتراك والفرنسيون والايطاليون والمالطيون والصقليون وأهل سردينيا والأسبان.. لم يكونوا كلهم قوما غزاة، وانما نزح الكثيرون منهم إلى تونس - قبل استقلالها لسماحة التونسيين وكرمهم وحسن معشرهم ..

ومن ثم فالتونسيون اليوم حسنو الطلعة تميل بشرتهم الى اللون الأبيض الفاتح لدرجة تفوق جيرانهم الى اليسار (الجزائريين) وجيرانهم الى اليمين (الليبيين) وأهل تونس شعب مسالم محب للاجنبى، مضياف ولا يميلون الى العنف مما دعا الغزاة الأجانب تاريخا - سواء كانوا من العرب أو الأتراك أو الرومان - إلى أن يعقدوا مقارنة سريعة بين أهل تونس وأهل

---

(١) البلح فى تونس اسمه دجلة نسبة الى نهر دجلة فى العراق .

الجزائر وأهل المغرب فقيل على لسان الغزاة «المغرب أسد كاسر والجزائر محارب باسل، أما تونس فامرأة جميلة» .

والحق أن ماشهدناه من كرم وحسن ضيافة بعض كبريات العائلات التونسية بعد أن استقر بنا المقام فى تونس ليعزز تماما صورة تونس المضيافة وشعبها المضياف المحب للمصريين.. كذلك ما رأيناه من حسن وبهاء فضليات السيدات التونسيات أو زهرات المجتمع التونسى ليعزز تماما ايضا ذلك القول المأثور بأن تونس تمثلها امرأة جميلة ولن يدهشك ايها القارىء ان تعلم أن الشعب المثقف التونسى بصفة عامة ذكى مطلع ملم بمجريات الأمور فى العالم اجمع وفى العالم العربى بصفة خاصة والجميع يتكلم الفرنسية إلى جانب العربية.. أما المتعلمون فى تونس فيجيدون الحديث بالفرنسية إجادة تامة أما عامة الشعب فقَلّ أن تجد شابا أو شابة لاتتحدث بعض الفرنسية على الأقل بل إننا وجدنا أن بعض الفتيات البدويات الصغيرات كن يطلبن شيئا من المعونة أو الاحسان مستعملات بعض الكلمات الفرنسية !!

وهذه ايضا ظاهرة موجودة بالمثل بطبيعة الحال فى المغرب ايضا فكل من تونس أو المغرب عاشت تحت الاحتلال الفرنسى قرنا أو أقل من القرن، لكن تلك الظاهرة موجودة بشكل اقوى واظهر فى الجزائر حيث كان المستعمر الفرنسى ينظر الى الجزائر

على انها ليست ارضا اجنبية محتلة وانما جزء لا يتجزأ من الوطن الفرنسي !

والغريب في الأمر انه لما كنت في واشنطن كان امامي عرض السفير على كامل فهمي بمرافقته الى تونس كما كان هناك امامي احتمال آخر وهو أن انقل الى برن في سويسرا مع السفير محمد عبدالشافي اللبان.. ولم تكن وزارة الخارجية قد اختارت لي الواحدة أو الأخرى بعد كما لم يكن أحد من زملائي في واشنطن يعلم شيئا عن هذين الاحتمالين.. ومع ذلك فإن أحد زملائي وهو (السفير) حسن سالم وكان قد وهبه الله شفافية غير عادية في قراءة فنجان القهوة نظر مرة في فنجاني وانبأني بأنه أمامي طريقان احدهما جبلي والآخر ساحلي على حافة البحر لكني ساستقر قرب البحر وليس في وسط الجبال وسيكون بجواري شخص عجوز ذو لحية بيضاء طويلة !!

وفعلا صدقت النبوءة وانتقلنا إلى تونس وسكنت على البحر في قرطاجنة قريبا جدا بل على مرمى حجر من قصر «الباي» ذي اللحية البيضاء الطويلة المشتعلة !! كنت أرقب الحرس الملكي الذي يحرس سراي الباي في قرطاج متعجبا فرداؤهم الأزرق ولباس رأسهم الأحمر الفاتح (شيشية صوف) كان يذكرني بجنود محمد على الكبير .. وكذلك قصر الباي في قرطاج كان هو الآخر

استمرارا للتاريخ القديم .. وعلى رأس هذا التاريخ شديد القدم كان يجلس الباى نفسه - قطعة من التاريخ القديم لم يعد لها مكانها فى مجتمع تونس الحديث .. خاصة بعد الاستقلال فقد ظلت تونس حوالى مائة وعشرين عاما تحت حكم الفرنسيين الذين عزلوا الشعب التونسى تماما عن الباى ، وعزلوا الباى تماما عن شعبه التونسى حتى فقد التوانسة الاحساس بفائدة الباى بل بوجوده .. ولم يشارك الباى وعائلته فى نضال تونس من أجل الاستقلال بل ظل مستسلما حبيس قصره .. لذلك كان طبيعيا تماما فى نظر التوانسة أن يزول نظام الملكية بزوال الاستعمار الفرنسى فقد ارتبط الاثنان تماما فى نظر التوانسة الذين تطلعوا بعد استقلالهم إلى تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية شـــاملة ..

كان الرئيس (السابق) بورقيبة أول رئيس لجمهورية تونس بعد استقلالها .. لكن أول رئيس لدولة تونس المستقلة كان «الباى» (الملك) السابق .. وكان آخر سلالة العائلة المالكة التونسية من أصل تركى وكان يلقب بالباى مثلما كان الحال فى مصر تحت رئاسة المماليك ومنهم على بك الكبير ومراد بك الخ ، وكان باى تونس عجوزا بلغ الثمانين من العمر مهيب الطلعة له ذقن طويلة غلبها اللون الأبيض الناصع ، وبعد استقلال تونس ظل الباى على

كرسى العرش عدة شهور إلى أن خلعه بورقيبة وأعلن انتهاء الملكية وبدء الجمهورية واختاره الشعب رئيسا للجمهورية ، ثم رئيسا لها لمدى الحياة إلى أن خلعه الرئيس الحالى على زين العابدين سنة ١٩٨٧ ..

والانصاف يدعونى إلى تذكرة القارىء بأن الشعب التونسى خاض معارك كثيرة ، ضد الغزاة الأجانب سواء كانوا من الرومان أو الاتراك أو الفرنسين . ولم يتقبل الشعب التونسى الاستعمار الفرنسى دون حركة غليان دائبة فقد قامت جمعيات سرية إرهابية كثيرة منها «اليد السوداء» اغتالت كثيرا من المستعمرين الفرنسيين وقضت مضاجعهم ، كذلك قاد الرئيس (السابق) بورقيبة والزعيم صالح بن يوسف وغيرهما حركة المقاومة المتمثلة فى الحزب الحر الدستورى والتى انتهت بالغاء الحماية الفرنسية واعلان استقلال تونس سنة ١٩٥٦ - كذلك فالعدل يقتضى أن نذكر بأن طبوغرافية تونس وخلوها من الجبال والهضاب المرتفعة (بعكس المغرب والجزائر التى بها سلسلة جبال الأطلس المرتفعة الوعرة) وبعكس ليبيا التى قامت بها حركة المقاومة الباسلة ضد الاستعمار الإيطالى فى الجبل الأخضر ، كذلك حجم الشعب التونسى الذى لم يزد فى أى وقت من أوقات الاحتلال على ثلاثة ملايين شخص فقط ، جعلته فى غير مقدرة على شن حملات مقاومة عسكرية

واسعة النطاق ضد المستعمر الأجنبى مثلما حدث فى المغرب أو الجزائر أو حتى فى الجبل الأخضر ، ليبيا.

وكان الرئيس بورقيبة يطيب له أن يقص القصة التالية فى مجالسه الخاصة .. عندما اشتدت وطأة الحركة الوطنية واشتد بحث السلطات الفرنسية الحاكمة عن بورقيبة لإعادة اعتقاله وسجنه هرب بورقيبة على الأقدام عبر ليبيا إلى مصر حتى وصل إلى مركز حدود السلوم منهكا تعبا لكنه كان يتشوق إلى احتفاء مصر ببطل معركة استقلال تونس .. واستقبله ضابط الحدود أو الجوازات المصرى وأعلن له بورقيبة فرحا بوصوله إلى نهاية المطاف عن شخصيته قائلا «أنا بورقيبة» لكن ضابط الجوازات المصرى لم يكن قد سمع أبدا عن «بورقيبة» هذا ، وتساءل من هو «أبو رقيبة» ؟ «أبو رقيبة مين » ؟

وأسقط فى يد بورقيبة ؟! أبعد كل هذا الكفاح جيلا بأكمله وفراره إلى مصر عبدالناصر ! مصر مشعل الثورة ضد الاحتلال ، مصر المضيافة التى جعلت من نفسها قبلة المكافحين من أجل الاستقلال ، لم يسمع ضابط الجوازات المصرى بمجرد اسم «بورقيبة» ! زعيم حركة الاستقلال فى تونس الشقيقة لمصر ومضى بورقيبة يشرح له من هو «أبو رقيبة» وما قدره ومنزلته فى تونس ، وتوقعه بشدة لترحيب السلطات المصرية به .. لم يكن أمام ضابط

الجوازات المصرى سوى أن يتصل تليفونيا برئاسته فى القاهرة مستفسرا منهم عن «أبو رقيبة» هذا ! وفعلا جاءه الامر بحسن استقباله وبتسفيره فى سيارة سلاح الحدود إلى القاهرة لكن كان يتعين على بورقيبة أن يبيت ليلته فى مكتب ضابط الجوازات إلى أن تصل السيارة التى ستقله إلى القاهرة وامضى بورقيبة ليلته الأولى فى مصر راقداً فوق مكتب الضابط فلم يكن هناك سرير أو مكان آخر يبيت فيه !! وكان بورقيبة يقص قصته هذه ضاحكا متندرا بنوعية اللقاء الذى ناله فى مصر أول يوم وصوله.. لكن مصر اكرمت وفادته ومنحته معاشا محترما ثابتا - ١٠٠ جنيه مصرى وكانت كثيرة فى ذلك الوقت ظل يتقاضاه الى أن قرر العودة الى تونس لاستئناف الكفاح وإلى أن صار أول رئيس لوزارة تونس فى عهد الاستقلال .

ولا يمكن استكمال الحديث عن بورقيبة دون أن اسجل للرجل انه حفظ الجميل لمصر فبعد افتتاح سفارتنا فى تونس وتقديم السفير على كامل فهمى لأوراق اعتماده لم يكن بورقيبة يترك مناسبة رسمية أو غير رسمية الا وأظهر فيها حبه وتقديره لمصر فى شخص سفيرها على كامل فهمى.. ورغم أن اتفاقية الاستقلال التى وقعتها تونس مع فرنسا نصت على أن سفير فرنسا فى تونس يتولى منصب عميد السلك الدبلوماسى الاجنبى فى تونس ،

ورغم ان ترتيب سفير مصر فى أسبقية تقديم أوراق الاعتماد وضعه فى المركز الرابع أو الخامس إلا أن الرئيس بورقيبة كان يدعوه أمام الجميع فى بعض المناسبات للجلوس الى يمينه أو إلى يساره قاصدا بذلك تكريمه وتكريم مصر أمام جميع الحاضرين .

أما شعور الشعب التونسى نحو مصر سنة ١٩٥٦ فكان لا يقل حماسا واعجابا عما كان يظهره الرئيس بورقيبة. فعندما كان المرحوم السفير على كامل فهمى يذهب بسيارته الرسمية التى يرفرف فوقها علم مصر أيام الجمعة لتأدية الصلاة كانت جموع الشعب التونسى تتسابق للمس العلم المصرى ولمس سفير مصر أو محاولة تقبيل يده أو حمله على الاعناق وهو ماكان يرفضه السفير طبعا. كل ذلك وسط زغاريد السيدات وبنات البلد.. ولما كثرت مظاهر الحفاوة بالسفير وكادت تبلغ حد المظاهرات الاسبوعية الحت السلطات التونسية الى سفيرنا بأن يقلل من ظهوره فى صلاة الجمعة بصفته الرسمية وأن يذهب للصلاة متخفيا أو دون مظاهر رسمية ..

إلا أن مظاهر الحب والتقدير لمصر استمرت فى شكل التفاف مشايخ جامعة الزيتونة وجامعة القيروان (وهما أعلى سلطتين دينيتين فى تونس) ورجال الثقافة العربية والصحافة العربية حول سفيرنا ومجالسه . ومن الواضح أن ذلك الحب والتقدير من جانب

ذلك الشطر من التوانسة الذى درس اللغة العربية والفقه الاسلامى فى الزيتونة والقيروان كان طبيعيا، لكن التقدير لمصر لم يكن مقصورا عليهم بل تعداهم الى جموع الشعب التونسى حتى الذين يدرسون فى المدارس والجامعات الفرنسية.. وحتى بين من يجهل القراءة والكتابة ..

وإن انسى لا أنسى ذات مرة وكنا زوجتى وأنا جالسين فى شرفة منزلى المطلة على البحر فى قرطاج من ضواحى مدينة تونس ولم يكن المارة فى الطريق أمام المنزل يرونا فى جلستنا هذه، أن سمعنا فريقا من شباب تونس المرتدى الزى الوطنى يمر أمام المنزل وقال احدهم «هذه كهــربة قنصل عبد الناصر ! يعايشه» (١) .

واذكر جيدا انه لما حدث العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر ٥٦ وكانت سفارتنا فى تونس لم تكد تفتح فى يوليو ١٩٥٦ تدفقت جموع الشباب التونسى بالمئات على مقر سفارتنا للتطوع للخدمة العسكرية فى مصر للمشاركة فى صد العدوان: وكنت قنصل مصر فى تونس وكان واجبى يقتضى بأن اسجل اسماء المتطوعين وعناوينهم، وشكرهم، ووعدهم بالاتصال بهم عندما تقرر سلطاتنا

---

(١) كهربة كلمة تونسية دارجة تطلق على السيارة. أما يعايشه فمعناها يعيش! ويقصدون طبعا يعيش عبد الناصر وليس قنصله ..

فى مصر الاستعانة بالمتطوعين الأجانب. وهذا لم يحدث بطبيعة الحال.. غير أن حماسهم وغيرتهم كانت حقيقية وكانت جديرة بالتسجيل. أما خلال موسم الحج فكان واجبى أن أمنح تأشيرات الدخول الى مصر للآلاف المؤلفة من التوانسة الذين لم يكونوا يريدون مجرد المرور بمصر فى طريقهم الى الحج بل كانوا يلحون فى طلب تأشيرات تسمح لهم بالاقامة شهرا أو اكثر فى طريق العودة من الحج ايضا ...

ومازلت اذكر ذلك «الجربى» Djerbi البقال القريب من دارى فى قارتاج. كان يتزين بالزى التونسى الوطنى أى شيشية (١) حمراء فوق الرأس، ونوع من العباءة الصوف (المغزول محليا من صوف الماعز أو الأبل الكثيرة المتوافرة البنية اللون أو السوداء اللون فوق صديرية وسروال ضيق متوسط الطول وبلغة أو حذاء وطنى.. وكلما ذهبت إليه لشراء امر من الأمور كان يردد على مسامعى أنه يحب شيئين فى الدنيا هما بهذا الترتيب : عبد الناصر وفريد الاطرش..

والواضح أن الشعب التونسى فى تلك السنوات ٥٦ - ١٩٥٧

---

(١) الشيشية مثل الطربوش الاحمر لكنها غير مقواة بل مثل الطاقية الصوف الحمراء اما زى السيدة التونسية الوطنى فكان السفسارى (عباءه بيضاء رحبة طويلة) ويلبس أو يلف الجسم فوق الرداء ويغطى الرأس والوجه احيانا حسب الحاجة ويصل الى اسفل الساقين .

كان شديد الإعجاب بأغانى فريد الأطرش لكن إعجابه بأم كلثوم أيضا كان عظيم الشأن .. وكذا بألحان عبدالوهاب وبالأفلام المصرية .. ولا أنسى إعجابه وتقديره لعبدالناصر !

وكانت سيدات المجتمع فى تونس تدعو حرم السفير على كامل فهمى ومعهن بعض سيدات السفارة المصرية ومنهن زوجتى إلى حفلات شاى أو قهوة نسائية صباحية (مقصورة على النساء) .. وفى تلك الحفلات كانت أغانى مصر : الأطرش ، وأم كلثوم ، وعبدالوهاب هى التى تحيى الحفلة .. لكن المهم فى الأمر أن السيدات التونسيات كن يتبارين فى «الشطح» (أى الرقص المنفرد) على الأنغام المصرية .. وكن يبدين أشد الدهشة عندما يعلمن أن السيدات المصريات يأبين الرقص حتى على الأنغام المصرية وليس من عادتهن اداؤه بالمثل . وليس معنى ذلك أن الحفلات كلها كانت مقصورة على النساء وحدهن والرجال وحدهم. بل إن المجتمع التونسى الراقى كان يمارس الاختلاط بحضور الأزواج مع الزوجات حفلات العشاء أو الغداء أو حفلات السمر أيضا .. ولا ننسى فضل عدد من كبريات العائلات التونسية فى دعوتنا إلى العشاء على موائد فاخرة وعامرة فى منازل توحى بالذوق الرفيع وحسن الضيافة .

والمطبخ التونسى غنى ومتنوع ولا يختلف كثيرا عن مثيله المصرى سوى فى تفوق المطبخ التونسى فى قسم الطواجن

ويطلقون عليها «طاجين» وهى عادة طواجن من الفخار الذى تشتهر تونس بصنعه ويستخدمون جميع أنواع الخضراوات أو اللحوم أو الدواجن فى هذه الطواجن «المسبكة» ويشتهر المطبخ التونسى بأنواع البوريك «ويسمونه البريك» المحشوة باللحم المفروم أو قطع المخ ولكن بصفة خاصة بالبيض غير تام التماسك . ويتقن التونسى أكل البريك ذى البيضة «السائلة» دون أن يترك نقطة واحدة منها تقع من البريك ! وبالمناسبة فان هذا اللون اسمه فى تونس البريك بالعضم لأن العضم عندهم هو البيض ومن العيب لديهم ذكر كلمة بيض فى المجالس المهذبة لأن معناها عندهم مقصور على المعنى البيولوجى أو التشريحى بالنسبة للذكور .. والشىء بالشىء يذكر فيجب ايضا تلافى ذكر كلمة طحينة فى مجالس التوانسة فمعناها لديهم ينصرف إلى سلوك القوادين وأمثالهم .. والعياذ بالله .

هذا ولما كانت قد قامت فى تونس صناعة ناجحة لصيد التونة وتعليبها فقد أصبحت التونة فى تونس اشبه شىء بالفول المدمس أو الطعمية فى مصر فالعامل والتاجر والطالب يتناول غداء سريعا عادة مكونا من سندوتش مستدير (عيش فينو مستدير) متوسط الحجم أو كبير الحجم وبداخله شرائح سمك التونة المعلب فى تونس مختلطا مع عجينة «الهريسة» المعبأة فى تونس ايضا أى

عجينة مصنوعة من مسحوق الفلفل الأحمر الذى يزرع بكثرة فى تونس ومع بعض زيت الزيتون الذى تنتجه تونس بكثرة ايضا.. وسندوتش التونة بالهريسة اذن هو طبق الطعمية التونسى وهو يماثل الى حد كبير شكلا وتركيبا سندوتش الـ Pan Bagnat الذى تشتهر به منطقة Nice وجنوب فرنسا بصفة عامة.. وربما اصلهما سندوتش التونة بالهريسة التونسي.. وبمناسبة الحديث عن التونة فان المطبخ التونسى يشتهر ايضا بالأسماك والجمبرى واللانجوست وغيرها من طيبات البحر، الى جانب طبق الكوسكوسى Couscous الشهير فى كل شمال افريقيا طبعا.. ويؤكل الكوسكوسى وفوقه ثريد من الخضراوات ومن اللحوم أو الأسماك أو الدجاج.. أو كنوع من الحلوى وفوقه بعض اللبن الحليب والبلح التونسى الشهير الفاخر والملقب بدجلة النور وهو بلح جاف يحتوى على نسبة عالية من السكر. والبلح فى تونس يسمى دجلة نسبة إلى اصله العراقي ولا شك كما أسلفنا ..

وتحضرنى ايضا، بمناسبة اختلاف استعمال الشعوب الناطقة بالضاد لبعض الكلمات العربية، تحضرنى واقعة طريفة.. فعندما كنت ابحث عن سكن دائم لى اخذت سيارتى بصحبة زوجتى ورحنا نبحث عن دار للايجار، فى حى قارتاج جمرت السكنى الراقى. وفى سنة ١٩٥٦ لم تكن هناك فى تونس وسائل اكثر

تنظيما وأكثر فعالية فى البحث عن السكن أكثر من التردد على الأحياء المناسبة وسؤال البقالين والبوابين وامثالهم ..

فلما كان يعجبنى حى معين أو بقعة معينة كنت أوقف سيارتى أمام واحد من هؤلاء وأسألهم «بالمصرية الدارجة طبعا «فى بيت للايجار؟ » .. وكان هذا السؤال يثير حيرة لدى السامعين التوانسة كما تبين لى بعد عدة استفسارات فكلمة «بيت» فى تونس انما تعنى الحجرة الواحدة. ولايستعملون كلمة للايجار وسرعان ماتعلمت منهم بحكم التكرار انه كان يجب على أن اتساءل «فم دار للكراة» ؟! مع تشديد النطق على الألف الأخيرة فى كلمة الكرا (الكراء بالعربية الفصحى تعنى الايجار كما هو معلوم، اما كلمة فم فما هى الا تحريف للكلمة العربية الفصحى «ثم أوثمة أى ثمة دار للكراء ؟) .

والواقع أن اللهجة التونسية الدارجة غنية بالكلمات العربية القديمة وينطقونها أقرب إلى العربية الفصحى .

فمثلا «تونس باهية ياسر» بمعنى أن تونس جميلة جدا ووسيلة التونسى للاستفسار عن صحة صديقه هى السؤال.. كيف انك .. لابأس ؟! والزرابى وتعنى السجاجيد، والزرابى كلمة عربية قديمة وردت فى القرآن الكريم .. وينطقونها بلهجة مفهومة واضحة

تختلف كثيرا عن اللهجتين المغربية والجزائرية ولا تكاد تخالف كثيرا اللهجة الليبية فتونس تخلو من عنصر القبيلة أو البربر المنتشرة فى الجزائر والمغرب .

والواقع ان برد تونس فى الشتاء أى فى يناير وفبراير ١٩٥٧ قد اخذنا على غرة ولم نكن نتوقعه.. خاصة بعد اعتيادنا على البيوت ذات التدفئة المركزية العالية فى واشنطن فكنا قد استأجرنا فيلا جميلة جدا بحديقة واسعة تطل على البلاج والشاطىء فى منطقة جمرت السياحية لكنها لم تكن مزودة بالتدفئة المركزية وانما بمدفآت تقوم على حرق الفحم أو الأخشاب وأمضينا عدة ليال فى ديسمبر نتدثر بأربعة من البطاطين لم تفلح فى درء البرد والرطوبة عنا وكان صاحب الدار فرنسى اسمه مسيو Lecari وعندما شكونا اليه حالنا أحلنا من العقد وسمح لنا بفسخه طواعية وبنفس كريمة.. وعدنا نبحث عن دار أخرى للكرا ووجدنا المطلوب فى حى قارطاج قرب سراى الباى وتطل على الشاطىء ايضا أمام منطقة الآثار الرومانية القديمة وكانت هذه الدار ملكا للسيد أحمد القروى سكرتير عام مجلس الوزراء.. بيد أن هذه الدار كانت مزودة بالتدفئة المركزية وبحديقة غناء ايضـــــا.. وامضينــا فيها بقيــة

المدة التى عشناها فى تونس الى أن نقلنا منها أواخر عام ١٩٥٧.

ويوم تم عزل الباى وإلغاء الملكية واعلان الجمهورية كنت فى شرفة منزلى عندما اخذوا الباى العجوز فى سيارته لآخر مرة الى منفاه ومنه الي مثواه الأخير.. وقد كنت من الدبلوماسيين القلائل الذين شاهدوا تونس فى عهدين مختلفين وفى فترة الانتقال من الملكية الى الجمهورية.. وقد ذهب الباى غير مأسوف عليه ولم يستثر تقدمه فى السن الشفقة أو العطف سوى انه حماه من القتل أو التعذيب ..

كان بورقيبة رمز استقلال تونس، رمز كفاحها الثورى حتى ظفرت بالاستقلال.. وكان بورقيبة اريبا ذكيا وسياسيا بعيد النظر ادرك ببصيرته انه لابد من مهادنة الفرنسيين ومداراتهم بحسن السياسة والدهاء والدبلوماسية من أجل أن يظفر باستقلال تونس.. وكان شغل الفرنسيين الشاغل حرب الجزائر وكان همهم الأول وأد ثورة الجزائر مع استعمال كل أساليب البطش والتنكيل فكانوا يعتبرونها جزءا من فرنسا الأم.. وكانوا يخشون أثر اعترافهم باستقلال تونس على زيادة اشتعال ثورة الجزائر، كما كان العسكريون الفرنسيون يؤكدون حاجتهم الى قواعدهم فى تونس لمساعدتهم فى اقفال حدود الجزائر مع تونس ومن ثم أهمية عدم تخلي فرنسا عن قاعدتها البحرية والعسكرية فى ميناء بنزرت

الشهيرة في تونس قرب حدود الجزائر. ومن ثم كانوا لايوافقون على نيل تونس كل استقلالها كاملا غير منقوص دفعة واحدة سنة ٥٦ وإنما على درجات. ولما كان بورقيبة قد أدرك استحالة قيام ثورة عسكرية ناجحة في تونس على غرار ثورة الجزائر وفي نفس توقيتها (تونس تختلف عن الجزائر طبوغارفية وحجما واستعدادا). فقد اهتدى بورقيبة الى مأأسماه دبلوماسية الخرشوفة La Diplomacie de l ártichout حيث إن المرء يأكل ثمرة الخرشوف بنزع أوراقها ورقة ورقة وغمسها في صلصة الزيت بالخل والليمون قبل أن يصل الى مكافأته المجزية في النهاية وهي قلب الخرشوفة أي الاستقلال التام.. ومن هنا توصل بورقيبة إلى الاتفاق مع الفرنسيين على نيل استقلال تونس على دفعات. فظلت فرنسا حتى بعد اعلان استقلال تونس تحتفظ بقاعدتها في بنزرت وقواعد أخرى على حدود الجزائر.. وكان الوضع مقبولا في البداية لكن سرعان ماوجدت تونس نفسها بين نارين، نار الفرنسيين من ناحية، والمد الثورى الاشتراكي من ناحية أخرى ..

فبعد حدوث وفشل العدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر سنة ١٩٥٦ فإن موجة الوطنية العربية العارمة التي صاحبت انسحاب قوات العدوان عن مصر، وزيادة المد الاشتراكي الثورى العربي في مصر وعبر ليبيا حتى وصل وتجاوز حدود تونس، ثم زيادة

مساعدات مصر لثورة الجزائر وبالتالى زيادة تأججها مع ازدياد أعمال البطش والكبت الفرنسية ضد الجزائريين، كل ذلك كان له صدى وردود فعله داخل تونس ذاتها ومابين طبقات سياسييها وحكامها.. وقد اختلف عدد منهم مع بورقيبة.. ومنهم صالح بن يوسف إلى جانب اليسار التونسى حسن التنظيم وحسن الاعداد.. فإلى جانب بورقيبة والحزب الحر الدستورى كان هناك اليساريون التوانسة الذين درسوا فى فرنسا وتأثروا بالماركسية أو الاشتراكية أو على الأقل بالحركة النقابية الفرنسية اليسارية الميول.. وكان اليسار التونسى بصفة عامة لا يرضى عن سياسة الخرشوفة ولا عن مظاهر استئثار الحبيب بورقيبة بالسلطة وطريقة اتخاذه للقرارات منفردا .

وكان على رأس المعارضين صالح بن يوسف زميل بورقيبة فى الكفاح من أجل الاستقلال. ومالبث صالح بن يوسف ان فر خارج تونس خوفا من بطش بورقيبة واحتضنه الرئيس عبد الناصر فقد رأى فيه امله فى تحدى الفرنسيين وطردهم من كل تونس والجزائر وربما فى نشر ألوية الاشتراكية والوحدة العربية فى شمال افريقيا.. وكانت هذه فترة زيادة نشاط اجهزة المخابرات المصرية ليس فى شمال أفريقيا وحسب وإنما فى لبنان وغيره من الأقطار العربية مما أدى إلى نزول القوات الأمريكية فى لبنان سنة ٥٨ كما

يذكر القارئ. ومن جهة أخرى كان بورقيبة يقع تحت ضغط الاحتلال الفرنسى الجاثم قرب مدينة تونس العاصمة نفسها وفى بنزرت وعلى طول حدود تونس والجزائر.. وإلى جانب الفرنسيين كانت قوات جبهة التحرير الجزائرية نفسها قوة لا يستهان بها وذات بأس وذراع طويلة داخل تونس نفسها.. وكان بورقيبة يخشى بأسهم إن استجاب إلى الفرنسيين فى طلبهم احكام اقفال الحدود التونسية الجزائرية لمنع وصول الامدادات العسكرية الى الجزائريين من مصر عبر ليبيا والجنوب التونسى ومن هنا حدثت عدة تحرشات ومواجهات ما بين القوات الفرنسية والتونسية على حدود الجزائر خسر فيها التونسيون عشرات القتلى صرعى غضب القوات الفرنسية وتصميمها. وكان على رأس الشهداء التونسيين أحد وكلاء وزراء الخارجية التونسية وهو المرحوم خميس الحجرى الذى أوفده بورقيبة الى الحدود ذات مرة ليحاول تهدئة الفرنسيين، لكن دون جدوى..

وكان نشاط السفارة المصرية فى ليبيا فى ذلك الحين يعكس رأى رجال المخابرات المصرية بأن تونس وشعبها متلهفان إلى استقبال وتقبل الثورة والاشتراكية العربية، وكانت سفارتنا فى طرابلس تزود المدرسين المصريين العاملين فى ليبيا بنشرات وكتيبات تشرح وتدعو لتلك الفلسفة الثورية.. وكان الكثيرون منهم

شغوفين بقضاء اجازاتهم الدراسية فى تونس حاملين معهم تلك المطبوعات. ومن هنا كثر احتجاز المدرسين المصريين فى مراكز الحدود التونسية لتفتيشهم.. ومصادرة مايحملون من دعايات. وكثر احتجاج السلطات التونسية إلى سفيرنا فى تونس على هذا النشاط الذى اعتبرته معاديا لنظام بورقيبة ..

أما على كامل فهمى سفيرنا فى تونس فكانت رؤيته للاوضاع السارية فى تونس أكثر واقعية وأكثر صدقا وشفافية وقد اختلف رأيه كثيرا مع رأى أجهزة مخابراتنا من حيث تقديرها لمدى فرص نجاح محاولات صالح بن يوسف لتولى مقعد الرئاسة فى تونس وكان يقدر شعبية بورقيبة ومدى قدراته على ضمان استقرار حكمه التقدير الصحيح.. لكن ذهبت محاولات سفيرنا ادراج الرياح واستمرت مظاهر تغلب وجهات نظر المخابرات المصرية الى أن طلب بورقيبة رسميا إغلاق السفارة المصرية فى تونس وقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر لما اسماه بنشاط مصر المعادى فى تونس وكان ذلك سنة ١٩٥٨ .

كنت أراقب هذه التطورات أواخر ايامى فى تونس عام ١٩٥٧ فقد نقلت منها فى نوفمبر سنة ١٩٥٧ وكنت اسأل اصدقائى التوانسة فى كثير من الحذر والدبلوماسية عن رأيهم فى الخلاف مابين بورقيبة وصالح بن يوسف أو ما بين مدرستى المهادنة

والتدرج ومدرسة المواجهة الثورية الاشتراكية الفورية.. وقد عبرت «ست حلومه» وهى سيدة تونسية فقيرة غير متعلمة كانت تعمل طاهية فى منزلى، عبرت أجمل تعبير وباختصار شديد عن رأى سواد الشعب التونسى حين اجابتنى «لا يهمنى يابنى الفارق بين بورقيبة أو غيره إن مايهمنى هو أن يحكمنا شخص يضمن لى ولأولادى لقمة العيش.. وبورقيبة يعنى حاليا بهذا الأمر... أما إذا قصر فى ذلك فبالسيف !!» .

وقد اقفلت السفارة المصرية فى تونس مع قطع العلاقات سنة ١٩٥٨ وظلت العلاقات مقطوعة الى نهاية الستينات. أما بورقيبة فظل يحكم تونس من سنة ٥٦ على مدى ثلاثين سنة أخرى. بل لقد جدد الشعب له البيعة مرات وانتخبه رئيسا للجمهورية التونسية مدى الحياة. وتوالى ثلاثة من أعضاء الحزب الحر الدستورى رئاسة الوزارة فى ظل رئاسة بورقيبة للجهورية وكان بورقيبة يحسن تقليم اظافرهم أولا بأول مع الاسراع فى استبعاد كل رئيس وزارة تزداد شعبيته أولا بأول مثال ذلك الباهى الادغم والهادى نويرة وهكذا ...

كان بورقيبة شخصية فريدة حقا.. كان شجاعا جريئا وصريحا فى اعلان رأيه بغض النظر عن تـأثيره على سامعيه. كان يدرك فائدة مواجهة الشعب التونسى بالحقائق أولا بأول ويجيد

استعمال أساليب الاعلام الحديثة فى التقريب مابين الحاكم والمحكوم. كان يوجه احاديث اسبوعية الى الشعب التونسى عبر الاذاعة.. يحادثهم فيها باللهجة التونسية الدارجة على مدى ساعتين يشرح لهم أهم مشاكل الساعة ويفسر لهم دواعى وأسباب سياساته.. لم يكن هناك سياسى تونسى آخر يمكنه أن يجارى بورقيبة فى هذا المضمار. وهذا سر من اسرار بقائه على مقعد الرئاسة أكثر من ثلاثين عاما بعد استقلال تونس ..

ومع ذلك فقد اتخذ بورقيبة سياسات وأعلن عن مواقف لم تكن كلها لتنال موافقة الشعب التونسى برمته، وان كانت تنال رضاء جانب منه دون الجانب الآخر.. ومن ذلك اعلانه فى إحدى امسياته الاذاعية الشهيرة، وبعد تفاقم الخلاف بينه وبين مصر عبد الناصر، «أن العرب جرب» وأن البعد عنهم غنيمة.. وإعلانه فى أواسط الستينات بأن ماتنادى به بعض الدول العربية من القضاء على اسرائيل واستمرار الحرب معها ورفض الحوار والسلام وهم باطل وأن الواقعية تقضى بالوصول الى اتفاق واقعى للسلام معها فى أقرب وقت.. وبمعنى آخر سبق بورقيبة الرئيس السادات بحوالى عشرين سنة كاملة ويتفق موقفه فى هذه النقطة مع سياسة مصر الحالية ..

ومن مظاهر شخصية بورقيبة ايضا اقراره لقوانين وتشريعات تمنع الطلاق إلا أمام القاضى وذلك منعا لتسرع بعض الأزواج فى اتخاذ قرار الطلاق.. وتمنع تعدد الزوجات أيضا إلا فى ظروف خاصة ضيقة احاطها بالضمانات القانونية التى تمنع العبث واللهو فى هذا المضمار.. ومع ذلك فقد طلق بورقيبة زوجته الفرنسية شريكته فى الكفاح وأم ولده الحبيب بورقيبة الابن، من أجل أن يتزوج من سيدة تونسية كانت زوجة لأحد سفراء تونس فى الماضى ..

وقد حاول بورقيبة ادخال نهضة عمرانية وثقافية حديثة. افلح فى جذب الاستثمارات الأجنبية فى ميادين الصناعة والسياحة والزراعة وتغير وجه النشاط السياحى فى تونس تغيراً شاملا.. كما أعطى دفعة قوية للتعليم فى تونس بفرعيه العربى الاسلامى والفرنسى الغربى الحديث.. لكنه لم يستطع اقناع الشعب التونسى - مثلما اراد بورقيبة بالكف عن الصيام خلال شهر رمضان بدعوى أن الصيام لا يتفق مع متطلبات الحياة الحديثة وكفاحها. كذلك نجح بورقيبة فى جذب مقر جامعة الدول العربية المؤقت إلى تونس بعد قرار الجامعة بتجميد عضوية مصر. وظل المقر المؤقت فى تونس (حتى سنة ١٩٩٠) .

كما كان منصب أمين عام الجامعة العربية ظل يحتله الشاذلى

القليبى أحد وزراء تونس السابقين ..

ما بين ١٩٧٩ و ١٩٩٠ لكن .. السلطة تفسد الحكام.. والسلطة المطلقة تفسدهم أكثر وأكثر .

"Power Corrupts.. and absolute power corrupts

absolutely " (١) وهكذا ظل بورقيبة يستجمع مظاهر السلطة المطلقة بين يديه على مدى ثلاثين عاما حتى كبرت مظاهر تحكم واستبداد وتخبط الشيخوخة .. وهكذا تراكم الفساد واستشرى داخل اجهزة الحكم الرئاسية وحول شخصية الرئيس. وقبل أن يتمكن بورقيبة من استبعاد الثالث من رؤساء الوزارات الذين اختارهم للعمل تحت رئاسته وهو السيد / زين العابدين بن على وزير الداخلية السابق، تمكن الآخير من تنحية بورقيبة عن الرئاسة وتولى هو الرئاسة بعد أن نال بيعة الشعب دستوريا.. ومع ذلك فان الشعب التونسى المسالم طيب القلب أتم ثورته الثانية، ودخل عهد الجمهورية الثانية فى تونس دون عنف أو إراقة الدم.. ومازال بورقيبة الذى بلغ من العمر ٩٠ عاما يعيش فى موناستير مسقط رأسه فى كنف ورعاية الجمهورية التونسية الثانية.. فقد كان ومازال بورقيبة رغم الأخطاء التى تراكمت فى فترات حكمه

---

(١) مقولة لأحد فلاسفة الانجليز وهو لورد أكتون Lord Acton

الأخيرة يستمتع بما بقى له من رصيد كزعيم تونس الأول: «المجاهد الأكبر» كما اسماه الشعب التونسى. وهذا جزء من التاريخ ثابت ولاينسى.. والشعوب الاصيلة لا تنسى لكنها تغفر احيانا..

نقلت من تونس للعمل فى ديوان وزارة الخارجية فى نوفمبر ١٩٥٧. وقد قررنا زوجتى وأنا العودة إلى القاهرة بطريق البر أى بسيارتنا عبر الجنوب التونسى ثم عبرنا ليبيا إلى السلوم والقاهرة.. وهى مسافة ٣٢٠٠ كيلو متر وقدرنا أن تكون الرحلة شاقة عبر صحارى جنوب تونس والصحراء الليبية الكبرى ثم صحراء مصر الغربية. لكن كنا مضطرين لهذه التجربة الصعبة فان الوزارة فى ذلك الحين لم تكن تنقل ولو أى جزء من أثاث الدبلوماسيين على نفقتها بل كانت لا تتحمل سوى «مرتب نقل» يوازى مرة ونصف مرة مرتب الدبلوماسى الأصلى فى القاهرة.. ولم يكن هذا البدل لينقل خمس حقائب أو ست .

ومع ذلك فقد كانت تجربة مفيدة حقا اذ اتاحت لنا دراسة مالم نكن قد رأيناه فى الجنوب التونسى من مدن موناستير وصفاقس وسوس وجابس أما فى صفاقس فقد نزلنا فى فندق Les Oli-viers أى اشجار الزيتون.. وهو فندق جميل على شاطىء رملى ناعم ثم رأينا مدينة جابس والكوليزيوم الرومانى الجميل فى منطقة

الجيم Djem ومدينة الحمامات السياحية الجميلة ذات الساحل الرملى الناعم العريض والمياه البلورية الشفافة واشجار الموالح والزيتون والنخيل التى تصل إلى حافة الشواطىء ..

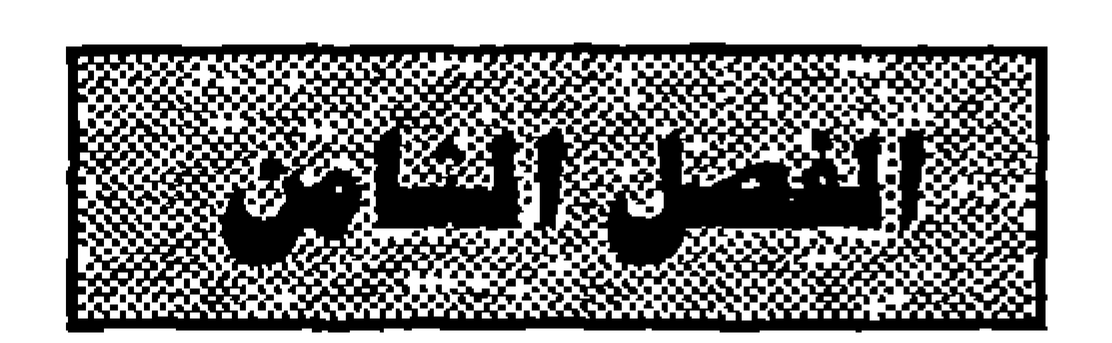
وكانت مَناطق زراعة النخيل والزيتون والموالح تثير الاعجاب حقا من حيث حسن نظامها وجمالها وهى ترتفع وتنزل مابين الهضاب والوديان على مدى البصر. وكلما ازددنا قربا إلى حدود ليبيا ازداد التصحر الى أن عبرنا الحدود الى ليبيا فواجنا الصحراء الليبية التى لم تكن تتخللها سوى بضع شجيرات بين الحين والحين وأمضينا ليلتنا الثانية فى مدينة طرابلس عاصمة ليبيا وادركنا صواب ماذهب اليه مستشار سفارتنا الذى نقل من ليبيا الى تونس عندما قال : إن تونس تعتبر باريس بالنسبة الى طرابلس، ثم عبرنا المسافة مابين طرابلس وبنغازى وهى تزيد على الألف كيلو فى صحراء مقفرة تماما لم يتخللها الا قرية سيرتة أو مدينة سرتة الصغيرة التى تقع فى منتصف المسافة بين طرابلس وبنغازى وأمضيت ليلتى الثالثة [١] .. فى استراحة حكومية فى سرتة لأنها لم يكن بها فندق ذو شأن. وفى اليوم الرابع وصلنا الى بنغازى حيث امضينا الليلة وهى مدينة ذات جو شرقى أكثر من

---

(١) كانت مرحلة اشق مما كنا نظن ومن هنا سافرت زوجتى من طرابلس الى القاهرة بالطائرة وحل محلها زميل قديم اكمل الرحلة معى بالسيارة .

طرابلس وتشابه الى حد ما حلوان القديمة. وكان يتعين علينا أن نحمل معنا في سيارتنا رصيدا احتياطيا من البنزين والماء وتبين أن هذا كان واجبا فالمسافة التى كنا نقطعها يوميا تبلغ خمسمائة كيلو متر لم يكن يتخللها محطة بنزين واحدة هذا ولا أدرى إن كان الحال أحسن هذه الأيام أم لا.. ومن بنغازى مررنا مرور الكرام على طبرق الى أن وصلنا الحدود المصرية والسلوم فمرسى مطروح وأمضينا ليلة خامسة فى مرسى مطروح وكان الجو شتاء والفنادق القليلة الموجودة فيها مقفلة مما اضطررنا للنزول لدى بنسيون احدى الأسر اليونانية.. ومن مرسى مطروح للقاهرة آخر المطاف ووصلناها فى عصر اليوم السادس.. إلا أنه راعنا ان الطريق فى تونس وليبيا كان كله ممهدا بشكل جيد أى أسفلت ناعم ومستو - وكان يفضل بكثير الطريق من السلوم إلى مرسى مطروح ومن الأخيرة الى القاهرة.. كان هذا سنة ١٩٥٧ ولا شك أن الطريق فى مصر قد تحسن كثيرا فى السنوات الأخيرة.. لكن اجمل ماصادفنا فى الطريق كان «الجبل الأخضر» فى ليبيا مابين بنغازى وطبرق فالاسم مطابق تماما على المسمى.. جبل اشم ضخم تعلوه الزراعة والخضرة.. والسيارة تصعد بك لأكثر من نصف ساعة ثم يستوى الطريق فوق الجبل فاذا بك فى وسط مزارع فاكهة تفاح وكمثرى وغيرها وكأنك لست فى ليبيا وانما فى

ايطاليا وكان الجبل الأخضر ينتمى الى دولة أخرى والى عالم آخر غير طرابلس وبنغازى.. ولاشك أن الزراعة والخضراوات ازدادت فى ليبيا حاليا عما كانت فى سنة ١٩٥٧، لكن لا أشك ايضا فى أن مظاهر أخرى للحياة قد اختلفت ومنها ماوجدناه سنة ٥٧ من وفرة البضائع البريطانية الأوروبية وفرة محيرة ورخص اسعارها وقد انتهزت الفرصة فاشتريت لنفسى بعض الأحذية البريطانية الصنع من طبرق .



الفصل الثامن

فوق قمم جبال الانديز بوجوتا
عاصمة كولومبيا

تسلمت عملى فى ديوان وزارة الخارجية مديراً لمكتب أحد وكلاء الوزارة المساعدين الثلاثة وكان المرحوم السفير الأستاذ صالح خليل.. وكان مسئولا عن الشئون الأوروبية والأمريكية الشمالية والأمريكية اللاتينية. وكان مدير إدارة أمريكا الشمالية فى ذلك الحين المرحوم الوزير المفوض عباس الشافعى. وكنت قد عرفته وزاملته فى سفارتنا فى واشنطن بعض الوقت حيث كان قد عين ملحقا عسكريا سنة ٥٤ وكنت أنا سكرتيرا ثانى السفارة فى واشنطن . وقد جمعت بيننا من جديد أواصر العمل المشترك فقد كان مكتبى دائم الاتصال به بحكم تولى الوكيل صالح خليل الإشراف على شئون امريكا.. فلما عين السفير عباس الشافعى

سفيرا لمصر في بوجوتا عاصمة كولومبيا في أمريكا اللاتينية ألح علىّ أن أعمل معه في بوجوتا.. فوافقت بشرط موافقة رئيسى السفير الوكيل صالح خليل فقد كنت أكن له احتراما وحبا حقيقيا فقد كان رحمه الله شخصا شديد التواضع والرقة والدماثة فضلا عن غيرته واقباله على العمل. وقد دهش الوكيل صالح خليل لرغبتى العمل فى بوجوتا «آخر الدنيا» واخبرنى انه يدخرنى للعمل معه عندما يعين بعد عدة شهور سفيرا في بروكسل. ولما رأى ميلى الى قبول منصب أمريكا اللاتينية لغرابته وطرافته قال إن صديقه السفير د. مصطفى كامل قد عين لتوه سفيرا في واشنطن (سنة ٥٨) وانه سوف يسره أن يزكينى لديه فلا شك انه سيرحب بمصاحبة شاب مثلى سبق له العمل في واشنطن لمدة خمس سنوات.. الا انه لما رأى اصرار السفير عباس الشافعى على التمسك بمصاحبتى له وميلى أنا شخصيا لمرافقته وافق اخيرا ولم يضع عقبة امام تعيينى سكرتيرا ثانيا فى بوجوتا.. وفعلا اصدر الوكيل السفير حسين عزيز وكيل الوزارة الدائم قرارا بندبى فورا الى بوجوتا على أن تصدر الحركة الدبلوماسية المقبلة فتتضمن تعيينى بها رسميا ..

أما لماذا صدر قرار بندبى فورا فى بوجوتا فلأنه لم يكن لدينا أى تمثيل في بوجوتا حتى ذلك الحين.. وكان لزاما علىّ أن أسبق وصول السفير بعدة شهور لافتتح السفارة هناك ولأظل بها كقائم

بأعمال السفارة بالنيابة الى حين وصول السفير وذلك لكى اتمكن من تمثيل مصر فى احتفالات تنصيب رئيس الجمهورية الجديد بعد شهر من وصولى الى بوجوتا..

أما لماذا فضلت العمل فى بوجوتا على العودة إلى واشنطن ثانية أو على العمل فى بروكسل فيرجع ذلك الى حبى وانجذابى الشديد للحضارة الأسبانية واللغة الأسبانية كما اسلفت.. ورأيتها فرصة سانحة لأتكلم اللغة الأسبانية ولأنهل من تلك الحضارة. فان لم يسعدنى حظى بتعيينى فى مدريد فلا أقل من أمريكا اللاتينية هكذا فكرت.. ومن ناحية أخرى فان واحدا من أهم أسباب التحاقى بالسلك الدبلوماسى كان رغبتى فى رؤية العالم بأكمله وتفضيلى الدائم لرؤية موقع جديد على العودة إلى القديم ولم أكن قد وطأت أمريكا اللاتينية بأقدامى بعد .. اما السبب الثالث فيرجع الى حبى وانجذابى للحضارات القديمة فى أمريكا اللاتينية أى حضارات الانكا والمايا والازتيك والشيبشا وغيرها.. والأخيرة عاشت فى كولومبيا وتسمى ايضا باسم Chibcha Muisca قبل الفتح الأسبانى وخلفت اثارا مهمة ..

وهكذا كُلفت بالسفر فى خريف ١٩٥٨ إلى بوجوتا لافتتاح السفارة هناك.. وكانت هذه تجربتى الثانية فى افتتاح السفارات الجديدة فقد شاركت فى ارساء دعائم سـفارتنا الجديدة فى تونس

ايضا من قبل لكن مع الفارق.. فان بوجوتا بلد يتكلم الأسبانية التى لم أكن اتكلمها بعد.. وسوف أصل إلى هذا البلد الغريب ذى اللغة التى لا أعرفها ولا أعرف فيها أحدا ولن يكون احد ما فى انتظارى لتسهيل وصولى أو مهمتي.. ومن هنا بدأت قبل أن اغادر القاهرة اتعلم الأسبانية فورا واشتريت اسطوانات ومعها الكتب الخاصة بتعلم الأسبانية في منزلى.. واقفلت الباب على نفسى اياما طويلة استمع فيها للحديث بالأسبانية واطالع الكلمات فى الكتاب في الوقت نفسه.. وكانت عائلتي تستمع الى مايجرى فى حجرتي وتتساءل احيانا «هل سمير عنده زائر اجنبى ام ماذا» ؟!

المهم.. عندما حان موعد سفرى وزوجتي ومعنا الزميل الدكتور كمال هجرس [1] سكرتيرا ثالثا للسفارة الى بوجوتا كنت استطيع التفاهم بقدر ما باللغة الاسبانية.. أما هما فلم يكونا قد بدآ دراستهما بعد.. ووصلنا بوجوتا مرورا ببروكسل حيث زرنا معرضها الدولى لمدة يومين، ثم منها إلى ميامى فى الولايات المتحدة ومنها إلى بوجوتا. والمسافة مابين ميامى فلوريدا فى الولايات المتحدة وبوجوتا قطعتها الطائرة التابعة لشركة Branniff فى أكثر من ثماني ساعات بعد التوقف في مطارات بعض عواصم امريكا الوسطى .

---

(١) اصبح د. كمال هجرس سفيرا فيما بعد وقد اعير الى دولة عُمان سنوات طويلة عمل فيها كسفير لعمان فى باريس ثم لدى الأمم المتحدة .

وأخيرا وصلنا بوجوتا ذات صباح وكانت الشمس مشرقة.. وهى لا تشرق فى بوجوتا كل الوقت بل إن سماءها كثيرا ماتتلبد بالغيوم حتى وإن لم تمطر ويشرف على بوجوتا من علىٍ جبل اسمه مونت سيرات يجذب اليه السحب وتظل معلقة فوقه وهى ظاهرة واضحة فى بوجوتا.. اقصد تلبد سمائها بالسحب اغلب الوقت وغياب الشمس كثيرا من الأيام ومن ثم زيادة نسبة الرطوبة فى الجو. وبوجوتا ترتفع حوالى ثمانية آلاف وخمسمائه قدم أى الفين وثمانمائة متر فوق سطح البحر بحيث يقل الاوكسجين فى الجو ولهذه الظاهرة الأخيرة تأثير واضح آخر يشعر به الزائر الغريب بمجرد وصوله الى بوجوتا. فالاحتمال كبير أن ينتاب الزائر دوار أو دوخة خفيفة سريعة أول ماتطأ قدماه أرض المطار. ثم لايلبث أن يتمالك نفسه وموطىء اقدامه.. لكنه يحسن صنعا بألا يسرع الخطى سواء فى المشى أو صعود السلم لأنه سيشعر بخفقان القلب ويتعب سريع وقد يلهث من فرط الحاجة الى الاكسجين.. أضف إلى ذلك ما ينتاب الزائر من القلق (ظاهرة قلة النوم) إلى أن يعتاد هذا الجو بعد شهور.. واحيانا كثيرة يصاب الزائر الغريب بالصداع.. دون أن يدرى السبب لكن أهل البلد القدامى يعرفون تماما هذه الظاهرة وأسبابها ويسمونها بالـ Saroche ويصفون لعلاج الصداع والإنهاك شرابا مثل الشاى مصنوعا من

ورق الكوكا Coca وله تـأثير مهدىء.. كما يحبذون بشدة أن يظل الزائر لمدة ساعتين أو ثلاث فى فراشه بمجرد وصوله إلى المناطق المرتفعة ...

حتى السيارات تصاب بصداع الارتفاع هى ايضا.. فتقل قوتها فى بوجوتا عن قوتها الافتراضية بنسبة ٢٥٪ - ٣٠٪ لكن تزداد قوة اذا ما صاحبتها الى مستوى سطح البحر من جديد الى برانكيلا مثلا حيث يكمل احتراق البنزين.. أما فى ارتفاع بوجوتا فإن البنزين لا يتم احتراقه تماما ولهذا يتميز «عادم» السيارات فى بوجوتا برائحة البنزين غير تام الاحتراق.. وتملأ هذه الرائحة شوارع بوجوتا (وسط البلد بسبب زحمة السيارات) وهى رائحة نفاذة لا يعتادها الزائر الا بعد مضى وقت طويل ..

أخذنا سيارة اجرة من مطار إلدورادو Eldorado فى بوجوتا الى وسط البلد وهكذا بدأ انتفاعنا من معرفتى القليلة بالأسبانية.. ثم نـزلـنا فـندق تكنـداما [١] (هيلتـون) فى وسط البـلد حيث اسـتأجرنا ايضا جناحا صغيرا فتحنا فيه مكاتب السفارة مؤقتا..

وقد أعلنت الصحف الكولومبية افتتاح السفارة المصرية ووصول القائم بأعمال السفارة.. وبعدها بيومين دعتنى إحدى

---

(١) شلالات تكنداما قريبة من بوجوتا .

محطات التليفزيون في بوجوتا لاجراء حديث أمام شاشات التليفزيون .. فتركت زوجتي والزميل د. كمال هجرس يتناولان الغداء في مطعم الفندق وذهبت لاجراء الحديث الذي تم بخليط من الاسبانية والفرنسية حيث كانت المذيعة تساعدني في محاولة التقاط الكلمات الاسبانية وكنت احاول مساعدتها على فهم بعض الكلمات الفرنسية لترجمتها إلى الأسبانية . المهم أن الشعب في كولومبيا احس بافتتاح سفارة مصرية وبوصول أول طاقم لها ..

ولما عدت إلى الفندق وجدت زوجتي وزميلي في مطعم الفندق مستغرقين في الضحك فقد حاولا طلب قطع من الثلج لاضافتها إلى ماء الشرب فطلبا Helado فإذا بالساقي يأتيهم بآيس كريم .. وكان المفروض أن يطلبا Hielo (ثلج) .. ولم يستطيعا حتى النهاية أن يفهما الساقي مقصدهما فأتى لهما بزبادي وهكذا .. ولم يصلهما الثلج إلا بعد وصولي أنا حيث أتت معرفتي القليلة بالأسبانية بفائدتها المرجوة ..

وقد أتت زيارتي للتليفزيون أيضا بفائدتها .. فإذا بكثير من الفلسطينيين المقيمين في بوجوتا يتصلون مرحبين وعارضين مساعدتهم .. بل اتصل بي بعض كبار الفلسطينيين من مدن أخرى في كولومبيا ، مثل يوسف دكرت من ميناء بارانكيلا على ساحل البحر الكاريبي ، ومثل فارس غزلان من مدينة كالي ثالث

مدن كولومبيا وهكذا . والشيء بالشيء يذكر .. فقد كان لاتصال هذين السيدين بالسفارة في أيامها الأولى للترحيب وعرض خدماتهما أثر محمود على علاقات السفارة بهما وبالجاليات العربية في كولومبيا وتم اختيار كل منهما قنصلا فخريا لمصر في مدينة (بارانكيلا – كالي) .

ولعل القارئ يتساءل أو قد تساءل عما حدا بمصر اصلا إلى افتتاح سفارة لها في كولومبيا ؟ فهل العلاقات بين البلدين من القوة سياسيا أو اقتصاديا بحيث تستدعي تبادل السفارات ؟ وللاجابة عن هذا التساؤل الذي هو في محله اجيب بأن افتتاح مصر لسفارات جديدة لها في كولومبيا وفي الاكوادور وبوليفيا وفنزويلا والاوروجواي وبنما وبيرو وغيرها جاء سنة ١٩٥٨ نتيجة لسببين : أولهما وجود جاليات سورية (إلى جانب الفلسطينيين واللبنانيين) في تلك البلاد . ولما كانت قد قامت الوحدة ما بين مصر وسوريا سنة ٥٨ فقد قررت الجمهورية العربية المتحدة تبادل التمثيل وافتتاح السفارات التي ترعى شئون الرعايا السوريين أي أبناء الاقليم الشمالي في تلك البلاد التي لم تكن بها سفارات مصرية أو سورية من قبل . أما السبب الثاني فقد كان حاجة ج.ع.م إلى أصوات تلك الدول في الأمم المتحدة بالنسبة للقضية الفلسطينية وأفرعها . وكان غياب تمثيل سياسي عربي في تلك

الدول مدعاة لترك المجال مفتوحا أمام اسرائيل وحدها لمحاولة كسبها لتلك العواصم إلى صفها .. ومن هنا فإن مهمة سفاراتنا فى تلك البلاد كانت .. ومازالت . لم شمل أفراد تلك الجاليات العربية واحسان تنظيمها واستغلال طاقاتها المخزونة لصالح القضايا العربية لدى تلك الدول سواء بالنسبة للأمم المتحدة والقضية الفلسطينية أو العلاقات الثنائية بين ج.ع.م وتلك الدول .. ومنها كولومبيا .

وكولومبيا تقع فى أقصى الطرف الشمالى أو المثلث الشمالى لأمريكا الجنوبية ولها شاطئان احدهما على البحر الكاريبى والمحيط الأطلسى والآخر على المحيط الهادى . ويفصل بين الشاطئين برزخ جمهورية بنما (وكانت قديما جزءا من كولومبيا إلى أن فصلتها عنها الولايات المتحدة فى شكل جمهورية بنما المستقلة ١٩٠٣ وذلك لكى تشق فيها قناة بنما وتنال حق اقامة قواعد امريكية فيها حتى الآن) .. ومساحة كولومبيا تفوق مساحة القطر المصرى بقليل لكن بدلا من نسبة الـ ٩٦٪ من الصحارى فى مصر فإن كولومبيا كلها مزروعة . أكثر من ثلث كولومبيا الشرقى والجنوبى الشرقى تحتله الغابات الامازونية الكثيفة ، والثلث الآخر تحتله سلسلة جبال وهضاب الانديز شديدة الارتفاع وشديدة الوعورة لكنها أيضا مغطاة بالغابات والاشجار .. والثلث

الباقى تحتله السهول الشمالية الساحلية المنخفضة والمتميزة بشدة الحرارة وشدة الرطوبة (فهى منطقة مدارية) كذلك تحتله وديان نهرى الكاوكا Cauca وماجدالينا Magdalena اللذين ينحدران من جبال الانديز ليصبا فى المحيط ، مكونين واديين من اغنى وديان جمهورية كولومبيا واشدها خصوبة ..

أما العاصمة بوجوتا Bogota وتعدادها حوالى مليونين ونصف فتقع أعلى جبال الانديز وسط الجمهورية تقريبا . ومنذ القديم اسميت بوجوتا "أثينا امريكا اللاتينية" وذلك لما اجتمع بها من عدد كبير من المؤسسات والمعاهد العلمية الكبرى حتى ان بها وحدها خمس جامعات بعضها يرجع إلى تأسيس بوجوتا سنة ١٧١٧ ثم إلى عهد الاستقلال ١٨٣٠ . والمدينة القديمة شوارعها ضيقة مرصوفة بالحجارة السوداء مثل مدن أوروبا واسبانيا قديما ، ومنازلها تمثل الطراز الأسبانى القديم Colonial Spanish المنتشر فى أغلب مدن أمريكا اللاتينية منذ الفتح الأسبانى فى القرن السادس عشر ، أما المدينة الحديثة فشوارعها عريضة واسعة ومنازلها وحدائقها جميلة التنسيق وبها أحياء راقية تضاهى مدن أوروبا الغربية ومنها احياء .. Carrera Septima - Avenida Chila Antiguo Country - Soledad - Santa Anna فضلا عن وسط البلد Avenida Jimenez de Quesada وبها نواد رياضية راقية

ومطاعم ودور سينما جيدة وباختصار فهى مدينة حديثة لكن اجمل منها فى تقديرى مدينة مدين (المدائن) Medellin فجوها أكثر اعتدالا وتبدى مظاهر الاصالة القديمة والعز التليد وبها تقيم عائلات اسبانية اقطاعية قديمة حتى لقد تساءلنا زوجتى وأنا لماذا لم يجعلوها العاصمة بدلا من بوجوتا ؟ خاصة ان مدين جوها "اسبانى" اكثر فى حين ان بوجوتا يخيم عليها كآبة أو حزن الشعب الهندى الاحمر سكان الجبال العالية الباردة .. هذا إلى جانب أن مدين وهى الآن المدينة الثانية وتعدادها مليون أو أكثر فتقع على التلال Nautibarra على حدود سهل الماجدالينا حوالى ٢٠٠ كيلو متر شمال غربى بوجوتا وهى عاصمة البن وصناعات المنسوجات (والمخدرات) والعائلات الاسبانية الأصل القوية بعصبياتها ونفوذها الاقتصادى والاقطاعى وجوها أكثر اعتدالا من بوجوتا . أما المدينة التالية Cali فتقع ثلاثمائة كيلو متر جنوب غربى بوجوتا فى وادى الكاوكا وتشتهر بزراعة القطن وقصب السكر والارز خاصة ان الجو السائد أميل إلى الحرارة وتكثر هناك زهور الاوركيدية الشهيرة وبها ناد اجتماعى جميل . أما المنطقة الساحلية فتحتلها مدن بازانكيلا وقرطاجنة وسانتا مارتا على البحر الكاريبى فى المنطقة المدارية الحارة . ومدينة بوينافنتورا على المحيط الهادى وهى أشد حرارة ورطوبة ويقيم بها

أكثرية من الزنوج . وهناك أيضا مدينة بريرا شمال غربى بوجوتا فى وادى الكاوكا .. وتقيم أغلب الجاليات العربية - لبنانية وسورية وفلسطينية موزعة ما بين هذه المدن المهمة وان كانت توجد عائلات قليلة أيضا فى بعض القرى الصغيرة ومنها Sensilejos التى سيأتى ذكرها ..

ورغم أن تكوين الشعب الكولومبى يعكس الصفة الغالبة على شعوب أمريكا الناطقة بالاسبانية أى أن هناك نسبة قليلة قد تصل إلى عشرة أو خمسة فى المائة من السكان الذين ينحدرون من الأصل الاسبانى الأبيض هم قمة المجتمع طبعا . ونسبة قد تصل إلى خمسين فى المائة من السكان المخلطين Mestizos هم نتيجة اختلاط الأصل الهندى الأحمر بالجنس الاسبانى وهى الطبقة التالية بعد الجنس الأبيض فى الهرم الاجتماعى والباقى أى ٣٥٪ تقريبا هم ما بقى من السكان الهنود الحمر الأصليين الذين لم يختلطوا بالجنس الأبيض ويعيشون منعزلين تماما بالمناطق الجبلية الوعرة عيشه تكاد لا تختلف عن معيشة اسلافهم منذ مئات السنين يمارسون الزراعة البدائية أو التعدين فوق الجبال . كما أن هناك حوالى ٥ - ١٠٪ من السكان ذوى الأصل الزنجى الأسود والمستوردين من افريقيا ويكاد يقتصر وجودهم على المناطق الساحلية المدارية الحارة على البحر الكاريبى ولكن وبخاصة منطقة

بوينا وكافنتورا على ساحل المحيط الهادى ويعيشون على هامش المجتمعات والمدن يزاولون الأعمال اليدوية ..

وبرغم أن غالبية السكان اذن من المختلطين (كما هو حال أغلب دول امريكا اللاتينية فيما عدا كوستاريكا واوروجواى ١٠٠٪ من البيض وشيلى والارجنتين ٩٠٪ من البيض) إلا انك لا تجد تمثالا لقائد تاريخى أو بطل قومى يزين ميدانا عاما أو مكانا عاما إلا لرجال من الجنس الأبيض إما فاتح أو غاز اسبانى وإما بطل من ابطال حرب الاستقلال ضد اسبانيا .. أى أن كلهم من البيض .. ففى بوجوتا لا يوجد إلا تمثال أو قل ان أهم مايزين ميادين بوجوتا هو تمثال Jimenz de Quesada وهو الفاتح الاسبانى الذى هزم آخر ملك من ملوك الهنود الـ Chibcha وأسس المستعمرة الاسبانية سنة ١٥٣٨ والتى اسميت فيما بعد Nueva Granada غرناطة الجديدة ثم اسميت Gran Colombia . حقا ان تمثال سيمون بوليفار بطل استقلال كولومبيا (سنة ١٨١٩) مازال يحتل مكانا هو وعزبة صغيرة لبوليفار فى بوجوتا لكنه كان رجلا أبيض هو الآخر وليس هنديا أحمر . وكذلك الحال فى اغلب امريكا اللاتينية . والاستثناء الظاهر الكبير هو فى المكسيك حيث لاحظت - بعد نقلى إليها من بوجوتا فيما بعد - أن شعب المكسيك هو الشعب اللاتينى الأوحد الذى يفخر بانحداره من أصل الهنود

الحمر وأن تماثيل ملوك وأبطال شعوب الـ Maya azteca من الهنود الحمر هى التى تزين أهم ميادين مدينة المكسيك .. ولا يوجد تمثال لغاز أو لفاتح أبيض بتاتا ..

تشتهر كولومبيا اذن بزراعة البن وتصديره بوفرة وبن كولومبيا يمتاز عن بن البرازيل مثلا أو البن اليمنى أو الحبشى باعتدال الطعم Mildness ويزرع البن فى سفوح الجبال التى تقل عن ۲۰۰۰ متر فوق سطح البحر . وكذلك تشتهر بوفرة المراعى (الاغنام والابقار) على سفوح التلال والجبال حتى ثلاثة ألاف متر فوق سطح البحر . أما على السواحل الحارة فيزرع الأرز وقصب السكر ويوجد القطن فى وديان الانهار ، أما بقية الأهالى ومنهم كثير من الهنود الحمر فيقومون بصناعات التعدين المختلفة وأهم مناجم الزمرد فى العالم يوجد بعضها فى كولومبيا التى تشتهر بزمرد Gachala ، كذلك تقوم صناعات تعدين الفضة والذهب . وفى بوجوتا متحف للذهب يضم قطعا ذهبية أثرية من عهد امبراطوريات الهنود الحمر وبعض المعادن الصناعية الأخرى ..

وإذن فكولومبيا بلد غنى زراعيا وتعدينيا .. لكنه كان يمكن أن يكون أكثر غنى وان يكون الشعب أحسن حالا وأفضل معيشة لو كان ساسته قد احسنوا ادارته وحكمه أو لو كانت الظروف أكثر

مواتية . لكن تاريخ هذه المنطقة حافل بالخلافات الحادة وبالعنف الدموى . فبعد حرب الاستقلال ، والتى قادها سيمون بوليفار من سنة ١٨١٩ حتى سنة ١٨٣٠ حتى مماته ضد اسبانيا وتكوين دولة جران كولومبيا العظمى التى تكونت من كولومبيا (ومن دول فنزويلا واكوادور وبنما حاليا) تفككت هذه الدولة بمجرد موت بوليفار سنة ١٨٣٠ وانفصلت فنزويلا واكوادور لتكوين دولتين مستقلتين ثم شجعت الولايات المتحدة انفصال بنما عن كولومبيا واستقلالها سنة ١٩٠٣ لكى تفوز واشنطن بامتياز بشق قناة بنما وامتيازات احتلالها وادارتها ..

ثم مالبث أن انقسم حكام كولومبيا الجدد فى القرن التاسع عشر على انفسهم .. ما بين المحافظين ومنهم رجال الكنيسة الكاثوليكية وكانوا يؤمنون بمركزية الحكم ورجعيته وبحقوق الكنيسة الدينية والدنيوية وكان الحزب المحافظ يسمى الحزب الازرق Los Azules وما بين من ناحية أخرى الليبراليين Los Li-brales وقد اسماهم اعداؤهم الحمر Los Rojos وكانوا يفضلون نظاما فيدراليا أكثر مرونة لحكم مناطق الجمهورية المختلفة ، كما كانوا يريدون تحديد نفوذ الكنيسة الرجعية واقلال امتيازاتها السياسية والدنيوية .. ونجح الليبراليون فى اقرار دستور فيدرالى سنة ١٨٦٣ وفى مصادرة املاك الكنيسة سنة ١٨٦١ . ثم توصلوا

إلى اتفاق كونكوردات مع الكنيسة سنة ١٨٨٣ . وإلى دستور موحد سنة ١٨٨٣ ثم لبثت أن اندلعت حرب الألف يوم من ١٨٩٩ إلى سنة ١٨٠٣ والتى انتهت بانفصال بنما وعاد الليبراليون إلى الحكم من سنة ١٩٣٠ - إلى ١٩٤٨ وادخلوا سلسلة من الاصلاحات لكن مقتل الزعيم الليبرالى جايتان سنة ١٩٤٨ ، ادخل البلاد في سلسلة طاحنة من الاغتيالات السياسية والحرب الأهلية فتوصل الحزبان بعد لأى إلى انشاء جبهة وطنية متحدة El Frente Nacional بموجبها اتفق الحزبان على توالى رئاسة الجمهورية ما بين الليبراليين مرة والمحافظين مرة أخرى بالتناوب .. وقد قدر عدد من قتلوا من الجانبين فى الحروب الأهلية بأكثر من عشرين ألف نسمة من ١٩٤٨ - إلى سنة ١٩٥٨ ..

ولعل هذا التاريخ يفسر لنا بعض الشيء ما يحدث حاليا فى كولومبيا من حرب طاحنة بين الحكومة وبين ملوك المخدرات والحركات السياسية اليسارية المتطرفة .

وقد بدأت ظاهرة الحرب الأهلية والعنف الدموى فى كولومبيا منذ أوائل القرن العشرين واستفحلت ما بين سنة ٤٨ - ١٩٥٨ وكانت أصلا حربا أهلية سياسية ما بين الحزبين الكبيرين وانصارهما .. واستمرت حقبة أو أكثر فاعتاد الكثيرون من الطرفين تلك الحياة السهلة أى حياة القتل والحرق والنهب والسلب

.. بدعوى سياسية وبعد أن اعتادوا هذه الحياة أصبحت طريقتهم الوحيدة للحياة لكن دون هدف سياسى حقيقى هذه المرة .. بل انحدر مستوى العنف الدموى من عنف سياسى إلى مجرد اعمال عصابات : سرقة ونهب وقتل وتشريد .. واسماهم المجتمع الكولومبى Los Bandoleros رجال العصابات .. وانتشرت هذه العصابات بكثرة وشجع على قيامها تاريخ العنف فى البلاد ، وكثرة السلاح المتداول ورخص اسعاره وضعف الوازع الدينى رغم نفوذ الكنيسة [1] ووعورة الجبال وقلة عدد المدن والقرى والمزارع فى هذه الجبال الشاسعة الواسعة ، وقلة عدد الطرق السريعة الجيدة الموصلة بين المدن والقرى والمزارع ، فسكان كولومبيا لا يتجاوز عددهم حاليا ٢٩ مليون نسمة ولكنهم كانوا ١٥ - ١٨ مليونا فقط سنة ٤٨ - ٥٨ فى مساحة من الأرض تفوق مساحة القطر

---

(١) هذه ظاهرة اجتماعية محيرة فرغم أن الكنيسة الكاثوليكية فى امريكا اللاتينية كانت شديدة الغنى والقوة والسطوة والنفوذ الاجتماعى والسياسى إلا أنها عجزت عن التوصل إلى أفئدة ونفوس جموع الاهالى سوى ظاهريا وليس حقيقيا فإن نسبة الأولاد غير الشرعيين فى جميع بلاد امريكا اللاتينية من أعلى النسب فى العالم ويمارس هذا اللون من الحياة على الملا وعلى جميع المستويات والطبقات الاجتماعية .. كذلك فالمشهور فى كولومبيا أن رجال العصابات كانوا ينزلون إلى القرى والمدن يقتلون وينهبون سكانها ثم إذا بهم أيام الاحاد يحضرون القداس فى الكنيسة ويعترفون أمام القسيس وكأن شيئا لم يحدث ثم يعودون إلى تكرار اقتراف جرائمهم ثم إلى غسلها بالاعتراف وهكذا ..

المصرى بأكمله أى بواديه وصحاريه .. وهو ما شجع أيضا على زراعة وتجارة المخدرات بوفرة في كولومبيا وتصديرها إلى خارجها .ولم تنته مواجهة الحزبين الرسمية إلا سنة ١٩٥٨ عندما اضطرا للاتفاق سويا لمنع تجدد تدخل الجيش واستيلائه على الحكم كما حدث في عهد الجنرال روخاس بنيللا Rojas Pinilla قبيل ذلك بقليل واستمر تحالفهما حتى الآن لكن كانت قد تفاقمت الاوضاع الاجتماعية فى البلد وقامت ثورة اجتماعية "ماوية" يسارية متطرفة .

وفى هذا الوقت افتتحنا سفارتنا فى بوجوتا سنة ١٩٥٨ وقدمت أوراق اعتمادى قائما بأعمال السفارة إلى وكيل وزارة الخارجية الكولومبية وتمكنا بهذه الصفة من حضور جلسة تنصيب أول رئيس للجمهورية (ليبرالى) La Transmission del Mando فى عهد الجبهة الوطنية وكان ألبرتو يرأس كامارجو Alberto Llerals Camargs إلا أن الحزبين المتقاتلين كانا قد أضاعا وقتا ثمينا وشتتوا جهودهم فى التناحر بينهما وهو الوقت والجهد الذى كان المفروض أن يخصص للاصلاحات الاجتماعية لتقريب الفوارق ما بين الاقطاعيين وسواد الشعب الفقير ومن هنا فاجأتهم هذه الثورة الاجتماعية الطاحنة الحالية وهم غير

مستعدين لها .. وحاليا يقود حملة هذه الثورة الاجتماعية التى تأخرت عن موعدها كثيرا شباب الجامعات ، وشباب رجال الكنيسة التى بعد أن كانت قديما قد تحالفت مع الرجعيين أصبح شبابها الآن فى كثير من بلاد امريكا اللاتينية حلفاء المصلحين أو الثوار الاجتماعيين .. فضلا عن الفلاحين من الهنود الحمر الذين طال اهمال حقوقهم واغفال مدى قوتهم السكانية كعنصر مؤثر فى مجتمعات امريكا اللاتينية المقبلة ..

واهم حركات الثورة الاجتماعية حاليا فى كولومبيا حركة "ماوية" (١) متعصبة تسمى نفسها El Senders Luminoso أى الدرب المضىء لكنها ليست وحدها كل ما يمثل العنف الدموى فى كولومبيا وان كانت هى قائدة العنف السياسى بها .. اما العنف الدموى الاجتماعى فيرجع سببه حاليا فى كولومبيا إلى ملوك الكوكايين أو "مافيا المخدرات" القوية التى احسنت تنظيم صفوفها وانصارها وتغلغل نفوذها الطبقات الحاكمة من الحزبين فى كولومبيا .. وهى إن شئت استمرار لعمل العصابات التى انشأها وغذاها ووجهها كل من الحزبين الكبيرين فى حروبهما السياسية قديما .. فقد اعتاد المجتمع فى كولومبيا هذه الألوان من العنف المنتظم .. وعلى مدى اجيال طويلة ..

---

(١) نسبة إلى ماوتسى تونج أى أنها يسارية متطرفة .

لكن الواقع أن شعوب امريكا اللاتينية سواء المنحدرة كلها من أصل أسبانى (أو برتغالى فى حالة البرازيل) أو ما اختلط منها بالعنصر الهندى الأحمر المشهور بالهدوء أو برود الأعصاب وخاصة هنود المناطق المرتفعة الباردة أو فى حالات قليلة بالعنصر الزنجى الافريقى ، تميل كلها إلى المرح والرقص والغناء والحياة الاجتماعية الصاخبة .. وقلّ أن تجد مجموعة من شبان وشابات امريكا اللاتينية فى مناسبة اجتماعية إلا وكان حليفهم الطرب والرقص والغناء والتهليل . إن الرقص والغناء يجريان فى دمائهم وهم اصحاب السامبا والرومبا والمامبا والمامبو جامبو والتشاتشا والشيكيشا والميرى كومبيه واخيرا وليس آخرا التانجو التقليدى .. ومن ثَم فإن مدنهم تنخر بالنوادى الاجتماعية والنوادى الليلية وعلب الليل . وما من مناسبة اجتماعية إلا وانقلبت فى النهاية إلى حلبة رقص وغناء وطرب ومرح .. وبوجوتا غنية بنواديها الاجتماعية وعلب الليل ..

لكن كل هذا يجب ألا يخفى ما ينطوى تحته من دماء حارة وأعصاب قد تصبح ثائرة فائرة لأقل سبب .. وما منطقة أخرى فى العالم يمكن أن تجارى أمريكا اللاتينية فى عدد ما قام بها من ثورات مدنية أو عمالية أو عسكرية ضد الأنظمة الحاكمة ، هذا المزيج الغريب من المرح والطرب والفكاهة ومن الاستعداد للعنف

الكامن تحت السطح قد يوجد فى شعوب أخرى غير أمريكا اللاتينية لكنه من أهم ما يميز شعوب امريكا اللاتينية قاطبة .. لكن رغم هذا فإن المرء لا يسعه إلا أن يغرم بالشعوب اللاتينية لما تتميز به من ظرف ومرح وكرم تقليدى ..

بعد وصولى إلى بوجوتا بشهرين أو ثلاثة تقريبا وصلت سيارتى على احدى البواخر محمولة إلى ميناء بارانكيلا أهم موانىء كولومبيا ويقع على ساحل البحر الكاريبى على مسافة أكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر من بوجوتا .. ولما كانت الطرق سنة ٥٨ وعرة مقفرة فى جهات كثيرة فقد كان من المعتاد نقل امثال تلك السيارات على طائرات نقل خاصة من بارانكيلا إلى بوجوتا .. وقد طال انتظارى لنقل سيارتى أكثر من شهرين بعد وصولها واخيرا قيل لى صراحة : إن الطائرتين المعدتين لنقل السيارات معطلتان بسبب نقص قطع الغيار .. ولا يعرف بالضبط متى تصل هذ القطع .. ومن ثم فقد قررت زوجتى وأنا أن نتوجه بالطائرة إلى بارانكيلا حيث نتسلم سيارتنا (وكان صديقنا الفلسطينى السيد يوسف دكرت أحد كبار تجار بارانكيلا وأصبح فيما بعد قنصلنا الفخرى قد تسلمها نيابة عنا) ثم نقودها إلى بوجوتا عبر الطريق البرى .. وقد ادهشت هذه الفكرة صديقنا وعائلته . ورغم نصائحهم لنا بخطورة هذه المغامرة واحتمال وقوعنا فى شرك أو

كمين ينصبه رجال العصابات Bandoleros المنتشرون فى غابات وجبال كولومبيا الكثيرة عبر ذلك الطريق المقفر فقد صممنا على الإقدام على هذه المغامرة فلم تكن امامنا وسيلة أخرى فقد مللنا الانتظار . ومع هذا فقد أصر يوسف دكرت على أن يرافقنا اثناء الطريق فى سيارتنا ذاتها أحد رجال بوليس مدينة بارانكيلا حيث تمكن السيد دكرت باتصالاته ونفوذه من اقناع محافظ المدينة بندب أشد رجاله لمرافقتنا ..

وقد جلس رجل البوليس ومعه طبنجته خلفى فى السيارة ، وجلست زوجتى إلى جوارى وتوليت أنا قيادة السيارة من بارانكيلا غربا إلى قرطاجنة ١٠٠ كيلو متر فى طريق ممهد جيد ثم جنوبا وصعودا دائما فى طريق غير ممهد جبلى فى اتجاه مدينة مديين Medellin وأمضينا ليلتنا الأولى فى قرية صغيرة اسمها Sinsele-jos ليس بها فنادق مناسبة واضطررنا للمبيت فى ضيافة عائلة لبنانية تعيش هناك على التجارة ومهنة الفندقة وكما كان المنتظر فقد كانت ظروف المعيشة فى سنسيليخوس بدائية على أحسن تقدير . وفى اليوم التالى استكملنا رحلتنا فى اتجاه مديين وكان هذا الجزء من الرحلة اقساها واخطرها . فسرعان ما وجدنا انفسنا نصعد الجبال فى طريق غير ممهد ومقفر وموحش احيانا كثيرة تحوطنا الغابات الكثيفة من كل جانب ولا يرى مخلوق أو

مزرعة أو قرية على مدى الخمسين كيلو مترا . وكان "فتيس" السيارة يقفز كل حين خارج مكانه إلى "المور" من جراء وعورة الطريق وكثرة المطبات والحجارة أحيانا .. ولو كان قد وقع علينا هجوم من رجال العصابات المسلحين بمدافعهم الرشاشة فى واحد من تلك الأماكن القصية المنعزلة لما كان قد احس بنا أو بفقداننا أحد . وكنت أنظر احيانا فى مرآتى الخلفية لارى ما يفعله رجل البوليس وكم كان غيظى وضيقى حينما كنت اراه نائما أو مغمضا عينيه . ولكن حينئذ تساءلت حتى فى حالة يقظته فماذا كان يفيد مسدسه الصغير حيال اسلحة رجال العصابات .. "والله خير حافظا" ..

المهم وصلنا مديين بسلام الله وانزلنا معنا صديقنا رجل البوليس فى أهم فندق من فنادق مديين أى فندق Nautibara وكان فندقا فخما حقا والمدينة توحى بجميع مظاهر العمران القديم والأصالة فانها مقر العائلات الاقطاعية الكولومبية كما انها بلد صناعى يشتهر بصناعة الأقمشة والملبوسات حتى لقد تساءلنا لماذا لم يجعلوها العاصمة ؟ منذ الفتح الاسبانى لاعتدال مناخها وحسن مناظرها وغناها .. وفى صباح اليوم التالى ودّعنا صديقنا الكولومبى وشكرناه وأهديناه شيئا ما .. وعاد بالطائرة إلى بارانكيلا واستكملنا زوجتى وأنا "صعودنا" إلى بوجوتا ، (مسافة

٤٠٠ كيلو متر فى طريق ممهد مسفلت وأقل خطورة وان كان طويلا متعرجا لتسلق الجبال التى لا نهاية لها ..

وفى بوجوتا وجدت أكثر من مكالمة تليفونية ورسالة فى انتظارنا من يوسف دكرت واصدقائه للاطمئنان على سلامة وصولنا .

كانت مغامرة فريدة حقا .. ولو خُيِّرت اليوم بين ترك سيارتى فى بارانكيلا شهورا كثيرة فى انتظار شحنها بالطائرة وبين العودة إلى سلوك ذلك الطريق بالسيارة فى نفس تلك الظروف القاسية لتركت سيارتى فى بارانكيلا إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .. لكنه كان حماس الشباب ، وحسن الحظ والعناية الالهية التى اوصلتنا إلى بوجوتا عبر ذلك الطريق البرى .. ولكنها كانت تجربة فريدة حقا أتاحت لدبلوماسى اجنبى رؤية ما يخفى عادة على الاجانب فى بلد مثل كولومبيا . انى الآن اكثر فهما لما يحدث فى كولومبيا من نشاط عصابات أو مافيا المخدرات وعدم قدرة الحكومة على مجابهتها بسبب تجربتى المثيرة فى رحلتى هذه والتى جعلتنى أكثر تصورا وفهما لطبوغرافية تلك البلاد الواسعة والوعرة .. وصعوبة التحكم فيها .

كان وصول السفير عباس الشافعى إلى بوجوتا بعد شهور ثلاثة من تقديمى لاوراق اعتمادى .. انما فى تلك الاثناء كنت

بفضل رجالات الجاليات الفلسطينية والسورية واللبنانية الذين اتصلوا بنا عارضين خدماتهم ، قد توصلت إلى استئجار دار فخمة لمكاتب السفارة فى حى من ارقى احياء المدينة وتعاقدنا مع سكرتيرة كولومبية تتحدث الانجليزية إلى جانب الاسبانية وافتتحنا ارشيف السفارة وبدأنا فى تنظيم العمل واجراء الاتصالات انتظارا لوصول السفير .. وبعد وصوله كان اختصاصى يتناول المسائل الاقتصادية والثقافية والصحافية والاتصالات العامة إلى جانب بعض مسائل السياسة الخارجية .. وكان جزءا حيويا من نشاطى فى السفارة يقضى بتوثيق اتصالات السفارة بالجاليات العربية وجمع كلمتها وترشيد جهودها لصالح القضايا العربية . كانت تلك اياما عصيبة ففيها وقعت احداث لبنان سنة ١٩٥٨ مما أدى إلى استغاثة رئيس لبنان بالقوات الامريكية .. وكانت هناك بعض الشكوك لدى جانب من اللبنانيين المقيمين فى المهجر فى نوايا الجمهورية العربية المتحدة تجاه لبنان فى حين كان الحماس والشعور قويا بين السوريين والفلسطينيين فى تأييد اتجاهات ج.ع.م .. وكان دور السفارة يقضى بإزالة مخاوف اللبنانيين ومصادقتهم وتوحيد جهودهم وائتلافهم مع اخوانهم الفلسطينيين والسوريين وذلك لثراء ونفوذ الجالية اللبنانية وقد نجحت السفارة فعلا فى مصادقة سفير لبنان فى بوجوتا فى ذلك الوقت السيد /

نعيم الاميونى وهو سفير مارونى لبنانى عاقل وحكيم ، واستطعنا إلى جانبه مصادقة كبار رجالات الجاليات اللبنانية امثال كارلوس بوسعيد وعائلات جمهورى وبازيل وانسليمو ميجيل إلى جانب الفلسطينيين والسوريين شديدى الحماس أصلا . وأصدرت السفارة بالاتفاق مع سفير لبنان والجاليات العربية مجلة شهرية ناطقة بالاسبانية El Mundo Arabe "العالم العربى" ضمنّاها انباء العالم العربى فضلا عن انباء الجاليات العربية فى كولومبيا والمهجر فكانت وسيلة اتصال طيبة بينهم . وكنت اتنقل ما بين بارانكيلا وقرطاجنة وسانتا مارتا وكالى وبيريرا معاقل الجاليات العربية لاتمام تلك المهام ، وتم تعيين يوسف دكرت الفلسطينى قنصلا فخريا فى بارانكيلا ، وفارس غزلان الفلسطينى أيضا قنصلا فخريا فى كالى والغندور السورى قنصـلا فخريا فى بيريرا وهكذا ..

ورغم ثراء بعض افراد الجاليات العربية ثراء عريضا امثال انسيلمو ميجيل وكارلوس بوسعيد وجبور ودكرت وجمهورى وباسيل وملكيتهم لبعض المصانع أو الضياع والمنازل الجميلة أو الفاخرة فلم يعمل احدهم بالسياسة بل كان همهم الأكبر والوحيد التجارة أو الصناعة الصغيرة صناعة الملابس والأقمشة .. وذلك عكس بعض كبار الشخصيات العربية فى شيلى والأرجنتين -

ولعل الاستثناء الظاهر الوحيد فى تلك السنوات كان خوليوسيزار طورباى أيالا المنتمى إلى الحزب الليبرالى والذى صار وزيرا للخارجية فى كولومبيا فى تلك السنوات .. ثم سفيرا لبلاده فى لندن وهكذا . وكان لبنانى الأصل .

وقد لاحظت ، كما لاحظ غيرى من الدبلوماسيين العرب الذين اتيحت لهم فرصة العمل فى دول أمريكا اللاتينية أن همّ المهاجرين العرب فى أمريكا اللاتينية ، حيث يطلق عليهم صفة Los Turcos (أى الاتراك لأن موجات الهجرة الواسعة بينهم إلى امريكا اللاتينية تمت وقت ان كانت لبنان وسوريا وفلسطين ولايات عثمانية فكانوا يسافرون على جوازات سفر تركية Turcos) لاحظت كما لاحظ غيرى أن همهم الأوحد كان التجارة .. وقد نجحوا فيها واصابوا قدرا واسعا من حسن الحظ بفضل اجتهادهم ومثابرتهم وتحملهم الكثير من المشاق .. ومن هنا فإن السلطات المحلية كانت ترحب بهم ومن ناحية اخرى فإن هؤلاء المهاجرين العرب سرعان ما تآلفوا وتعاونوا وتشاركوا مع فئة أخرى ، ناجحة وماهرة هى الأخرى من المهاجرين الاجانب ، ألا وهى اليهود وظل تعاونهم ومشاركتهم بعضهم البعض حتى تلك الحقبة التى عشت فيها فى كولومبيا دون أن تتدخل السياسة للتفرقة بينهم .. بل إن العرب كانوا يثقون فى اليهود - كشركاء شرفاء ، كما كان اليهود يرون

فى التاجر العربى اشرف شريك ، تربطه كلمته دونما حاجة إلى وثيقة مكتوبة !! ولم ير هذا الفريق أو ذاك أن يدخل الأمور السياسية فيما بينهما حتى لا تفسد علاقات كان الطرفان يحرصان على استمرارها ..

ظللت فى كولومبيا سنة ونصف سنة تقريبا اعانى من جراء الارتفاع الشديد .. كنت اعانى الارق واستمرار الصداع احيانا كثيرة وصعوبة التنفس احيانا .. وقد ترددت على الاطباء الذين اشاروا علىّ بضرورة استئصال اللوزتين . وقد تم ذلك فعلا فى أحد مستشفيات بوجوتا [1] لكن لم تتحسن حالتى كثيرا بعد العملية .. ومن هنا طلبت إلى الوزارة نقلى من كولومبيا . واثباتا لحسن نيتى أكدت على انى لا اتطلع إلى النقل إلى عاصمة كبرى وإنما أود النقل لاسباب صحية وأفضل النقل إلى عاصمة أخرى قريبة فى امريكا اللاتينية ذاتها .. على أن تكون أقل ارتفاعا من بوجوتا .. حيث يتسنى لى استكمال دراستى للمنطقة واللغة الاسبانية . وكنت فى تلك الاثناء قد رقيت من سكرتير ثان إلى سكرتير أول .. وفى يوليو ٥٩ صدر قرار نقلى إلى مدينة المكسيك

---

(١) ليلة اجراء العملية فى المستشفى جاءنى أحد القسس الكاثوليك يعرض علىّ أن اعترف له قبل العملية كما هو متبع لدى الكاثوليك .. وقد اعتذرت له بلطف وشكرته حتى لا اجرح شعوره ..

عاصمة جمهورية المكسيك .. فرحت كثيرا لهذا النبأ كما هنأني أصدقائى الكولومبيون على ذلك فقد كانوا ينظرون إلى المكسيك نظرة احترام واعجاب وحسد لتقدمها الصناعى والعمرانى والاقتصادى والحضارى .. كما ان صناعة السينما فى المكسيك تغمر كل اسواق امريكا اللاتينية .. وأفضل الأفلام التى تعرض فيها إما مكسيكية أو ارجنتينية ..

وهكذا وصلنا إلى مدينة المكسيك فى يوليو ١٩٥٩.



المكسيك : بلد البراكين والهزات الأرضية .. والسياسية .. لكن أيضا بلد الجمال والدماء الحارة والأكل الحار ..

تقع المكسيك أقصى شمال أمريكا الوسطى ، ما بين خطى عرض ١٨ ، ٣٠ شمالا ، ويقطعها مدار السرطان فى وسطها تماما أى أنها تقع فى المنطقة المدارية والمفروض أن يكون جوها حارا رطبا .. وهذا فعلا حال المنطقتين الساحليتين على خليج المسكيك (المحيط الأطلسى) وعلى المحيط الهادى والمناطق السهلية المنخفضة .. لكن اغلب المكسيك مناطق جبلية مرتفعة أو هضاب مرتفعة مما جعل مناخ تلك المناطق لطيفا معتدلا على مدار السنة ، وحيث يعيش أغلب سكان المكسيك البالغ عددهم حاليا سبعة

وسبعين مليونا (يتزايدون بنسبة ٣٪ سنويا) . وتحد الولايات المتحدة المكسيك شمالا ويحدها جنوبا جمهورية جواتيمالا وبليس اى هندوراس البريطانية وخليج المكسيك شرقا والمحيط الهادى غربا ..

وتأتى المكسيك كثانية دول أمريكا اللاتينية بعد البرازيل من حيث تعداد السكان ويأتى ترتيبها الثالث من حيث اتساع الرقعة بعد البرازيل والارجنتين .. ومساحة المكسيك ثلاثة أمثال مساحة فرنسا ، وضعف مساحة القطر المصرى باكمله تقريبا وتمتد المكسيك مما يوازى الخرطوم إلى الاسكندرية . وشمال المكسيك جاف قارى بسبب قلة الأمطار ، أما جنوبها فمدارى رطب - فيما عدا المرتفعات كثيرة الامطار التى تغطيها الغابات - فى كثير من اجزائه . وتتميز رقعة المكسيك بوفرة البراكين المرتفعة الخامدة (يوجد اثنان منها قريبان من العاصمة وبعضها يتحرك بين الحين والآخر) كما تتميز بحدوث زلازل وهزات أرضية كثيرة ، أما فى العاصمة مدينة المكسيك فالملاحظ وقوع زلزال كبير مرة كل عشر سنوات تقريبا بصفة منتظمة مما يدل على أن المنطقة التى بنيت عليها العاصمة لم تستقر قشرتها الارضية تماما بعد .. والواقع أن العاصمة بنيت فوق منطقة رخوة كانت مغطاة بالمستنقعات والبحيرات الضحلة التى جففت صناعيا أو طبيعيا لكن مازال باطنها رخواً .. وهناك حدائق وبحيرات سوشيميلكو Xochimilco

الجميلة القريبة من العاصمة التى يزورها آلاف السياح سنويا ، من مكسيكيين واجانب للاستمتاع بجمالها وبركوب الجندولات فوق مياهها والاستماع إلى غناء "الماريانشى" (فرق غناء وموسيقى مكسيكية فولكلورية شهيرة) Los Mariachis كما ان سراى الفنون الجميلة Las Bellas Artes في وسط العاصمة تغوص بمقدار سنتيمترين سنويا من وفرة ثقلها لما ادخل فيها من رخام كثير .. وهى من مشاهد مدينة المكسيك الجميلة المتعددة ..

والمكسيك من أكثر دول امريكا اللاتينية تقدما صناعيا واجتماعيا وحضاريا . كما انها من أغناها فيعمل ٤٠٪ من القوى العاملة فى الزراعة و٢٠٪ فى الصناعة ، ويبلغ اجمالى الناتج القومى سنة ٨٢ / ١٦٢ بليون دولار ومتوسط دخل الفرد سنة ١٩٨٠ ألف وثمانمائة دولار سنويا تقدر حاليا سنة ١٩٩٣ باكثر من ٣٠٠٠ دولار سنويا (متوسط دخل الفرد فى مصر ٦٥٠ دولارا سنويا) وتقدر صادرات المكسيك سنه ١٩٨٤ بـ ٢٥ بليون دولار بما فيها صادراتها من البترول - اغلبها ٥٥٪ إلى الولايات المتحدة وإلى اسبانيا ١٠٪ - أما وارداتها فى سنة ٨٤ فقدرت باثنى عشر بليون دولار اغلبها ٦٤٪ من الولايات المتحدة و٥٪ من كل من اليابان والمانيا الغربية - أما ميزانية الدولة السنوية سنة ٨١ فكانت ٩٣ بليون دولار وبلغت قيمة الدخـــل نفس قيمة مصـــروفات الدولة ويبلغ عدد السيارات الخاصـــة المستعملة فى

المكســيك ٥,٢ مليون سيارة و٢مليون سيارة تجارية وبلغ عدد السيارات المصنوعة محليا فى المكسيك سنة ٨١ / ٣٥٧ ألف سيارة خاصة و١٧١ ألف سيارة تجارية وعدد اجهزة التليفزيون فى المكسيك ٨ ملايين جهاز سنة ٨٣ انتج منها محليا ١,٥ مليون جهاز سنة ١٩٨٠ وهناك أكثر من ستة ملايين جهاز تليفون بالبلاد. أما متوسط عمر المكسيكى المنتظر بعد ولادته فهو ٦٢ سنة للذكور و٦٧ سنة للاناث وتبلغ نسبة الأمية ٢٥٪ سنة ١٩٨٣ . والمكسيك من كبريات الدول مصدرة البترول فى العالم وعندها أكبر مخزون من البترول فى العالم ٧٢ بليون برميل وأصبح بدءا من الستينات والسبعينات اهم صادرات المكسيك ويليه الفضة والنحاس والحديد والزنك ، كما انها تنتج ٧ ملايين طن من الفولاذ سنويا والكيماويات والأدوات الكهربائية والكاوتشوك لكن المكسيك ايضا بلد زراعى ينتج الموالح وقصب السكر والبن والدخان والقطن ، وتصدر منها كلها كميات كبيرة .. أما انتاج الذرة وانتاج المراعى، رعى الأغنام والابقار فكلها للاستهلاك المحلى ومساحة الأراضى القابلة للزراعة عشرون فى المائة من مساحة المكسيك ويصعب على الحكومات المتعاقبة فى المكسيك وقف زحف أهل الريف إلى العاصمة ومراكز العمران الأخرى سعيا وراء الأجور الأوفر فى الصناعة وخدمات السياحة ..

وهكذا فإن ستين فى المائة من المكسيكيين يقيمون حاليا فى المدن (هناك أكثر من خمسين مدينة فى المكسيك تعداد كل منها لا يقل عن المائة ألف) ولا يقيم في الريف سوى خمسة وعشرين مليون مكسيكى من جملة الشعب البالغ سبعة وسبعين مليونا .. وهو ما قد يضر بالزراعة .. ومما جعل مدينة المكسيك أكثر مدن العالم تعدادا (حوالى عشرين مليون نسمة تزداد سريعا) .

كذلك هناك ظاهرة أخرى واضحة وهى هجرة كثير من المكسيكيين إلى الولايات المتحدة ، أكثرهم يدخلون خلسة بعد أن يسبحوا عبر نهر "ريوجراندى" الذى يفصل تكساس عن المكسيك ويسميهم الأمريكيون Wetbacks أى "مبلول الظهر" نتيجة لسباحة هذا النهر خلسة ، ويقيم فى الولايات المتحدة أكثر من ثلاثة ملايين مكسيكى فيما عدا النازحين الهاربين غير الشرعيين وقد اضطرت الولايات المتحدة إلى اصدار قانون سنة ١٩٨٨ بالعفو عن هؤلاء المكسيكيين المهاجرين غير الشرعيين إذا ما أعلنوا عن وجودهم وصححوا وضعهم ليصبحوا مواطنين مسموحا لهم بالبقاء فى أمريكا حاليا ، ورغم هذا تشكو المكسيك من ارتفاع نسبة البطالة ونصف البطالة بسبب كساد صناعة البترول عالميا ورغم نشاط السياحة الوفير فى المكسيك .. فالمكسيك ، بسبب قربها أو بالأحرى ملاصقتها للولايات المتحدة وقربها من كندا ، وطيب

مناخها فى الأماكن المرتفعة على مدار السنة ، ورخص تكاليف المعيشة نسبيا عن امريكا اصبحت قبلة السائحين الأمريكيين والكنديين طوال العام ومن جاور السعيد يسعد وهو وجه واحد فقط للعملة [١] .. وأصبحت صناعة السياحة من أهم موارد الدولة .

ولنفس السبب ، أى لملائمة طقسها للمعيشة ، كانت المكسيك مرتعا تاريخيا لجماعات الصيد وجمع الثمار لدى الإنسان الأول منذ عشرة آلاف سنة ، ثم قامت أول حضارة تاريخية بها Tehua-can خمسة آلاف إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وعرف عن هذه الحضارة زراعة واستعمال الذرة ربما لأول مرة فى تاريخ العالم .. وهناك آثار لقرى شعوب المايا Los Mayas التى قامت على زراعة الذرة ، ثم وجدت بعد ذلك حضارة الأوليك Olmecs ثم حضارة Teotihuacan ثم حضارة Zapotecs ثم تلا ذلك غزو محاربى الـ Chichimecs للمايا وانتصارهم عليهم ثم قيام حضارة Toltecs فى مدينة Tule ثم انقراضها ، وقيام حضارة Mixtecs ومنها أخذ اسم المكسيك الحالى .. ثم عاد شعب المايا للازدهار لثالث مرة سنة ألف بعد الميلاد إلى ألف وخمسمائة بعد الميلاد ثم عودة الـ Chichimec لغزو المايا مرة ثالثة وعن الاخيرين تفرع شعب الازتيك

---

(١) الوجه الآخر للعملة هو : ومن جاور الحداد اكتوى بناره مما سيتبين لاحقا ..

Aztecs الذى انشأ مدينة Tenotchilan مكان مدينة المكسيك الحالى سنة ١٣٢٥ – ١٣٤٥ بعد الميلاد .. وآخر ملوك المكسيك قبل الغزو الاسبانى كان من الازتيك واهم شعوب المكسيك القديمة اذن هم المايا والمكسيك والازتيك بصفة عامة .. وكلها من الشعوب الهندية الحمراء التى اقامت الحضارات . لكن هناك شعوبا هندية أقل حضارة وأكثر تأخرا تلك التى عاشت فى غابات المناطق المدارية الساحلية الحارة الرطبة غير المشجعة لقيام الحضارات .

ومن الطريف أن شعوب المايا والأزتيك تناقلت اسطورة معينة بعينها لمئات السنين كانت تقضى بأن تلك الحضارات سوف تزول عندما يخرج من المحيط ويطأ شواطئ المكسيك آلهة بيضاء اللون ! فلما نزل إلى شواطئ المكسيك هرنان كورتز Hernan Cortes القائد الاسبانى الأبيض ذو اللحية الشقراء ومعه ستمائة (فقط) من الفرسان البيض ببنادقهم وبخيولهم التى لم تكن مألوفة للأزتيك سنة ١٥١٩ كان الفزع والهلع بين جيوش الهنود الحمر الكثيفة المتراصة حليفا لكورتز فى تحقيق انتصارات سريعة سهلة جدا .. حتى لقد تمكن ستمائة فارس اسبانى، أو بالأحرى مابقى منهم بعد فتك الملاريا بالكثيرين منهم، من إزالة امبراطوريات المايا والازتيك التى عاشت آلاف السنين وفوق مساحة مثل مصر مرتين. فما كانت سنة ١٥٢١ إلاّ وقد دانت جميع انحاء المكسيك للاسبان،

وأسس كورتيز دولة «اسبانيا الجديدة» وأصبح نائبا للملك حاكما عليها يمثل التاج الأسبانى، أما شعوب المايا والازتيك، أما المكسيكيون الحقيقيون فقد ابيدوا بالآلاف أو قتلوا بفعل أعمال السخرة التى فرضها الأسبان البيض، أو بسبب فتك الأمراض التى حملها الرجل الأبيض معه من أوروبا ولم تكن معروفة فى المكسيك بعد. ومما يذكر ان كورتيز وعد آخر ملوك الازتيك بالعفو عنه إذا ما سلم كورتيز حجرة كاملة مملوءة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.. فلما جمع الشعب له ماأراد وسلمه إلى كورتيز الذى لم يعف عنه بل قتله شر قتلة .وما أتى القرن السابع عشر والثامن عشر إلا وقد تمكنت الكنيسة الكاثوليكية الأسبانية من فرض تحول الهنود الحمر الى الكاثوليكية بفعل محاكم التفتيش La Inquisicion (١) ونشاط الأسبان الجزويت والمبشرين الأسبان. وتحولت المكسيك إلى منجم كبير ومصنع كبير للفضة والذهب لتصديرهما إلى أسبانيا، وقد قيل فى هذا الصدد إن كمية الفضة أو الذهب التى خرجت من أمريكا اللاتينية لأسبانيا تحت حكم الأسبان كانت تكفى لاقامة جسر عائم عبر الأطلسى يوصل مابين أسبانيا وأمريكا اللاتينية ..

---

(١) مثلما فعلت محاكم التفتيش فى أسبانيا ذاتها ضد العرب المسلمين وضد اليهود بعد زوال الحكم العربى فى أسبانيا .

لكن من صفات الأسبان أو حسناتهم انهم اختلطوا وتزاوجوا مع الشعوب الأصلية حتى لقد أصبح غالبية المكسيكيين أو بالأحرى ٥٥٪ منهم Mestizos أى مخلطين نتيجة اختلاط الجنس الأبيض بالجنس الهندى الأحمر. ولا يتعدى عدد تلك الطبقة البيضاء التى لم تختلط بالجنس الهندى الأحمر فى المكسيك العشرة بالمائة. ويوجد تسعة وعشرون بالمائة من الهنود الحمر الخالصين وخمسة بالمائة من سلالات الجنس الأفريقى الأسود وبخاصة على سواحل المحيط الاطلسى وخليج المكسيك.. وعكس ماحدث فى بلاد أخرى فى أمريكا اللاتينية فإن المخلطين Mesti-zos فى المكسيك مشاركون وبشدة فى الحياة العامة الاجتماعية والسياسية وكان لهم دور متميز فى جميع حركات الثورة ضد أسبانيا وحروب الاستقلال وجميع الأنشطة السياسية والاجتماعية الأخرى ووصل بعضهم إلى رئاسة الجمهورية. ولعل هذا كان سببا فى افتخار المكسيكيين بأصلهم المختلط أكثر من أى من شعوب أمريكا اللاتينية الأخرى وبتخليدهم لذكرى حضارات المايا والازتيك القديمة واحترامهم لذكرى ملوكهم (الهنود) وتخصيص أهم الميادين فى المدن الكبرى لتماثيلهم وكما أسلفت لا يوجد تمثال واحد لكورتيز أو لغيره من الأسبان والغزاة فى المكسيك ..

أما تاريخ المكسيك الحديث فيعود إلى ١٨١٠/٩/١٦ حينما

نادى هيدالجو Hidalgo وكان قسا هنديا أحمر فى مدينة دولوريس الصغيرة فى شمال المكسيك نادى لأول مرة بالاستقلال عن أسبانيا.. وتحتفل المكسيك سنويا إلى اليوم بما تسميه «صرخة دولوريس» أو «صرخة هيدالجو Elأو Grito de Hidalgo" "Grito de Dolores" فى يوم الاستقلال ١٦ سبتمبر من كل عام. وتبعه القس موريلوس Morelos سنة ١٨١٢ أى بعد اغتيال هيدالجو فقام الشعب الهندى الأحمر الفقير بالثورة ضد الأسبان والكريول Cre'oles أى المستوطنين الأسبان وذلك بمساعدة الجنرال ايتوربيدى. ونجحت الثورة وأعلن استقلال المكسيك سنة ١٨٢٠ وتلا ذلك فترة سنتين قامت فيها ثم اندثرت امبراطورية ايتوربيدى المكسيكية العرجاء ثم انتهت باعلان الجمهورية وتولى الجنرال سانتا أنا رئاساتها سنة ١٨٢٤ - ١٨٥٥. وهنا بدأت الهزات السياسية ترج أركان المكسيك.. فكما حدث فى كولومبيا انقسم الشعب إلى فريقين، فريق محافظ محبذ لقيام حكومة مركزية شديدة وآخر محبذ لقيام حكومة فيدرالية ليبرالية. وانتهز الأمريكيون الشماليون فترة الشقاق والفوضى هذه ليتمكنوا من سلخ تكساس عن المكسيك وأصبحت ولاية أمريكية مستقلة، ثم قامت الحرب بين المكسيك والولايات المتحدة من سنة ٤٦ - ١٨٤٨ تمكنت الولايات المتحدة فيها من ضم كاليفورنيا ونيومكسيكو واريزونا (وتبع ذلك فى فترة أخرى لفلوريدا ايضا!! قلنا فيما سبق

أن من جاور السعيد يسعد : والوجه الآخر للعملة هو ومن جاور الحداد اكتوى بناره!! .

تلت هذه الهزات السياسية حرب أهلية مكسيكية طاحنة استمرت من ١٨٥٨ - ١٨٦١ ما بين الليبراليين الفيدراليين والمركزيين الرجعيين. وفي عهد رئيس الجمهورية الليبرالي بنيتو خواريز Juarez (وهو ايضا من أصل هندى أحمر) تدخلت فرنسا مباشرة في المكسيك مابين سنوات ١٨٦٢ - ١٨٦٧ فاقامت امبراطورية كاثوليكية رجعية بزعامة مكسيميليان الأمير النمساوى ربيب فرنسا، وقد تم هذا بتحالف فرنسا (نابليون الثالث) وأسبانيا وبريطانيا فقد أيد ثلاثتها قيام تلك الامبراطورية اليمينية الرجعية في المكسيك على حدود الولايات المتحدة الجنوبية لمعادلة تأثير قيام دولة ليبرالية فتية في الولايات المتحدة (بعد حرب الشمال والجنوب) رأت فيها الدول الأوروبية العظمى الثلاث خطرا عليها. لكن فتر حماس بريطانيا وأسبانيا لهذه الامبراطورية المكسيكية المكلفة وبالتالي لم يستطع نابليون الثالث وحده وبخاصة ازاء ضغوط الولايات المتحدة المتزايدة، استمرار تأييده المادى والعسكرى لمكسيميليان فهزمته قوات الثوار المكسيكية وأعدم بأمر خواريز سنة ١٨٦٧ .

ويذكر التاريخ أن الامبراطور نابليون الثالث زوج الامبراطورة أوجينى التى حضرت افتتاح قنال السويس فى مصر إلى جانب الخديو اسماعيل حاول الاستعانة بجميع حلفائه واصدقائه فى العالم لشد ازر مكسيميليان حتى أن الخديو اسماعيل وافق على إرسال كتيبة مصرية اشتركت الى جانب قوات مكسيميليان والقوات الفرنسية فى حربهم ضد الثوار. ولكن كان مصير تلك الفرقة المصرية نفس مصير مكسيميليان ولحسن الحظ فقد نسى المكسيكيون هذه الحادثة كما نساها أغلب المؤرخين ..

وبعودة الجمهورية تحت خواريز من جديد عادت الزلازل السياسية والفوضى والحرب الأهلية فترة طويلة حتى سنة ١٨٧٦ حين استولى على الحكم الجنرال بورفيريو دياز وظل متربعا على الرئاسة حتى سنة ١٩١١ وأهم إنجازاته تحقيق السلام والاستقرار وتحديث الاقتصاد واجتذاب الاستثمارات الأجنبية وقد حكم البلاد بيد حديدية .

– الثورة المكسيكية أول ثورة اشتراكية فى العالم :

قامت ثورة عسكرية ضد دياز اطاحت به وولت محله فرانسيسكو ماديرو سنة ١٩١١ رئيسا للجمهورية وكان استاذا (مدرسا) متعلما ذكيا وكان مشهورا بالاعتدال والتسامح عكس دياز لكنه كان ضعيفا مترددا فلم يلبث أن اغتاله الجنرال هويرتا

سنة ١٩١٧ تاركا البلاد فى خضم من النزاعات والشد والجذب مابين التيارات المختلفة داخلية وخارجية (أمريكية شمالية).. ومايؤثر عن ماديرو رثاؤه لحال المكسيك بقوله:

«مسكينة هذه المكسيك، لشد ماهى قريبة من الولايات المتحدة، ولشد ماهى بعيدة عن ربنا سبحانه وتعالى» .

Pobre de mexico! Tan cerca de los Estados unidos tan lejos de Dios!!

وقد حاولت الولايات المتحدة فى عهد ماديرو انزال درس تأديبى بالمكسيك فارسلت اسطولها الذى امطر مدينة فيراكروز بقنابله.. ووصلت قوات المشاة الأمريكية إلى مدينة المكسيك وحاصرت قصر تشابولتيبك حيث استمات «اطفال» وفتيان الكلية العكسرية المكسيكية فى الدفاع عنه. ويحتفل المكسيكيون بهذه الذكرى ويسمونها los Ninos Heroes «الاطفال الابطال» كما تدخلت قوات أمريكية فى شمال المكسيك مابين سنة ١٩١٤, ١٩١٧ ضد قوات الجنرال هويرتا مما أوقع المكسيك فى فوضى ناشبة وحرب أهلية مدمرة فقد قامت فى تلك الاثناء ثورة بانشوفيلا Pan-chovilla وكان أقرب شيء الى روبن هود مكسيكى فكان آفة سكان الحدود الامريكيين.. وقد استطاع الجنرالان كارانزا واوبريجون القضاء على ثورة بانشوفيلا Panchovilla سنة ١٩١٥

بعد عناء كبير لكن قامت ايضا ثورة امليانو زاباتا فى جنوب المكسيك Zapata وكان فلاحا هنديا ونادت ثورته بالحرية وتوزيع الأراضى على الفلاحين كان شعارها Tierra y libcrtad. الأرض والحرية وقد قضى عليها ايضا الجنرال كاراترا الذى استولى اخيراً على الحكم وفرض دستورا اشتراكيا سنة ١٩١٧ – تضمن توزيع الأراضى على الهنود وإنشاء مزارع جماعية حكومية.. وفى سنة ١٩٢٠ اغتاله الجنرال اوبريجون وظل فى الحكم حتى سنة ١٩٢٨. وخلفه جنرال آخر الياس كاييس الذى اضطهد الكنيسة وصادر املاكها وقلم اظافرها مما أدى إلى قيام ثورة المسيحيين الفاشلة سنة ١٩٢٦ – ١٩٢٩.. ومازالت المكسيك إلى اليوم دولة علمانية ليس لها دين رسمى ولا يوجد للكنيسة أى دور رسمى بها..

وأخيرا وصل الجنرال لازارو كارديناس الى الحكم سنة ١٩٣٤–١٩٤٠ فوسع من نطاق وآفاق الإصلاح الزراعى بتوزيع مزيد من أراضى الدولة على الفلاحين الهنود فى جمعيات زراعية جماعية وحكومية Ejidos كما أمم صناعة البترول وكانت فى أيدى شركات أمريكية شمالية وتبعه سلسلة من الرؤساء المصلحين المدنيين وفى عهدهم ادخلت المكسيك انظمة الأمن الاجتماعى واسعة النطاق وقوانين حماية حقوق العمال وتحديد نسب أرباح

للعمال من الشركات التى يعملون فيها، كما أصلحوا نظام التعليم.. وأهم هؤلاء أفيلاكاماشو الذى زاد سرعة تصنيع البلاد - ثم ميجيل اليمان ثم رويس كورتينز ثم لوبيز ماتيوس ٥٨ - ١٩٦٤ ثم دياز اورداس ثم لويس اتشارفاريا ٧٠-١٩٧٦ والأخير كان ديموقراطيا مصلحا وهو أول من نادى بالنظام الاقتصادى العالمى الجديد وقد قام بتوزيع كميات اضافية من الأراضى التى لا يزرعها اصحابها الى الهنود.. لكن مالبث خلفاؤه أن ألغوا قراراته تحت ضغط اصحاب الأراضى ثم تبعه لوبيز بورتللو ٧٦-١٩٨٢ وفى عهده اكتشف مزيد من آبار البترول بوفرة كبيرة فزادت الدولة من رقعة انفاقها ومشاريعها زيادة ادت الى اتساع حجم ديون المسكيك الخارجية الحالية بعد حدوث ازمة اسعار البترول فبلغ حجم تلك الديون ستين بليونا من الدولارات.. وقد عانت المكسيك من جراء ازمة الديون هذه إلى جانب آثار البطالة المتفشية فى عهد رئيسها السابق (المدنى) كارلوس ســـاليناس دى جورتاى وكان هذا أحد أسباب سخط الطبقات العاملة والفقيرة رغم تجميد الأسعار وتأميم البنوك الخاصة .

ويلاحظ أن «الجنرالات» تعاقبوا رياسة الجمهورية فى المكسيك نتيجة حركات عسكرية ثورية Putch لمدة قرن كامل من ١٨٢٤ - الى ١٩٤٠ ماعدا فترات قصيرة جدا. ثم بدأ عهد الرؤساء المدنيين

من ١٩٤٠ للآن.. الا أنه من المعروف بالمثل أن الحزب الحاكم في المكسيك Partido Revolucionario Institucionol أي الحـــزب الثوري التأسيسي احتكر الحكم لأكثر من نصف قرن أي منذ ١٩٢٩ ولم يسمح لأي حزب آخر أو تنظيم أخر بالمشاركة السياسية سواء كان يتبادل بالحكم أو بالمشاركة فيه.. حتى أن المعارضة ضدا P.R.i ظلت محل كبت وضغوط وارهاب الا منذ سنوات قليلة حين جرؤ حزب PAN الليبرالي على رفع صوته المعارض.. وفي الانتخابات الأخيرة سنة ١٩٨٨ PAN نال نسبة كبيرة جدا من الأصوات وبخاصة في المدن كادت تفوق النسبة التي فاز بها الحزب الحاكم PRi تحت رياسة كارلوس ساليناس دي جورتاري وقد اتهم حزب واحزاب المعارضة الأخرى الحزب الحاكم بالغش والخداع وتزوير نتيجة الانتخاب وهذه أول مرة في تاريخ استقلال المكسيك تصل فيها المعارضة الى مثل هذه النسبة من أصوات الجماهير والى هذا القدر من التحدي الصريح في حملتها ضد الحزب الحاكم.. كذلك يلاحظ أن الحزب الحاكم كان دائما يرشح خليفة رئيس الجمهورية المنتهية مدة رئاسته. وعادة كان مرشح الحزب الحاكم هو وزير الداخلية في وزارة الرئيس السابق أو أمين عام التنظيم الداخلي للحزب.. وكان مرشح الحزب الـ PRi يصل دائما الى رئاسة الجمهورية وبصفة أوتوماتيكية وذلك

نتيجة لحسن تنظيم الحزب وسيطرته التامة على أغلب الولايات منذ ١٩٢٩ بسبب نفوذه على المزارع الحكومية الجماعية Ejidos والمصانع الحكومية وبفضل نفوذه الاقتصادى المعروف. هذا والمعروف أن دستور المكسيك يقسمها إلى ٣١ ولاية فيدرالية بالاضافة الى «المنطقة الفيدرالية» المركزية أى العاصمة مدينة المكسيك.. ولكن كان تصويت مدينة المكسيك الى جانب الحزب المعارضPAN في حين جاءت أغلبية الأصوات التى نالها الحزب الحاكم PRi من الولايات الريفية .

لكن يبدو من نتيجة الانتخابات الرئاسية الأخيرة سنة ١٩٨٨ أن اشراقة شمس الديموقراطية الحقيقية فى المسكيك على الأبواب، ومن الواضح أن الرأى العام المكسيكى لم يعد يقبل سيطرة وهيمنة حزب واحد دائما بل سيقول كلمته في الانتخابات القادمة .

رأينا كيف أن شعب المكسيك وقع تحت صنوف الارهاب والتقتيل والتشريد منذ الفتح الأسبانى سنة ١٨١٩ - ١٨٢٠ ثم تحت محاكم التفتيش الرهيبة وتحت سيطرة الغزاة البيض حتى مطلع ثورة الاستقلال سنة ١٨١٠ ولم يجىء الاستقلال بالسلام والوئام المنشودين من شعب المكسيك بل تبعته حروب أهلية كثيرة وخارجية ايضا ضد التوسع الأمريكى الشمالى ثم ضد الغزو

الفرنسي النمساوى الذى حاول فرض امبراطورية مكسيميليان عليه ثم حروبه ضد الولايات المتحدة مرة ثانية ثم الحروب الأهلية مرة ومرات ثم وقع تحت ديكتاتورية عسكرية ثم تحت سيطرة وهيمنة الحزب الثورى التأسيسى منذ ١٩٢٩ وحتى الآن ..

وقد سالت الدماء انهارا فى المكسيك واشترى الشعب المكسيكي حريته السياسية وحرياته وحقوقه الاجتماعية بثمن غال فادح.. ورغم هذا كله أو بسبب هذا كله نجد أن الشعب المكسيكى أصر وأكد على طبيعته السخية المرحة ومازال على حبه للمرح والفكاهة والغناء والرقص حتى عندما كان يئن ويتوجع تحت سيطرة الغزاة والجبابرة. وأغلب الاغنيات المكسيكية ذات طابع حزين ومشتاق Nostalgic وان كانت هناك أغان فولكلورية جماعية مرحة وسريعة الايقاع. واشتهرت اثناء ثورات المكسيك من أجل الاستقلال أغنية كان يتغنى بها الفلاحون فى طريقهم على الاقدام عبر مئات الكيلو مترات .

«ايتها الصرصارة ايتها الصرصارة [١]، لم اعد قادرا على المشى»

---

(١) الصرصارة (لاكوكاراتشا) زعيمة مكسيكية اشتركت فى حروب التحرير رغم انها خرجت من بيئة ريفية فقيرة .

cha!La Cucaracha ! la cucara Ya no puedo caminar !

ومثل اغنية إنى اغنى لأنى اشعر بتعاسة شديدة

Estoy Cautando porque estoy tan infeliz !

ولعل أهم أغنية كانت تتمشى مع تلك المناسبات كما لعلها أشهر أغانى فترة الثورة والحروب الأهلية أغنية السماء الصغيرة الجميلة Cielits hinds والتى تناشد المكسيكى أن يستمر فى الغناء حتى فى أشد أوقاته حزنا Canta -y-no llores! porque cantando se allegran cielito lindo los corazones

أى غنـــــى

لاتبكى! لأن الغناء يدخل المرح على القلوب ايتها السماء الصغيرة. والأغنية المكسيكية من أجمل أغانى أمريكا اللاتينية وأقربها إلى الوصول للقلوب حتى وإن حملت فى طياتها شيئا من الحزن والشوق والحنين.. مثال ذلك أغنية !Malagena Salerosa

وكما أن صناعة السينما المكسيكية هى بحق صاحبة الهيمنة والسيطرة على السوق اللاتينية، (١) كما ونوعا.. فان وضع المكسيك فى أمريكا اللاتينية أقرب إلى وضع مصر فى العالم العربى من ناحية سيطرة وتغلب السينما المصرية والغناء والطرب، بل روح المرح والفكاهة..

---

(١) الأفلام المكسيكية والارجنتينية تسيطر على كل أسواق امريكا اللاتينية الناطقة بالأسبانية .

لكن المقارنة بين المكسيك ومصر قد لا تقف عند حد السينما والغناء والمرح والفكاهة بل قد تذهب الى أبعد وأعمق من هذا بكثير.. فالمكسيك تمتد على نفس خطوط العرض التى تقع مصر عليها وكل من مصر والمكسيك ايضا تشتهر بزراعة القطن طويل التيلة (وإن وجدت هذه الزراعة فى بلاد قليلة اخرى غيرها) كما أن الشعبين المصرى والمكسيكى طبقهما المفضل لرجل الشارع هو الفول المدمس! والشعبان هما نتيجة اختلاط الغزاة والفاتحين مع الشعوب الأصلية (العرب مع اقباط مصر والصعايدة والنوبيين، والأسبان مع المايا والازتيك). وقد حمل الغزاة الى كل من البلدين لغتهم وديانتهم فاصبحتا لغة ودين مصر (الاسلام والعربية) والمكسيك (الكاثوليكية والأسبانية). ومصر والمكسيك هما أكثر شعوب منطقتيهما تقدما صناعيا واشعاعا ثقافيا وحضاريا لكن لم تنس مصر ولا المكسيك الافتخار والمباهاة بماضيهما التاريخى المجيد قبل حلول الفاتحين العرب والأسبان.. مصر الفرعونية، والمكسيك المايا والازتيك، أكثر من شعوب المنطقتين بصفة عامة ..

ومن المدهش أيضا أن حضارة الازتيك والمايا فى المكسيك هى الوحيدة فى أمريكا اللاتينية التى خلّفت الاهرامات Teotihuacan وغيرها.. فهناك أكثر من أربع أو خمس مناطق أهرامات شهيرة فى المكسيك وهى أهرام مدرجة مثل هرم سقارة لكن الدرجات أقل

ارتفاعا .. ومصر هى الوحيدة فى العالم العربى وشمال افريقيا التى خلفت حضارتها القديمة اهراما بالمثل.. بل إن المايا والأزتيك قد عبدوا الشمس مثلما عبدها قدماء المصريين!! والفارق بين الحضارتين أن المصـــريين القدماء لم يؤمنوا بتقـــديم القرابين ولا الضحايا البشرية فى حين كان ذلك جزءا من ديانات شعوب المكسيك القديمة .

وقد أدرك كثير من المفكرين المكسيكيين (وغيرهم) اوجه التشابه بين مصر والمكسيك فبدأوا يتساءلون عما اذا لم تكن حضارتا المايا والازتيك وريثتين لحضارة مصر القديمة أو فرعا لها حملها مهاجرون مصريون قدماء عبروا الاطلسى واستقروا بها فى المكسيك وأمريكا الجنوبية (١) وقد أثبتت الرحـالة تـور هايـردال (٢) العالم والمكتشف والمغامر النرويجى صدق نظرية احتمال عبور قدماء المصريين بزوارق كبيرة صنعت من نبات البردى وحزمت كلها جيدا بأن تمكن هو نفسه من عبور الأطلسى على مركب البردى مثل الذى كان ينتج فى مصر وبعض بلاد أفريقيا وقد وجدت أنواع من نبات البردى فى المكسيك وقرب بحيرة تيتيكاكا

---

(١) اقرأ chariots of the gods + The Secrets of the greaPy-ramid of guiza + The Raa Expedittion ·

(2) Thor Hyerdhal the Raa Expedition ·(٢)

فى بوليفيا حيث مازال الهنود الحمر يستعملون زوارق من نبات البردى المزروع حول البحيرة) حاليا فى صيد الأســـماك !

هذا والمكسيك من أجمل بلاد الدنيا قاطبة من حيث جمال الطبيعة وجمال الجو وبخاصة فوق الهضاب المرتفعة مثلما حال مدينة المكسيك ذات الربيع الدائم ويتفاوت ارتفاع جبال وهضاب المكسيك من ٢٠٠ الى ٣٠٠٠ متر فوق سطح البحر.. أما مدينة المكسيك فهى ترتفع أكثر من سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر (أقل من ارتفاع بوجوتا اكثر من الف قدم) وشمسها مشرقة أغلب الأحيان حتى فى موسم الأمطار.. فجوها لطيف منعش، يميل الى جو الربيع طوال العام مما يجعلها مركزا سياحيا ممتازا وبخاصة بسبب توافر أسباب السياحة الأخرى من فنادق كثيرة متفاوتة الطبقات الى تاريخ وحضارة قديمين والى الصناعات اليدوية المكسيكية الجميلة ..

فمدينة المكسيك تضارع ابهى مدن أوروبا فهى مدينة ذات اصالة وتاريخ وحضارة مستمرة.. والزائر لديه الكثير بل الكثير جدا الذى يملأ وقت فراغه ويجذبه إلى المشاهدة. حتى مصارعة الثيران.. موجودة أيضا.. فهناك حى قصر الفنون الجميلة las Bellas Artes وهى مدخل المدينة القديمة ثم شارع ماديرو الموصل من الفنون الجميلة إلى الميـدان الرئيسى El Zocalo مقر قصـــر

الرياسة ومقر الحكم وهى سراى جميلة تاريخية. وطريق ماديرو هذا مرصع ذات اليمين وذات اليسار بتجار الفضة والمصنوعات الفضية التى تشتهر المكسيك بجودتها. وقرب سراى الفنون الجميلة يوجد برج أمريكا اللاتينية وهو أقدم ناطحة سحاب فى أمريكا اللاتينية ويرتفع إلى ٤٩ طابقا بنى بطريقة حديثة لمقاومة الزلازل مثله فى ذلك مثل عدد كبير آخر من ناطحات السحاب والفنادق المرتفعة. ويوجد بوسط المدينة محلات El palacio de Hierro السراى الحديدية «وهو أكبر متاجر المدينة الضخمة ومن الناحية الأخرى من قصر الفنون الجميلة يبدأ طريق لاريفورما Avenida la Reforma وهو مايماثل الشانزلزيه فى باريس حسنا وبهاء وبه المتاجر الصغيرة الفخمة Boutiques ويمتد عشرات الكيلومترات عبر عدة ميادين جميلة بعضها حمل تماثيل ملوك الازتيك أو المايا مثل ميدان El Angel ويوجد قريبا منه حى تجارى انيق La zona Rosa حول شوارع Niza و Geneva Hamburgo etc. حيث توجد سلسلة من المتاجر الانيقة الصغيرة والفنادق والمطاعم الفاخرة.. أما طريق الثوار Avenida de los Insurgentes فيمر قاطعا لاريفورما ويمتد طوله الى خمسين كيلو مترا من أول المدينة إلى آخرها وبه أحياء سكنية فاخرة كما تحفه المتاجر والمطاعم الأنيقة. وفى نهاية طريق الثوار يصل بنا الى حى

جديد فاخر اسمه El Pedregal به فيلات انيقة حيث صنعت كلها من حجارة البازلت واللافا البركانية.. وهناك قريبا منه يوجد حى جامعة المكسيك ومكتبتها الشهيرة La Bibliotequa المغطاة بالموزاييك ويزينها من الخارج لوحات فنية كبيرة جدا من الموزايكو من صنع كبار رسامى المكسيك.. وبالمكسيك الحديثة خمسة أو ستة من أشهر رسامى العالم مقدرة وشهرة..

أما طريق لاريفورما فيستكمل صعوده نحو قصر تشابولتيبيك El Castillo de Chapultepec الشهير الذى سكنه الامبراطور مكسيميليان وهو يستحق الزيارة هو الآخر.. وقريبا منه توجد سلسلة محلات Sanborns الشهيرة المملوكة لشركة امريكية شمالية وهى تحوى مطاعم جميلة يكثر اقبال السياح عليها، لما تحويه ايضا من متاجر تحف وعاديات وصناعات المكسيك اليدوية من النحاس والفضة والأقمشة المكسيكية ذات Mother of pearl النقوش المكسيكية التى تشتهر بصناعتها المكسيك - وقريبا من قصر تشبولتيبيك ومن فندق الـ Camino Real يوجد متحف الانثربولوجيا المكسيكي الشهير وقد تم تجديده فى منظره الجديد منذ حوالى عشرين عاما.. وتستغرق زيارته السريعة حوالى الساعتين على الأقل لكنها زيارة واجبة بقدر ماهى مفيدة وطريفة، ثم هناك حى Polanco السكنى الراقى وبه ايضا متاجر انيقة،

وحى «الغابة» El Bosque الهادىء الجميل ثم يصعد بك طريق الريفورما إلى الحى السكنى الأرقى «المرتفعات» Las lomas حيث تكثر السفارات الاجنبية والفـيلات الفاخرة حـــول شـــــوارع

LaSierra Madre- Sierra Nevada- Sierra Mojada etc. Reforma-

وهكذا بأسماء الجبال المحيطة. وعلى بعد عشرين كيلو مترا من مدينة المكسيك ويصلها بها طريق سريع (اوتوستراد) توجد المدينة التابعة Ciudad Satellite وهى مدينة حديثة جدا بها عمارات مرتفعة حديثة ومتاجر كثيرة ومراكز تجارية جميلة راقية، اضطرت المكسيك لبنائها لتخفيف الضغط السكانى الهائل المتزايد باستمرار حيث بلغ عدد سكان مدينة المكسيك الكبرى عشرين مليون نسمة .

ولا يفوت الزائر أن يزور الحدائق العائمة فى Xochimilco القريبة من مدينة المكسيك حيث يمكنه النزهة في احد الجندولات الكثيرة الرائحة والغادية مع الاستمتاع بموسيقى المارياتشى الشهيرة الفولكلورية المكسيكية.. Los Mariachis

وفى أحد أحياء مدينة المكسيك القديمة Plaza Garibaldi يوجد أكبر تجمع لفرق المارياتشى حيث يمكن للمرء استئجار إحداها

ابتداء من عازفين اثنين الى عشرين عازفا ومطربا يرتدون كلهم الزى المكسيكى التقليدى أى بذلة سوداء مزركشة محلاة بالفضة فوق قميص أبيض «ذى كرانيش» وفوق الرأس القبعة المكسيكية السوداء الكبيرة التقليدية ولا توجد حفلة كبيرة فى المكسيك إلا وأحياها فريق من الماريانتشى . ولعلها عادة أوروبية قديمة حملها الأسبان معهم إلى العالم الجديد .. ففى أسبانيا القديمة وغيرها من بلدان أوروبا كان المحب يستأجر فريقا موسيقيا صغيرا يغنى تحت شباك معشوقته بدلا من المحب نفسه الذى قد لا يجيد الغناء أو يتحرج من الغناء .. Serenading ويبث المحب محبوبته الشوق والمحبة على لسان هذا الفريق كما يحدث فى المكسيك على لسان الماريانتشى . ولعل المكسيك أكثر بلاد امريكا اللاتينية تمسكا بتلك الظاهرة الأسبانية أى الغناء تحت نافذة المعشوقة .. وكذلك حب مصارعة الثيران .. أما أهم أغانى الماريانتشى فى هذه المناسبات فهى Las Mananitas أغانى أو "اهازيج الصباح" حيث يغنى الماريانتشى فى آخر الليل أو مع اشراق شمس الصباح تحت شباك محبوبته ..

ما أجمل هذا الصباح Que linda esta la manana الذى آتى فيه اليك لتحيتك ! !! En que veingo saludarte

ولا تخلو زيارة إلى مدينة المكسيك من زيارة إلى

حى Lagunia وهو أقرب إلى Narché aux Puces فى باريس حيث يمكن استرداد أو اعادة شراء المسروقات أو العثور على بعض العاديات "اللقطة" .

وعلى مقربة من مدينة المكسيك أيضا غابات نزهة وأماكن للوجبات الخلوية وسط أشجار قديمة باسقة وفى جو نقى هادئ واسمها غابة أو صحراء الأسود !! لكنها ليست غابة وليس بها أسود وإنما هى بقعة ساحرة كثيرة الأشجار والمياه فوق مرتفع ليس ببعيد عن العاصمة ..

أما خارج مدينة المكسيك فان السائح أو الزائر لديه أكثر من سبب للحيرة وصعوبة الاختيار لكثرة مايمكنه رؤيته.. فمن المدن التاريخية المحيطة Tula-Puebla- Taxco وكلها تشتهر بمناجم أو بصناعات الفضة والنحاس والمصنوعات اليدوية الجميلة، ومدينة جواد يلاخارا [1] Guadelajara الأسبانية الطابع هى المدينة الثانية فى المكسيك وتعدادها ثلاثة ملايين، اقل ارتفاعا من مدينة المكسيك وأكثر تاريخا، وعلى مسيرة سبعين كيلو مترا بالطرق السريعة الحديثة (اوتوستراد) وعلى ارتفاع خمسة آلاف قدم أى أنها أقل ارتفاعا من المكسيك بالفى قدم توجد مدينة كويرنافاكا

---

(١) جوادیلاخارا اسم مدينة فى اسبانيا ايضا وهو اسم مشتق من العربية (وادى الحجارة).

Quernavaca الحالمة النائمة فجوها أكثر دفئا من مدينة المكسيك لأنها أقل ارتفاعا، وشمسها أكثر حرارة وكانت تجمع حكام وسادة المكسيك وقت فراغهم وبنوا فيها فيلاتهم الفاخرة ذات الحدائق الغناء وحمامات السباحة وما إلى ذلك.. وبها قصر قديم لماكسيميليان بالطبع.. لكنها اليوم قبلة الامريكيين «الشماليين las Gringos الذين يقطنون كويرنافاكا باستمرار بعد تقاعدهم.. فالجو رائع طوال العام والحياة رغدة مريحة هانئة أما التكاليف فنصف تكاليف الولايات المتحدة أو أقل والخدم والحشم متوافرون بكثرة لا توجد فى الولايات المتحدة طبعا.. كما أن للأمريكى فى المكسيك احترامه.. ربما أكثر من بلده..

وبهذه المدينة كويرنافاكا توجد عدة فنادق (مطاعم ذات حدائق غناء) لخدمة الأمريكيين والسياح العابرين وسادة وأغنياء المكسيكيين.. مثل La jacanande - Villa Hermosa - las Mananitos وهكذا.. ويقدم فيها أطيب ألوان الطعام المكسيكى والأوروبى فى جو شاعرى خيالى رائع.. وسط الحدائق الغناء على مدار العام.. فالجو هنا ربيع دائم .

أما المصايف ذات البلاجات الفاخرة والرمال الناعمة فالمكسيك غنية بها هى الأخرى وطوال العام ايضا بسبب حرارة اجواء الساحل المدارية وإلى جانب اكابولكو ذات الجمال والشهرة

الذائعين قامت مصايف Puesto Vallarta وكانكون Cancu'n على ساحل المحيط الهادى والأطلسى على التوالى .. وفى اتجاه ميناء فيراكروز على الأطلسى وهو الميناء المكسيكي الأول توجد مدينة Fortin de las Flores «فورتين الأزهار» وهى أى المدينة مزدهرة رائعة فى جو خيالى من الزهور والرياحين المزدهرة طوال العام أيضا ..

أما عن البحيرات فهناك أيضـــا منها الكثيــر ، أهمهـــا Tequestengo ولا تبعد عن المكسيك سوى مائة وبضعة كيلومترات وبها فنادق ومطاعم شهيرة حول بحيرة مياهها خضراء جميلة حقا – وهناك الأهرامات فى تيوتيواكان Jeoteuacan وغيرها من المناطق وتستحق الزيارة لاشك هى الأخرى .. مما لا يترك للزائر أو السائح وقتا للتفكير فى شىء آخر سوى السياحة وشراء التحف المكسيكية والذكريات كل هذا مع المرح والطرب .. وهو طبع الشعب المكسيكى ورغم ما فى قلبه من ذكريات وآلام ، وبرغم الهزات الأرضية والسياسية المتعاقبة ورغم ما فى نفسه من حزن دفين قديم .

وعلاقة المكسيك بالولايات المتحدة قديمة ومعقدة تنطبق عليها التســـمية الشائعة بانها علاقة «حب وكـــــراهية» فى آن واحـــــد love - hate relati onship، كما ينطبق عليها المثلان العربيان

الشائعان أيضا «من جاور الحداد اكتوى بناره» و «ومن جاور السعيد يسعد» .

فقد سلخت الولايات المتحدة عن المكسيك مقاطعات شاسعة بما عليها من سكان في تكساس في الربع الأول من القرن التاسع عشر Texas وكاليفورنيا ونيومكسيكو واريزونا وفلوريدا ١٨٤٦ - ١٨٤٨.

وأرسلت جيوشها داخل حدود المكسيك الشمالية فى غارات تأديبية ضد الثائر بانشوفيلا سنة ١٩١٢ - ١٩١٣ كما أمطر الأسطول مدينة ڤيراكروز بقنابله ثم وصل مشاة البحرية الأمريكية إلى قلب العاصمة مكسيكو واستولوا على قصر تشابولتبيك سنة ١٩١٢ فى منبحة «الأطفال الأبطال» Ninos Heroes الشهيرة سالفة الذكر ..

وتكررت مظاهر تدخل الولايات المتحدة فى شئون المكسيك الداخلية بل وفى شئون دول أمريكا اللاتينية بصفة عامة ، سياسيا واقتصاديا وظهرت آثار تغلغل وسيطرة رءوس الأموال الأمريكية على مقدرات البلاد فى أحوال كثيرة .. ولعل كل هذا ، إلى جانب جوار المكسيك الشديد إلى الولايات المتحدة هو ما حدا بالرئيس الفيلسوف ماديرو أن يصف الموقف فى بوتقة موجزة حين قال «مسكينة حقا هذه المكسيك ، لشد ما هى قريبة من الولايات

المتحدة ولشد ما هى بعيدة عن ربنا» . كما كان لكل ذلك لشد أثره الواضح فى تنمية رد الفعل العملى والمنتظر حدوثه لدى المكسيكيين فى صورة بروز وتقوية مظاهر الوطنية والاستقلالية المكسيكية فى كل مناسبة ممكنة لاثبات استقلال المكسيك فى الرأى وعدم انقيادها أو تبعيتها تبعية عمياء لاراء ومواقف الولايات المتحدة ..

ومن هنا ، بادىء ذى بدء ، يلقب المكسيكيون الأمريكيين الشماليين بتسمية Gringos وهى تعادل تسمية البريطانيين للأمريكيين باسم «يانكى Yankees» أى أن التسميتين لايقصد بهما المدح وإنما هما أقرب إلى القدح والاحتقار .. وقد جاءت تسمية Gringos أغلب الظن من الأغنية التى كان يتغنى بها مشاة الأسطول الأمريكى سنة ١٨١٢ فى مسيرتهم من فيراكروز إلى مدينة المكسيك لإنزال العقاب بحكوماتها وكانوا يرددون هذه الأغنية أثناء زحفهم Green grow my pastures (أى أن السهول تمتد أمامى مواتية ، بمعنى أن النجاح حليفى ولذلك فان ذكرى هذه التسمية مؤلمة ولاشك للمكسيكيين .

ولا نعدو الحقيقة حين نقول : إن الحكومات المكسيكية المتعاقبة كانت تحاول دائما إثبات استقلالها بالرأى المختلف عن آراء واشنطن فى شتى المناسبات .. فكانت تعلن استياءها العلنى

لتدخلات واشنطن فى شئون دول أمريكا الجنوبية قاطبة ، مثال ذلك غزو أمريكا لجرانادا سنة ٨٣ وتدخلاتها فى بنما وفى نيكاراجوا ومن قبل ذلك محاولاتها غزو كوبا سنة ٦٠ فى حادثة خليج الخنازير الشهيرة .. ولعل المكسيك كانت الوحيدة من الدول فى أمريكا اللاتينية أو على رأس تلك الفئة القليلة منها التى رفضت الرضوخ لرأى واشنطن بقطع علاقات دول القارة الأمريكية مع نظام فيدل كاسترو .. وظلت المكسيك الوسيلة الوحيدة للاتصالات الجوية لكل من أراد زيارة كوبا من الأمريكتين ولم تقطع معها أبدا مبادلاتها التجارية ولا علاقاتها الدبلوماسية فى الوقت الذى سايرت فيه عواصم لاتينية كثيرة موقف واشنطن المعادى لكوبا .

ولطالما أيدت المكسيك وتعاطفت مع الدول والحركات اليسارية فى العالم - عكس مواقف واشنطن بالطبع كما طالما أعلنت المكسيك عن عدم رضائها عن الدول اليمينية ذات الأنظمة الرجعية ومنها نظام فرانكو فى أسبانيا نفسها .. ولم تتحسن العلاقات المكسيكية وأسبانيا إلا بزوال حكم فرانكو .

ولا تقف مظاهر الوطنية المكسيكية عند هذا الحد بل إنها تخللت جميع مظاهر الحياة اليومية فى المكسيك حيث يطالعك شعار«صنع فى المكسيك بأيدى مكسـيكية وليس هناك ما

يمـــاثل المكسيك -"como Hecho in mexico por mexicanos
mexico no hay dos

وقد وافقت المكسيك على اقامة العلاقات الدبلوماسية مع مصر سنة ١٩٥٨ بمجرد طلب القاهرة ذلك في حين ان انظمة يمينية مختلفة في أمريكا اللاتينية ومنها نظام حكم بيرو (وعاصمتها ليما) رفض اقتراح اقامة العلاقات الدبلوماسية مع حكومة الرئيس عبد الناصر خشية انتشار الاشتراكية في بيرو - ولم توافق بيرو على تبادل التمثيل الدبلوماسي مع مصر الا بسقوط نظام بيرو الرجعي .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن المكسيك مثلها في ذلك مثل جميع بلاد امريكا اللاتينية بل دول العالم الثالث اجمع، تحمل كثيرا من مظاهر الاعجاب والاحترام الكبير لتقدم الولايات المتحدة الهائل صناعيا واقتصاديا وعمرانيا، كما تحاول قدر جهودها المحدودة تقليد ومضاهاة هذه الظاهرة الأمريكية الفذة.. ويبدى المجتمع المكسيكي الكثير جدا من صور التأثر الواضح بطريقة الحياة الأمريكية وطرق ادارة الأعمال الأمريكية ولا غرو فان المكسيك ايضا بلا شك هي اكثر بلدان امريكا اللاتينية استقبالا لاكبر عدد من المواطنين الامريكيين المقيمين اقامة دائمة بالمكسيك أو الزائرين والسائحين لها على مدار العام.. مما يستتبعه من محاولة ارضائهم واجتذاب اموالهم واستثماراتهم الى المكسيك .

أما من ناحية الولايات المتحدة فقد طرأ التحسن على سياستها ودبلوماسيتها تجاه أمريكا اللاتينية على مراحل عكست هى الأخرى التطور الذى طرأ على درجة نضج أو عدم النضج فى تلك السياسة فقد بدأت مثلما أشرنا فى مطلع القرن التاسع عشر بالعدوان الصريح وانتزاع مقاطعات شاسعة من المكسيك ثم تبع ذلك دبلوماسية العصا الغليظة Big stick التى حملها تيودور روزفلت تجاه أمريكا اللاتينية تنفيذا للرأى القائل بأن هذه الدول لا تحترم إلا القوة ومظاهر القوة..

وكان غزو أمريكا لكوبا واحتلالها لها بعد طرد أسبانيا منها سنة ١٨٩٨ وكذا تدخلاتها فى الجمهورية الدومنيكية وبنما منذ سنة ١٩٠٣ وضغوطها للحصول على امتيازات اقتصادية ومالية لرءوس الأموال الأمريكية فى جمهوريات البن والموز وفى شيلى وغيرها.. إلى أن تحسنت دبلوماسية أمريكا رويدا باتخاذها ماأسمته دبلوماسية العصا والجزرة، تلوح بالجزرة تارة وبالعصا تارة أخرى لضمان نوال أهدافها فى القارة اللاتينية ..

وجاء تأميم المكسيك لشركات البترول الأمريكية فى المكسيك سنة ٣٩ - ١٩٤٠ وأوروبا على شفا دخول الحرب العالمية الثانية وأمريكا تستعد هى الأخرى لايجاد الأسباب والمبررات لانضمامها لبريطانيا وفرنسا فى حربهما ضد المحور فاضطرت واشنطن الى

قبول الأمر الواقع ولم تعمد الى وسائل الضغط المكشوف أو التدخل الصريح فى شئون المكسيك فى تلك الآونة الدقيقة. وبعد انتهاء الحرب بدأت أمريكا دبلوماسية جديدة تجاه القارة اللاتينية هى دبلوماسية حسن الجوار Good Neighbour liness التى عززها كيندى بعد فشل اعتداء أمريكا على كوبا فى خليج الخنازير.. لكن هذا لا يعنى زوال احتمال الانتكاسات والعودة الى سياسة العصا والجزرة أو العصا الغليظة بين الحين والآخر إذا قدرت واشنطن انه لاسبيل الا للعصا لضمان مصالحها فى أمريكا اللاتينية: وأمثلة ذلك كثيرة: تدخلها لاسقاط الرئيس اربينز الاشتراكى سنة ١٩٥٤ فى جواتيمالا، تدخلها فى كوبا سنة ٦٠ تدخلها لاسقاط رئيس بنما سنة ٨٩ تدخلها فى نيكاراجوا سنة ٨٤ وضع ألغام فى موانىء نيكاراجو، ومساعدتها الثوار ضد الحكومة علانية ٨٨-٨٩، غزوها لجرينادا سنة ٨٣ لاسقاط حكومة اشتراكية أو «شيوعية» وهكذا ..

.. ولا تخفى المكسيك عدم رضائها عن تلك النكسات والردات. لكن الولايات المتحدة تستورد ٥٥٪ من كل صادرات المكسيك كما أن المكسيك تستورد ٦٤٪ من وارداتها أو أكثر من الولايات المتحدة، وتجنى المكسيك ثلاثة بلايين دولار سنويا على أقل تقدير من السائحين الأمريكين.. ناهيك بمساعدات الولايات المتحدة

للمكسيك سنة ٨٨-١٩٨٩ لدى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والدائنين من أجل إعادة جدولة ديون المكسيك الخارجية ومنحها تسهيلات ائتمانية واجرائية لتسهيل سدادها ديونها.. ولا عجب فإنه لمن الأهمية بمكان لواشنطن ان توجد حكومة مستقرة ومجتمعا استهلاكيا نشطاً ومستقراً على حدودها الجنوبية مثلما هو مهم للمكسيك أن تجمعها والولايات المتحدة علاقات طيبة .

كان السائد أن أهم دول ثلاث فى أمريكا اللاتينية هى دول الـ A.B.C أى الارجنتين والبرازيل وشيلى.. لكن العواصف والأنواء السياسية والاجتماعية عطلت تقدم هذه الدول الثلاث اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا فى حين أن طول مدة استقرار نظام الحكم فى المكسيك (بغض النظر عن عدم ديموقراطية الحكم فى الماضى) جعلت المكسيك تتقدم الى الصدارة واصبحت أهم أو واحدة من أهم دولتين فى أمريكا اللاتينية صناعيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . اذن فقد اصبح قادة امريكا اللاتينية حاليا : M.A.B.C المكسيك والارجنتين والبرازيل وشيلى ..

وفى الستينات نشطت الدبلوماسية المكسيكية بعد ازمة الصواريخ الذرية الروسية فى كوبا، نشطت الى التبشير بمعاهدة

تتعهد الدول الأمريكية بمقتضاها بعدم انتاج أو تخزين أو نقل الأسلحة الذرية ووسائل إيصالها على أرضها وفي فبراير ١٩٦٧ وقعت ٢١ دولة امريكية لاتينية (ماعدا كوبا وجوايانا) معاهدة تلاتلكو فى المكسيك وصدقت عليها بعد ذلك كل الدول الموقعة ما عدا البرازيل والارجنتين والمظنون أن هاتين الدولتين جادتان فى برامج ذرية متقدمة وان كانتا تنفيان أنها لأى غرض آخر سوى الاغراض السلمية (١) .

والتسابق السياسى والصناعى مابين البرازيل والارجنتين على زعامة القارة اللاتينية قديم ومستمر.. ووصل أحيانا إلى حد المواجهة العسكرية فى القرن التاسع عشر ومطلع العشرين وقد ارادت المكسيك ان تبعد عن امريكا اللاتينية شبح السباق الذرى والحرب الذرية وامكانية تكرار ازمة الصواريخ الكوبية، وايدها فى هذا المسعى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى. ومعاهدة تلاتلكو من بنات افكار خبير نزع السلاح المكسيكى السفير كارلوس جارسيا رويليز. لكن مازال على الجميع اقناع البرازيل والارجنتين بتنفيذها وهما أهم دولتين فى القارة اللاتينية من حيث تسابق التجارب الذرية فلهما فيها أبحاث متقدمة .

---

(١) فى وسط سنة ١٩٩٠ ابدت البرازيل والارجنتين بعض مظاهر الرغبة فى تنفيذ معاهدة تلاتلكو .

وصلنا اذن المكسيك في سبتمبر أو أكتوبر ١٩٥٩ بالطائرة من بوجوتا وكنت قد رقيت سكرتيرا أول للسفارة. وكان في نيتنا زيارة هافانا كوبا قبل توجهنا من المكسيك لكنا اضطررنا لالغاء هذه الزيارة في آخر لحظة بسبب أحداث وقعت في كوبا نتيجة نشاط الثوار الذين تدعمهم الولايات المتحدة ضد فيديل كاسترو .

كان الزميل والصديق الاستاذ محمد ابراهيم كامل (وزير الخارجية فيما بعد) قائما بأعمال سفارتنا في المكسيك عند وصولي وكان يعاونه دبلوماسيان آخران هما الاستاذان (السفيران فيما بعد) مصطفى العرابي وجابر ابراهيم صبرة، وقد احتفى بنا ثلاثتهم وعائلاتهم الكريمة، وظل معنا الاستاذ محمد ابراهيم كامل عدة شهور إلى أن نقل قنصلا عاما لنا في مونتريال بوصول سفيرنا المعين حديثا في المكسيك في ظل الوحدة وكان السفير (السوري) انور حاتم .

أما الصديق مصطفى العرابي فقد دعانا مرة إلى الغداء في منزله وقدم لنا عدة أصناف كلها مكسيكية الصنع (اشتراها من الخارج) وجلس يرقبني وأنا اختبر الاطباق المكسيكية.. وقد وجدتها كلها شهية بل شهية جدا فيما عدا انها كانت حريفة وأحيانا حريفة جدا (حراقة : لاذعة) إذ يدخلها أنواع من الفلفل الأحمر وغيره من التوابل اللاذعة لكني مضيت آكلها بشهية فاني

اتحمل الاكل اللاذع بشجاعة بل ولذة أحيانا وجلس الزميل العرابى يرقبنى بمكر وهو ينتظر بين لحظة وأخرى أن أصرخ من الألم أو أن أقفز من مقعدى من فرط ما أكلت من توابل لكن شيئا من هذا لم يحدث وخيبت أمل صديقى فى التشفى بى !

أما أنواع الأطباق المكسيكية الشهية التى أعجبت بها فهى صدور الفراخ بصلصة لاذعة بنية اللون مثل الشيكولاتة Pollo con salsa de guaquamole ، سلاطة خضراء من الافوكادو ناعمة ولاذعة وشهية ايضا Ensalada de Aguaquate ونوع من البوريك اسمه Empanades وخبز رقيق كأرق أنواع الخبز الشامى مصنوع من دقيق الذرة لايزيد سمكه على ٢-٣ ملليمترات وقطره ١٠ سنتيمترات اسمه تورتيللا Tortilla وآخر محمر بالزيت اسمه Tacos ويستخدم هو والتاكوس كغموس أو ساندويتش للسلاطات ولكن بصفة خاصة لنوع من الفول المدمس المصفى (البوريه) اسمه Frijoles يضاف اليه بكثرة مسحوق أو عصير الثوم.. والأرز طبعا يؤكل فى كل أمريكا اللاتينية.. وطبق رجل الشارع المكسيكى هو الفول المصفى مع الخبز أو التاكوس وكذا الامبانا داس للمقتدرين.. والواقع انها كلها لاذعة حريفة، لكن هذا لا يعنى أنه لا توجد أطباق مكسيكية غير لاذعة.. لانها موجودة وبكثرة فى فنادق السياح والمطاعم الكبرى التى يؤمها الأجانب.. وتقدم جميع الأصناف العالمية .

وبسفر الصديق محمد كامل الى مونتريال وصل بدلا منه المستشار (السفير فيما بعد) عباس حلمي صدقي.. وكنا نخرج ثلاثتنا مع الصديق العرابي وعائلاتنا في رحلات ايام السبت أو الأحد خارج مدينة المكسيك للاستمتاع بمحاسن هذا البلد الجميل.. وفي إحدى المرات قضينا اياما طويلة في أكابولكو على شاطىء الباسيفيك وصحبنا معنا والدة زوجتي التي كانت في زيارتنا. وقد زار المكسيك سنة ٦٠ الاستاذ حسين ذو الفقار صبري نائب وزير الخارجية في ذلك الوقت على رأس وفد رسمي في جولة رسمية له في أمريكا اللاتينية.. وكان معه مدير مكتبه المستشار في ذلك الوقت (السفير فيما بعد) جمال شعير.. وقد دعوت الوفد للعشاء ذات ليلة في شقتي بمدينة المكسيك في حي بولانكو.. وكنا قد وفقنا الى شقة فاخرة حقا (دور كامل بفراندات حوله كله) تتكون من صالون كبير وحجرة سفره و٣ حجرات نوم وحمامين وجناح كامل للخادمة ..

ولهذه الشقة قصة غريبة.. فقد صمم وكيل أعمال صاحبة العمارة على أن اسدد ايجار الشقة (خالية) مقدما لمدة اثنى عشر شهرا .. وكانت العمارة جديدة لم تسكن بعد. وقد وافق بعد جهد على قبول المقدم لستة شهور فقط. وتبين لي ولصاحبة العمارة فيما بعد أنه اخذ كل مقدمات الايجار وهرب الى الخارج.. لكن كان

. معى ايصالات السداد وكان وكيل اعمالها يحمل توكيلا رسميا من صاحبة العمارة ولم يكن أمام المسكينة سوى قبول الخسارة.. أما أنا فحمدت الله على أنى لم اسدد سوى ستة شهور مقدما فقط فقد تم نقلى سريعا بعد ذلك. وكانت والدة زوجتى قد أتت لزيارتنا وكان التفاهم بينها وبين الخادمة المكسيكية «ارنستينا» مستحيلا بل يسبب أحيانا مواقف مضحكة.. وكان علىّ وعلى زوجتى مهمة الترجمة بينهما وقد طلب بعض أعضاء الوفد المرافق لحسين صبرى عشاء مصريا فأعددنا لهم ماستطعنا من أطباق مصرية إلى جانب الاطباق المكسيكية.. وفى اثناء العشاء أسر الىّ الصديق جمال شعير انه كان قد تم نقلى من بوجوتا بسرعة بناء على طلبى لأسباب صحية ولم يكن هناك سوى المكسيك لتلبية رغبتى فى ذلك الوقت إلا أنه تقرر نقلى قريبا إلى البعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك وأن الحركة ستصدر قريبا فاستعد لها !! لم يكن قد مضى علينا أربعة شهور تقريبا فى المكسيك فلما أبديت دهشتى الشديدة لهذا الخبر سألنى الصديق جمال شعير عما إذا كنت أفضل البقاء فى المكسيك بدلا من الانتقال الى الأمم المتحدة ؟! وفى الواقع كان الاختيار أمامى صعبا .. فالمكسيك جنة الله فى أرضه.. البلد جميلة والمدينة ساحرة والجو ربيع دائم والسكن الذى وفقنا اليه أكثر من فخم ومريح ولم يكن قد استقر بنا

المقام بعد.. فماذا يود المرء أكثر من ذلك ؟! إلا أنه من جانب أخر فان العمل فى موقع مثل بعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة، وفى مدينة مثل نيويورك تجربة غنية ومفيدة لمن شاء صعود السلم ولمن كان عنده الاستعداد الكافى من صغار الدبلوماسيين وهى تجربة لا يمكن رفضها.. ومن هنا فقد أجبته بأن كل مايأتى به الله طيب وحسن وأنى اترك الأمر للوزارة إذا شاءت نقلتنى وان شاءت ابقتنى فى المكسيك ..

ولم تمض شهور قليلة الا وجاءنى أمر الوزارة بتنفيذ نقلى سكرتيرا أول فى البعثة الدائمة فى نيويورك وكانت الشهور الستة التى سددتها مقدما الى وكيل أعمال صاحبة الشقة قد انتهت والحمد لله وقد تركنا المكسيك بعد اقامتنا بها مدة لم تزد على عشرة شهور أسفين لفراق هذا البلد الجميل والشعب المرح الطروب، لكن متطلعين ايضا الى تجربة مثيرة فى نيويورك.. ومن يدرى ماذا يخبىء القدر ؟!



علبة الكبريت (هيئة الأمم المتحدة) .. ونيويورك

لماذا وافقت الدول المؤسسة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ على اختيار مدينة نيويورك كمقر دائم للمؤسسة ؟ هناك سببان رئيسيان. فلم يوافق الكونجرس الأمريكي سنة ١٩٢٠ على اشتراك الولايات المتحدة فى عضوية «عصبة الأمم» فظلت العصبة مؤسسة أوروبية واضعف كيانها مقاطعة الولايات المتحدة لها فلم تستطع بريطانيا وفرنسا مواجهة اعتداءات اليابان على الصين ومونغوليا واعتداء ايطاليا على اثيوبيا واعتداء المانيا على النمسا وتشيكوسلوفاكيا أو دانزج ثم بولندا فقامت الحرب العالمية الثانية. وسقطت عصبة الأمم بعد أن فقدت مصداقيتها وبخاصة لدى القادة والشعب الأمريكي.. وكان اسم العصبة مقترنا باسم جنيف المقر الدائم لها .. ومن هنا فعند النظر فى تأسيس هيئة الأمم

المتحدة سنة ١٩٤٥ رفضت الولايات المتحدة، وايدها بعض حلفائها، جعل مقر الأمم المتحدة فى جنيف (واوروبا بصفة عامة) حيث اقترن تاريخها بفشل عصبة الأمم .

أما السبب الثانى لاختيار نيويورك مقرا للامم المتحدة فكان الضغط الأدبى الأمريكي وراء هذا الاختيار ومصاحبته بضغط اقتصادى قوى لم يستطع أحد من مؤسسى الأمم المتحدة أن يجاريه. فقد عرضت الولايات المتحدة تبرع عائلة روكفيلر الأمريكية الشهيرة بقطعة أرض بناء يقدر اتساعها بحوالى عشرين فدانا من أجود أراضى البناء فى مانهاتان أى وسط مدينة نيويورك وتطل على النهر الشرقى East River الذى يحد مانهاتان من الشرق كهبة من عائلة روكفيلر لتكون مقرا للأمم المتحدة.. ولم يكن لدى دولة أخرى عرض مماثل يجارى هذا العرض الكريم.. كما وافقت الولايات المتحدة على أن تساهم بحوالى ثلثى ميزانية الأمم المتحدة السنوية بشرط أن يكون مقرها الدائم فى نيويورك.. أضف إلى ذلك أنها وافقت على الشروط المنصوص عليها فى اتفاقية المقر Headquarters المقترحة والموقعة مابين الأمم المتحدة والدولة المضيفة وبموجبها تتعهد الولايات المتحدة بمنح الشروط والتسهيلات اللازمة لسير عمل الأمم المتحدة ومنها الاعفاءات الضريبية والجمركية واحترام شخصيتها الدبلوماسية الدولية، ومنح السكرتير العام للأمم المتحدة وكبار معاونيه الصفة

الدبلوماسية المعتادة لكبار الدبلوماسيين فى القانون الدولى بالاضافة الى التعهد بمنح أعضاء وفود الدول الأعضاء للأمم المتحدة الذين يسكنون نيويورك بصفة دائمة ومندوبيها الذين يفدون اليها لحضور اجتماعاتها الدورية حرية الدخول والخروج والحصانات والامتيازات التى يكفلها القانون الدولى لرجال الدبلوماسية، ومنها حق جميع الدول أعضاء المنظمة الدولية فى اختيار وايفاد مندوبيها لحضور جلسات الأمم المتحدة فى نيويورك (بغض النظر عن نوع العلاقات التى تربط الولايات المتحدة بتلك الدول حتى لوكانت فى حالة حرب مثلا مع الولايات المتحدة..

ومن هنا تمكن فيديل كاسترو وممثلو منظمة التحرير الفلسطينية من الحضور الى نيويورك .

كل ذلك، بالاضافة الى أن المكانة الفريدة التى فازت بها الولايات المتحدة عالميا بنهاية الحرب العالمية الثانية، وظهورها كزعيمة العالم الغربى بلا منازع، كان من شأنه ترجيح اختيار نيويورك مقراً للأمم المتحدة، بل واستمرارهاً كمقر لها حتى اليوم رغم ارتفاع أصوات بين الحين والآخر تنادى بعدم مناسبة نيويورك كمقر للأمم المتحدة إما لصعوبة ظروفها المعيشية السكنية وبعدها عن أوروبا وبقية العالم، وإما بدعوى أن وجودها فى نيويورك يجعلها تحت سيطرة الولايات المتحدة سياسيا أو تحت تأثير أجهزة الاعلام الأمريكية أو «الصهيونية» أو غيرها..

ومع ذلك فالعدالة تقضى بالاعتراف بأن الزائر لمقر الأمم المتحدة ومبانيها بنيويورك لابد أن يبهره اتساع رقعة أراضيها وموقعها الفريد وبهاء رونقها وفخامتها ومناسبتها لظروف العمل داخل تلك المؤسسة الدولية الضخمة ومواكبتها لأساليب الحياة الأمريكية ومسايرتها لطرق إدارة الأعمال الأمريكية، وهذا كله بطبيعة الحال إنما يعكس تأثير الوجود الأمريكى المحيط بها.. والمتغلغل لدواليب العمل بالأمم المتحدة صغيرها وكبيرها. فاغلب موظفيها من الأمريكيين.. ويطلقون اسم «علبة الكبريت» على مبنى الأمم المتحدة الذى يشبه علبة كبريت ضخمة واقفة على شاطىء النهر ..

وصلنا نيويورك من مدينة المكسيك بطريق البر أى بالسيارة !! فقد قررت أنا وزوجتى قيادة سيارتنا البويك Buick من مدينة المكسيك شمالا عبر تكساس ولويزيانا وجورجيا وولايتى كارولينا ثم فرجينيا ثم مدينة واشنطن فنيويورك.. والمسافة حوالى خمسة آلاف كيلو متر قطعناها فى سبعة أو ثمانية أيام على مهل، مع توقفنا ليلة فى مونتريه فى المكسيك ثم ليلة فى نيواورليانز وفى كارولينا ثم مدينة واشنطن ثم نيويورك.. وكانت الطرق مريحة سريعة ممهدة وسبل الراحة كلها متوافرة ماعدا بولاية تكساس الأمريكية إذ كان ذلك فى شهر يوليو سنة ١٩٦٠ فقد كانت درجة

الحرارة خارج السيارة أكثر من أربعين درجة مئوية والشمس محرقة والضوء شديداً جداً ، ولم تكن السيارات مكيفة الهواء قد انتشرت بعد ..

لكنها كانت تجربة غنية بالفائدة، ولم تكن فى خطورة رحلتنا فى كولومبيا من بارانكيلا إلى بوجوتا.. واتاحت لنا رؤية قطاع كبير من المكسيك ثم من الولايات المتحدة لم أكن قد شاهدته اثناء اقامتى السابقة فى واشنطن ..

وقد وفقنا فى العثور على شقة مناسبة فى نيويورك فى ايست اند افيو East end Avenue على ناصية شارع ٧٩. وايست اند هذا فى منطقة سكنية هادئة ومحترمة وتطل على النهر الشرقى East River الذى تطل عليه ايضا الأمم المتحدة – ولم يكن منزلى يبعد كثيرا عن مقر الأمم المتحدة بالسيارة (عشر دقائق) كما كان قريبا جدا من مقر بعثتنا الدائمة فى باراك افنيو وشارع ٧٩ أى مسافة خمس عشرة دقيقة مشيا على الأقدام. واختيار موقع سكن الدبلوماسى عضو بعثة حكومته الدائمة لدى الأمم المتحدة بنيويورك لمن الأهمية بمكان.. ليس فقط من الناحية المظهرية والاجتماعية وانما ايضا لأسباب عملية.. فغالبا مايود المرء اختيار سكنه قريبا قدر الامكان من مكان عمله.. لكن فى نيويورك بالذات لكل دبلوماسى الأمم المتحدة يوجد مقران للعمل وليس مقرا

واحدا.. فلكل بعثة دائمة حكومية مقرها الخاص الذى يضم مكاتب دبلوماسييها، حيث يمارسون اعمالهم اليومية من المشاورات فيما بينهم الى تلقى تعليمات حكوماتهم الى تحرير التقارير والبرقيات المرسلة الى العواصم والى إعداد الكلمات التى سوف يلقونها داخل الأمم المتحدة وهكذا.. لكن عليهم بعد ذلك التوجه الى علبة الكبريت أو مقر (سكرتارية) الأمم المتحدة First Avenue at 42nd St. أى مقرها الدائم الذى يضم قاعات الاجتماعات التى سوف يحضرونها ويلقون كلماتهم فيها ويتبادلون المشورة والأحاديث مع الوفود الأخرى بشأن القضايا المطروحة عليهم.. أى أن الدبلوماسيين المعتمدين لدى الأمم المتحدة يقضون وقتا طويلا يوميا فى الانتقال من منازلهم مبكرا الى مقار بعثاتهم الدائمة ثم منها الى مقر الأمم المتحدة قبل العاشرة صباحا، ثم اذا ماحانت الساعة الواحدة ظهرا كان عليهم التوجه الى حيث يتناولون غداءهم سواء فى منازلهم أو المطاعم وربما المرور ايضا على مقار بعثاتهم ثم العودة الى حضور اجتماعات الأمم المتحدة التى تستأنف فى الثالثة بعد الظهر وحتى السادسة أو السابعة مساء ثم زيارة مقار بعثاتهم الدائمة لتفقد سير العمل أو التزود بآخر تعليمات حكوماتهم الجديدة وأخيرا العودة الى منازلهم ليلا.. ومن هنا كانت محاولة اختيار مقار البعثات الدائمة قريبا من الأمم

المتحدة قدر الامكان، ومحاولة الدبلوماسيين اختيار سكنهم قريبا من الاثنين.. ولما كان عدد اعضاء بعثات الدول الى الأمم المتحدة يقدر بالآلاف المؤلفة وكانت نيويورك من البداية تعانى من مشاكل السكن المناسب واختناقات المرور فان مشكلة المواصلات والانتقالات فى نيويورك من أهم المشاكل التى تزعج حياة الدبلوماسيين بها .. ناهيك بغلاء الأسعار والايجار للمنازل المناسبة فى وسط المدينة أى وسط مانهاتان غلاء يضطر كثيرا من صغار الدبلوماسيين . الى سكنى الضواحى البعيدة وليس سكنى مانهاتان ذاتها ..

هذا .. رغما عن حسن تخطيط المدينة ! فمدينة نيويورك تضم خمسة أحياء Boroughs أهمها وسط المدينة أى حى (أو جزيرة) مانهاتان Manhattan التى يحيط بها النهر الشرقى ونهر الهدسون وتقع بها بعثات الدول الأجنبية ومقر الأمم المتحدة وارقى الأحياء التجارية وحى المال وأرقى الأحياء السكنية.. وتنقسم مانهاتان الى شوارع رئيسية عمودية (أفينو Avenues) تقطع مانهاتان طولا أى من الجنوب الى الشمال والى شوارع جانبية Streets تقطعها عرضا (شرق - غرب) عمودية على الافينو.. تحمل كلها ارقاما فيما عدا قلة قليلة جدا تحمل بعض الأسماء.. ويبدأ العد من النهر الشرقى الافينو الأول فالثانى

فالثالث وهكذا الى أن يصل إلى وسط مانهاتان فتجد الافينو الخامس Fifth Avenue وهو أهم شريان سكنى تجارى حتى نصل الى نهر الهدسون فنجد الافينو الثانى عشر. ويعتبر شرق الشارع الخامس أرقى من غربه.. أما الشوارع الجانبية فيبدأ العد من الجنوب أو من أسفل مانهاتان قرب تمثال الحرية تصاعديا الى الشمال أى الجهة المقابلة فى نهاية مانهاتان قرب حى هارليم حى الزنوج التقليدى فتصل الى الشارع ١٢٥ وهكذا.. وتعتبر الشوارع من الخمسينات الى نهاية الثمانينات أرقى من الأطراف .

ومن هنا يسهل العثور على عنوان معين في مانهاتان بسبب العد التنازلى أو التصاعدى حسب الحالة لكن الأهم من هذا هو كم تستغرق من الوقت للوصول الى الهدف، وكم يستغرق من الوقت العثور على مكان قانونى تترك فيه سيارتك دون أن تتحمل مخالفة مالية كبيرة أو أن تعود فلا تجدها إما لأن إدارة المرور قد سحبتها إذا كنت قد تركتها فى مكان غير قانونى، أو لأن أحدا غيرك أغرم بها ؟!

ومهمة عبور مانهاتان طولا أو عرضا (لكن بالأخص عرضا من الشرق للغرب أو بالعكس (Cross Town) شاقة فى أى وقت من أوقات العمل وتأخذ جهداً ، ووقتا فأما من يضطر إلى سكنى أحد الأحياء أو المدن الأربع Boroughs المحيطة بمانهاتان فيقضى ساعات طويلة من عمره فى سيارته صباحا ومساء ..

ومن هذه الأحياء المحيطة بمانهاتان بروكلين وكوينز ولونج آيلاند وجزيرة ستاتن وريفردايل ونيوجيرسى فضلا عن أحياء سكنية كثيرة أخرى فى ولايتى نيوجيرسى وكونيتيكات القريبتين.. وأغلب سكان «نيويورك» يقطنون هذه المدن المحيطة بمانهاتان وينتقلون إلى وسط المدينة أى مانهاتان يوميا بالقطارات أو المترو تحت الأرض وإما بسياراتهم الخاصة، ويسمون هذه الفئة The commuters أى المتنقلين. ويقدر أن عدد سكان مانهاتان بالنهار هو ضعف عدده بالليل بسبب كثرة من يفد اليها نهارا لقضاء اعماله ثم المبيت خارج مانهاتان ..

.. ولا يرى الأمريكى العادى غرابة أو ضررا فى أن يسكن على بعد خمسين كيلو مترا من مقر عمله يقطعها صباحا ومساء (اذ يتناول غداء سريعا قرب مكان عمله).. وقد اعتاد الأمريكيون قطع المسافات الطويلة وهذه الحياة.. وإن كانوا قد اعتادوا أيضا الشكوى من التعب الذى يصيب المرء من كثرة الانتقال يوميا فى مواصلات صعبة.. لكن ما باليد حيلة فسكنى مانهاتان للجميع استحالة مادية ومالية..

أما مانهاتان شأنها فى ذلك شأن أمريكا كلها فهى مثال للمتناقضات.. فهى افخم واضخم عواصم العالم قاطبة (ولم اقل اجملها لكن افخمها واضخمها) وبها أكبر تجمع من ناطحات

السحاب والعمارات الفخمة الرائعة والمتاجر والحوانيت الراقية والمطاعم التى تفوق افخم مطاعم لندن وباريس وروما. وبها من دور اللهو والمسارح مثال راديو سيتى موزيك هول - ولنكولن سنتر - وكارنيجى هول ، وماديسون سكوير جاردن وكلها ذات شهرة عالمية.. مما لايوجد مثيله فى أى مكان آخر من العالم وبها من الشوارع الفخمة ومن الأحياء السكنية الراقية قرب وسط مانهاتان التى تطل على Central Park والشارع الخامس أو ساتون بلايس Sutton Place أو النهر الشرقى ما يضاهى أرقى الأحياء السكنية فى أرقى عواصم العالم .

لكن مانهاتان تضم ايضا هارليم (حى الزنوج التقليدى) كما تضم احياء وتقسيمات فقيرة Slums مهملة فى وسط الأحياء الثرية الراقية أو على بعد مرمى حجر منها ربما لأن الإدارة السياسية الداخلية اعترضت على ازالتها بسبب أو آخر.. وبمعنى آخر فإنه لا توجد فروق واضحة بين أحيائها الراقية والفقيرة بل قد تتداخل هذه وتلك أحيانا كثيرة.. وفي وسط ثراء وفخامة الشارع الخامس Fifth Avenue تجد أحيانا الشحاذين المفترشين الارض الذين يمدون يدهم الى المارة معلنين عن جوعهم أو بطالتهم ناهيك بما قد تراه ويزعج أحلامك اذ مازرت The Bowery حى جنوب جزيرة مانهاتان .. وهو حى المخمورين والسكارى المدمنين .

ومنظر الفقر والحاجة وسط كل مظاهر الثراء الفاحش منظر يؤلم النفس ويدعو للحسرة والعجب أكثر من منظر الفقر والحاجة في بلد كله فقير ومحتاج واعتاد منظر الفقر.. ورائحته .

كذلك من مساوىء نيويورك أو بعض مدن الولايات المتحدة الضخمة الآخرى المدمنين مثل لوس أنجلوس وسان فرنسيسكو وواشنطن) كثرة مظاهر الادمان.. ادمان الخمور أو المخدرات ادمانا يؤدى الى اعلان المدمنين عن انفسهم وسط جموع المارة (ولست أقصد حى Bowery فى نيويورك بل وسط الأحياء الراقية احيانا) أو لجوء المدمنين الى السـرقة بالاكـــراه Muggings من أجل الحصول على بضعة دولارات سريعة لشراء حاجاتهم من المخدر أو الخمر ، ومن هنا كثرت حوادث السرقة بالإكراه فى نيويورك كثرة دعت سكان نيويورك الى تفادى السير ليلا فى الحدائق العامة أو ركوب عربة مترو الانفاق والسير فى الشوارع الجانبية المقفرة.. كما دعتهم الى ترديد «حكمة نيويوركية» مؤداها انه يستحسن أو يجمل بالمرء الا يحمل معه نقودا كثيرة (وتفضيل الاعتماد على بطاقات الائتمان Credit Cards فى المشتريات) لكن يجب على المرء أن يحمل معه عشرة دولارات على الأقل حتى إذا تعرض للسرقة بالاكراه اعطاها للسارق (أو السارقين) لتفادى غضبــه أو ثورته وانتقــامه إذا لم يجد أى قدر من المـــال مع ضحيته ..

هذا وتحضرنى امثله على ذلك. فإن الزميل والصديق السفير على تيمور (المعار حاليا سكرتيرا عاما مساعدا ومديرا للمراسم فى الأمم المتحدة) وهو يسكن حيا راقيا بنيويورك منذ سنوات قد تعرض لاعتداء بعض الصبية عليه قرب سكنه فى حى راق فى مانهاتان، اثناء عودته ليلا إلى منزله اذ رفض الاذعان أو حاول مقاومة المعتدين ..

كذلك تعرض نجل السفير اشرف غربال فى سن الخامسة عشرة لسرقة دراجته بالاكراه أمام منزل والده - دار سكن سفير مصر فى واشنطن ولم يكن ذلك ليلا بل نهارا ..

ومن هنا فقد اختلفت الآراء حول نيويورك.. وانقسم الناس والزائرون مابين المعجبين بنيويورك اشد الإعجاب والناقمين عليها الناقدين لمثالبها.. وكلا الفريقين على حق..

فنيويورك أرقى المدن وأفخمها إلاّ أنها لا تخلو من كثير من مظاهر الفقر والاهمال والفاقة.. بل والقذارة احيانا وهى أمتع المدن لمن أغرم بالمتاجر الضخمة وبالمسارح والملاهى والمطاعم وحياة الطرب واللهو، كما هى من أرقى المدن لمن شاء ان ينهل من ينابيع الثقافة والعلم الوفيرة وزيارة المتاحف والمكتبات الكثيرة الحافلة بكل ماهو جديد وممتع.. أو التردد على واحد من معاهدها وجامعاتها الشهيرة الراقية .

ولكن نيويورك تدعو إلى الخوف والرهبة أحيانا كما أن الحياة بها سريعة الايقاع مرهقة.. وأهلها فيهم المثقف الراقى المهذب ولا شك ، لكن يغلب على أكثرهم أو بعضهم أقصد رجل الشارع هنا قلة الصبر وقلة العلم والاطلاع بل وقلة التهذيب . ومن ثم يجمل بالاجنبى الذكى أن يتفادى الاحتكاك برجل الشارع وسائقى التاكسى فى نيويورك .. واذكر كما يذكر كثير غيرى من دبلوماسيى نيويورك أن أحد السفراء الممثل الدائم لحكومته لدى الأمم المتحدة خرج من مكتبه فى أحد الشوارع الجانبية وسط مانهاتان واراد أن يمر بسيارته فى طريقه إلى مقر الأمم المتحدة حيث كان ينتظره اجتماع عاجل واذا بسيارة (لورى) جمع القمامة تسد الطريق الضيق .. واذا ما حدث هذا فى أحد الطرق الجانبية في مانهاتان فقد تعطل المرور مدة طويلة وسخنت الأعصاب حتى ليتطاير منها الشرر ، وارتفع ضجيج الكلاكسونات !! وهنا نزل السفير من سيارته وتوجه إلى عمال جمع القمامة راجيا أياهم أفساح الطريق للمرور فأجابوه بأنهم سوف يتحركون عندما ينتهون من مهمتهم .. وتبادلوا كلمة من هنا وكلمة من هناك فاذا بعمال جمع القمامة ينزلون ضربا ولكما فى السفير المسكين الذى نقل إلى المستشفى لعلاج كسر فى أنفه .. هذا مثل استثنائى ولا أقول إنه يحدث كل يوم بطبيعة الحال ..لكن ما يحدث كل يوم

ويصدمك أول وصولك إلى أمريكا إلى أن تعتاد طرق الأمريكيين هو كيفية توجيه الكلام ومخاطبة الأجانب أو الزائرين أو الأغراب.. اذا أردت أن تشترى حاجة ما من أحد المحال الكبرى التى تحفل بها نيويورك وتوجهت إلى أحد الباعة تسأله مكان الشىء فإنه سوف ينظر إلى زميله المختص ويخاطبه بصوت ملء الأسماع وملء اسماعك أنت أيضا قائلا له «يافلان ! هلاّ رأيت ما يريد هذا الرجل أو هذه المرأة ؟ Could you See what this man (or this woman wants?!) بدلا من أن يقول ما يريده هذا السيد أو هذه السيدة ؟

This gentle man on this lady wants ?!

كما قد يحدث عادة فى بلدان أوروبا .. لكنها طريقة الأمريكيين، ويجدونها طبيعية وبعيدة عن التكلف..»

ثم إن أحياء كثيرة فى نيويورك ومنها بروكلين ، تضم غالبية من الأمريكيين اليهود (وكثيرا من التجار العرب) ويهود بروكلين خاصة ونيويورك بصفة عامة لا يتكلمون انجليزية أو حتى لهجة أمريكية سليمة واضحة ، بل يتكلمون لهجة بروكلين Brooklyn التى هى خليط غريب من الانجليزية واللغة اليدية yiddish وهى لغة يهود شرق أوروبا عامة وبولندا بصفة خاصة .. واذا ما استمعت إلى يهودى من بروكلين يتكلم Brooklyn Accent لخيل

اليك أنه أجنبى وفد إلى أمريكا حديثا .. حتى لقد سأل بعضهم مرة يهوديا أمريكيا أصيلا من بروكلين من أى بلد فى أوروبا الشرقية جئت الى أمريكا؟ فاجابه الأمريكى محتجا ماذا تقصد؟! أنا أمريكى المولد من بروكلين !!

جملة القول أن نيويورك بحكم كونها «بوابة امريكا» هى أول مايستقبل المهاجرين الأجانب.. وقد يقرر هؤلاء البقاء فى نيويورك وعدم التحرك إلى مدينة أخرى فى داخل الولايات المتحدة.. وهذا مافعله فعلا كثير جدا من اليهود من أوروبا الشرقية ومن الايرلنديين ومن الايطاليين المهاجرين إلى أمريكا فى القرن التاسع عشر..

ومن هنا فإن نسبة كبيرة جدا من سكان نيويورك من هذه الجنسيات الثلاث.. حتى لقد أطلق على سكان نيويورك The thrce"Is" - Inish Italians Israelites اذ إن بها أكبر تجمع من اليهود فى العالم (ثلاثة ملايين يهودى) أكثر من كل سكان اسرائيل كذلك اطلق على نيويورك اسم Jew York ويلاحظ أن منصب عمدة مدينة نيويورك وهو يتم بالانتخاب قد اقتصر غالبا تاريخيا على شخص من هذه الجنسيات الثلاث أى إما إيطالى أو أيرلندى أو يهودى.. وأخيرا جداً انتخب أمريكى أسود عمدة لنيويورك وذلك ايضا نظرا لكثرة عدد الزنوج السود فى المدينة.. لكنها ظاهرة جد حديثة أى ظاهرة بدء الزنوج تنظيم إمكانياتهم وجمع شتات اعدادهم لنيل المزيد من حقوقهم المفقودة ..

أما العمدة السابق ولمدة ثماني سنوات فكان يهوديا.. والسابق له ايضا هكذا .

أما ظاهرة «قلة صبر» هؤلاء من سكان نيويورك وتحفزهم الدائب عند مخالطتهم للغرباء فهي ظاهرة شائعة في نيويورك وربما في بعض المدن الكبرى الأخرى في أمريكا وأوروبا.. ولعل سببها أن الأجنبي عندما وفد الى نيويورك وجد قليلا من الترحيب وقليلا من الصبر فالجميع مشغولون بأمورهم الخاصة ووجد اجواء غريبة قاسية بل موحشة احيانا ومن ثم كان رد فعله محاكاة أهل نيويورك القدامى من حيث نفاد الصبر وقلة التهذيب مع التحفز والاستعداد للدفاع عن النفس ضد أي عدوان حقيقي أو وهمي ومن هنا فان رجل الشارع من سكان نيويورك لا يمثل اجمل أو أرقى مجتمعات الولايات المتحدة بل إن أكثر مجتمعات أمريكا تهذيبا وكرما ولطفا مع الغريب هي البعيدة عن المدن الكبرى وبخاصة عن الساحل الشرقي.. وقد لقيت كرما ولطفا وترحيبا وتهذيبا لدى الكثيرين في المدن الصغيرة وبخاصة في وسط وغرب الولايات المتحدة وفي جنوبها .

وصلت نيويورك اذن في يوليو / اغسطس ٦٠ قبل انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة والتي تبدأ دائما في يوم الثلاثاء

الثالث من شهر سبتمبر من كل عام.. وكان على رأس وفدنا الدائم لدى الأمم المتحدة انسان رقيق مهذب ذكي ولطيف المعشر هو السفير (المرحوم) عمر لطفى وكان فى صباه قبل تبوئه لهذا المنصب قاضيا فى المحاكم المختلطة. كنا حينذاك فى أيام الوحدة مع سوريا فكان الرجل الثانى فى البعثة هو السفير (السورى) رفيق العشا بصفته مندوبا مناوبا لـ ج.ع.م لدى الأمم المتحدة كما كان هناك مستشار سورى اسمه نجم الدين الرفاعى، أما أنا فكنت أقدم سكرتير أول فى بعثتنا إلى جانب سكرتيرين أول آخرين وسكرتيرين ثوانى وثوالث.. وكان من بين هؤلاء الأخيرين السادة الزملاء المرحوم أحمد صدقى سفير مصر السابق فى باريس ود. محمد شاكر سفير مصر حاليا فى لندن .

وكما هو معلوم فان أهم جهازين للأمم المتحدة فى نيويورك هما الجمعية العامة ومجلس الأمن.. وينضوى تحت لواء الجمعية العامة سبع لجان هى اللجنة الاولى وهى مكلفة باهم المسائل السياسية واللجنة السياسية الخاصة (وهى مكلفة ببعض المسائل السياسية ومنها القضية الفلسطينية) واللجنة الثانية (وهى مكلفة ببحث الشئون الاقتصادية) واللجنة الثالثة (وهى مكلفة بالشئون الاجتماعية والثقافية) واللجنة الرابعة (وهى مكلفة ببحث شئون تصفية الاستعمار والوصاية) واللجنة الخامسة (مكلفة بالشئون

المالية والادارية) وأخيرا اللجنة السادسة (مكلفة ببحث المسائل القانونية) .

أما مجلس الأمن فكان مؤلفا من إحدى عشرة دولة منها . خمسة (أمريكا روسيا بريطانيا فرنسا الصين) تتمتع بعضوية دائمة فى مجلس الأمن باعتبار أن لها مسئولية خاصة فى الحفاظ على الأمن والسلم الدوليين أو إن شئت كانت تحمل مسئولية نواة حكومة عالمية مسئولة عن الأمن والسلام بمساعدة ست دول تنتخب لتمثيل باقى مناطق العالم لمدة سنتين، ولما كانت تلك الحكومة العالمية المصغرة تجربة رائدة جديدة فقد زودت بصمام أمن يمنع انفجارها فى أوائل التجربة، هذا الصمام كان هو فى الفيتو Veto أو حق اعتراض إحدى الدول الخمس ذات العضوية الدائمة على أى قرار يطرح للتصويت أمام مجلس الأمن لاتوافق عليه واحدة من الدول الخمس الكبرى أو تعتبره ضد مصالحها .

وكان المفروض أن تكون قرارات مجلس الأمن التى يقرها المجلس (بافتراض موافقة الدول الخمس الكبرى وأن تنال ثلثى الأصوات أى سبعة أصوات مؤيدة من إحدى عشرة دولة) المفروض أن تكون تلك القرارات بحكم الميثاق ملزمة لجميع أعضاء الأمم المتحدة واجاز الميثاق لمجلس الأمن استعمال سلطات وعقوبات سياسية واقتصادية بل وعسكرية لتنفيذ قراراته وردع المعتدى إن دعت الحاجة ..

أما قرارات الجمعية العامة على عكس قرارات مجلس الأمن - فهى مجرد توصيات تعبر عن آمال وتطلعات وآراء «برلمان الأمم المتحدة» الذى يضم جميع أعضاء المؤسسة..

هذه هى الخطوط العريضة لفلسفة ميثاق الأمم المتحدة، وطريقة العمل بها.. وهى مايمكن تلقيبه ايضا بدبلوماسية الأمم المتحدة ، دبلوماسية المؤتمرات أو الدبلوماسية متعددة الأطراف ..

وتختلف هذه الدبلوماسية عن الدبلوماسية التقليدية أو الثنائية التى تنصب على متابعة العلاقات الثنائية التى تربط دولتين (أو أكثر قليلا) فالدبلوماسية التقليدية (الثنائية) يوكل تنفيذها واداؤها الى السفراء ومساعديهم المقيمين بصفة دائمة فى عاصمة الدولة الأخرى المضيفة.. وتكون مهمتهم توطيد علاقات سفاراتهم برؤساء وبحكام البلد المضيفه وتمهيد الجو لاجراء مفاوضات هادئة بين البلدين لازالة أى خلافات قد تنشب بينهما أو لإرساء دعائم تعاون وطيد فى ميدان من الميادين. ويمكن وصف العلاقات الثنائية التى تمارسها الدبلوماسية الثنائية بأنها تكون عادة علاقات عميقة وهادئة وطويلة النفس بعيدة الأهداف متشعبة الجذور تجرى كلها بعيدا عن الأضواء والعلانية لأن الدبلوماسية الثنائية ليست فى عجلة من أمرها وليست فى حاجة إلى الإعلان عن خطواتها الهادئة الهادفة ..

أما دبلوماسية المؤتمرات - دبلوماسية الأمم المتحدة وغيرها من المؤتمرات الكبرى فتستلزم نوعا آخر من الدبلوماسيين وطريقة أخرى للعمل. فالمؤتمرات الواسعة : أى مؤتمر ومنها دورات الأمم المتحدة - تنعقد لفترة محددة سلفا ومن ثم فان عنصرى الوقت والسرعة في هذه المؤتمرات من الأهمية بمكان.. كذلك فالهدف من المؤتمرات هو اتفاق المؤتمرين على الاعلان عن نتائج مشاوراتهم واتفاقاتهم فى صورة قرارات وتوصيات يتم اقرارها واعلانها عادة بالتصويت عليها (إلا إذا اتفق سلفا علي كتمان نتيجة المشاورات فى بعض المؤتمرات السرية وهو الاستثناء).. ومن ثم فيستلزم فى دبلوماسية المؤتمرات سرعة الحركة والقدرة على اجراء الاتصالات والمشاورات الواسعة مع غالبية المندوبين بخفة وسرعة وبلغات مختلفة وتستلزم شخصية اجتماعية متفتحة غير خجولة تكون قريبة إلى نفوس الآخرين، قادرة على فن صياغة الكلام والقرارات، شخصية تكون ممسكة بزمام فن الخطابة والاقناع ملمة باللغة البرلمانية والارتجال وبالأساليب البرلمانية من مناورات الى الإلمام التام بلوائح الاجراءات، قادرة على القراءة السريعة وعلى استيعاب أهم المشكلات فى لمحات موجزة .

وتقوم الدبلوماسية متعددة الاطراف بالمثل على فن اجراء محالفات سريعة ومؤقتة مع أكبر عدد من وفود الدول الأخرى للاتفاق حول مشروع قرار معين أو لتأييد خطة معينة إلى أن يتم

اقرارها بالاجماع أو بالتصويت عليها.. وحينئذ تنتهى ظروف ومهمة ذلك التحالف المؤقت، وينتقل المندوبون الى بحث قضية أخرى ومشروعات قرارات أخرى والبحث أيضا عن تحالفات جديدة تسندها الى أن ينتهى الفصل فيها وهكذا ..

ومن هنا فإن كثيرين ممن مارسوا الدبلوماسية الثنائية التقليدية لم ينجحوا ولم يرتاحوا الى العمل فى المؤتمرات الدولية وبخاصة فى الأمم المتحدة بجوها المخالف تماما لجو الدبلوماسية الثنائية التقليدية الهادئة العميقة طويلة النفس، وئيدة الخطوات والبعيدة عن الأضواء والضجة والضجيج .

كما أن نجاح بعض الدبلوماسيين فى المحافل والمؤتمرات الدولية لا يضمن بالضرورة تألقهم فى مهام الدبلوماسية الثنائية طويلة النفس والتى تعتمد على الصبر والاناة والهدوء والبعد عن تألق الأضواء .

إلا أننى من المؤمنين بأنه فى عصرنا الحاضر وفى المستقبل المنظور سوف يحتاج العالم الى اللونين من الدبلوماسية إذ لاتكفى واحدة منها محل الأخرى، ولكل مقام مقال ولكل مكان وزمان نوع مختلف من الدبلوماسية .

وقد وجدت عند وصولى إلى نيويورك أن بعض زملائى الأكثر منى حداثة فى ترتيب الأقدميات يتولون مسئولية تمثيل مصر

وحدهم فى اللجان الموكلة اليهم .. فى حين أن المرحوم السفير عمر لطفى اختارنى لأساعده فى اللجنة السياسية الأولى حيث كان يمثل مصر باعتباره رئيس وفدها .. وكنت آمل أن أتولى وحدى مسئولية إحدى اللجان ولو الأقل أهمية – أسوة بزملائى الأقل منى فى الأقدمية .. لكن صديقى وزميلى المرحوم السفير عبدالله العريان أقنعنى بفائدة اسهامى فى تمثيل مصر فى أهم لجنة .. وبالاكتفاء بمساعدة السفير عمر لطفى بها .. لكن مالبث المرحوم عمر لطفى أن أطمأن إلّى وإلى مقدرتى فبات ينيبنى عنه فى القاء الكثير من كلمات وفد مصر فى أهم لجنة سياسية أى فى اللجنة الأولى .. ومالبث أن عهد إلّىّ بقضايا كاملة أبحثها وأعد كلمة مصر فيها وألقيها نيابةً عنه أمام اللجنة الأولى مثال ذلك فى نزع السلاح .. وكان يعاوننى ويزاملنى فى اللجنة الأولى الزميل «السكرتير الثالث» أحمد صدقى (تولى منصب سفير مصر بباريس) .

وحين حلّ موعد انعقاد دوْرة الجمعية العامة فى سبتمبر ١٩٦٠ قرر رؤساء دول كثيرة حضور الدورة وإلقاء كلمات بلادهم أمام الجمعية العامة .. وكان منهم الرؤساء عبدالناصر ونهرو وكاسترو وتيتو .. بل وخروشوف نفسه .. وكانت تلك الدورة بما أتت به من مفاجات ومن رجالات العالم أجمع خير مدرسة للدبلوماسيين

المبتدئين بل والمحنكين .. فقد أتاحت لنا مراقبتهم عن كثب أثناء جلوسهم فى مقاعد وفدهم وفى مشاوراتهم ، وأثناء إلقائهم كلماتهم وأحيانا فى ومضات ولمحات سريعة حين يكونون قد أرخوا عن وجوههم اقنعتهم الرسـمية وأظهروا حقيقة مشاعرهم وأخلاقهم ..

وقد أسعدنى الحظ أن أكون فى قاعة الجمعية العامة فى تلك الجلسة التاريخية التى أثمرت القرار الخاص بتصفية الاستعمار ، وحين جلس خروشوف فى مقعد رئيس وفد بلاده ليستمع إلى بعض الخطب اذا به ينفعل لما سمع فيضرب بقبضة يده المائدة أمامه علامة الاحتجاج فلما قلده جروميكو وبعض أعضاء وفود الدول الاشتراكية فى إيقاع سيمفونى متسع إذا بخروشوف تأخذه الجلالة لما أتاه فيخلع حذاءه (كان عبارة عن صندل بنى اللون مقفل من الأمام) ويضرب به المائدة ، وسط ضجيج القاعة وضحك الكثيرين واستمرار دق الكثيرين للموائد بأيديهم ، وسط دهشة الجميع المتزايدة .. أما خروشوف نفسه فكان ينظر حوله مبتسما سعيداً بما أتاه ..

كانت تلك دورة من أهم دورات الأمم المتحدة قاطبة.. كانت الدورة الفاصلة التى آذنت بمغيب شمس الاستعمار وبنوال أكثر من عشرين دولة أفريقية لاستقلالها دفعة واحدة وبدخولها عضوية

الأمم المتحدة.. ويتغير موازين القوى الفعلية داخل تلك المؤسسة..
وكان مندوبو نيجيريا والسنغال ومالى وغينيا وغيرهم يتيهون عجبا
بأزيائهم الوطنية وألوانها الزاهية وهم محط أنظار الجميع، وكانوا
يحسون بذلك ويزدادون فيها .

وجاء أحد زعماء قبائل نيجيريا عضوا فى وفد نيجيريا وكان
اسمه جاجا واتشوكو وكان يمثلها فى اللجنة الثالثة (المسائل
الاجتماعية والثقافية) وكان لطيفا ذكيا لبقا يتيه بنفسه عجبا.. وفى
اللجنة الثالثة نوقشت قضايا حقوق المرأة واذا بمندوب أحد الوفود
الأوروبية يتهم دول افريقيا بسلب حقوق المرأة وأنها تعامل معاملة
العبيد Slaves وإذا بجاجا واتشوكو يأخذ الكلمة ويجيب عن تلك
التهمة واصفا المرأة الأفريقية She may be a Slave by day,
but she is a queen by night !!

وإذا بالقاعة كلها تضج ضحكا وتصفيقا وإذا بجاجا واتشوكو
يصبح حديث الجميع ومحبوب الجميع.. وزاد بنفسه تيها وعجبا!!

أما تأثير اقتحام أكثر من عشرين دولة افريقية مرة واحدة
عضوية الأمم المتحدة فلم يلبث أن ظهر للجميع ولم يقف السيل بعد
ذلك بل ظل مستمرا الى أن وصلت عضوية الدول الأفريقية الى
أكثر من خمسة وثلاثين (بل خمسين دولة حاليا) وأصبحت تشكل
أكبر مجموعة داخل الأمم المتحدة .

كانت عضوية مجلس الأمن إحدى عشرة دولة منها الدول الخمس الدائمة العضوية (أمريكا - روسيا - الصين - فرنسا - بريطانيا) بالإضافة إلى ست أعضاء يمثلون بقية انحاء العالم ينتخبون لمدة سنتين وكان لافريقيا مقعدان فقط من هؤلاء.. لكن افريقيا مالبثت ان طالبت بزيادة مقاعدها نظرا لزيادة عدد اعضاء المجموعة الأفريقية.. مما أضطر الأمم المتحدة إلى إعادة النظر.. فاصبحت عضوية مجلس الأمن ١٥ عضوا منها عشرة مقاعد للدول غير الدائمة نالت افريقيا منها ثلاثة مقاعد - وبهذا اختل التوازن السابق داخل المجلس ولم تعد للولايات المتحدة مثلما كان الحال فى الماضى أغلبية عددية من الدول الصديقة تضمن لها وقف مرور أى قرار بفضل الغالبية العددية القديمة (٧ من ١١) إذ أصبحت الغالبية العددية الجديدة (٩ من ١٥) وهى لم تعد سهلة التحقيق لامريكا.. وبعد أن كان الاتحاد السوفييتي هو الذى يضطر لاستعمال الفيتو لايقاف مرور القرارات التى لاتضمن مصالحه واشتهر عنه كثرة استعمال الفيتو حتى لقد لقب فيشنسكي ومن بعده جروميكو بمستر Niet (مستر لا) اصبحت الولايات المتحدة وبريطانيا هما اللتان تلجأن لاستعمال الفيتو.. وبخاصة فى مسائل تصفية الاستعمار وادانة جنوب أفريقيا العنصرية والمطالبة بفرض العقوبات عليها وادانة سياسات

اسرائيل القمعية التى كان يقف فيها العالم الثالث إلى جانب الاتحاد السوفييتى. ووجد العالم الثالث فيها نفسه في مقعد المواجهة الصريحة لسياسات الولايات المتحدة وحلفائها أحيانا ..

ومن هنا بدأت الدول الكبرى تعفى نفسها من حرج استعمال الفيتو - قدر الامكان - بعدم عرض المسائل الشائكة أما مجلس الأمن حيث لن تجد الحل. وهنا بدأت تقل أهمية دور مجلس الأمن. أما إذا طرحت تلك المسائل امام الجمعية العامة (برلمان الأمم المتحدة وضمير العالم اجمع حيث لا يوجد حق الفيتو) فالسائد أن الاتحاد السوفييتى كان يقف إلى جانب دول العالم الثالث فى قضايا تصفية الاستعمار وإدانة جنوب افريقيا وفرض العقوبات عليها وادانة سياسات اسرائيل القمعية وكذلك من قضايا النظام الاقتصادى العالمى الجديد وحقوق الدول الصغيرة.. فكانت الجمعية العامة تخرج سيلا متواصلا من القرارات التى كانت ترضى الاتحاد السوفييتى والعالم الثالث، ولا ترضى الولايات المتحدة وبعض حلفائها.. فكان الأخيرون يجدون انفسهم دائما فى موقف العزلة ومضطرين الى الاعتراض أو الامتناع عن التصويت على قضايا كان الغالبية العظمى من أعضاء الجمعية العامة تؤيدها بشده .. (١)

---

(١) لا تملك الدول الكبرى حق الفيتو ووقف اصدار القرارات فى الجمعية العامة حتى وان اعترضت الدول الكبرى على قرارات الجمعية .

ومن هنا تحاشت الولايات المتحدة ايضا عرض بعض القضايا الحساسة والساخنة لا على مجلس الأمن بل حتى أمام الجمعية العامة.. ومن ذلك قضايا فيتنام، ومسائل ازالة الصواريخ النووية واتفاقات Salt بين العملاقين وهكذا ..

وكما سبقت الاشارة فان الفارق بين القرارات التى تصدر عن مجلس الأمن والجمعية العامة حسب مفهوم ميثاق الأمم المتحدة - أن الأولى لها صفة الإلزام على جميع الاعضاء فى حين أن الثانية لها صفة التوصيات وحسب.. ومالبثت أن بعدت الشقة كثيرا مابين كثرة عدد قرارات الجمعية العامة التى تسندها اغلبية من دول العالم الثالث رغم معارضة الولايات المتحدة وبعض حلفائها، وبين قلة عدد القرارات التى عرضت فى مجلس الأمن والتى نالت فيتو أمريكى أو بريطانى اذ وقفنا ضد رغبات دول العالم الثالث. بعدت الشقة مابين قرارات للجمعية العامة ضمير العالم الثالث ومابين مجلس الأمن الذى أصابه الشلل (١) بسبب الحرب الباردة وغزو دول العالم الثالث للمنظمة فعجز عن اداء دوره وفقا للميثاق كالجهاز المسئول عن أمن واستقرار العالم..

ومن هنا بدأت الأمم المتحدة مع الاسف تفقد الكثير من مصداقيتها بعد أن فقدت فعاليتها الى حد كبير.. ولم تستطع وقف

---

(١) بدأ مجلس الأمن يسترد فاعليته بعد انتهاء الحرب الباردة .

سلسلة من الحروب الصغيرة بين دول العالم الثالث بل بعض الشطحات والنزوات العسكرية التى قامت بها بعض الدول الكبرى ذاتها والمفروض انها هى المسئولة عن الحفاظ عن السلم والأمن العالميين ..

إلا أنه من بين المسائل التى طرحت والتى تطرح كل عام أمام اللجنة السياسية الأولى قضايا نزع السلاح وتقرير مؤتمر لجنة نزع السلاح فى جنيف.. وكنت مكلفا بحكم موقعى كمساعد للسفير عمر لطفى فى اللجنة الأولى بمتابعة قضايا نزع السلاح.. وقد تم فى مارس ٦٢ تشكيل الجمعية العامة للأمم المتحدة للجنة من ثمانى عشرة دولة منها مصر لبحث قضايا نزع السلاح فى مؤتمر يعقد فى جنيف وتكليف لجنة نزع السلاح هذه بتقديم تقرير دورى عن تقدم اعمالها الى الجمعية العامة كل سنة ..

كانت مفاوضات نزع السلاح قبل سنة ٦٢ مقصورة على القطبين الكبيرين، ثم ضمّا اليهما بعد ذلك بعض اعضاء حلف وارسو وحلف الاطلسى.. وكانت دبلوماسية نزع السلاح تنحصر فى المقام الأول فى محاولة كل طرف إدانة خصمه والقاء تبعة عدم تقدم المفاوضات على هذا الخصم.. وقد لامتهما على ذلك تقارير الجمعية العامة وانحت على القطبين باللائمة لعدم إحرازهما أى تقدم.. فوجدا مخرجا لهما أن يضما إلى مائدة المفاوضات ثمانى

دول حيادية لا تنتمى إلى حلف وارسو والاطلسى حتى يثبتا حسن نيتهما، وقد ظن كل طرف أنه يستطيع احراج خصمه وألقاء اللوم عليه فى حضور شهود العيان، الدول الثمانى غير المنحازة.. وكانت منها مصر .

وتقرر بدء أعمال لجنة الثمانى عشرة (خمس من الشرق وخمس من الغرب وثمانى دول حيادية) فى مارس ٦٢ فى جنيف فى مقر الأمم المتحدة الأوروبى وفى نفس قاعة مجلس الأمن التابع لعصبة الأمم المنحلة !

ولما كنت مكلفا بشئون نزع السلاح فى وفدنا فى نيويورك فقد قررت الوزارة ندبى كمستشار لوفد مصر فى لجنة الثمانى عشرة لنزع السلاح إبان عملها فى جنيف.. وكلفت بالسفر الى جنيف بدءا من مارس ٦٢ .

كان هذا القرار نيشانا على صدرى ومصدر افتخار لى.. فقد كان رئيس وفد مصر لافتتاح ذلك المؤتمر الدكتور محمود فوزى وزير خارجيتنا حينئذ.. وكان اختيارى اعترافا من الوزارة بجهودى السابقة وبإتقانى لعملى ..

وبقدر مارحبت بتلك الفرصة إلا أنى اسفت أشد الأسف لاضطرارى الى تعطيل دراساتى فى جامعة كولومبيا الشهيرة فى نيويورك حيث كنت قد قيدت نفسى منذ وصولي سنة ٦٠ للحصول

على الدكتوراة فى العلوم السياسية.. وكنت أسرع لحضور المحاضرات فى جامعة كولومبيا فى ساعات الغداء. مابين جلسات الأمم المتحدة أى مابين الواحدة والثالثة ظهرا، كما كنت أجلس فى منزلى ساعات طويلة أثناء الليل منكبا على دراساتى للدكتوراة بعد أن أكون قد انتهيت من تصفية دراساتى واعمالى الخاصة بالأمم المتحدة ومن قراءة اكداس الوثائق التى يفترض أن يقرأها كل يوم من يعمل فى الأمم المتحدة. وكنت فى بحر تلك السنتين قد انتهيت فعلا وبسرعة لم أكن أتوقعها من إنهاء جميع دراسات ومستلزمات الدكتوراة من دراسة المواد اللازمة، كما اجتزت بنجاح امتحان اللغتين الأجنبيتين اللازمتين للدكتوراة (وكانت الفرنسية والأسبانية بالنسبة لى) إلى جانب الامتحان النهائى الشامل Comprehen-sive ولم يكن أمامى فى تلك الآونة سوى كتابة رسالة الدكتوراة ..

كنت أمثل مصر أمام اللجنة الأولى فى كثير من المسائل اسندها الىّ السفير عمر لطفى.. وكان الجميع يعاملنى بالاحترام الواجب نحو ممثل دولته.. ولما كنت آخذ الكلمة كان رئيس اللجنة يخاطبنى قائلا The honourable delegate of Egypt لكن مابين الواحدة والثالثة ظهرا كنت اجلس كتلميذ أمام أساتذتى فى جامعة كولومبيا حيث كان اساتذتي ينادوننى بمجرد اسم Ahmed ويعاملوننى كأحد الطلبة طبعا.. ثم أعود لمباشرة عملى

الدبلوماسى أمام اللجنة فى الثالثة بعد الظهر لأستعيد لقب «مندوب مصر المحترم» وكنت اقطع المسافة مابين مقر الأمم المتحدة وجامعة كولومبيا، وبينهما مسافة عشرة كيلومترات وضرورة عبور مانهاتان بالعرض، كنت اقطعها ذهابا وايابا وأنا أسابق الزمن.. واستمر هذا الكفاح طوال عامين.. والآن يتعين على أن اتوجه الى جنيف ربما لشهور طويلة كمستشار لوفد مصر فى نزع السلاح. لكن سـفرى إلى جنيف سوف يؤخر ولا شك تقدمى نحو الدكتوراة ..

ومع ذلك فقد كنا - زوجتى وانا - متطلعين للسفر الى جنيف، ومتطلعين ايضا للعودة منها لاستمرار ذلك الجهد الذى بدأته منذ سنة ١٩٦٠ .



نزع السلاح .. علي ضفاف بحيرة ليمان Lac Léman أو بحيرة جنيف

لماذا اختيرت جنيف مقرا لمباحثات نزع السلاح بدءاً من سنة ٦٢ والسنين التالية؟ جنيف مدينة سويسرية وسويسرا دولة تمارس الحياد الدائم المعترف به قانونيا ودوليا كما انها تتوسط اوروبا أى انها تتوسط ايضا المسافة مابين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة. وقد اقترن اسم سويسرا ومدينة لوكارنو بالذات منذ قيام عصبة الأمم بمباحثات تحديد التسلح (ولم يكن العالم قد عرف بعد فكرة نزع السلاح الكامل الشامل) حيث ابرمت فيها عدة اتفاقيات لمنع نشوب الحرب منها اتفاقية بريان - كيلوج سنة ١٩٢٨ لتحديد تسلح بعض الــدول فى ميادين الأسلحة البحرية والأرضية والجوية .

أضف إلى هذا أن مقر عصبة الأمم القديم فى جنيف مازال قائما وأصبح مقر الأمم المتحدة «الأوروبى» وفيه تجرى المباحثات الفنية الطابع (من اقتصادية إلى اجتماعية إلى انسانية وقانونية).. ولما كان موضوع نزع السلاح من المسائل الفنية فكان طبيعيا أن تجرى مباحثاته فى المقر الأوروبى للامم المتحدة.. وفيه كل الاستعدادات الفنية من سكرتارية مختصة ومترجمين وكتبة وما إلى ذلك.. هذا وتقضى كثير من الدواعى السياسية والفنية والإدارية ، بعدم تكديس نشاطات الأمم المتحدة كلها فى نيويورك بل توزيعها قدر الإمكان مابين نيويورك والمقر الأوروبى فى جنيف.. بل لقد انشىء مقر أوروبى ثان فى فينا فيما بعد ..

أما جنيف فهى مدينة أنيقة تعدادها ٢٥٠ ألف نسمة فقط جوها معتدل صيفا شديد البرودة شتاء – وتقع على بحيرة جنيف أو بحيرة ليمان Lac Leman ذات المناظر الخلابة وهى أكبر وأهم مدينة فى سويسرا الناطقة بالفرنسية. والمعلوم أن سويسرا تسكنها شعوب تتكلم الألمانية (بلهجة سويسرية يسمونها سويتزر دويش) والفرنسية بلهجة سويسرية ايضا، والايطالية فى جنوب سويسرا فى منطقة Tecino ، واخيرا لغة قديمة اسمها رومانش. وأهم مدن المنطقة الألمانية فى سويسرا زيوريخ وبون عاصمة سويسرا وبال أو بازل ، أما المنطقة الفرنسية فأهم مدنها جنيف ولوزان ومونتريه وفريبورج، والمنطقة الايطالية وأهم مدنها لوجانو

ولوكارنو. وتعداد سويسرا كلها لا يتعدى السبعة ملايين نسمة.. وهى دولة فيدرالية تنقسم الى ٢١ كانتون Cantons أو مقاطعة لكل منها سيادته الداخلية ودستوره الخاص ويحكم سويسرا المجلس الفيدرالى وتكون رئاسة المجلس ورئاسة الدولة بالتناوب بين اعضائه ويمكن لأى مائة ألف مواطن سويسرى طلب اجراء الحكومة لاستفتاء حول شأن من الشئون العامة اذا جمعوا توقيعات مائة الف مواطن ..

وسويسرا تتوسط اوروبا تماما بدليل تركيبة شعبها سالفة الذكر، ورغم أن تعدادها صغير إلا أنها تتمتع بكثافة سكانية كبيرة نظرا لصغر حجمها (٤١ الف كيلو متر مربع فقط) ونظرا لكثرة الجبال والبحيرات فى هذه الرقعة الصغيرة. ومع ذلك فان اشعاع سويسرا واهميتها تجاوزت حدود سويسرا كثيرا.. فهى دولة قد اختارت بحكم دستورها الحياد الدائم فكان منجاة لها فى حروب أوروبا المتكررة كما كان أساس استقرارها وتقدمها العلمى والصناعى والسياحى بل والمالى ايضا.. فقد اجتذبت اليها رءوس الأموال من مختلف أركان العالم بفضل استقرار مؤسساتها السياسية والاقتصـادية وبفضل السرية التـامة التى تتمتع بها رءوس أموال المودعين فى بنوك سويسرا.. أضف إلى هذا أنها كانت مقرا لعصبة الأمم ومازالت مقرا للمقر الأوروبى للأمم المتحدة واقترن اسم سويسرا بالحياد الرسمى الفعلى فى

السياسة الدولية حتى أنها رفضت وترفض إلى الآن الانضمام إلى عضوية الأمم المتحدة خشية المساس بحيادها، وبالطبع لم تنضم الى أى تحالف سياسى أو عسكرى أوروبى لا شرقى ولا غربى ..

وتحتل جبال الألب ٦٠٪ من رقعة سويسرا بالاضافة الى تعدد البحيرات ذات المناظر والاحجام المختلفة مما منحها نعمة الجو الطيب والمناظر الطبيعية الخلابة حتى أنه يتردد دائما أن سويسرا عبارة عن كارت بوستال (بطاقة بريدية مصورة جميلة) أو أنها بونبونييرة Bonboniére (علبة حلوى).. ولا غرو فهى بلد الألبان الطيبة وصناعات الألبان والشيكولاتة النسلة Nestlé الفاخرة [(١)] ، وبلد مساقط المياه والشلالات الكثيرة ومن ثم فان الصناعات الكهربائية والصناعات الدقيقة التى تعتمد على المهارة والعمالة المتطورة الدقيقة مثل صناعة الساعات والكيماويات هى الصناعات الغالبة فى سويسرا .

إلى جانب صناعة السياحة.. فان سويسرا من أهم بلاد العالم السياحية بفضل جمال طبيعتها ولطف جوها والنظافة التامة والأمن المستتب والخدمة السياحية الفائقة العناية والاستقرار السياسى والاقتصادى .. ووقوعها وسط اوروبا تماما .

ففى الشتاء حين تغطى الثلوج جبال سويسرا يغرقها آلاف

---

(١) النسلة والسوشار ,Lindt و Suchard أهم أنواع الشيكولاتة فى سويسرا .

السياح « المحبين لرياضات التزحلق على الجليد» والمعيشة فوق الجبال أى فوق مستوى السحاب مستمتعين بالشمس الدافئة فوق الثلوج.. وفى الصيف حين يسود الطقس المعتدل المنعش تكون سويسرا مهبطا لمئات الآلاف من السياح للاستمتاع بجمال مدنها أو هربا من حرارة اجواء البلاد الدافئة الأوروبية الآخرى المحيطة بسويسرا ..

ومن محاسن سويسرا اجادة أهلها اجادة وصلت بهم الى حد الاحتراف، لفنون الضيافة السياحية .. حتى فى اصغر الفنادق فبغض النظر عن مستوى الفندق أو البنسيون الذى اخترته لنفسك، ستجد مستوى النظافة يفوق أى دولة أوروبية أخرى، وسوف تجد المأكل المتقن الطيب حتى فى أصغر المطاعم أو أرخصها، وسوف تجد المعاملة الطيبة المؤدبة من جميع أصحاب الفنادق والمطاعم والمتاجر بحكم العادة، وبحكم الاحتراف الشديد والاهتمام الشديد بالسائح. ويشتهر عن السويسريين ترديدهم دائما عند استقبال أو وداع الزبائن حتى إذا لم يشتروا شيئا بل دخلوا وخرجوا دون اجراء أى معاملة مالية، يشتهر عنهم ترحيبهم بهم قائلين Bonjour Monsieur, Dame

ووداعهم عند خروجهم Merci, Monsieur, Dame!!

يقول البعض إن السويسريين تنقصهم خفة الدم والحرارة الطبيعية الموجودة فى اخلاق الايطاليين أو اليونانيين مثلا وانهم

يتكلفون هذا الأدب المصطنع.. لكنى أرى غير ذلك وأرى أن مجرد اظهار الأدب والترحيب والمعاملة الطيبة فى حد ذاتها هى كل المراد والمرتجى بغض النظر عما إذا كان أدبا مصطنعا أم لا.. فهو أفضل ألف مرة من قلة الذوق والخشونة التى يلقاها الأجانب فى معاملاتهم مع افراد بعض الشعوب الأوروبية الأخرى أو الأمريكية التى تشتهر بخفة الدم والحرارة.. فالسائح عند السويسرى مصدر رزقه وضمان رخائه ومستوى معيشته المرتفع لأن ميزان التجارة الخارجية السويسرى فى اختلال دائم، إذ إنها تستورد أكثر مما تصدر ولا يصلح من شأنه الا الدخل الكبير الذى يعود على سويسرا من الخدمات المصرفية والسياحية وهكذا ظلت عملة سويسرا أقوى العملات العالمية وانخفض معدل البطالة والتضخم النقدى .

أضف إلى هذا أن تركيبة الشعب السويسرى من عناصر مختلفة بروتستانتية وكاثوليكية المانية وفرنسية وايطالية أدت إلى خروج هذا الشعب بعد محن وحروب خارجية وأهلية، بفلسفة وتجربة من شأنها تعميق وترسيخ فضائل التسامح والانسانية فى عناصر هذا الشعب المختلفة المتآلفة رغم خلافاتها.

ومع هذا فان هناك نوعا آخر من «التعصب» يميز أخلاق وتصرفات السويسرى.. ألا وهو التعصب الشديد للنظافة واحترام

القانون واحترام حقوق الآخرين! فاذا رأى سويسرى أجنبيا [1] يلقى ببعض المهملات (علبة سجائر فارغة مثلا) في الطريق العام لاستوقفه ولفت نظره إلى وجوب اعادة التقاط ما ألقى به فى الشارع ليضعه فى سلة المهملات.. وإذا رأى أحد المارة من السويسريين اجنبيا يوقف سيارته ليتركها فى مكان غير قانونى على جانب الطريق للفت نظره إلى عدم قانونية ذلك ثم إذا لم يستمع الأجنبى لنصحه لذهب السويسرى الى رجل البوليس ليأتى به لمعاقبة السيارة المخالفة ! وكثيرا ماستمعت إلى أصدقائى من المصريين والأجانب يبدون دهشتهم لأن بعض مدن المقاطعات السويسرية تمنع سكان العمارات بها من استعمال الحمامات والمرافق الشبيه بعد العاشرة مساء لعدم ازعاج جيرانهم (فمعروف أن السويسرى يأوى لفراشه مبكرا ويستيقظ ليستأنف نشاطه مبكرا صباح اليوم التالى) .

مع ذلك فيجدر التنويه بأن السويسريين وإن اتفقوا فيما بينهم بصفة عامة على عادات ومثل مشتركة إلا أن اخلاقهم وانواقهم تختلف من مقاطعة أو منطقة لأخرى. فالسويسرى الألمانى يشبه الى حد ما فى ميوله ومأكله ومشربه الشعب الألمانى، والسويسرى الايطالى فى منطقة تسينو فى جنوب سويسرا يشبه الى حد ما

---

(١) اقول اجنبيا لأن السويسرى لا يلقى بأى مهملات فى الطريق العام !!

الايطاليين في الشراب والطعام وأما سكان المنطقة الفرنسية في سويسرا فهم أقرب إلى الفرنسيين أهل شمال سافوا القريبة الملاصقة.. إلا أن السويسريين بصفة عامة يتميزون عن كل هذه الشعوب بزيادة الضبط والربط واحترام القوانين والنظافة والالتزام التام بالأصول المرعية وبمستوى المعيشة الأكثر ارتفاعا طبعا .

وصلنا اذن الى جنيف في مارس ٦٢ واخترنا فندقا يطل على بحيرة ليمان هو فندق انجلترا وبدلا من اقامتنا شهرين أو ثلاثة في جنيف كما كنا نتوقع استمرت اقامتنا ستة شهور كاملة عشناها في غرفتنا في ذلك الفندق فقد كنا «معلقين» مابين نيويورك مقر عملي الرسمي الذي احتفظت فيه بشقتي وسيارتي وجميع ملابسي، وبين جنيف التي أعمل بها منتدبا من نيويورك «لمدة شهرين فقط» حسب التعليمات التي تلقيتها !!

ولم نكن نعرف اننا سنمكث ستة شهور في دورة مؤتمر نزع السلاح الأولى ، كما لم نكن نعرف اننا سنعود الى جنيف من نيويورك مرة ثانية – منتدبين ايضا – لحضور دورة مؤتمر نزع السلاح التالية لكي نمكث بجنيف ، في نفس الفندق، تسعة شهور كاملة أخرى.. أي أن المدة التي عشناها في جنيف استغرقت خمسة عشر شهرا تخللتها عودتنا الى نيويورك لقضاء ثلاثة شهور . بها لحضور انعقاد الجمعية العامة ثم العودة إلى جنيف .

وهكذا اتيح لنا الانتقال فى عطلات نهاية الاسبوع واجازات المؤتمر الرسمية لزيارة مختلف معالم سويسرا السياحية والعمرانية.. ومن ميزات جنيف أنها تقع على حدود فرنسا (سافوا العليا) ويمكن لأهل جنيف العبور بالترام الى مدينة آن ماس الفرنسية كما يمكنهم بسياراتهم قضاء يوم عطلة فى مدينتى ميجيڤ وشامونيكس فى الألب الفرنسية أو مدينة annecy حول البحيرة الجميلة المعروفة بنفس الأسم ..

أما أثناء انتقالاتنا حول جنيف فى الفترة الأولى فلم نكن نملك سيارة فكنا ننتقل بالقطارات السويسرية وهى مثل الساعات السويسرية لا تقدم ولا تؤخر فى الوقت وتتميز بالراحة والنظافة. وقد لاحظ موظف الفندق الذى كنا ننزل به وكنا نكلفه بحجز تذاكر القطارات لنا أننا كنا نسافر وننتقل فى القطارات فى الدرجة الأولى وسألنا ذات مرة لماذا تصرون على السفر بالدرجة الأولى، هل انتم مليونيرات؟ فاجبناه بالقطع لا فقال اذن اسمح لى أن أحجز لك تذاكرك بالدرجة الثانية كما يفعل كل السويسريين فسوف لا تجد فارقا بين الدرجتين يستأهل فارق الثمن الكبير .. وهكذا صرنا ننتقل فى عربات الدرجة الثانية فى سويسرا وهى نظيفة جدا ومريحة جدا. والشعب السويسرى بحكم ادبه والتزامه باحترام حقوق الآخرين لم يكن يسبب لنا أو غيرنا آية مضايقات..

لكن ذات مرة اردنا أن نأخذ القطار إلى مدينة ميلانو فى شمال إيطاليا وكان هذا يستلزم عبور القطار بنا عبر الحدود الايطالية السويسرية وما أن وصلنا إلى أول محطة داخل ايطاليا - وكنا فى عربات الدرجة الثانية كما نصحنا صديقنا السويسرى - الا وحدث هجوم الايطاليين متدافعين متناكبين داخل العربات وحدث الهرج والمرج والصياح والتهريج على الطريقة الايطالية.. ثم استأنف القطار مسيره وبدأ الركاب الايطاليون يفتحون حقائبهم أو اللفافات التى يحملونها ويخرجون منها سندويتشات السلامى والمورتاديلا والجبن الايطالى والسردين وكل ماهو ايطالى ذو رائحة قوية نفاذة واخذوا يأكلون بل ويعرضون علينا أن نشاطرهم بعض ما كانوا يحملون من طعام .. لاحظنا الفرق الكبير بين الجمهور الايطالى ومثيله السويسرى الذى يسافر بالدرجة الثانية.. وفى عودتنا الى جنيف اشترينا راحتنا واطمئناننا بدفع الفارق مابين الدرجة الثانية والأولى ففى سويسرا يمكنك السفر بالدرجة الثانية دون خطر الوقوع بين سندوتشات السردين والسلامى.. لكن فى ايطاليا سوف تجد شعبا لطيف المعشر حار المزاج كثير الضحك والنكات مثله فى ذلك مثل الشعب المصرى.. وأقل التزاما ونظاما طبعا من السويسريين ..

من أجمل نزهات سويسرا ركوب البواخر الكثيرة والحديثة التى

تجوب بك أغلب بحيرات سويسرا وهى تعد بالعشرات .. وهذا ما كنا نفعله على بحيرة ليمان (بحيرة جنيف) وهى من أمتع النزهات التى يمكن لانسان الاستمتاع بها . ولابد لك من زيارة Ouchi ولوزان ومونترية Montreux وافيان و Hermance وكلها مدن جميلة رائعة حول البحيرة .. وإذا كنت فى سويسرا فلابد لك من تجربة ركوب الـ Funiculaire والـ Coble cars إلى مراكز التزحلق على الجليد شتاء امثال Gstadt وسان موريتز وفيلار أو إلى قمة من قمم سويسرا الشهيرة أو لمجرد الصعود إلى مدينة من مدنها الجميلة المعلقة فوق الجبال فهى تجرية فريدة وليس بها شىء من المخاطرة. وعادة يكون ذلك باحدى وسيلتين إما بركوب قاطرة متسلقة تسير على قضبان لكن يجرها حبل من الفولاذ الى أعلى لتستطيع أن تتسلق المرتفعات العمودية تقريبا Funiculaire وأما بركوب العربة المعلقة Téléferique Cable car التى لا تسير على قضبان وإنما تظل معلقة فى الهواء اثناء الصعود والهبوط ويجرها إلى أعلى أو إلى أسفل ثقل العربة الأخرى المقابلة لها . ولما كانت جبال الألب تحتل ستين بالمائة من أراضى سويسرا فيمكنك أن تتخيل عدد مدنها وبحيراتها ومراكزها السياحية التى تعلو الجبال التى يمكنك أن تستعمل فيها العربات المعلقة أو المتسلقة ويمكنك اختيار ما يحلو لك وما يتفق مع حالتك الصحية

وفقا لارتفاع المركز السياحى أو العلاجى الذى تقصده.. فالسويسريون قوم فى منتهى الدقة ويعرفون تماما كم ارتفاع هذه المدينة أو ذاك المركز عن مستوى سطح البحر ..

حضر افتتاح مؤتمر نزع السلاح في ١٣ مارس سنة ٦٢ عدد كبير من وزراء خارجية الدول الثمانى عشرة الاعضاء. وكان على رأس وفد مصر (المرحوم) الدكتور محمود فوزى وزير خارجيتنا الأسبق. وكان يرأس بعثة مصر الدائمة فى المقر الأوروبى بجنيف (المرحوم) السفير عبد الفتاح حسن نائب وزير خارجية مصر السابق.. وكان وفد مصر لدى المؤتمر يضم خبيرا عسكريا وعالما فى الذرة وبعض رجال المخابرات الى جانب الدبلوماسيين وكنت واحداً منهم.. أما وفد الهند فكان يضم كريشنامينون وزير الدفاع الهندى.. وهكذا .

ولما كان الدكتور محمود فوزى بسبيل اعداد خطابه الافتتاحى أمام المؤتمر استدعانى الى غرفته بالفندق الذى كان ينزل فيه لكى اقدم له عرضا سريعا عن أخر ماتوصلت إليه مباحثات نزع السلاح فى نيويورك داخل نطاق الأمم المتحدة.. ففعلنا.. وكنت قد اعددت العدة لاشتراكى فى وفد مصر فى ذلك المؤتمر بدراسة آخر ماصدر من كتب متخصصة فى فروع نزع السلاح فى الولايات المتحدة.. وسوف يدهش القارىء إذا علم أن نزع السلاح فى

الولايات المتحدة وبريطانيا أصبح علما من العلوم وأصبح له كثير من المتخصصين الذين اسهموا فيه بمئـــات الكتب وآلاف المقالات فى المجلات العلمية ومنها مجلات متخصصة فى نزع السلاح ..

إلا أن الدكتور محمود فوزى لم يكن ليسمح للتفاصيل الفنية الدقيقة أن تغرق كلمته الافتتاحية فقد أرادها أن تكون كلمة سياسية ، فلسفية اخلاقية بطبيعة الحال تستحث همم الدول الكبرى المسئولة عن مشكلة التسلح ونزع السلاح.. كذلك فعل وزراء خارجية بقية الدول نفس الشىء فلم يكن الدور قد حل بعد لدراسة المشاكل الفنية المعقدة ..

إلا أنه بعد سفر وزراء الخارجية بعد انقضاء الأسبوع الأول على بدء المؤتمر تولى المرحوم السفير عبد الفتاح حسن كما تولى نظراؤه فى الوفود الأخرى رئاسة وفود بلادهم وهنا حل الدور لبدء المناقشات والدراسات الحقيقية الفنية لمشاكل نزع السلاح وآخر ما وصلت اليه مباحثات الدول قبل بدء المؤتمر.. وهنا ظهرت فائدة الاستمرارية والتخصص والتعمق فى دراسات نزع السلاح التفصيلية ..

وكان رحمه الله السفير عبد الفتاح حسن قائدا عاما للقوات المصرية فى السودان قبل أن يعين نائبا لوزير الخارجية ثم رئيسا لوفد مصر في جنيف [1].. كان اداريا حازما كما كان انسانا رقيقا عطوفا وكان يتمتع بذكاء سياسى فطرى، وقد طلب عبد الفتاح حسن إلى جميع أعضاء وفد مصر فى مؤتمر نزع السلاح أن يجلسوا سويا ويتدارسوا فيما بينهم وأن يرفعوا إليه خطة أو مشروع كلمة يلقيها تكون محل اتفاق الجميع، من مستشار عسكرى إلى عالم الذرة إلى مندوبى المخابرات إلى دبلوماسيى وزارة الخارجية.. وقد جلسنا وتدارسنا واستغرقت دراساتنا طويلا واظهرت كل مظاهر وعلامات زيادة فترة الدراسة اللازمة زيادتها عن الوقت المتاح لنا.. فلما كان المساء انصرفنا على أن نجتمع فى اليوم التالى لاستكمال مشاوراتنا.. وكنا حوالى ستة أو سبعة أفراد ولكل منا نظرته وخلفياته وتجاربه المختلفة تماما ..

وفى صباح اليوم التالى طلبت مقابلة السفير عبد الفتاح حسن رئيس وفدنا، وقدمت إليه مشروع كلمة اعددتها وحدى فى مساء البارحة في فندقى بعد أن انفض اجتماعنا.. واخبرته بما حدث وأن مشاوراتنا لم تستكمل بعد ويبدو أنها ستستغرق يوما آخر أو يومين على الأقل .. لا أدرى وفى رأيى أنها لا تبشر بسرعة حلول

(١) عندما توفى عبد الفتاح حسن رحمه الله كان وزيرا لشئون مجلس الأمة .

النهاية وأني وفقا لخبرتي السابقة في مباحثات نزع السلاح في اللجنة الأولى في نيويورك ووفقا لحصيلة اطلاعاتي الشخصية في نزع السلاح قد أعددت له مشروع كلمة رأيت أنها تناسب المقام وتوفر الكثير من الوقت والجهد ورجوته أن يطلع عليها إذا شاء أو أن يهملها إذا رأى أني قد تجاوزت حدي كما يمكنه أن يطرحها للمناقشة أمام بقية الزملاء. فلما فعلت ذلك بدت على وجهه مظاهر عدم الارتياح واخبرني انه كان يفضل لو أن الكلمة كانت حصيلة مشاورات الجميع.. فأمنت على ماقال واضفت أني أيضا كنت افضل لو أن اخواني كانوا قد وافقوا على وجهات نظري وأن الأمر بيده هو إن شاء اطلع عليها او اهملها تماما ..

وقد استدعاني عبد الفتاح حسن بعد ساعة أو أكثر وقد بدت هذه المرة على وجهه علامات البشاشة والارتياح وقال إنه اطلع على مشروع الكلمة وأنه يراها مناسبة تماما للمقام وأنه سوف يلقيها أمام المؤتمر كما سوف يطلع الزملاء الآخرين عليها قبل ذلك.. وشكرني .

وهكذا وضعتني الظروف في مركز المساعد الفني لرئيس وفدنا في مؤتمر نزع السلاح طوال خمسة عشر شهرا مكثتها في جنيف.. كنت أعد مشروع الكلمات التي ألقاها السفير عبد الفتاح حسن أي أني اصبحت مايسميه الامريكيون Ghost - Writer

ولكل رئيس جمهورية امريكى GHOST WRITER أى كاتب من وراء الستار أو أكثر. عادة يكون اسم هذا الكاتب الذى يعد خطب رئيس الولايات المتحدة معروفا تماما للصحافة والاعلام ولكل المحيطين بالرئيس.. ولا يجد الرئيس أو اعضاء حكومته أى غضاضة فى ذلك ..

فالمفروض أن رئيس الحكومة أو رئيس أى جهاز بحكم مسئولياته الكثيرة المتشعبة ووقته الضيق لا يملك الوقت ولا الاعداد الفنى لكتابة كلماته.. ومن ثم يوكل بهذه المهمة إلى المتخصصين فى فن الكتابة والصياغة فضلا عن المتخصصين فى تفاصيل المشاكل الفنية التى سوف يتناولها خطاب الرئيس ..

وكان هذا هو الحال الذى ارتاح إليه السفير عبد الفتاح حسن وارتضيته لنفسى بسرور بالغ.. فكم كانت سعادتى غامرة عندما كان يكلفنى باعداد مشروع كلمة وأعدها فى بحر الليلة التالية واضعها امامه صباح اليوم التالى ويطلع عليها ويتهلل وجهه بشرا وهو يستعد لإلقائها .. وكم كانت سعادتى غامرة حين تلقى كلمات عبد الفتاح حسن اعجاب وتهانى رؤساء الوفود الأخرى !

وكان زملائى اعضاء الوفد على علم بطبيعة الحال بهذا الوضع الجديد وكانوا يرونه طبيعيا فقد كنت اكثرهم تخصصا فى ذلك الفرع واطولهم خبرة به واكثرهم علما بفن الصياغة باللغة الانجليزية بحكم خبراتى وتكوينى ..

ولم يخطر ببالى مرة واحدة أن أخبر أحد اعضاء الوفود الأخرى بالمؤتمر بأنى أضع مشروعات الكلمات التي يلقيها رئيس وفد مصر أمام المؤتمر.. لم يخطر هذا ببالي فقد كنت أراه وضعا طبيعيا لا يستحق التنويه أو الإشارة اليه.. مثلما لم يخطر ببالى أن اسأل زملائى فى الوفود الأخرى عن الكاتب وراء الستار لكلماتهم..

إلا أنه ذات مرة سأل بعض اعضاء الوفد الأمريكى زميلا لى في وفدنا عن شخصية الكاتب وراء الستار لخطب رئيس وفدنا .. ويبدو أن الزميل المصرى لم ير غضاضة أو عيبا فى اخطاره باسمى.. وكان هذا طبيعيا بالمثل ..

وبعد أن ألقي السفير عبد الفتاح حسن خطابه فى إحدى المرات، وكان خطابا اتسم بالمقدرة التحليلية الدقيقة لمواقف الدولتين العظميين واحرج كليهما اذ أظهر مراوغات كل منهما، تقدم رئيس وفد الولايات المتحدة الى السفير عبد الفتاح حسن مهنئا له على الخطاب كما تقدم الى أنا أيضا على مرأى من السفير عبد الفتاح مهنئا على حسن اعدادى لهذا الخطاب !!

ما أن وصلنا الى مقر الوفد الدائم إلا واستدعانى السفير عبد الفتاح حسن وقد بدت على وجهه علامات الأسى والحزن سألنى : لماذا أخطرت الوفد الأمريكى أو غيره من الوفود (بأنى أنا) الذى

أعد مشروعات الكلمات؟ ألم يكن من الواجب الاحتفاظ بذلك السر لوفدنا فقط ؟! وقد أكدت له بكل ماأملك من قوة حجة واقناع بانى لم افعل ذلك وأنى آخر من كان يفشى السر ولم تكن لى أى مصلحة فى ذلك بل على العكس.. وأنى أكثر الناس حرصا على النظام والأمانة وعلى ارضائه هو بالذات.. فلما سألنى عن اسم الزميل الذى أفشى ذلك السر قلت له إنى اشك فى شخص معين لكنى لست متأكدا من ذلك تماما وعلى هذا فقد رجوته اعفائى من ذكر اسمه. ففعل ..

ورغم أن الوزارة كانت قد انتدبتنى من نيويورك إلى جنيف لمدة حددتها بشهرين فقط فقد تمسك السفير عبد الفتاح حسن ببقائى معه فى جنيف طوال فترة تلك الدورة فى المباحثات التى استغرقت ستة شهور كاملة.. ثم عندما انتقل موضوع نزع السلاح الى الجمعية العامة فى نيويورك لمناقشة نتائج مؤتمر جنيف اختارته الوزارة ليرأس وفدنا عند نظر الجمعية العامة لذلك الموضوع فرافقته الى نيويورك عائدا إلى مقر عملى الأصلى بها. وفى نيويورك وجدت أنى رقيت الى درجة المستشار بالاختيار. ثم استأنف مؤتمر نزع السلاح فى جنيف بحثه للموضوع فى دوراته التالية من فبراير ٦٣ إلى ديسمبر ٦٣ فصمم عبد الفتاح حسن على إعادة ندبى إلى جنيف حيث امضيت تسعة شهور كاملة فى

نفس الوظيفة السالفة أى «الكاتب من وراء الستار» للكلمات التى ألقاها هو ورؤساء الوفد من بعده أمام المؤتمر.. ولم تنته مهمتى هذه إلا بانقضاء مدة عملي في وفدنا فى نيويورك فنقلت الى ديوان الوزارة بالقاهرة .

وقد بقيت فى جنيف فى ذلك الوقت طوال الخمسة عشر شهرا سالفة الذكر فى حين تبادل زملاء آخرون الذهاب والمجيء من حولى.. كما انه اثناء اجازات السفير عبد الفتاح حسن في مصر تبادل رئاسة الوفد بدلا منه كل من المرحوم السفير محمد حسن الزيات (ووزير الخارجية فيما بعد) والسفير محمد حافظ اسماعيل (مستشار الأمن القومى فيما بعد) وظللت أنا فى نفس الموقع مع كل منهما ايضا.. إلا أن لكل منهما طريقته المختلفة فالدكتور الزيات رحمه الله يكلف مساعديه باعداد مشروع كلمة ما، ثم يستوعب مافيه ويغيره تماما مضفيا عليه شخصيته وفلسفته الخاصة ويعيد كتابته مرة واثنتين وثلاث مرات أو أكثر ويظل يدخل عليه التحسينات بالقلم الرصاص الى لحظة إلقائه أمام المؤتمر.. أما حافظ اسماعيل فمثال الانتظام والحزم والحسم.. ويعلم مايريد منذ البداية ويستقر عليه دون انحناء أو انثناء ومع ذلك فقد قامت بينهما الأثنين زمالة وصداقة متينة منذ أن عملا سويا فى سفارتنا فى واشنطن فى أوائل الخمسينات كما سبق أن ذكرت ..

جمعتنا إذن عبد الفتاح حسن وأنا صداقة عمل وزمالة طيبة واعجاب متبادل فكنت أعجب بذكائه السياسى الفطرى وبدماثة خلقه وكرمه واعتزازه بكرامته كما انه اعجب فيما يبدو بمقدرتى على الصياغة بالانجليزية وبإلمامى التام - ذلك الوقت - بتفاصيل ودقائق مشاكل نزع السلاح وتفاصيل مواقف البلاد المختلفة.. وظلت هذه الصداقة العميقة الجذور تجمع بيننا الى أن وافته المنية وكان وزيرا لشئون مجلس الأمة فى ذلك الوقت ..

إلا أنه عندما كان وزيرا لمجلس الأمة جاءته دعوة شخصية لحضور مؤتمر لنزع السـلاح ضم شخصيات كبيرة دولية مختلفة - وليس حكومات - عقد فى سكاربور Scarborough فى كندا قرب تورنتو وقد اعتذر لضيق وقته الا انه رشحنى للمؤتمر بدلا منه وفعلا تلقيت دعوة شخصية من المؤتمر وحضرته بصفتى الشخصية.. واذكر من بين اعضاء المؤتمر الآخرين كان نائب وزير الخارجية السوفييتى وعلماء سوفييت وأمريكيون.. وشيمون بيريز رئيس حزب العمل الاسرائيلى سابقا ووزير الخارجية حاليا ..

وجدير بالذكر أنه بعد ان انتهت مدة عملى فى بعثتنا الدائمة فى نيويورك ونقلت للعمل بديوان الوزارة بالقاهرة تلقيت دعوة شخصية من مركز العلاقات الدولية بجامعة هارفارد الأمريكية لحضور سنة دراسية ١٩٦٥/١٩٦٦ «كزميل» Fellow فى المركز

ويبدو من استقراء الأحداث أن بعض زملائي اعضاء وفد الولايات المتحدة لمؤتمر نزع السلاح في جنيف وانتهم الفرصة لتقديم اسمي الى ذلك المركز كأحد الجديرين بنيل دعوته اذ كان المركز بالاتفاق مع جامعة هارفارد وجامعة Mit (وكلاهما في بوستون) مهتما اهتماما بالغا بدراسات نزع السلاح في مقدمة اهتماماته بالشئون الدولية المعاصرة .

وقد حصلت على موافقة الوزارة لقبول تلك الدعوة الشخصية. وكنت أول مصري يدعى ليكون زميلا في مركز الدراسات الدولية بجامعة هارفاد وكان «الزملاء» Fellows يعاملون معامل اساتذة زائرين لجامعة هارفارد وينالون مكافآت شهرية ويسمح لهم بالاستماع الى ماشاءوا من محاضرات الاساتذة بالجامعة في أي فرع من الفروع. لكن برنامج «الزملاء» كان يتركز في عقد ندوات وحلقات دراسية مرتين أو ثلاث مرات اسبوعيا للاستماع الى عرض احد الاساتذة في هارفارد أو Mit او أحد «الزملاء» انفسهم عن موضوع معين ثم مناقشته فيما بينهم.. وكان على قائمة موضوعات البحث تفاصيل نزع السلاح الى جانب بقية المشاكل العالمية سياسية أو اقتصادية ومن أهم الاساتذة الامريكيين الذين حضروا تلك الندوات واسهموا فيها ، الاساتذة Samuel Hoff-man و Tom Schelling وهنري كيسنجر وشليسينجر وماسون ولويس سوهن وهالبيرن ..

أما «الزملاء» فكانوا خمسة عشر زميلا من جنسيات مختلفة كنت المصرى الوحيد فيهم [1] وكان بينهم ضباط عظام امريكيون، ومستشارون سياسيون من الخارجية الأمريكية، وعالم برازيلى اقتصادى، ودبلوماسيون من اليابان ووزير مفوض بريطانى ومستشار المانى وكولونيل المانى وهكذا .. كان المفروض أن يكون الزملاء ممن امضوا على الأقل عشرين سنة فى خدمة بلادهم فى المجالات العسكرية أو الدبلوماسية أو العلمية وأن يكونوا قد حققوا سمعة طيبة فى ميادين تخصصهم وأمامهم مجالات الترقى إلى الدرجات العليا فى بلادهم. أما حلقات الدراسة التى دعوا إلى حضورها فكان القصد منها مزج خبرات أو تجارب هؤلاء الـ Practitioners أى أصحاب التجارب العملية فى ميادين تخصصهم مزجها بدراسات وابحاث العلماء النظريين اساتذة جامعات هارفارد و Mit حتى تكون الحصيلة النهائية لبحوثهم قد قامت على التجارب العملية والدراسات النظرية المتعمقة على حد سواء.

إلى جانب هذا كلف كل زميل باعداد بحث أو كتيب فى موضوع يختاره هو من موضوعات متخصصة وأن يقدمه إلى

---

(١) بل كنت أول مصرى دعى ليكون زميلا فى مركز الدراسات الدولية فى هارفارد، وقد دعى فيه من بعدى السفراء احمد توفيق خليل وتحسين بشير الخ .

المركز قبل نهاية السنة الدراسية ١٩٦٦/٦٥.. وقد اتاح المركز للزملاء كل الامكانيات اللازمة من سكرتيرات كاتبات على الآلة الكاتبة إلى مكتبة ضمت آخر البحوث والكتب العلمية المتخصصة، بالاضافة الى مكتبة جامعة هارفارد الشهيرة ..

ومن جانبى أنا اخذت موضوعا لبحثى حول «دور الدول غير المنحازة فى مباحثات وقف التجارب الذرية» اعتمادا على خبرتى العملية داخل مؤتمر نزع السلاح بجنيف.. وقد وافق المركز على اختيارى بل تحمس له فقد كانت خبرتى وسمعتى داخل ذلك المؤتمر فى جنيف الأساس لدعوتى لكى أكون زميلا للمركز.. وفى بحر ثلاثة أو أربعة شهور قدمت بحثى الى المركز وقد نال موافقته واعتبره بمثابة رسالة جديرة بالدكتوراة .. بل لقد شجعنى المركز على أن اضع بحثى تحت انظار الهيئات العلمية الأمريكية الأخرى. ومن ثم فقد اتصل بى مديرو Carnegie Endowment for international peace فى نيويورك (وهى هيئة علمية خيرية تتمتع بسمعة عالمية طيبة فى ميدان الدراسات التى تشجع على استتباب السلام والأمن فى العالم) عارضين علىّ نشر بحثى فى شكل كتاب اختصروه فى حوالى مائتى صفحة أصدرتها تلك الهيئة بعنوان The Non-aligned and the Test-Ban Negotiations ضمن سلسلة الكتب التى تصدرها تلك الهيئة كان ذلك بعد أربعة شهور

من بدء السنة الدراسية ١٩٦٦/٦٥ ولكن مازال أمامى خمسة شهور أخرى امضيها فى المركز!! وفى الحلقات الدراسية التى حضرتها وجدت جهلا واضحا بتجربة نظام الحكم فى مصر فى عهد عبد الناصر (١٩٦٦/٦٥) بين الاساتذة الأمريكيين وأغلب المشتركين فى الحلقات، كما وجدت تعطشا منهم لزيادة فهم أسباب ودواعى تجربة مصر الاشتراكية فى ذلك الحين والى ماذا سوف تؤدى فى النهاية ؟

ومن هنا رأيت أن الوقت يسمح لى بأن ألقى شيئا من الضوء على تلك التجربة الرائدة فى العالم الثالث.. لكن كانت الظروف تحتم على أن استند إلى مصادر غربيه فقط فى تفسير وتبرير تجربة عبد الناصر إذ كنت فى جامعة هارفارد وسط جو علمى أمريكى ولا بد من الاستناد الى المراجع الغربية بل لا توجد غير المراجع الغربية تحت يدى فى ذلك الحين.. إلى جانب ما أمكننى الحصول عليه من الصحف المصرية وكتاب فلسفة الثورة وما إلى ذلك ..

بعد شهرين آخرين أمضيتهما فى التزود بما أمكن الرجوع اليه من مصادر البحث العلمى المتاحة فى مكتبات هارفارد بدأت كتابة بحثى الآخر بالانجليزية وقبل نهاية العام الدراسى بشهرين أخرجت كتابى الثانى فى هارفارد وكان عنوانه

Nasser's Aarab Socialism : Its place in world Ideologies

«اشتراكية عبد الناصر العربية ومكانتها بين الايديولوجيات العالمية » ...

جاء البحث تفسيرا منطقيا وتبريرا علميا لتجربة عبد الناصر فلسفيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا.. تبريرا لحتميتها وتفسيرا لاختلافاتها مع الشيوعية والماركسية اللينينية العلمية ومحاولة لوصف مكانتها بين مختلف الايديولوجيات وبخاصة الاشتراكية الفابيانية والاشتراكية الديموقراطية الغربية واشتراكيات العالم الثالث المتزايدة.. ولم تكن نتيجة بحثى تعتبر كلها دفاعا عن تجربة عبد الناصر وبخاصة فى مجال تجربة الديموقراطية والحريات .

وقدمت البحث إلى المركز وقد كتبته على الماكينة إحدى سكرتيرات المركز وكان يقع فى ٢٥٠ صفحة أو أكثر قليلا.. وانتظرت رد فعلهم.. لم يكن ايجابيا بل متهربا حذرا جاء البحث دفاعا عن حتمية اشتراكية عبد الناصر استنادا الى مصادر غربية علمية محترمة !! وهو الأسوأ أو لعلهم كانوا ينتظرون أن يكون نقداً لاشتراكية عبد الناصر وليس تبريرا لها.. فالأمريكيون وبخاصة فى تلك الفترة كانوا كثيرى التشكك فى الاشتراكية غير متقبلين لها، بالاضافة الى أن خلافاتهم السياسية مع عبد الناصر

كانت متصاعدة ومالبثت سنة ٦٧ أن أدت إلى حرب الأيام الستة. وموقف الولايات المتحدة المالىء لاسرائيل فى الميدان وفى مجلس الأمن فى ذلك الوقت معلوم للجميع [١]. ومن هنا لم يتحمسوا لنشره لكن دارا بريطانية للنشر Blandford Press وافقت على نشره بعد ذلك بسنوات قليلة اثناء عملى فى لندن من ٦٨-٧٣ وصدر تحت اسم

Arab Socialism

كما اصدرته دار نشر Ediciones Barbara فى كاراكاس عاصمة فنزويلا باللغة الاسبانية تحت اسم «الطريق العربى إلى الاشتراكية» La Via arabe al Socilismo والفضل فى ذلك يرجع إلى زميلى وصديقى السفير عباس حلمى صدقى الذى زاملته كمستشار فى المكسيك وقد تبوأ بعد ذلك مركز سفير مصر فى كاراكاس فنزويلا وكان هو المحرك والحافز لدار النشر الفنزويلية على نشره بالأسبانية فى مطلع السبعينات ..

ومازالت مباحثات نزع السلاح مستمرة الى يومنا هذا أى إلى سنة ١٩٩٣ ولعلها سوف تستمر سنين طويلة أخرى.. لقد سبق أن نادى سياسيون وفلاسفة بتخفيض السلاح وتحديده من القرن

---

(١) اقرأ كتاب محمد حسنين هيكل الانفجار سنة ١٩٦٧ .

الثامن عشر والتاسع عشر.. وبعد الحرب العالمية الأولى عقدت عدة اتفاقيات فى واشنطن سنة ١٩٢١ وفى لوكارنو سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٨ من أجل تحديد التسلح لمنع نشوب حرب جديدة.. لكن المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية خرقت هذه الاتفاقيات وتسلحت واعتدت على غيرها مما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية ..

لكن مباحثات نزع السلاح التى بدأت فى مؤتمر الدول الثمانى عشرة فى جنيف منذ سنة ١٩٦٢ (زاد عدد الدول المشتركة فى ذلك المؤتمر حاليا حتى وصل فيما اعتقد إلى ٣٧ دولة) وضعت هدفا لها ليس مجرد تحديد التسلح أو تخفيضه وانما نزع السلاح التام الشامل وهو الهدف الذى طالب به السوفييت أولا ثم تبناه عدد من الدول حتى احرجت الولايات المتحدة واضطرت لقبوله أو ادعت بقبوله..

لكن الفارق الكبير بين مباحثات ماقبل الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ وما بعدها هو نوعية السلاح الذى يراد نزعه أو تحديده.. فقبل الحرب العالمية الثانية كان السلاح كله تقليديا أى غير الاسلحة الذرية التى ظهرت فى أواخر تلك الحرب فى ترسانة الولايات المتحدة ثم مالبث الاتحاد السوفييتى أن لحق بها ابتداء من سنة ١٩٤٨ واصبح العملاقان يملكان ترسانات أسلحة ذرية

رهيبة : قنابل ذرية ثم قنابل هيدروجينية اشد فتكا، ووسائل إيصالها إلى اهداف تبعد عدة آلاف من الأميال، سواء أكانت هذه الوسائل طائرات سريعة تطير على مستوى شديد الانخفاض وشديد السرعة فيصعب كشفها باجهزة الرادار أم كانت صواريخ عابرة للقارات بعيدة المدى أو صواريخ متوسطة المدى أو قصيرة المدى تحمل قنابل ذرية «تكتيكية» أى لتحقيق انتصارات محلية محددة مقصورة على ميدان قتال واحد معين لوقف تقدم طابور من الدبابات مثلا ثم مالبثت بريطانيا أن لحقت بالعملاقين بفضل مساعدات أمريكا لها مالبثت فرنسا أن اضطرت لمجاراة بريطانيا حتى لاتفقد كرامتها ومكانتها كدولة من دول الصدارة، ثم مالبثت الصين أن فعلت المثل فى أواخر الخمسينات لتخوفها من مقاصد الاتحاد السوفييتى مما اضطر الهند الى اجراء تجارب شديدة التقدم فى ميادين تفجير الذرة واطلاق الصواريخ لكنها وقفت دون اعلان حصولها على الأسلحة النووية وكذا فعلت باكستان.. كذلك عرف عن الأرجنتين والبرازيل أنهما ايضا على شفا تملك أسلحة ذرية.. أما اسرائيل فالمقطوع بأنها تمتلك مالا يقل عن مائتى قنبلة ذرية من حجم القنابل الذرية التى القتها الولايات المتحدة على هيروشيما كما تملك وسائل ايصالها إلى عواصم أغلب الدول العربية ..

كذلك هناك حاليا نوع آخر من الأسلحة الشديدة للفتك التى جرى تطويره فيما بعد الحرب العالمية الثانية وهى الأسلحة الكيماوية الأشد فتكا من الغازات السامة المعروفة منذ الحرب العالمية الأولى، بل وهناك حاليا الأسلحة البيولوجية أى التى تنشر فى بلاد أو مدن العدو الأمراض شديدة الفتك والتى تعصف بالملايين من السكان على غرة ..

وقد انقسمت مباحثات نزع السلاح منذ سنة ١٩٦٢ إلى فروع أساسية هى :

أ – نزع السلاح التام الشامل .

ب – مباحثات الاجراءات الجانبية Collateral Measures التى يمكن أن تساعد على خلق جو من الثقة واقلال حدة التوتر مما يشجع بدوره مباحثات نزع السلاح ومن هذه مثلا معاهدة منع انتشار الأسلحة الذرية .

ج – وقف التجارب الذرية والنووية .

وقد حقق مؤتمر الدول الثمانى عشرة سنة ٦٣ أول انتصار بفضل ضغط الدول غير المنحازة واستمرارها ترديد ضرورة وقف اجراء التجارب الذرية لأن استمرارها من شأنه تحسين وزيادة فتك ومقدرة الأسلحة الذرية ومن شأن وقف تلك التجارب وثوق اطراف النزاع فى عدم انفراد بعضهم بتحقيق انتصارات أو تقدم جديد ناهيك بأن التجارب النووية وبخـــاصة تلك التى تجـرى فى

الفضاء ينتج عنها تساقط الغبار الذرى على المدن الآمنة وتسبب في اضرار بالصحة العامة.. فقد اتفقت الدول الذرية اعضاء المؤتمر وهي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي وبريطانيا (كانت فرنسا والصين قد قاطعتا المؤتمر ومازالتا غير ملتزمتين باتفاقية وقف التجارب) على ايقاف تجارب الأسلحة الذرية في الفضاء الخارجي وتحت الماء.. لكنها احتفظت لنفسها باجراء تجاربها الذرية تحت الأرض على أعماق كبيرة ولأحجام معينة لا تتجاوزها.. وفي هذا الميدان كنت قد كتبت بحثي سالف الذكر في جامعة هارفارد عن دور الدول غير المنحازة في التوصل الى هذه الاتفاقية وعن الصعوبات التي حالت دون الوصول الى المزيد من التقدم وكان أول بحث مصرى عن نزع السلاح نشر على نطاق عالمي .

وبعد ذلك بسنين قليلة توصل المؤتمر بالمثل إلى عقد اتفاقية اخرى لا تقل أهمية هي اتفــاقية منع انتشار الاســلحة الذرية إلى دول جديدة غير التي حصــلت عليها قبل الاتفاقية Non - Prolif eration Treaty (N.P.T) وقد وقعت هذه الاتفاقية كثير من الدول منها مصر لكن لم توقعها اسرائيل وعدد آخر من الدول التي تقف على عتبة الاسلحة الذرية ، وبموجب هذه الاتفاقية تتعهد الدول الذرية بعدم اعطاء الاسلحة الذرية أو

تخزينها أو نقلها عبر الدول غير الذرية وبعدم استعمالها فى الحروب ضد الدول غير الذرية كما تتعهد بعدم تصعيد التسلح الذرى رأسيا « فنيا » بل وقفه وتخفيضه وتتعهد الدول غير الذرية فى مقابل ذلك بعدم الحصول على الاسلحة الذرية وبعدم قبولها على اراضيها (أى بعدم نشر الاسلحة أفقيا) ..

ومازال أهم مطلبين فى مباحثات نزع السلاح إلى يومنا هذا ، وهو ما تطالب به الدول غير المنحازة ومنها مصر باستمرار ، هما مطالبة الدول الذرية باستكمال معاهدة وقف التجارب أى بوقف كل التجارب الذرية حتى كل تلك التى تجرى تحت الأرض لخلق جو الثقة ولوقف سباق التسلح الرأسى الذى تزكيه تلك التجارب .. أما المطلب الآخر فهو احترام الدول الذرية لتعهداتها فى معاهدة N.P.T (منع الانتشار) لعدم تصعيد سباق التسلح الذرى (رأسيا) بل والعمل على تخفيضه والعمل على الضغط على بقية الدول التى لم توقع تلك المعاهدة حتى توقعها لخلق جو الثقة اللازم ولمنع غيرها من الدول الموقعة عن التخلى عن التزامها السابق إذا مارأت الكثير من الدول تمضى الى تملك تلك الأسلحة غير عابئة بمعاهدة وقف الانتشار..

أما مباحثات نزع السلاح التام الشامل فسرعان ماتكشف للدول غير المنحازة وبات معروفا لجميع العاملين فى حقل نزع

السلاح أن هناك تيارا قويا جدا في الغرب لا يرضى عن نزع السلاح التام الشامل إذ يرى فى الاحتفاظ بمستوى معين على الأقل من الأسلحة الذرية والنووية ووسائل إيصالها الأمل الوحيد للغرب في معادلة تفوق دول الاتحاد السوفييتي السابق والصين في ميادين الحرب والأسلحة التقليدية وعدد القوات المسلحة وقربها الى ميادين القتال، وكل مايأمله العاملون في مباحثات نزع السلاح حاليا هو الاتفاق على تخفيض مستويات التسلح بالأسلحة الذرية والنووية ووسائل إيصالها.. وقد توصل العملاقان الأمريكى والروسى أخيرا الى اتفاقات جزئية وإن كانت شديدة الأهمية وتبشر ببعض الخير من أجل الحد من عدد الصواريخ عابرة القارات والمتوسطة المدى كذلك الاتفاق على تخفيض عدد الرءوس النووية أو الذرية المخزونة لديها. وآية ذلك انهما لا يحتاجان إلى كل تلك الأعداد الهائلة من تلك الرءوس والصـواريخ فلكل من الاتحاد السوفييتي السابق والولايات المتحدة مايسمى بالمقدرة على أكثر من القتل Over-Kill أى أن ما لدى أحدهما يكفى لتدمير بلد الأخر ليس مرة واحدة وانما عشرات المرات ومن ثم فإنه حتى بافتراض تنفيذهما لتخفيض عدد الرءوس الذرية والصواريخ التى يملكها الواحد منهما الى النصف فتظل لكل منهما المقدرة على دمار الآخر تماما فيما لو قامت الحرب الذرية.. لكن أى اتفاق

بينهما على تخفيض ترساناتهما الذرية يخلق جوا من الثقة ويفتح الباب أمام المزيد من التقدم ..

وإلى جانب رغبة بعض العسكريين في الغرب في الاحتفاظ بالتفوق الدائم Superiority على الاتحـاد السوفييتي في عدد الرءوس الذرية والصواريخ (في حين أن الاتجاه الأكثر اعتدالا يرى الاكتفاء بالتوازن أو المساواة Parity- Balance إلى جانب الرغبة في التفوق باستمرار على الاتحاد السوفييتى فهناك صعوبات فنية أخرى لعلها العقبة الحقيقة في وجه نزع السلاح الكامل الشامل .. أولى هذه العقبات الفنية الكئود هي أن العملاق قد خرج من القمقم "The genie is out of the bottle ولا وسيلة إلى اعادته مرة أخرى داخل القمقم.فسر التوصل إلى التفجير النووى وصناعة الأسلحة النووية لم يعد سرا بل مباحا لغالبية العلماء.. وأصبحت مشكلة صناعة تلك الأسلحة النووية تنحصر في المصاريف الباهظة والوقت اللازم لكن كثيرا جداً من الدول تستطيع تملك الأسلحة الذرية . وحتى إذا مااتفق العملاقان على إزالتها وتمت إزالتها فإنه من الممكن نظريا على الأقل لواحد أو مجموعة من الأفراد أو الدول إعادة صنعها للأسلحة النووية سرا ! وهل يمكن للعالم التحقق من عدم صناعتها سرا في جميع انحاء العالم المترامى الأطراف ؟ هل يمكن اقامة نظام للتفتيش والرقابة

والتحقق الدائم يضمن عدم اخفاء لجوء دولة أو مجموعة من الصناعات الى إعادة صناعة الأسلحة الذرية سرا دون أن يتنبه العالم إلى ذلك ؟ هذا هو ما يقض مضاجع علماء نزع السلاح حتى الآن خاصة لأن الاتحاد السوفييتي السابق وحلفاءه كانوا يعارضون بشدة قبول أى نظام دقيق للتفتيش والرقابة والتحقيق داخل المصانع والمعسكرات.. ولو أن الاتحاد السوفييتي السابق حاليا قد أصبح أقل انغلاقا وأكثر تقبلا لأنظمة التفيش والتحقق داخل اراضيـــه إلا أن علماء نزع السلاح مازالوا يشيرون الى أن الدول الذرية فى كلا المعسكرين اجادت تماما طرق واسرار إخفاء رء وسها الذرية وصواريخها تحت الأرض وتحت المـــاء وماإلى ذلك ..

هناك ايضا مشكلة فنية أخرى هى كيفية الموازنة بين تفوق الاتحاد السوفييتي السابق وحلفائه تفوقا واضحا فى ميدان الأسلحة التقليدية والحرب التقليدية بحكم الاعداد والموقع والطبوغرافيا الخ – من ناحية – وحاجة الولايات المتحدة والغرب من ناحية أخرى إلى الاحتفاظ بمستوى معين متفوق (ماهو بالضبط؟) من الأسلحة النووية لمعادلة ذلك التفوق فى وسائل الحرب التقليدية.. ماهى المعادلة أو التركيبة التى يمكن الاتفاق عليها ؟ وبمعنى آخر فإنه لا يدخل فى تفكير العسكريين الغربيين

محاولة الاتفاق على ازالة جميع الأسلحة الذرية لأن ذلك يعطى للاتحاد السوفييتى السابق ميزة تفوقه فى ميدان الحرب التقليدية. فهل يقبل «الاتحاد السوفييتى» اتفاقية تطالبه بتخفيض مستويات تسلحه الذرى والتقليدى عن مستوى الولايات المتحدة والغرب لتجريده من ميزة التفوق سالفة الذكر فى ميادين الحرب التقليدية؟! إن انحسار مد الحرب الباردة هو الأمل الوحيد فى احراز اى تقدم فى هذا الميدان رغم ان تفكك الاتحاد السوفييتى قد خلق بدوره مشاكل كثيرة جديدة من حيث امكانيات انتشار الاسلحة الذرية وحول مصداقية ومدى دوام شهر العسل الحالى مابين الشرق والغرب .

تتبقى بعد ذلك مشكلة الاسلحة الكيماوية والبيولوجية وهى وإن كانت تختلف عن الأسلحة النووية إلا أنها يمكن أن تكون أكثر خطورة وأكثر انتشارا وفتكا خاصة أن صناعاتها لاتستلزم علوماً وفنوناً شديدة التقدم مثل العلوم الذرية ويمكن لكثير من الدول الأقل تطورا صناعتها واستعمالها.. ويصعب إلى حد كبير جدا التحقق من عدم صناعتها سرا .. ومن عدم اخفاء مخزونها وقد تم فى مطلع عام ١٩٩٣ فى باريس التوقيع على معاهدة لمنع انتشار الأسلحة الكيماوية .لكن مصر وبعض الدول العربية ترفض التوقيع عليها حتى توقع اســـرائيل اتفاقية منع انتشار الاسلحة الذرية أولا .

حصيلة القول إنه وإن تم تحقيق بعض التقدم فى ميدان نزع السلاح أو تخفيض السلاح إلا أن الطريق مازال طويلا وعرا.. وسوف يظل القرن العشرون يتحدث عن نزع السلاح أو تحديد السلاح مثلما فعل من قبله القرن التاسع عشر والثامن عشر حتى وإن اختلفت طبيعة الأسلحة وطبيعة الحروب وشكل المفاوضات .. ومن المحتمل كثيرا أن مظاهر تخفيف حدة الحرب الباردة والتقارب مابين المعسكرين قد تساعد على الوصول الى مستويات أقل من الحالية لتسلح الجانبين ..

لكن جنيف باقية ، مبتسمة وفاتحة ذراعيها للدبلوماسيين والساسة والباحثين عن أفضل سبل «نزع السلاح» ..

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٧٤٥١ / ١٩٩٣
I . S . B . N
977 - 07 - O277 - X

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

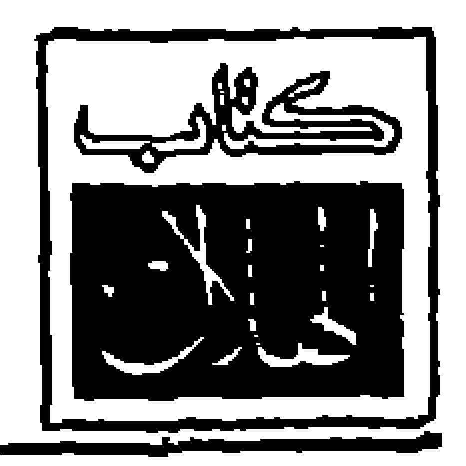
كتاب فريد فى موضوعه غنى فى مادته يعتمد على أسلوب أدبى رفيع شيق ، يجمع بين ادب الرحلات وأدب السياسة ، حيث يقدم للقارىء رحلات فكرية سياحية رائعة عبر بلدان البحر المتوسط والمحيط الاطلسى وأوروبا الغربية والامريكتين وجنوب شرقى آسيا واستراليا ونيوزيلاندا وهونولولو ، وجزر فيجى وأفريقيا وهذا الكتاب لا يستهدف تسلية القارىء وحسب بل يرى لزاما على الأديب والدبلوماسى أن يمزج المتعة السياحية بالثقافة السياسية ، وأن يشرك القارىء فى تفهم وتذوق تجارب الكاتب وانفعالاته سياحية وأدبية كانت أو سياسية ، وأن يتيح للقارىء نتيجة أو حصاد حياته فى ميدان السياسة الخارجية والعمل الدبلوماسى وعلاقات تلك الدول والشعوب بمصر والعالم الخارجى ومن خلال هذه الحصيلة وهذه التجارب التى جمعها الكاتب الأديب عبر ثمانية وثلاثين عاما تنقل فيها بين سفارات مصر يعقد الكاتب السياسى المقارنات والمفاضلات ويسرد التأملات والتحليلات ضمن مجموعة هامة من الملاحظات والمعلومات السياسية والإحصائية والسياحية فى مزيج شيق من أدب الرحلات وأدب السياسة .

بهاء طاهر

أبناء رفاعة

الثقافة والحرية





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No. - 514 - Oc. - 1993

العدد ٥١٤ – ربيع ثاني – أكتوبر ١٩٩٣

FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشاً :

سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٥٥٠٠ ليره – الأردن ٢ دينار – الكويت ١ دينار – السعودية ١٢ ريالا – تونس ٢ دينار – المغرب ٢٥ درهما – البحرين ١,٢٠٠ دينار – الدوحة ١٢ ريالا – دبي وأبو ظبي ١٢ درهما – مسقط ١,٢٠٠ ريال – غزة والضفة والقدس ٢ دولار – لندن ١,٥٠ جك .

أبنـاء رفاعـة

الثقـافة والحريـة

بقـلم :

بهـاء طـاهـر

●

دار الهـــلال

الغـــــلاف بريشـــــة :
الفنـــــان : « نـادى »



تدور فصول هذا الكتاب على اختلافها حول محور واحد هو الثقافة والحرية ، أو بتعبير أدق حول ثقافة الحرية ، ويرى كاتب هذه السطور أن قيام الدولة المصرية الحديثة قبل أقل من قرنين من الزمان قد أنقذ هذا الوطن من الهلاك الفعلى والاندثار الذى لحق شعوبا أخرى ، ويرى أن المثقفين قد لعبوا أهم الأدوار فى إحداث التغيير الفكرى الذى قاد مصر خطوة خطوة رغم الهزائم والانكسارات لتصبح فى كل مرحلة أفضل مما كانت عليه من قبل .

وأنا أفهم أن هذا القدر من التقدم الذى حققناه خلال تلك الفترة الوجيزة لا يرضينا الآن على أى نحو ، وأن الفرق بين التوقعات والواقع ما زال شاسعا ، وأنه ما زال علينا أن نفعل الكثير ، كل ذلك حق فأما القول بأننا كنا نعيش عصرا ذهبيا قبل قيام الدولة الحديثة ، ثم جاءت هذه الدولة لتدخلنا فى ثقافة «التبعية» و«الاستعمار» فهو قول أبسط ما يقال عنه أنه يجهل كل الجهل ما كنا فيه وما أصبحنا إليه .

ونحن نعلم بطبيعة الحال أن نهضتنا الحديثة قد بدأت باتصالنا بالغرب وأزعم أن ذلك قد تم بفضل محمد على لا بسبب الحملة الفرنسية كما يذهب البعض ، فالحقيقة أن الحملة أخرت النهضة ولم تساعد عليها كما سيرد بالتفصيل فى هذا الكتاب ، ولكن الثقافة الحديثة رغم تأثرها بالاتصال بالغرب لم تكن اقتباسا مباشرا منه أو نقلا حرفيا عنه بل تبلورت فى معظم الأحيان من خلال الصراع مع الغرب ومن خلال الرفض للكثير من قيمه ومنطلقاته ، إذ كان ذلك الاتصال فى حقيقته فرصة للمراجعة ولمحاولة تأكيد الذات بالعودة إلى الثوابت الثقافية للذات المصرية ، ولإحياء القيم النبيلة فى حضارتنا الإسلامية التى طمستها عصور الظلام المملوكية العثمانية ، ومن هنا كان صراع الثقافة المصرية الحديثة ضد التغريب وضد التتريك معا ، سعيا لتأكيد ذاتية ثقافية مستقلة .

ولا تكفى إرادة الحاكم وحدها ، ولو كان فى مثل عزيمة محمد على ، لإحداث تغيير بمثل هذا الحجم فى المجتمع ، ولكن الفضل يرجع إلى واحد من إنجازاته فى تحقيق تلك النقلة الهائلة ، وأعنى بذلك بطبيعة الحال نشر التعليم العصرى ، فإذا كان هذا الجندى الألبانى الطموح قد أراد أن يحكم مصر على الطريقة العثمانية وأن يورثها لخلفائه ليحكموها بالطريقة نفسها ، فإن المدارس هى التى خرجت المثقفين الرافضين لهذا الأسلوب في الحكم ولهذه الطريقة

في الحياة ، ومع نشوء جيل جديد من المتعلمين بدأ الصراع لانتزاع الحقوق والحريات ، بالتدريج ودونما انقطاع .

ولنبدأ مثلا بأبسط الحقوق والحريات التى تنص عليها مواثيق حقوق الانسان والتى تمليها البديهة قبل ذلك : حرية الحق فى الحياة . فنحن قد نعلم من التاريخ أن المصرى لم تكن له حقوق فعلية إزاء حكامه من الأتراك والمماليك حتى ولو كانت له حقوق نظرية . ويحفل كتاب الجبرتي مثلا بعبارات من هذا النوع عن أمراء المماليك فى العاصمة والأقاليم قبل حكم محمد على : «فمراد بك كان من أعظم أسباب خراب الإقليم المصرى فلعل الهم يزول بزواله» .. وسليم الكاشف فى أسيوط «كانت له صولة وظلم وتجرؤ على سفك الدماء وقتل الكثيرين» .. والأمير عائد أغا «كان يلقب بقايد نار لظلمه وتجبره» ! إلخ إلخ . ويصف لنا الجبرتى وغيره من مؤرخى العصر كيف كان المماليك وجند الانكشارية يلعبون بسيوفهم فى رقاب الناس للسلب والنهب أو لمجرد شهوة القتل ، وحاول أن تحصى من كانوا يسقطون قتلى فى سنة واحدة وسيصيبك الهلع لاسيما إن أضفت إلى هؤلاء ضحايا الأوبئة والمجاعات الدورية فى ظل هذا الحكم الفاسد ولا تنس فى إحصائك أيضا من كانت تضرب رقابهم وتعلق على باب زويلة رءوسهم لأقل شبهة أو إساءة أو مخالفة للأوامر السلطانية أو الملوكية وستعرف ساعتها لماذا أوشكنا أن نندثر .

فى بعض الأحيان ، أيامها كان هناك استجواب صورى ومحاكمة صورية قبل القتل ، أما أغلب الأمر فكان يتم على هذا النحو الموجز : «ثم جاءوا به (أى بالمتهم) فقطعوا رأسه» ! .. هكذا كان (احترام) الحق فى الحياة !

إذ لم يكن حق الدفاع فى هذا العصر المظلم معروفا .

ولم تكن هناك مهنة اسمها المحاماة ، ولا عرفنا هذه المهنة أصلا ولا أن للمحاكمة إجراءات وللمتهم حقوقا ، إلا قبل ما يزيد قليلا على قرن واحد من الزمان ، فلم تنشأ فى مصر مدرسة للقانون (الحقوق) إلا فى سنة ١٨٦٨ وأذكر فى ذلك فضل مثقفين كبيرين هما رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك اللذان خاضا معركة نشر التعليم الحديث فى مصر .

ولم يتوقف الاعتداء على الحق فى الحياة فجأة بطبيعة الحال ، ولا كان الخديو إسماعيل الذى أنشئت مدرسة الحقوق على عهده حاكما يقدس هذا الحق أكثر من أسلافه . ولكن المجتمع بدأ يكتسب بالتدريج حقوقا وواصل المثقفون الدعوة إلى توسيع نطاق هذه الحقوق ومازالوا يفعلون .

ويصف الإمام محمد عبده هذا التطور فى عبارة بليغة يحدّد بها إنجاز جيله من المثقفين أيام الثورة العرابية حين يقول :

«كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال مدة تزيد على عشرين قرنا

.... دعونا إلى الاعتقاد بأن الحاكم هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهواته إلا نصح الأمة له بالقول وبالفعل . جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له أى عبيد» ! ..

وكم كان فادحا ذلك الثمن الذى دفعه محمد عبده وغيره من رواد التنوير والتغيير الثقافى !.. دفعوا الثمن جميعا : سجناً ونفياً وتشريدا ولكننا بفضل جهدهم الفكرى وتضحياتهم الشخصية انتقلنا مما كنا فيه من موات كامل إلى أولى عتبات الحياة .

وفيما يلى من هذا الكتاب قراءة شخصية للخطوط العريضة فى تطور حياتنا الثقافية ولما اكتسبناه فى مسيرة هذا التطور ، وقراءة شخصية أيضا لعوامل الانتكاس والتراجع . وقد بذلت جهد طاقتى فى تلك الدراسات لتكون غايتى هى الحقيقة وحدها . ولم يفتنى أن أنسب لكل من أفدت منه رأيا فضله ، ولكن مجمل القراءة والمنهج والاستنتاجات مسئوليتى الشخصية فى جميع الأحوال .

وبوسع كل قارىء دائما أن يضيف بتأملاته الشخصية إلى الكتاب الذى يقرؤه . وأرجو ألا أتعدى على هذه الحرية حين أدعو القارىء إلى أن يتأمل معى فكرة أو فكرتين قبل أن أتركه لصفحات هذا الكتاب .

إننى أذكر باستمرار فى هذه الدراسات أسماء الطهطاوى ومحمد عبده وقاسم أمين وطه حسين باعتبارهم طلائع كوكبة

التنوير فى ثقافتنا الحديثة . ولكن هذه الأسماء بالذات تتعرض الآن لهجوم ضار من خصوم النهضة باعتبار أصحابها رواد «العلمانية» فى ثقافتنا الحديثة . ولهذا فقد قرأت مؤخراً بحثاً مطولاً لأستاذ جامعى عربى يحاول أن يثبت فيه أن العلمانية حين دخلت كمصطلح فى لغتنا العربية لم تكن تعنى النسبة إلى «العالم كما كان الحال فى الغرب ، بل تعنى النسبة إلى «العلم» !.. هكذا فهمها روادها وهكذا فهمها المجتمع لعشرات السنين . وعندى أن الأمر لم يكن بحاجة إلى أن يجهد هذا الأستاذ الجامعى نفسه بحثا عن الأسانيد التاريخية . فقد كان عمل هؤلاء الرواد بذاته دفاعا بليغا عن الدين حين حاولوا تغيير حياة المجتمع نحو الأصلح والأقوم . ويوجز كاتبنا الراحل د. محمد حسين هيكل تلك الرابطة العميقة بين السياسة والثقافة والدين فى عبارة غنية بالدلالة ضمن مذكراته حين يقول عن الأستاذ الإمام :

«كان الشيخ محمد عبده قد بلغ مركز الإفتاء ، وكان رجلا حرّ الرأى .. كاتبا أديبا يتذوق جمال اللغة خير تذوق ويدرك قواعد المنطق أحسن إدراك ، فنادى بأن التقليد ليس من الدين فى شىء .. وذهب فى غير تردد إلى أن الجمود هو الذى قضى على الأمة الإسلامية بالتأخر وجعلها طعمة للاستعمار الأجنبى لأنه قيد العقل فى هذه الأمم الإسلامية بقيود منعته من الانبعاث فى التفكير إلى غاية ما يستطاع بلوغه لإدراك الحق والجمال والجلال فى خلق الله

جل شأنه» .

فالعلمانية بهذا الفهم هي نوع من الإيمان العميق بالله ، لا تحتاج إلى الدفاع عنها بالبحث عن الأشتقاقات اللغوية فى العالم أو العلم . كما يصبح من فضول القول بعد ذلك التذكير بأن قادة التنوير هؤلاء كانوا من أشد الناس غيرة على الدين ، وأنهم كانوا من أصلب المدافعين عن عقيدتنا وأكثرهم فهماً لها . فجورجى زيدان هو مؤلف التمدن الإسلامى ، ومحمد عبده هو صاحب «رسالة التوحيد» و «الرد على هانوتو» وطه حسين هو كاتب «مرآة الإسلام» و «الوعد الحق» . أما قاسم أمين فقد ألف كتابا بالفرنسية دفاعا عن الإسلام وحضارته يرد به على أحد خصومنا .

ولا أحسب أن أيا من هذه الحقائق يغيب عن أذهان من يهاجمون قادة التنوير منذ رفاعة وحتى اليوم ، ولكنى أشك كثيرا فى أن الحقيقة هى شاغلهم الأساسى ، بقدر ما هو إطفاء كل المصابيح التى أضاءت حياتنا خلال هذين القرنين لكى نعود بأقدامنا وباختيارنا إلى الظلام الذى لم نكد ننجو منه . ففى مثل هذا الظلام يسهل عليهم أن يقودونا أنا شاءوا ، وإن كنا نؤمن أن نور الحق أغلب .

والتحدى الحقيقى الذى يواجه مجتمعنا اليوم بالفعل هو : هل يريد أن يواصل المسيرة التى بدأها أفضل أبنائه من المثقفين منذ مطلع النهضة ؟ .. هل يريد أن يستكمل بناء الحرية لكى نعيش

حياة العصر «إلى غاية ما يستطاع بلوغه لإدراك الحق والجمال والجلال فى خلق الله جل شأنه» ؟ إن يكن ذلك هو المتبقى فلابد أن تسترد الثقافة قيمتها فى المجتمع . لابد أن يصبح المثقفون هم قادة الفكر بالفعل ، وأن تتاح لهم فرصة النفاذ إلى العقول والوجدان لتكوين الرأى العام المسلح بالوعى والحرية معا . ولن يتحقق ذلك إذا ما ظلوا كما هم : إما على هامش المجتمع يتغنون لأنفسهم ، وإما أبواقا للتهليل والتبرير .

نشرت فصول هذا الكتاب متفرقة فى مراحل مختلفة ، ولكنها تدور فى فلك اهتمامات واحدة انشغل بها الكاتب سواء فى عمله القصصى أو النظرى : الحرية .. ودور المثقف فى المجتمع .. والعلاقة بالآخر .. والصلة بالغرب . وقد نشر الفصول المعنونة «الثقافة والحرية» فى مقالات متتابعة بمجلة (المصور) فى يناير وفبراير ١٩٩٣ ، وفى المجلة نفسها نشر فصل «الاستغناء عن الثقافة» فى سنة ١٩٨٩ . أما الفصل المعنون «نحن والغرب فى أدب طه حسين» ، فكان بحثا مقدما إلى الندوة التى أقامتها كلية الاداب بجامعة القاهرة فى الذكرى المئوية للأستاذ العميد (١٩٨٨) . وكتبت دراسة «لماذا يكرهنا الغرب؟» فى سنة ١٩٨٦ ونشرها الأهرام فى حلقتين بعنوان مختلف .

أما (العبرات) فقد حاولت ألا تكون دموعا شخصية فقط ، بل كشفا عن الإضافة التى قدمها هؤلاء الراحلون الكبار إلى مسيرة التنوير ونشرت المقال الأول عن يوسف إدريس بعد رحيله فى مجلة

(الهلال) وكان مقال يحيى حقى تحية له فى عيد ميلاده الأخير (١٩٩٢) بمجلة المصور . وعزائى الوحيد فى فقدان هذا الأب العظيم لكتاب جيلى جميعا أنه قرأ هذا المقال وأنه كان راضيا عنه ولهذا فقد أبقيت عليه كما هو . ويرجع مقال «شهرزاد» لتوفيق الحكيم إلى تاريخ أبعد من ذلك بكثير فقد نشرته بمجلة (الكاتب) أثناء حياة الحكيم أيضا . وأنا أعيد نشره هنا بعد شىء من التصرف لأسجل ذلك النوع من الحوار بين الأجيال الذى كان قائما فى تلك الأيام وهو إن يكن مقالا فى النقد ، فإنه يمثل بالنسبة لى رثاءً لاهتمامات عصر مضى كانت تشغلنا فيه أفكار ومحاورات أخرى . وكان المقال الأخير عن الصديق الراحل يحيى الطاهر عبد الله كلمة وداع بعد رحيله المفاجىء ، وقد نشرته مجلة (خطوة) فى مطلع الثمانينات فى عددها التذكارى عن واحد من أعزب الأصوات فى القصة القصيرة ، أضاء عبر حياته القصيرة دربا آخر فى مسيرة التنوير .

دعاءً لهم جميعا بأن يشملهم الله برحمته ..

وأملا بألا نخذلهم ، وبأن نواصل حمل المشاعل من حيث توقفوا هم ...

إلى أن تتحقق رسالة التنوير التى أرادوها خيرا لهذا الوطن ولأبنائه جميعا دون تفريق . والله الموفق .

بهاء طاهر

چنيف – مايو ١٩٩٣

القسم الأول

النظرات !

الثقافة والحرية
ماذا قدم المثقفون لمصر ؟

« ما هو الإنسان إن كان كل ما يفعله

هو أن يأكل ويشرب وينام ؟ .... هو حيوان لا أكثر » !

شكسبير : « هاملت »

وباختصار : « أهمية أن نتثقف ياناس ! »

« يوسف إدريس »

ما قولك عزيزى القارىء لو أنك طالعت اليوم مقالا أو كتابا يصف حاكم مصر بالعبارات التالية : « مالك رقاب الأمم... ملجأ العرب والعجم... مجيب الندا وليث العدا وقمر الهدى.... اللهم أدم ملكه واجعل الدنيا بأسرها ملكه... ولا تدع له عدوا إلاّ قصمته.... ولا مخالفا إلاّ أهلكته » ؟!

وما ظنك لو قال هذا الكاتب عن رئيس الوزراء إنه شمس السماء وأساس افتخار الرؤساء، ومعدن العلم والحكم وتاج الرؤساء والأماثل وبهجة الدين والدنيا.. وإن يده الغراء لم تخلق إلا ليكون ظاهرها للقبل؟

أغلب الظن أنك ستحكم على هذا الكاتب بأنه قد جاوز الحد فى النفاق وابتذل نفسه إلى درجة تسقطه من اعتبارك. بل وسيغضب الحاكم ورئيس الوزراء على السواء من هذا المديح الضار والركيك. فهو ضار لأنه يصور الحاكم كما لو كان فوق مستوى البشر فينزع عنه بذلك صفة «الديمقراطية» التى يتمنى كل حاكم أن يوصف بها اليوم سواء صدقت عليه أو لم تصدق. ثم إن هذا المديح يصور الكاتب، وهو واحد من المواطنين، فى موقف الذلة والخنوع إزاء الحاكم وإزاء رئيس الوزراء الذى يطمع فى تقبيل يده بحيث ينزع عنه صفة الإنسان «الحر» فى المجتمع «الحر» وهذا شىء يتعس الحاكم والمحكوم على السواء فى عالم اليوم .

من هنا فلا يوجد اليوم لحسن الحظ من يكتب مثل هذا الكلام. ومع ذلك فقبل أقل من قرنين من الزمان كانت هذه هى اللغة التى يخاطب بها أفضل مثقفينا حكام العصر: السلطان العثمانى

والصدر الأعظم . فإذا ما كنا اليوم نستنكر تلك اللغة وننفر منها بعد أن ظلت سائدة لمئات من السنين فمعنى ذلك أننا قد تغيرنا كثيرا خلال هذه الفترة الوجيزة فى حكم الزمن .

والسؤال المهم هو : كيف تغيرنا ؟ أى كيف كان حال مصر قبل هذين القرنين – قبل الحملة الفرنسية وقبل محمد على ؟

كتب التاريخ تسعف القارىء الراغب فى معرفة حالتنا فى تلك الفترة . ومن أهم تلك الكتب ما كتبه معاصر للأحداث هو مؤرخنا القدير عبد الرحمن الجبرتى فى الجزءين الأولين من سفره الجليل «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» . يصف الجبرتى فى هذين المجلدين فترة من أحلك فترات التاريخ المصرى هى خاتمة ثلاثة قرون من الاستعمار التركى – المملوكى. وكان السلطان سليم الأول بعد أن فتح مصر (سنة ١٥١٧) قد أبقى على طبقة الحكام السابقين من المماليك لينوبوا عن الأستانة فى حكم مصر واستنزافها. وكان سليم قد قضى بأن تكون أرض مصر الزراعية ملكا له وللسلاطين الأتراك من بعده فلا يكون للزراع إلا حق الانتفاع بجزء من محصولها . ولضمان أداء الزراع للضرائب نشأ نظام الالتزام. وكان معنى ذلك أن على الملتزم (المملوكى) أن يورّد

للدولة العثمانية الضرائب عن قرية معينة أو مجموعة من القرى من أرض مصر وله في مقابل ذلك حق التصرف في دائرة التزامه أرضا وناسا. صار الفلاحون من الناحية الفعلية عبيدا في الأرض يتعرضون لأقسى أنواع الاستغلال والظلم، فانتشر هروبهم من الريف وأجدبت اراض كثيرة كانت من قبل مخصبة .

وازدادت أوضاع مصرترديا لكثرة الفتن والحروب الداخلية بين حكامها من المماليك، وتعسفهم في انتزاع الضرائب من المصريين- زراعا وتجارا - وفي مصادرة أموالهم ونهبها بغير حق. وهكذا انتشر بمصر الفقر وما يتبع الفقر من الأمراض. واجتمعت الأوبئة الدورية والاعتداءات شبه اليومية من المماليك وانكشارية الأتراك فكادت تفني سكان مصر. ذلك أن عدد السكان عشية الحملة الفرنسية لم يكد يتجاوز مليونين ونصف المليون من السكان وهو أقل عدد وصله سكان المحروسة في أي وقت إذ ظل عددهم يتراوح على مدى التاريخ قبل ذلك بين ٥ و ١٥ مليون نسمة .

وكان الجهل بكل معانيه فاشيا في هذه القلة القليلة من السكان، فلم يكن هناك «تعليم» يستحق هذه الصفة غير التعليم الأزهري المقتصر على العلوم الدينية . ولكن الأزهر العظيم ذاته كان قد

تحول إلى ظل باهت لما كان عليه في عصر ازدهاره فاقتصر عطاء علمائه على شرح مؤلفات العصور الغابرة بما كان يعرف بالحواشي على المتون - أى التعليق على المؤلفات القديمة ثم التعليق على التعليق أما الإبداع الجديد فقد اندثر وإذا كان هذا هو حال الجامعة العتيدة فلك أن تتخيل ما كان عليه حال عامة الناس : اختفى العلم فسادت الخرافات والشعوذة وأصبح المتدروشون والدجالون - وما أكثر ما يتحدث عنهم الجبرتي وعن بدعهم في استنكار وأسى - هم القادة والمراجع الفكرية لهذا المجتمع الآخذ في الاندثار عددا وعقلا .

ذلك ما آل إليه حال مصر بعد قرون من الاستعمار العثماني ويلخص عالمنا الكبير الراحل د. جمال حمدان أمر ذلك الاستعمار في مصر وغيرها من بلدان المشرق بالعبارات البليغة التالية : إن الوجود التركي يعد نوعا خاصا - ومحيرا ربما - من الاستعمار هو «الاستعمار الديني» ، ولولا القناع الديني لعد مماثلا للغزو المغولي الوثني الذى سبقه ولووجه على هذا الأساس بكل تأكيد وكل مظاهر الاستعمار الاستغلالي الابتزازي لا تنقص العثمانية : فقد كانت تركيا هي «المتروبول» (الوطن الأصل) وبقية

الإيالات والولايات مستعمرات تابعة تُعتصر كل مواردها وخيراتها بلا مواربة لتحشد حشدا فى المتروبول بل لقد قيل إن الأتراك طبقوا في حكمهم السياسى طريقتهم الاستبسية (أى طريقة سكان المراعي) في معاملة الحيوان ، فهم ما انتقلوا من رعى قطعان الحيوان إلا إلى رعى قطعان الإنسان : كما يفصل الراعى بين أنواع القطعان ، فصل الأتراك بين الأمم والأجناس المختلفة عملا بمبدأ فرق تسد ، وكما يسوس الراعى قطيعه بالكلاب ، كانت الانكشارية كلاب صيد الدولة العثمانية ، وكما يحلب الراعى ماشيته كانت الإمبراطورية بقرة كبرى عند الأتراك للحلب فقط (من كتاب استراتيجية الاستعمار والتحرير) .

وبرغم تلك الصورة البشعة فقد كان للدولة العثمانية فى بدء عهدها وأوج قوتها مبرر للوجود من الناحية السياسية كانت كدولة كبرى تمثل حماية لبلدان المشرق المسلمة من عدوان الدول الأوروبية الفتية ، التي نفضت عنها بالنهضة تخلف العصور الوسطى وراحت تتطلع للتوسع والاستعمار .

ومع ذلك فقد كانت عناصر الخراب والفشل كامنة فى هذه الدولة منذ البداية، كانت من حيث المساحة والقوة العسكرية دولة عظمى،

بل أعظم من كل الدول المعاصرة لها فى أوروبا (البندقية وفرنسا وانجلترا والنمسا) غير أن هذه الدول كانت قد بدأت نهضتها «العلمية» التى مكنتها من أسباب القوة الحقيقية ، ومن أن تصبح بعد قرن واحد من استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة (١٤٥٣) هى القوة العظمى الحقيقية وبدلا من أن تسابق الدولة العثمانية الدولة المنافسة لها فى الأخذ بأسباب العلم والقوة ، أقامت فى عصر الجامعات الحديثة والكشوف الجغرافية والعلمية «ستارا حديديا» حول الامبراطورية لا يخفى وراءه غير الاستبداد والجهل والتخلف .

وأنا واثق من أن دلالة ذلك لن تغيب عن القارىء الفطن فنحن نميل دائما إلى الحديث عن مؤامرات الغرب على بلادنا وسعيه إلى إضعافها والسيطرة علينا وفى ذلك جانب كبير من الحق : فلقد ظل الغرب قرونا طويلة عدوا لنا يتآمر علينا ويستعمرنا بأشكال مختلفة، وهو لم يتوقف عن ذلك المسعى حتى الآن . فأما الجزء الآخر من الحقيقة الذى غالبا ما نميل إلى نسيانه أو تجاهله فهو أننا كثيرا جدا ما نيسر للغرب مهمته بأيدينا وبأعمالنا وهذا ما كان من أمر الدولة العثمانية فى عصر النهضة الأوروبية: فهى لم تنشىء

الجامعات التى أنشأها جيرانها ولم تشجع العلم أو العلماء بأية طريقة أخرى ولم تحرص على إقامة دولة عصرية متماسكة ، بل كان التناحر بين طوائف الامبراطورية جزءا من سياستها كما رأينا ، لكى يستتب لحكامها الأمر. ومن هنا فلم يكن من الغريب أن تسبقها دول الغرب الأقل عددا وثراء ، ثم أن تستدير إليها بعد أن تهيأت لها القوة لكى تقضم أطرافها، ولكى تغزوها فى عقر دارها بالامتيازات الأجنبية التى يسرت نهب الدولة العثمانية ونهب العالم الإسلامى بعد أن استظل بها فكشفته وأباحته للأعداء .

وهل من عجب بعد ذلك أن توصف الدولة العثمانية فى شيخوختها العاجزة والممتدة بأنها «رجل أوروبا المريض»؟ ... وهل من عجب فى أن يستمر وجودها ، الذى كان يتآكل وينقرض شيئا فشيئا بما كان ينتزع منها من الولايات والأقاليم ، رهنا بمشيئة الدول الأوروبية التى رأت الإبقاء عليها لحسابات توازن القوى ، ولكى لا تنفرد واحدة منها دون الأخريات بغنيمة الشرق ؟

كان ذلك إذن هو الإطار التاريخى الذى وفدت فيه الحملة الفرنسية إلى مصر فى آخر القرن الثامن عشر : دولة عثمانية ضعيفة ومضمحلة تتحكم فيها دول أوروبا كيفما تشاء ، ولا تستطيع

البقاء بفضل قوتها الذاتية وإنما بفضل ما عساها أن تقيمه من تحالفات مع هذه الدولة الأوروبية أو تلك (فرنسا ثم انجلترا ثم ألمانيا في نهاية المطاف) ، واستئساد على ما بقى لها من ولايات مثل مصر ، التى تكاد تنقرض من جراء حكمها الغشوم .

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر اعتقد نابليون أنه يمكن أن يستفيد من هذه الأوضاع لتوطيد ملكه بها . ويحدثنا الجبرتى الذى عاصر هذه الحملة عن محاولات نابليون وعن رفض المصريين لها فى كتاب مستقل أفرده للتأريخ للحملة هو «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» .

كانت هذه الحملة غزوة استعمارية بطبيعة الحال وقد ارتكبت مثل أية غزوة أخرى من المظالم والجرائم ضد الشعب ما جعل المصريين يثورون عليها ويبذلون دماءهم للتخلص منها وبعد ما يقرب من ثلاث سنوات من الاحتلال تحقق للمصريين الخلاص من هذا الاستعمار وقد رصد الجبرتى بكل دقة يوميات الحملة من منطلق الكراهية للمستعمر الأجنبى ، ونحن نجد فى كتاباته ما يدعونا إلى الاعتزاز بتاريخنا وبتضحياتنا من أجل طرد المستعمر، وإلى الاعتزاز أيضا بمثقفينا فى ذلك الحين من علماء الأزهر وشيوخه الذين قادوا مقاومة الشعب أيامها .

على أن الحملة الفرنسية قد جلبت لمصر أشياء أخرى غير الاستعمار وجرائمه : جلبت أفكارا. وفي رسالة نابليون الأولى إلى المصريين نقرأ جملة من هذه الأفكار الواضحة بذاتها برغم ركاكة صياغتها بالعربية فهو يتحدث فى مطلع رسالته عن «الجمهور الفرنسى المبنى على أساس الحرية والتسوية» . ويذكّر المصريين بعسف المماليك الذين ظلوا على مدى القرون يحكمون مصر ويفسدون هذا «الإقليم الذى لا يوجد (مثله) فى كرة الأرض كلها» ويدعى أنه أتى مصر ليخلصها من يد الظالمين ويضيف «إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشىء الذى يفرقهم من بعضهم بعضا هو العقل والفضائل والعلوم ومن بين المماليك ، ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين؟ (وما الذى) يستوجب أنهم يتملكون كل ما تحلو به الحياة الدنيا؟» .

يتساءل عما يجعل أرض مصر وخيراتها وحكمها وقفا والتزاما للمماليك ويخلص من ذلك إلى وعد وإغراء للمصريين :

«من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ومن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء من بينهم سيدبرون الأمور وبذلك ينصلح حال الأمة كلها» .

وباختصار ، فإن نابليون يطرح فى هذا البيان على المصريين فكرة الاستقلال الذاتى وأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم بعد التخلص من حكم أمراء المماليك وقد حاول أن ينقل إليهم بلغة تصور أنها مفهومة شعارات الثورة الفرنسية : الحرية والإخاء «والتسوية» .

ولكن عبدالرحمن الجبرتى رفض نابليون بونابرت جملة وتفصيلاً وراح يعلق على بيانه ساخرا مما فيه من «الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة» ! اعتبره الجبرتى نوعا من الدجل السياسى لا غير ، وكان فى ذلك محقا تماما ، فمن شعار الحرية لم ير المصريون من بونابرت وخليفتيه الفرنسيين غير القمع والتشريد والقتل. ومن الإخاء لم يروا إلا مصادرة أموال المصريين ونهب ممتلكاتهم لصالح المستعمر ، ومن التسوية لم يكن هناك غير أسياد فرنسيين جدد حلوا فى قصور أسياد الأمس من المماليك والأتراك وعاشوا عيشتهم وساروا فى الشعب سيرتهم .

ومن هنا فقد كان الجبرتى على حق فى رفض تلك الشعارات كما طبقها الفرنسيون ولكن الحقيقة هى أنه لم يرفض التطبيق وحده ، بل رفض المبادىء فى ذاتها وكان فى رفضه ذلك يعبر عن «ثقافة» العصر فمع أن الجبرتى هو الذى وصف لنا ويلات الحكم

المملوكي - التركي السابق على الحملة ، وقال لنا إن مظالمهم «كانت أهم الأسباب في خراب إقليم مصر» - إلا أنه لم يرتب على ذلك أن «الفضلاء والعلماء من أهل مصر أحق بحكمها» وحين أنشأ بونابرت الديوان الذى ضم «العلماء والأفاضل» برئاسة الشيخ الشرقاوى للمشاركة فى حكم مصر (مشاركة صورية كما هو معلوم) ، أصر ذلك الديوان على تعيين المماليك في الوظائف التنفيذية وأصابت الدهشة البالغة الفرنسيين لأنهم - على قول الجبرتى - «كانوا ممتنعين عن تقليد المناصب لجنس المماليك ، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم» !

وظاهر الأمر أن الجبرتى لم ينقل ذلك الرأى فحسب ، بل كان يؤمن به إيمانا تاما فهو يعلق على ما جاء في بيان نابليون من أن «جميع الناس متساوون أمام الله تعالى بقوله «هذا كذب وجهل وحماقة !... كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض؟!» .

ومع ذلك فأغلب ظنى أن الذين صاغوا لبونابرت بيانه بالعربية كانوا يعولون كثيرا على هذه الجملة عن المساواة... فقد كانوا من الدارسين لتاريخ مصر والشرق ، ولعلهم أرادوا بعبارتهم تلك أن يثيروا فى مخيلة المصريين أصداء الحديث الشريف القائل معناه

«الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فرق لعربى على عجمى إلا بالتقوى» لعلهم كانوا يعتقدون أن ذلك كفيل بإثارة المصريين على المماليك لكى يلقوا عن كاهلهم نير حكمهم الغشوم فيكسبهم الفرنسيون لصفهم ولكن «ثقافة العصر» كان قد بعد بها العهد عن ذلك الماضى المجيد بقيمه النبيلة ، فأصبح مثقف مثل الجبرتى يرتاع من القول بالمساواة ، ويرى أن أهل مصر «سوقة» وأنهم لا يمكن أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم .

وإنى لأعتبرها علامة حيوية هائلة لشعبنا المصرى ، وشهادة عظيمة للدور الذى لعبه مثقفوه العصريون أن نسمع قبل مرور قرن واحد من الزمان لغة تختلف تماما عن تلك اللغة. يدوى فى أسماعنا حتى اليوم ذلك الحوار القصير بين الخديو الخائن توفيق وبين أحمد عرابى الثائر المصرى إذ يقول له الأول سيرا على تراث «مالك رقاب الأمم وملجأ العرب والعجم» :

– لقد ورثت أنا ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .

فيرد عليه عرابى – والله الذى لا إله إلا هو لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا، ووالله إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم !

تلك هى النقلة العظمى !

تلك هى ثمرة جهد نوع آخر من المثقفين ، جيل آخر بشر بالحرية وعلمها للشعب فأتت جهوده أكلها فى زمن قصير !

فما هى ثقافة الحرية ؟

الثقافة والحرية :
النور يأتى من طهطا !

يلزم أولا أن نوضح ما نعنيه هنا بالثقافة وقد نعلم أن علماء كثيرين بذلوا جهودا شاقة لتعريف هذا المصطلح تعريفا مانعا جامعا ولكنهم اختلفوا فيما بينهم اختلافا كثيرا وغاية ما يعنينا فى هذا المجال أن الثقافة بمعناها العام هى خلاصة المعارف المتوارثة والمكتسبة فى أى مجتمع من المجتمعات وتتمثل هذه الخلاصة فى مجموعة من «القيم» هى التى تحدد أنماط السلوك فى المجتمع وهكذا فإننا عندما نتحدث عن «الثقافة» هنا لا نقصر الحديث على الآداب أو الفنون كما هو الشائع ، وإنما نتجه إلى المنبع ، أى منبع القيم التى تتمثل فى الآداب والفنون كما تتمثل فى نظم التعليم والعلاقات الاجتماعية ونظم الحكم. إلخ.. وهذه القيم تتولد بطبيعة الحال عبر التاريخ ، ومن هنا فلا يمكن فهم دلالتها أو إدراك مغزى

تطورها بدون وضعها فى إطارها التاريخى .

وبهذا المعنى فإن الثقافة فى المجتمع الزراعى البدائى مثلا هى أساليب الزراعة والرى والحصاد ، والأدوات المستخدمة لذلك وتكوين المجتمع القروى ونوع السلطة في القرية وعاداتها الاجتماعية وما إلى ذلك والمهم فى هذا أن «القيم» أو «المفاهيم» التى تحرك نشاط أى مجتمع سواء كان بدائيا أو متطورا عادة ما تكون مرتبطة بنوع حياته ونابعة في الغالب من ظروف هذه الحياة فى المجتمعات البدائية، مثلا غالبا ما تكون للسحر وللساحر مكانة عظيمة فى ثقافة المجتمع، فالإنسان البدائى الذى لا يستطيع أن يفسر مظاهر الطبيعة التى تؤثر على صميم حياته مثل سقوط الأمطار أو انقطاعها ، وهبوب العواصف والأعاصير ، وما يصيبه من أمراض مفاجئة أو أوبئة عامة لا يجد أمامه غير الساحر مرشدا أو مفسرا وطبيبا وسواء أفلحت تعاويذ الساحر أو أخفقت سواء، سقطت الأمطار أو عم الجفاف وسواء شفى المريض أو مات فليس أمام البدائى من سبيل آخر للفهم وللشعور بالأمن ولهذا يظل للساحر دوره الثقافى القائد إلى أن يحقق المجتمع مرحلة أعلى من التقدم والمعرفة .

وفي المجتمع الزراعي الأولى حيث لا يستطيع الزارع بمفرده أن يرعى أرضه أو أن يجنى محصولها يكون التعاون بين المزارعين والتضامن بينهم قيمة أساسية فى ثقافة المجتمع وحيث تحتاج الزراعة إلي الاستقرار وإلى الأمن فإن المجتمع الفلاحي غالبا ما يكون مجتمعا مسالما ووادعا على عكس مجتمعات الصيد أو الرعي التى تسود بين قبائلها الحروب للنزاع على المناطق التى ترعى فيها الحيوانات .

ثم إن هذا المجتمع الريفى إذا كان يعتمد على الرى النهرى بحاجة إلى حفر القنوات وتنظيم الرى والصرف وتسويق المحصول ومن هنا فهو يقيم سلطة متفرغة لكى توزع المياه بالعدل بين المزارعين ولكى تحفظ النظام وتضمن تبادل المحاصيل ومن هنا كانت المجتمعات الزراعية النهرية (مثل مصر) هى أول مجتمعات أقامت الحكم المركزى والدولة المنظمة ويظل الإيمان «بالنظام» و «بالعدل» من أهم القيم الثقافية التى يؤمن بها هذا المجتمع وليس معنى ذلك أنهما قد سادا أو يسودان باستمرار في هذه المجتمعات، ولكنهما قيمتان كامنتان فى أساس الوجدان الريفى لأن غيابهما يعنى الفساد والبوار للمجتمع الزراعي .

وبطبيعة الحال فإن ما يصدق على المجتمعات البدائية والأولية يصدق على المجتمعات كلها أيا كانت درجة رقيها أو تطورها. بمعنى أن ثقافتها تنبع من ظروف بيئتها ومعيشتها وأن هذه الثقافة غالبا ما تكون وسيلة للحفاظ على المجتمع والنهوض به في فترات تماسكه، فهى تتطور مع تطوره ، والعكس صحيح أيضا بمعنى أنها تنحدر مع انحداره. وأهم من ذلك أن القيم الثقافية هى قيم مترابطة بمعنى أنها يكمل بعضها البعض .

وقد تحدثنا من قبل عما وصلت إليه الثقافة المصرية من انحدار مع انحدار المجتمع كله فى نهاية العصر العثمانى - المملوكى فى مصر. وتحدثنا عن رد الفعل العنيف الذى أحدثته الحملة الفرنسية وعن رفض الشعب لها كما نجده مسطوراً عند مؤرخنا العظيم عبدالرحمن الجبرتى .

وكما أنه لم تكن هناك أية غرابة فى أن يرفض الشعب المصرى الاستعمار الفرنسى الذى حمل له شعارات عن الحرية والإخاء تتناقض مع مضمون حكمه الفعلى ، فلم يكن غريبا أن يجد الجبرتى الأمن من الغزو الأجنبى فى إطار المنظومة الثقافية التى نشأ عليها ويمكن إيجاز هذه المنظومة فيما يلى : اعتبار الحاكم

العثمانى إماما ، أى حاكما دينيا ، ورئيسا للأمة. والجبرتى يعطيه هذه الصفة ويرفعه إلى مرتبة تفوق البشر بما يخلعه عليه من الصفات فهو : الملك الأعظم والسلطان الأفخم ، غياث المسلمين، ملاذ المؤمنين ، مالك رقاب الأمم وملجأ العرب والعجم ... إلخ .. إلخ.

ومن المدهش أن الجبرتى وهو مؤرخ عبقرى بكل المقاييس لايلتفت أبدا إلى التناقض الذى يقع فيه وهو يدعو لهذا السلطان المهزوم بأن «تصبح الدنيا كلها ملكه»!... فهو يعرف أن هذا السلطان الأفخم لم ينجح فى استرداد مصر إلا بفضل اساطيل «الكفار» من الانجليز وجنودهم ولكنه يدعو له قائلا «اللهم اجعل رءوس الكفار حصيد السيوف عساكره وبلادهم داخلة تحت نواهيه وأوامره»!... ذلك أن الطاعة للسلطان واجبة فى كل الأحوال. وهو إن كان قد أضاع مصر، فهى عند الجبرتى مجرد مصادفة لأنها «خلسة مغافل وغدر عدو جاهل » !

هذا عن الإمام ، أما عن الأمة أو بالأحرى «السوقة» فليس لها حقوق إزاء الحاكم ولا يمكن أن يحكمها إلا العنف «التركى» والمجتمع الجاهل أسلس قيادا للاستبداد من المجتمع المتعلم ولذلك فإن الإبقاء على الجهل فى الرعية أمر مطلوب ، وللسبب نفسه فإن

التفرقة بين طوائف الأمة على أساس الدين ، أو نظام الملة العثمانى، وهو مما ييسر للمستبد حكمه .

وتلك على انحدارها مجموعة من القيم المتكاملة تمثل فلسفة للحكم قوامها الاستبداد تحت قناع الدين، والدين منها براء. ولكن الأمور فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر كانت قد وصلت إلى مرحلة أوشك فيها هذا الحكم أن يقضى على وجودها ذاته. وأدرك رفاعة الطهطاوى ، فيما بعد، تلك الحقيقة، وهى أن مصر كانت على وشك الاندثار وعلل ذلك تعليلا عبقريا بإرجاعه إلى إهمال عمليات الرى والصرف وانسداد قنوات النيل وهو شريان الحياة لمصر. وما كان ذلك ليحدث لولا فساد الحكم المستبد القائم على النهب والابتزاز وإهمال مصلحة الرعية ويصف الطهطاوى حالة الوطن عندئذ فيقول : إن محمد على حين تولى حكم مصر «لم يستول من الأرض إلا على موات ، ولم يحكم إلا أحياء ضعاف الهمة هم فى الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعية فى حيز الأموات» .

وتجد مصر بداية الطريق للإنقاذ على يد حاكم اختاره الشعب بنفسه لأول مرة فى ظل الحكم العثمانى ، وهو محمد على مؤسس الدولة المصرية العصرية. ففى خلال سنوات قليلة نجح محمد على

فيما عجزت عنه الدولة العثمانية على مدى قرون ، إذ أنشأ الإدارة المنظمة وضبط الرى وأقام القناطر والسدود على النيل وفتح المدارس ، وأرسل بعثات الدارسين إلى أوروبا وحقق طموحه العريض بأن أنشأ الجيش والأسطول المصريين الكبيرين، وبذلك كله وغيره فتح الباب لسلسلة من التغييرات السياسية والحضارية شملت المشرق العربى كله، وبفضل الأمن الذى استتب وبفضل الطب الحديث تضاعف سكان مصر تقريبا خلال فترة حكم محمد على التى امتدت ٤٠ سنة برغم كل الحروب التى خاضها .

وكان لهذه التغييرات الحاسمة أثرها فى تفكيك المنظومة الثقافية للمجتمع المباد وفى قيام منظومة ثقافية جديدة ، بالرغم من إرادة محمد على وخلفائه من أسرته الذين أرادوا ، مع الإصلاحات، أن يحكموا مصر على طريقة طغاة الأستانة .

وكان الرافد الغربى من أهم المؤثرات فى التغيير الثقافى ، ولكن هذا الرافد لم يسقط فى أرض جرداء، مما له دلالته الكبيرة أن الرجل الذى لعب أهم دور فى تجديد الثقافة فى مصر ، كان هو نفسه خارجا من إطار المؤسسة الأزهرية العريقة وأنه التقى بالحضارة الغربية حين سافر إلى فرنسا باعتباره مرشدا دينيا

للطلبة الذين بعثهم محمد على إلى فرنسا، ومعنى ذلك أن هاجس الحفاظ على الذاتية الثقافية وعدم الذوبان فى الغرب ، كان يشغل بال ذلك المؤسس الكبير للدولة المصرية، ومعناه الأهم أن تلك الثقافة حين عرضت على المصريين لأول مرة ، لم تعرض لهم عن طريق النقل الأعمى وإنما من منظور نفس قادرة على التحليل والفرز واستيعاب الجديد فى إطار الثقافة الراسخة، وذلك بالبحث عن أوجه التماثل فى التراث مع العناصر الإيجابية من تلك الحضارة الحديثة ، وفى بعض الأحيان بالتفسير الجديد للتراث الذى سيجد أقصى مداه فيما بعد عند رائد أزهرى آخر وإمام من أئمة الفكر المصرى الحديث هو الشيخ محمد عبده. وكان منطلق كل منهما أن القيم الخالدة للإسلام تستوعب كل تطور لمصلحة الإنسان متى فهمنا الدين الحنيف على وجهه الصحيح .

وتدين مصر للطهطاوى بأكبر فضل فى التغيير الثقافى الذى غير وجه الحياة ؛ فيها فقد كان الساعد الأيمن لمحمد على فى سياسة التعليم العصرى ، وهو الذى أنشأ المدرسة العليا للترجمة والإدارة التى صارت مدرسة الألسن فيما بعد ، واشترك بنفسه فى ترجمة عدد كبير من الكتب والمراجع العلمية للمدارس العليا الجديدة

(الطب والتمريض والمهندسخانة والإدارة) كما أنه كان رئيس التحرير لأول صحيفة مصرية تنشأ فى القرن التاسع عشر (الوقائع المصرية) وقبل ذلك كله فقد ألف عددا من الكتب أثرت على مجرى الفكر المصرى حتى يومنا هذا. ولعل أول خطوة فى الانقلاب الفكرى الكبير هى بعث مفهوم «الوطن» فى مقابل مفهوم «الأمة» الفضفاض وكانت الدولة العثمانية تحكم باسم هذا المفهوم الأخير الذى يشمل الأمة الإسلامية كلها من الناحية النظرية ، وقد رأينا أن هذا القناع الدينى لم يكن يعنى شيئا أكثر من الوحدة فى نطاق العبودية ، لأن تلك الدولة كما رأينا كانت أبعد ما تكون عن روح الدين وعن حقيقته، بما سادها من الظلم والاستبداد والفتك المنظم برعاياها .

وكان محمد على قد نجح فى الاستقلال بمصر من الناحية الفعلية ، بل وحارب الدولة العثمانية الشائخة حتى أوشك على أن يهزمها لولا أن أنجدتها انجلترا مرة أخرى فتعاونتا معا على إرغامه على التراجع ، وعلى القضاء على أمله فى قيام دولة قوية تضم الولايات العربية من الدولة المتهاوية ، غير أنه استطاع على الأقل أن يحتفظ لمصر باستقلالها الذاتى .

ومع إنجازات محمد على الكبيرة انتبه الطهطاوى إلى أن هذا الوطن يستحق أكثر بكثير مما آل إليه تحت الحكم العثماني، وبدأ يرجع إلى التاريخ ويحدث المصريين عما كانت عليه بلادهم فى عصورها الزاهرة «فمما اختصت به مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستتير برهة ثم تنطفىء وتشرق الشمس بهجتها ثم تختفى .. فأما مصر فأغرب شىء بقاء شمس سعدها وارتقاء كوكب مجدها ، إنها بقيت سبعين قرنا حافظة لمرتبتها العليا » وخلص من ذلك إلى نتيجة محددة هى أن «حب الأوطان فضيلة جليلة ، لا سيما إذا كان الموطن منبت العز والسعادة والفخر كديار مصر ، فهى أعز الأوطان لبنيها وهى مستحقة برها منهم بالسعى لبلوغ أمانيها وذلك من ناحيتين : أنها أم لساكنيها ، وبر الوالدين واجب عقلا وشرعا على كل إنسان ، والثانية أنها وبودة بارة بهم» *.

وهنا نجد عند الطهطاوى الارتكاز على التراث الدينى لبعث مفهوم الوطن الذى غاب عن أذهان المصريين قرونا طويلة ، ومن هذا المنطلق الدينى نفسه يوجه ضربه إلى واحد من المفاهيم المتخلفة فى المنظومة العثمانية الباغية : «فرق تسد». إذا إن وُحدة

* راجع أيضا الفصل الرابع من هذا الكتاب ، فهو يضىء جوانب من الأفكار الواردة هنا .

الوطن تعنى بالضرورة وحدة أبنائه والمساواة بينهم أيا كان الدين الذى يعتنقونه فهو يرى أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون أبناء الوطن متحدين فى اللغة وفى العيش فى مكان واحد وهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى قد أعدهم للتعاون على إصلاح وطنهم وعلى أن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة . ولكى يتحقق ذلك يجب أن تكون للمواطن حرية تامة فى المجتمع، «فانقياده لأصول بلده يستلزم ضمنا ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية والتمزى بالمزايا البلدية» ويخلص من ذلك إلى «أن جميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من أخوة الوطنية ..» .

كلمات ومفاهيم جديدة تدخل فى الثقافة السياسية ... الوطن والأخوة الوطنية والحرية والمساواة ولكنها تظل مجرد كلمـات، إذ يحتاج الأمر إلى وقت حتى يتخرج من المدارس عدد كاف من المثقفين ، وحتى تظهر الصحف الوطنية المتعددة ، وحتى تصهر الأحداث الوعى الوطنى وتوجهه .

ويمكن أن نقول إن الجهد الهائل الذى بذله الطهطاوى فى المجالات الثقافية المتعددة . التعليم والصحافة والتأليف كان يشبه

اليقظة بعد السبات الطويل . وكان الأمر يحتاج إلى وقت لكى تفيق الأمة وتستوعب أقوال الطهطاوى والرعيل الأول من رواد النهضة. وحين ندرك أن هذا الوقت لم يتجاوز ربع قرن تقريبا منذ وفاة محمد على (أو بالأحرى منذ هزيمة ١٨٤٠) فنحن نستطيع أن نقدر الجهد الهائل الذى بذله هؤلاء الرواد. فحين بدأ رفاعة يكتب أعماله فى الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر ، إنما كان يضع عينه على جمهور فى المستقبل ، أو ينتظر بالأحرى هذا الجمهور الذى كان يتعلم أيامها فى المدارس الجديدة التى أنشأها فى عهد الوالى الكبير .

ولن يخيب ظن رفاعة قط. فما أن نصل إلى منتصف عصر إسماعيل إلا ويكون هؤلاء المئات من خريجى المدارس قد أصبحوا عشرات من الآلاف ، إلى جانب مائة ألف تلميذ تقريبا فى المدارس (ولنتذكر أن النقطة المرجعية كانت قبل أقل من نصف قرن صفرا). وبعد أن لم يكن فى مصر غير صحيفة واحدة ، هى الوقائع الرسمية ، التى أنشأها محمد على وحررها الطهطاوى ، أصبح فى القاهرة وحدها أكثر من ١٠ صحف غير رسمية تعبر عن اتجاهات مختلفة وكان من أولاها صحيفة «وادى النيل» التى أدارها عبدالله

أبو السعود ، الشاعر الأديب وتلميذ الطهطاوى .

ولكن مرة أخرى تمر مصر بمحنة قاسية من محنها فى القرن التاسع عشر ، مرة أخرى يأتلف عليها طغيان مركب : الغرب وبطش خلفاء محمد على الذين ظلوا يحكمون باسم الدولة العثمانية وعلى طريقتها ، وتغرق مصر فى دوامة من الديون لكى تهدى إلى أوروبا قناة السويس ويموت الآلاف من أبنائها أثناء حفر القناة، ولا تكتفى أوروبا بذلك بل تصر على إذلال مصر بصورة سافرة بتعيين وزراء أوروبيين فى حكومتها بحجة ضمان الوفاء بالديون . تلك الديون التى كانت بفوائدها الباهظة أكبر عملية سرقة لشعب فى القرن التاسع عشر، وهنا يصبح تحديد المفاهيم الجديدة : الوطن والشعب والحرية مسألة يتوقف عليها وجود مصر ذاته .

وفى هذا الوقت يتسلم الراية من الطهطاوى أزهرى نابغ آخر هو الشيخ محمد عبده، الذى يعتبره الكاتب الإسلامى المعروف الدكتور محمد عمارة مجدد الدنيا بتجديد الدين» ورأس المائة الثالثة عشرة فى التاريخ الإسلامى .

فإذا كان الفضل يرجع إلى الطهطاوى فى بعث فكرة الوطنية المصرية ، وإذا كان قد تطرق إلى فكرة المواطنة كأساس للمساواة

فإن محمد عبده يمضى فى هذا الطريق شوطا أبعد .

إذ بدأت الثورة على التدخل الأوروبى وطغيان الخديو بتكوين الحزب الوطنى المصرى الذى شارك الشيخ محمد عبده فى إنشائه. ويكون الأستاذ الإمام هو الذى يضع نص المادة الخامسة من برنامج الحزب الوطنى فيثبت فيها هذا النص الهام :

«الحزب الوطني حزب سياسي ... (غير طائفى) فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب وجميع النصارى واليهود ، وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم لغتها منضم إليه ، لأنه لا ينظر إلى اختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع إخوان وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية ، وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة (الإسلامية) الحقة تنهى عن البغضاء وتعتبر الناس فى المعاملة سواء» .

ويعلق الدكتور محمد عمارة فى كتابه عن الإمام محمد عبده على موقف الإمام من قضية الوحدة الوطنية ، فيقول إن ذلك الموقف لم يكن مجرد «موقف سياسى» و «إنما كان موقفا فكريا إسلاميا مؤسسا على ماذهب إليه الإسلام من وحدة الدين الإلهى ، المقتضية

إخاء أتباع الشرائع السماوية الذين اقتضت حكمة الله ومشيئته التكوينية أن يظلوا أمما متعددة .. فالاختلاف والتعدد والتنوع فى الشرائع ، بين أمم الرسالات السماوية ، هو إرادة كونية لله ، وعندما ينظر إليه ويوضع في الإطار الذى عينه الإسلام وهو «وحدة الدين ... وتعدد الشرائع» – فإن الوحدة القومية والوطنية للأمة تصبح كما أصبحت عند الاستاذ الإمام – مؤسسة على الدين وليست مجرد موقف سياسى...» .

وبهذا الفهم المستنير لقضية الوحدة الوطنية تقدم الحزب الوطنى ببرنامجه إلى الشعب على نحو ما سبق ، فالتف الشعب حول هذا البرنامج. وسنذكر أن الحزب الوطنى – بجناحيه المدنى والعسكرى – هو الذى قاد الثورة (العرابية) ضد التدخل الأجنبى وضد طغيان الخديو التركى .

وقد اختبرت تلك الثورة الكثير من الأفكار فنحن نعلم مثلا أن محمد عبده كان متأثرا بآراء أستاذه الأفغانى عن تجديد الدولة العثمانية لإقامة الجامعة الإسلامية التى كان الأفغانى يدعو لها. وكان محمد عبده يرفض أفكار بعض « المتمدنين» «الذين يفكرون فى جعل الرابطة الوطنية لأهل كل قطر بدلا من الرابطة الملية

الجامعة لأهل الأقطار الكثيرة» ولكن عندما حانت لحظة الحقيقة أيام الثورة، وعندما اتضح تآمر الدولة العثمانية بهدف العودة بجنودها إلى احتلال مصر لكى تعيدها إلى تلك الرابطة الملية وإلى حوزة السلطان العثمانى فإن محمد عبده يقول كلاما مختلفا تماما، يعلن أنه مستعد لأن يحارب من أجل الاستقلال التام لمصر عن هذه الدولة ، وذلك على حد قوله لأن : «الأتراك (العثمانيين) ظلم ... وقد تركوا فى بلادنا من آثار السوء مالا تزال قلوبنا تضرب منه ضربان الجرح فلسنا نريد رجعهم ولسنا نريد أن نعود إلى معرفتهم. وكفى الأتراك مالهم من حقوق الفرمانات. ولكننا إذا علمنا بأنهم يحاولون دخول بلادنا فإننا نتلقى هذا الخبر بشىء لا يخلو من الترحيب ... فإننا سنغتنم هذه الفرصة لكى نحقق استقلالنا التام» !

والواقع أن أفكار محمد عبده سواء فى فترة الثورة العرابية أو بعد هزيمتها ، كانت تؤصل لمفهوم الدولة المدنية العصرية التى تحقق لكل مواطنيها المساواة والأمن والحرية. وقد رأينا طرفا من ذلك فيما ذكره فى بيان الحزب الوطنى. وسنرى فيما بعد نقده لفكرة الحاكم - الإمام فهو ينفى نفيا قاطعا بناء على فهمه لصحيح الدين أن تكون «فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير» والحاكم فى هذا المجتمع سواء كان

اسمه سلطانا أو خليفة هو حاكم مدنى من جميع الوجوه «واختياره وعزله أمران خاضعان لرأى البشر لا لحق يتمتع به هذا الحاكم بحكم الإيمان» .

ويقول محمد عبده بوضوح قاطع «أصل من أصول الإسلام قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها، هدم الإسلام بناء على تلك السلطة ، ومحا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم ، لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ، ولا سيطرة على إيمانه على أن الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا ، لا مهيمنا ولا مسيطرا ... وليس لمسلم مهما علا كعبه ، فى الإسلام ، على آخر مهما انحطت منزلته فيه إلا حق النصيحة والإرشاد ... فليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ... ولم يعرف المسلمون فى عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا عند الأمم المسيحية.

وسواء أكان محمد عبده قد أعلن تلك المفاهيم أثناء الثورة العرابية أو بعدها ، فإن تلك الثورة كانت فى حقيقة الأمر إعلانا باحتضان الشعب بأكمله لمفاهيم وقيم جديدة فى السياسة والحكم ؛ أى لثقافة جديدة للمجتمع فقد تبنى الشعب مفاهيم الاستقلال عن

أوروبا والدولة العثمانية معا - والمساواة بين أبنائه فى الحقوق والواجبات بصرف النظر عن عقيدتهم الدينية ، والحكم الديمقراطى (النيابى) الذى يقيد سلطة الحاكم ويقنن هذه الحقوق والواجبات، بل وحارب الشعب حربا فعلية من أجل تجسيد هذه القيم التى لم يكن قد سمع بها أصلا قبل عشرات قليلة من السنين .

ورغم أننا قد أشرنا إلى الجهد الهائل الذى بذله المثقفون لإعلان هذه المفاهيم وتأصيلها فى المجتمع ، فقد كان من الطبيعى أن تظل محصورة أولا فى دائرة المثقفين والمتعلمين الضيقة وكان نقلها إلى مستوى الوعى الشعبى العام يحتاج إلى جهد من نوع آخر يحتاج إلى عبدالله النديم !

الثقافة والحرية :
ضد التغريب وضد التتريك !

فى غمار الثورة العرابية تظهر ، بل تتألق ، شخصية فذة هى شخصية عبدالله النديم ، ابن النجار الذى علم نفسه بنفسه والذى اشتغل قبل الثورة موظفا صغيرا وتاجرا ومعلما وتنقل أثناء ذلك فى أقاليم مصر المختلفة ثم اشتغل بالصحافة والأدب والمسرح والعمل السياسى السرى قبل أن يظهر أثناء الثورة كما لو كان مؤسسة إعلامية كاملة .

كان عنوان الصحيفة التى أسسها النديم فى وقت الأزمة بين مصر وأوروبا هو «التنكيت والتبكيت» استفاد فى تحريرها من خبرته الواسعة بالحياة الشعبية المصرية ، فاختار لتحريرها لغة أقرب إلى العامية يشرح فيها للناس بتلك اللغة المبسطة أخطار التدخل الأوروبى ومعنى التمثيل النيابى ومن ذلك مثلا هذا الحوار الذى أورده فى الصحيفة بين تلميذ وأستاذه :

« التلميذ : وهل يحتمل أبناء الشعب إطلاق حرية الأفكار قبل أن يتدربوا على أعمال المجلس (البرلمان) ؟

الأستاذ: نعم، ولكن بعدم تسلط الطبقية على المجلس، بل بتشكيله من جميع الطبقات: نبهاء ومثقفين وأغنياء وعلماء وعمال وأعيان » .

وكانت المعركة الأساسية هي إصدار الدستور وضرورة التفاف الشعب حول هذا المطلب. وهنا يلجأ النديم إلى أسلوب جديد كان يتقنه تمام الاتقان، وهو الخطابة . أخذ يجوب أنحاء مصر يخطب في القرى وفي المدن الصغيرة يحدث الناس ويشرح لهم العلاقة بين الدستور وبين ما يعانونه من مشاكل في حياتهم اليومية بلغة مفهومة لا تعقيد فيها. وكان على وعي كامل بما يفعل إذ كتب يقول «إن الخطابة في الأمة بمنزلة جرائد الأفكار، فالأمية كثيرة في بلادنا متغلبة علي السواد الأعظم منها ولو كانت الأمة قارئة كلها لاستغنت عن الخطابة» .

ومن حسن الحظ أن النديم كان خطيبا عبقريا، بل يرى بعض المؤرخين أنه كان أعظم خطيب عرفه الشرق. وقد استغل قدرته على الإقناع وجـــولاته في أنحاء البلاد ليجمع التوقيـعات على المنشور الموحـــد الذى صـــاغه بنفسه وكان مما جـــاء فيه .

.« لما كان لا ينتظم نظام العالم ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية إلا بالعدل والحرية حتى يكون كل إنسان آمنا على نفسه وماله، حرا فى أفكاره وأعماله، مما فيه سعادته وحسن حاله (فإن) هذا لا يتأتى إلا بحكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ولا تتطرق إليها طوارق الفساد.....»

وبقدر ما كانت حملة النديم عنيفة على استبداد الخديو التركى الأصل والمفاهيم، بقدر ما كان كارها للنفوذ الغربى، وكانت حملته المزدوجة فى مراحل كفاحه المختلفة موجهة ضد الاثنين معا. وكان يسىء الظن إلى أبعد حد بنوايا أوروبا فى مصر ويقول عن دولها : « ماهى إلا أسود إن دهمت... إن تمكنت افترست وإن ملكت أساءت السيرة وإن جاورت لم تحفظ الجيرة وإن تداخلت احتالت وإن رأت غرة اغتالت، ,لاترانا إلا بعين العدوان ولا تعدنا معها من بنى الإنسان ».

ولكن ذلك لا يمنع النديم من أن يرى أن لدى أوروبا أمورا يتعين أن نفيد منها. ورفضه يختلف تماما عن رفض الجبرتى فى سالف الزمان. فهو يرى مثلا « أن سبب تقدم الأوروبيين هو إطلاق الحرية فى نشر أفكارهم بين الأمم لإحياء أفكار العامة باحتكاكها بأفكار

العقلاء وبهذه الواسطة ربى الكتاب أبناء الأمم وهذبوهم ونقلوهم من حضيض الجهل والخمول إلى ذروة العلم والظهور » .

« أما الشرق فقد أخطأ الطريق، فخاف ملوكه من الكتاب والعقلاء فضغطوا على أفكارهم حتى أماتوها فى أذهانهم ... ولو قد أطلقوا الحرية لأحيوا الأمم التائهة فى القفار » .

كان الآلاف من المنشورات التى جمع النديم التوقيعات عليها برهانا على إجماع الشعب على المطالبة بالمبادىء التى بشر بها المثقفون منذ عهد الطهطاوى . ويرجع إلى النديم فضل إدراج بعد جديد فى أثناء الثورة، وهو المطالبة بالعدالة الاجتماعية للفلاحين والفقراء ومشاركتهم فى الحكم .

وحققت الثورة الشعبية أقصى نجاح لها بإنشاء البرلمان فى سنة ١٨٨٢ وهو أول برلمان منتخب فى المشرق العربى قام بإعلان أول دستور مصرى، ويصف المؤرخون وصفا مؤثرا كيف استقبل الناس هذا الإعلان وفرحتهم به، إذ كانوا يتبادلون التهانى فى الطريق ويتعانقون على غير معرفة معتبرين الدستور نصرا كبيرا وأملا فى مستقبل أفضل .

وهكذا تبلورت من خلال الثورة منظومة ثقافية

جديدة، هى فى كل جزئياتها نقيض للمنظومة الثقافية الموروثة عن العصر التركى، قوامها حرية المواطنين جميعا فى وطن حر. واستطاع المثقفون أن يصلوا بها إلى وجدان الجماهير لأنهم أبرزوها باعتبارها استئنافا لقيم منسية فى التراث الإسلامى الذى يؤصل لأبعد آماد الحرية، بما نص عليه من نبذ السلطة الدينية، ومن حرية العقيدة، والمساواة بين الجميع. وبمثل هذا التأصيل الذى يتفق مع تراث الشعب لم يكن هناك أى نفور من المفاهيم الجديدة كما حدث أثناء الحملة الفرنسية. بل تبنى الشعب هذه المفاهيم وظلت لفترة طويلة جزءا أساسيا من تكوينه الثقافى .

وفى تلك الأيام من التاريخ المصرى بدا أن كل الأحلام قريبة المنال وأن البناء الذى جاهد المثقفون لإرساء قواعده على وشك أن يقوم. ولكن ذلك الثنائى المشئوم الدولة العثمانية وانجلترا الاستعمارية اجتمع مرة أخرى للقضاء على الثورة. ففى أوج احتدام المعارك الحربية مع انجلترا أصدر السلطان العثمانى منشورا، بعصيان عرابى، أى خروجه على طاعة الحاكم الشرعى

(أو الإمام) فتلقف الخديو والخونة من أعوانه - من الضباط الأتراك والمتركين أصحاب الامتيازات القديمة - تلقفوا هذا المنشور لتشتيت جنود عرابى من حوله : فهم لن يكونوا «شهداء» إذا ما ماتوا فى حربهم ضد الانجليز ، بل عصاة ومارقين على الإمام وولى الأمر. وانتهى الأمر باحتلال انجلترا لمصر فى سبتمبر ١٨٨٢ .

ولم يكن الاحتلال مجرد استعمار عسكرى، بل أراد أن يكون استعمارا ثقافيا أيضا. ولعله من المثير هنا أن نرى كيف التقت المفاهيم الغربية مع المفاهيم التركية العثمانية. لقد كانت الخطوة الأولى للمحتل هى حل البرلمان المصرى وإلغاء الدستور الذى حارب الشعب من أجله. والتبرير هنا بطبيعة الحال هو أن أهل مصر «سوقة» إذ قال واضع أساس الاحتلال مايلى: «إن الأمة التى ظلت مستعبدة أمداً طويلا تتوق بالغريزة إلى قبضة حاكم قوى لا إلى نظام دستورى متساهل » !

وهل يوجد مبرر دينى أيضا لهذا الاستبداد ؟ ... نعم! .. فمن أقوال اللورد كرومر الذى حكم مصر فعليا ثلاثين سنة بقبضته القوية، الدرة التالية «قبل أن يتمكن الشرقيون من الوصول إلى شيء يمكن أن يقربهم من المثل الأعلى

البريطانى فى الحكم الذاتى... عليهم أن يمروا بالكثير من التغييرات فى فكرهم السياسى.. ومع تجنب أية حركة للتبشير الرسمى فإن علاقتنا مع مختلف الأجناس التى تكون رعايا ملك انجلترا يجب أن تقوم على أساس الصخرة الجرانيتية التى يمثلها قانون الأخلاق المسيحية » يمكن لمن شاء أن يراجع النقد العميق لسياسة كرومر الثقافية بالتفصيل فى كتاب د. أنور عبد الملك (نهضة مصر) .

لم يخف كرومر فى أى وقت تعصبه الدينى ونظرته المتعالية للشعب المصرى، ولكن هل يوجد شعب مصرى أصلاً؟.... ينكر كرومر ذلك ويرى أن مصر إن هى إلا تجمع لخليط من الأجناس يضم العرب والأتراك والأوروبيين .

والعرب منهم المسلمون ومنهم الأقباط، ولكن الأقباط المصريين مثلهم مثل المسلمين فى نظر كرومر إذ يقول إن كل الفرق بينهما أن أولهما يذهب الى مسجد وثانيهما يذهب إلى كنيسة! وهو يقول ذلك متشكيا مما اعتبره سلبية الأقباط المصريين ورفضهم التعاون معه فى رسالته السامية لإقامة الكيان الجديد الذى أراده لمصر أى أن تكون إيالة انجليزية بعد أن كانت إيالة عثمانية. إذ لا بد هنا أيضا من الملة ومن الطوائف . لابد من سياسة «فرق تسد» فإذا لم تكن

هناك فائدة من «العرب» الذين يسكنون فى مصر سواء أكانوا مسلمين كانوا أو مسيحيين، فستكون هناك طائفة جديدة على رأسها الانجليز المتمتعون بكل امتيازات العثمانيين القديمة وطبقة عازلة من المماليك الجدد قوامها الجاليات الأوروبية والشوام المتركون والأتراك المتمصرون!

ولكن ذلك كله لا يتحقق أيضا إلا إذا ما ساد الجهل من جديد. ومن هنا فقد أغلق كرومر المدارس التى كانت قائمة وأعلن الرجل هدفه بكل وضوح: إنه لا يريد من التعليم فى مصر غير تخريج الموظفين اللازمين لعمل الحكومة . وهكذا ففى خلال ثلاثين سنة من عهده ظلت نسبة الأمية ثابتة (٩١ فى المائة) . وانخفضت المدارس الثانوية من ٣٢ مدرسة فى سنة الاحتلال إلى ٣ مدارس فقط وتعرضت اللغة الوطنية والتاريخ الوطنى لمهانة بالغة : إذ أصبحت السيادة للغة الانجليزية فى التعليم، ومنع كرومر تدريس التاريخ الوطنى فى المدارس وفرض على الطلبة أن يدرسوا بدلا منه التاريخ الرومانى وتطور الدستور البريطانى !

كان المطلوب هو إلغاء ذاكرة مصر وشخصيتها لكى تتفق مع فكرة كرومر عنها باعتبارها أرضا دون شعب، ولكنها تضم أشتاتا

من السكان، بينهم فوارق كثيرة يحاول المستعمر أن يرسخها ويؤكدها .

وهكذا سار التغريب نفس مسار التتريك العثماني: الاستبداد المقنع بهالات دينية مثالية، وإقصاء المصريين عن المشاركة في حكم وطنهم واعتبارهم جنسا أدنى، وإنكار وجود الوطن، ونشر التجهيل!

وتحتم على المثقفين المصريين أن يبدأوا مرة أخرى من نقطة الصفر. وكان من المستحيل أن يتجهوا إلى التحرير السياسي مباشرة في ظل «القبضة القوية» للمحتل فانصرفوا إلى التحرير الاجتماعي: واصل محمد عبده بعد عودته من منفاه جهوده للكشف عن المضمون التقدمي للدين الاسلامي ومطابقته لروح العصر وكل عصر بما أعطاه من مكانة كبرى للعقل والاجتهاد في شؤون الحياة. إذ دعا إلى فهم الدين « على طريقة سلف الأمة... واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التي وضعها الله لترد من شططه». واتجه عبد الله النديم بعد عودته من اختفائه الأسطورى الذى دام تسع سنوات إلى الدعوة الى التعليم بالجهود الذاتية لمقاومة سياسة الاستعمار في إلغاء عقل الأمة. وبلغت دعوته ذروتها حين تبنى واحد

من تلاميذه (فكريا) ، هو قاسم أمين، فكرة إنشاء أول جامعة مصرية بأموال الشعب وتبرعاته . وأنشئت هذه الجامعة الأهلية فى سنة ١٩٠٨ أو حول ذلك التاريخ ، ولكن بعد وفاة قاسم أمين، الذى لم يعش طويلا ليرى ثمرة الجهد الذى بذل من أجله الكثير .

ولعله مامن شىء يجسد حقيقة التواصل بين أجيال المثقفين المصريين وامتداد رسالتهم مثل قصة العلاقة بين قاسم أمين وعبد الله النديم . فقد كان قاسم أمين وكيلا للنيابة عندما تم القبض على عبد الله النديم فى زمن الاحتلال وكان هو المسئول عن التحقيق معه. ولكنه كرس كل جهده لإطلاق سـراح هذا «المتهـم» العظيـم، ونجح بمعونة غيره من المثقفين فى الضغط على السلطات وفى الإفراج عن النديم. وربما كان أهم من ذلك التحرير الفعلى للرجل أنه قد واصل رسالته فى الدعوة إلى تحرير عقل الأمة بالتعليم كما رأينا .

على أن جهد قاسم أمين الأكبر فى مجال الحرية انصرف خلال عمره القصير إلى ميدان آخر طال إهماله، هو الدعوة إلى تحرير المرأة من عبودية الرجل. ألف قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» فى آخر سنة من القرن الماضى، وأعقبه بكتاب آخر فى مطلع القرن

بعنوان «المرأة الجديدة» دعا فيهما إلى حق المرأة فى التعليم وفى العمل على قدم المساواة شأنها شأن الرجل. وكان من رأى قاسم أمين أن عمل المرأة هو الوسيلة الوحيدة لكى تحقق وجودها الإنسانى فى ظل الوضع الذى يجعل من سيادة الرجل الاقتصادية نوعا من الاستبداد والظلم. بل قال إن تحرير المرأة هو تحرير للرجل ذاته فهناك على حد قوله «تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد، ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط بنفسه وأفقدها وجدان الحرية.. انظر إلى البلاد الشرقية تجد أن المرأة فى رق الرجل والرجل فى رق الحاكم فهو ظالم فى بيته مظلوم إذا خرج منه» . ولكى تتمكن المرأة من العمل ، فيجب بطبيعة الحال أن تتهيأ لذلك، لا بالعلم وحده، بل وبأسلوب الحياة وبالاختلاط بالرجال وارتداء الزى الذى يناسب العمل ، لا الذى يكبل حركتها ويقيدها : أى أنه دعا باختصار إلى سفور المرأة .

وهنا كان قاسم أمين يعرف أنه يتحرك فى أرض مليئة بالألغام، فحرص على أن يثبت فى كل جزئية من كتابه أن ما يطالب به للمرأة من حقوق يتفق مع مبادىء الشرع الإسلامى . ويرى بعض الباحثين أن الشيخ محمد عبده هو الذى زود قاسم أمين بهذه

الأسانيد الدينية، بل وأنه كان شريكا فى تأليف أعمال قاسم أمين. ويؤيد الباحث الإسلامي د. محمد عمارة هذا الرأي ويثبته .

وبالرغم من ذلك فقد أثارت كتابات قاسم أمين ضجة لعلها لم تهدأ حتى الآن. والمهم مع هذا أن كل ما طالب به للمرأة المصرية من حقوق قد تجسد بأسرع مما كان هو نفسه يتوقع، إذ ظهر جيل جديد من المثقفين فى سنوات الاحتلال تبنى أفكار قاسم أمين ومحمد عبده والنديم والطهطاوى. واستطاع هذا الجيل من خلال العمل السياسى البطيء بطبيعته (مصطفى كامل وسعد زغلول) وبفضل الشعر (شوقى وحافظ، وبفضل الموسيقى والغناء (سيد درويش) أن يوقظ الوعى الشعبى مرة أخرى .

وانتصر الشعب لقيم الحرية الجديدة بثورته الكبرى فى سنة ١٩١٩ . إذ تخرج المرأة فى المظاهرات مع الرجل جنبا إلى جنب مطالبين معا بالحرية والاستقلال، ويخطب القسس من فوق منابر المساجد وشيوخ الأزهر فى الكنائس مؤكدين وحدة الوطن ضد المستعمر، وتنتزع مصر مرة أخرى الدستور الذى يعلن أن حرية التعبير مصونة وأنها حق لكل مواطن.. وأن التعليم إلزامى ومجانى للمواطنين ذكوراً وإناثاً، وأن جميع المواطنين سواء أمام القانون .

وكانت تلك إعلانات: بمعنى أن تنفيذها كان ولا يزال بحاجة إلى

جهد كبير. ولكن في خلال تلك الثورة وفي نصوص الدستور تجسدت ملامح ما أسميه بالحلم المصرى الذي سعى المثقفون المصريون إلى تحقيقه منذ رفاعة الطهطاوى وحتى اليوم. وملامح هذا الحلم هي الولاء لوطن محدد كبديل عن الولاء لمفهوم مجرد، أي مفهوم الأمة بأصدائه الدينية التي اقترنت بالاستبداد. وقد اتسع مفهوم الوطن بعد حرب فلسطين وفي خلال الثورة الناصرية ليصبح هو الوطن العربي بأكمله ولكن دون أن يقترن هذا المفهوم في أية لحظة بفكرة الدولة الدينية. ثم وحدة عناصر الأمة مقابل مفاهيم العنصرية الطائفية التي كان يرسخها الاستعماران التركي والغربي معا، والحرية السياسية المتمثلة في الديمقراطية البرلمانية، والعدل الاجتماعي مقابل انفراد الأقلية بالثروة والسلطة، وحرية المرأة ومساواتها بالرجل، والحفاظ على الذاتية الثقافية بحيث لا تذوب مصر في الشرق أو الغرب .

وقد استطاع المثقفون ترسيخ هذه المفاهيم في وجدان الشعب بحيث حارب من أجلها لأنهم أظهروا كما قلت وأكرر أن كل تلك المفاهيم نابعة من الموروث الديني والثقافي وأنها لا تتصادم معه، ولأنهم في جميع المراحل اختاروا أنسب الطرق وأقربها لتصبح هذه

المفاهيم جزءا من الوعى الجماهيرى .

ولكننا اليوم بعد كل ذلك الصراع الطويل نرى أن هذه الحريات مهددة بالخطر، بل وبأخطار كثيرة. وتأتى هذه الأخطار من المصدرين التقليديين: أنصار التغريب وأنصار التتريك: أى دعاة الذوبان فى الغرب ونبذ أحلام الاستقلال والتحرر الوطنى والتنمية المستقلة ووحدة الأقطار العربية، ودعاة التتريك أى دعاة العودة للدولة الدينية بالمفهوم العثمانى. ورغم أن دعاة التتريك العثمانى يظهرون فى بعض الأحيان كما لو كانوا معادين للغرب، إلا أن دعوتهم تلتقى فى الكثير من جوانبها مع دعوة أنصار التغريب، فهم أيضا لا يؤمنون بفكرة «الوطن» سواء كانت هذه الفكرة تنصرف إلى أوطان عربية مبعثرة أو إلى وطن عربى موحد لأن الوطن عندهم نقيض الأمة، وهم لا يؤمنون بالديمقراطية، لأن الحياة الحزبية فى رأيهم دعوة إلى الفرقة فى صفوف الأمة، ولا يوجد غير حزبين هما حزب الله وحزب الشيطان - ولأن الشورى ليست ملزمة للإمام أو للحاكم باسم الدين. وهذا الإمام عند كثير من فصائلهم يجب أن تكون له الطاعة الكاملة من الرعية ، على نحو يفوق ما كان عليه الأمر أيام الدولة العثمانية .

تلك المبادىء موجودة بدرجة أو أخرى عند كل تلك الفصائل التي يسميها د.رفعت سيد أحمد «تنظيمات الغضب الإسلامي»!. وهو يورد في كتابه ذلك اجتهادات كل من تلك الفصائل التي تلتقي جميعا على رفض الديمقراطية بالصورة التي حارب الشعب من أجلها وبذل الدماء في ثورتي ١٨٨٢ و ١٩١٩ ، بل وعلى رفض كل المنظومة الثقافية التي تطورت عبر تضحيات كثيرة لكي يخرج الشعب من المنظومة العثمانية الباغية التي أشرف الشعب المصرى في ظلها على الهلاك الفعلى كما رأينا . ففي ذلك الكتاب مثلا يرد تصور لزعيم واحد من تلك الفصائل عما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإمام والأمة. وإليك قوله :

« للإمام أن يأمر بغير بيان علة الأمر. وعلى المأمور أن يسمع ويطيع حتى فيما دخلت فيه الشبهة، إذ ليست الشبهة أو الاحتمال معصية مستيقنة – والحق كل الحق هو أن تطيع الإمام فيما تحب وتكره – وفيما يشتبه عليك ومالا يشتبه عليك.. ويقال نفس القول وذاته في إقامة الحدود – فإنه ما قامت البينة عند الإمام فقد قامت عند الأمة كلها، فيأمر الإمام بعد قيام البينة عنده – من لم تقم عنده

إلا بينة الإمام - يأمره بأن يقتل هذا أو يرجم هذا ... » !

فيطيع أمر الإمام !

قد ترد إلى ذهنك عندئذ تلك الأوصاف التى كان الجبرتى يخلعها على السلطان العثمانى والتي وردت فى مستهل هذا البحث. بل ستجد أن صورة الإمام عند الجبرتى أكثر رفقا ولينا من مثل هذه السلطة الشاملة الساحقة التي لا تريد من المواطن - عفواً - من « المأمور » مجرد توجيه السؤال ! أما أنا فسأذكر بكل فخر كلام الإمام محمد عبده الذى قال: إن الإسلام إنما جاء - حقا وصدقا - ليقتلع كل تسلط باسم الدين وليهب الانسان حريته كاملة. استمع إلى الأستاذ الإمام وهو يقول على النقيض من ذلك كله مايرى أنه حكم الإسلام :

« ..... لا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد، وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به من أحد، إلا عن كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ). لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله، وعن رسوله من كلام رسوله، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله مايؤهله للفهم. فليس فى الإسلام ما يسمى عند

قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه » .

وهكذا فيبدو ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين أن على المثقف المصرى – بل وعلى المثقف العربى بصفة عامة فيما أعتقد – أن يواصل بالحزم نفسه ذلك الكفاح الذى بدأه أسلافه العظام منذ قرنين من الزمان من أجل تأصيل الحرية والتقدم بها. والطريق واضح كما ارتاده هؤلاء الأسلاف: أن ينطلق من تراث الشعب وأن يخاطبه باللغة التى يفهمها. وقبل ذلك كله أن يتاح له الوصول الفعال إلى الجماهير. أى ألا تكون السلطة أيضا حربا عليه !... وذلك كله بحاجة إلى التفصيل .

والأمل الكبير هو ألا تتطور الأمور بالتقاء التغريب والتتريك علينا مرة أخرى، بحيث يتعين أن يبدأ هذا الكفاح ثانية من نقطة الصفر ! .

الثقافة والحرية

الثورة .. على المثقفين !

ما الذى حدث بحيث أصبحت الثقافة الجديدة التى غيرت وجه الحياة فى مصر فى موقف الدفاع عن النفس؟.. كيف صار البعض بعد كفاح قرنين من الزمان يحنون إلى ظلام العصر العثمانى الذى أوشكت مصر فى ظله أن تبيد؟.. وكيف أصبح اقطاب التغيير الثقافى منذ الطهطاوى وحتى طه حسين موضع الشك والتجريح باقلام كتّاب تقصر قاماتهم عن أن تحقق عشر معشار ما فعله هؤلاء الرواد العظام لصالح مصر؟ ... وكيف يجد أمثال هؤلاء آذانا صاغية ؟

أعرف أن كثيرا من الكتّاب قد اجتهدوا لتقديم إجابات عن هذه الأسئلة، وانهم قد بحثوا عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى تكمن وراء هذا التطرف ولهذه الاجتهادات قيمتها الكبيرة التى يجب أن ننتبه اليها، ولكننى اتحدث هنا عن عنصر واحد هو التطور

الثقافي، أو بالأحرى هو التراجع الثقافى ! ومع ذلك فلنرجىء الإجابة قليلا عن تلك الأسئلة ولنتحدث قليلا عن طه حسين.

والاستاذ العميد هو ابن الأزهر وابن الجامعة الجديدة التى شارك في انشائها قاسم امين وغيره من رواد التنوير فى مصر: أى انه الامتداد لتراثنا الثقافى والتجديد الحي له فى آن واحد. وقد احتضن منظومة التغيير الثقافي التى طورها اسلافه العظام وجعل منها رسالة حياته. وإذا كان قد أدرك مثلهم أن نقطة البدء في هذا التغيير هى التعليم فإن اعظم إضافة له هنا هى تحديد ماهية هذا التعليم والغاية منه. وربما كان كتابه الرائع «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى ألفه فى نهاية الثلاثينات هو أهم ما صدر عن هذا الموضوع على الإطلاق . فالكتاب فى مجمله دعوة إلى ثورة ثقافية حقيقية: ثورة تقتلع طبائع الاستبداد من النفوس وتمكن للحرية فى وجدان الفرد وفى مؤسسات المجتمع عن طريق التعليم. ذلك أن الحرية على حد قول العميد لا تستقيم مع الجهل ولا تعايش الغفلة والغباء.

وأنا اتخيل احيانا ما كان يمكن أن يحدث لمصر لو أن الثورة عينت طه حسين وزيرا للتعليم في سنة ١٩٥٢ ، اى لو أنها أدركت

الدور الذى يمكن أن يلعبه هذا المثقف الفذ لصالح مصرا وتخيل أنت معى كيف كانت صورة حياتنا ستصبح لو نفذ العميد البرنامج الذى وضعه فى كتاب « مستقبل الثقافة » .

كان الرجل قد نفذ الخطوة الأولى من هذا البرنامج عندما عين وزيرا للمعارف فى وزارة الوفد الأخيرة عام ١٩٥٠ التى أطاح بها الملك بعد أقل من سنتين. ففى فترة وزارته القصيرة العهد تمكن طه حسين من أن يعمم مجانية التعليم قبل الجامعى وبفضله اتيح لمعظم ابناء جيلى أن يكملوا تعليمهم حتى التخرج فى الجامعة. ولست اشك فى أن كل من يمسك قلما اليوم يدين لطه حسين بفضل التعلم. بمن فى ذلك من يستخدمون اقلامهم للهجوم عليه وعلى التنوير الذى أوجد الجامعة ونشر التعليم الذى أفادوا منه .

على أن مجانية التعليم كانت مجرد خطوة أولى فى البرنامج التعليمى الذى تصوره العميد، والأهم منها هو ما كان سيليها . وتخيل معى أن النظام التعليمى فى مصر كان سيتخذ هذا الشكل : ستكون المرحلة الأولى من التعليم إلزامية للجميع من الذكور ومن الإناث، وستضمن الدولة أن يكون هذا التعليم حقيقيا وشاملا بمعنى أنها لن تسمح بالتسرب من المدارس أو بهجر التعليم بعد سنة أو

سنتين من الالتحاق بالمدرسة. إذ لابد فى هذه المرحلة من أن يتحقق تعليم القراءة والكتابة للجميع بإتقان تام، مع ما يصاحب ذلك من تربية بدنية سليمة للأطفال . ولكن هذا التعليم الأساسى لا يقف مع ذلك بعد التعليم الأولى . بل يجب أن يستمر بعده . » وعلى الدولة أن تضمن تعليما مسائيا منتظما لمن لا تمكنه ظروفه من إتمام التعليم النظامى » لكى لا ينكص بعد ذلك الى الجهل .

واظنك الآن معى عزيزى القارىء فى انه بمثل هذا النهج التربوى كانت الأمية ستنمحى من المجتمع خلال سنوات قليلة من بدء الثورة ، ربما كنا قد وصلنا الى عام ١٩٦٠ مثلا دون أن يوجد فى مصر أمى واحد من الجيل الناشىء لما عرف عن طه حسين من العزيمة والعناد فى تنفيذ ما يؤمن به .

وسيستمر هذا النهج الجاد ذاته فى التعليم الابتدائى والثانوى، ولكن القراءة الحرة ستكون هى نصف التعليم العام أو اكثر من نصفه ولابد أن تفيد المتعلمين أكثر مما تفيدهم الدروس. إذ سيشرف على ذلك معلمون يضمن لهم المجتمع حقوقهم المادية ويكفل تجديد ثقافتهم من خلال التدريب المستمر. ويجب ان يشعر المعلم باحترام المجتمع له لكى يستقيم ان نطلب منه تلك المهمة

الأساسية وهى « أن تشيع فى نفوس ابنائنا العزة والكرامة والحرية والاستقلال » ! .

ومن الضرورى فى كل هذه المراحل أن يتعلم التلاميذ دينهم فى المدارس تعليما صحيحا ، مسلمين كانوا أو أقباطا . بل ويجب تعليم الدين الإسلامى فى المعاهد الأجنبية القائمة فى مصر شأنها شأن المعاهد المصرية الخالصة . «فالإسلام هو دين التطور والطموح إلى المثل العليا فى الحياة الروحية والمادية جميعا» . ويجب أن يتعلم الدارسون احترام تاريخهم الوطنى والولاء لمحور الوطنية (ولعل القارىء يتذكر أن كرومر كان يمنع تدريس التاريخ الوطنى كجزء من خطته للتمكين للاستعمار الانجليزى) .

هذا عن التعليم العام ، أما الجامعة فهى ليست مجرد مرحلة أعلى من التعليم وإنما هى معقل الحرية واستقلال البحث العلمي ، فتلك هى الغاية الأساسية للجامعة ومبرر وجودها . والغرض منها هو ازدهار الفرد الجديد المهيأ للابتكار والابداع، لا الموظف الخانع الذى كان يزيده كرومر واشباهه .

ثم إن العلم والثقافة لا يقتصران على المعاهد والمدارس ، فلابد أن تكون هناك مراكز مستقلة للبحث العلمي . وعلى الدولة والمجتمع

واجب تشجيع المثقفين على الإنتاج لا بتوفير المال فحسب ، «فهناك ماهو أعظم خطرا من المال وهو الحرية . فالأدباء عندنا ليسوا أحرارا لا بالقياس إلى الدولة ولا بالقياس إلى القراء .. وقد يكون لحرية الرأى شرها أحيانا ولكن لها خيرها دائما» . ولا يشك العميد فى أن القوانين حين تتشدد فى مصادرة حرية الرأى لا تحمى الفضيلة وإنما تحمى الرذيلة وتخلى بينها وبين النفوس لأنها تظل محجوبة غير معلنة .

ويجب فى المقام الأول أن تتعاون كل الوسائل على نشر الثقافة الرفيعة فى المجتمع وعلى رأسها الصحافة ووسائل الإعلام وأن تكون هذه الوسائل بأيدى المثقفين ، يخططون لها ويشرفون عليها من بعيد دون تقييد لحريتها * .

أية جنة أرضية كانت مصر ستصبح لو أمكن للعميد أن ينفذ ما كتبه فى مستقبل الثقافة!.. وأى مواطن كانت ستخرجه لنا تلك المعاهد العلمية كما تصورها!.. تخيل معى ذلك المواطن الصحيح النفس والبدن .. الذى يعرف أصول دينه الحقة فيكون دينه حافزا

* راجع تفصيل ذلك كله فى الفصل التالى .

له على التمسك بالخلق القويم وعلى إتقان العمل وعلى الفهم والتقدير لعقائد الآخرين .. والذى تربى على التفكير الحر والنقاش الحر فتعلم من المدرسة العزة لا القهر .. وتعلم منذ الصغر حب القراءة واحترام الثقافة والمثقفين!

أكان من الممكن بعد ذلك لمثل هذا المواطن أن يقبل بالاستبداد أو أن يفرط في حقوقه؟.. هل كان يمكنه أن يحتمل الإهمال أو التسيب! أو أن ينحرف إلى التطرف أو إلى الإرهاب؟.. هل كنا سنضطر إلى مخاطبته لتنظيم الأسرة مثلا بأسلوب يشبه ما نخاطب به الأطفال القاصرين؟.. هل كنا سنصبح بحاجة أصلا إلى مطالبته بتنظيم الأسرة؟..

وهل كان من الممكن لمثل هذا المواطن الحر أن ينهزم؟

ويمكن للأسئلة أن تستمر .. ولكن طه حسين لم ينفذ برنامجه مع الأسف . لم تترك الثورة الفرصة له ولا لنا كى يجسد مرة وإلى الأبد ثقافة الحرية فى المجتمع!

على أن الثورة كما نعلم لم تؤذ طه حسين فى شخصه ولم تقصف قلمه . على العكس ، لقد بالغت فى تكريمه . كان على ما أذكر رئيسا (شرفيا) للمجلس الأعلى للاداب والفنون ، ورئيس

تحرير (شرفيا) لإحدى الصحف اليومية فى بداية الثورة فأما الأمين العام للمجلس والذى كان يخطط وينفذ فهو واحد من الضباط ، وكان هناك ضابط نظير له فى الصحيفة اليومية!

ثم كان مصير طه حسين العظيم نمطا كررته الثورة بعد ذلك فى تعاملها مع المثقفين : كان المطلوب من المثقف أن يظل «شرفيا» !.. أى أن يترك ضباط الثورة فى حالهم فيتركوه فى حاله . وقد يخلعون عليه من مظاهر التكريم ما شاء أو بالأصح ما شاءوا هم . ولكن المهم هو أن يبقى داخل الدور المرسوم له .

كان مسموحا له أن يثرثر بقلمه فى أمور لا تضر ولا تنفع ، بل وأن يتجاسر فى بعض الأحيان فينقد بعض العيوب الاجتماعية أو أن يقول على استحياء : إن السلطان يجب أن يرجع إلى الرعية ، وإنما كمبدأ عام دون أن يحدد هوية السلطان أو مكان الرعية! فأما إن تجاوز العموميات إلى الجوهر ، لكى يقول مثلا : إن هناك خللا فى بناء الدولة المصرية ، أو لكى ينتقد أسس سياسة هذه الدولة أو يقترح بديلا لها فهنا تظهر العصا بدلا من الجزرة ، بل وفى معظم الأحيان كانت هناك العصا دون الجزرة! والقصص لا تنتهى عن تشريد المثقفين المعارضين وسجنهم وتعذيبهم خلال سنوات الثورة .

ومع ذلك فأنا أريد - دون أن أدهش أحدا - أن أضع هذا الكلام في سياقه الصحيح . فأنا أولا لست من أعداء الثورة الناصرية ، ولكنى أيضا لست نصيرا أعمى لهذه الثورة . لقد عشتها بكل تفاصيلها وعانيت خلال مسيرتها مثلما عانى غيرى، ولكنى أحاول مع ذلك أن أرى المحاسن إلى جانب الأضداد . وعندى أن الثورة استطاعت فى بدايتها أن تحقق الكثير من الأحلام التى بشر بها المثقفون المصريون منذ بدء النهضة : أى الاستقلال الوطنى ، وبعضا من العدالة الاجتماعية ولا سيما فى الريف الذى لم يكن أحد يعنى به من قبل ، ومجانية التعليم الجامعى ، وزيادة معدلات الرعاية الصحية والتعليم العام للفقراء . وكل ذلك حسن . ولكن تعامل الثورة مع الثقافة ومع المثقفين يدخل بالقطع فى خانة الأضداد . وهو فى رأيى الذى أدى إلى انتكاس كل تلك المكتسبات التى حققتها فى البداية.

فكيف كان ذلك؟

إن الثورة لم تدرك فى أى وقت وظيفة الثقافة فى المجتمع.

ولقد أشرت من قبل إلى أن المثقف هو وريث الساحر البدائى الذى كان قائدا ورائدا لقبيلته : فقد كان يؤدى وظيفة أساسية

لمجتمعه الصغير ، إذ يقدم فى حدود علمه تفسيرا لظواهر الطبيعة والحياة التى تؤثر على القبيلة ويقدم معايير للسلوك توفر للمجتمع إحساسا بالأمن ونوعاً من الإيمان بصلاحية القيم التى يعتنقها لمواجهة الطبيعة ولمواجهة أعدائه الآخرين فى القبائل المنافسة. وإذا كان بعض المثقفين لم يرثوا عن هذا الساحر القديم غير الدجل والشعوذة بكل أسف ، فمن حسن الحظ أن غالبيتهم قد ظلت على مدى التاريخ تلعب الدور الأساسى لذلك المثقف الأول : أى المحافظة على تماسك المجتمع بفضل إشاعة القيم التى تمكنه من البقاء ومن التطور . ومن هنا يقال - بحق : إن المثقف هو ضمير مجتمعه، فهو أول من يشعر ببوادر الخلل أو التخلف فى نظام المجتمع وهو أول من يقترح سبل العلاج . ولكن لابد له لكى يؤدى وظيفته هذه من أن يظل فى مركز الصدارة وأن يكون قادرا على التأثير.

وانظر مثلا إلى أولئك الرواد الذين ضربنا المثال بما فعلوه لتغيير منظومة الثقافة فى مصر . أكان من الممكن أن يحققوا ماأنجزوه لو لم يكن صوتهم عاليا ومسموعا؟.. لو لم يعترف بهم المجتمع كقادة طبيعيين؟..

خذ مثالا من علاقة عرابى قائد الثورة بالنديم ومحمد عبده. لم

يكن لأى منهما منصب رسمى ولا كان عضوا فى مجلس القيادة . ولكن عرابى كان يعتبرهما من قادة الثورة ، بل من أبرزهم ، وكان النجاح الأول للثورة يرجع إلى ما بذلاه من جهد لتوعية الجماهير وتثقيفها . وكان عرابى يطلب منهما دائما النصح والمشورة . ومن المؤسف مع ذلك أن عرابى قد تردد فى قبول أثمن نصائح النديم، وهى ضرورة التخلص من الخديو الخائن فى الوقت المناسب.

وربما كان أهم من علاقة النديم بعرابى فى مجال هذا البحث علاقته بالشعب الذى آواه واحتضنه فى سنوات اختفائه الطويلة من قوات الاحتلال ومن جند الخديو. وقد نعلم أن أهل القرية التى وشى واحد من سكانها بمكان النديم قبل القبض عليه قد أنزلوا بذلك الواشى عقاباً رهيبا. إذ قاطعته القرية كلها ولم يبادله واحد من سكانها كلمة واحدة إلى أن مات قهراً وكمدا .

تلك كانت مكانة المثقف وأهميته لدى الشعب ولدى القيادة الشعبية. ونحن نعرف أيضا التقدير الكبير الذى كان سعد زغلول يكنه للمثقفين. وهو لم يكن تقديرا شرفيا، بل إدراكا حقيقيا لدور الثقافة الذى يوازى دور السياسة، والذى عادة ما يسبقها. من هنا كانت علاقته بقاسم أمين مثلا أيام كان سعد وزيرا للمعارف قبل

الثورة، وعلاقته بالعقاد بعد أن أصبح زعيما للأمة. كانت علاقة حوار خصب بين أنداد، حوار قد يحتدم إلى حد الخصومة ولكنه لا ينعكس أبدا فى شكل إهمال أو إنكار لدور الثقافة والمثقفين .

وذلك شىء يختلف تماما عما فعلته ثورة ١٩٥٢!.. لقد عاش فى عصر الثورة حشد من عمالقة الثقافة المصرية الجديدة. وكان من بينهم (وأنا لا أجرى حصراً) طه حسين والعقاد، والدكاترة محمد مندور ولويس عوض وجمال حمدان، ونجيب محفوظ ويحيى حقى ويوسف إدريس وكان هؤلاء كتيبة من المدفعية الثقيلة فى معركة التنوير والحرية لو أن أحدا فكر فى تركهم يمارسون المهمة الحقيقية للمثقف وهى قيادة الفكر. ولعلك توافقنى على أن خسارة فادحة قد حلت بالوطن حين حرم طه حسين من تنفيذ برنامجه التربوى المتكامل فى وزارة التربية والتعليم .

ولكن القيادة الفكرية لا تعنى بالضرورة أن يتولى المثقف الوزارة، وإنما تعنى أن يكون صوت المثقف مسموعا وأن تكون آذان القيادة والرأى العام مرهفة ومصغية. على أن شيئا من ذلك لم يحدث خلال الثورة. فأنا لم أسمع مثلا أن أيا من هذه القيادات الفكرية التى ذكرتها أو غيرها كان مشيرا مقربا إلى قيادات الحكم

فى عهد الثورة. ولم أسمع أن الحكام أخذوا بأى رأى جاد تقدم به المثقفون. بل ظل المثقف المثالى فى عهد الثورة هو المثقف الموظف، لا المثقف المفكر. أى المثقف الذى يتولى تجميل أفكار القيادة السياسية والترويج لها، لا ذلك الذى يعارضها أو يقومها.

وازداد الأمر سوءاً خلال فترة حكم السادات الذى جعل من معاداة الثقافة الحقيقية سياسة ثابتة له. فقد كان منذ بداية حكمه يكن للمثقفين الضغينة ويرميهم بجملة من الأوصاف الرقيقة تبدأ بأنهم «مجموعة من الأفندية الحاقدين» وتنتهى بأنهم «شيوعيون وملحدون». وبدأ حكمه بأن أغلق كل المجلات الثقافية والمسارح الجادة. وردا على رسالة بعث بها إليه مجموعة من المثقفين تطالبه بتحديد أسلوب واضح لإزالة آثار العدوان الإسرائيلى، قام بجرة قلم بفصلهم جميعا من وظائفهم فى الدور الصحفية. وكان من جملة المفصولين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ!

وبدأت منذ تلك الفترة ظاهرة خطيرة قدر لها أن تستمر طويلاً. فقد كان الرأى العام يدرك أن المثقفين مغلوبون على أمرهم، فظل لهم احترامهم التقليدى لدى الجماهير برغم كل شىء وإن شاب الاحترام شىء من خيبة الأمل. أما فى عهد السادات فقد بدأ تلويث

سمعة المثقفين والإزراء بهم وترتبت على ذلك أخطر النتائج كما سوف نرى. وأذكر في تلك الفترة الأولى من حكم السادات أن مجلة «ثقافية» كان يرأس تحريرها أحد الكتاب المقربين من السادات أصدرت عددا خاصا تثبت فيه بالمقالات المطولة أن توفيق الحكيم لا هو بالكاتب ولا هو بالكبير!..

ولقد أعاد السادات الكتاب المفصولين قبيل حرب أكتوبر المجيدة، كانت تلك الحرب بلسما شفى الكثير من الجراح. وبعدها بدأ شهر عسل قصير بين السادات والمثقفين. إذ راح الكتاب يكيلون له من المديح ما يشتهي ويزينون جبينه بأكاليل الغار بأكثر مما يشتهي. ولكن عندما بدأت سياسات السادات بعد حرب أكتوبر تدخل في متاهات وانفتاحات تثير الجدل أصبح من الصعب على المثقفين أن يستمروا في التصفيق له. وهنا رجع إلى سياسته الأولى من التنكيل بالمثقفين وطرد الكتاب وإغلاق الصحف والمجلات التي تجرؤ على التشكيك في حكمة سياساته ولم يعد الأمر أمر خلاف فكري بين مثقفين يؤيدون السلطة وآخرين يعارضونها، بل أطلق النظام على المثقفين طائفة من الشتامين من الكتاب الأدعياء لوثوا صورة كل كتاب مصر وشوهوها أمام الناس على غرار

التجربة الأولى مع توفيق الحكيم. وكان ذلك عصر الخروج الكبير للمثقفين فى منافى الشتات خارج الوطن.

هان أمر المثقفين على الحكام فهان أمرهم على الناس. قيل لهم إن كل المثقفين الذين كانوا يوقرونهم هم حفنة من الشيوعيين والملحدين والعملاء. وأزيح المثقفون من المنابر المؤثرة وحل محلهم مجموعة من الهجائيين والمداحين حسب أوامر النظام، فانصرف الناس عن الثقافة جملة حين فقد المثقفون مصداقيتهم لدى الجمهور. وكان من الطبيعى جدا بعد ذلك أن تصدر الكتب والمقالات فى الهجوم على العلمانيين وعلى قاسم أمين وطه حسين وكل المفكرين الذين أخرجونا من منظومة العصر العثمانى إلى ما صرنا إليه. ثم كانت الخطوة التالية أن يوصف العلمانيون بأنهم دنيويون، ثم أن يقال صراحة إنهم كفار . ولم لا؟.. لقد بدأت الحكومة بتكفير خصومها من المثقفين فلماذا لا ينسحب التكفير على المثقفين جميعا؟.. كانت تلك فرصة العمر لأنصار التتريك وقد باركها أنصار التغريب الذين كانوا يزعمون من قبل أنهم حماة حرية الرأى : اغمضوا عيونهم راضين عن مطاردة السحرة!

ثم ترتب على ذلك بالضرورة شىء آخر وبالغ الأهمية ، هو تدنى

مستوى ثقافة الجمهور العام وذلك لسببين فقد غابت القيادات الفكرية الحقيقية التي كانت تملك القدرة على التأثير والإقناع أولا ثم فرض الحكم ثانيا مكانهم مجموعة من انصاره وصمم على أن يجعل منهم قيادة فكرية للمجتمع دون أن يكون لهم أى من مؤهلات القيادة أو الفكر. ولم ينجح هؤلاء سوى في بلبلة الجماهير وصرفها عن أى ثقافة حقيقية. أصبح هناك تسطيح كامل للوعي العام. واصبحت أكثر الأفكار قابلية للانتشار هي أكثرها بساطة وسذاجة. وأكثر الكتاب والفنانين رواجا هم اكثرهم بدائية وتخلفا .

وباختصار فقد عشنا نكسة ثقافية ممتدة على مستوى الوعي العام.

وفي ظل التراجع الثقافي العام فمن الطبيعي الا تروج أفكار تلاميذ الطهطاوى ومحمد عبده. ذلك الفكر الذى يدعو إلى حرية الفرد ومسئوليته. بل الطبيعي أن ينتشر الفكر المضاد لذلك تماما، الذى ينزع عن الفرد صفتي الحرية والمسئولية لكي يوجهه كيفما شاء. ومن الطبيعي أيضا أن ينتهز خصوم نهضة مصر تلك الفرصة لإعادتها إلى ما كانت عليه قبل أن تتبلور منظومتها الثقافية العصرية .

وقبل قرون طويلة انتبه ابن خلدون - اعظم المؤرخين والمفكرين العرب - إلى أن الفتن التى تتخفى وراء قناع الدين تجارة رائجة جداً فى عصور التراجع الفكرى للمجتمعات. وردها ابن خلدون الى اصولها وأسبابها الحقيقية. فقد تتبع هذه الفتن في المشرق العربى وفى المغرب على السواء. وهو يحكى مثلا عن واحدة من هذه الفتن فى عصر الدولة العباسية فيقول :

« ثم قام رجل من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الانصارى ويكنى أبا حاتم ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فاتبعه الناس كافة (وقال) أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك فى سنة إحدى ومائتين، وجهز له ابراهيم بن المهدى العساكر فغلبه وأسره وانحل أمره سريعا وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من الموسوسين، يأخذون انفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه فى إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم والذى يُحتاج إليه فى أمر هؤلاء إما المداواة .. وإما العقاب !» ولا يطاوعنى قلبى بعد ذلك على أن أنقل عن ابن خلدون ما يقترحه من أساليب للمداواة أو للعقاب فالقسوة فى رأيى

ليست هي الحل للمشكلة .

أما المهم في تحليل ابن خلدون والذي يصل فيه إلى بيت القصيد فهو قوله «وأكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة بما يحدثونه من الفتنة .. وأمثال ذلك كثير » .

ذلك قول المؤرخ العبقري الذي يعرف الجميع مكانته في حضارتنا العربية والإسلامية. ولكن من حسن الحظ ومما يدعو إلى الأمل أن ابن خلدون العظيم ذاته يستثني مصر من أن تكون أرضا للفتن فهو حين يستقريء تاريخها كله يقول ما يلي :

« أما ملك مصر فهو في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصائب .. إنما هو سلطان ورعية » ! .

واقرأ قول ابن خلدون على انه يعني ما ذكرنا من قبل عن الثوابت الثقافية لكل مجتمع ، وعن أن الاستقرار والنظام والعدل هي تلك الثوابت في مجتمعنا المصري الزراعي العريق. وهي ثوابت يستحيل اقتلاعها مهما بدا لنا عكس ذلك .

ثم اقرأ بدلا من قول ابن خلدون «إنما هو سلطان ورعية» – وهى الصيغة التى عاشتها مصر قرونا فى ظل الحكم المملوكى – العثمانى الجائر – « إنما هى حاكم قوى وعادل وديمقراطى ومواطنون احرار ومسئولون » كما علمنا قادة الفكر المصرى الحديث ما ينبغى أن يكون عليه أمرنا . وسنواصل السعى إلى أن يتحقق ذلك بحذافيره !

نحن والغرب
فى أدب طه حسين

يحلم طه حسين لمصر حلما يراه الناس بعيدا ولكنه يراه يسير التحقيق قريب التعبير : فهو يراها « وقد أظلها العلم والمعرفة وشملت الثقافة أهلها جميعا، وشاعت فيها حياة جديدة، وأصبحت جنة الله فى أرضه حقا يسكنها قوم سعداء ولكنهم لايؤثرون أنفسهم بالسعادة وانما يشركون غيرهم فيها، وأصبحت مصر كنانة الله فى أرضه حقا يعتز بها قوم أعزاء ولكنهم لايؤثرون أنفسهم بالعزة وإنما يفيضون على غيرهم منها » (١) .

وسعياإلى تحقيق هذا الحلم الجميل فهو يفصل لنا فى «مستقبل الثقافة» خطة واضحة المعالم ـ، و مقنعة عند ذلك ـ وأن يكن مجمل عمله ومسيرته الأدبية قبل الكتاب وبعده عبارة عن رحلة متتابعة الخطى لتجسيد الحلم ولبلوغ هذا الأمل . ولكن اذا كان كل مصرى يشارك طه حسين فى حلمه ذاك الجميل فان الاجماع لا يتحقق بالنسبة للوسيلة التى يقترحها للوصول إليه. ففى الكتاب نفسه ترد عبارته الشهيرة عن الاقتداء بالغرب التى جرت ولاتزال تجر عليه الكثير من النقد والرفض (٢) . فالطريق عنده « واحدة فذة ليس لها تعدد وهى : أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم

لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره ... ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع » (ص ٥٤).

ونحن نعرف أيضا ان صورة الغرب، عند العميد، لا تقتصر على أوروبا الحديثة بل هى ترجع فى الزمن الى اليونان القديمة التى تتوهج صورتها فى كتاباته كمنارة للانسانية وكفردوس مفقود، كان من حسن حظنا اننا عشنا فيه ـ أيام الاسكندرية ـ زمنا رغدا.

ويحاول هذا البحث ان يتقصى صورة الغرب فى فكر طه حسين لفهم دعوته على حقيقتها، منحيا الآراء المسبقة سيرا على نهجه، ومعتمدا فى المقام الأول على كتاباته فى مجموعها . ودون ادعاء أى قدر من الاحاطة أو الشمول فى تلك المحاولة فقد نكتشف فى مسارها أن أسلوب العميد الخاص في التحدى المستفز للفت الانتباه الى مايقول، وأن كثيرا من النقد الذى آثر الوقوف عند الجزئيات، بل وبعضا من الاعجاب المتعجل الذى لا يقل خطرا، كانت كلها عوامل صرفت الانتباه عما عناه بالفعل .

ويكفى لكى ندرك أهمية العامل الأول أن نسرد قائمة التحفظات

التى أوردها العميد بعد أن ألقى بتلك العبارة المدوية . فهو يعلم «أن كثيرا من الناس سيلقون هذا النحو من التفكير بشيء غير قليل من الانكار له والازورار عنه» (ص٦١). وفي حقيقة الأمر فانه لايدعو إلى أن نكون صورا طبق الأصل للأوروبيين، فذلك شيء لا يدعو إليه عاقل، وإنما هو يدعو الى خير ماعندهم وأنفع مافي سيرتهم (ص٦٣). ثم كيف يستقيم أن يدعو إلى الفناء في الأوروبيين وانما هو يدعو الى أن نثبت لأوروبا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها (ص٧٢) . والواقع أننا معرضون لهذا الخطر اذا ما كنا ضعافا مسرفين في الضعف (ص٧٢). وليس على حياتنا الدينية من بأس من الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية أكثر مما كان عليها من بأس حين أخذ المسلمون الأوائل بأسباب حضارة الفرس والروم فازدهرت الحضارة الاسلامية الباهرة (ص٦٦-٦٧) . ثم إنه في الحقيقة لا يدعو الى شيء جديد « فنحن آخذون بأسباب هذه الحضارة الحديثة بالفعل منذ اتصلنا بأوروبا في أوائل القرن الماضي وأخذنا بها يزداد ويشتد من يوم الى يوم، لانستطيع غير ذلك ولا نملك العدول عنه » (ص٦٨).

وإذا كان الأمر كذلك فمن أين يأتي الخلاف إذن؟

يجيب العميد أن مصدره « هو أن الذين يخوضون في أحاديث

الشرق والغرب عندنا يجهلون الشرق والغرب جميعا فى أكثر الأحيان، لأنهم يعرفون ظواهر الأشياء ولا يتعمقون حقائقها. واذا كان هناك شر يجب أن نحمى منه أجيال الشباب، فهو هذا العلم الكاذب الذى يكتفى بظواهر الأشياء » (ص٧٩).

فلنتجنب الظواهر اذن ولنحاول النفاذ الى الجوهر : ماهو الغرب الذى يدعو العميد اليه ؟ أو بالأصح : أى شىء فى الغرب يريدنا أن نقتدى به ؟.. يبدو أن هناك مستويات متعددة لصورة الغرب فى فكر طه حسين، أبسطها وأكثرها وضوحا، هو ما نعثر عليه فى كتابات طه حسين النظرية مثل مستقبل الثقافة. فلنقبل هذه الصورة مؤقتا، ولنقبل دعوته المتحدية تيسيرا للنقاش .

سيلفت نظرنا فى المقام الأول أن طه حسين فى هذا الكتاب المكرس للثقافة يتحدث كثيرا عن القوة المادية، بل وعن الجيش على وجه التحديد. فهو يرى ان مصر وقد استردت استقلالها (بعد معاهدة ٣٦) بحاجة الى جيش قوى يحمى هذا الاستقلال . فنحن بحاجة الى أن نحفظ استقلالنا من عدوان (أوروبا) وطغيانها « ونمنعها من أن تأكلنا » (ص٧١) . واذا كنا نريد الاستقلال فنحن بالطبع نريد وسائله.

ولاشك أن طه حسين ذلك القارىء الذكى للتاريخ يعرف أن مصر قد حاولت فى عهد محمد على أن تحمى استقلالها بتكوين جيش قوى فكرس حاكمها كل موارد البلد المادية وركز كل التعليم والعلم والصناعة من أجل بقاء هذا الجيش وقوته . ونحن نعلم أن تلك التجربة قد فشلت لسببين :

أولهما أن الغرب قد اجتمع على ألا تقوم دولة قوية وفتية فى الشرق مكان الدولة العثمانية المترنحة فحطم هذا الجيش . والسبب الثانى هو أن هذا الجيش (الحديث) ذاته لم يكن يملك من مقومات الحداثة غير السلاح الذى استورده محمد على من أوروبا، أو استورد مصانع تجهيزه من أوروبا مع خبرائها من الأوروبيين. وبعبارة أخرى فان هذا الجيش لم يكن يستند الى أسباب قوة عصرية فى المجتمع المصرى ذاته قادرة على الاستيعاب وعلى الابتكار بدلا من الاكتفاء بالنقل، ولم تكن تسانده أيضا مؤسسات عصرية قوية (سياسية واقتصادية وتعليمية الخ) يمكن أن تحتمل صدمة انهيار الجيش بحيث تجدده وتجدد نفسها بقوتها الذاتية . ولهذا فعندما انهار جيش محمد على انهار كل شىء آخر . ولم يبق من عنصر ايجابى غير البذور الجنينية لتلك المؤسسات التى

اصطنعت من أجل الجيش ولاسيما التعليم العصرى.

ذلك هو الدرس الذى استوعبه طه حسين على مايبدو من تجربة النهوض الرائدة فى عصر محمد علي. فقد رأى أن علاقتنا بالغرب علاقة معقدة . عبّر عن ذلك بتأكيده على جانب العدوان فى تلك العلاقة من طرف «يريد أن يأكلنا»، ولكنه رأى ألا سبيل أمامنا لحماية أنفسنا من هذا العدوان غير أن نأخذ بأسباب القوة التى جعلت هذا الخصم يتفوق علينا . وقد تكون القوة المادية أو العسكرية بالغة الأهمية، بل هى كذلك بالفعل، ولكنها نهاية طريق طويل لا بدايته.

فما هو الدرب الذى سارت عليه أوروبا ويتعين علينا أن نسلكه ان أردنا أن نكون أندادا لها ؟

يشير ألبرت حورانى، ويتبعه فى ذلك كثير من الدارسين الذين تناولوا طه حسين، الى أن الغرب الذى يتبنى طه حسين الدعوة اليه فى كتاباته هو الغرب الليبرالى أو الصورة المثالية لذلك الغرب كما رسمها مفكرو الغرب الليبراليون فى القرن التاسع عشر : أى «المجتمع القومى الذى يحكم نفسه بنفسه فى ضوء مصالحه، والذى يتحقق فيه فصل الدين عن السياسة ، والنظام الديمقراطى للحكم : أى هيمنة الارادة العامة معبرا عنها بواسطة برلمان منتخب ووزراء

مسئولين أمامه، واحترام الحقوق الفردية لا سيما حرية التعبير والكتابة، وقوة الفضائل السياسية والاخلاص للمجتمع والاستعداد للتضحية فى سبيله، وقبل كل شيء تنظيم الصناعة الحديثة وتوافر «الروح العلمية التى تكمن وراء ذلك كله» (٣). وقد تكون لدى الناقد أو دارس التاريخ تحفظات على مدى صدق الجانب المعنوى من تلك الصورة (وسنرى أن طه حسين كان لديه الكثير من تلك التحفظات) أما جانبها المادى فلا سبيل الي الشك فيه . فلقد استطاع الغرب خلال مائة عام لا اكثر ان يغير من شكل العالم المادى بمنجزات ومخترعات فاقت ما حققته البشرية عبر كل القرون السابقة.

واذا كان طه حسين يذكر في عام ١٩٣٥ حين وضع كتابه « من بعيد » أننا محتاجون الى أن ننتفع بالبخار والكهرباء شأن الأوروبيين (٤) فان نتائج العلم قد تجاوزت ذلك بكثير فيما بعد وظلت تتابع فى طفرات كالمتوالية الهندسية (ألم يضع الغربى قدمه فوق سطح القمر والعميد ما زال حيا، أو لم يتجاوز صاروخه كواكب أخرى فى مجموعتنا الشمسية بعد أن مات ؟ ثم من يدرى مالذى يحمله الغد ؟) يبدو اذن أن تلك الحضارة تختلف من حيث الكيف عن الحضارات السابقة عليها، وأنها اهتدت الى وسيلة تمكنها من التقدم المستمر ومن مقاومة عوامل الفناء التى التهمت تلكس الحضارات . صحيح أن مفكريها سبقوا غيرهم الى نقد تلك الحضارة بالحديث عن انحلال الغرب وعن سقوطه وخوائه الروحى كل تلك العبارات. ولكن طه حسين يسخر فى اكثر من موضع ممن

يعتبرون ذلك النقد نبوءات بالسقوط المادى للغرب.. وعنده أن من عوامل قوة تلك الحضارة وبقائها فقدها لنفسها وعدم استسلامها للرضا عن النفس (٥) . ومن الممكن بالطبع أن ينتهى كل شىء فى تلك الحضارة بيد الانسان نفسه في شكل حرب عالمية كونية، أو يمكن أن ينتهى بكارثة طبيعية . ولكن فى المسار الطبيعى للأمور فان تلك الحضارة راسخة، وكل ما فى الأمر أن مراكزها تنتقل من باريس ولندن وبرلين الى واشنطن وموسكو (ثم وياللعجب: طوكيو!) وها نحن الآن نرى الهوة بين الغرب ومن لم يأخذوا بأسباب القوة الغربية، ونرى « العدوان والطغيان » اللذين حذر منهما العميد يتفاقمان يوما بعد يوم. لم تعد هناك حاجة للجيوش بعد أن حلت محلها السيطرة الاقتصادية التى لافكاك منها (والديون هي آخر تجليات هذه السيطرة والتى تجعل بلدان العالم الفقيرة تدفع للغرب الغنى أضعاف ما تحصل عليه منه) . لم ينج سوى « من أخذ بالأسباب الحقيقية للاستقلال » كما دعا العميد (ذكر هو اليابان كمثال منذ أكثر من نصف قرن، فهل يمكننا اليوم أن نذكر مثالا آخر ؟). وأما من لم يأخذ بتلك الأسباب فهو يتخبط يمينا ويسارا ما بين عزاء التفوق الأخلاقى ومابين عزاء القناعة بالتبعية مع إلباسها ثوبا شفافا من الندية كما هو الأمر فى كل أحلاف الشمال

مع الجنوب ، ولكن الغرب فى كل الأحوال هناك، يراقب رعاياه من عل عبر أقماره الصناعية، ممسكا بالطول المرخى وثنياه و باليد، على قول طرفة بن العبد الذى أحبه العميد ، أو ممسكا بأنشوطة حول الرقـــاب يرخيها ويشــدها كما يشاء بلغة عصرنا الحـديث.

تلك هى الصــــورة التى رآها طـه حسين ببصيرته ★ وتمنى لو يجنب مصر الوقوع فى شراكها مرة أخرى، فنصح لها ورسم طريق

★ وتلك أيضا هى الصورة التى رآها أرنولد توينبى حين قدم تحليلا لفكرة مقاومة الحضارة المتفوقة بالخلاص الروحى واعلاء قيم الاصالة من خلال تجربة غاندى العظيم . فحين دعا غاندى مواطنيه الى نبذ الصناعة الحديثة والعودة الى الغزل والنسج اليدويين للتخلص من أسر الحضارة الغربية كان يغفل فى رأى توينبى عاملين : أولهما أن الهنود وان أبدوا الاستعداد للتقشف وقتا ما بقبول هذا النهج، فانه من المستحيل عليهم التضحية بمستوى المعيشة الأفضل الى الأبد ولابد لهم بعد فترة من وسائل الانتاج الأرقى (الغربية) التى تضمن لهم ذلك المستوى . وأما العامل الآخر الأعمق فهو أن الحضارة الغربية ليست هى التكنولوجيا المتفوقة وحدها، بل إن لها « قوتها الروحية » الخاصة المتمثلة فى طرائق التفكير وفى أساليب التنظيم (مؤسسات الدولة الحديثة) . ويرى توينبى أن من المحتم عند أخذ عنصر وحيد من الحضارة المتفوقة (وليكن هو الادارة أو تنظيم الجيش الحديث) ، أن تتابع العناصر الأخرى من تلقاء نفسها. ومقاومة ذلك ليست هى الحل، ولكنه المحاولة الذكية للاستيعاب والتى تحول التأثر الحضارى من « صدمة » الى عنصر تجديد ايجابى للحضارة الأقدم.

راجع هذه المناقشة الخصبة فى : Arnold Toynbee : A Study of Histtory (Abridged by D.C. Somervell (vol. II) Oxford University Press. 1987.pp.200-227.

النجاة، داعيا بكل سبيل مفصلا كل الجزئيات، مؤكدا أن الأصالة والهوية لا يتحققان فى سياق الضعف، بل لابد أولا أن نصبح أندادا[4] بالفعل، لكى نصد العدوان على هويتنا ونهتدى ونحن فى طريق التقدم الى أصالتنا الجديدة بالبقاء.

تلك هى الصورة المباشرة للغرب والعلاقة معه فى حدود هــذا الزمان وهذا المكان . ولكن للعمــيد رؤية أبعد من ذلك مدى . ربما قد اهتـــدى اليها بالتدريج خـــلال تطوره الفكرى، ولعلها فى النهـــاية لاتتصل تماما بذلك الغـــرب «الليبرالى» الذى افترض حورانى والمتأثرون بنهجه أن طه حسين كان يدعو الى الاقتداء به .

والأرجح أن أول ملامح الصورة قد بدأت فى التكون بينما كان ذلك الباحث في التاريخ يتأمل مع عقل عبقرى آخر تاريخ الشرق . وقد لا تكون دراسة طه حسين عن ابن خلدون هى أفضل دراساته ولا هى أحسن ما كتب عن هذا المؤرخ العربى الفذ، ولكنها بالتأكيد مقدمة صالحة تماما لاهتماماته منذ بدء حياته الأكاديمية بالفروق بين الشرق والغرب. فهو يشير فى أكثر من موضع الى أن ابن خلدون رغم طموحه الى تقديم تفسير عام للتاريخ البشرى لم يدرس في حقيقة الأمرغير نمط واحد من الحكم هو الحكومة الأتوقراطية (الفردية) لأن تجربته كانت محدودة بتاريخ المشرق، ولأنه لم يعرف

شيئا قط عن المدن اليونانية واللاتينية التى جربت أشكالا مختلفة من الحكم (٦).

ولكن عبقرية المؤرخ المغربى تتمثل فى أمور منها أنه وضع منهجا لدراسة ذلك التاريخ نقل طه حسين جوهره فى تلك العبارة التى يقول فيها ابن خلدون « اننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الأسباب بالأسباب ، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات الى بعض » ويلاحظ طه حسين وهو ينقل ذلك النص أن المؤرخ العربى كان اول من حاول أن يطبق قاعدة معروفة من قبل وهى التعليل أو ربط السبب بالمسبب لفهم حركة التاريخ « وفى أنه تحقق من وجود ارتباط بين الظواهر الاجتماعية لا يمكن بدونه فهم استمرار المجتمع وتطوره » (٧) وسيكون هذا النهج العملى التحليلى والتعليلى فيما بعد واحدا من الثوابت المنهجية فى فكر طه حسين فى محاولته لفهم كل من الغرب والشرق.

ولاتقل اهمية عن المنهج تلك العبارة الجميلة التى توقف عندها طه حسين وهو يدرس ابن خلدون أى « أن الماضى أشبه بالآتى من الماء بالماء » (٨) ولا يفهم طه حسين تلك العبارة بمعناها السطحى

الشائع (وغير الحقيقي بالمناسبة !) وهو أن التاريخ يعيد نفسه، بل يجرد منها أن المفكر المغربى فهم أن المجتمعات البشرية كلها تتشابه من بعض الوجوه وأن السبب الجوهرى فى المشابهات الاجتماعية هو الوحدة العقلية للجنس البشرى. فليس ثمة فارق بين روحين بشريين (٩).

وستظل تلك النزعة الانسانية التى لاحظها باحث الدكتوراه عند ابن خلدون ملازمة له حتى النهاية، وستكتسب بدورها أبعادا جديدة مع تطوره الفكرى ، ولكن على الناحية الأخرى فان عقله الناقد الذى لم يفته أن يحدد السبب في اقتصار ابن خلدون على بحث نظام الحكم الفردى، ينتبه أيضا الى أن التاريخ يظل عند هذا المؤرخ مع كونه أول دارس لعلم الاجتماع وللظواهر الاجتماعية تاريخا للملوك والقواد والأمراء فحسب، شأنه شأن التاريخ التقليدى. فهل أغفل ابن خلدون دور المجتمع لأن هذا الدور لم يكن له أثر ملموس فى تاريخ الشرق (١٠).

قد يكون الأمر كذلك، ولكن طه حسين سبق له أن لاحظ أن اليونان القديمة عرفت تجربة لم توجد فى المجتمعات القديمة ولم تنتقل الى أى مجتمع شرقى على كثرة ما أخذت بلاد العالم القديم

عن اليونان . فهناك انتقل الحكم من الفرد الى الجماعة أى أن الجماعة وأفرادها أخذوا يشعرون بوجودهم وشخصياتهم ويحاولون أن يجعلوا هذا الوجود وهذه الشخصيات أمورا معترفا بها . وبعبارة مجملة « أخذت شخصية الفرد تظهر وسلطان الفرد يتغلب على سلطان الجماعة » (١١). وذلك فيما يبدو قانون حتمي: يتطور العقل فتنمو شخصية الفرد. وقد حدث هذا التطور في اليونان فعرفت مدنها النظم السياسية المختلفة من ملكية وجمهورية وارستقراطية وديمقراطية وغوغائية بينما كان الشرق خاضعا لنظام واحد لم يتغير و لم يتبدل «هو نظام الملكية المطلقة المستبدة الذى تفقد فيه الجماعات والأفراد كل حظ من الحرية». فكيف نستطيع تفسير هذا الاختلاف بين الشرق والغرب»؟..(١٢).

يقول طه حسين: «ولم نفسر؟.. وما حاجتنا إلى التفسير؟.. يكفى أن نسجل الحقيقة الواقعة»(١٢).

ولكن هل حقيقة عزف عن التفسير ذلك العقل الباحث دائما عن الحقيقة، أم أنه ظل عاكفا على التماس الجواب؟

وكيف لنا نحن بدون ذلك الافتراض أن نفسر تتابع تلك السلسلة اليونانية: آلهة اليونان (١٩١٩) وصحف مختارة من الشعر التمثيلى

اليونانى (١٩٢٠) ونظام الأثينيين (١٩٢١) وقادة الفكر (١٩٢٥)؟.. من الواضح تماما أن طه حسين قد انغمس فى تلك الفترة فى استكشاف التجربة اليونانية والتعريف بها. بل قد يبدو للبعض أنه وقع أسير فكرة «المعجزة اليونانية» التى روج لها كتاب العرب منذ عصر النهضة باعتبار تجربة اليونان منبتة الصلة بالحضارات السابقة عليها وأنها الأب الشرعى للحضارة الأوروبية الفريدة والنقية المصدر بدورها. ويعرف البحث الحديث، الأوروبى قبل غيره، زيف هذه الفكرة. ولكن حتى ولو كان طه حسين قد افتتن بها وقتا ما فى مطلع حياته فسنرى أن عقله اليقظ والمنظم استطاع أن يتوصل إلى نتائج مختلفة. وسنتابع معه خطى هذا البحث.

انتبه طه حسين منذ دراسته عن ابن خلدون إلى أن المترجمين الذين أقبلوا فى شغف على كل تراث اليونان فى العصر العباسى قد أغفلوا الشعر والمسرح(١٣). فهل كانت تلك مجرد مصادفة أم أن العرب انصرفوا عامدين عن هذا الجانب من الفكر اليونانى؟.. لابد أن العميد حين تقدم ليسد جانبا من هذا النقص قد لاحظ أن هناك فى فن الشعر اليونانى (والدراما كجزء منه) خاصيتين لم تعرفهما الحضارة العربية بهذا القدر من الصراحة والوضوح:

الصراع والتشخيص، ويفترض الصراع تكافؤا بين القوى المتعارضة ويفرض بالتالى تعدد وجهات النظر للحقيقة الواحدة. أى أن الدراما بعبارة أخرى ديمقراطية بطبيعتها ذاتها (فضلا عن كونها ديمقراطية بشكل عرضها الجماهيرى). ولا شك أنه قد عرف أن أول مسرحية حفظها لنا التاريخ، أى مسرحية الفرس لايسخيلوس، والتي كانت بدورها من أوائل ما ترجمه العميد، لم تمر فى المجتمع الاثينى نفسه دون احتجاج. فقد سخط مواطنو أثينا وقدموا الشاعر للمحاكمة لأنه وضع على لسان ملك الفرس عبارات وأفكارا اعتبرها الأثينيون اهانة لهم. غير أن قضاة أثينا كانوا من الحكمة أو من الديمقراطية بحيث أعلنوا ذلك المبدأ البسيط والخطير فى آن واحد. وهو أن الشخصية المسرحية ينبغى أن تنطق بما يعبر عن حقيقة فكرها وأن يكون لها وجودها المستقل. وحين تتصارع الشخصيات المسرحية المستقلة والمتكافئة تتأكد التعددية وتنتفى النظرة الأحادية للأمور وللحياة.

يبدو اذن أن ذلك الفن الذى أغفله العرب القدامى ـ مهملين أو عامدين ـ والذى لم يستتب فى اليونان نفسها دون شىء من المقاومة كان يحمل عنصرا جديدا وبالغ الأثر على حرية التفكير. ومن هنا فقد نفهم اهتمام طه حسين بالمسرح منذ مطلع حياته الفكرية، ثم

عنايته بتقديمه الى العربية، واصراره الذى لم ينقطع فيما بعد على تقديم المسرح الجاد ترجمة وتلخيصا، ورعايته لفن التمثيل، وغيرته على المسرح من طغيان السينما (ذلك الفن السلبي، بمعايير الفكر، عند نشأته التى عاصرها العميد وهى الغيرة التى جعلته يفرد بابا لهذا الموضوع فى كتاب «مستقبل الثقافة». بل اننا من هنا أيضا نفهم سخط نقاد طه حسين لاصراره على ادخال «مفاهيم الدراما اليونانية» إلى الأدب العربى، ولم يخطىء قائلهم حين أكد «أن الصراع المأساوى الدرامى الذى هو حياة الحدث فى المسرح لا يجد بيئة طبيعية فى ايمان العرب ومعتقداتهم.. والعقلية العربية لا تتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو ما يتصوره اليونان الذين يؤمنون بقوى متعددة»(١٤).

ولكن المسرح بطبيعة الحال، على أهميته، ليس إلا واحدا من جملة ظواهر ميزت الحضارة اليونانية عن حضارة الشرق فى رأى طه حسين. وتسبقه فى الأهمية الفلسفة: «والفرق بين الشعر والفلسفة عظيم. فهى مظهر الحياة العقلية القوية. وهى وسيلة الانسان الى أن يتصور الحقائق ويحكم عليها بعقله لا بخياله»(١٥). وقبل كل شيء فإن «الفلسفة تعتمد على النقد» بينما يعتمد الشعر على التصديق. والانسان ينتقل من «مرحلة الشعر» التى يبهره فيها كل شيء إلى مرحلة لا يخضع فيها لتأثير الأشياء. وإنما يحاول، أو

يعتقد أنه يحاول، أن يخضع الأشياء لتأثيره وسلطانه، وتلك هي مرحلة الفلسفة(١٥). غير أن الوصول إلى هذه المرحلة يتطلب وقتا، ويتطلب تهيئة العقول لذلك التطور.

والنظر العقلي والنقدي للحياة، ومحاولة السيطرة على عالم الأشياء، هما اللذان سترثهما أوروبا فيما بعد عن اليونان، وسيكونان في رأى طه حسين (باعتبارهما من تجليات الحرية الفردية)، السر الحقيقي وراء كل منجزاتها. فنحن اذا قلنا الفلسفة فقد قلنا العلم المنهجي المنظم والمتطور: «فلئن كان البابليون قد رصدوا النجوم ووصلوا من ذلك الى نتائج قيمة فهم لم يضعوا علم الفلك وإنما هذا العلم اليوناني، لم ينشأ عن النتائج البابلية وإنما نشأ عن البحث ليوناني والفلسفة اليونانية، ولئن كان المصريون قد وصلوا إلى نتائج قيمة من الهندسة العملية والآلية، فليس المصريون هم الذين وضعوا علم الهندسة وإنما اليونان هم الذين ابتكروه ابتكارا»(١٦) *.

---

* لم يكن هذا رأى العميد وحده، ولكنه رأى كثير من الباحثين الذين تصدوا لتأريخ العلم. ويرى د. فؤاد زكريا في كتاب «التفكير العلمى» أن اليونانيين القدامى أضافوا إلى تطور العلم قيما أساسية مثل البحث عن المبادىء العامة وراء الظواهر، واعتماد الأدلة والبراهين العقلية لتأصيل تلك المبادئ، ومن ثم لوضع الأصول النظرية للمعرفة العلمية. ولكن د. زكريا يضيف أن ذلك لا يعنى أن كل هذه الأسس كانت مجهولة لأبناء الحضارات الشرقية الأقدم، ويستشهد بقول أفلاطون بعد أن زار مصر بأن اليونانيين «أطفال» بالقياس إلى الحضارة المصرية العريقة، ويرى أن الصحيح هو ما أنجزته الحضارات الأقدم فى مجال العلم النظرى قد ضاع لأسباب كثيرة فى حين بقى لنا التراث العلمى اليونانى (راجع فى ذلك: د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي: منشورات ذات السلاسل، الكويت (ط ٢) ـ ص ١٣٠ ـ ١٤٢). وأيا كان الأمر فسيتضح فيما يلى أن إلحاح العميد على نسبة نشأة العلم إلى اليونان وربطه بالفلسفة له ما يبرره.

ومع ذلك فيبدو أن تلك «المعجزة اليونانية» لم تكن متحققة دون ألم، وأن مزاياها ذاتها كانت ترتد عليها فى صورة «شر عظيم» على قول العميد. فنزعة الحرية الفردية والاستقلال وتعبيرها السياسى استقلال المدن كانت وراء الحروب الطاحنة بين المدن اليونانية بعضها البعض وبعد ذلك أيضا فيما بين المدن اللاتينية القديمة التى احتذت بالنهج اليونانى، وقد أتاح ذلك فى آخر الأمر أن تبسط روما سلطانها وهيمنتها على تلك المدن ثم أن تنشر سلطتها الامبراطورية على العالم القديم كله. ولكن السلم الرومانى كان انتكاسة لحرية الفكر وللنهج اليونانى. يقول العميد وهل كان النظام الامبراطورى فى الغرب الا نحوا من نظام الملك الشرقى؟(١٧) (أى الملك الاستبدادى).

ولكن من حسن الحظ أن سيطرة روما لم تتحقق الا بعد أن تجسد حلم عزيز على طه حسين. فها هو الاسكندر الاكبر - تلميذ المعلم الأول - يحمل شعلة الثقافة اليونانية إلى الشرق القديم. وهو يطمح إلى مشروع كان يحرك الفلسفة اليونانية كلها كما يقول طه حسين «عد الى هذه الفلسفة تجدها كانت تطمح قبل كل شيء وبدون أن تشعر إلى توحيد العقل الانسانى وأخذه بنظام واحد فى

التصور والتفكير والحكم، ولم يكن بد اذا انتصرت هذه الفلسفة من أن تتقارب الشعوب وتتعاون على توحيد الحضارة وترقيتها، وعلى ايجاد نوع انسانى متحد الغاية» (١٨).

وهذا هو ما فعله الاسكندر، أو حاول أن يفعله. فلا تحسبن تلميذ أرسطو فاتحا «بالمعنى الذى فهمته الأجيال لهذه الكلمة» كلا» لم يكن (الاسكندر) صاحب حرب وقهر وغلب، وانما كان صاحب مودة ومحبة واخاء وتسوية بين الناس»(١٩). فهو لم يكتف بخلط الشعوب ببعضها بل أراد أن يمزجها ويستخلص منها شعبا واحدا، وهذا عند العميد هو تفسير حرص الاسكندر على نشر التزاوج بين اليونانيين والمقدونيين من جهة والفرس من جهة أخرى.

واذا كان الحلم فى توحيد الأجناس أو فى تحقيق وحدة سياسية عالمية لم يحقق نجاحه المرجو، فقد «ظفر (الاسكندر) بشىء عظيم بعد موته، اذ نشأ من اختلاط اليونانيين والشرقيين مزاج خاص تستطيع أن تجده واضحا جليا اذا درست الفلسفة الاسكندرية أو آداب الاسكندريين»(٢٠)، وستظل العودة إلى ذلك التزواج الحضارى الذى يقرب بين عقليتى الشرق والغرب، والذى حدث مرة أخرى فى حضارتنا أيام العباسيين، سيظل ازدهار

«حضارة انسانية عامة»، يتعين على مصر بالذات أن تلعب فيها دورا خاصا (مثلما تألقت أيام الاسكندرية) هدفا لا يتزعزع ايمان العميد به.

غير أن فترة الاسكندر الأكبر، وما ظفر به بعد موته، ينبغي ألا تشغلنا عن تأمل كل أبعاد الصورة اليونانية كما رآها العميد. لقد فتنه كل ما أنجزته اليونان للفكر الانساني، ولكنه توقف عند «شر عظيم» هو تلك الحروب الطاحنة بين الأشقاء. ويبدو أن هناك شرا آخر لا يقل عنه فداحة. فلقد واجه فلاسفة اليونان ومفكروها قدرا كبيرا من الشقاء. ألم يرغم سقراط على تجرع السم؟.. أو لم تكن «الفلسفة اليونانية في حرب متصلة مع الديمقراطية وهى شديدة الكره مع ذلك للنظام الأرستقراطي؟ـ(٢١) ليست المسألة هنا هى جهاد المفكرين دون رأيهم واحتمالهم لتبعات ذلك، بل هى عند العميد أعمق من ذلك وأخطر. اذ يبدو أن اليونان القديمة على كل ما أنجزته للفكر الانساني، لم تستطع أن تحقق فى أوج ديمقراطيتها علاقة سوية بين الدولة والدين. فكانت فلسفة سقراط عندهم آثمة مرتين، لأنها تناقش النظام السياسى ولأنها تناقش الدين(٢٢). وهذا أمر غريب فى نظر العميد لأن تلك الديانة الوثنية كانت من السذاجة بحيث يصعب التصور بامكان التعصب لها الى حد قتل خصومها، بل إن تلك الديانات لم تكن لها عقائد محددة، ولم تكن للآلهة صفات معينة يكفر من ينكرها أو يشك فيها. فكيف اذن أمكن

قتل سقراط بتهمة المروق عن الدين مع أن الخليق بمثل هذا الدين أن يكون قليل الحظ من مصادرة العقل ومخاصمة حرية الرأى؟.. الواقع أن هناك عنصرا ثالثا كان يتدخل بين الدين وبين حرية الرأى ومنه نبع الشر. ذلك العنصر هو السياسة التى تستغل الدين لكى تؤلب العامة، المستعدين للاستهواء بطبعهم، ضد المفكرين والمجددين للدفاع عن استقرار مصالحها. فمنذ محنة سقراط اذن» تحدد موقف السياسة بين هذين الخصمين، وظهر أنه لن يكون موقف اصلاح بينهما وانما هو موقف إفساد وإحراج واثارة للحفيظة والحقد»(٢٣). وهذا الصراع غير متكافىء «لأن المفكرين والعلماء قلة ولأن العامة الذين يؤلبهم الساسة بسهولة هم السواد من الناس»(٢٤).

غير أنه قد يكون هناك عزاء من نوع ما. فالسواد قد نجح بتحريض السياسة فى قتل سقراط. ولكن خلفاء سقراط هم الذين صنعوا هذا العالم الحديث كما نعرفه. أو فلنقل أوروبا الحديثة أو الغرب الحديث وحضارته المسيطرة. فهى تلك الفلسفة (اليونانية) «التى لم يكد الناس يدرسونها (فى العصر الحديث) حتى فتحت أمامهم أبواب الأمل والعمل»(٢٥).

ولكن قبل أن ننتقل إلى صورة أوروبا الحديثة فى فكر طه حسين فقد يحسن أن نتأمل قليلا تلك الثوابت فى تصوره اليونان القديمة. فقد كانت هذه التصورات الأولية هى دعائم البناء الفكرى الشامخ الذى شاده طه حسين فيما بعد. دخل عليها التطوير والمراجعة، ولكنها ظلت فى جميع الأحوال هى الأساس ونقطة الانطلاق. ألا نستمع إلى صوته بعد كتابة «قادة الفكر» بعشرات السنين يعبر عن الايمان نفسه؟ ألا يأتينا صوته فى رحلة الربيع مترنما بتلك العبارات «فى هذه القرون الثلاثة من الدهر ـ وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض (أى أثينا).. عرف الانسان أن له عقلا وشعورا وضميرا. وأن له من أجل ذلك حقا فى أن يكون حرا كريما وأن عليه من أجل ذلك واجبا أن يرعى لنظرائه حقهم فى الحرية والكرامة»... «ورسمت له فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس مناهج التفكير والشعور والسيرة، وشقت له طريق الرقى وعلمته الطموح إلى الكمال والارتفاع عن النقص»(٢٦).

تلك الحرية وهذا العقل فى صورته الباحثة القلقة جعلا من اليونان القديمة النقيض لكل حضارات الشرق القديمة، منذ أن عرفت اليونان الديمقراطية فى القرن الخامس قبل الميلاد،

واستطاعت هذه الحضارة الوليدة بابتكاراتها تلك أن تهزم الحضارات الراسخة التي لم تعرف من نظم الحكم غير الاستبداد والطغيان. ألم تدمر تلك المدن الصغيرة جحافل دولة فارس العظيمة في موقعة سلاميس؟ أو لم يتباه شعراؤها وخطباؤها بعد ذلك بأنهم قد حققوا هذا النصر وهم فئة قليلة لأنهم أحرار ولأن أعداء هم على كثرتهم عدداً وعدة ليسوا سوى عبيد لكسرى؟ أو ليس للعميد اذن أن يرى أنه عندما تحطم أسطول الملك الأعظم عند صخرة سلاميس «انتصرت قوة العقل على قوة الملك وسعة السلطان»؟(٢٧).

ولكن هذا التفرد اليوناني يحتاج إلى أن نتابعه على أية حال لكي نفهم فيم أخطأ الشرق وأين أخطأ. فهل كانت الحرية اليونانية وليدة ثقافة معينة أم أنها هي التي خلقت تلك الثقافة الخصبة؟.. يتحدث طه حسين عن عوامل اقتصادية واجتماعية لعبت دورها في تكوين العقل اليوناني وعن التطور السياسي ودوره في بلورة النزعة الفردية. غير أن ذلك كله يجب ألا يصرفنا عن الانتباه الى الحقيقة الأساسية عنده ـ وهي أن «قادة الفكر» في اليونان عنده هم الشعراء والفلاسفة ثم الحكام الفلاسفة أصحاب الرؤى مثل بركليس والاسكندر. فلنحلل اذن ـ من وجهة نظر طه حسين ـ تلك الخطى

التى جعلت من اليونان هذا الشعب الخاص فى التاريخ القديم.

كانت أول خطوة فى مرحلة بداوة اليونان هى الشعراء، أو هو هوميروس أو الشعراء الهومريون. ولكن للأمم الأخرى أيضا شعراءها، فبم امتاز عليهم هوميروس حتى أصبح قائدا من قادة الفكر؟ سننحى جانبا قيمة الشعر فى ذاته والتى استحق من أجلها الخلود، فما يعنينا هنا هو أن الشعر الهومرى هو الذى صنع وحدة الأمة اليونانية، أو أنه كان النقطة التى التقت عندها أشتات تلك المدن المتصارعة والمتحاربة لتدرك أن لها كيانا قوميا متميزا عن الشعوب الأخرى، فهو ديوان فلسفتهم ودينهم ونظمهم الاجتماعية المختلفة. وفى غيبة الوحدة السياسية كان هذا الشعر يلعب أهم دور فى تكوين الوعى القومى لدى اليونانيين، فأخذت المجتمعات بعد أن تحضرت تستظهر تلك الملاحم وترويها وتحرص عليها «وبالغت فى ذلك حتى عنيت حكوماتها بتدوينها»(٢٨). نقطة البدء اذن هى الوعى بالوحدة القومية وبالمعايير والقيم التى تجعل لهذه الوحدة كيانا مستقلا ومتميزا.

ثم تأتى بعد ذلك مرحلة أخرى. فالشعر الملحمى الذى كان لليونان مستودع القيم العليا فى الأخلاق والحياة، هو أيضا الذى

حفظ لهم دينهم، ومن روح الدين نشأ الشعر الدرامي. فقد «كان اليونان يتقربون إلى آلهتهم بإنشاد الشعر القصصي والاستماع اليه، ثم نشأ فن التمثيل فتقربوا به الى الآلهة كما كانوا يتقربون بالقصص والغناء». ولكن هذه النقلة كانت خطيرة، لأن القصص (الملحمية) لم يكن يظهر فيها غير شخصية الآلهة والأبطال، بل لا تظهر فيها شخصية الشاعر نفسه، ولكن مع نشأة الشعر التمثيلي تغيرت صورة الشعر ذاتها. «فظهر شخص الشاعر ولم يعد ابداعه يضاف الى شاعر مجهول وانما أصبح يصور شخصية المبدع نفسه ويصور معها شخصية كثير من الأفراد»(٢٩).

فقد نزل الشعر اذن من السماء الى الأرض عندما تحول إلى التمثيل وأصبح موضوعه هم البشر وواكب ذلك تقدم الحضارة ورقى العقل واعلاء الحرية الفردية. واذا شئنا أن نكون أكثر دقة واتساقا مع فكر العميد فسنقول : إن هذه النقلة الخطيرة هي التي مهدت لرقي العقل واعلاء حرية الفرد مثلما مهد الشعر الهومري للوعي بالتفرد القومي. وكان الشعر الدرامي (أو التمثيلي) يؤكد بمضمونه هذه الحرية. ويضرب العميد مثلا على ذلك بمسرحية سوفوكليس «أوديب ملكا». فتلك المسرحية كما يفسرها طه حسين هي «تصوير

لصرامة القضاء من جهة ولحرية الانسان من جهة أخرى ومحاولة للملاءمة بين هذين الضدين المختصمين على نحو ما »(٣٠).

والمهم فى ذلك كله أن اليونان القديمة اذا كانت قد تفردت، لا بالشعر الملحمى، بل بالدور الذى لعبه هذا الشعر فى خلق وحدتها، فهى قد تفردت أيضا على نحو خاص بالشعر الدرامى الذى لعب دورا فى اشاعة الحرية الفردية بحكم مضمونه وصيغته وشكله الأدائى العام أمام الجمهور.

وقد نلاحظ أيضا أن الفنون اليونانية الأخرى، ولا سيما النحت، كانت بدورها شاهدا على تلك الانطلاقة نحو الحرية واستقلال الشخصية بما عمدت اليه من نزعة انسانية وواقعية فى النسب ومن بعد عن الاستاتيكية التى ميزت التماثيل الشرقية، بل والتماثيل اليونانية فى عصر تأثرها بالفن الشرقى والمصرى بالذات (عبر حضارة كريت). وراجع فى ذلك على سبيل المثال المفارقة الكاملة للتقاليد الشرقية فى تمثالى حرية ساموس أو رامى القرص الشهيرين، حيث تؤكد الحركة المنطلقة فى الحجر طموح الفنان الى الابداع الجديد والمتفرد.

ولا يعنى هذا حكما بالقيمة أو شهادة بالتفوق ولكنه يوضح لنا

رأى العميد عن السمة الجوهرية التى جعلت الحضارة اليونانية تنفرد عن حضارات الشرق القديم بطابع التحرر فى كل مظاهرها.

وتأتى بعد ذلك ثالثا من ملامح الصورة اليونانية كما رسمها العميد بعد الوعى القومى وبعد الحرية الفردية، وكنتيجة طبيعية لهذه الحرية، الديمقراطية السياسية التى عرفتها أكثر المدن اليونانية ـ بدرجات متفاوتة ـ بدءا من منتصف القرن السابع قبل الميلاد. وهذا التدرج ليس طبيعيا فحسب، بل هو حتمى في نظر العميد إذ ليس لهذامعنى إلا أن سلطان الحياة العقلية أخذ ينمو ويمتد، حتى أخذ الأفراد جميعا على اختلاف طبقاتهم يشعرون بشخصياتهم وحقهم، لا فى الوجود وحده، بل فى الوجود وفى الحكم أيضا. ومرة أخرى «هذا التطور.. لم يعرفه العالم القديم الا فى البلاد اليونانية وفى البلاد الرومانية من بعد» (٣١).

وتبلغ الحضارة اليونانية بعد ذلك ذروتها بالفلسفة والعلم اللذين ما كان لهما أن يزدهرا لولا تتابع المراحل السابقة. ولا يضع العميد كما رأينا فارقا بين الفلسفة والعلم، فقد نشأ هذا فى أحضان الفلسفة اليونانية وكان واحدا من تجلياتها ونشأ كلاهما من استقلال الفكر والنظر الفاحص والنقدى الذى لا يخضع الا

لسلطان العقل الباحث عن الحقيقة.

ذلك هو التفرد اليونانى فى نظر العميد وهو تفرد قوامه الثقافة فى جميع مراحله ومظاهره. ولا ينفى ذلك بطبيعة الحال أن هناك شوائب فى الصورة. وقد سبق الحديث عن اصطدام البحث العقلى بالسياسة الرامية الى استتباب الأوضاع والتى تستغل العامة باسم الدين لمحاربة الفلسفة والعلم. بل ويبدو أن تلك السياسة قد سعت الى ضرب الحرية فيما هو أبعد، بالقضاء على حرية الفرد ذاتها والتى كان المسرح أبرز تعبير عنها. ذلك أن الاضطهاد لم يكن من نصيب الفلاسفة ـ العلماء وحدهم، بل هو قد أصاب شعراء المسرح أيضا بدءا من ايسخيلوس وحتى يوربيديس.

وهناك شيء آخر كان يقلق نفس العميد وكل المعجبين بالتجربة الهلينية، فماذا نفعل مثلا بحقيقة وجود الرقيق من اليونانيين الخلص، والذين لم تكن أعدادهم يستهان بها فى تلك المدن الحرة؟ يسلم العميد بذلك بشيء من الأسف. ويحاول أن يبرره بأن يذكر أن الرق فى واقع الأمر نظام أزلى وأبدى: «فكل ما وصلنا اليه بعد عشرين قرنا إنما هو ازالة الرق الشخصى ـ فأما الرق الاجتماعى فما زال قائما موجودا والاستعمار أوضح مثال له وأقوى دليل عليه.

ولسنا نريد أن نعرض لاستعباد الطبقات بعضها بعضا، وإن كان هذا الاستعباد صورة من صور الرق»(٣٢).

وفضلا عن ذلك فقد حاولت الفلسفة اليونانية أن تلطف من هذه العبودية البغيضة. ومن قرأ أرسطو ـ فى رأى العميد ـ «عرف أنه من أعداء الرق ومن الذين أعدوا لازالته والقضاء عليه، فهو يرى أن للرقيق شخصية خلقية تعدل شخصية سيده وأن قتل الرقيق جناية تعدل قتل الحر وأن الاساءة اليه جريمة تعدل الاساءة إلى الحر ـ فلم يبق إلا أن يستحيل الرقيق ويرتقى حتى يحصل من الكفاية على ما حصل عليه سيده ليكون حرا مثله»(٣٣).

شىء آخر غير الرق كان يقلق نفس العميد فى تلك الحضارة التى أحبها هو الجموح الذى يهدد الحرية ذاتها أو «الصراع المهلك بين الاخوة لا يحفل بشىء ولا يبقى على شىء ولا يتحرج من شىء»، أو لم يبلغ هذا التطاحن فى العصر القديم حد أن حاولت بعض المدن اليونانية بعد أقل من قرن من فوزها الباهر على الفرس فى سلاميس أن تستعين بالحلف مع هؤلاء الفرس أنفسهم فى حروبها الداخلية(٣٤). ولكن يبقى أنه اذا جد الجد وأقبلت الكوارث الجسام رأيت الشعب اليونانى وقد ثاب إلى وحدة موقوتة ولكنها رائعة تحقق الأعاجيب(٣٥).

تلك هى الصورة اليونانية بوجهيها. ترجح محاسنها على أضدادها بما لا يقاس فى نظر العميد، وهى نقيض كامل لما عابه على الشرق الفرعونى والآشورى القديم الذى تسلسل فيه ارتباط الغياب المطلق للحرية الفردية والوجود المستقل للمجتمع باستبداد الحكام وتسلط الكهنة في اطار ثقافة رسمية موحدة عبرت من خلال كل تجلياتها عن اشاعة التسليم والاذعان للحاكم ـ الكاهن، ومجدت ذوبان الشخصية المستقلة فى كيان شامل خلاصته «الكل فى واحد».

وهذه الصورة اليونانية هى التى تستنسخ فيما بعد، مكبرة ومحسنة، فى أوروبا الحديثة على ما يرى العميد. حدث انقطاع تاريخى مؤكد، ولكن القيم اليونانية وجدت فى النهاية تجسيدها الكامل فى الغرب الحديث الذى أكمل ما بها من نقص وسار بها إلى نهاياتها المنطقية.

وإذا كانت العصور الوسطى الأوروبية، أو بمعنى أصح الامبراطورية الرومانية منذ بدئها تمثل انتصار الشرق على الغرب، فمرد ذلك إلى أن النظام الجمهورى المقيد قد فشل بعد أن وحدت روما العالم القديم، وكان الاتصال بين الشرق والغرب قد قوى

واشتدت أواصره وأخذت تظهر نتائجه، فما الذى يمنع قياصرة الرومان أن يحكموا العالم كما كان يحكم الفراعنة فى مصر والملوك فى بلاد الفرس؟(٣٦).

لا يوجد ما يمنع، بل هو قد حدث بالفعل، وأصبح القياصرة فراعنة يعبدون فى العالم القديم كله. أما الفلسفة فقد اندثرت فى هذا المناخ «الشرقى» العام. أتاها الفشل من الخارج وأتاها من ذات نفسها لأنها عجزت بعد عصر أرسطو عن أن تبتكر وأن تجدد، فكان كل شىء مهيأ لمقدم عصر جديد ينتصر فيه الشرق نهائيا على القيم اليونانية. ولم يكد القرن الرابع ينتصف وتصبح المسيحية هى الديانة الرسمية للدولة الرومانية حتى انخذلت اليونان القديمة.(٣٧) أو لم تغلق الدولة الرومانية المسيحية المسارح وتصفها بأنها هيكل الشيطان؟.. أو لم يسبق ذلك اغلاق مدارس الفلسفة حتى لجأت فلولها ـ ويا للعجب ـ إلى بلاط كسرى، وان كان مقامها هناك قصيرا وعقيما؟

غير أن العميد يحب لك أن تفكر معه قليلا: ما بال هذه الآثار التى كان كل شىء يدل على أنها قد اندثرت ترجع مرة أخرى فى القرن الخامس عشر والسادس عشر وقد أخذت تفتن الناس عن أنفسهم؟ وما بالها تثمر فى هذا العصر الحديث ما لم تستطع أن

تثمره فى العصر القديم؟.. كانت الفلسفة قد انتهت فى العصر القديم «ولكن الناس لم يكادوا يدرسونها فى العصر الحديث حتى فتحت أمامهم أبواب العمل والأمل ومكنتهم من استحداث العلم وتغيير نظم الحياة وانتهت بهم الآن إلى ما هم فيه من رقى»(٣٨).

لابد في هذه المرة أيضا أن هناك أسبابا لذلك. ولن يدهشنا أن نجد أنها عند الاستاذ العميد هى نفس الأسباب لم ينقص منها واحد وان تكن قد أضيفت اليها آحاد أخرى من الأسباب.

وليس من الضرورى بطبيعة الحال أن يكون المسار واحدا فى الحالتين فأى الأمرين سبق الآخر مثلا: قيام المدن الايطالية المستقلة (أى الوعى القومى) أم النهضة بفنونها وعلومها وفلسفتها؟.. قد يعنى هذا السؤال المؤرخ المتخصص، أما طه حسين، فذهنه مشغول دائما بالكليات وأمهات الأمور فقد لاحظ أن

فكرة الدولة الدينية الجامعة التى قامت فى أوروبا فى العصور الوسطى قد انتهت «لأن الوطنية وما يتصل بها من المنافع الاقتصادية والسياسية الخالصة قامت فى تكوين الدول وتدبير سياستها(٣٩) مقام غيرها من النظريات. (وكان قد سبق له من قبل أن توقف عندما لاحظه ابن خلدون من صعوبة قيام الدولة المتعدد القوميات وأن التجانس القومى شـرط لاستتباب الحضارة فى الدول (٤٠)

بل ان اتساع الدولة الحاجة إلى ضبط الحكم كانا عند ابن خلدون المؤمن بوحدة الخلافة مبررا كافيا لقيام خلافتين مستقلتين عباسية فى بغداد وأموية فى الأندلس).

وأهم من ذلك كله أن أوروبا الحديثة قامت على أساس «حركة تدعو إلى حرية الرأى وإلى التجديد فى كل شىء فى العلم والأدب والفلسفة والدين» وكانت البروتستانتية هى مظهر ذلك التجديد فى الدين، بينما كان المظهر العملى هو حياة جاليليو وكوبرنيكوس ومن اليهما، وأما المظهر الفلسفى فيتمثل فى ديكارت وبيكون. وكان هناك صراع طاحن بين القديم والجديد(٤١). فقد خاضت الفلسفة والعلم صراعا طويلا ضد الكنيسة الكاثوليكية وضد السياسة الملكية فى أوروبا حتى تم لها النصر فى آخر القرن الثامن عشر بمولد الثورة الفرنسية، وهنا انقلبت الآية فأخطأ العلم والفلسفة فى حق الدين بمثل ما أخطأت الكنيسة فى حق العلم من قبل. وسنرجع إلى ذلك بعدحين.(٤٢).

أما المهم هنا فهو أن العلم والفلسفة، أو الفلسفة / العلم لأن العميد كما نكرر لم يضع فرقا بينهما هى التى قامت مقام الشعر عند اليونان فى خلق الوعى بحرية الفرد فى العصر الحديث. وكان للفلسفة والعلم شهداؤهما فى العصر الحديث مثلما استشهد سقراط فى القديم(٤٣) ولكن فلسفة «فولتير» و«مونتسكيو» و«جان

جاك روسو» و«ديدرو» والتى رفعت لواء الدعوة إلى الحرية(٤٤) وإلى اعلاء الروح العلمى ـ هى التى كتب لها النصر فى النهاية، واستطاعت أن تصل الى ما عجزت عنه اليونان وهو تحقيق استقلال العلم عن سلطة الدولة وعن سلطة الكنيسة. ولكن ما هى خصائص ذلك الروح العلمى الذى أسهم بأكبر دور فى تشكيل صورة أوروبا الحديثة. يستخلص د . جابر عصفور من كتابات العميد ما يعتبره اشارات مرجعية الى تعريفه لأسس الروح العلمى فى مجال الدرس الأدبى، ولكن تعميم هذه العناصر يفيدنا لفهم تركيز العميد على المنحى العقلانى للعلم الأوروبى★. فهو أولا قانون العلّية أو ربط السـبب بالمسبب وه يعنى الروح العـلمى ثانيا أن

★ من المفهوم بالطبع أن ذلك المنحى العقلانى لم يقتصر اكتشافه على أوروبا فى العصر الحديث. وقد سبقت الاشارة إلى انتباه العميد لحقيقة أن ابن خلدون هو أول من طبق قانون العلية على الدراسات الانسانية. ولكن المقصود أن الاتجاه العقلانى هو الذى أصبحت له الهيمنة على الدراسة العلمية فى أوروبا منذ عصر النهضة. ومن المفهوم أيضا أن خصائص «الروح العلمى» بصفة عامة أوسع نطاقا بكثير من العناصر المشار اليها هنا، وأن هناك خاصيتين أساسيتين فى العلم الحديث لم ترثهما أوروبا عن اليونان ولم تبتكرهما ابتكارا بل اقتبستهما مباشرة من العلم الاسلامى فى العصور الوسطى وهما: المنهج التجريبى واستخدام الرياضيات للتعبير عن قوانين العالم الطبيعى، ولكن المقصود أن تلك العناصر وغيرها اندرجت فى نهج شامل للبحث تولد منه العلم الأوروبى الحديث، (راجع د . فؤاد زكريا: التفكير العلمى، ص ١٦٦ وما بعدها).

الحقائق ليست مطلقة وانما هي نسبية واضافية. ويعني.. ثالثا أن «الشك هو الوسيلة المعقولة لليقين وأن التواضع العقلي هو الخلة التي تليق بالعلماء»..(٤٥). «والعلم الحديث لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر الا في جو كله حرية وتسامح»(٤٦).

كذلك فانه مثلما كان للفلسفة اليونانية هدف عام تسعى اليه هو وحدة الجنس البشرى التى سعى الاسكندر تلميذ أرسطو الى تحقيقها «فقد حمل الفرنسيون معهم فكر الثورة الى كل مكان (فى أوروبا) منذ نشبت ثورتهم فى آخر القرن الثامن عشر، ونقلوه إلى الشرق مع الحملة الفرنسية فانتقلت معهم الآراء التى اتصلت بفكر الثورة الفرنسية: حقوق الانسان وكرامته والمساواة بين الناس(٤٧).

وكأن أوروبا الحديثة بهذا الفهم هى اليونان القديمة وقد تعملقت فشملت أوروبا كلها وبذرت فيها بذورها القديمة: الوعى القومى، والحرية الفردية، والديمقراطية السياسية، وحرية الفكر والبحث العلمى، والخروج من دائرة الذات المغلقة الى أفق الانسانية الرحب. وان كان هذا الجانب الأخير عنصر توتر لم يجد له حتى الآن حلا.

فهل ظلت النقائص اليونانية القديمة ماثلة أيضا فى أوروبا الحديثة؟، توقف طه حسين هنا أيضا عند حروب الأشقاء التى مثلت

حتى الآن كارثتين عالميتين. ففي الحرب العالمية الأولى قيل للجنود «انهم لا يحاربون ألمانيا وحدها وانما يحاربون الحرب نفسها وأنهم اذا انتصروا فسيقضون على الحرب قضاء لا مرد له... (ثم) تبين أن الملايين من الجند قد ضحى بها في سبيل الكذب والغرور وأن الشعوب الضعيفة قد ضللت تضليلا.. وفى الحرب العالمية الثانية لا تلبث الانسانية أن ترى الخوف يعود أضرى مما كان.. وأعظم هولا، لا يخلع قلوب المحاربين وحدهم ولكنه يخلع قلوب الآمنين الوادعين الذين لم يجنوا الحرب ولكنهم اصطلوا بنارها»(٤٨).

والواضح حتى الآن أنه اذا ما وضعت المصلحة القومية أمام المصلحة الانسانية فان الكفة الأولى ترجح دون جدال عند خلفاء اليونان هؤلاء. تظل النزعة الانسانية حلما ويظل الصالح القومى واقعا ملموسا وثقيل الوطأة فى أكثر الأحيان.

والاستعمار واحد من هذه الأوجه التى تمثل طغيان الصالح القومى الأوروبى «فقد أغارت (أوروبا) على بلاد لم تكن تريد الا أن تحيا حياة وادعة، وأتاحت هذه الغارات أن يتغلب العالم الأوروبى على العالم الاسلامى العربى الذى لم يخضع قبل ذلك للسلطان الأوروبى والذى استطاع فى القرون الوسطى أن يقاوم الغارات

الصليبية مقاومة رائعة»(٤٩). بل ان تلك الأنانية القومية ذاتها تحول العلم الحديث، وهو أعظم ما أنجزته أوروبا إلى نقمة على الحياة الانسانية. أو لم يكن «استكشاف القنبلة الذرية وتجربتها المنكرة فى آخر الحرب الماضية أشد مظاهر هذه الحياة نكرا؟»(٥٠).

والظاهر هو أن «الجموح» يقلب الميزات الأوروبية الى نقيضها، فاذا كان استقلال القوميات والتنافس فيما بينها من أسباب قوة أوروبا الحديثة، فان تلك القوة ذاتها هى التى ولدت الحروب الشرسة فيما بينها وويلات الاستعمار التى أصابت شعوبا بريئة. واذا كانت حرية الفكر قد أتاحت تقدم العلم ورقى الانسانية فيبدو أن هذا العلم نفسه، دون ضابط، كفيل بالقضاء على الانسانية تماما.

بل ان تلك الحرية عندما استعلت بالعلم على الدين كانت «آثمة» كما سبق القول. فبعد الثورة الفرنسية «كان الذين يفتنون رجال الدين ويمتحنونهم هم أولئك الذين تأثروا بفلاسفة ما قبل الثورة «فما بال هذه الفلسفة التى كانت تدعو الى الحرية والتسامح قد استحالت عدوا للحرية والتسامح؟ أما الفلسفة نفسها فلم تتغير، ولكن السياسة التى استغلت الفلسفة لمصلحتها وضد خصومها هى

التى أثمت». تماما مثلما كانت هذه السياسة قبل الثورة تستغل الدين ، الذى يدعو إلى الحرية والتسامح ، لمحاربة خصومها والبطش بهم . "فالاثم فى حقيقة الأمر ليس اثم الدين ولا اثم العلم ولا اثم الفلسفة وإنما هو اثم هذه الدخيلة" (٥١) بين الدين والعلم .

ولكن فلنكن واضحين تماما لأن طه حسين كان واضحاً تماماً .
فهو لا يقترح لحل هذا المأزق أن نحدّ من حرية العلم على أى نحو أو أن نخضعه لسلطة دينية ما أو لأية سلطة أخرى ، وإنما الحل عنده هو أن ترغم السياسة على أن تقف موقف الحيدة وعلى ألا تؤلب السواد لكى ينتصر لرجال الدين مرة ولرجال العلم أخرى . وبهذا يزدهر الدين ويزدهر العلم معا (٥٢) .

وذلك هو عين ما فعلته أوروبا الحديثة بعد تعثر محاولاتها بين النقيضين منذ عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية «اذ إن الأمر قد انتهى (فى أوروبا) إلى شىء من التوازن بين الدين والحضارة» «وأما نحن فقد عصمنا الله من هذا المحظور ووقانا شروره التى شقيت بها أوروبا فالإسلام لا يعرف الاكليروس» (٥٣) . أى لا يعرف طبقة قيمة على الدين تدعى وحدها تفسيره والدفاع عنه مثلما كان الحال فى أوروبا .

ولكن المسألة هنا ليست موازنة بين محاسن أوروبا ومثالبها. فقد رأى العميد كل ما في حضارتها من نقائص، مثلما لم تغب عنه من قبل نقائص الحضارة اليونانية. غير أنه يقول دون لبس أو تردد إن الحضارة التي تلائم الحياة الحديثة شيء كامل لا يمكن أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه الآخر، وانما يؤخذ كله أو يترك كله، فالذين يأخذونه كله، هم الذين يحيون ويرقون * ويفرضون أنفسهم على

---

* قد يحق لنا أن نفهم أن العميد يعني «اليابان» حين يتحدث عمن أخذوا الشيء كله . ويحسن أن ننقل هنا بعض العبارات من كتاب حديث لواحد ممن درسوا تجربة اليابان ، وسيدهشنا أن الثوابت التي ظل العميد يلح عليها كانت هي بالفعل أسس نجاح التجربة اليابانية فهناك أولا «تجانسهم العظيم وهويتهم الذاتية القوية ، فضلا عن تميزهم الواضح بامكانات التعلم من الخارج » عبر التاريخ . وكانت بداية نهضة اليابانيين في عصر ميجي سنة ١٨٦٨ ، هي تحقيق الاستقلال الوطني من تغلغل الاستعمار الغربي ، وفي الوقت نفسه ايفاد بعثات خارجية كبيرة لتلقي العلم في «الغرب» وادخال نظام التعليم «الفرنسي» ثم تطبيق الديمقراطية واقرار حقوق الأفراد بوضع دستور سنة ١٨٩٨ على النمط «الألماني» وحافظت اليابان على خاصية تاريخية هي «احترام مصلحة الجماعة مع تحقيق التوازن بينها وبين حقوق الفرد ، وحافظت على «العلمانية» التي هي نتاج الفلسفة الكونفوشية وحضارة الغرب معا . ولكن هذا التأثر الشديد بالغرب يثير غضب دعاة «الأصالة» ويرى جبران خليل جبران ود. جلال أحمدأمين أن اليابان «مسخ» لا هو شرقي ولا غربي . فهل هذا صحيح ؟ هل

الزمان وعلى غيرهم من الناس، والذين يتركونه كله أو يأخذون بعضه ويتركون بعضه الآخر هم الذين يموتون أو يخملون ويتعرضون للاستذلال والاستغلال ويطمعون الناس فى أنفسهم ووطنهم ..

«وفى الحضارة الحديثة كثير من النقائص وكثير من الآثام، ولكن الشعوب الجديرة بهذا الاسم تجد فى اصلاح هذه النقائص وهذه الآثام تنقية الحياة الانسانية من كل شائبة تنقص من قدرها » .. (٥٤) .

ترى هل ينطوى هذا القول على شىء من التناقض ؟ .. ان متابعة فكر العميد كفيلة بأن تزيل أى شك فى حقيقة ما يعنيه : فما ينبغى «أن يؤخذ كله» هو بطبيعة الحال تلك الثوابت فى الحضارة الأوروبية الحديثة التى أشرنا اليها والتى يوجزها العميد فى عبارة

فقدت اليابان = أصالتها ؟ يقول من درس التجربة فى الموقع ان كل المؤسسات العصرية حين انتقلت الى اليابان قد اصطبغت بصبغة يابانية مميزة فأصبحت منسوبة اليها بالقدر الذى تنسب فيه الى الغرب «واليابانيون يدركون هذه الحقيقة ومن ثم فهم أقل اهتماما بفكرة خطر فقدان الهوية اليابانية .. لأنهم فى الحقيقة ما زالوا يشعرون بأنهم يابانيون حتى النخاع»

(راجع الاقتباسات السابقة فى كتاب «اليابانيون» تأليف ادوين رايشارو ، ترجمة ليلى الجبالى سلسلة عالم المعرفة . الكويت ، نيسان / ابريل ١٩٨٩ وعلى العموم فإنه من الصعب ، بدون ذلك كله ، أن يحقق أى مسخ أى نجاح ا .

«حرية داخلية قوامها النظام الديمقراطى وحرية خارجية قوامها الاستقلال الصحيح ووسائل ذلك هى التى مكنت للأوطان الأوروبية أن تكون حرة فى داخلها ومستقلة فى خارجها » (٥٥) .

ذلك هو الجوهر الذى يبقى من صورة الغرب . وأما النقائص فهى الزّبد .

ولن يكون من الصعب بعد ذلك أن ندرك ما الذى يعنيه العميد حين يقترح علينا أن نسير سيرة الأوروبيين . لن يجدينا فى شىء أن ننقل «منجزات» حضارة الغرب فقد ظللنا نفعل ذلك قرابة القرنين فلم نحقق سوى القليل . ومنذ أكثر من خمسين عاما قال العميد «العلم وحده سبيلنا الى ذلك .. على أن ندرسه كما يدرسه الأوروبيون»(٥٦).

ومن أجل أن يحدث ذلك فلابد أن تحدث ثورة ، لا أقل من ثورة تقتلع طبائع الاستبداد من حياتنا ومن فكرنا . ولن تتحقق هذه الثورة الاّ اذا ما شاعت ثقافة الحرية ثم تمكنت من النفوس بحيث يتكون على أرضنا «الانسان – الفرد – الحر» فى اطار المجتمع المستقل الذى يقوده على طريق التقدم علماء ومفكرون يهيىء لهم المجتمع كل السبل لحرية البحث والتعبير ، ويضع تحت تصرفهم كل

الامكانات المادية التى تتيح لهم أن ينهضوا بعبء تلك الرسالة .

وهذا ولا شيء غيره هو موضوع «مستقبل الثقافة فى مصر» ، فمن الحق أنه كتاب عن التعليم يرسم له خطة دقيقة ومدروسة (لم تتحقق مع الأسف فى أى وقت !) ، ولكنه فى المقام الأول كتاب للانقلاب الاجتماعى . ولعل ذلك - لا الخلاف على فلسفة التعليم ولا الدعوة الى التغريب - هو ما أثار على الكتاب كل ذلك السخط عند نشره ويعد ذلك أيضا ممن يهمهم أن تترسخ طبائع الاستبداد تلك . بل ان الكتاب دعوة لانقلاب حضارى عام . فالتعليم هو الذى يشعر الفرد بواجبه وحقه (ص ١٠٤) . والديمقراطية مكلفة أن تضمن للأفراد الحرية ولكن الحرية لا تستقيم مع الجهل ولا تعايش الغفلة والغباء (ص ١٠٤) .

ذلك اذن هو الهدف الاساسى : العلم كوسيلة لحرية الفرد فى بلد ظلت ثقافته وحضارته عبر قرون تمجد ذوبان الفرد فى المجموع ولن تتحقق تلك الحرية بمجرد التخلص من الأمية ، بل لابد أن تترسخ هذه الثقافة الجديدة التى تشعر الفرد بواجبه وحقه . ومن هنا فيجب أن يكون التعليم الأساسى مستمرا حتى بعد أن يترك الدراسة الأولية من لا تمكنهم ظروفهم من اكمال التعليم وعلى الدولة

أن تكفل لهم تعليما مسائيا منتظما ، (ص ١١٢) . (وتلك فكرة ستأخذ بها منظمة اليونسكو فيما بعد وتسميها ضرورة التعليم مدى الحياة) .

ولن تتأتى ثقافة الحرية هذه الآ اذا ما أمكن اصلاح حال المعلمين المادى والنهوض بثقافتهم ، اذ لابد أن يشعر المعلم باحترام المجتمع له لكى يستقيم أن نطلب منه تلك المهمة الأساسية وهى «أن تشيع فى نفوس أبنائنا العزة والكرامة والحرية والاستقلال» ، (ص ١١٦) ولابد للنهوض بثقافة الحرية من اعتبار «القراءة الحرة نصف التعليم العام بل أكثر من نصفه ولعلها أن تفيد المتعلمين أكثر مما تفيدهم الدروس » (ص ٢١٠) . ولابد أيضا من أن يتعلّم الأطفال دينهم فى المدرسة تعليما صحيحا ، مسلمين كانوا أو أقباطا (ص ٩١ وص ٤٤٥) .

ويجب أيضا تعليم الدين الاسلامى فى المعاهد الأجنبية القائمة فى مصر شأنها شأن المعاهد المصرية الخالصة (ص ٨٦). فالاسلام دين التطور والطموح الى المثل العليا فى الحياة الروحية والمادية جميعا (ص ٤٣٩) . ويجب أن يتعلم الدارسون احترام تاريخهم الوطنى والولاء لمحور الوطنية « التى تحصرها الحدود

الجغرافية الضيقة لأرض الوطن » (ص ٩٩) . أما الجامعة فيجب أن تكون معقلا للحرية ولاستقلال البحث العلمى (ص ٩٧) .

تلك أوليات أساسية لكى يكون التعليم وسيلة لخلق ثقافة جديدة فى المجتمع ، عن طريق تغيير «التركيبة الفكرية » التقليدية وازدهار الفرد الجديد المهيأ للابتكار والابداع . وبديهى بعد ذلك أن العلم والثقافة ليسا محصورين فى المعاهد والمدارس ، فلابد أن تكون هناك مراكز مستقلة للبحث العلمى . وعلى الدولة والمجتمع واجب تشجيع المثقفين على الانتاج لا بتوفير المال فحسب ، فهناك «ما هو أعظم خطرا من المال وهو الحرية . فالأدباء عندنا ليسوا أحرارا لا بالقياس الى الدولة ولا بالقياس الى القراء» .. ولو عبر الكتّاب عن الحقيقة كما يرونها « فانتظر ما يصب عليهم الجمهور ورجال الدين وادارة الأمن العام والنيابة العامة من مكروه » ★ . (ص٤٧٤) . وقد يكون لحرية الرأى شرها أحيانا ولكن لها خيرها دائما والعميد لايشك فى أن كثيراً من الآثام الفردية والاجتماعية

★ يشكو العميد من أن كل هذه العوامل وراء قلة انتاجنا الثقافى . ويبدو أن الأمر لم يتحسن منذ سنة ١٩٢٨ حين كتب هذا الكلام . فان كان نشر الكتب معيارا للتقدم الثقافى كعامل للتقدم الاقتصادى والحضارى بصفة عامة فلنقارن هذه الأرقام عن آخر الاحصائيات المتاحة عن نشر الكتب : فى سنة ١٩٨٠ نشرت اليابان ٤٥٥٩٦ كتابا جديدا ونشرت مصر ٢١٤٢ كتابا ، وفى منتصف الثمانينات كانت هذه الأرقام هى ٤٦٦٨٦ كتابا لليابان و ١٢٧٧ لمصر . فتأمل . (المرجع : L`Etat du Monde, 1989,1990 Edition La Decoverte, paris, 1989) .

سيزول أو تخف أضراره اذا ما أتيح للأدباء أن يتناولوه بالنقد والتحليل ، كما أنه لايشك فى أن القوانين حين تتشدد فى مصادرة حرية الرأى لا تحمى الفضيلة وانمـــا تحمى الرذيلة وتخلى بينهـا وبين النفوس (ص ٤٧٥ / ٤٧٦) .

وينبغى بعد ذلك أن تتعاون كل الوسائل على نشر تلك الثقافة الرفيعة وعلى رأسها الصحافة والسينما والراديو ، وأن تكون هذه الأدوات بأيدى المثقفين «يشرفون عليها من بعيد» دون تقييد لحريتها لكي تحقق تلك الرسالة الجليلة (ص ٤٧٧) * .

كل هذا وغيره كثير مما يفصّله طه حســين فى «مستقبل الثقافة» لابد منه لكى «تشيع فى مصر روح جديدة ولكى «يعتز بها قوم أعزاء » ذلك أن لمصر فيما يرى العميد رسالة انسانية هى :

---

* قارن بين هذه الخطة المفصلة ، الطويلة الأجل والشاقة التى رأى العميد - عن حق أنها هى وحدها الكفيلة باحداث التغيير فى الأفراد والمجتمع لكى يثمر العلم الحديث فى وطننا ابداعا وتقدما فعليين ، وبين رأى رفاعة رافع الطهطاوى والقائل ان الغربيين وصلوا الى اكتشافاتهم العلمية «بالصدفة والاتفاق أو بالالهام والايحاء» . وما علينا الا أن ننقل ما توصلوا اليه لكى نجاريهم فى التقدم . وربما يكون رفاعة - ذلك الرائد المستنير ـ قد كتب ذلك تقيّة وخشية من ولى النعم أو غيره من القراء . ولكن النظرة التى ترى أننا يمكن أن نأخذ العلم الغربى الحديث ومنجزاته دون مناهجه أو «وسائله» على قول العميد لم تتقدم خطوة عن نظرية الصدفة والاتفاق . (راجع المقارنة بين آراء رفاعة وطه حسين فى : د . أحمد علبى : طه حسين رجل وفكر وعصر ـ دار الآداب ، بيروت ـ ١٩٨٥ ، ص ٤٢٠ وما بعدها .

«تحقيق التعاون الفكرى الخالص الذى يقارب بين الأمم ويلغى ما بينها من الفروق ويـــرتفع بحياتها العـقلية من ألـــوان الخصـومة وضروب النزاع » (ص ٤٨٨) .

وإذن فقد لايكون ما يريده مستقبل الثقافة فى نهاية الأمر هو أن تصبح مصر قطعة من أوروبا أو امتدادا لليونان القديمة وعصرها الذهبى أو مجدها السكندرى . بل الواقع هو أن اليونان التى شخصها طه حسين ، وصورتها الأوروبية الجديدة ، ليسا فى نهاية الأمر غير «يوتوبيا» من خلق العميد جعلها تتنكر فى هذا الثوب الهلينى الجميل . وتظل تلك اليوتوبيا التى يتخيلها أجمل بكثير من التاريخ والواقع على السواء . وهى تزداد جمالاً لأن تحقيقها أقرب منالا .

ولقد استبانت لنا بعد كل ما سبق ملامح تلك المدينة الفاضلة : ثقافة رفيعة فى المدرسة وخارجها تخلق أفرادا أقوياء وأحرارا ، يشكلون بدورهم مجتمعا قويا حرا ، قوامه النظام الديمقراطى الذى يكفل دون غيره ازدهار العلم والابتكار ، والذى يلعب فيه العلم دوره لصالح التقدم ويلعب الدين دوره الأكثر شمولا للحياة المادية والروحية معا ولكن دون أن تتدخل السياسة بين العلم والدين على أى

نحو لكى لا يطغى أحدهما على الآخر ، وبهذا وحده يمكن لهما أيضا أن يزدهرا معا .

وبفضل هذا التوازن الدقيق بين المادة والروح فستكون هذه المدينة الجديدة محصنة من «الجموح» الذى أفسد على اليونان وعلى أوروبا أمرهما . ومصر مؤهلة أكثر من غيرها بحكم تاريخها وثقافتها لأن تكون هى هذه المدينة التى لا تقوم على الاستعلاء ولا على العنصرية اللذين يأخذهما العميد على الغرب (٥٧) ، لأنها لا تريد أن تتسيد على أحد ، بل تريد أن تشيع هذه القيم فى العالم كله ليتحقق الحلم القديم ـ الجديد فى وحدة انسانية شاملة ، ولكن بدون سيف الاسكندر أو يوليوس قيصر، لأنه لن يكون فى هذه الوحدة غالب ولا مغلوب ، بل عالم يظله ـ بفضل الثقافة ـ السلم والإخاء : «لأنى أرى شجرة الثقافة المصرية باسقة قد ثبتت أصولها فى أرض ، وارتفعت فروعها فى سماء مصر ، وامتدت أغصانها فى كل وجه ، فأظلت ما حول مصر من البلاد وحملت الى أهلها ثمرات حلوة فيها ذكاء للقلوب وغذاء للعقول وقوة للأرواح » (٥٨) .

الى أى العالمين تنتمى تلك المدينة : الى الفارابى أو الى عالم الثورة الفرنسية ؟ واقع الأمر أنها لا هذه المدينة ولا تلك ولكن عقلا عبقريا وانسانيا قد مزجهما معا مزجا فريدا ليقدم لنا فى النهاية

اقتراحا واقعيا وممكنا هو بالضبط «مدينة طه حسين الفاضلة» .
فهل لنا أن نتأملها ؟

★ ★ ★

والآن فلنترك جانبا مجال التفكير النظرى ، الذى يخضع للمنطق ويتحكم فيه الوعى ، ولنحاول أن نرى كيف تصور طه حسين الغرب وعلاقته بالشرق فى عمل ابداعى يخضع لوعى مختلف ومنطق مختلف قد يكونان أعمق نفاذا .

وتحرص سوزان طه حسين فى كتابها على أن تنفى أن يكون العميد هو بطل (٥٩) «أديب» تلك الرواية الفريدة التى لا أكاد ، بل ولا أريد ، أن أقاوم الاعراب عن افتتانى بها وعن الأسف لأنها لم تلق فى تاريخنا الأدبى ما تستحق من الاهتمام ومن الذيوع . ذلك أن رسم الشخصية المحورية (أديب) ، وأحاديثه الفردية المتدفقة التى تملأ الصفحات أثناء تجواله فى القاهرة أو فى المدينة الصعيدية الصغيرة أو فى الريف فى أوائل هذا القرن هى قطع من العبقرية الروائية النادرة فى أدبنا كله . ولكن تلك قصة أخرى (٦٠). ولكى يعود الحديث الى سياقه فلنقل ان السيدة سوزان كانت محقة فى نفيها . لأنه يستحيل أن يكون ذلك الأديب المبدّد هو طه حسين الذى تتلخص شخصيته ، على العكس من ذلك ، فى «الارادة»

المصممة على قهر الضياع . غير أننا نجد فى الرواية مع ذلك الكثير من شخص العميد : نجدها أولا فى الراوى الذى يقص علينا اعترافات مباشرة عن فترة جمعه بين الدراسة الأزهرية والجامعة المصرية الوليدة ثم عن الفترة الأولى من بعثته الى فرنسا . ولكننا نجدها على مستوى أعمق من ذلك فى رؤية طه حسين المؤلف لصراع بطله (أديب) .

وعلى المستوى الظاهرى تبدو القصة كما لو كانت ذلك الصراع التقليدى فى أدبنا الروائى، صراع المثقف «الشرقى» الذي يسافر الى أوروبا من بلده المحافظ فى مواجهة القيم الغربية «المادية» والمتحررة من التقاليد ، وهو الصراع الذى ينتهى اما باستعلائه على ذلك الغرب «المادى» الخالى من الروح (عصفور من الشرق) أو بمحاولة التوفيق بين «مادية» الغرب و «روحية» الشرق (قنديل أم هاشم) ، أو بانتحاره وضياعه (٦١) . وحتى على هذا المستوى يظل لرواية طه حسين عمقها الفريد . فبطلها ليس ساذجا ولا بريئا ، بل هو قد قرأ الكثير عن الغرب وتمثّله قبل سفره ، وهو يتوقع سلفا تلك الغواية التى سيلقاها من الغرب «المتحرر» ويسلّم بها (ألا يكون هذا هو أهم أسباب طلاقه لزوجه حميدة التى لم يرد أن يظلمها بخيانته لها ؟) . كذلك فان أوروبا التى يصادفها أديب ليست هى

بالضبط أوروبا المتحررة اللاهية حسب المفهوم الشائع ، بل هى باريس المحاربة والمتجهمة التى يتهددها الغزو والموت والخراب فى الحرب العالمية الأولى . ولكن البطل رغم كل وعيه وتصوراته المسبقة، ورغم أن أوروبا التى رآها تحت وطأة الحرب تختلف كثيرا عن تلك التى تخيلها ، فان انبهاره بها يفوق انبهار السذّج والأبرياء، وهو يكتب الى صديقه معبّرا عن حاله بتلك الصورة الغريبة: «اذهب الى الأهرام .. وانفذ الى أعماق الهرم الكبير ، فستضيق فيه بالحياة وستضيق بك الحياة ، وستحس اختناقا وسيتصبب جسمك عرقا، وسيخيل اليك انك تحمل ثقل هذا البناء العظيم وأنه يكاد يهلكك، ثم اخرج من أعماق هذا الهرم واستقبل الهواء الطلق الخفيف، واعلم بعد ذلك أن الحياة في مصر هى الحياة فى أعماق الهرم، وأن الحياة في باريس هى الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق » (٦٢) ولعل أى تعليق على هذه الصورة ينقص من أبعادها المتعددة . فهل ترانا مثلا بحاجة الى الحديث عن اللقاء بالحرية أو عن ذلك الهرم ـ الرحم الذى يخرج منه البطل الى ميلاد جديد ؟

مهما يكن من شيء ، فنحن نراه بعد هذا الميلاد وقد انغمس فى حياة أوروبا حتى أصبح جزءا منها ـ أو بعبارة أصح ـ حتى تمنى

أن يصبح جزءا منها . فهو يرفض أن يغادر باريس التى التقى فيهابالحرية حين يهددها الغزو الألمانى . وهو يريد أن يكون مصيره هو مصيرها ، وسيفى بهذا العهد مهما يكلفه وان انتهى به الموت . أليست باريس هى الحضارة ؟ ألا يقول لصديقه ان الألمان لو دمروها فسيعلنون «أن عهد الحضارة والعلم والفلسفة والتفكير والفن قد آذن بزوال وأن الانسانية آن لها أن تستريح من جهدها الخصب العنيف ، وأن تعود الى هذه الراحة المجدبة التي يملؤها الذل والعقم والهوان »؟ (٦٣) .

ولكنه لا يحب فى فرنسا حضارتها وعلمها وفلسفتها فحسب ، بل هو أيضا يحب إلين تلك الفرنسية التى لا تقل عنه توترا وتهورا حتى انه ليضحى من أجلها بمستقبله وبامتحانه فى الجامعة .

فكيف يشعر أديب بعد كل ذلك «الاندفاع غربا» أن باريس تلفظ عاشقها المخلص ؟ ولماذا تهجره إلين أو يهجرها هو دون سبب واضح ؟ وما معنى تلك الهلاوس التى تلح عليه وتخيّل اليه أن الحلفاء الغربيين جميعا يكيدون له ويشنون الحرب عليه وأنهم مصممون على نفيه الى المغرب الأقصى (أى على ردّه الى الشرق وان كان شرقا اسمه «المغرب») ؟ .. أولا يكتشف فى صحوة أخيرة قبل أن يطبق

عليه الجنون الكامل أن «حميدة» التى طلقها بارادته أحنى عليه من «إلين» التى ضحى من أجلها بكل شىء ؟

عند ذلك قد يبدو أن العميد يشخّص فى هذه الرواية محنة الشرقى المنبهر بالغرب ، وقد يبدو أنه يرضى أشدّ أنصار «الأصالة» تطرفا ، لا سيما اذا ما قبلنا التفسير القائل ان «حميدة» هى ذلك الرمز الأزلى لمصر ، (فى أديب مثلما فى زقاق المدق !) وأن إلين هى أيضا رمز لفرنسا (٦٤) . ذلك أن الرواية عند هذا المستوى تظل رواية عن أزمة «الهوية» وما يجرّه «التغريب» من ضياع .

ولكن الأمر قد لا يكون بكل هذه البساطة . فذلك البطل يعى منذ البدء هويّته الحقيقية . وتلك الصفحات الطوال التى يتغنى فيها بكل شبر من أرض قريته أو مدينته الصغيرة ، ووعيه الكامل بالدفء الاجتماعى الذى تمثله علاقته بأمه وأبيه وهما يعتبران اغترابه نهاية العالم ، وتوقعه الدقيق المسبق لما سيحدث له فى الغرب ـ كل ذلك لا يسمح لنا بأن نتصور تلك المسيرة الآلية : الانبهار ، فالاندفاع ، فالسقوط بسبب أزمة «الهوية» . ولعل توتر ذلك البطل الذى خرج من فتحة الهرم الى العالم الواسع مردّه بالفعل الى صراع فى داخله نشأ بعد ذلك الميلاد الجديد ، لا لأن كفة ميزان «الغرب» قد رجحت على الشرق أو العكس ولكن بالضبط لأن الكفتين ـ أمام هذا الوعى

اليقظ ـ لم تنقطعاعن التذبذب وعن الاختلال دون أن ترجح احداهما . وبعبارة أوضح فان أديب كان يحب بلده الشرقى بكل ذرة فيه حتى انه ليكتب لصديقه من على ظهر السفينة التى حملته الى بعثته «انى لأدنو الآن من فرنسا خائفا وجلا شديد التشاؤم ، لا أنتظر خيرا ولا نجحا .. ولو طاوعت نفسى لما استقررت فى مارسيليا الا ريثما آخذ السفينة التى تردنى الى مصر» (٦٥) . وهو أيضا قد أحب فرنسا وما وجد فيها من حرية بعد أن خرج من أعماق الهرم ، ولكنه يلاحظ فى رسالة أخرى الى صديقه أن له نفسين «نفسا تأنس الى الفرنسيين وتجد اللذة فى عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجد واللهو ونفسا أخرى مشوقة أبدا ، ملتاعة أبدا ، تحب أن تسمع صوتا مصريا صادقا وأن تأمن الى قلب مصرى صادق » (٦٦) .

هنا اذن الحب الفطرى البسيط للوطن ، الذى لا يحتاج الى إعمال العقل ولا يحتاج الى أى تفسير والذى جعل البطل من قبل يحزن حزنا لعله لم يعرفه فى حياته حين اكتشف أنهم ردموا فى قريته تلك القناة التى كان يتنزه على شاطئها وهدموا الكتّاب الذى كان يتعلم فيه صبيا . وهناك أيضا منذ بداية الرواية كما ذكرنا ذلك التأكيد على الدفء الاجتماعى وترابط الأسرة والقرية والمجتمع الذى يجعل لبلده تلك السمة الانسانية المميزة .

ولكن ثنائية الوجدان لا تقتصر على الحب المزدوج لمصر ولباريس ، بل يبدو أيضا أن هناك نفورا مزدوجا منهما ، لا سيّما حين يتدخل الوعي . فهو يضيق بما في بلده من استكانة وفقدان للحرية ويقول لصديقه قبيل النهاية «لا يا سيدى ! .. ان العودة الى مصر شيء لم يقدر لى بعد . لو أنى بلغت من مقامى فى فرنسا كل ما أريد ما رضيت هذه العودة .. وبعد ، فان أمور مصر محزنة حقا» ! (٦٧) .. ثم انه لا يطيق ما فى فرنسا من جموح بلغ ذروته فى تلك الحرب التى يتحدث طويلا عن جرحاها وموتاها ، ولكنه يتوقف بشكل أطول عندما تعنيه من فقدان للروابط الانسانية ومن وحدة قاحلة :

«باريس كلها فى هذه الأيام تشبه القهوة ، يلتقى فيها الناس سراعا ويفترقون سراعا، كلهم معجل، وكلهم قلق، وكلهم يستقبل الساعة التي هو مقبل عليها غير حاسب للساعة التى تليها حسابا» (٦٨) . وفى تلك العبارة لا يتكشّف ادراكه لأزمة الحرب وحدها، بل لأزمة أعمق من ذلك بكثير فى المجتمع «الحر» الذى أحبه ـ هى أزمة تلك «الفردية» و «الحرية» حين تدفع الى مداها ، فاذا بالناس جزر منعزلة «كلهم معجل وكلهم قلق» .

ومن هذا المنظور لاتبدو الصدارة لأزمة الهوية ، بل لأزمة أبعد غورا واجهها البطل، لاتقتصر على الشرق والغرب بل تشمل الوجود الانسانى ، وتتصل بتحقيق التوازن بين تناقضات لايوجد لها حل يسير . ولكن اذا اخترنا أن ننظر الى تلك التناقضات بمعايير الشرق والغرب - وهى نظرة مشروعة فى اطار الرواية - فقد نقول ان البطل لم يستطع أن يحقق التوازن بين هذين العالمين الفاتنين معا والمعذّبين معا . فهو لم ير مثلا شأن ذلك العصفور الشهير من الشرق أن من الأفضل أن يقبل الانسان العالمين كما هما ويختار بينهما ، فيغرد أنغامه المريحة فى قفص الشرق المحكم الاغلاق مع كل الطيور الأخرى التى تكتسب الدفء والأمن من تلاصقها وتماثلها . فما أسهل ما يخلي ذلك السبيل الى الطغيان والاستبداد والى «الكل فى واحد» . والواضح أن البطل قد ظل مؤمنا بالحرية كقيمة لايمكن الاستغناء عنها . وتلك الحرية شاء أم أبى وسواء أكانت حرية كاملة أو منقوصة أو معيبة ، فانه يجدها فى الغرب ولكن بلده العزيز لم يعرفها بعد ، ولهذا تظل «أمور مصر محزنة حقا» . ومن الناحية الأخرى فهو يرى آفة الجموح فى تلك الحرية الفردية ويرى أنها حين تدفع الى مداها لا تعنى غير بيداء من الوحدة يعيش فيها

الناس فرادى ومنعزلين ومن هنا تظل حميدة - أيا كان الأمر - أحنى عليه من إلين .

وقد حيرت تلك الأزمة أديبا غربيا عظيما هو ديستويفسكى الذى أسماها التناقض بين الأخوة الانسانية الحقة وبين الحرية الفردية الحقة . وهو يقترح لها حلا «فنيا» أو «روائيا» ان جاز التعبير في شكل حوار بين الطرفين . اذ تقول الفردية للمجتمع «ان الاتحاد وحده يصنع قوتنا (ولهذا) فاننى أتنازل لك عن جميع حقوقى وأضع نفسى تحت تصرفك .. سوف أفنى نفسى فيك وأنوب رابطة الجأش شريطة أن تزدهر أنت وتبقى «فيرد المجتمع» انك تعطينا الكثير .. وما تعطينا اياه لايحـــق لنا أن نرفضه .. ولكن ما حيلتنا اذا كنا من جهتنا نعذب أنفسنا فى ســـبيل سعادتك ؟ خذى منا كل شئ أيضا . وبكل ما نملك من قوة سوف نحاول دائما ان تملكى الحـــد الأقصى من الحرية الشـــخصية ومن الاستقلال » ! (٦٩) .

ولكن هل هذا الحل السحرى ممكن حقا ؟ .. وهل كان يملكه «أديب» طه حسين حتى لو أراد ؟ ان كل ما رآه بوعيه المتوتر هو ذلك التناقض بين الشرق الذي ينوب فيه الفرد حتى ينمحى وبين الغرب الذى تتأكد فيه تلك الفردية ولكنها سرعان ما تصبح عبئا

وعذابا . وقد عجز عن أن يجد حلاً حقيقيا يطمئن اليه . ومن هنا فانه يدخل ، وكأنما باختياره ، عالما تلغى فيه المتناقضات جميعا ، ويبدو جنونه الأخير مهربا بصورة أخرى الى «سجن أبى العلاء» أى وحيدا ضد العالم .

وقد يكون هذا هو طه حسين فى أكثر لحظاته تشاؤما ، ولكنه ليس هو طه حسين الحقيقى ، ذلك المحارب العنيد . لقد رأى هو أيضا المشكلة والتناقض ولكنه لم يتهيب أن يطرح حلا . ومن هنا جاء بعد «أديب» بثلاث سنوات «مستقبل الثقافة» . ولعل الدراسة تبيّن لنا أن العميد لم يكن يريد فى مستقبل الثقافة انتقاء العناصر «الصالحة» من الشرق والغرب لتحقيق الزواج السعيد فيما بينها ، فذلك جهد مشكور ولكنه لا يفيد . ولعله يتضح لنا عندئذ أن ما كان يسعى اليه حقيقة هو «تصحيح» مسار الشرق والغرب معا ، وأنه من أجل ذلك يطرح علينا «الثقافة الانسانية» كمنهج وطريق .

المراجع

(١) **مستقبل الثقافة فى مصر** - دار الكتاب اللبنانى - بيروت (ط ١٩٨٢) ، ص ٤٩٦ .

(٢) سنغفل الكثير من كتب الهجوم والتعريض الشخصى الذى لا يرقى الى مستوى النقد (وان لم يحدّ ذلك من انتشارها وتأثيرها بطبيعة الحال) . ولكن أنظر في ذلك مثلا كاتبا جاداً هو د . جلال أحمد أمين يورد هذا الاقتباس بالذات كدليل على ما أصاب العرب في فترة ما بين الحربين من فقدان للهوية والثقة بالنفس ، المشرق العربى والغرب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، (ط ٤) - بيروت ١٩٨٣ ، ص ٣٣ و ٤١ .

(٣) Albert Hourani:ArabicThoughtin the Liberal Age1798,1939

Oxford University press. London.1960,pp.342.325

(٤) من بعيد - دار الكتاب اللبنانى - بيروت: المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين - المجلد الثانى عشر - (ط٢) - ١٩٨٣، ص ١٨٢.

(٥) أحاديث (كتاب الى الآنسة مى) ـ المرجع السابق، ص ٧٣٦.

(٦) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ـ مجموعة الأعمال الكاملة ـ المجلد الثامن (ط٢) ـ ١٩٧٥، ص ٤٣/٤٤.

(٧) المرجع السابق، ص ٤٤.

(٨) المرجع السابق، ص ٤٦.

(٩) المرجع السابق.

(١٠) المرجع السابق، ص ١١٢.

(١١) المرجع السابق، ٢٠٣.

(١٢) قادة الفكر مجموعة الأعمال الكاملة، (ط٢) ـ ١٩٧٥، ص ٢٠٧.

(١٣) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص ٥٦.

(١٤) أنور الجندى: أخطاء المنهج الغربى الوافد (دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ـ ١٩٧٤) ص ٣٢٨.

(١٥) قادة الفكر، ص ٢٠٠.

(١٦) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(١٧) المرجع السابق، ص ٢٧٨.

(١٨) المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(١٩) المرجع السابق، ٢٦٧.

(٢٠) المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٢١) المرجع السابق. ص٢٣٠.

(٢٢) من بعيد، ص ١٥٣.

(٢٣) المرجع السابق.

(٢٤) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢٥) قادة الفكر، ص ٢٨٢.

(٢٦) رحلة الربيع (ضمن رحلة الربيع والصيف) ـ دار العلم للملايين ـ بيروت، (ط١٠) ـ ص ٧ ـ ٩.

(٢٧) المرجع السابق، ص ١٢.

(٢٨) قادة الفكر، ص ١٩٦.

(٢٩) أوديب ـ ثيسيوس ـ دار العلم للملايين، بيروت، (ط٤) ـ ١٩٨٠، ص١٥.

(٣٠) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٣١) قادة الفكر، ص ٢٠٤.

(٣٢) نظام الأثينيين ـ مجموعة الأعمال الكاملة ـ المجلد الثامن (ط٢)، ١٩٧٥ ـ ص ٣١٧.

(٣٣) المرجع السابق، ص٣١٨.

(٣٤) المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(٣٥) رحلة الربيع، ص ١٦.

(٣٦) قادة الفكر، ص ٢٧٨.

(٣٧) المرجع السابق، ص ٢٧٩.

(٣٨) المرجع السابق. ص ٢٨٢.

(٣٩) من بعيد، ص ١٧١.

(٤٠) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص ١٠٩.

(٤١) من بعيد، ص ١٦٦.

(٤٢) المرجع السابق، ص ١٦١.

(٤٣) المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٤٤) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٤٥) د . جابر عصفور ـ المرايا المتجاورة: دراسة فى نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٣ ـ ص٢٤٧.

(٤٦) من بعيد، ص ١٨٢.

(٤٧) تقليد وتجديد ـ دار العلم للملايين ـ بيرت (ط٣) ـ ١٩٨٤، ص ٥٦.

(٤٨) كلمات، دار العلم للملايين ـ بيروت (ط٤) ـ ١٩٨٢، ص ١١٣/١١٢.

(٤٩) تقليد وتجديد، ص٥٥.

(٥٠) كلمات، ص ١١٤.

(٥١) من بعيد، ص ١٦٨/١٦٧.

(٥٢) المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٥٣) مستقبل الثقافة، ص ٦٤.

(٥٤) من أدبنا المعاصر ـ مجموعة الأعمال الكاملة ـ (ط٢) ـ ١٩٨٣، ص ٢٥٥.

(٥٥) مستقبل الثقافة، ص ٥٩.

(٥٦) من بعيد، ص ١٨٢.

(٥٧) ألوان ـ دار المعارف، القاهرة (طه ـ د ٠ ت ٠ ن) ، ص ٣٠٨.

(٥٨) مستقبل الثقافة، ص ٤٩٥.

(٥٩) سوزان طه حسين: معك (ترجمة بدر الدين عرودكى) ـ دار المعارف، القاهرة (د ٠ ت ٠ ن)، ص٢٩٤.

(٦٠) د . حمدى السكوت و د . مارسدن جونز: أعلام الأدب المعاصر فى مصر: طه حسين قسم النشر بالجامعة الأمريكية ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ ـ ص ٤٢ و٥١.

(٦١) راجع تحليلا مفصلا لهذه الاتجاهات النمطية فى الأدب المصرى عن علاقة الشرق بالغرب فى دراسة لباحثة نرويجية:
Gunvor Mejdell: The Image of Europe in Eguptian Literature, in Egypt under pressure, Scandinivian Institute of African Studies, Upsala, Sweden, (1986) P. 96 etseq.

(٦٢) أديب (ضمن الأعمال الكاملة ـ المجلد الثالث عشر (ط٢) ١٩٨٣ ـ ص ٦٢٦.

(٦٣) المرجع السابق، ٦٢٩.

(٦٤) يتساءل الدكتور أنور لوقا ان كان يمكننا أن نقبل هذه الرمزية المباشرة في:

Anwar Louca: Taha Hussein and the west (in Cultures, vol.II, no.2, The Unesco press and La Baconniere, Paris) ۱۳۳, - ۱۲۱ pp.

(٦٥) أديب، ص ٦٢٧.

(٦٦) المرجع السابق، ص ٦٤٢.

(٦٧) المرجع السابق، ص ٦٣٣.

(٦٨) دستويفسكي: ذكريات شتاء عن مشاعر صيف: ضمن الأعمال الكاملة لديستويفسكي ترجمة: د . سامي الدروبي (جـ ٦) ـ الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة (د . ت . ن) ص٣٨٩.

لماذا يكرهنا الغرب؟

أذكر فى صباى أننى كنت مثابرا على قراءة موضوع يتكرر فى صحفنا كل حين. كان كتاب وصحفيون مرموقون يوالوننا بمقالات عن جهل الأوروبيين بنا: فهم يتصورون القاهرة واحة صحراوية وسيلة التنقل فيها هى الجمال، تلعب فى نيلها الخالد التماسيح وتمرح، وتقوم على شاطئيه بيوت طينية تلزمها (حريم) لا يخرجن، خاضعات لسلطة رجال جهلة وجبارين. وكان كتابنا يتحسرون - وأنا معهم - لأن الغربيين لا يعرفون أن فى القاهرة شارع سليمان وأننا نركب السيارات لاالجمال وأن بناتنا يدخلن الجامعات ويعملن طبيبات ومهندسات، فضلا عما لدينا من عجائب عصرية كثيرة. وكان الانطباع هو أنه لو تم تصحيح غلطة صغيرة فى أذهان الأوروبيين عنا - سببها جهلهم بنا لا غير - لأصبحت الأمور بيننا وبينهم على ما يرام، ولخرج الانجليز من مصر معتذرين لاحتلالهم بلدا بمثل هذا الرقى والتقدم!

ثم مرت السنون، وحدثت فى بلادنا ثورة أخرجت الانجليز، برغمهم، وأصبح العالم كله بفضل التليفزيون والسياحة وغيرهما قرية صغيرة يمكن للشخص العادى أن يعرف صورة وحقيقة كل جزء منها بدون جهد تقريبا. ومع ذلك فإن الصورة لم تتغير إلا قليلا، ومنذ شهور قرأت مقالا للأديب الأستاذ شفيق مقار يغلى بالغضب لأن صحفية انجليزية كتبت عنا حشدا من الأكاذيب، أبسط ما فيه أننا ننقل الوقود لتشغيل أجهزة الكمبيوتر فى بنوك وسط القاهرة على ظهور الحمير. وإذن فالمسألة ليست مسألة جهل برىء، ولكنها كذب سافر ومتعمد كما أشار إلى ذلك شفيق مقار فى كلمته. ومع أننى قدرت غضبه كثيرا، إلا أن ما استوقفنى حقا هو السؤال الذى ختم به مقاله القصير: «لماذا»؟

سنطرح جانبا، وإن دخل ذلك فى الموضوع، أن تلك المقالات القديمة وبعض الكتابات الحديثة تنطوى على افتراض غريب، وهو أننا يجب أن (نبرىء) أنفسنا أمام (محكمة) الغرب. وأن ما يهم فى عيوبنا ـ الحقيقة والمدعاة ـ ليس وجودها فى ذاته ولكن أنها تنتقص منا فى أعين الغربيين. ويتجلى ذلك أوضح ما يكون فى رسائل الاحتجاج التى يكتبها بعض القراء للصحف (وأحيانا بعض الصحفيين) يستنكرون فيها وجود القمامة أو غيرها مما يؤذى العين والمشاعر فى الأماكن التى يتردد عليها السياح. كأنما تلك البلايا

ليست رديئة فى ذاتها وينبغى فى المقام الأول حماية (المواطن) منها: كأن السائح الغربى، لا المواطن، هو الأجدر بالرعاية على أرض الوطن. ولكن تلك عقدة قديمة العهد. وكل ذلك الاستخذاء أمام الغرب ومحاولة استرضائه وتحسين صورتنا فى عينيه يمكن فهمه فى سياق الاحتلال والاستعمار الطويل العهد، وإن كان يتعذر تبريره إذا ما ساد مناخ الثقافة الوطنية المستقلة. ذلك فى صلب الموضوع كما قلت ولكن يكفى التلميح إليه لننتقل إلى السؤال المطروح: لماذا يتعمدون فى الغرب الإساءة إلينا وتشويه صورتنا فى وسائل إعلامهم.

ليس لذلك بطبيعة الحال غير اسم واحد هو: العنصرية. وفى الفكر العنصرى السائد فى أوروبا يحظى العرب بنصيب الأسد من الهجوم والتشويه والإهانة، ولكن غيرهم لا ينجون أيضا. فالأفارقة والآسيويون وأبناء العالم الثالث ككل يعانون من تلك العنصرية المقيتة التى زعم الغرب أنه كان يحاربها حين حارب هتلر. والتفسير بسيط أيضا ـ فلكى تستغل الآخرين وضميرك مرتاح فأنت لا تستطيع أن تستغل أندادا لك، ولهذا ينبغى أن يظل أبناء العالم الثالث، موضع الاستغلال، فى مكان أدنى فى سلم البشرية، وهكذا تأتى العنصرية لتحل الإشكال وتقدم المبرر.

والنماذج بطبيعة الحال لا حصر لها، ويعيشها يوميا من قدرت له الحياة فى الغرب. وكان آخر مثال صارخ على تلك العنصرية ما جاء فى صحيفة (صن) البريطانية حين نشرت كاريكاتيرا تصف فيه العرب بأنهم خنازير، وأعقبته بكاريكاتير آخر يمثل مظاهرة للخنازير تحتج على تشبيهها بالعرب. وفى صحف فرنسا وغيرها من البلدان الغربية ترد أيضا إهانات متكررة للعرب. وهناك حزب شهير فى فرنسا (الجبهة الوطنية) أهم بنود برنامجه طرد الأجانب (والعرب خاصة) من أرض الحرية والإخاء والمساواة. ولهذا الحزب أشباه ونظائر فى كل بلد غربى: حزب وطنى فى انجلترا وحزب (اليقظة) فى سويسرا وغيرهما كثير. وكل تلك أحزاب أقلية فى واقع الأمر، ولكن نفوذها قوى وهى تكسب فى كل انتخابات أنصارا أكثر ومزيدا من النواب فى البرلمانات. ولعل نقطة ضعفها (وقوتها فى الوقت نفسه) أنها تعلن صراحة ما تسره أحزاب كبيرة ترفع أنبل الشعارات الإنسانية والإخائية ولكنها تطبق عند وصولها إلى الحكم نفس ما تنادى به الأحزاب العنصرية.

ولكن بعض المصريين يمنون أنفسهم بأن ذلك لا يعنينا. إننا فى النهاية نختلف عن العرب الآخرين وننتسب إلى الأمم (المتحضرة!!)

فى المنطقة والعالم. لا بأس. إذن فإلى هؤلاء أهدى تلك العبارات التى وردت فى مجلة (اسبريسو) الايطالية الشهيرة فى مقابلة أجرتها مع خبير استراتيجى ومؤرخ أمريكى يدعى إدوارد لوتواك «البحر الأبيض المتوسط فاصل بين حضارتين... وأمامكم فى جنوب أوروبا بديل واحد... إما أن تغلقوا حدودكم مع العرب بشكل كامل أو أن تستسلموا على أساس الأمر الواقع أمام القرصنة الجديدة... عليكم أن تراقبوا بشدة كل تحركات العرب دون استثناء... عليكم ألا تعتبروا مثلا حامل الجواز المصرى وكأنه مواطن من الدانمارك... عليكم أن تناضلوا ضد القراصنة الجدد ـ العرب ـ وألا تسمحوا لهم بحرية حركة واحدة على أراضيكم كما فعلت دوقية توسكانا وانجلترا .. (فى العصور الوسطى). ويكفى هذا الجزء من الحديث الطويل والمعبر للغاية. ولمن شاء أن يرجع الى تفاصيله أن يقرأ صحيفة (الرأى) الأردنية عدد ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٨٦. كل ما يهم أن نكرر أن هناك عداء للعرب وللمصريين باعتبارهم عربا ـ شاء البعض ذلك أو أبوا ـ وأن ذلك جزء من حملة عنصرية عامة ضد العالم غير الأوروبى. أما لماذا العرب بالذات فإن لذلك أسبابا كثيرة منها البترول ومنها القرب والجوار فى البحر

الأبيض المتوسط (الفاصل الآن بين حضارتين لا الواصل بينهما كما كان طول التاريخ) ومنها قوة إعلام أعدائنا التاريخيين المتغلغل في كل مكان ومنها أننا كأمة قد اعترانا مؤخرا الوهن والتفكك ففقدنا القدرة على إقناع أنفسنا ناهيك بغيرنا.

غير أن هناك سببا آخر وأهم لسنا مسئولين عنه بأية حال. وكان اكتشافي لهذا السبب يحتاج إلى لقاء مع العبقرية لا أقل. وصدفة محضة هى التى جعلتنى أقرأ بعد مقال شفيق مقار كتابا لعملاق الرواية ديستويفسكى بعنوان «مذكرات شتاء عن رحلة صيف». وفى هذا الكتاب غير الروائى، يسجل ديستويفسكى تجربة أول رحلة قام بها الى غرب أوروبا. كان فى أوج نضجه وقد تجاوز الأربعين. لم يكن قد كتب بعد «الجريمة والعقاب» أو «الإخوة كرامازف» ولكنك تستطيع أن تجد بعض الأصول الفكرية لهذين العملين الفذين فى كتاب «رحلة شتاء» الذى ترجمه الراحل الكبير د. سامى الدروبى. ورغم مرور أكثر من مائة عام على تأليف هذا الكتاب فقد أذهلنى وأنا أقرأه أن أجد كل ملاحظات ديستويفسكى عن الغرب حية وصحيحة إلى اليوم: برغم الثورات والديمقراطيات والاشتراكيات. وهو يتساءل فى كتابه عن العلة التى يعانى منها

الغرب. يلاحظ التوتر والصراع ويسأل ممَّ يخاف الغربى وقد دانت له الدنيا؟.. استعمر البلدان وكدس الأموال وحقق بالعلم منجزات تفوق الأحلام. فمم يخاف هذا الغربى وهو الذى أرهب الشعوب الأخرى؟ يقول ديستويفسكى «كان (الغربى) يحس بأن له أعداء انتصر عليهم... حتى إذا ما انتهت المعركة لاحظ أنه وحده على الأرض وأنه ليس هناك من هو أحسن منه وأنه المثل الأعلى.... ولكنه يدفع ثمن هذا الازدهار وهذا الرخاء غاليا، فهو يخشى كل شىء لا لسبب إلا لأنه وصل إلى كل شىء فمتى وصل المرء الى كل شىء أصبح يخاف أن يفقد كل شىء».

ويتحدث ديستويفسكى عن المخارج التى حاولها الغربى لتجاوز هذا المأزق. فهو قد رفع فى أول الأمر شعارات الحرية والإخاء والمساواة. ولكنه وجد عند التطبيق أن ممارسة الحرية، بمعنى أن يفعل كل انسان ما يحلوا له فى حدود القانون يحتاج منه أن يمتلك مليونا لا أقل. ولكن الحرية لا تهب مليونا لجميع الناس. ومن لا يمتلكها لا يفعل ما يحلو له وإنما يفعل به من يمتلكون المليون ما يحلو لهم. ويترتب على عدم المساواة فى الحرية انتقاء المبدأ الثانى ذاته بطبيعة الحال، أى المساواة ذاتها فماذا عن الأخوة؟ يقول

ديستويفسكى «إن الغربى يفهم الأخوة باعتبارها قوة كبيرة محركة للإنسانية دون أن يخطر بباله أنه لا يستطاع أخذها من أى مكان إذا هى لم توجد فى الواقع». بعبارة أخرى فإن الأخوة تعنى نوعا من التضحية من أجل الأخرى، طواعية ودون إلزام. ولكن أساس الحضارة الغربية هو الفردية. تأكيد الذات فى مقابل الطبيعة كلها والمجتمع كله، باعتبار الفرد عنصرا مستقلا ومتميزا يساوى تماما ويعادل كل ما يوجد خارجه. ولا يمكن أن تنشأ الأخوة من تعارض كهذا التعارض.

ويتساءل ديستويفسكى بعد ذلك إذن فهل يكون الحل هو فى تغيير «كيف» الحضارة الغربية، بتحولها إلى الاشتراكية مثلا؟... ويقول ان الاشتراكى (الغربى) إذ يرى الأخوة غير موجودة يأخذ ينادى بها ويدعو لها . غير أنه «من أجل أن تطبخ طبخة بلحم الأرنب فلابد أولا من أرنب. ولكن الأرنب غير موجود. أعنى أنه لا وجود لطبيعة مؤهلة للأخوة».. وذلك بسبب التعارض الأساسى بين الفردية والأخوة على نحو ما شرح من قبل.

وهنا سنعود إلى موضوعنا ونتساءل، هل يلقى ذلك التفسير ضوءا على الموضوع الذى يشغلنا؟.. هل يكون مرد العنصرية هو

الخوف، ومرد الخوف هو الحرص على الامتياز، ومرجع ذلك كله الى مبدأ الفردية الذى شكل أساس الحضارة الغربية بشرقها وغربها؟.. ولن يفوتنا هنا أن نشير الى أن الاشتراكية فى أوروبا ـ حين طبقت بعد موت ديستويفسكى بعشرات السنين ـ لم تفلح كثيرا فى اقتلاع العنصرية. لا توجد فى بلدان أوروبا (الاشتراكية) تعبيرات منشورة وصريحة عن تلك العنصرية مثلما هو الحال فى غيرها من البلدان الأوروبية. ولكن كل عربى أو أفريقى عاش فترة تسمح له بتكوين الحكم قد يلاحظ تلك العنصرية على مستوى العلاقات اليومية. وما زلت أذكر ما قرأته فى الأهرام، عام ١٩٦٨، عن مظاهرة قام بها الطلاب فى جامعة براغ (الاشتراكية) ضد زملائهم من الأفريقيين الذين يدرسون هناك وهم يهتفون كما نقل الأهرام فى حينها « عودوا إلى غاباتكم أيها القرود»![*]

---

[*] كتب هذا المقال ونشر فى صحيفة الأهرام فى سنة ١٩٨٦، أى قبل سقوط تلك الأنظمة، وما حدث بعد سقوطها من تفجر العنصرية يفوق ذلك بكثير!

قد يكون ديستويفسكى على حق!

ولكن لكى لا نكون متشائمين فلنقل إن الصورة ليست بهذه القتامة. فهناك فى كل البلاد الأوروبية جماعات وأحزاب معارضة للعنصرية تدافع عن حقوق العالم الثالث. وإذا جاز تقدير نسبة هؤلاء بعدد أعضاء الأحزاب التى ترفع شعار معاداة العنصرية فسوف أقدرهم مع كثير من التسامح بنسبة تتراوح بين ١٠ و٢٠ فى المائة فى بلدان الغرب. وما دام صوت تلك الجماعات خافتا وضعيفا إلى هذا الحد فان الواجب يفرض علينا أن نكون نحن الفاعلين.

وما يجب أن نفعله لن يكون القصد منه أن نحسن صورتنا فى أعين الغرب أو أن نسترضيه ولكن أن نحارب العنصرية الغربية بمضامينها السياسية والاقتصادية التى تؤثر علينا. ولا يعنى ذلك بحال من الأحوال أن ندير ظهورنا للغرب أو أن نقاطعه. فنحن ـ أعنى العالم الثالث كله ـ الذى يتحتم عليه أن يعيش فى مواجهة وتعارض مع الغرب لا نستطيع أن نغلق الباب دونه وإلا كنا نحن الخاسرين. أقصد بذلك على وجه التحديد حضارة الغرب وعلمه. حتم علينا أن نعيش هذه المعادلة المتناقضة من المواجهة والاتصال إن كنا نريد أن نتقدم بالفعل.

فمن ذكريات صباى أيضا أننى كنت أشاهد فى الأفلام الأمريكية صورة رديئة جدا للآسيويين فى الشرق الأقصى: أى للصينيين واليابانيين. كانوا يظهرون كمدمنين للمخدرات متوحشين ولكنهم خانعون أمام الرجل الأبيض، أمام الأوروبى المتفوق. أما اليوم - فمن بين شعوب العالم الثالث كله لا يحظى باحترام الغرب وتودده إليه أكثر من اليابان الرأسمالية والصين الشيوعية. عرف كل من البلدين على طريقته كيف يجابه الغرب وكيف يأخذ منه، وحين وجد طريق خلاصه فقد شفى الغرب من عنصريته.

وحين نعرف نحن كيف نحقق تلك المعادلة عليطريقتنافسنشف أنفسنا والغرب معا.

الاستغناء عن الثقافة !

في سالف العصر والأوان قال أفلاطون:

«إذا ظهر في جمهوريتنا شاعر بارع فسوف ننحني له تبجيلا واحتراما، وكأنه كائن مقدس رفيع.. سنسكب على وجهه العطور ونزين جبينه بالأكاليل.. ولكننا سنقول له بعد ذلك: إننا لا نحتاج إلى أمثاله.. ثم نرحله إلى دولة أخرى»!

وهكذا كان الفيلسوف اليوناني العظيم ينظر إلى الشعر والأدب. كان من رأيه أن الشعراء والأدباء يقلقون استقرار الجمهورية الفاضلة التي حلم بإنشائها وهم يفعلون هذا حقيقة!.. إذ إنهم يرفضون السكون والجمود ويتطلعون دائما إلى التغيير نحو الأفضل. ولكن أفلاطون كان يريد جمهوريته المثلى راسخة لا يصيبها التعديل والتبديل. وربما كان هذا هو السبب في أن تلك الجمهورية الفاضلة لم تقم لها قائمة على مدى التاريخ .

الحياة ترفض الجمود - ومتى أقصينا الشعراء الساعين إلى تغييرها فنحن كمن يحاول ان يكبل بالأغلال تلك الحياة الطليقة

بطبعها. غير أننا ـ نحن بالذات ـ قد نجحنا بكل أسف فى أن نطبق أسوأ وصايا أفلاطون! منذ سنوات طويلة ونحن نتكلم عن الثقافة (نظريا) بكل احترام، ولكننا نضعها فى الحقيقة على هامش حياتنا. لسبب ما فقدت الثقافة وظيفتها كدعوة للتقدم بالمجتمع، وأصبحت مجرد حلية وزينة ولهذا فمن الطبيعى جدا أن يتقدم العالم من حولنا شرقا وغربابخطوات لاهثة من اليابان مرورا بأوروبا إلى أمريكا، وأن نتلكأ نحن (فى أحسن الحالات) فى مشاكل القرن التاسع عشر.

وما يبعث على الحزن حقا هو أننا كنا قد بدأنا الطريق الصحيح. منذ بدأت صحوتنا الحديثة كانت الثقافة فى قلب الحوار. تأمل مثلا ما أحدثه مثقفونا من تغيير فى المجتمع منذ رفاعة الطهطاوى وحتى طه حسين. فلنقرأ فى تاريخ (الجبرتى) كيف كانت صورة حياتنا قبل أن يأتى دعاة التحضر والاستنارة من المثقفين. فلنقرأ عن صور الجهل الفادح والاستبداد المروع والمجاعات التى جعلت الناس يأكل بعضهم بعضا (بالفعل لا بالمجاز!). فان كنا لا نحب قراءة التاريخ الصرف فلنقرأ رواية جمال الغيطانى «الزينى بركات» كوثيقة تاريخية إلى جانب متعتها

الادبية الكبيرة لنتعرف على وجه الحياة المستحيل فى ذلك العصر.
لقد كان من أبسط الأمور قاطبة أن يصدر الحاكم أمرا على أى مخالف له بان «يخوزق ويوسط»: أى أن يشك جسده فى خازوق من الحديد ثم يضرب وسطه بالسيف. وتظل جثته معلقة على باب زويلة حتى تجيف (تصبح جيفة) وتنتن!

ولهذا فعندما سافر رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا فى أول بعثة أرسلها محمد على أذهله ما نعانيه من تخلف وهو ينظر حوله ويقارن حالنا بالعالم المتحضر. وفى سنة ١٨٣٤ (انظر كيف أنه تاريخ قريب) نشر سفره العظيم «تخليص الإبريز» مقدما لمواطنيه لأول مرة هذه الحضارة الحديثة.

بدأ رفاعة بأبسط الأشياء مثل الصحيفة التى تمسك بها كل صباح بين يديك. وها هو يشرح للمصريين بلغة العصر تلك «التذاكر اليومية المسماة بالجرنالات جمع جرنال (كذا!).. وهى ورقات تطبع كل يوم وتذكر بكل ما وصل إليهم علمه(...) وهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها وأن تستحسن وتستقبح ما تراه... وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة. فلها حرية تامة ما لم تضر بذلك». وانتقل رفاعة من البسيط إلى الخطير

فحدث الناس عن أشياء أخرى كانوا يسمعونها للمرة الأولى مثل الدستور والبرلمان فقد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد... (و) انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم»!...

هكذا تكلم رفاعة، أشار للمصريين إلى طريق التغيير نحو الأفضل فتوجهت حركتهم فى هذا الطريق. وإذا كنا نتكلم عنه كرمز فلأنه وضع الأساس الفكرى لحركة التحضر واللحاق بالعصر. ولكن جيل الرفاعيين يضم أيضا أولئك المثقفين العظام الذين أسسوا لمصر لأول مرة مدرسة الطب والمهندسخانة ومدرسة الحقوق.. إلخ. ويضم أيضا جهدا لا يقل عن ذلك كله أهمية ـ وإن تأخر قليلا ـ وهو شعر محمود سامى البارودى. فحين خلص البارودى الشعر العربى الذى تدنى من مجده الغابر إلى ركاكة البديع وتفاهة المواضيع فقد كان يرمز إلى نقلة جديدة فى الفكر المصرى ويبشر بهذه النقلة. كان يضع أساسا لأدب يخاطب العصر مضمونه وشكله، وبلغ ذلك ذروته فيما بعد على يد شوقى وحافظ.

ولكن شعر شوقى وحافظ وجيلهما ينتمى إلى مرحلة أخرى من

مسار الثقافة المصرية الذى نتابعه فى خطوطه العريضة ونبحث عن رسالته الفكرية سواء أتت من خلال الشعر أو القصة أو المقال. كانت المرحلة الأولى ـ مرحلة رفاعة ـ هى الصحوة وإزالة الركام، وكان محور المرحلة الثانية هو الاستقلال. الخروج من التبعية الاقتصادية لأوروبا فى مرحلة العرابيين، ثم السعى بعد ذلك للتخلص من الاحتلال ومن الاستغلال الاستعمارى. تلك هى رسالة عبدالله النديم والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وشوقى وحافظ والدكتور هيكل وطه حسين. تراوحت أدوار المثقفين فى هذين الجيلين من التحريض الثورى شعرا ونثرا، إلى محاولة التأصيل الفكرى لهويتنا ولحقنا فى الاستقلال وجدارتنا به.

ومن هنا كان جهد الشيخ محمد عبده فى جلاء تراثنا الاسلامى الجليل والكشف عما فيه من قيم باقية وخالدة تواكب التطور مع العصر بل وتحض على هذا التطور.. وفعل الشىء نفسه ـ كل على طريقته ـ د . هيكل والعقاد وطه حسين فيما وضعوه من تاريخ حديث للتراث الاسلامى الزاهر. وينتمى طه حسين بكتبه عن التاريخ الاسلامى إلى هذه المرحلة، ويمثل أيضا حلقة وصل مع مرحلة جديدة فى الثقافة المصرية تضم المرحلتين السابقتين (اللحاق بحضارة العصر والاستقلال عن أوروبا). ولكنها تضيف إلى

المشروع المصرى بعدا جديدا قدر له أن يستمر لعشرات السنين وهو السعى إلى الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. فتلك هى المرحلة التى التفت فيها الكتاب إلى الواقع الاجتماعى وخاضوا معركة إلى جانب معركة الاستقلال. وتتوزع مؤلفات كبار كتابنا من ثلاثينيات هذا القرن ولعشرات السنين بين هذين المحورين (انظر مثلا نجيب محفوظ فى أعماله الأولى: الفرعونية، التى تدعو إلى الاستقلال، والواقعية التى كرسها لفضح الفساد السياسى والظلم الاجتماعى) وستستمر هذه الثنائية نفسها فى مضمون اعمال يوسف ادريس وعبدالرحمن الشرقاوى وغيرهما من الكتاب خلال السنوات الأولى من ثورة يوليو فى معاركها من أجل الاستقلال.

فى كل تلك المرحلة كان الأدب فى قلب قضايا العصر. وكان الأدباء بأقلامهم طليعة الدعوة إلى التغيير والتقدم. دفعوا من أجل ذلك ثمنا كبيرا، ولكن رسالتهم كانت تصل فى النهاية. فحين جاء عباس باشا الأول حاكم مصر بعد محمد على حاول أن يوقف مسيرة التغيير، لأن «الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم» على حد ما تلخصت فلسفته. وهكذا فقد أغلق المدارس التى فتحها رفاعة وصحبه، ثم نفى هذا الرائد العظيم إلى السودان مثلما شرد رفاقه من دعاة التنوير والتحضر ـ وفى مرحلة للكفاح

من أجل الاستقلال، وبعد الثورة العرابية، طلب الخديو الخائن توفيق رأس عبدالله النديم خطيب الثورة وكاتبها فهرب النديم واحتضنه الشعب سنوات طويلة، أما محمد عبده فنفذ حكم النفى لسنوات، وفى تاريخ لاحق نفى الانجليز شوقى من مصر. وفى مرحلة الدعوة إلى الديمقراطية دخل العقاد السجن مرة وطرد طه حسين من مناصبه مرات. ومن أجل الدعوة إلى العدالة الاجتماعية دخل معظم الكتاب السجن. ولم تنج نجيب محفوظ إلا رحمة ربك. فلو التفت الرقيب فى العصر الملكى إلى المضمون الثورى لأعمال مثل: بداية ونهاية أو زقاق المدق لكان قد رسف مع زملائه فى الأغلال.

ومع هذا الثمن الذى دفعه أصحاب الأقلام فقد كانت رسالة الأدب تصل إلى جوهر المطلب الوطنى وتقود الخطى إلى التغيير والتقدم طوال العصور. غير انك لا تستطيع بعد ذلك ـ مع الأسف ـ أن تتحدث عن اتصال المسيرة. إذ فجأة حدث انقطاع. ولم يعد الحوار بين الأدب والمجتمع قائما. وتستطيع أن تحدد فترة ما، ربما هى النصف الأخير من الستينيات ومطلع السبعينيات، بدأت بعدها تلك الفجوة بين الكاتب وجمهوره.

ترى ما حدث؟.. هل قصر الأدباء عن أداء رسالتهم؟.. ألم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على المطلب الحقيقى لمجتمعهم ويتصدوا له مثلما فعل اسلافهم العظام ؟ ... هل افتقد الكتاب القدرة والموهبة ؟ أم أنها (الدكتاتورية) الناصرية التى يتشدق بها البعض كعلة لكل معلول ؟ ... أو هى النكسة التى أصبحت بدورها مشجبا نعلق عليه كل خطأ وكل تقصير ؟ ... أو تراه التليفزيون الذى سحب البساط من الكلمة المكتوبة ؟ ...

لقد حاولت أن احصر كل التبريرات الممكنة لتلك الفجوة ، ولكن واحدا منها لا يقدم الرد ولا كلها مجتمعة . ثمة شىء بالفعل قد حدث، ولكنه يختلف كل الاختلاف عن هذه المقولات الجاهزة .

فلننظر أولا إلى ذلك الأدب الذى نتحدث عنه ، ولنحاول أيضا أن نصل إلى جوهر الخطاب الذى تضمنه . وبداية فقد عرف هذا الأدب باسم أدب الستينيات ، وهى تسمية لا تدل على شىء . وكان القصد منها فى وقت من الأوقات ـ إلى جانب الحديث عن أدب الشباب والأدباء الشباب ـ هو حصر هذا الأدب وعزله عن جمهوره الطبيعى كما سيتضح فيما يلى . ولكنك إذا ما تركت التقسيمات المصطنعة حسب الأجيال . إذا مارفضت تجميد الأدب فى

تصنيفات شكلية لاتعنى شيئا فسترى انه قد كانت هناك فى تلك السنوات حركة أدبية زاخرة تضم فى الشعر صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى وأمل دنقل وصلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودى وفاروق شوشة ومحمد عفيفى مطر ... إلخ ، وتضم فى القصة أدوار الخراط وصنع الله إبراهيم وجمال الغيطانى ويحيى الطاهر عبد الله وسليمان فياض وعبد الحكيم قاسم وجميل عطية وإبراهيم اصلان ... إلخ ، وفى المسرح الفريد فرج ومحمود دياب وعلى سالم إلخ ،وفى النقد الأدبى إبراهيم فتحى وصبرى حافظ ورجاء النقاش وجلال العشرى وسامى خشبة وفاروق عبد القادر ... إلخ . وكان هؤلاء المبدعون ، وغيرهم كثير ممن لم اذكر ، يواصلون باقتدار وكفاءة تلك المسيرة الثقافية التى تناقلتها الأجيال من أيام رفاعة . فقد كان ثمة إدراك أو نداء اجتماعى مستمر يقول إن الاستقلال والعدالة الاجتماعية ليسا غايتين في ذاتهما ، بل هما وسيلتان لهدف اسمي : تحقيق كرامة الفرد وحريته . وكان هذا النداء بالضبط هو محور الخطاب فى أعمال الحركة الأدبية التى حملت أمانة التعبير الأدبى فى الستينيات .

واستطاع هؤلاء المبدعون من خلال حوار وصراع متصلين مع

السلطة الوطنية في الستينيات ان يحققوا شيئا . كانوا في بعض الأحيان يبعدون أو يصادرون وفي أحيان أخرى تفتح لهم منابر التعبير على مصاريعها ، ولكنهم تمكنوا على أية حال من الوصول إلى الجمهور بواسطة المسرح والثقافة الجماهيرية ، وكذلك المجلات والصفحات الأدبية والثقافية التى كان يشرف عليها مثقفون حقيقيون مثل يحيى حقى وعبد الفتاح الجمل . ولكن في مطلع السبيعينيات تغير وضع الثقافة في مصر تغيرا فادحا ، ودفعنا كمجتمع ثمنا افدح لهذا التغيير .

ولقد عاصرت بالمصادفة قصة هى أبلغ ما تكون دلالة على ذلك التغيير . ففى عام ١٩٧١ كنت عضوا في المكتب الفنى للمسرح القومى ، وكانت البروفة النهائية لمسرحية محمود دياب الرائعة . «باب الفتوح» على وشك الانتهاء عندما صدر أمر مفاجىء بوقف عرضها . وفعل محمود دياب رحمه الله كل ما استطاعه لكى ترى مسرحيته النور . ذهب لمقابلة الوزير المختص ثم عاد ليقول لى وهو بين الضحك والبكاء إن الوزير أبلغه بأن السبب في وقف عرض المسرحية هو انها تهاجم عبد الناصر ! .. واما المضحك المبكى فهو أن ذلك لم يكن صحيحا ، وان العهد الذى كان يمثله الوزير ـ عهد

السادات ـ لم يكن الهجوم على عبد الناصر يغضبه فى شىء، لأنه كان منهمكا فى هذا الهجوم بالذات .

وفى محاولة أخرى ذهب محمود دياب إلى رئيس هيئة المسرح . وانتظر مقابلته عند مدير مكتبه .. ودخل هذا الرئيس وكان ضعيف الإبصار فلم يلحظ وجود محمود ولكنه سمع مدير مكتبه يقول إن مؤلف باب الفتوح يريد أن يراه لبحث مسألته . فقال رئيس الهيئة وهو يشير بيده إشارة حاسمة : «موضوع باب الفتوح انتهى وكل ابواب الفتوح انتهت ! .. انتهى عصر المسرحيات (الشيوعية) التى تقلق الناس . مالها مسرحيات الحب والفراق والجواز ؟ .. من الآن فصاعدا كله مسرحيات فرفشة ! » ومرة ثانية فإن المضحك المبكى هو ان رئيس الهيئة الذى قال هذه العبارة كان هو أول من يعلم أن محمود دياب ليس شيوعيا ، ولكن تلك كانت كلمة السر فى العصر للقضاء على كل من يراد القضاء عليه .

على ان ما قاله رئيس الهيئة قد تحقق بحذافيره . اختفت من على خشبة المسرح اعمال محمود دياب وغيره من الاعلام . وحلت محلها أسماء كتاب لم يسمع بهم احد ، ولم تكن اعمالهم تقنع جمهورا للمسرح بل ولا جمهورا من رياض الأطفال .

وهكذا فجأة وبالأمر . انصرف الجمهور وأظلمت انوار المسرح الذى عرف من اواخر الخمسينيات وحتى مطلع السبعينيات فترة من ازهى عصوره تحقق خلالها اللقاء المباشر بين المثقف والجمهور . وخسرنا ضمن من خسرنا فى هذه المذبحة محمود دياب الذى حقق فى الستينيات ارفع مستوى الكتابة المسرحية فاق كل ما قبله وأزعم انه لا يقارن إلا بكتاب عالميين مثل «سوينكا» الحائز على جائزة نوبل . اما من حيث الفكر المسرحي فلا أظن أيضا أن ادبا مسرحيا بلغ من عمق النفاذ إلى شخصية المصرى فى الريف ما بلغه أدب محمود دياب . وقد اتيح لى أن اشهد عروضا لبعض مسرحياته فى الأقاليم أيام الستينيات واوائل السبعينيات ، ولن انسى قط الحماس الذى كان الناس يستقبلون به مسرحيات مثل «الزوبعة»أو«الهلافيت» .

ولكن ، بالامر ، تم منع مسرحيات هذا الكاتب الفذ بالأمر تم قتله ، وأنا لا اتحدث بشكل عاطفى عن الموت المقـدر على كل العباد ، بل اتحدث عن القتل المتعمد لأدبه وفكره ، وحرمانه من حقه الطبيعى فى الوصول إلى جمهوره ، وما حدث لمحمود دياب كان شيئا رمزيا كما قلت . ذلك أن ما حدث له قد تكرر مع جيل باكمله ،

وهو ما يجيب بشكل واضح عن السؤال الذى طرحناه : لماذا انقطع التواصل بين الكاتب وجمهوره ؟

حقيقة الأمر وخلاصته ان هذا التواصل قد انقطع بالأمر . فمنذ اواخر الستينيات كان هناك جناح قوى فى السلطة الثقافية يعارض كل خطى التقدم للمجتمع ، ويدافع عن استمرار الامتيازات القديمة . كان هذا الجناح يرى ايضا - مثل عباس الأول - ان الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم ، فوجه ضرباته إلى المبدعين الحقيقيين الذين كانوا يؤيدون ثورة يوليو فى خطوطها العريضة وإن انتقدوا - بكل أمانة - ما فيها من سلبيات ودفعوا ثمن ذلك ثم اتيح لهذا الجناح الذى يدافع عن الجهل والفرفشة أن يكون مؤثرا وفعالا فى اوائل السبعينيات ، فشرع فى ممارسة مهمته المقدسة . تم بالأمر إغلاق كل المجلات والمنابر الثقافية الحقيقية . وتم بالأمر استبعاد كل المبدعين الحقيقيين .

وكانت الحيلة والوسيلة فى معظم الأحيان هى اتهام هؤلاء الكتاب بالشيوعية من جانب اقوام ينتسبون للأدب زورا ، ظلت حرفتهم الوحيدة والمربحة هى توجيه هذاالاتهام . وهى شيوعية عجيبة حقا تلك التى اخترعوها ، ولا علاقة لها بأى شيوعية معروفة

فى العالم ، لأن معيار عدم الشيوعية لم يكن هو بالفعل عدم الشيوعية أو حتى معاداة الشيوعية ، بل هو التسليم الكامل والمطلق بافكار كتاب السلطة الثقافية المعادية لثورة يوليو ، إن جاز وصف كتاباتهم الساذجة بأنها افكار ، ثم التعاون معهم فى جهدهم الخائب والمشبوه هدم الثورة ومنجزاتها . واذا كانت هناك شهادة لصالح الكتاب الحقيقيين ـ أكبر حتى من مواهبهم التى لا تحتاج الى شهادة من أحد ـ فهى انهم قد رفضوا بلا استثناء ان يسقطوا فى هذا الفخ وتركوه للساقطين فيه أصلا

وهكذا صودرت الثقافة فى مصر . وجاء وقت فى السبعينيات كان من الممنوع فيه نشر أى اعمال لاهم كتاب مصر . بل ومن الممنوع مجرد ذكر اسمائهم فى الصحف او الاشارة اليها . ومن هذه الاسماء التى منعت : أحمد عبد المعطى حجازى وامل دنقل ورجاء النقاش والفريد فرج ومحمود دياب .. إلخ والقائمة طويلة وتضم تقريبا كل اسم له قيمة .

وهكذا تحتم على مبدعى مصر الحقيقيين ان يهاجروا بأقلامهم أو بأجسادهم ليكتبوا فى الصحف التى تصدر خارج مصر والتى فتحت لهم ابوابها بكل ترحاب . وفى الداخل نشطت السلطة

الثقافية وافتتحت مجلات ومنابر لم تجد من يشغلها بعد طرد الجميع باستثناء اشباه الكتاب ، وعبثا حاولت ان تنفخ فى هؤلاء الروح . ذلك انهم برغم ارتفاع اصواتهم وصخبهم وافتعالهم للمعارك لم يكن لديهم ما يقولونه بالفعل غير ان «يكفروا» بالباطل اصحاب الأقلام ، وأن يدفعوهم بقوة السلطة وبطشها الى «الهجرة» ومع ذلك فقد اكتشف الجمهور خواء هم . فأدار لهم ظهره وتركهم يصرخون فى البرية. وهكذا غاب عن الساحة من حملوا رسالة التنوير التى بدأها رفاعة الطهطاوى فى الزمن الاول ، فخيم ظلام الفكر على مصر . وفى عصر مسرحيات «الفرفشة» والخواء الفكرى تقدم ليملأ الساحة الممهدة تيار (التكفير) الارهابى الذى سنح له الجو ليبيض ويفرخ بالفعل عنقاء رهيبة مازالت تخيم بجناحها الاسود فوق الجميع .

تلك هى الخسارة التى حلت بالوطن حين استغنينا عن الثقافة وحين استبدلنا بالمثقفين ادعياء وبالعقل «الفرفشة» !

فهل ندهش بعد هذا حين نرى ثقافتنا العامة وقد نكصت على عقبيها ـ او كادت ـ الى ما قبل عصر رفاعة ؟ .. وهل ندهش حين نقرأ حنينا شاعريا الى عصر الاستعمار التركى الاسود الذى خيم

على مصر قرونا (بما فيه من خوزقة وتوسيط) لمجرد ان ما تلاه كان توجها نحو حضارة «الغرب» كما يقال ؟ .. ما عاد احد يذكر ان هذه الحضارة ـ بعلومها وفنونها ـ هي حضارة عصر باكمله ، وأنها ثمرة كل الحضارات السابقة عليها بما فى ذلك حضارتنا الاسلامية فى عصر ازدهارها ، والتى نقل عنها الغرب ايام النهضة . (ترى ماذا كانت اوروبا ستصبح لو أنها رفضت أن تنقل عن المسلمين علومهم وفنونهم لمجرد انها حضارة الشرق ؟) .

بل وهل ندهش حين تنشر احدى الصحف قائمة باسماء «العلمانيين» الذين يجب رفضهم ومحاربة افكارهم وحين يتصدر هذه القائمة اسم رفاعة نفسه ثم اسماء كل الكتاب المصريين من بعده تقريبا ؟ .. ورحم الله رفاعة .. هذا الازهرى التقى الذى اراد لوطنه الخير وكان يقيس الحضارة الحديثة كلها «حسنا وقبحا» بمقياس الإسلام وقيمه الرفيعة ، وهو قد لخص العلمانية كلها فى عبارته الجميلة حين قال «إن (عقولهم) حكمت بأن العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد » .

ولكن كل البديهيات اختلطت حين غـاب عن المجتمع عقله ومفكروه ، فهل من المستغرب ان تصبح العلمانية سبة ؟ .

وهل من المستغرب ان نقرأ في صحيفة محترمة لاستاذة جامعية محترمة هجوما شنيعا على الثورة الفرنسية التى وجهت العالم نحو شعارات للحرية والاخاء والمساواة كمثل عليا ولماذا ؟ لان العصور الوسطى كانت في رأيها احسن اخلاقا وافضل قيما ! .. ترى الم يصل الى علم الاستاذة الفاضلة ما كان في تلك العصور من مهانة للاخلاق (ودعك من العدل) أبسط امثلتها حق السيد الاقطاعي في «الليلة الأولى» مع زوجة أي من فلاحيه ؟

وهل .. ؟ ولكن قائمة الاسئلة لن تنتهي ، وهي واقع نعيشه كل يوم حتى صارت الدهشة له أو منه هي المستغربة !

ولكن السؤال الأهم هو : ما المخرج من هذا كله ؟

لا اظنني انافق أحدا حين أقول إن ثمة بادرة أمل ، لاننا نعيش الآن حرية فكرية حقيقية وغير مسبوقة .

ولكني لا اظن أيضا ان مثقفينا ومبدعينا يفيدون كما يجب من هذه الحرية ، فنحن مازلنا أسرى لتقاليد المرحلة السابقة التى ارادت أن تأسر الأدب وأن تقيد تأثيره على المجتمع ، ومازلنا نقبل بعزل الأدب والفكر في معازل المجلات الادبية المحدودة الانتشار والصفحات الأدبية والبرامج المرئية والمسموعة التى من آفاتها ايضا

انها تتعالى على الجمهور بلغة الخطاب . ونحن مازلنا نقع فى فخ تقسيم الأدب إلى اجيال تنتسب إلى عقود السنين (الاربعينيات ، الستينيات ، السبعينيات) وبهذا نكرس عزلة مصطنعة بين الأجيال ، ونكرس انعدام الحوار فيما بينها . ونحن مازلنا عاجزين عن إقامة المؤسسات الثقافية التى تعبر عن وجهنا الحقيقى . ومازلنا ايضا نضع حسابات معقدة تجعلنا نكتب بحرية اكبر عندما ننشر فى مجلات الخارج وصحفه ، ونراجع انفسنا كثيرا قبل أن نقول هذا الكلام الذى تمس الحاجة اليه فى الداخل .

باختصار نحن مازلنا اسرى تقاليد مرحلة الاستغناء عن الثقافة مع كل ما جرته من بلايا .

ولكن بيان ذلك كله يحتاج الى حديث مستقل .. ولنختتم هذه الكلمة بعبارة للاستاذ العميد ، فلنتذوق معا جرسها الجميل اولا ، ثم لنتدبر معناها الاجمل «أدبنا العربى كائن حى ، أشبه شىء بالشجرة العظيمة (التى) مضت عليها القرون والقرون ، ومازال ماء الحياة فيها غزيرا ، يجرى فى اصلها الثابت فى الأرض وفى فروعها الشاهقة فى السماء ... والعناصر التقليدية فى ادبنا قوية شديدة القوة ، مستقرة ممعنة فى الاستقرار ، مستمرة على الزمن ،

وهى التى ضمنت بقاء الأدب العربى هذه القرون الطوال ، وهى التى ستضمن بقاءه ما شاء الله أن يبقى ، ولكن هناك عناصر أخرى توازن هذه العناصر التقليدية وهى (..) عناصر التجديد ، وهذه العناصر التجديدية هى التى منعت الأدب العربى من الجمود ، ولاء مت بينه وبين العصور والبيئات ، وعصمته من الجدب والعقم والاعدام ومكنته من ان يصور الأجيال .. »

فلنكن ـ اذن ـ أوفياء لعصرنا ولجيلنا !

القسم الثانى



وإليك ما لم أقله

.... وكنت أستكثر عليك المرض

وكنت أقول أوَ لم يتجرع من هذه الكـــأس أكثر من نصيبه في الحياة ؟ .. مرة في القلب ثم مرات ، ومرة في الرئة ، ومرة في الدماغ جراحة هنا وجراحة هناك .

أقول لنفسي في كل مرة هذا كثير ، ولكني أقول لك لا تبطيء عنا كثيرا فنحن نريدك .

أراك في مستشفى المعادي قبل عشرين عاما . نذهب اليك سليمان فياض وصبري حافظ وأنا . أراك شاحب الوجه في جلباب المستشفى الأبيض . وكان صبري قلقا عليك . قال لنا في الطريق انه سمع من الأطباء أن الخطر يهدد حياتك ، ولكن سليمان قال لنا بصوته الخافت الهادئ : يوسف قوي . هو أكثر من عرفت من الناس تشبثا بإرادة الحياة . وتطلع نحونا وهو يقول بثقة : سيخرج من هذه . ولما استقبلتنا ضاحكا رغم شحوبك ، ولما فردت

نحونا يديك على امتدادها بكل العزم وأنت راقد على ظهرك ، ولما حدثتنا عن مرضك حديثا عابرا بكلمتين ، ثم نقلتنا بعيدا عن المرض ، وبعيدا عن حجرة المستشفى الساكنة ، الى حيث الحياة وحيث الصخب ، الى ما يحدث فى مصر وما يحدث فى الدنيا ، ولما احتدم النقاش وكأننا قد عدنا الى أيام مقهى الجيزة على الرصيف ، وكلك شباب وحيوية ، وقتها ملت على صبرى الذى كان يخفى قلقه بضحكات عصبية وهمست فى أذنه : لا تخف ، سليمان على حق . سيخرج من هذه .

وخرجت بالفعل ، وعدت الينا ، وملأت الدنيا . وكنا نحتاج اليك كما نحتاج دائما .

وأراك فى مستشفى الدقى بعد ذلك بسنوات .

كنت أنا قد خرجت الى جنيف ، وتعودت فى كل زيارة الى القاهرة أن أراك فى مكتبك فى الأهرام . ولكنى فى هذه المرة ذهبت اليك فى المستشفى . كان هو القلب وقد تمرّد مرة أخرى . ذهبت وقت الظهيرة ولم يكن ضمن مواعيد الزيارات . ولم أجد عندك أحدا غير خالد عبد الناصر . وحين دخلت كنت تضطجع على الفراش بثوب المرض الأبيض نفسه ، بالشحوب نفسه ، وأريد أن أطمئن

عليك فتشرح لى بدقة الطبيب العارف كيف أنك قد تجاوزت الخطر بعد أن اقترب كثيرا وأنك ستخرج من المستشفى بعد أيام ، ثم تغير الحديث . تطرد المرض ، وتلتفت الى خالد تسأله عن وقع مقال لا أذكره ككاتب لا أريد أن أذكره كان يهاجم عبد الناصر فيرد عليك بهدوء قائلا : فى وقت من الأوقات كنت أهتم بهذه المقالات . الآن لا أكلف نفسى مجرد قراءتها . وشردت أنت ببصرك لحظة . وشاهدت فى عينيك النفاذتين المعبّرتين استفهاما مطولا ، وماضيا يعود ، وحاضرا ملتبسا ، ومستقبلا تحاول أن تخترق حجبه ، تحاول أن تنتزع منه وعدا عصيا قبل أن تلتفت مرة أخرى الى خالد وتقول ضاحكا ضحكتك الصافية تلك : معك حق . لا يستحـــق أن تقـرأه و«هذا» أيضا سيزول .

لعلك تكون قد استخدمت عبارة «هذا المرض» .

ويقوم خالد ويعانقك قبل أن ينصرف وهو يقول : استرد صحتك بسرعة . نحن نحتاج اليك والى قلمك .

وتعود الينا بالفعل ، وتبرر عمق احتياجنا اليك والى قلمك .

ولكنى لم أرك فى لندن كنت محتجزا هنا فى جنيف ولكن لهفتى عليك كانت أكثر من كل مرة . اتصلت بصبرى حافظ فى لندن فقال

لى ان الحالة خطيرة وان الزيارات ممنوعة . ولكنى لم أيأس .
ورحت أستمد الأمل مرة أخرى من تشخيص سليمان فياض . وكم
كانت فرحتى يوم قرأت فى (الاهرام) أنك بدأت الكلام . قلت
لنفسى الحمد لله ! .. ها نحن مرة أخرى نسترده ! سيعود الينا
لكى يحكى لنا ما كان يصفه لنا هذه المرة بدقة العالم ، بقلمه الذى
لا يشبهه قلم آخر ، كيف تلصص الموت هذه المرة الى الدماغ ، كما
تلصص من قبل الى القلب . سيصف لنا دبيبه فى الشرايين .
سيحدثنا عن اللحظة التى أصدرت فيها الارادة الأمر : «قف» ! ..
ستكون صفحات أخرى نقرؤها بكل التوتر ونحن نتابع ذلك
الصراع، وينتصر لنا فيها يوسف للأمل وللحيـاة وللإنسان كما
فعل كل مرة ...

وكنت أستكثر عليك المرض الذى يبعدك عنا شهورا . أشفق
عليك ، حبًا لك . وأشفق علينا ـ أنانية من ذات نفسى ـ أن يغيب عنا
قلمك ، ذلك النصير الكبير لمصر التى عرفناها وأحببناها والتى
نراها تتسرب سريعا وبعيدا . كنا نتشبث بها أن تبقى ، ونتشبث
بقلمك ليساعدنا على أن تبقى .

وكنت أستكثر عليك المرض ، فما بالى وهو الموت ؟

ما العمل فى تلك الغيبة ؟

كان ود كبير يجمع بيننا .

ود لم تشبه شائبة حتى النهاية وان لم تسمح الأيام بأن يتطور الى صداقة شخصية كبيرة ، كالتى كانت تجمع بينك وبين سليمان وصبرى وأحمد عباس صالح من أصدقائنا المشتركين . ولكنى كنت أعرف أن شيئا عميقا جدا يجمع بيننا هو الذى جمعك بالملايين من قرائك ومحبيك : هوى جارفا لمصر خاصة جدا نتمثلها فى وجداننا، وشوقا محرقا الى العدل والى عالم أكثر انسانية وذكاء تقود اليه الكلمة وتقود فيه الكلمة .

رأيتك أول مرة فى مقهى الجيزة . وكنت أنا وقتها قد تخرجت لتوى فى الجامعة ، وأتردد على ذلك المقهى الذى يتحلق فيه الكتاب حول الراحل الكبير أنور المعداوى . كنت ضمن مجموعة تخطوا أولى خطواتها فى الكتابة ، بينما كنت أنت قد حققت ذاتك ورسخت مكانتك ككاتب قصة قصيرة ، بل ككاتب القصة القصيرة الأول وأنت بعد فى مطلع الشباب . ومنعنى الخجل أيامها أن أقول لك اننى أنا أيضا أكتب القصة القصيرة ، ولكنك فيما بعد ذلك بسنوات تكون

أنت الذى تقدم أول قصة قصيرة أنشرها فى مجلة «الكاتب» تكتب لها مقدمة جميلة لن يمنعنى الخجل هذه المرة أن أقتبس منها عبارة أذكرها بكل الاعتزاز حيث قلت «هذا كاتب لا يقلد أحدا ولا يستعير أصابع أحد » . كنت تدرك أن لنا رؤيتين مختلفتين للقصة وللأدب ، ولكن هذا لم يمنعك من تقدير ما أكتب ومن أن تتحمس لتقديمه ، كما أنه لم يمنعنى فى أى وقت من أن أكون ، لا معجبا فحسب بل مفتونا بأدبك العبقرى . وأذكر مرة عبارتك الضاحكة حين رأيتنى أتردد كثيرا على مسرح الجمهورية لمشاهدة مسرحية الفرافير : «هل حجزت مقعدا دائما في المسرح ؟ » .. والحق أنى كنت أتمنى لو أفعل !

ولكن هذه اللقاءات الشخصية لم تكن هى علاقتى بك .

كنت قد عرفتك قبل ذلك بوقت طويل . مازلت أذكر الليلة الأولى التى وقعت فيها «أرخص ليالى» فى يدى ، وكنت وقتها فى الجامعة. . بدأت قراءتها فى الليل وقلبت الصفحة الأخيرة مع تباشير الفجر . لم أعد اليها منذ ذلك الحين ولا هى تحت يدى ولكن قصصها الدرر حاضرة فى ذهنى . أذكر الآن بالذات قصة «نيمية» . وقصة مصرع عبد القادر طه ، وقصة الخادمة الطفلة التى تحمل (صاج) الكعك

فوق رأسها ، وقصة العودة الى مصر على ظهر الباخرة وصيحات الركاب «مصر ! ايجيبت ! إيجيتو ! » . عثرت فى حينها على شىء لم أكن قد قرأت مثله فى أدبنا العربى من قبل .. لا أتحدث عن روعة القصة القصيرة ولا عن إعجاز بنائها . ذلك شىء لم يعد يحتاج الى مزيد من الشرح والتحليل ولكنى أتحدث عن القصة القصيرة حين تحتشد صفحاتها القليلة ، وفى بعض الأحيان سطورها القليلة ، بشحنة تفجر فى نفس القارىء من الاحساس ومن الوعى ما قد تعجز عنه رواية طويلة . أذكر جيدا أنى ظللت بعد قراءة قصة «نيمية» ، عن ذلك الرجل الذى كان يبيع دمه للمستشفى مقابل قروش يعيش عليها وراح يحتج حين رفض المستشفى فى النهاية أن يأخذ دمه لاصابته بالأنيميا . أذكر جيدا صرخة احتجاجه الأخيرة «نيمية إيه ؟» وأذكر جيدا أنى بكيت .

لو أن قد كانت فى القصة كلمة تفلسف واحدة ، عبارة تزيد عن اللازم أو نهاية غير التى انتهت اليها لما تحققت صدمتها العبقرية تلك . ربما كانت ستظل قصة «جيدة» رغم ذلك كله ، ولكنها لن تكون يوسف ادريس . كان هناك شىء لا يسمى فى تلك القصة وفى قصص تلك المجموعة ، شىء يتجاوز اختيار المواقف الفريدة

وموهبة التعبير المقتدر وكل العناصر التى قد توصف بها القصة الجيدة : كانت هناك رسالة خفية من المبدع الى القارىء لا تتجسد فى أى من تفاصيل عمله الفنى ولكنها موجودة بالتأكيد وتوقظ عند القارىء شيئا حقيقيا جدا وصادقا جدا . أثرا قادرا على تغييره وعلى أن يجعله مختلفــا بعد القراءة عنه قبلها : « بالإمكــان » على الأقل ان لم يصــبح مختلفا بالفعل قادرا على أن يغير من نفســـه لو أراد .

وهذا شيء لم يغب عن كتابتك حتى آخر لحظة . كان هناك عشرات يكتبون المقالات غيرك . بعضهم يكتب بانتظام أكثر . وبأساليب بلاغية منمقة ، ويفتعلون المعارك ذات اليمين وذات اليسار وتغلى كلماتهم بالانفعال ولكنها تسقط فى بئر الصمت واللا مبالاة . ثم يأتى مقال واحد لك ، بسيط اللغة والتعبير ، لا تكتب ولكنك تكلمنا كلاما عاديا بما يجول فى خاطرك فيعيدنا صدقك على الفور . واذا بدوّامات من ردود الفعل على ما تكتب ، واذا بأناس مهمين يغضبون ، واذا بآخرين يهاجمون ويسبون (لكم آنوك وجرحوك!) . أما نحن ـ قراءك ـ فنعرف أنك قد انتصفت لنا من الجميع نشعر أنك أيضا لم تهدهد مشــاعرنا ولم ترحنا فقــد ألقيت علين عبئا . رســالتك

الخفية تقول : ها هى الحقيقة ، فماذا أنتم فاعلون ؟ وقد لا نفعل شيئا . يا للأسف ! نحن غالبا لا نفعل شيئا ولكن رسالتك وصلت الينا . أسعدتنا بقدر ما عذبتنا .

أما أنت فقد كان رهانك كله على هذا الأثر أنه يمكن بالتدريج أن يغيرنا ، مجتمعا وأفرادا كان ذلك رهان حياتك كلها إن أكن قد نجحت فى قراءتك .

وكان الأمل فى الرهان كبيرا جدا فى البداية ، وكان لذلك الأمل ما يبرره . فاذا كانت مجموعة «أرخص ليالى» تحكى قصصها عن مواقف موجعة ما عاشه أهل بلدنا من ذل وبؤس ، فإن هناك أيضا بشرا (بكسر الباء) لا يوصف فى تلك المجموعة وفى «حكاية حب» وفى كل أعمالك الأولى . ومرة أخرى فأنا لا أتحدث عن التورية أو عن الفعل الايجابى لأبطال بعض القصص كمرشد أو دليل للقارىء لكى يفعل المثل . ربما يكون ذلك قد حدث فى بعض القصص تطبيقا للوصفة الناجعة التى كانت شائعة فى ذلك الحين . ولكن عبقريتك كانت أكبر من ذلك بكثير . والبشر الذى أتحدث عنه لم يكن موجودا فى قصة بذاتها دون أخرى ، ولكنه شىء يتخلل القصص جميعا بما فى ذلك أشدها ايلاما وحزنا . نوع من الإيمان بأن فعل

الكتابة يطهر ذلك الألم لأنه سيغير بالتأكيد من ذلك البؤس كله . وفى يوم قريب أو بعيد ولكنه آت بكل اليقين . بعد صراع طويل ، ربما ، وبعد مخاض رهيب على الأغلب سيولد ذلك العالم الجديد وستتبدد كل تلك الظلمة أولا يصف بكل قصة «يموت الزمار» ذلك كله وصفا واعيا فيما بعد ذلك بسنوات طويلة ؟ «كان حلمى بالكتابة كحلمى بالثورة .. كحلمى بالمعجزة القادرة على شفاء أى داء وكل داء .. وفى عمرى أنا سأرى اختفاء الجفاء وعمومية الكساء وزوال الحاجة واكتفاء كل محتاج .. وكان الوصول على مرمى حجر .. وكأننى سأصحو في الغد لأجد الصباح فجرا : ليس فجر يوم ولكن فجر عصر . عصر كامل تام يعود فيه الانسان يحب بكل فهم وعمق .. ويعيش روعة الحياة يشربها مترعة قطرة وراء قطرة ولكل قطرة طعم ولكل لحظة تمر أشواق وصهللة ومعان .. »

الصهللة ! .... الفرحة ! .. عالم نشوة وأعراس دائمة تكون مصر فيه هى العروس وهى الداعية الى تلك المأدبة العامرة بالفرح وبجلال الانسان الذى تخلص من ولكل ظلم ومن كل قهر فأصبح سيدا على العالم وسيدا على نفسه . مصر بالذات . ألم تكن مصر عندك دائما هى أم الدنيا ؟ .. أليست هى المؤهلة بمكانها وتاريخها

مثلما رأى طه حسين من قبل لأن تصنع تلك الحضارة الجديدة التى ينصهر فيها الشرق والغرب معا لكى تقدم للعالم المثال والنموذج لحضارة الانسان والعدل والفرح ؟ ..

وكانت الخطوة الأولى عندك هى أن نعثر أولا على مصر الحقيقية . مصر الجوهر . ومن أجل ذلك كان البشر يفيض فى أعمالك الأولى ، ولكنك بالتدريج تكتشف أن الحلم الكبير ليس «على مرمى حجر» . ترى المخاض يتعسر ، وترى مصر التى علقت عليها أمالك الكبيرة للعالم الجديد تتوه شيئا فشيئا ، ويظل أدبك فى سنوات الستينيات محاولة مستمرة لكى تعرف أين يكمن الخلل وكيف نخرج من تلك المتاهة الى الطريق الصحيح . فى «اللحظة الحرجة» يتوهج ايمانك القديم والراسخ بالشعب ، ولكن نغمة جديدة تظهر ، اتهاما للمتعلم (فلنقل للمثقف) بأنه أضعف من أن يخرج من اسار أنانيته ، بأنه ينكص فى لحظة الحقيقة عن الفعل وعن التضحية لكى يحقق الحلم الكبير الذى يتغنى به . وفى «المهزلة الأرضية» تعمق تلك الفكرة أكثر وأكثر ، تقول إن المثقف ذلك الذى فوّضه الشعب لكى يقوده الى العالم الجديد ، لم يكتف بالنكوص ، بل كان مستعدا لأن يبيع الحلم ذاته لكى يكسب أرباحه الصغيرة

ويظل متربعا فوق امتيازاته المستلبة . ويكون ذلك أيضا موضوع واحدة من أكثر قصصك روعة وايلاما «لغة الآى آى» .

ولكنك لا ترى فى ذلك قدرا لا فكاك منه بل أنت تسأل من الذى شوه المثقف والناس جميعا ومن الذى ضيع الحلم ؟ .. وفى الفرافير ـ تلك المسرحية الفذة ـ تطرح افتراضا وتوجه لجمهورك وللسلطان الحاكم سؤالا : ألم يكن الطغيان هو الذى شوه الحياة الى هذا الحد ؟ ألا يكون عالم من «الفرافير» .. التابعين المستذلين .. عالما محكوما عليه بالهوان والصغار ؟ عالما محروما من القدرة على تجسيد أى حلم كبير ؟ .. توجه سؤالك الى الناس والى السلطان فلا يفوتهم مغزاه : فأما الناس فكان حماسهم للمسرحية شاهدا متجددا على أن الرسالة وصلتهم ، وأما السلطان فلعله ان يكون أيضا قد فهم . ولكن الوقت كان قد فات لكى يرجع أو لكى يعدّل المسار : كان قد أصبح أسير الشباك التى حاكها بنفسه ولم يعد بوسعه أن يتملص منها . وأنا لا أذكر الآن إن كانت أول مرة مرض فيها قلبك سابقة على نكسة ٦٧ أو تالية لها . ولكنى أعرف دون أن أسأل كيف كان وقعها عليك . أعرف أن الألم اخترق روحك وجسدك معا وأنت تتساءل : أولم أنذركم وأحذركم من ذلك الذى سيأتى ؟ ..

أوَلم أقل لكم ان الزعم بقهر الانسان من أجل رفعة الوطن كذب لا يستقيم وأن هوان الانسان لابد وأن يجرّ هوان الوطن ؟

ولم يكن غريبا وأنت تريد أن تشارك في اقالة الوطن الذى تعثر في نكسة ممتدة أن تقل قصصك ومسرحياتك وأن تكثر مقالاتك . كنت تبحث دائماـ وقلتها أنت بنفسك ـ عن أقصر الطرق لوصول الكلمة الى الناس وأكثرها تأثيرا . وأدهشك كما أدهشني ألا يفهم بعض نقادك ذلك ، بل وأن يؤاخذك عليه . لم يدركوا ما أدركه أبسط قارئ من الجمهور العريض الذى كان يتلهف على قراءة تلك المقالات لم يروا أنها في معظمها قطع من الأدب النادر لا يستطيعه غير يوسف ادريس . أم تراهم حقا لم يدركوا أن تلك المقالات هى التى كانت تبقي على جذوة الأمل عندالناس في ذلك الليل الطويل ؟ .. ظلت وحدها تقريبا في ذلك المنبر الواسع الانتشار هى التى تذكّر الناس بالحلم المصري القديم : الحرية والاستقلال لمصر ، مصر التي تنفتح على وطنها العربي وتشاركه همومه ويكون خلاصها في خلاصه .. التى تحقق لمواطنها العدل ويجد فيها كل انسان كفايته .. يشبع فيها حاجته الى الخبز والى المأوى والى عمل مبدع يحقق فيه ذاته ثم يتجاوز ذلك كله ليصل الى الفرحة..الي تلك «الصهللة» .

الامتلاء الكامل بنشوة الحياة والاستمتاع بها في عالم جديد لم يتجسد من قبل قط ولكن جمهورية يوسف ادريس تبشر به ، وتدفع الناس دفعا اليه ، مقتنعة كما كانت دائما بأن الطريق اليه هو «الكلمة» .. ومن هنا «أهمية أن نتثقف» : أن نعرف الحقيقة لكى نتغير ..

وتظل ممسكا بتلك الجذوة كالجمرة بين يديك لا تريد أن تسقطها برغم الداء والأعداء : تتابع الأمراض وتتالى معارك الصغار تريد أن تأخذك منا لكى ينفرد بنا الهوام . ولكنك تتشبث بنا كما نتشبث بك .

ولكن فى ذات مرة يهتز لديك ذلك اليقين . تعترف لنا بذلك وتحلله تحليلا دقيقا فى واحدة من قصصك الأخيرة «يموت الزمار» . تشك فى الكلمة ذاتها . تسأل عما فعلته بالناس وما فعلته للناس منذ كانت . هل نجحت فى أن تغير شيئا من الاستغلال والقسوة والجشع .. هل يمكنها حقا أن تبدل الانسان ؟ : «ضيعت عمرى كيف أتعلم الكتابة ، والبقية الباقية ضيعتها كيف أعلم ما فى الكتابة . أصبحت روحى من ورق وأحلامى ومتعتي كائنة كلها من حبر بين كلمتين أو جملتين أو صفحتين . أى حياة ؟ » فبعد كل ذلك

العناء ظهر مجتمع جديد لا يعترف بحكمة الآباء ولا بدورهم . شباب لا يريد أن يسمع شيئا «عن عمق مطالب الشعوب والفئات منذ أقدم العصور . آلات منتجة جديدة غير مثقلة بتاريخ مطالبات ونقابات ، وانما هى ابنة «رجل بستة ملايين دولار و«جى آر» و«سو آلين» .. دراسة ماذا وأنت تستطيع كجرسون فى فندق أو حتى شيال أو مصادق للسائحات العجوزات أن تطلع لك فى اليوم بعشرين أو ثلاثين جنيها بالتمام والكمال .. تصرف وتشترى عربة .. ماذا يجدى الحديث عن سعد زغلول ومصطفى مشرفة وحتى فاروق الباز أمام ثلاثين جنيها وعربة ولو«سيات» ؟ » .

تحدثنا فى تلك الصفحات الموجعة عن ذلك العالم النقيض الذى ظهر وجعل حلمك وحلمنا الذى كان على مرمى حجر عصيا ويعيد المنال ..

ولم يكن غريبا أن تقول لنا فى مطلع تلك القصة انها تجربة حقيقة وانها قصتك أنت . ولم يكن غريبا أن تحدثنا عن المرض الذى أشرف بك على الموت بعد ذلك الاكتشاف .

ولكن ذلك اليأس لم يكن هو أنت . لقد قلت فى تلك القصة فى اللحظة الأخيرة للمرض «لا» ! وأدركت أن الموت كان فى قرارك ألا تكتب «حين قررت التوقف خبت تلك الموجات وخبت في جذوة الحياة (....) والموت ليس ضروريا أن يكون صاعقا مفاجئا كالذبحة ، انه كأضرار التدخين أضعفها وأوهنها أو هكذا يبدو . الموت حياة

كحياة الموتى، الموت سكونا وسكوتا وصمتا. الحياة.. ليس مجردها وانما خلقها خلقا تعدى الآخرين بها ، تنشرها .. تبثها موجات إثر موجات ..موجات صحيحة كالجنين الجميل القابل للتشكيل حسبما تريد . الحياة سامية شامخة بشرف وبلا مساومة أو ازعاج ضمير .. ما أروع أن تصحو من نومك اليوم وتختار أى عمل طيبة ولو كان زيارة لسرير مريض مجهول لا أمل له ولا أهل .. اذا كنت فقيرا أعطه كلمة طيبة وبرتقالة ، واذا كنت غنيا وقادرا ابن له مستشفى » .

ذلك هو أنت . وذلك هو صوتك الحى .

ربما يا صديقى لا تكون قد رأيت ذلك الفجر الذى رحت من مطلع حياتك تبشر به وتدعونا إليه . ربما تكون قد ضحيت بنفسك، وأنت تصارع بين رحى الشك والأمل ، لا تريد أن تستسلم ولا أن تستريح .

قد لا يكون على مرمى حجر ..

ولكنك قربتنا منه خطوة .

وما بقى الآن فهو علينا . هو دين فى عنق كل من قرأك أو سيقرؤك . فمتى نرد إليك الجميل وأنت بعيد ، هناك ..؟

يحيى حقى :
عيد الميلاد الأخير !

من يستطيع حقيقة أن يكتب مقالا عن سيد المقال ؟ .. كيف يمكن لكاتب وهو مطمئن النفس أن يستخدم الكلمات العارية الخشنة ليصف بها لغة يحيى حقى ؟ .. يوشك ذلك أن يكون عدوانا على كلماته التى تشف بللورا صافيا ، تخلص من كل الشوائب والزوائد وانتظم فى بناء موسيقى ما أن تقرأه حتى يتحرك فى داخلك نغم متصل من جملة الى جملة تمتزج فيه البسمة بالامل والمتعة بالشجن. فأنت هنا مع أديب . على قدر ما فى كتابته من تسامح وإنسانية وقدرة على الفكاهة لا تبارى ، يفتح عينيك على هموم كنت غافلا عنها ويفجر ألغاما لم تكن تتوقعها ، ثم سرعان ما يمسح الهم عن نفسك بابتسامة حانية . وأنت تبتسم معه بالفعل ، ولكن ذلك الشجن الخالى من القسوة ومن المرارة ، سيبقى معك دائما مثل لحن جميل، يتردد صداه فى نفسك ، ويدفعك دفعا الى أن تعيد قراءة يحيى حقى لكى تسترجع النغم مرة بعد أخرى . أصبح يحيى حقى منذ

دخلت عالمه صديقك مدي العمر . الصديق الذي يصدقك دون وعظ ولا افتعال ، ودون نظريات ولا فلسفات . هو الآن بالفطرة السليمة وحدها ضميرك الحي ، وهو في كثير من الأحيان أيضا نفسك اللوامة !

عن نفسي ، لا أعرف كم من المرات قرأت فيها «خليها على الله» هذا العمل الفاتن . (وليتني حقا أكون قد تعلمت منه كما ينبغي) تلك في ظاهرها ذكريات متفرقة لا يربط بينها غير شخص راويها العذب . غير أنك بعد أن تفرغ منها تكتشف أن وراء كل جزئياتها نوعا من الوحدة والانسجام النادرين . أنت تقرأ في الجزء الأول مثلا ذكريات مبعثرة عن مدرسة الحقوق القديمة أيام كان كاتبنا يطلب فيها العلم ، تقرأ عن محاولاته المتعثرة لتعلم الخطابة وهو يتابع مشاهير الخطباء في كل مكان ، تبتسم وأنت تقرأ عن ذلك الخطيب الريفي الساذج الذي كان يحدث الناس عن بركات فيضان النيل بينما يصل الى الأسماع صراخ النسوة في القرية باكيات محاصيلهن التالفة وجاموسهن الغارق لأن فيضان ذلك العام كان عاليا اكتسح القرية وأكل أرضها وأتلف محاصيلها . ولكن قبل أن

تتحول البسمة الى سخرية يردك يحيى حقى الى الحس الإنسانى الصافى حين يقول «إن يكن قلبى قد رق لهم ، فقد رق رقة أشد لهذا الخطيب الساذج». وستتسع ابتسامتك أيضا حين تتابع مؤلفنا بعد التخرج وهو يحاول أن يشق طريقه فى المحاماة إذ يحدثك عن السماسرة الذين يتحايلون لاصطياد الزبائن للمحامين ، ويحدثك عن قضايا النصب ويحكى لك عن الريفى الساذج المظهر الذى يستوقف قاهريا مثقفا ويبيعه زجاجة «كينا» محكمة الإغلاق والتغليف بنصف ثمنها وبعد أن يختفى البائع يكتشف المشترى أن الزجاجة فارغة ، ولكنك قبل أن تتعاطف مع هذا المخدوع ينبهك يحيى حقى الى أن الضحية فى قضايا النصب أثقل ذنبا دائما من النصاب . فهو شخص لديه الاستعداد للسرقة ولا يريد أن يدفع الثمن الحلال . إن يكن النصاب قد سرق مبلغا فالضحية كان على استعداد لأن يسرق مبلغا أكبر . ويقول لك يحيى حقى و«الغريب أن الرجل الفاضل هو الذى يجرى فيفضح السر ويطالب بمعاقبة من ضحك عليه !» . يندهش كاتبنا لذلك ولكن قليلين منا فى واقع الأمر من نظروا الى حكايات النصب من هذه الزاوية .

وبعد أن تتأمل في ذلك وغيره وأنت تقرأ عن قضايا النصب ستضحك من كل قلبك على القاضى الذى اختلطت أمامه ملفات القضايا فحكم على متهم بسرقة «وزة» على أنه حائز لقطعة حشيش فى قضية أخرى ، ثم لما جاء دور الحشاش رفض أن يحاكمه القاضى بتهمة سرقة «الوزة» ـ وعقوبتها أخف ـ لأنه معاذ الله أن يكون لصا «وأكون دنى أسرق وزة ؟! .. ليه مش لاقى اكل .. أنا صحيح مضبوط بالحشيش وقسمتي كده ! » .

ولكن وسط كل تلك الحكايات الطريفة عن القضايا وعن المحاكم، تتوهج ـ أكاد أقول كالجمرة ـ قضية مختلفة تماما رآها يحيى حقي، حكاية فهمي النجار، ذلك الحرفى المصرى البسيط الذى حوكم مع أقطاب الوفد بعد مقتل السردار السير «لى ستاك» فى سنة١٩٢٤. قارىء التاريخ يعرف عن محاكمة ماهر والنقراشى فى تلك القضية التى صنعت منهما فيما بعد نجمين فى السياسة ثم رئيسين للوزارة. يراهما أديبنا مع غيرهم من المتهمين فى قفص الاتهام ولكنه يتوقف عند محمد فهمي، النجار، الوحيد الذى حكم عليه بالاعدام شنقا بعد تبرئة الجميع:

«القاعة تغص حتى تكاد تختنق فى هذه الساعة الرهيبة

بالمثقفين أصدقاء الساسة المثقفين، يحتلون المقاعد والممرات.. فلم يكد «كيرشو» القاضى (الانجليزى) ينطق بالحكم حتى هبوا جميعا يصرخون ويهللون ويصفقون ويهتفون.. بعضهم يقبل بعضا، غرقوا جميعا فى أحضان بعض، بل بدأ بعضهم يرقص رقصا بلديا مادا ذراعيه مطرقعا بأصابعه، هازا كرشه المتدلى.. ونظرى مثبت على وجه محمد فهمى، ابن البلد، الذى حكم عليه بالاعدام من أجل القضية الوطنية ذاتها الموجهة لزملائه.. لم يكلمه واحد من أولاد البلد فى الصف الأول، فهم مشغولون بأنفسهم، ولا واحد من شركائه الساسة المثقفين الجالسين وراءه، بل كفوفهم تمتد فوق رأسه لمصافحة الأصدقاء المباركين.. لم يكلمه واحد من الجمهور لأنه منشغل بالرقص والضحك والهتاف..».

تلك لقطة حزينة وموجعة تختلف تماما عما سبق ولكنها فى الحقيقة تكملة ولا تتناقض معه، كما أن الحكايات الأخرى، الطريفة والساخرة، تعديك فى نهاية الأمر بالشجن نفسه الذى تثيره فى داخلك هذه القصة الحزينة. ترى من هو الناقد الذى قال إن الكوميديا الحقة أشد حزنا من المأساة.. ليس ذلك هنا سؤالا خارج الموضوع، بل هو صلب الموضوع. لأن الفكاهة عند يحيى حقى -

هى بعيدة تماما عن الفكاهة السوداء المريرة - تحرك فى داخلك
لقا ما وتردك بعد الابتسام أو الضحك إلى ذلك النوع من الحزن
شفيف الذى أسميته بالشجن، وهو شىء لا تجده إلا عند عباقرة
كتاب الفكاهة مثل الجاحظ أو موليير. وواقع الأمر هو ان
لتراجيديا على كل ما فيها من دموع وأحزان، تطهر النفس بما
ثيره من مشاعر الشفقة والخوف (إذا ما استخدمنا تعبيرات أكبر
لنقاد!). فأنت تتحرك مع المأساة فى عالم كله سمو وجلال وترى
سقوط شخصيات عظيمة بسبب أخطاء جسيمة. وهذا يثرى تجربتك
وحسك الانسانى بكل تأكيد، ولكنه لا يمكن أن يكون قريبا من نفسك
كما هو الحال وأنت فى عالم الكوميديا - أو الفكاهة - التى تجعلك
ضحك من نقائص البشر العاديين، أمثالى وأمثالك، ومن هنا فهى
لا تطهر ولا تريح، بل ترسخ الشعور بالذنب والتقصير، وربما تدفعنا
إلى أن نكون أفضل.

وبالطبع فإن الحديث هنا عن الكوميديا بمعنى واسع وفضفاض
لا يقصرها على المسرح بل يمد نطاقها لتشمل أعمالا أدبية عظيمة
مثل أعمال الجاحظ أو يحيى حقى. وأنت حين تتابع قراءة «خليها
على الله» ستجد أيضا أن يحيى حقى ينفرد بشىء آخر لا تجده

عند نظرائه من كتاب الفكاهة العظام، وهو تلك المقدرة على
يضفر في نسيج العمل، مواقف بالغة الجد، مثل موقف فهد
النجار، لا مثيل لها تصيب به النفس من ألم، بل وخجل من النفس
لأننا نرتكب في حياتنا تلك الخطايا نفسها: اللامبالاة بألم آخرين
والكيل بمكيالين في القضية الواحدة، والتناقض الكبير في حياة
وسلوكنا بين ما نعلنه من شعارات سامية، أخلاقية (ووطنية!) وبين
نمارسه في حياتنا بالفعل من سلوك عملي وأرضي (وأناني ف
كثير من الأحيان!).

وانظر على سبيل المثال لا الحصر في «خليها على الله» ـ وس
كل الحكايات الضاحكة عن الصعيد وعاداته، وعن المجاذيب وأدعي
الكرامات، وعن مدرسة تعليم الحمير المشي وطبقات الحمي
وسلوكها .. انظر إلى مواقف من قبيل تعذيب الحيوانات في السير
وسفح دمائها، أو حرق الحكومة لقطن الفلاحين الزائد عما قرر
الوزارة زراعته في الزمام، أو موقف الطبيب الذي رفض أن يعال
مريضه الفلاح وهو يتلوى ألما من احتباس البول لأنه لا يما
«الريال» المطلوب (أيامها!).

تلك صدمات كهربائية حقا وسط الكتاب البالغ الامت

والطرافة. وعبقرية يحيى الفعلية هى أن تلك المواقف القمم لاتنبو عن سياق العمل ولا تخل بروحه المرحة العامة وإن تكن هى فى رأيى مقصده الأول. ذلك أنك ستجد فى كل المواقف الضاحكة الأخرى ذرى صغيرة وصدمات قد تبدو أخف وقعا ولكنها تنويعات على لحن واحد: بحث عن إنسانية الإنسان، وغضب مكتوم على كل ما يشوه تلك الانسانية، ويصيبها بالجمود وتبلد الشعور، ويمنعها عن أن تتجلى بكل صدقها وبراءتها . وهى لا تنبو أيضا لأنها تنجو من داء آخر فى الكتابة وصفه يحيى حقى فى كتابه الجميل «عشق الكلمة» بكلمة«الكلبية».

ومن البديهى الذى يعرفه كل قارىء أن يحيى حقى ليس كاتبا فكاهيا بالمعنى الذى اعتدنا أن نسبق به أسماء بعض الكتاب بعبارة «الكاتب الساخر»، فهو لا يحترف الفكاهة ولكنها تنبع عنده بشكل طبيعى لا تكلف فيه. تجدها متواترة وشائعة فى أعمال مثل «خليها على الله» أو «دمعة فابتسامة»، ولكنها مبثوثة أيضا بشكل تلقائى فى بقية أعماله الجادة. تجدها فى قصصه التى أحبها القراء وتعلم منها الكتاب مثل «قنديل أم هاشم» و«دماء وطين» و«عنتر وجولييت»، وفى دراساته الفذة للشخصيات والمواقف فى كتابى «عطر

الأحباب» و«ناس فى الظل»، وتجدها عند يحيى حقى الناقد فى كتب «فجر القصة المصرية» و«عشق الكلمة» و«أنشودة للبساطة» وغيرها وهو يؤسس لنقد محوره إيثار الايجاز والقصد وتجنب الافتعال والادعاء. كما أنك تجدها عند يحيى حقى المؤرخ الاجتماعى فى أعمال مثل «صفحات من تاريخ مصر» أو «حقيبة فى يد مسافر». فنحن فى واقع الأمر فى عالم يحيى حقى مع كاتب شامل لا يقصر نشاطه الابداعى على نوع بعينه، ولكن أعماله تكمل بعضها البعض بما تهدف اليه فى مجملها من إشاعة القيم الانسانية فى الأدب وفى الحياة.

والفكاهة عنصر وحيد من عناصر ابداعه المتعدد الجوانب، ولكنها مدخل صالح تماما لفهم عالمه الثرى. وقد بدأنا بالإشارة إلى نقيضها فهى ليست فكاهة «كلبية». وأنا أعرف مثلما يقول يحيى حقي في مقاله بكتاب «عشق الكلمة» صعوبة إيجاد مرادف عربى لهذه الكلمة اليونانية الأصل. فالكلبية تعنى أشياء كثيرة: السخرية القاسية والتعالى وانعدام التعاطف الانسانى مع الشخصيات التى يتعامل معها الانسان فى الحياة أو التى يكتب عنها إن كان أديبا. إذ يصور الكاتب شخصياته من منطلق الفهم الكامل لكل شىء ولكل

خلجات النفس فى برود يقترب من عملية التشريح ليطلعنا على ذكائه وقدرته على النفاذ والكشف. وكلمة «الهجاء» لا تحيط بهذه المعانى كلها ولكنى أجدها أقرب وصف للكلبية لما ارتبط به الهجاء فى شعرنا العربى من ترصد الأخطاء وتضخيمها ولما ينطوى عليه من قسوة غير انسانية على الخصم. وكم أتمنى ـ ونحن فى معرض الحديث عن أدب يحيى حقى الراقى ـ أن يأتى يوم نحذف فيه من مقررات تعليم الأدب فى المدارس قصائد الهجاء التى عجزت عمرى كله عن تذوق ما فيها من «أدب» يستدعى أن نتعلمها! فلو أننا ألغينا هذه القصائد من مناهج التعليم لجاز لنا أن نعرف أن الخصومة والاختلاف لا يعنيان السب والتجريح، ولا الكذب والادعاء على الخصوم بما ليس فيهم. سيصبح تذوق الأدب وإبداعه أقل كلبية وأكثر قربا من منهج يحيى حقى فى فهم الحياة والبشر.

ويتحدث كاتبنا عن الفكاهة التقليدية فى فصل بالغ العمق من كتابه «من باب العشم»، يصف نوع الفكاهة التى يرى أنها اندثرت من مجتمعنا مثل النكت اللفظية. فذات مرة من وقت طويل كان يسير فى الطريق حين استوقفه صاحبه سائلا «على فين» فرد «أنا رايح البوسطة» وقال لصاحبه «كده؟ أنا «بريد» أمشى معاك شوية ويعلق

يحيى حقى «أحسست أقسم لك أن قيدا انطبق فجأة على قدمى فامتنع عن السير، وأن دشا باردا قد اندلق فوق رأسى صمد له نخاع عظمي من أثر النكتة الباردة، أما هو فميت على روحه من شدة الضحك والإعجاب بخفة دمه وسرعة بديهته». أما الآفة الثانية التى كانت شائعة فهى القافية، وهى لا تكاد تخرج عن التلاعب اللفظى السابق، كأن يختار المتنافسان موضوعا واحدا هو أسماء البلاد ويقول أحدهما للآخر «أنا مسافر لبنها أما أبوك وحدك ـ إشمعنى؟ لطوخ ها ها ها». ويرى يحيى حقى أن من علائم رقينا أن الناس أصبحت لا تطيق النكات اللفظية ولا القافية. تلك النكات التى تعتمد مرة أخرى على الهجاء وافتعال الذكاء وتصدر عن حس غليظ لدى مبتدعها ولدى من يضحك لها على السواء. ولكم أذكر كلمات يحيى حقى عندما أشاهد الكثير من أعمال مسرحنا المسمى بالفكاهى، وأسأل نفسى إن كنا قد تخلصنا حقا من تلك النكات اللفظية؟

غير أنى أعرف أن المدرسة التى أسس لها يحيى حقى فى أدبنا الحديث فى ابتداع الفكاهة وتذوقها هى النقيض من ذلك تماما. فهى فكاهة النقد المبنى على المفارقة والمشرب بروح

التعاطف الانسانى (فلنذكر خطبة الفيضان مثلا). وهى تصوير عيوبنا الاجتماعية من منطلق الاشفاق والحب، لا بلسان السخرية والهجاء. هى دعاية الأب الحانى الذى يأخذ بيد ولده ليقول له هذا خطأ فلا تفعله مرة أخرى. لا سخرية المدرس القاسى من التلميذ الضعيف. الأولى تفيد والثانية تسحق.

وقد لا تكون كل العيوب التى رصدها يحيى حقى فى مجتمعنا وفى شخصياتنا قد اندثرت بفضل ما كتب (بل ولا كل العيوب التى رصدها الجاحظ من قبله). ولكن كيف يرتقى الإحساس العام وكيف ننفر من القبح واختلال القيم وتبلد الشعور إلا إن صورتها لنا تلك الأقلام العبقرية بقدرتها الفائقة على العرض أولا وعلى النفاذ إلى قلب القارىء ثانيا؟.. كيف نعرف بدون أن نقرأ يحيى حقى أن من بين ما نألفه فى حياتنا العصرية من مظاهر نراها عادية تماما إنما هى العار بذاته؟ وها أنا أنقل من الذاكرة من كتبه دون ترتيب خاص البعض من تلك المظاهر التى توقف عندها كيما ينبهنا: سخرية بعض الصحف فى عناوينها من المآسى الإنسانية إذ تكتب عن جريمة قتل مؤلمة «انتحر روميو بعد أن أطلق الرصاص على جولييت».. أو كتابة أسماء المتهمين فى الجرائم من الطبقات

الشعبية ثلاثيا ورباعيا في بعض الأحيان بينما تقتصر الإشارة إلى نظرائهم من الطبقات الأرقى على صفات مجهلة مثل «موظف كبير يقتل زوجته.. أو مهندس يعتدى على.. الخ» وكأن حماية سمعة الناس من التشويه رهن بوضعهم الاجتماعي.. أو اختفاء «الرفق بالحيوان» مع اختفاء السيدة الانجليزية التي كانت تجوب الشوارع لمنع الاساءة إلى الحيوانات.. أو أن ترى أسرة ميسورة الحال تتعمد أن تلبس خادمتها الصغيرة ثيابا مهلهلة لكي يفرق الناس بينها وبين أطفال الأسرة.. أو أن تسمع أما تقول أمام ابنها الصغير إنه جاء من قبيل الخطأ لأنها كانت اعتزمت التوقف عن الإنجاب، دون أن تدرك ما تحدثه تلك العبارة في نفس طفلها.. إلخ.. إلخ.. عشرات من المواقف التي تبدو صغيرة ومألوفة والتي لا نتوقف أمامها كثيرا ولكن عين يحيى حقي الفاحصة تلتقطها وقلمه القدير يفرضها علينا بكل قوة لكي يقول لنا يا أولادي هذا خطأ. فلعلنا نستجيب!

وأنا أشعر بالكثير من الأمل حين أرى رواج الطبعات الشعبية من أعمال يحيى حقي مثل خليها على الله وعطر الأحباب وغيرهما. أعرف أن ذلك يعني أن رسالة يحيى حقي الإنسانية ستصل إلينا جميعا. ربما في شيء من البطء ولكن بكل قدرتها على التأثير. أثق

أنها ستساعد على أن تكون حياتنا أفضل حين تختفى منها تلك الأشياء التى قال إنه يكرهها كل الكره «القبح والدمامة وفساد الذوق وثقل الظل وانعدام الحياء»..

لقد أعلنت منذ البداية أنى أهاب الكتابة عن يحيى حقى. أعرف أن أى مقال لا يمكن أن يحيط بعالمه أو أن يقدم للقارىء جوهره النقى. وربما كان ما هو أفضل من كتابة المقالات بكثير ذلك الجهد الذى بذله الناقد الكبير الاستاذ فؤاد دوارة لتجميع أعمال يحيى حقى وتبويبها لتكون فى متناول جمهوره. فذلك جهد حقيقى وملموس يتجاوز أية قدرة على الاشادة به. ولكنى أعتقد غير مبالغ أن فؤاد دوارة قد حصل على مكافأته الحقيقية برؤيته لتلك الأعمال المجموعة بالصورة المشرفة التى صدرت بها عن هيئة الكتاب. وأقول ذلك لما أعرفه عن حبه وتقديره لكاتبنا الكبير.

ونحن فى ذلك جميعا معه. فمصر كلها تبادل يحيى حقى حبا بحب وتقول له فى عيد ميلاده يوم ٧ يناير: كل سنة وأنت طيب وحفظك الله لنا أيها المعلم الكبير.

توفيق الحكيم :

ألغاز شهرزاد

كانت «أهل الكهف» و«شهرزاد» مدخل جيل بأكمله إلى الفن الدرامي - جيل عرف الدراما عن طريق القراءة قبل أن يعرفها على خشبة المسرح. ففي الأربعينات وأوائل الخمسينات لم يكن للحياة المسرحية وجود حقيقي وكانت هذه القطع الادبية تلهب خيالنا باعتبارها نماذج سامية لفن مفقود.

وحين كان يثار الجدل في ذلك الوقت عن مسرح توفيق الحكيم، وعن المسرح الذهني الذي يقرأ ولا يمثل، لم نكن نفهم المشكلة بالضبط. فقد كنا نجد في «أهل الكهف» و«شهرزاد» ما نجده في سائر المسرحيات العالمية التي أتيح لنا أن نقرأها من حوار رائع وفكر جليل.

والآن وقد مضت كل تلك السنين تواجه المرء مشاعر مضطربة حين يتعرض لنقد هاتين المسرحيتين.

على أن الانسان لا يستطيع أن يجعل من تجاربه وذكرياته الخاصة معيارا يحكم به على الأشياء حكما مطلقا.

فلماذا ينصرف الجمهور عن مشاهدة هذه الأعمال على المسرح؟ هل العيب من المسرحية، أو من المخرج، أو من الجمهور ذاته؟

لقد ترددت هذه الأسئلة بالفعل في أوساط المسرح والنقد وترددت أيضا اجابات سريعة بعد عرض مسرحية شهرزاد في منتصف الستينات. تردد أولا ذلك الاعتذار الكلاسيكي وهو أن شهرزاد مسرحية ذهنية تمتع القارىء ولكنها لا تصلح للتمثيل، وقيل العكس أيضا. إن عرض المسرحية كان ناجحا ولكنه فوق مستوى الجمهور. على أن كلا التبريرين يظل ناقصا وتبدو المسألة أكثر تعقيدا من ذلك.

فالحقيقة أن ذلك الاصرار التاريخى على الطابع الذهنى والفلسفى للمسرحية قد أرعب جمهورا كثيرا وأبعده عن المسرح سلفا. إن الجمهور العريض قد ظل لعشرات السنين يعتبر المسرح وسيلة ترفيه سهلة لا وسيلة ثقافة جادة. وقد ساعدت غيبة النقد الفني الجاد من صحافتنا الشعبية الواسعة الانتشار على تكوين

هذا الذوق السائد. فاذا كان المفروض ان يقوم النقد بدور الوسيط بين الفنان والجمهور وان يساعد على ايجاد ذوق فنى أرقى فان هذا الوسيط قد أثبت فشله. أما تلك الأحكام السريعة المبهمة، والعبارات التهكمية اللطيفة، وطرائف النجوم التى تنشر فى معظم صحفنا تحت عنوان النقد ـ فهى المسئولة عن رواج العملة الزائفة فى الفن وتوارى الاعمال الاصيلة.

ومرة أخرى فان هذا لا يعنى أن مسرحية شهرزاد كانت على المسرح خلقا كاملا، ولا يعنى أن المسرحية قد نجحت بينما سقط الجمهور كما قال البعض ـ ولكنه قد يفسر لنا عزوف الجمهور عن الاعمال الجادة بصفة عامة. ويبقى بعد ذلك أن نرى الجانب الآخر من الصورة ـ جانب المسرحية نفسها. تذخر المكتبة العربية بعديد من التفسيرات لمسرحية شهرزاد على ضوء الفلسفة، وعلم النفس، والتاريخ، والواقع الاجتماعى المعاصر. فلنقتصر اذن على محاولة فهمها على ضوء الدراما ـ أى باعتبارها علاقات بين شخصيات فى بناء من المواقف تنبع منه افكار معينة. فماذا تقدم المسرحية فى هذا الاطار؟..

إننا نتعرف أولا بثلاث شخصيات رئيسية: شهريار الملك، ووزيره

قمر، وأحد العبيد، ثم نتعرف بالشخصية المحورية التى تربط بينهم جميعا ـ شهرزاد. هم جميعا يدورون فى فلكها على نحو ما. العبد يفتنه «جسد شهرزاد» وقد جاء إلى المدينة من أجلها وكأن قدرا غلابا يسوقه ويدفعه إلى أن يلتقى بها. أما الوزير فهو مفتون بها على نحو آخر: ليس يعنيه جسدها ولكنه يرى أنها «قلب كبير» وهو يحبها من أجل ذلك ويرى أنها ما استطاعت ان تغير شهريار من همجى يفتك بالعذارى إلى انسان عاقل الا بفضل الحب. أما شهريار فلا يفتنه فى شهرزاد جسدها، وليس ما يجذبه اليها أيضا هو الحب. فقد تجاوز ذلك كله بعد أن انقضت الف ليلة وليلة فى متع الجسد ومتع الحب. انه لم يعد يريد شيئا من ذلك، بل يريد أن يعلم وأن يعرف سر الاشياء. وذلك البحث عن المعرفة الذى أودى بفاوست إلى التهلكة هو الذى يقض الآن مضجع الملك. فشهر زاد عنده «عقل كبير» يستعصى على الفهم، شأنها شأن الطبيعة التى تغلق دونهأسرارها.

ولقد كان الانسان البدائى فى كل دياناته وعباداته يربط بين المرأة والأرض (أو الطبيعة) فى وحدة لاتنفصم، وذلك لما فيهما معا من عطاء الخصوبة والميلاد. وهذا التوحد بين المرأة والحياة يؤكده

لنا توفيق الحكيم فى كلمة الربة ايزيس التى يصدر بها مسرحيته «أنا كل ما كان، كل ما يكون، كل ما سيكون ـ قناعى لم يكشفه بصر انسان».

على أن شهريار يريد أن يكشف هذا القناع ـ قناع ايزيس، والطبيعة، وشهرزاد. وهو فى طول حواره مع شهرزاد يمزج بينها وبين الطبيعة ـ الأم ويرى فيهما معا لغزا موحدا لابد له من النفاذ اليه.

فنحن نرى اذن منذ البدء أن شخصيات المسرحية تعبر عن مواقف محددة من الحياة ـ موقف المتعة الحسية المباشرة (العبد ـ الشهوة) ـ وموقف الايمان والعاطفة (الوزير)، وموقف المفكر الباحث عن المعرفة (شهريار) وكل من الثلاثة يعتقد أن موقفه هو الذى يصل به إلى الحقيقة، وكل منهم يرى حقيقته فى صورة شهرزاد، وهى بدورها تقول لكل منهم «أنت ترانى فى مرآة نفسك».

ولا تتيح المسرحية فرصة التطور للعبد أو الوزير، فكل منهما يتحجر على موقفه حتى النهاية: يظل العبد غارقا فى متع الجسد ويظل الوزير وفيا لايمانه وحبه حتى النهاية. أما علاقة شهريار بشهرزاد فتظل هى الموضوع المسرحى الاكثر اثارة للاهتمام.

فبحث شهريار عن الحقيقة يقابله التحدي والصمت من جانب شهرزاد التي ترفض أن تكشف له عن قناعها، ومن العالم الذي يوصد دونه سبل المعرفة فنحن نراه في أول المسرحية يبحث عن المعرفة عن طريق السحر والخرافة بعد ان عجز عن ان يعرفها عن طريق التأمل والنظر العقلي الصرف (وهي أيضا نفس تجربة فاوست الذي رفض العلم النظري ولجأ إلى السحر ليصل إلى الحقيقة ـ لجأ إلى السحر باعتباره نوعا من المعرفة غير العقلية وغير المنطقية للوصول إلى حقيقة تتجاوز العقل والمنطق) على أن شهريار يعجز بالسحر والقرابين البشرية عن أن يصل الي الاسرار التي يريدها ـ أسرار الوجود والحياة: أسرار شهرزاد.

وحين يفشل شهريار في هذه التجربة الجديدة يعود إلى شهرزاد منهارا ومتهالكا، بينما تبدو شهرزاد صلبة واثقة من نفسها وتسأله «هل كشف لك السحر والعلم عن سر واحد مما تتحرق لمعرفته من أسرار؟»

لم يكشف له عن شيء بالطبع، وظل شهريار كما كان في نقطة البدء يسأل شهرزاد:

ـ من أنت.. من تكون شهرزاد ؟.

ـ ابنة وزيرك السابق.

ـ أعرف أن وزيرى السابق انجب شهرزاد كما أعرف أن الله خلق الطبيعة كى لا يقال : إن شهرزاد بنت لقيطة وكى لا يقال : إن الطبيعة بنت المصادفة، لكنك تعلمين اننى لست ممن تقنعهم هذه الانساب.

لكن الجدل لا يفضى الى شيء، وحين يفشل شهريار ويهده التعب واليأس يراوده الحنين للرجوع إلى عهده الأول ـ عهد الحب والمتعة ـ ويتقرب إلى شهرزاد كامرأة وحبيبة، ولكن كلاهما يدرك الآن أنها محاولة يائسة وأن هذا العهد لا يمكن بعثه من جديد.

وهذا الموقف الذى يتضمنه المنظر الثانى من المسرحية يوشك أن يكون هو المسرحية بأسرها ـ «فشل شهريار فى الوصول الى المعرفة، وفشل شهرزاد فى استرداد شهريار» ـ على أننا نرى بعد ذلك تجسيدا دراميا ضافيا لهذا المعنى. فشهريار بعد أن أدرك فشل السحر والعالم، وبعد أن عجز عن أن يسترد براءته الأولى حين كان يكتفى بمعرفة الجسد والقلب ما زال يواصل سعيه المحموم وراء سر الاسرار.

ويختار شهريار الرحلة طريقا للمعرفة. يعلن أنه نبذ السحر

والتفكير معا، فيطرد الساحر من حياته ويقول لقمر «ما جنى أحد شيئا من الخيال والتفكير.. مضى ذلك العهد الساذج.. اليوم نريد الحقائق ياقمر .. نريد الوقائع .. أن نرى بأعيننا وأن نسمع بآذاننا».

وكأن شهريار يعلن بذلك أنه اختار العلم التجريبى من بعد العلم النظرى! وتحاول شهرزاد أن تثنيه عن الرحلة وأن تبعث فى نفسه الغيرة من وزيره قمر. فهى تلمح له إلى انها تريد أن يبقى قمر كى تبوح له بسرها وتقول لشهريار «يقال إن رجلا بقلبه قد يصل إلى ما لا يصل اليه آخر بعقله»- ولكن شهريار لم يعد يثق بمعرفة القلب، فيمضى فى رحلته ويتبعه قمر.

على أن ما يعجز عنه السحر تعجز عنه التجربة أيضا . فالرحلة فى العالم تفشل فى أن تكشف لشهريار ما عجزت عنه الرحلة داخل نفسه وعقله. وهو يقول بعد رحلته الخائبة «ما أنا إلا ماء.. هل لى وجود حقيقى خارج ما يحتوى جسدى من زمان ومكان؟ حتى السفر والانتقال إن هو إلاً تغيير اناء بعد اناء. ومتى كان فى تغيير الاناء تحرير للماء؟».

وبينما يتعثر شهريار فى رحلته الخائبة تهب شهرزاد نفسها للعبد المفتون بها الذى ظل يحوم حول قصرها . وهى تعلن له أنها

تحبه ولكن العبد تساوره الشكوك فى ذلك وتساوره المخاوف من عودة شهريار: أليس هو «الذى ذبح فى الفراش زوجه الأولى وعشيقها الاسود»؟ ولكن شهرزاد تجيبه وكأنها تجيب نفسها «ذلك شهريار الاول.. أما شهريار الآن فانسان آخر.. آدمى استنفد كل ما فى كلمة جسد وكل ما فى كلمة مادة من معنى».

حين يعود شهريار نرى مصداق ذلك الحكم. فلقد انتهى شهريار من دورته القصيرة. أدرك الآن الا مخرج له، والا سبيل له إلى معرف شىء خارج حدود الزمان والمكان طالما هو مقيد بهما. أدرك مرة وإلى الأبد لا سبيل له إلى أن يصبح «روحا» تلتقى بالروح الكلية للأشياء.

ويسمع شهريار بنبأ خيانة شهرزاد قبل أن يلقاها فيتلقى الخبر فى هدوء بينما يثور قمر ويضطرب كيانه كله. وحين يعودان إلى القصر ويثبت نبأ الخيانة يقتل قمر نفسه: لم تعد له حياة بعد أن تزعزع ايمانه. أما شهريار فيعفو عن العبد، وترتاح شهرزاد لذلك. تعلن ان خيانتها كانت نوعا من التضحية وأنها كانت تتمنى أن يثور شهريار ويقتلها هى والعبد كما فعل بزوجته الاولى التى فاجأها فى احضان العبد.

كانت شهرزاد تتمنى أن يعود شهريار إلى حياة البشر بعد أن تخلى عن آدميته ولم ينجح فى أن يجد بديلا لها ولا فى أن يسمو عليها ، ولكنها تدرك الآن أن تضحيتها ذهبت هباء. وان شهريار الذى بحث عن الخلاص بعقله وفكره، والذى يسعى إلى أن يتجاوز وضعه الأرضى والإنسانى ليقتطف ثمار شجرة المعرفة المقدسة والمحرمة قد أهلكه طموحه وأضاعه.

فى هذا النسيج الدرامى المتشابك يبدو لنا إذن ان توفيق الحكيم يعرض علينا مأساة الخطيئة الأولى مأساة التمرد على محدودية الوضع الانسانى وقصور الانسان. وتبدو شهرزاد بصورة مؤكدة مرادفة لفكرة الحياة أو الطبيعة ـ الحياة التى يستطيع الانسان أن ينغمس فيها بجسمه وأن يستمتع بها بحواسه كما فعل العبد، أو يستطيع أن يندمج فيها بعاطفته وايمانه كما فعل قمر ـ ولكنه يستحيل أن يحيط بها بفكره وحده أو أن ينعم بوجوده فيها إلاّ اذا قبل وضعه البشرى بحدوده وقصوره.

ومن السهل ان يقال والحال كذلك ان المسرحية هجوم على العقل والعلم، ولكننا لو تأملنا قليلا فى منطق العمل ذاته دون أن نقحم عليه افكارا من الخارج لوجدنا أن المسرحية هى فى ناحية

من نواحيها دعوة إلى التوازن والتعادل (إذا ما استعملنا كلمة الحكيم المفضلة) فانه اذا كان شهريار شقيا بعلمه وعقله فان قمر ايضا ليس سعيدا بحبه المطلق والأعمى، بل ان هذا الحب يهلكه فى النهاية. كذلك فان العبد لا يحظى بأى عطف فى المسرحية. واذا كانت شهرزاد تقبله فإنها تنعته فى نفس الوقت بالقبح والوضاعة، ولكن الحياة تقبل الشهوة (أو الغريزة والمتعة الحسية) باعتبارها قوة لها وجودها الذى ينبغى الاعتراف به وقبوله ويبدو فى نهاية الامر أن واحدا من المواقف الثلاثة لا يحظى بقبول مطلق من شهرزاد. وهى وإن كانت تدين جموح العقل أكثر ما تدين الا انها لا تقر أيضا دون تحفظ جموح الشهوة ولا جموح العاطفة. وهى وإن كانت لا تبوح صراحة بإن نوعا من التوازن بين هذه القوى هو الذى يحقق الخلاص إلا انها تلمح الى ذلك تلميحا قويا بموقفها من الشخصيات الثلاث الذى يتضمن القبول من جانب، والتحفظ من جانب آخر، مهما تفاوتت درجة التحفظ أو القبول.

وهذه النتيجة اقرب إلى أن تستقيم مع تفكير توفيق الحكيم وفلسفته التى نستطيع أن نستشفها فى أعماله.

ومن الواضح أن هذا التفسير المستمد من النص وحده لا يلغى أو ينفى أى تفسير آخر. فمن حق أى إنسان أن يفهم المسرحية وان

يفسرها كما يشاء.فاذا كان هذا الانسان هو مخرج المسرحية فان حقه فى حرية التفسير يبدو بلا حدود. ولكن لنا بعد ذلك ان نحاسبه على ضوء اعتبارات معينة: أهمها أن يكون تفسيره مقنعا، وألا يكون فى وجه معارضة صريحة من النص وان ينجح فى حل مشاكل المسرحية الفنية.

وقد فسر الاستاذ كرم مطاوع المسرحية عند عرضها تفسيرا جديرا بالاهتمام - فقد جعل شهريار هو الشخصية المحورية، وجعل سائر الشخصيات الرئيسية وجوها أو أقنعة مختلفة لشهريار. فشهرزاد بصورتها التى تبدو بها فى العرض المسرحى هى من خلق شهريار أو هى تجسيد لجانب من جوانب نفسيته أو فكره (يبدأ العرض المسرحى بما يشبه رقصة تعبيرية تصور تخبط شهريار وحيرته فى دائرة مغلقة، ثم تظهر شهرزاد فجأة كما لو كانت انبعاثا من جوف شهريار أو عقله). أما العبد وقمر فهما فى العرض المسرحى ايضا وجهان آخران لشهريار الموزع النفس ما بين قوى مختلفة (وقد يكون أدق من ذلك ان نقول انهما مرحلتان من مراحل وجود شهريار) ولكى يوضح المخرج هذه الفكرة فهو قد وحد رداءهما الخارجى مع رداء شهريار، وفعل ما كنت أحب أن يتجنبه

اذ كتب بالفعل كلمة «شهريار» في زخرفة على صدريهما . كذلك فقد ركز المخرج الحركة المسرحية فى قرص دوار مغلق ليؤكد فكرة التوحد ما بين شهريار وبقية الشخصيات التى تعبر عن جوانبه المتعددة ، وليوحى من ناحية أخرى بفكرة الدائرة المغلقة التى يدور شهريار فى نطاقها .

وعلى ضوء هذا العرض الموجه للمسرحية ، فإنه يبدو أن شهريار الذى نبذ من حياته فكرتى الشهوة والعاطفة يعانى لانه لا يستطيع أن يتحول إلى فكرة جديدة تحقق خلاصه . وهنا يلتقى تفسير المخرج إلى حد ما مع التفسير الذى يوحى به نص المسرحية ، ولكنه سرعان ما يفترق عنه افتراقا جوهريا . فشهرزاد فى العرض المسرحى لبست شخصية أو فكرة محددة ، ولكنها تجسيد لبحث شهريار عن فكرة جديدة ، أو هى محاولة لايجاد بديل لفكرتى الشهوة والعاطفة المرفوضتين من جانب شهريار . أى أن شهرزاد فى تفسير المخرج هى قوة أو فكرة لم تتشكل بعد فى داخل نفس شهريار ، وهو يصارع لتشكيلها وصياغتها ، ولكنه لا ينجح حتى نهاية المسرحية فى الخروج بها عما يسميه أرسطو بالهيولى (أو الشىء بلا قوام أو تحديد) . وكانت هذه هى مأساة

شهريار لأنه لم ينجح أيضا فى أن يخرج من أثوابه الأولى التى يجسدها العبد والوزير ، وكان هذا الفشل هو ضياعه ومأساته .

وأول ما يلفت النظر في هذا التفسير هو ذلك الطابع الخصوصى البحت لمأساة شهريار فى نطاقه . فمهما يكن اختلافنا فى فهم المسرحية إلاّ أنه من الواضح والمؤكد أن المآسى والمسرحيات الجادة عموما - لا تهتم بالمشاكل الفردية أو الخصوصية إلا على أساس أنها تومىء لمواقف ومعان أكبر .

ومسرحية شهرزاد بالذات تطمح كما يبدو إلى عرض مأساة الوجود الإنسانى فى شمولها وعموميتها إذ تطرح المواقف الإنسانية المتباينة من الحياة وتوضح قصورها . فإذا نحن اختزلنا هذه المواقف ، وألغينا تفرد الشخصيات التى تمثلها لم يعد للمسرحية إلا معنى جزئى ومبهم وهذه عندى هى الغلطة الرئيسية فى إخراج المسرحية . فإن المخرج حين ألغى الوجود المستقل لشهرزاد ثم للعبد وقمر، وحين أحالهم جميعا الى رموز القوى المتصارعة والمتناقضة فى داخل شهريار، قد حول المسرحية إلى مشكلة فردية بحتة هى مشكلة شهريار الباحث عن معنى وجوده.

ولكن أليست مشكلة البحث عن الذت مشكلة انسانية عامة تثير اهتماما عاما؟

نعم، انها كذلك، والأدب المسرحي غني بالنصوص التي تعبر عن هذه المشكلة، ولكنها تعبر عنها لأنها كتبت لهذا الغرض، أما أن تلوى عنق نص معين كي يعبر عن هذه المشكلة تعسفا وقهرا فهذا ما أثبتت التجربة استحالته، فمسرحية شهرزاد لا يسعها أن تعبر في نطاقها الخاص عن هذه المشكلة ـ لأن بناءها موجه لايضاح علاقة شهريار بالخارج وليس بالداخل، ولأن ما يقهر شهريار هو صمت هذا العالم الخارجي وعدم استجابته (وصمت شهرزاد)، وليست صراعاته الداخلية. ومن أجل ذلك فان المسرحية لا تطلعنا على شيء من حياة شهريار الداخلية والروحية الخاصة كانسان فرد وانما تطلعنا عليه كرمز أو كموقف انساني عام بدون قسمات ذاتية متفردة. ومن أجل ذلك فان المخرج حين حول مركز الاهتمام من هذا الموقف العام موقف الانسان الباحث عن الخلاص والمعرفة بفكره وعقله) ليركز على مشكلة الانسان الفرد الذى يمزقه البحث عن معنى وجوده ـ لم ينجح في ان يثير اهتمامنا بهذه المشكلة اذ ليس في النص ما يساعده على ذلك. ومن ناحية أخرى فان هذا التركيز

قد أضاع الابعاد الاخرى للمسرحية التى كان يمكن اكتشافها لانه استخدم كل عناصر الاخراج لاثبات فكرته.

وقد كان من الممكن ألا يحدث ذلك لولا أن مسرحية شهرزاد بالذات تعانى من قصور معين فى هذه الناحية. ولا أريد أن أكرر هنا تلك المآخذ التقليدية على المسرح الذهنى ـ كاختفاء الحدث وبطء الحركة، وتجمد الشخصيات وغير ذلك. فليست هذه فى الحقيقة هى المشاكل الرئيسية بالنسبة لمسرحية شهرزاد وقد عرفنا مسرحيات كثيرة يختفى منها الحدث والحركة والشخصية المتطورة ورغم ذلك فهى تنجح عند عرضها على المسرح. (ولنذكر هنا مسرحيات العبث التى كتبت بعد شهرزاد بعشرين عاما أو أكثر من ذلك). ولكن المشكلة الرئيسية فى مسرحية شهرزاد فى رأيى هى أنها مبهظة بالافكار، فالحوار ينتقل من فكرة الى فكرة قبل أن تتاح فرصة إنسانية كافية للاستيعاب والتمثل، ولما كان البناء كله بناء فكريا، ولما كانت الافكار لاتنبع من مواقف ولكنها تتولد من بعضها البعض فإنها تتطلب من المتفرج طاقة تركيز لا يمكن أن تتأتى الا بتفريغ من نوع ما. ونحن نلاحظ فى معظم مسرحيات العبث مثلا التى تعتمد فى أغلب الامر على الافكار وحدها ـ أن

هناك ارتباطا يكاد يكون دائما ما بين الفكر والفكاهة. هى فى معظم الأحوال فكاهة مريرة وقاتمة نعم، ولكنها تتضمن أيضا نوعا من الترويح أو التفريج.

ومشكلة شهرزاد ومسرح الحكيم هى بالضبط ذلك الافتقار إلى الترويح وإغفال المتفرج وحدود طاقاته بدون مبرر معقول!.. ولهذا فهو يظل بحيث أراد: بعيداً، في جليد البرج العاجي!

الكاتب.. الكلمة.. الموقف..

بهاء طاهر

جمعنى ويحيى الطاهر عبدالله أكثر من سبب. كنا من قرية واحدة، من الكرنك، فى أقصى الصعيد. نزح أبى منها الى القاهرة وراء عمله وأسرته معه، وجاءها يحيى، وحيدا بطوله، ليحقق ذاته وليبدع رسالته. وكنا، كلانا، نكتب القصة ونتحرك فى وسط واحد وتشغلنا هموم واحدة. وكان يحبنى وكنت أحبه. ولكن بعد هذه العناصر للالتقاء فان يحيى كان انسانا وكاتبا منفردا وأصيلا، لا يشبه احدا فى شىء.

عرفته فى أواسط الستينات عندما جاء من الكرنك للقاهرة، وظهر فى وسط الكتاب، غريبا فى كل شىء. رفض، بداءة المدخل المألوف لكاتب ناشىء أن يرتكن الى وظيفة مأمونة تدر دخلا مأمونا، فى الحكومة أو فى احدى الصحف، لتتهيأ له الكتابة بعد ذلك. قال لنا منذ البداية أنا كاتب قصة، ورفض أن يكون شيئا

آخر. ولم يختر يحيى المسلك المألوف ولا المظهر المألوف للكتاب الموظفين؛ السترة المحترمة وربطة العنق المحترمة المحشورة فى ياقة محكمة خانقة. كان يحيى يلبس باستمرار القميص والبنطلون، فإن جاء الشتاء لبس فوق القميص (بلوفر) من الصوف وانتهى الأمر. ولم يغير على مدى عمره القصير شيئا من مسلكه أو مظهره. فهذه الجزئيات الصغيرة كانت تعكس فيما أرى شيئا جوهريا فى شخصية يحيى وفى رسالته وأدبه. ذلك الرفض الكامل للتأقلم، والدخول فى القوالب الجاهزة، وذلك الحرص، بل ذلك الايمان، بالحرية الداخلية. بألا يكون الانسان شيئا آخر غير نفسه الحقيقية.

يحدثنا يحيى فى حكاية عبدالحليم افندى فيقول: «راهن الولد انداده، قال ـ ما قولكم لو عبرت النهر من الشرق الى الغرب وعدت قبل أن تجف تفلتى؟ رد الاولاد، نسميك البطل.. ونحكى حكايتك لكل الناس. قال الولد: لا.. قولوا عبدالحليم افندى راح وعبدالحليم افندى جاء.. لقبونى بالافندى.. ونادونى يا افندى. ضحكوا الاولاد، واقالوا أمرك يا افندى تمام يا افندينا».

ولكى يصبح عبدالحليم، القروى الصغير، افنديا، لكى يدخل فى القالب المرموق فانه يبيع نفسه، جسدا وروحا، للانجليز الذين

حلوا بالقرية الصغيرة، ثم لمن خلفهم من الاسياد. وهو لا يستيقظ على زيف وضعه الا فى نهاية متأخرة، فيشق ثوب الافندى ويعود بعد فوات الاوان، إلى حضن امه.

وحين يخضع الانسان للمواضعات الاجتماعية المفروضة، حين يبيع نفسه لها مضحيا بحريته الداخلية مثلما فعل عبدالحليم فانه لا يفقد احترامه لنفسه فحسب بل انه يكاد، بل انه بالفعل يفقد وجوده ذاته ككائن انسانى حى. وتلك هى الرسالة فى قصته ٣٥ البلتاجي ٥٢ عبدالخالق ثروت، تلك القصة التى شدت انتباه كل من كتب عن يحيى. فعباس الدندراوى يحاول يائسا أن يتمرد على وضعه، على الاطار الصغير المفروض عليه فى عمله وفى سكنه، ولكن محاولاته كلها تنتهى بالهزيمة وعودته للاطار. «ردد عباس استبينا.. استبينا.. قالها لنفسه الف مرة كالورد بعد الصلاة، كأنها الهزيمة أبدا. كأنها صلاة الدوام، كأنه لا حل الا أن يقتل الآخر أو يعالجه الموت فيموت وتموت استبينا معه. ثم نأتى فى ختام القصة إلى ذلك المقطع الغريب حيث يذهب عباس الدندراوى إلى قسم البوليس ليبلغ عن موته الشخصى. ويقول للمحقق عن نفسه «كان مشاكسا.. كان طوال سبع سنوات يلوح براية العصيان

ويقول القانون معى، وعندما ينهزم يركع ويصلى ويتمتم بالورد استيبنا .. ولانى لا أطيق الكلمة قتلتها وقتلته». وعندى أن ذلك ليس قتلا معنويا، ولكنه بالفعل المصرع النهائى للذات الانسانية المتفردة، فى اطار التوافق والتأقلم، والذى كان يحيى الطاهر يحذرنا منه بعمله ونموذجه، سلوكا وفنا.

والخوف، الذى يبدع يحيى الطاهر فى تصوير حضوره الثقيل، هو نتيجة اخرى لقمع الحرية الداخلية للانسان. وقد يدفع الانسان ثمنا غاليا ليقهر الخوف ولكنه الثمن الملائم ليعيش حريته، أو ليعيش، بمعنى الحياة عند يحيى الطاهر عبدالله، الحياة التى تستحق أن تعاش. تقول الضريرة فى قصة العالية محذرة محمدانى من طلوع النخلة السامقة الملساء «يا محمدانى لا تطلع العالية.. اليوم يوم الريح القديمة التى عرفها الجدود.. ستكون هذه المرة كالخيل لما تجمح.. ستكون لها حوافر واعراف من نار.. ستهدم بيتين وتحرق بيتين وتأخذ رجلا».

ولكن محمدانى يذهب.

«شعر بنفضة عرق الخوف عند الرجال، الكامن تحت الصدغ. قال: «لن أخاف العالية.. تلك المرأة هى التى زرعت فى نفسى

الخوف من العالية.. لن تخيفني امرأة.. لقد خلقت المنجمة الخوف ليعرف القلب الرجفة.. وها أنا أرى الريح أخف من يد العاشق تعبث بجريد العالية في حنو.. ما رجمت العمياء بالغيب مرة إلا وصدقت لكن يكذب المنجمون.. وشد محمداني الحبل على جذعه وشده على جذع العالية وثناه وثلثه...».

ولا تحدثنا القصة بعد ذلك إن كان محمداني قد نجح في تسلق العالية أم لا، ولكن هذا لا يهم فهو قد حقق نصره وحياته منذ ثنى الحبل وثلثه وبدأ الصعود. وهؤلاء الاشخاص الذين لا يخافون العالية، هؤلاء الاحرار الذين يرفضون التأقلم مع الخوف والاصغاء لصوته يحيط بهم دائما نوع من البشر ، نوع من الحضور القوى الطاغي في قصص يحيي الطاهر عبد الله . فالبكرى في قصته «حكاية صيف» يصمم على أن يسترد الأرض التى سرقوها من جده ،

«قالت الأم (للبكرى) : أبوك رحمة الله عليه كان طيبا ، يمشى في حاله ، ويطلب من الحوائط أن تداريه ، والكونت يا ولدى اشترى الأرض من جدك بماله «رد البكرى : جدى كان يسكر وكان يقامر – وتلك شيمة الرجال ، ولكن بأى حق يرث الغريب الأرض ... سأمنعه بعصاي هذه من زراعة الأرض» .

ذلك فيما أرى محور رئيسي فى عمل يحيي الطاهر: حياة وفنا ، إعلاء حرية الإنسان الداخلية التى يفضى قمعها إلى ضياع الذات المتفردة وقتلها ، إلى قتل الإنسان فى الإنسان ، والتى تتحقق بدورها بأن يقمع الإنسان خوفه من العالم الخارجى وعوامل الخوف فيه . ومهما كان الثمن الذى سيدفعه فهو الرابح فى النهاية لأنه سيعيش الحياة الحقة الجديرة بالإنسان .

ويرتبط بذلك أيضا فى عمل يحيي الطاهر حياة وفنا - ذلك التوق للحب والتضامن بين البشر . أذكر جيدا عندما جاء يحيي الطاهر إلى القاهرة : كان الوسط الأدبى فى الستينات يتشكل من مجموعات منغلقة على ذاتها من الكتاب . يتمركز كل كاتب حول مجموعة من زملائه وينتشر الشك ، وهو ألطف تعبير ممكن ، بين هذه المجموعات . ولابد أن يحيي قد عانى كغيره، أو أكثر من غيره، وهو الوافد الجديد ، من هذا التمزق وهذا الشك . ولكنه استطاع وكأنما بمعجزة ، أن يحلق فوق هذه المجموعات كلها وأن يبسط عليها جناحين من حبه . كانت كلمة أو لازمة «يا أخويا» التى كانت مدخله لكل حديث هى أيضا مدخله لكل القلوب .

وهذا محور رئيسى آخر فى تراث يحى الطاهر عبد الله ، حياة وفنا ، الحب والتضامن وقد لا أقتبس هنا قصة واحدة أو أكثر من قصص يحيي الطاهر . فإن كل قصصه تتضمن ذلك الحنين للتوحد ولعالم مؤتلف بعلاقات من الحب والمودة .

يقول الضيف فى قصة « العالية» للجد حسن «من تمر تلك النخلة المسماة بالعالية أكل جدودنا وجدودك ووالدك وأبى عليهم رحمة الله ... ومنها بإذن الله نأكل أنا وأنت ... انه العهد القائم بين الرجال» . ويصدم يحيى أن يتآكل ذلك العهد القائم بين الرجال ، ألا يكون تضامنهم قائما وحقيقيا . فى قصة «معطف من الجلد» يلجأ الصديق المطارد إلى صديقه ليأويه ويقول عنه «محمد شهم ... فلاح بما تحوى الكلمة . كان صديقى يقول هذا وعينه لا تفارق الوشم المنقوش على صدغ محمد» وعندما عجز محمد عن أن يمد يده لصديقه فى محنة قال الراوى فى القصة «قلت . سأبحث عن مكان آخر ... كنت أنظر إلى الوشم الأخضر على صدغه وكأننى أتعلق به».

يقول فى قصة «اليوم الأحد» ستموت هى وأنا وأنت «فجأة» وهى تعرف والحياة فرصتنا فلماذا ؟

انه يطرح السؤال وعلينا أن نجيب ...

ولكن بالرغم من خيبة الأمل أحيانا فإن يحيى كان يبشرنا بحياته وفنه أن ذلك التضامن الحق بين البشر آت وكذلك الحياة الحقة .

ليست هذه كلمة نقدية عن قصص يحيى الطاهر عبد الله . ولا هى رثاء له . وإنما هى كما قلت منذ البداية ، وكما كررت أكثر من مرة ، محاولة لأن أقول : إن الكلمة والموقف فى حياة يحيى كانا شيئا واحدا ومتطابقا . وحين نقول ذلك عن كاتب فإن أفضل تكريم له هو أن نعلى القيم التى بشر بها وأن نعمل ما نستطيع لنجسدها كما فعل هو : لكى يتحقق عالم الإنسان الحر ، المتحد بأناس أحرار ، والذى كرس يحيى حياته لكى يكون .

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٥٢٧٨

I . S . E . N

977 - 07 - 0268 - 4

الفهرس

هذا الكتاب

تدور فصول هذا الكتاب فى فلك اهتمامات واحدة انشغل بها بهاء طاهر فى أعماله القصصية وفى أبحاثه على السواء وهى الحرية ، ودور المثقف فى المجتمع والعلاقة بالآخر ، والصلة بالغرب ، وهو يعبر هنا بأسلوبه المميّز عن رؤيته لمسيرة التنوير منذ قيام الدولة الحديثة وحتى اليوم . ويثبت أن المثقفين لعبوا أهم الأدوار فى إحداث التغيير الفكرى الذى قاد مصر خطوة خطوة رغم الهزائم والانكسارات لتصبح فى كل مرحلة أفضل مما كانت عليه من قبل .

ولم تكن الثقافة الحديثة اقتباساً مباشراً من أوروبا كما يزعم البعض . بل هى قد تبلورت من خلال الصراع مع الغرب فى معظم الأحيان ، وكانت ثقافة التنوير عودة إلى الثوابت الثقافية للشخصية المصرية ولإحياء القيم النبيلة فى حضارتنا الإسلامية التى طمستها عصور الظلام المملوكية العثمانية ، سعياً إلى تأكيد ذاتية ثقافية مستقلة.

والتحدى الحقيقى أمام مجتمعنا اليوم هو أن يستكمل بناء الحرية الذى ناضلت من أجله أجيال المثقفين المتعاقبة منذ الطهطاوى وحتى يوسف إدريس ومن بعده .. أولئك الذين تضىء أعمالهم وأقوالهم صفحات هذا الكتاب مثلما أضاءت حياة الوطن .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها فى ج.م.ع
تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ
البلاد العربية ٢٥ دولاراً ـ أمريكا وأوربا وآسيا
وأفريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة
دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية
بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

